مجمع القرآن الكريم بالشارقة

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

المُجَلَّدُ الثَّانِي والأَرْبَعُونَ

سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَة التَّفْسِيرِ البَلَاغِي

المُجَلَّدُ الثَّانِي والأَرْبَعُونَ

سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 8-93-732-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 8-93-732-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ العِشْرُونَ

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤﴾ [العنكبوت: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

زَجْرُ المشركينَ بعدَ تثبيتِ المؤمنين

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها وجوهٌ، منها: أنَّهُ أعقبَ تثبيتَ المؤمنينَ - على ما يصيبُهم مِنْ فُتونِ المشركينَ وما في ذلكَ مِنَ الوعدِ والوعيدِ - بزَجْرِ المشركينَ على ما يعملونَهُ مِنَ السَّيِّئاتِ، وأعظمُ تلكَ السَّيِّئاتِ فُتونُهم المسلمينَ[1].

ومنها: لمّا بيَّنَ سبحانَهُ حُسْنَ التَّكليفِ بقولِه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾؛ بيَّنَ أنَّ مَنْ كُلِّفَ بشيءٍ، ولم يأتِ به؛ يُعذَّبُ في الحالِ أو في الاستقبالِ[2].

ومنها: لمّا أثبتَ سبحانَهُ علمَهُ الشّاملَ وقدرتَهُ التّامَّةَ في الدُّنيا؛ عادلَهُ بما يستلزمُ مِثلَ ذلكَ في الآخرةِ، والمعنى: أَحَسِبَ النّاسُ أنّا لا نَقْدِرُ عليهِم، ولا نعلمُ أحوالَهم في الدُّنيا، أم حَسِبوا أنَّ ذلكَ لا يكونُ في الأخرى؟[3].

ومنها: لمّا أنكرَ سبحانَهُ على النّاسِ عمومًا ظنَّهم الإهمالَ؛ علمَ أنَّ أهلَ السَّيِّئاتِ أولى بهذا الحكمِ، فكانَ الإنكارُ عليهِم أشدَّ[4].

ومنها: الانتقالُ عن التَّوبيخِ بإنكارِ حِسْبانِهم متروكينَ غيرَ مفتونينَ إلى التَّوبيخِ بإنكارِ ما هو أبطلُ مِنَ الحِسْبانِ الأوَّلِ، وهو حِسْبانُهم ألّا يُجازَوا بسيِّئاتِهم[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 206.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 27.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 391.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 391.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 30.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡبِقُونَاۚ﴾: (سبق) أصلٌ يدلُّ على التَّقدُّم[1]، وأصلُ السَّبق: التَّقدُّمُ في السَّيرِ، ثمَّ يُعبَّرُ به عن التَّقدُّمِ إلى الأشياءِ أعيانًا كانَتْ أم معانيَ[2]، ويُستعارُ لإحرازِ الفضلِ والتَّبريزِ، وعلى ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10]، أي: المُتقدِّمونَ إلى ثوابِ اللهِ وجنَّتِهِ بالأعمالِ الصّالحةِ[3]، ومعنى قوله: ﴿أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾: أنْ يَفوتونا[4].

2) ﴿سَآءَ﴾: السّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ، ومِنَ الأحوالِ النَّفسيَّةِ والبدنيَّةِ، والخارجةِ مِنْ فَواتِ مالٍ وجاهٍ، وفقدِ حميمٍ، قالَ تعالى: ﴿بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ [القصص: 32]، أي: مِنْ غيرِ آفةٍ بها، وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النحل: 27]، والسَّيِّئَةُ: الفَعْلَةُ القبيحةُ، وهي ضدُّ الحسنةِ، و(ساءَ) يَجْري مَجْرَى (بئسَ) في الذَّمِّ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذمُّ مَن ظنَّ أنَّهُ يُعجِزُ اللهَ

بل أحَسِبَ الَّذينَ يعملونَ السَّيِّئاتِ أنْ يُعجِزونا، فيَفوتونا بأنفُسِهم، فلا نَقْدِرَ عليهم، فننتقمَ منهُم؟ ساءَ حكمُهم هذا الَّذي يحكمونَهُ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَمۡ﴾:

الجمعُ بين الإضرابِ الانتقاليِّ والاستفهامِ الإنكاريِّ

﴿أَمۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ منقطعةٌ، فتُقدَّرُ بـ (بل) والهمزةِ، والإضرابُ فيها انتقالٌ[7]، والانتقالُ عن التَّوبيخِ بإنكارِ حِسْبانِهم متروكينَ غيرَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤَصَّل: (جبل).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (سبق).
(3) الراغب، المفردات: (سبق).
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 440.
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سوأ).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 10.
(7) السمين، الدر المصون: 9/ 8.

مفتونينَ إلى التَّوبيخِ بإنكارِ ما هو أبطلُ مِنَ الحِسْبانِ الأوَّلِ، وهو حِسْبانُهم ألّا يُجازَوا بسيِّئاتِهم[1]، والاستفهامُ المُقدَّرُ إنكاريٌّ[2].

وقيلَ: ﴿أَمْ﴾ معادلةٌ للألفِ في قولِه: ﴿أَحَسِبَ﴾ وكأنَّهُ سبحانَهُ قرَّرَ الفريقَيْنِ: قرَّرَ المؤمنينَ على ظنِّهم أنَّهم لا يُفتَنونَ، وقرَّرَ الكافرينَ الَّذينَ يعملونَ السَّيِّئاتِ في تعذيبِ المؤمنينَ، وغيرِ ذلكَ على ظنِّهم أنَّهم يسبقونَ عقابَ اللّهِ، ويُعجِزونَهُ[3]، ورُدَّ: بأنَّها ليسَتْ معادلةً للألفِ في ﴿أَحَسِبَ﴾؛ لأنَّها إذ ذاكَ تكونُ متَّصلةً، ولها شرطانِ: **أحدُهما**: أنْ يكونَ قبلَها لفظُ همزةِ الاستفهامِ، وهذا الشَّرطُ موجودٌ هنا، **والثّاني**: أنْ يكونَ بعدَها مفردٌ أو ما هو في تقديرِ المفردِ، وهنا بعدَها جملةٌ[4].

توجيهُ الحِسْبانِ في: ﴿أَمۡ حَسِبَ﴾:

اعتقادُ الَّذينَ يعملونَ السَّيِّئاتِ ما يُساوي هذا الحِسْبانَ

جملةُ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ تقتضي أنْ يكونَ هذا الحِسْبانُ واقعًا منهُم، ومعنى وقوعِهِ: أنَّهم اعتقدوا ما يُساوي هذا الحِسْبانَ؛ لأنَّهم حينَ لم يستطعِ المؤمنونَ ردَّ فتنتِهم قد اغترّوا بأنَّهم غَلَبوا المؤمنينَ، وإذ قد كانَ المؤمنونَ يدعونَ إلى اللّهِ، فمَنْ غلبَهم؛ فقد حَسِبَ أنَّهُ غلبَ مَنْ يدعونَ إليهِ[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

الدلالةُ على العمومِ عند التسجيلِ على سوءِ صنيعِهم

اسمُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من صيغِ العمومِ في اللُّغة، فيشملُ كلَّ عاملِ سيئةٍ، فهي تشبهُ كلمةَ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾، أو مُرادٌ بها عصاةُ المسلمين، فيكون العمومُ لهم، أو مُرادٌ بها الكافرون الذين يفتنون المؤمنين، فيكون العمومُ لهم.

فقد قيلَ: التَّعبيرُ بالموصولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 30.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 207.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 306.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 340.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 207.

﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾؛ للتَّسجيلِ على سوءِ صنيعِهم، ولذا أُقيمَ الظّاهرُ مُقامَ المُضمَرِ[1]، وهذا مبنيٌّ على أنَّ المذكورينَ في هذهِ الآيةِ هم المذكورونَ فيما قبلَها، ولذا لم يقل: (أم حَسِبوا).

وقيلَ: قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وإنْ كانَ المقصودُ الأوَّلُ بِهِ الكفّارَ، فإنَّ لفظَ الآيةِ يعمُّ كلَّ عاصٍ وعاملِ سيِّئةٍ منَ المسلمينَ وغيرِهم[2]، فيكونُ التَّعبيرُ بالموصولِ لإفادةِ العمومِ، وقيلَ: المرادُ بالَّذينَ يعملونَ السَّيِّئاتِ الفاتنونَ للمؤمنينَ، وفي الآيةِ وعيدٌ لهُم بأنَّ اللّهَ لا يُفلِتُهم، وفيها زيادةُ تثبيتٍ للمؤمنينَ بأنَّ اللّهَ ينصرُهم على أعدائِهم[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

الـدَّلالـةُ على استمرارِ العملِ وتجدُّدِهِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ عملِ السَّيِّئاتِ وتجدُّدِهِ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ الإنكارِ؛ لِما تُنبِئُ عنهُ الصّيغةُ مِنْ كونِهم لا يَرْعَوونَ عمّا هم مُنغمِسونَ فيهِ منَ القبائحِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعملِ دونَ الفعلِ:

عملُ المذكورينَ للسَّيِّئاتِ مقرونٌ بالقصدِ والنِّيَّةِ

اختيرَ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يفعلونَ)، في قولِهِ ﷻ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾، فالعمل يكونُ بقصدٍ؛ إذْ هو أخصُّ منَ الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسَبُ إلى الجماداتِ، وأمّا العملُ؛ فقلَّما يُنسَبُ إلى ذلكَ[4]، وبناءً على ذلكَ يكونُ عملُ المذكورينَ للسَّيِّئاتِ مقرونًا بالقصدِ والنِّيَّةِ، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لسوءِ صنيعِهم، وكذلكَ العملُ يعمُّ أفعالَ القلوبِ والجوارحِ[5].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 12.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 306، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 340.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 206.
(4) السامرائي، لمسات بيانية: 10/ 252.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 188.

بلاغةُ الحذفِ في ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

الإيجازُ بحذفِ موصوفٍ

حُذِفَ الموصوفُ في قولِه ﷻ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾، ولم يقل: (الأعمالَ السَّيِّئاتِ) إيجازًا، ولأنَّ السَّيِّئات جمعُ سيِّئةٍ، وهي الفَعْلةُ القبيحةُ، وهي في الأصلِ صفةٌ جرَتْ مَجْرى الأسماءِ؛ لأنَّهم يقولونَ: (سيِّئةٌ)، ولا يُقدِّرونَ موصوفًا محذوفًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

الإشارةُ إلى قُبحِ العمل

عُبِّرَ بـ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ لأنَّ السَّيِّئَةَ في الأصلِ الفَعْلَةُ القبيحةُ، ففي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى قُبْحِ صنيعِهم، وإلى كونِها تَسوءُ صاحبَها.

نكتةُ جمعِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

الإشـارةُ إلى تعدُّدِ السَّيِّئاتِ وتنوُّعِها

جُمِعَ لفظُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾؛ للإشارةِ إلى تعدُّدِ السَّيِّئاتِ وتنوُّعِها، وكأنَّ المذكورينَ لم يتركوا بابًا مِنْ أبوابِ السَّيِّئاتِ إلّا طَرَقوهُ، وولَجوا فيهِ، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لحالِهم وصنيعِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾:

الجمعُ بين دلالةِ الفعلِ والمصدرِ في وقتٍ واحدٍ

اشتمالُ صلةِ ﴿أَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ على مُسنَدٍ ومُسنَدٍ إليهِ، سدَّ مَسَدَّ المفعولَيْنِ[1]، والتَّقديرُ: (أم حَسِبَ الَّذينَ يعملونَ السَّيِّئاتِ سَبْقَهم إيّانا حاصلًا)[2]، وإنَّما ذكر المصدر المؤول الذي سدَّ مسدَّ المفعولَيْنِ إلى المصدر الصريح، ليجمعَ بين دلالة الفعل ودلالة المصدر في وقت واحد، أمّا دلالةُ الفعل؛ فهي التجدُّد والاستمرار، وأمّا دلالة المصدرِ؛ فهي الثبات والتوكيد والمبالغة مع الحدث دون النظر إلى الزمان.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 440.
(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 13.

بلاغةُ المجازِ في ﴿أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾:

عجزُ الذين يعملون السَّيِّئات وضعفهم أمام قدرة الله وقوَّته

السَّبْقُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ مُستعارٌ للنَّجاةِ ممَّنْ يطلبُ، والتَّفلُّتِ مِنْ سُلْطتِه، شُبِّهَ المُتخلِّصُ مِنْ طالبِه بالسّابقِ[1]، والمعنى: أم حَسِبوا أنْ قد شَفَوا غَيْظَهم مِنَ المؤمنينَ، فهُم بذلك غَلَبوا أولياءَنا، فغلبونا؟[2].

دلالةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾:

الدَّلالةُ على الاستمرار والتَّجدُّدِ

جيءَ بفعلِ السَّبْقِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ مضارعًا؛ للدَّلالةِ على أنَّهُ في ظنِّهم وحِسْبانهم استمرارُ سَبْقِهم وتجدُّدُهُ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى مزيدِ الغفلةِ والإعراضِ.

لطيفةُ التَّعبيرِ بنونِ العظَمةِ في ﴿يَسۡبِقُونَاۚ﴾:

زيادةُ التَّقبيحِ والإنكارِ

أوقعَ فعلُ السَّبْقِ على نونِ العظَمةِ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾؛ لزيادةِ الإنكارِ على الَّذينَ يعملونَ السَّيِّئاتِ بأنَّ السَّبْقَ الَّذي ظنّوهُ واقعٌ على ذي العظَمةِ والكِبْرياءِ، والمعنى: أم حَسِبَ الَّذينَ يعملونَ السَّيِّئاتِ أنْ يَسْبِقونا بما لَنا مِنَ العظَمةِ والكِبْرياءِ والقُدرةِ الباهرةِ الَّتي لا يُعجِزُها شيءٌ؟.

نكتةُ الالتفاتِ في ﴿أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾:

المبالغةُ في الإنكارِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (أم حَسِبَ الَّذينَ يعملونَ السَّيِّئاتِ أنْ يَسْبِقوهُ)؛ لتقدُّم لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، لكنِ التُفِتَ عن الغيبةِ إلى التَّكلُّم في قولِه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾؛ للتَّوصُّلِ بنونِ العظَمةِ إلى زيادةِ التَّشنيعِ والإنكارِ على الَّذينَ يعملونَ السَّيِّئاتِ، حيثُ ظنّوا أنَّهم يَسْبِقونَ ذا القدرةِ والعظَمةِ والكِبْرياءِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 53.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 206.

تأكيدُ الحكمِ وتقريرُه

علَّةُ فصلِ جملةِ ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ عمّا قبلَها:

جملةُ ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ ذمٌّ لحِسْبانِهم السَّبقَ وإبطالٌ لهُ، فهي مُقرِّرةٌ لمعنى الإنكارِ في جملةِ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾، فلها حكمُ التَّوكيدِ، فلذلكَ فُصِلَتْ[1].

كثرةُ المعاني المُترتِّبة على أوجهِ الإعراب

بلاغةُ التَّعبير بقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾:

يجوزُ في قولِه ﷻ: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أنْ يكونَ ﴿سَآءَ﴾ بمعنى: (بئسَ)، فتكونُ ﴿مَا﴾ إمّا موصولةً بمعنى (الَّذي)، و﴿يَحۡكُمُونَ﴾ صلتُها، وهي فاعلُ ﴿سَآءَ﴾، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، أيْ: حُكْمُهم.

ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَا﴾ تمييزًا، و﴿يَحۡكُمُونَ﴾ صفتها، والفاعلُ مُضمَرٌ يُفسِّرُهُ ﴿مَا﴾، والمخصوصُ أيضًا محذوفٌ، والمعنى: ساء الذي يحكمونه حكمهم، أو ساء حكمًا حكمُهم، أو ساء حكمًا الذي يحكمونه حكمهم.

ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَا﴾ مصدريَّةً، وهو قولُ ابنِ كَيْسانَ، فعلى هذا يكونُ التَّمييزُ محذوفًا، والمصدرُ المُؤوَّلُ مخصوصٌ بالذَّمِّ، أي: ساءَ حُكْمًا حُكْمُهم.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿سَآءَ﴾ بمعنى: (قَبُحَ)، فيجوز في ﴿مَا﴾ أنْ تكونَ مصدريَّةً، وبمعنى: (الَّذي)، ونكرةً موصوفةً[2]، وعلى الثلاثة تكون فاعلًا لـ﴿سَآءَ﴾، أي: قَبُحَ حُكمُهم، أو: قَبُحَ الذي يحكمونه، أو قَبُحَ سيِّئُ حُكمِهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالحُكْمِ في ﴿يَحۡكُمُونَ﴾:

الحُكمُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ مستعملٌ في معنى الظَّنِّ والاعتقادِ؛ تهكُّمًا بهِم بأنَّهم نَصَبوا أنفُسَهم مَنْصِبَ الَّذي يحكمُ، فيُطاعُ[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 207.

(2) السمين، الدر المصون: 9/ 9.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 207.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَحۡكُمُونَ﴾:

عُبِّرَ عن الحُكْم بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾، ولم يُعبَّرْ عنهُ بالمصدرِ، فلم يقل: (حُكْمُهم)؛ لإفادةِ الاستمرارِ والتَّجدُّدِ؛ إشارةً إلى أنَّهُ دَأْبُهم، أو المضارعُ واقعٌ موقعَ الماضي لرعايةِ الفاصلةِ[1]، وعُبِّرَ بذلكَ؛ للإشعارِ بأنَّ حُكْمَهم مذمومٌ حالًا واستقبالًا[2].

الدلالةُ على التَّجدُّد والاستمرار مع مراعاة الفاصلة

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإثم والحوْب والجُرْم والخطيئة والذَّنب والسَّيِّئة والوِزْر:

الإثمُ: هو البُطْءُ في عملِ الخيرِ والتَّأخُّرُ عنهُ، والحوْبُ: هو الذَّنْبُ المزجورُ عنهُ، والجُرْمُ هو أعظمُ الذُّنوبِ، والذَّنْبُ سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّ عقوبتَهُ تَعْقُبُ مَنْ أذنبَ، والسَّيِّئَةُ: الفَعْلَةُ القبيحةُ، والوِزْرُ: هو في الأصلِ حَمْلُ شيءٍ ثقيلٍ، واستُعمِلَ في المعاني، كحَمْلِ ما ثَقُلَ مِنَ الإثمِ.

درجاتٌ متفاوتةٌ مِنَ المعاصي كلُّ لفظٍ منها يدلُّ على وصفٍ في المعصية

(بئسَ) و(ساءَ):

(بئس): كلمة ذمٍّ تدلُّ على نوع شدَّةٍ، فالذمُّ بها يدلُّ على شدَّةِ الذَّنبِ الذي فعل، و(ساء): كلمة ذمٍّ أيضًا تدلُّ على سوء حال المُسيء وعمله، فكلٌّ منهما أسلوبُ ذمٍّ يُناسب العمل الذي يُذمُّ به الإنسان، من حيث قوَّتُه وضعفه في الأولى، ومن حيث إنَّهُ يسوء صاحبه، ويسيء إليه في الثانية.

وعلى كلٍّ فـ(بئسَ) و(ساءَ) كلاهما أسلوبٌ إنشائيٌّ للذَّمِّ، والبأسُ: شدَّةُ الحالِ، والمَشَقَّةُ، والبَلاءُ والمكروهُ، ونحوُ ذلكَ، فقولُهُ تعالى: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٢﴾ [المائدة: 62]، معناهُ: قَبُحَ عملُهم، فالعملُ السَّيِّئُ هو القبيحُ[3].

في كلٍّ منهما وصفٌ يدلُّ على الفعل وصاحبه

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 9، والخفاجي، عناية القاضي: 7/ 91.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 341.
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 262 - 263.

﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت: 5 - 6]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بيانُ جزاءِ المُطيع بعدَ بيانِ جزاءِ العاصي

أمّا مناسبةُ الآيةِ الأولى لِما قبلَها؛ فإنَّه لمّا بيَّنَ سبحانَهُ بقولِهِ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ أنَّ العبدَ لا يُترَكُ في الدُّنيا سُدًى، وبيَّنَ في قولِهِ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أنَّ مَنْ تركَ ما كُلِّفَ بهِ يُعذَّبُ؛ بيَّنَ أنَّ مَنْ يعترفُ بالآخرةِ، ويعملُ لها لا يَضيعُ عملُهُ، ولا يَخيبُ أملُهُ(1).

أو أنَّه لمّا خوَّفَ سبحانَهُ عبادَهُ المحسنينَ والمسيئينَ؛ أشارَ إلى التَّلويحِ بتهديدِ الكاذبينَ في التَّصريحِ بتشويقِ الصّادقينَ، فقالَ: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ الآيةَ(2).

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى؛ فهي أنَّهُ تعالى لمّا بيَّنَ أنَّ التَّكليفَ حسنٌ واقعٌ، وأنَّ عليهِ وعْدًا وإيعادًا، ليسَ لهما دافعٌ؛ بيَّنَ أنَّ طلبَ اللهِ ذلكَ مِنَ المُكلَّفِ ليسَ لنفعٍ يعودُ إليهِ، فإنَّهُ غنيٌّ مُطلَقًا(3).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِقَآءَ﴾: (لقي) أصل يدل على تحصيل الشيء بالمقابلة مواجَهةً أو تماسًا(4)، واللِّقاءُ: مصادفةُ الشَّيءِ للشَّيءِ ومقابلتُهُ لهُ معًا، وقد يُعبَّرُ بهِ عن كلِّ واحدٍ منهما، ويقالُ ذلكَ في الإدراكِ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 27.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 392.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 28، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 393.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقي)، وردّها ابن فارس إلى أصول ثلاثة ترجع أغلبها إلى هذا المعنى، أو إلى جزء منه، ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).

بالحسِّ، وبالبصرِ، وبالبصيرةِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ [آل عمران: 143]، وقالَ: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: 62]، ومُلاقاةُ اللّهِ ﷻ عبارةٌ عنِ القيامةِ، وعنِ المصيرِ إليه، قالَ جلَّ وتعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة: 223]، ويقالُ: لَقيَ فلانٌ خيرًا وشرًّا، وتقولُ: لَقيتُهُ بكذا؛ إذا استقبلتَهُ بهِ[1]، والمعنى في الآية واضحٌ.

2) ﴿أَجَلَ﴾: (أجل) أصلٌ يدلُّ عَلَى خَمْسِ كَلِماتٍ مُتَبايِنَةٍ، لا يَكادُ يُمْكِنُ حَمْلُ واحِدَةٍ عَلَى واحِدَةٍ مِنْ جِهَةِ القياسِ، فَكُلٌّ واحِدَةٍ أَصْلٌ في نَفْسِها[2]. والأَجَلُ: تجمُّعٌ أو تماسكٌ مؤقَّتٌ بوقتٍ، ومن التوقيت بوقت لفظ الأجل: وهو غايةُ وقت الشَّيء ونهايته[3]، وهو المُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ[4]، قالَ ﷻ: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ [غافر: 67]، ويقالُ: دَيْنُهُ مُؤَجَّلٌ، وقد أَجَّلْتُهُ، أيْ: جعلتُ لهُ أجَلًا، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبةِ لحياةِ الإنسانِ: أجَلٌ، فيُقالُ: دَنا أجَلُهُ، أيْ: دَنا مَوْتُهُ، وأصلُهُ: استيفاءُ الأجَلِ، أيْ: مُدَّةِ الحياةِ، والآجِلُ ضدُّ العاجِلِ[5]، ومعنى الأجل في الآية: الوقتُ الَّذي حَدَّدَهُ اللّهُ لِلْبَعْثِ.

3) ﴿جَٰهَدَ﴾: (جهد) الجَهْدُ والجُهْدُ: الطّاقةُ والمشقَّةُ، وإفراغ قوَّة الشيء وبذلها[6]، والاجتهادُ: أخذُ النَّفسِ ببذلِ الطّاقةِ وتحمُّلِ المشقَّةِ، والجهادُ والمجاهدةُ: استفراغُ الوسعِ في مدافعةِ العدوِّ، والجهادُ ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهرِ، ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدةُ النَّفسِ[7]، وتحتمل الآية هذه الوجوه الثلاثة.

4) ﴿لَغَنِيٌّ﴾: (غني) أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما يَدُلُّ عَلَى الكفايَة، والآخرُ صوتٌ[8]. والغِنَى: كفايةٌ من الحاجة، وغنى اللّه من غير احتياج، غَنيتُ بكذا، واستغنيتُ، وتغنَّيتُ، وتغانيتُ: اكتفيتَ بأيِّ لونٍ من ألوان الكفاية، فغَني بالمكان (أقام): استغنى بالإقامة،

(1) الراغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (لقي).
(2) ابن فارس مقاييس اللغة: (أجل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أجل).
(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (أجل).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (أجل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤَصَّل: (جهد).
(7) الراغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (جهد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).

والغانية: من استغنَتْ بجمالها، ويُقالُ: أغناني كذا، وأغنَى عنّي كذا؛ إذا كفاني[1]، ومعنى الغَنيِّ في الآية: هو المكتفي بنفسِه من غير حاجة إلى غيره.

المَعنى الإجْماليُّ:

وعْدُ اللهِ لا يُخلَفُ، ونفعُ طاعةِ العبدِ لهُ لا للهِ

مَنْ كانَ يرجو اللّهَ يومَ لِقائِه، ويطمعُ في ثوابِه؛ فإنَّ أجلَ اللّهِ الَّذي أجَّلَهُ لبعثِ خلقِه للجزاءِ والعقابِ لآتٍ قريبًا، واللّهُ السَّميعُ لقولِه: آمنّا باللّه، العليمُ بصِدْقِ قيلِه مِنْ كذبِه فيه، ومَنْ جاهد؛ فإنَّما يجاهدُ لنفسِه؛ لأنَّهُ يفعلُ ذلكَ ابتغاءَ الثَّوابِ مِنَ اللّهِ على جهادِه، والهربِ مِنَ العقابِ، فليسَ للّهِ إلى فعلِه ذلكَ حاجةٌ، وذلك أنَّ اللّهَ غنيٌّ عن جميعِ خَلْقِه، له المُلْكُ والخَلْقُ والأمرُ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الجملةُ بيانٌ لِما قبلَها

قولُه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ مَسوقٌ للمؤمنينَ خاصَّةً؛ لأنَّهم الَّذينَ يرجونَ لقاءَ اللّهِ؛ فالجملةُ مُفيدةٌ التَّصريحَ بما أشارَ إليه قولُه تعالى: ﴿أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾، مِنَ الوعدِ بنصرِ المؤمنينَ على عدوِّهم، مُبيِّنةٌ لها، ولذلكَ فُصِلَتْ، ولولا ذلكَ؛ لكانَ حقُّ الإخبارِ بها أنْ يجيءَ بواسطةِ حرفِ العطفِ[3]، والحاصلُ أنَّ بينَ الجملتَيْنِ كمالَ الاتِّصالِ الموجِبَ للفصلِ.

سرُّ إدخالِ الماضي على المستقبلِ:

الدَّلالةُ على رُسوخِ الرَّجاءِ

جيءَ بفعلِ الكونِ ماضيًا في قولِ الحقِّ سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ هذا الرَّجاءِ مِنْ صاحبِه[4]، ورسوخه فيه، وأنَّهُ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِه الجِبلّيَّةِ الَّتي

(1) الراغب، المفردات: (غني).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 10.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 207.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 208.

لا تنفكُّ عنهُ، وأُدخِلَ الماضي على المستقبلِ؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ، أي: مَنِ استمرَّ رجاؤُهُ إلى الموتِ(1)، وهو على هذه الصِّفة من التمكُّن والرسوخ، فإنَّ اللّٰه سيعوِّضه خيرًا، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ اللّائقَ بحالِ المؤمنِ الاستمرارُ والاستدامةُ على رجاءِ لقاءِ اللّٰهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالرَّجاءِ عن ترقُّبِ البعثِ:

الإشارةُ إلى أملِ الخيراتِ

عُبِّرَ بفعلِ الرَّجاءِ في قولِه ﷻ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ عن ترقُّبِ البعثِ؛ لأنَّ الكلامَ مَسوقٌ للمؤمنينَ، وهم ممَّنْ يرجو لقاءَ اللّٰهِ؛ لأنَّهم يترقَّبونَ البعثَ؛ لِما يأمُلونَ فيهِ مِنَ الخيراتِ(2)، وهذهِ النُّكتةُ - كما لا يَخفَى - مبنيَّةٌ على أحدِ الأقوالِ في المُرادِ بلقاءِ اللّٰهِ، كما سيأتي.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾:

لِقاءُ اللهِ مَثَلٌ للوصولِ إلى العاقبةِ

لِقاءُ اللّٰهِ مَثَلٌ للوصولِ إلى العاقبةِ، مِنْ تلقّي مَلَكِ الموتِ والبعثِ والحسابِ والجزاءِ، مُثِّلَتْ تلكَ الحالُ بحالِ عبدٍ قَدِمَ على سيِّدِهِ بعدَ عهدٍ طويلٍ، وقد اطَّلعَ مولاهُ على ما كانَ يأتي، ويَذَرُ، فإمّا أنْ يلقاهُ ببِشْرٍ وترحيبٍ؛ لِما رَضيَ مِنْ أفعالِه، أو بضدِّ ذلكَ؛ لِما سَخِطَهُ منها، فمعنى قولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾: مَنْ كانَ يأمُلُ تلكَ الحالَ، وأنْ يَلقَى فيها الكرامةَ مِنَ اللّٰهِ والبِشْرَ؛ فإنَّ أجلَ اللّٰهِ - وهو الموتُ - لآتٍ لا محالةَ(3)، فيكونُ الكلامُ مِنْ قبيلِ التَّمثيلِ(4).

أو شُبِّهَ البعثُ باللِّقاءِ؛ لانكشافِ كثيرٍ مِنَ الحُجُبِ به، وحُضورِ الجزاءِ(5)، كما يحتمل أن تكون الملاقاةُ مجازًا عن الحسابِ والحَشْرِ، أو عن رُؤيةِ اللّٰه تعالى والثَّوابِ؛ لأنَّ حقيقةَ اللِّقاءِ - وهو تقاربُ الجسمَيْنِ - مستحيلةٌ هنا(6).

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 13.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 209.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 440.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 342.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 393.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 208.

لطيفةُ الإضافةِ في ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾:

تفيدُ إضافةُ ﴿لِقَآءَ﴾ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ تشريفَ اللِّقاءِ وتعظيمه بكونِه لِقاءَ ذي العظَمةِ والجلالِ والكِبْرياءِ.

سرُّ التَّعبيرِ بعُنوانِ الأُلوهيَّةِ:

تربيةُ المهابةِ في القلوب

جيءَ بلفظِ الجلالةِ دونَ غيرِه في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ لتربيةِ المهابةِ في القلوبِ، وما يترتَّب على ذلك من تهويل الأمرِ، ولزيادةِ تشريفِ اللِّقاءِ وتعظيمِه بكونِه مُضافًا إلى الجامعِ لصفاتِ الكمالِ ﷻ، وزيادةِ تحقيقِه وحصولِه؛ لأنَّ الآتيَ بِهِ هو القادرُ على كلِّ شيءٍ[1].

بلاغةُ الفاءِ في ﴿فَإِنَّ﴾:

قوةُ اتِّصالِ الجُملتَيْن لترتُّبِ الثانيةِ على الأولى

إذا كانَتْ ﴿مَن﴾ في قولِه تعالى ذِكْرُهُ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ شرطيَّةً؛ فالفاءُ في ﴿فَإِنَّ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ بفعله بحسَبِ الظَّاهرِ.

وإنْ كانَتْ ﴿مَن﴾ موصولةً؛ فالفاءُ رابطةُ الجملة الثانية بالأولى، وجعلها مترتِّبة عليها لشبَهِ الموصولِ بالشَّرطِ[2]، وتضمُّنه فيه.

وعلى كلا المعنيَيْن فالجملةُ الثانية - بكلِّ معانيها المفهومة منها والمحتملة فيها - مترتِّبةٌ على الجملة الأولى ترتُّبَ السَّببِ والمُسبَّب، أو الشرط والجزاء.

دلالة التعبير بـ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾:

الوصولُ إلى ثوابِ اللهِ المعهودِ على الطَّاعةِ واقعٌ لا محالةَ

ظاهرُ قولِه سبحانَهُ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ أنَّ مَنْ لا يرجو لقاءَ اللهِ؛ لا يكونُ أجلُ اللهِ آتيًا لهُ، وذلكَ مُشكلٌ.

فقيلَ: المُرادُ مِنْ ذِكرِ إتيانِ الأجلِ وعدُ المُطيعِ بما بعدَهُ مِنَ الثَّوابِ،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 393.

(2) السمين، الدر المصون: 9/ 9.

أي: مَنْ كانَ يرجو لِقاءَ اللّهِ؛ فإنَّ أجلَ اللّهِ لآتٍ بثوابِ اللّهِ، يُثابُ على طاعتِهِ عندَهُ، ومَنْ لا يرجوهُ؛ لا يكونُ أجلُ اللّهِ آتيًا على وجهٍ يُثابُ هو فيه[1]، أو لا يكون أجلُ اللّه آتيًا له على وجهٍ يريده، ويرضاه.

وقيلَ: الظّاهرُ أنَّ قولَهُ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾ ليسَ بجوابٍ؛ لأنَّ أجلَ اللّهِ آتٍ - لا محالةَ - مِنْ غيرِ تقييدٍ بشرطٍ، بل الجوابُ محذوفٌ، أي: فليعمَلْ عملًا صالحًا، ولا يُشرِكْ بعبادةِ ربِّهِ أحدًا، كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: 110][2]، والمذكورُ دليلٌ على الجوابِ المحذوفِ؛ إقامةً للعلَّةِ مقامَ المعلولِ، والمعنى: مَنْ كانَ يرجو لِقاءَ اللّهِ فليُبادرْ إلى الطّاعةِ؛ لأنَّ لِقاءَ اللّهِ - الَّذي هو الوصولُ إلى ثوابِهِ المعهودِ على الطّاعةِ - لواقعٌ لا محالةَ[3].

وعلى كلٍّ فإنَّ هذه الجملةَ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾، ليست جوابَ شرطٍ على الحقيقة؛ لأنَّها ليست مترتِّبةً على فعلِه، فإنَّ أجلَ اللّه لآتٍ لمن كان يرجو لقاءَ اللّه، ولمن لا يرجوه، وفي هذا من بلاغة الإيجاز قلَّةُ الكلام بحذف الجواب، ومجيء جملة تغني عنه، وتدلُّ عليه، وتكون كالعلَّة له.

غرضُ توكيدِ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾:

الحثُّ على الاستعدادِ للقاءِ اللهِ

يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بأجلِ اللّهِ الوقتَ الَّذي عيَّنَهُ اللّهُ للبعثِ والحسابِ، ويجوزُ كذلك أنْ يكونَ المُرادُ بهِ الأجلَ الَّذي عيَّنَهُ اللّهُ لنصرِ المؤمنينَ وانتهاءِ فتنةِ المشركينَ إيّاهم، باستئصالِ صناديدِ قريشٍ، وذلكَ بما كانَ مِنَ النَّصرِ يومَ بدرٍ، ثمَّ ما كانَ بعدَهُ إلى فتحِ مكَّةَ، فيكونُ الكلامُ تثبيتًا للرَّسولِ ﷺ وللمؤمنينَ، حينَ استبطأ المؤمنونَ النَّصرَ للخلاصِ مِنْ فتنةِ المشركينَ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 28.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 9، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 30.
(3) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 13.

وتأكيدُ جملةِ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ بحرفِ التَّوكيدِ واللّام على الوجهِ الأوَّلِ؛ للتَّحريضِ والحثِّ على الاستعدادِ لِلقاءِ اللّٰه، وتأكيدُها على الوجهِ الثّاني لقصدِ تحقيقِ النَّصرِ الموعودِ به؛ تنزيلًا لاستبطائِهِ منزلةَ التَّردُّدِ؛ لقصدِ إذكاءِ يقينِهم بما وعدَ اللّٰهُ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالأجل بدلَ اللِّقاء:

الإيماءُ إلى عدم تخلُّف الأجل

يجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بـ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ في قولِهِ تقدَّسَ ذِكْرُهُ: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ الوقتَ الَّذي عيَّنَهُ اللّٰهُ للبعثِ والحسابِ، وهو المُرادُ بلقاءِ اللّٰهِ، فيكونُ مِنَ الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ، ومُقتضَى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: فإنَّهُ لآتٍ، فعُدِلَ إلى الإظهارِ؛ لِما في إضافةِ ﴿أَجَلَ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ مِنَ الإيماءِ إلى أنَّ هذا الأجلَ لا يُخْلَفُ[2]، ويجوز أن يكون المرادُ من الأجل: وعْدَ اللّٰهِ بنصر المؤمنين، وهو لا يتخلَّف أيضًا عن الموعد الذي حدَّده اللّٰه له.

نكتةُ إظهارِ اسمِ الجلالةِ:

التَّهويلُ وتحقيقُ إتيانِ الأجلِ

قيلَ: لمّا كانَ المُنكِرونَ للبعثِ كثيرينَ؛ أُكِّدَ، فقيلَ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾، أي: المَلِكِ الأعلى الَّذي لهُ الغنى المُطلَقُ وجميعُ صفاتِ الكمالِ ﴿لَأٓتٖ﴾ لا محيصَ عنهُ، فإنَّهُ لا يُخلِفُ الوعدَ، ولذلكَ عُبِّرَ بالاسمِ الأعظم؛ للإشارةِ إلى أنَّ أهوالَ اللِّقاءِ لا يُحيطُ بها عدٌّ، ولا يَحصُرُها حدٌّ[3].

وظاهرٌ أنَّ هذهِ النُّكتةَ مبنيَّةٌ على أنَّ المُرادَ بالأجلِ وقتُ البعثِ، وقيلَ: إظهارُ اسمِ الجلالةِ في جملةِ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾، معَ كونِ مُقتضَى الظّاهرِ الإضمارَ؛ لتقدُّمِ اسمِ الجلالةِ في جملةِ الشَّرطِ: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ لئلّا يلتبسَ مرجعُ الضَّميرِ بأنْ يُعادَ إلى ﴿مَن﴾؛ إذِ المقصودُ الإعلامُ بأجلٍ مخصوصٍ، وهو وقتُ النَّصرِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 208.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 208.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 393.

الموعود، كما في قولِه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾ [سبأ: 29 - 30][1]، وظاهرٌ أنَّ هذهِ النُّكتةَ مبنيَّةٌ على أنَّ المُرادَ بالأجلِ الأجلُ الَّذي عيَّنَهُ اللّٰهُ لنصرِ المؤمنينَ وانتهاءِ فتنةِ المشركينَ إيّاهم.

بلاغةُ اللّامِ في ﴿لَأٓتٖ﴾:

لامُ ﴿لَأٓتٖ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ هي لام الابتداء في الأصل، ولكنها دخلت على خبر (إنَّ) فأصبحت تسمى المزحلقة، وأفادت تأكيد إتيانِ ذلك الأجل.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في ﴿لَأٓتٖ﴾:

المبالغةُ في تحقُّقِ إتيانِ الأجلِ

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ إتيانِ الأجلِ؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنَ الثَّباتِ والاستقرارِ، والمعنى: إنَّهُ آتٍ - لا محالةَ - مِنْ غيرِ صارفٍ يلويهِ، ولا عاطفٍ يثنيهِ؛ لأنَّ أجزاءَ الزَّمانِ على التَّقضّي والتَّصرُّمِ دائمًا، فلا بدَّ مِنْ إتيانِ ذلكَ الجزاءِ البتَّةَ[2].

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾:

في قولِ الباري جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ مجيءَ ذلكَ الوقتِ كنايةٌ عن إتيانِ ما فيهِ ووقوعِهِ[3].

بلاغةُ التَّذييل بالجملة الاستئنافيَّة:

الواوُ في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ للاستئنافِ، والجملةُ بعدَها استئنافٌ تذييليٌّ لتحقيقِ حصولِ مجيءِ الأجلِ المرجوِّ والمخوف وعدًا ووعيدًا[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 209.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 30، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 343.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 343.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 138.

بلاغةُ تعريفِ طرفَيِ الإسنادِ:

جيءَ بطرفَي الإسنادِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ مُعرَّفَيْنِ؛ لإفادةِ القصرِ، والمعنى: وهو وحدَهُ - لا غير - السَّميعُ العليمُ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (فعيلٍ):

جيءَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ لإفادةِ المبالغةِ في اتِّصافِه ﷻ بالسَّمعِ والعلمِ.

مناسبةُ خَتْمِ الآيةِ بصفتَي السَّمعِ والعلمِ:

مـراعـاةُ تشابهِ الأطرافِ

قيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تذييلٌ لتحقيقِ حصولِ المرجوِّ والمَخوفِ وعْدًا ووعيدًا[2]، أي: وهو السَّميعُ العليمُ الَّذي لا يَخفَى عليهِ شيءٌ ممّا يقولُه عبادُهُ، وممّا يفعلونَه، فهو حقيقٌ بالتَّقوى والخشيةِ[3]، وهو جديرٌ بأنْ يُؤمَّلَ، ويُناطَ بكرمِه الرَّجاءُ[4].

وقيلَ: لم تُذكَرْ صفةٌ غيرُ ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، كـ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129] وغيرِهما؛ لأنَّهُ سبقَ القولُ في قولِه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ﴾، وسبقَ الفعلُ في قولِه: ﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾، وقولِه: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، وقولِه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ولا شكَّ أنَّ القولَ يُدرَكُ بالسَّمعِ، والعملُ منهُ ما لا يُدرَكُ بالبصرِ، ومنهُ ما يُدرَكُ به، والعلمُ يشملُهما، والمعنى: وهو السَّميعُ يسمعُ ما قالوهُ، وهو العليمُ يعلمُ مَنْ صدقَ فيما قالَ ممَّنْ كذبَ، وأيضًا عليمٌ يعلمُ ما يُعمَلُ، فيُثيبُ، ويُعاقِبُ[5].

سـمـاعُ الـلـهِ تعالى لدعائِهم وعلمِه بما في نفوسِهم

وقيلَ: وقعَ التَّذييلُ بوصفَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ دونَ غيرِهما؛ للإيماءِ بوصفِ السَّميعِ إلى أنَّ اللّهَ تعالى سمعَ مقالةَ بعضِهم، مِنَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 393.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 138.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 440.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 138.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 28.

الدُّعاءِ بتعجيلِ النَّصرِ، والإيماءِ بوصف العليم إلى أنَّ اللّهَ علمَ ما في نفوسِهم مِن استعجالِ النَّصرِ[1]، وهذا مبنيٌّ على أنَّ المرادَ بأجلِ اللّهِ الوقتُ الَّذي عيَّنَهُ لنصرِ المؤمنينَ.

والفنُّ البلاغيُّ المترتِّبُ على جميعِ هذهِ الأقوالِ هو تشابهُ الأطرافِ، وهو خَتْمُ الكلامِ بما يناسبُ ابتداءَهُ في المعنى[2].

بلاغةُ الواوِ في ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾:

الجهادُ من صفاتِ أهلِ الرجاء الحسن

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ استئنافيَّةٌ، أي: ومَنْ جاهدَ ممَّنْ يرجونَ لقاءَ اللّهِ، فليستِ الواوُ للتَّقسيم، وليسَ مَنْ جاهدَ بقسيمٍ لِمَنْ كانوا يرجونَ لِقاءَ اللّهِ، بل الجهادُ مِنْ عوارضِ مَنْ كانوا يرجونَ لِقاءَ اللّهِ[3]، وكلُّ مَن كان يرجو لقاء اللّه مجاهدون، بأيِّ لونٍ من ألوان الجهاد، كلٌّ حسب طاقتِهِ ووسعه، وحسب ما يجيده، ويتقنه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ (مَنْ) في ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾:

كثرةُ المعاني بكثرةِ الاحتمالاتِ في (من)

(مَنْ) في قولِه تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ شرطيَّةً، لوجود فاء الجواب في الجملة التي بعدها: ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، أي: الذي حقَّق الجهادَ، فإنَّ ثواب جهادِه يعودُ له، ويجوزُ أنْ تكونَ موصولةً[4]، ضُمِّنَت معنى الشَّرط، أيْ: كلُّ مجاهدٍ مخلص صادق في جهاده؛ فإنَّ اللّهَ سيعطيه أجرَ جِهاده، فاللّه غنيٌّ عن العالمين.

دلالةُ صيغةِ المفاعلة في ﴿جَٰهَدَ﴾:

المبالغةُ في الجهدِ

الجهادُ في الأصلِ: مبالغةٌ في الجهدِ الَّذي هو مصدرُ جَهَدَ؛ إذا جدَّ في عملِه، وبذل وسعه فيه، وتكلَّفَ فيهِ تعبًا، ولذلكَ شاعَ إطلاقُهُ على القتالِ في نصرِ الإسلامِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 208.
(2) التفتازاني، المختصر، ص: 681.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 209.
(4) السمين، الدر المصون: 9/ 9.

ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ الصَّبرَ على المَشاقِّ اللّاحقةِ بالمسلمينَ لأجلِ دخولِهم في الإسلام، فإطلاقُ الجهادِ هنا هو مِثلُ إطلاقِهِ في قولِهِ تعالى بعدَ هذا: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي﴾ [العنكبوت: 8]، وهذا المعنى هو المتبادرُ في هذهِ السّورةِ بناءً على أنها كلَّها مكّيَّةٌ؛ لأنَّهُ لم يكن جهادُ القتالِ في مكَّةَ.

قد يُراد الجهادُ بمفهومه الشرعيِّ المعروف

ويجوزُ أنْ يُرادَ بالجهادِ المُصطلَحُ الشَّرعيُّ، وهو قتالُ الكفّارِ لأجلِ نصرِ الإسلام، ويكونُ ذِكْرُهُ هنا؛ لإعدادِ نفوسِ المسلمينَ لقتالِ المشركينَ قبلَ أن يُضطرّوا إليه، فيكونُ كقولِه تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ [الفتح: 16]، ومناسبةُ التَّعرُّضِ لهُ على هذا المعنى: هو أنَّ قولَهُ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾، تضمَّنَ ترقُّبًا لوعدِ نصرِهم على عدوِّهم، وهو ما وقعَ يومَ بدرٍ.

ويجوز أن يكون المعنى: ومَنْ جاهدَ نفسَهُ بالصَّبرِ على مَضَضِ الطّاعةِ والكفِّ عن الشَّهَواتِ[1]، والأوفقُ ببلاغةِ القرآنِ أنْ تكونَ كلُّ هذه المعاني مرادةً[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿جَٰهَدَ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الجهادِ ووقوعِه، وأنَّ صاحبَهُ قد رَسَخَ في بابِ الجهادِ رُسوخًا لا شكَّ فيهِ.

بلاغةُ الفاءِ في ﴿فَإِنَّمَا﴾:

قـوَّةُ اتِّصال الجملتين لترتُّب الثانية على الأولى

إذا كانَتْ (مَنْ) في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ شرطيَّةً؛ فالفاءُ في ﴿فَإِنَّمَا﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ بفعله بحسب الظاهر، وإنْ كانَتْ (مَنْ) موصولةً؛ فالفاءُ رابطةُ الجملة

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 189.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 210.

الثانية بالأولى، وجعلها مترتِّبةً عليها لشَبَهِ الموصولِ بالشَّرطِ[1]، وتضمُّنه فيه، وعلى كلا المعنيَيْن؛ فالجملة الثانية بكلِّ معانيها المفهومة منها، والمحتملة فيها، مترتِّبة على الجملة الأولى ترتُّبَ السَّبب والمسبَّب، أو الشرط والجزاء.

بلاغةُ القَصْرِ في ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾:

المبالغةُ في نفي انتفاع الله تعالى بذلك

ظاهرُ القَصْرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ أنْ يكونَ جهادُ المرءِ لنفسِهِ فقط، ولا ينتفع به غيرُهُ، وليسَ كذلكَ؛ فإنَّ مَنْ جاهدَ ينتفعُ بِهِ هو ومَنْ يريدُ هو نَفْعَهُ، حتَّى إنَّ الوالدَ والولدَ ببركةِ المجاهدِ وجهادِهِ ينتفعانِ، والحصرُ هنا معناهُ: أنَّ جهادَهُ لا يصلُ إلى اللهِ منهُ نفعٌ، ويدلُّ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، والحاصلُ: أنَّ القصْرَ إضافيٌّ بالنِّسبةِ إليهِ تعالى، فلا يُنافي منفعةَ العبادِ، كانتفاعِ الأبِ بعملِ ولدِهِ الصّالحِ؛ فالآيةُ الكريمةُ كالتَّكميلِ والاحتراسِ[3].

وقيلَ: القَصْرُ الحاصلُ بـ (إنَّما) قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ للتَّنبيهِ إلى ما يَغْفُلونَ عنهُ حينَ يجاهدونَ منَ الفوائدِ المُنجرَّةِ إلى أنفُسِ المجاهدينَ[4].

نكتةُ التَّوكيدِ في ﴿فَإِنَّمَا﴾:

جيءَ بـ (إنَّما) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾؛ لتوكيدِ كونِ نفعِ جهادِ المجاهدِ مقصورًا على نفسِهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُجَٰهِدُ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على استمرارِ قَصْرِ نفعِ جهادِ المجاهدِ على نفسِهِ وتجدُّدِ ذلك.

---

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 9.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 29.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 15.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 211.

اتِّساعُ المعنى لشمولِ المِلْكِ والاستحقاقِ والاختصاص

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ(اللّامِ) في ﴿لِنَفْسِهِۦٓ﴾:

لامُ ﴿لِنَفْسِهِۦٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ للمِلك والاستحقاق، وفيها إشارةٌ إلى أنَّ منفعةَ الجهادِ راجعةٌ إلى المجاهدِ[1]، وهي بمنزلة شيءٍ يملكُه، ويستحقُّه، ويختصُّ به المجاهد دون غيره.

الإشارةُ إلى حاجةِ النَّفسِ لنفعِ الجهادِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالنَّفسِ في ﴿لِنَفْسِهِۦٓ﴾:

عُبِّرَ بالنَّفسِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾؛ لأنَّها الأمّارةُ بالسّوءِ[2]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى حاجةِ النَّفسِ لمنفعةِ الجهادِ الَّتي تعودُ عليها بالإصلاحِ والتَّرقّي في مَراقي الكمالِ.

لطيفةُ الإضافةِ في ﴿لِنَفْسِهِۦٓ﴾:

أُضيفَتِ النَّفسُ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى المجاهدِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾؛ لتأكيدِ كونِ منفعةِ الجهادِ راجعةً إليه، ولذلكَ لم يقل: (للنَّفسِ).

تقريرُ الكلامِ السابقِ وتعليله

علَّةُ فصلِ جملةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

يُؤخَذُ مِنْ قولِه تعالى ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّهُ لا حاجةَ بِهِ إلى طاعةِ عبادِهِ، وإنَّما كلَّفهم رحمةً بهم، ومراعاةً لصلاحِهم[3]، فهذِهِ الجملةُ تذييلٌ لِما قبلَها مُقرِّرةٌ لمفهومِها[4]، ولذلكَ فُصِلَتْ عنها.

وقيلَ: الجملةُ تعليلٌ للقَصْرِ بأنَّ اللهَ غنيٌّ عن العالمينَ، فلا يكونُ شيءٌ مِنَ الجهادِ نافعًا لهُ، ولكنَّ نفعَهُ للأُمَّةِ، فموقعُ (إنَّ) هنا هو موقعُ فاءِ التَّفريعِ[5]، كأنَّهُ قيلَ: لماذا قصرَ فائدةَ الجهادِ على المجاهدِ؟ قيلَ: لأنَّ اللهَ غنيٌّ عن العالمينَ.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 189، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 30.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 394.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 189.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 15.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 211.

غرضُ التَّوكيدِ في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾:

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ عدمِ حاجتِهِ تعالى لطاعةِ خَلْقِهِ، ولأنَّ كثرةَ الأوامرِ ربَّما أوجبَتْ للجاهلِ ظنَّ حاجتِهِ تعالى لطاعةِ عبادِهِ(1).

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

ملاءمةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ الغِنَى عن الخَلْقِ

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لمناسبةِ هذا اللَّفظِ لمقامِ بيانِ غِنَى الخالقِ عن خَلْقِهِ، أي: إنَّ المُتَّصفَ بصفاتِ الكمالِ والمُتعاليَ عن كلِّ شائبةِ نَقْصٍ لَغنيٌّ عن العالمينَ، ولأنَّ كثرةَ الأوامرِ ربَّما أوجبَتْ للجاهلِ ظنَّ حاجتِهِ تعالى لطاعةِ عبادِهِ، فجيءَ بالاسمِ الأعظمِ الدّالِّ على كمالِ الغِنى(2).

بلاغةُ اللّامِ في ﴿لَغَنِيٌّ﴾:

لامُ ﴿لَغَنِيٌّ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي لام الابتداء في الأصل، لكنها دخلت على خبر ﴿إِنَّ﴾، فأصبحت تسمى (مزحلقة)، وتفيد هنا تأكيد غنى الله المُطلق.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿عَنِ﴾:

اللهُ سبحانه الغنيُّ المطلق

حرفُ الجرِّ ﴿عَنِ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للمجاوزةِ؛ للدلالة على أنَّ غنى الله ﷻ المُطلق قد تجاوز كلَّ الاحتمالات والظنون الممكنة من العالمين.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دونَ (عنهُ):

المبالغةُ في غِناه تعالى

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (عنهُ)، أيْ: عن المجاهدِ، لكنْ قيلَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للمبالغةِ وبيانِ أنَّ غِناهُ سبحانَهُ هو الغِنَى المُطلَقُ، فلا تنفعُهُ طاعةُ أحدٍ أيًّا كانَ، ولا تضرُّهُ معصيتُهُ(3)، وإن اجتمعَ كلُّ العالمين للجهاد؛ فهو في غنًى عنهم.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 394.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 394.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 394، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 15.

الفروقُ المُعجَميَّةُ:

اللِّقاء والاجتماع:

اللِّـقـاءُ هو الاجتماعُ على وجهِ المقارنةِ، والاجتماعُ قد يكونُ على غيرِ المقارنةِ

الفرقُ بينَ اللِّقاءِ والاجتماعِ: أنَّ اللِّقاءَ هو الاجتماعُ على وجهِ المقارنةِ والاتِّصالِ، والاجتماعَ قد يكونُ على غيرِ المقارنةِ والاتِّصالِ، كاجتماعِ القومِ في الدّارِ، وإنْ لم يكنْ هناكَ اتِّصالٌ[1].

الإتيان والمجيء:

المجيءُ أقوى في الدَّلالةِ مِنَ الإتيانِ، وبينَهما عُمومٌ وخُصوصٌ مِنْ وجهٍ

فُرِّقَ بينَ المجيءِ والإتيانِ مِنْ وجوهٍ، **أحدُها:** أنَّ الإتيان مجيءٌ بسهولةٍ، ومنهُ قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهِهِ: أتيٌّ، وأتاويٌّ[2]، والمجيءُ أعمُّ[3]، **والثّاني**: أنَّ الإتيان قد يُقال باعتبارِ القصدِ، وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، والمجيءُ يُقالُ اعتبارًا بالحصولِ[4]، فتكونُ دلالةُ (جاءَ) على المجيءِ أقوى مِنْ دلالةِ (أتى)[5]، وعلى هذا يكونُ الإتيانُ أعمَّ مِنَ المجيءِ مِنْ هذهِ النّاحيةِ.

والثّالثُ: ذكرَ اللهُ (جاءَ) في موضعِ الأعيانِ في الماضي، و(أتى) في موضعِ المعاني والأزمانِ، ومن ذلكَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ [يوسف: 72]؛ لأنَّ الصّواعَ عينٌ، وقولُهُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ﴾ [البقرة: 89]؛ لأنَّهُ عينٌ، وقولُهُ: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ [الفجر: 23]؛ لأنَّها عينٌ، وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ [الأعراف: 34]، فلأنَّ الأجلَ كالمُشاهَدِ، ولهذا يُقالُ: حَضَرَهُ الموتُ، وقالَ تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣﴾ [الحجر: 63]، أي: بالعذابِ؛ لأنَّهُ مرئيٌّ يشاهدونَهُ، وقالَ: ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤﴾ [الحجر: 64]، حيثُ لم يكنِ الحقُّ مرئيًّا.

(1) هنري، فرائد اللغة، ص: 5.
(2) الراغب، المفردات: (أتي).
(3) الراغب، المفردات: (جاء).
(4) الراغب، المفردات: (جاء).
(5) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 50.

نكتةٌ في آيتي يونس وهود

فإنْ قيلَ: قد قالَ تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: 24]، وقالَ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: 58]، فجعلَ الأمرَ آتيًا وجائيًا؛ فالجوابُ: أنَّ هذا يُؤيِّدُ ما ذُكِرَ، فإنَّهم لمّا كانوا ممَّنْ يَرَى الأشياءَ؛ قالَ: ﴿جَآءَ﴾ [هود: 58]، أي: عيانًا، ولمّا كانَ الزَّرعُ لا يُبصِرُ، ولا يَرَى قالَ: ﴿أَتَىٰهَآ﴾ [يونس: 24][1].

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 81.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧﴾ [العنكبوت: 7]

بعد بيان المنتفع من المجاهدة أتبعه ببيان ما ينال أهل الإيمان

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذكر النَّظمُ الجليلُ في الآيات السّابقة أنَّ "العبد لا يُترك في الدُّنيا سدًى، وأنَّ مَن ترك ما كُلِّفَ به عُذِّبَ؛ أردف ذلك ببيان أنَّ مَن يعترف بالآخرة، ويعمل لها، لا يضيِّع اللّهُ عملَهُ، ولا يخيِّب أملَهُ، ثمَّ ذكر أنَّ طلب ذلك من المكلَّف ليس لنفعٍ يعود إلى اللّه تعالى، فهو غنيٌّ عن النّاس جميعًا، ثمَّ أرشد إلى أنَّ جزاء العمل الصّالح تكفير السَّيِّئات، ومضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فضلًا منه ورحمة"(1)، أي: بعد أنْ بيَّن إجمالًا أنَّ مَن يعمل صالحًا؛ فلنفسِهِ، فصَّل بعضَ التَّفصيل أن جزاءَ المطيع الصالح عمله(2).

ومن المناسبة أنَّه تعالى لمّا ذكر بذْلَ الوسْعِ في العبادة والجهاد للّه تعالى، في قوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [العنكبوت: 6]، وأنَّ المنتفعَ من ذلك إنَّما هم العباد؛ أتبعه بعد ذلك ببيان ما يلاقي المؤمنون من التَّكفير والجزاء الحسن في الآخرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾: (كفر) أصلٌ يدلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ، وكلُّ ما غطَّى شيئًا، وكلُّ من سترَ شيئًا؛ فقدَ كفرَهُ، ويقالُ للزّارعِ: كافرٌ؛ لأنَّهُ يكفِّرُ البذرَ، أي: يغطّيه، ويسترُهُ بالتُّرابِ(3)، ويقال: كَفَرَتِ الشمسُ النُّجومَ: سترتها، ويقال: الكافِرُ للسَّحاب الذي يغطّي الشَّمسَ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 115.
(2) الرّازي: التّفسير الكبير: 25/ 29.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

والليل[1]، والكَفّارَةُ: ما يغطّي الإثم، ومنه: كَفّارَةُ اليمين، نحو قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: 89]، والتَّكْفيرُ: سَتْرُهُ وتغطيتُهُ حتى يصيرَ بمنزلة ما لم يعمل، ويصحُّ أن يكونَ أصلُهُ إزالةَ الكفرِ والكفران، قال تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ [آل عمران: 195]، والكُفرُ: ضدُّ الإيمانِ، فهو تغطيةٌ للحقِّ، وتكفيرُ السَّيِّئات: سترُها وتغطيتُها، فلا تُرى، ولا يُؤاخذ عليها[2].

2) ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾: (سوأ) أَصْلُ السّوءِ: القُبْحُ، وضِدُّه: الحُسْنُ[3]، والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَمِلَ سوءًا، أي: شَرًّا وفَسادًا[4]، والإساءَةُ: فِعْلُ الشَّرِّ وما يُكْرَهُ، ومن مَعانيه أيضًا: المُنْكَرُ والفُجورُ والبَلاءُ والعَذابُ، والشَّتْمُ والشِّدَّةُ والقَتْلُ[5]، فالسّوءُ: هو كلُّ ما يغُمُّ الإنسانَ، ويكرهُهُ مِنَ الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّة، ومِنَ الأحوالِ النَّفسيَّة، والبدنيَّة، والخارجة، من فَواتِ مالٍ وجاهٍ وفَقدِ حميمٍ ومصيبةٍ، ومنه يُقالُ: ساءَني كذا، وأسَأتَ إلى فلانٍ، وتُطلَقُ السّيِّئَةُ باعتبارِ الشَّرعِ، فتكون بمعنى: الخطيئةِ، وباعتبارِ الطَّبعِ، أي: ممّا يغُمُّ الإنسانَ من ضُرٍّ وفَقرٍ ونحوهما[6]، والمرادُ بالسّوءِ في الآية: الخطايا والأعمال المخالفة للشَّرع.

3) ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾ (جزي) أَصْلٌ وهو الاِكْتِفاءُ بالشَّيْءِ، يُقالُ: اجْتَزَأْتُ بالشَّيْءِ اجْتِزاءً؛ إذا اكْتَفَيْتُ بِهِ، وأَجْزَأني الشَّيْءُ إجْزاءً؛ إذا كَفاني، ويُقالُ: جَزَيْتُ فُلانًا أجزيهِ جَزاءً، وجازَيْتُهُ مُجازاةً[7]، والجَزاء: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ، ولم يجِئْ في القرآن إلّا جزى دون جازى، وذاك أنَّ المجازاةَ هي المكافأة، وهي المقابلة من كلِّ واحدٍ من الرَّجُلين، والمكافأة هي: مقابلة نعمة بنعمة هي كفؤُها، ونعمة اللّه تَتَعالى عن ذلك، ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة في اللّه ﷻ، وهذا ظاهر[8]، والمقصود بالجَزاءِ في الآية: المُكافَأةُ على العَمَلِ بما يُناسِبُ ذلك العَمَلَ مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (سوأ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سوأ).
(6) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سوأ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).
(8) الرّاغب، المفردات: (جزا).

4) ﴿أَحۡسَنَ﴾: (حسن) أصلٌ واحدٌ، والحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ[1]، والحَسَنَةُ: ضدُّ السَّيِّئَةِ، والإحْسانُ: ضدُّ الإساءَةِ، والحَسَنُ: ما حَسُنَ من كلِّ شيءٍ[2]، والحُسْنُ: عبارةٌ عن كلِّ مُبهِجٍ مرغوبٍ فيه، وذلك ثلاثة أضربٍ: مُستَحسَنٌ من جهة العَقل، ومن جِهة الهوى، ومن جهة الحسِّ، وأكْثَرُ ما يُقالُ المُسْتَحْسَن بالبَصرِ، وأكْثَرُ ما جاءَ في القُرْآن في المُسْتَحْسَن مِن جهَةِ البَصيرَةِ[3]، والمقصود بالأحَسنِ في الآيةِ: الجزاءُ الحَسَن.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمانُ والعمل الصالح عاقبتُهُ تكفيرُ السيِّئ والمكافأة بالأحسن

يخبرُ النَّظمُ الجليل عن المؤمنين الصّادقين، الذين أُتْبعوا الإيمان بالعمل الصّالح تحقيقًا لإيمانهم بأنَّ اللّه تعالى أعدَّ لهم أبلغَ المثوبة، فأقسم على أنَّه سيستر سيِّئاتِهم، ويزيلها عنهم بفضله وإحسانه من صحائف أعمالهم، وأقسم على أنَّه سيجازيهم بأحسن الجزاء على أعمالهم الصّالحة التي كانوا يعملونها في الدُّنيا[4]، أي: والذين آمنوا باللّٰه ورسوله، وصحَّ إيمانهم حين ابتلائهم، فلم يرتدّوا عنه بأذى المشركين لهم، وعملوا صالح الأعمال، فأدّوا فرائضه، وقاموا بها حقَّ القيام، لنكفِّرنَّ عنهم سيئاتهم ولنثيبنَّهم على صالح أعمالهم حين إسلامهم أحسن ما كانوا يعملون، فنقبل حتّى القليلَ من الحسنات، ونثيب على الواحدة منها عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) في جملة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

التَّبشيرُ بعدَ الوعيد من تمام التَّرغيب

عطفَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (حسن).
(3) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 15.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 116.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، فإنَّ الجملةَ المعطوف عليها تضمَّنت التَّهديد والوعيد، فعطف عليها ما يتضمَّن الوعد والبشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويجوز أن تكون معطوفةً على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ [العنكبوت: 6]، وفائدةُ هذا العطف: بيانُ علَّةِ ذلك الجزاء، وهو الإيمانُ والعمل الصّالح[1].

بلاغةُ الاحتراسِ في الآية:

لكلِّ عملٍ صالحٍ عند الله أجرٌ

الآيةُ احتراس ممّا تقرَّر في الآية السّابقة من أنَّ جهادَ المجاهدين، وما يصيبهم على طريق الجهاد، هو لهم، وليس للّه منه شيء، وهذا الاحتراس يدفع ما يقع في النُّفوس من أنَّ الجهاد والبلاء لا أجر له عند اللّه[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلته في الآية:

جــزاءُ الإيـمـان والعمل الصّالح التَّكفيرُ والجزاءُ الحسن

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن المؤمنين بالاسم الموصول في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على علَّة الحكم، فما تضمَّنته صلة الموصول من الدَّلالة على الإيمان والعمل الصّالح هو علَّةُ تكفير السّيئات والجزاء الحسن[3]، فالموصول سببٌ لمضمون الخبر، أي: إنَّ الإيمان سببٌ لمحو جريمة الكفر، والطاعات سوى الإيمان سببٌ لعفو المعاصي سوى الكفر، هذا لمن سبق إيمانُهُ بالكفر، وأمّا من لم يسبق؛ فالإيمان والعمل سببانِ لتكفير السيئات، ولا يلزم من كون المجموع سببًا؛ لكون كلِّ واحد منهما سببًا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 211 - 212.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 10/ 406.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 212.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 15.

نكتةُ حذفِ متعلّق الإيمان في الآية:

عــلامــةُ المــؤمــنِ الإيــمــانُ المُطلق بــكــلِّ مــا يــجــبُ الإيمانُ به

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالإيمان مطلقًا عن القيود في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلم يبيِّن بمَ آمنوا؟ وذلك للدَّلالة على مطلق الإيمان؛ تفخيمًا لشأنه، فإنَّ مجرَّد الإيمان والتَّصديق بما أخبر به النَّبيُّ ﷺ كافٍ في حوز صفة الإيمان العامِّ، كما أنَّ حذْفَ المتعلِّق يشير إلى إيمانِهم بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به، ففيه تزكيةٌ لإيمانهم مع الإيجاز في التَّعبير.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

العملُ الصّالح تصديقٌ لرسوخ الإيمان وصدقه

عطف النَّظمُ الجليل العمل الصّالح على الإيمان في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العمل يصدِّق الإيمان، ولأنَّ العمل الصّالح نتيجةٌ للإيمان، وثمرة من ثمراته[1]، وفي هذا العطف دليلٌ ظاهرٌ على أنَّ الإيمانَ قد لا يكفي وحده في ذلك، بل لا بدَّ أن يقرن العبدُ المؤمن إيمانَهُ بالعمل الصّالح، ففيه احتراسٌ عن انتفاء كفاية الإيمان بالقلب دون العمل[2]، ولمّا كان العطف يوجب التَّغاير؛ دلَّ على أنَّ الأعمال الصّالحة مغايرةٌ للإيمان[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضي:

ثــبــتَ الإيــمــانُ، ورســـــــــخ في قــلــوبــهــم، واستقرَّ العمل في سلوكهم

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الإيمان والعمل الصّالح بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ للدَّلالة على أنَّ إيمانهم تحقَّق وتمَّ[4]، فكان إيمانهم راسخًا مؤكَّدًا، وعملهم صالحًا مُحقَّقًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الصّلاح مجموعًا في ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قوله جلَّ شأنه:

---

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/ 11081.
(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 137.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 29.
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 18.

خلت أعمالهُم مِن كلِّ سوء وقبح وفساد

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأنَّ الصَّلاح يدلُّ على خلاف الفساد، وهو خاصٌّ بصفةٍ بالأفعال(1)، فانتفى وصف الفساد عن أعمالهم، فلم يبقَ فيها غيرُ الصَّلاح والانتفاع والخير، وجيء بها بصيغة الجمع للدَّلالة على كثرة تلك الأعمال، وعلى شمول عملهم لكلِّ ما هو صالحٌ، كما فيه تزكيةٌ لكلِّ أعمالهم بخلوِّها من الفساد.

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

نالوا مِن كلِّ الخيرات بنصيب وفَّقهم الله له

عرَّف النَّظم الجليل لفظ الصّالحات في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالألف واللّام الجنسيَّة، أي: عملوا جنس الصّالحات، فتشمل كلَّ أعمال الخير، من الواجبات المفروضة، ومن المستحبّات المسنونة والمباحات المرغوبة(2).

علَّةُ حذفِ المفعول والاكتفاء عنه بصفته:

صَلُحت أعمالهم حتّى صارت الصَّلاح نفسَهُ

حذف النَّظمُ الجليلُ المفعولَ به في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وأبقى صفته، والتَّقدير: (وعملوا الأعمال الصّالحات)، فالصّالحات صفةٌ لمحذوفٍ، هو الأعمال، وهذه الصِّفة تقوم مقام الاسم، فلمّا كثُرَ لفظ (العمل الصّالح)؛ صار لفظ (الصالح) بمنزلة الاسم الدّال على عمل خير، كقوله جلَّ شأنه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف: 107](3). وإنَّما وصف هذه الأعمال بكونها صالحةً لِما فيها من المنافع؛ لأنَّ المنفعة مصلحة(4).

علَّةُ تقديمِ الإيمان على العمل:

لا تقبل الأعمال بغير الإيمان بذي الجلال

قدَّمَ النَّظمُ الجليل ذِكرَ الإيمان على العمل الصّالح في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ قبول العمل مشروط بتقدُّم الإيمان، فالعمل بلا إيمان لا يُقبل(5).

---

(1) الرّاغب، المفردات: (صلح).
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 627.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 332 - 333.
(4) الماوردي، النّكت والعيون: 3/ 310.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 30.

دلالةُ التَّأكيدِ في ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾:

تأكيدُ المضمونِ مبالغةٌ في تحقيق الوعد

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملة الفعليَّة باللّام الموطِّئة للقسم، ونون التَّوكيد الثَّقيلة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾، والتَّقدير: (وعزَّتي وجلالي؛ لأكفرنَّ عنهم ذنوبهم)، وذلك للمبالغة في تأكيد التَّكفير، فأكَّده بمؤكّدين، ودلَّ ذلك على تحقُّق هذا الوعد تحقُّقًا لا يدنو إليه الشَّكُّ، أي: "لَنُبْطِلَنَّها حتّى تَصيرَ بمنزلة ما لم يُعمل، فالتَّكفيرُ إذهابُ السَّيئةِ بالحَسَنة"[1].

وإنَّما أكَّد التَّكفير؛ "لأنَّ الإنسانَ مجبولٌ على الانتقام ممَّن أساء، ولو بكلمةٍ، ولو بالامتنان بذكر العفوِ، فلا يكاد يحقِّق غير ما طبع عليه"[2]، فالتَّكفير بمحض التَّفضُّل ليس ممّا يعهده النّاس.

سرُّ التَّعبير عن التَّكفير بصيغة التَّعظيم:

كثرةُ التَّكفير وتأكُّد وقوعِه كائنٌ بسبب عظمة الرَّحمن وجلاله

عبَّر النَّظم الجليل عن تكفير السيئات بالفعل الدّالِّ على تعظيم المتكلِّم المفرد، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾؛ وذلك لأنَّ تكفيره الكثير جلَّ في علاه من دون عوض، بل هو محضُ عفوٍ وستر على العباد، فهو منَّةٌ عظيمة لا تقع إلّا مِن اللّه العظيم ﷻ.

نكتةُ إيثار فعل التَّكفير مضارعًا:

سترُ الذُّنوب من الافتضاح منَّةٌ من الفتاح

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ التَّكفير في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على ستر الذُّنوب عنهم وعدم افتضاحهم، فهو يتضمَّن العفو مع السَّتْرِ، وجيء به مضارعًا للدَّلالة على دوام الحكم واستمراره بدوام الإيمان والعمل الصالح.

علَّةُ تقييدِ التَّكفير بالجار والمجرور ﴿عَنۡهُمۡ﴾:

قيَّد النَّظمُ الجليل تكفيرَ السّيِّئات بشبه الجملة: ﴿عَنۡهُمۡ﴾ في

---

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 140.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 395.

المغفرةُ شاملةٌ لكلِّ السَّيّئات

قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، وحرف الجرِّ (عن) يدلُّ على المجاوزة، فالسّيئات ستُستر، وتنفصل عنهم؛ إشارةً إلى مغفرة جميع السّيئات، ولو قال: (من سيئاتهم)؛ لدلَّ على مغفرة بعضها، فالقيد ﴿عَنْهُمْ﴾ يشير إلى عِظم الإكرام وسعة المغفرة.

علَّةُ إيثار مفردة (السيئات) وجمعها:

كـثرةُ المـغـفـرة شملت العفوَ عـن جـمـيـع السَّيّئات

عبَّر النَّظمُ الجليل عن المعاصي بلفظ السَّيِّئة في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، وذلك لأنَّ السَّيِّئة تشمل الكفر والمعصية[1]، فالجمع دالٌّ على كثرة التَّكفير، وهو مناسب لورود التَّكفير بصيغة المبالغة، فتظافرت المفردات على بيان كثرة المغفرة وسعتها وشمول جميع سيّئاتهم.

دلالةُ إضافةِ (السيئات) إلى ضميرهم:

مقصودُ التَّكفير إكرامُ المؤمنين

أضافَ النَّظمُ الجليل السَّيِّئاتِ إلى الضَّمير الغائب العائد على أهل الإيمان والعمل الصّالح، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، دون أن يقول: (لنكفِّرنَّ عنهم السَّيِّئات)؛ للإشعار بمغفرة السَّيّئات المنسوبة إليهم لبيان مزيد الإكرام، فتكفيرُ السَّيِّئات هم المقصودون به؛ لأنَّ "الإنسان وإن اجتهد لا بدَّ أن يزلَّ؛ لأنَّه مجبول على النقص"[2].

معنى (الواو) في جملة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾:

الإنعام بالعفو متمَّمٌ بحُسنِ الجزاء

عطف النَّظمُ الجليل الجزاءَ على التَّكفير في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، فأتمَّ عليهم نعمتَهُ، فبعد أن بشَّرهم بالعفو عن سيِّئاتهم الموجبة للعقاب، أتمَّ تلك البشرى بالامتنان عليهم بعظم الثَّواب[3]، فلمّا كان التَّكفيرُ

---

(1) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 137.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 394.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 395.

محضَ تفضُّل منه ﷻ؛ دلَّ ذلك على بقاء حسناتِهم، فلم تُطرح عنهم مقابل العفو عن السَّيِّئات، وفيه تأكيدٌ لتفضُّله وكرمه لهم[1].

دلالةُ تأكيدِ الجملة في ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾:

الجزاءُ العظيم مؤكَّدٌ محقَّقٌ تفضُّلًا من المولى الكريم

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملة الفعليَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ باللّام الموطِّئة للقسم، ونون التَّوكيد الثَّقيلة، وفائدةُ ذلك تأكيد تحقُّق ذلك بلا ورود الشَّك عليه، وذلك لأنَّ الجزاءَ بأحسن الأعمال إنَّما هو محضُ تفضُّل من اللّه تعالى، فأكَّده تحقيقًا لوقوعه، وردًّا على استغراب سامعيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجزاء، وصوغه مضارعًا:

إنَّ اللّه لا يضيع أجرَ المحسنين

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الجزاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ تعبيرًا عن كون ما كافأهم اللّه تعالى به إنَّما هو بمقابل ما صلح من علمهم وما صدق من إيمانهم؛ وذلك لأنَّ الجَزاء يدلُّ على ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[2]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّد ذلك الجزاء ودوامه.

لطيفةُ إسنادِ المجازاة إلى ضمير العظمة في (نجزي):

الجزاءُ عظيمٌ لأنَّه من إلهٍ عظيم كريم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن الجزاء بالفعل الدالِّ على تعظيم المتكلِّم المفرد في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، دون أن يقول: (ولأجزينَّهم)؛ لأنَّه أرادَ تعظيمَ الجزاء بنسبته إلى عظمة المجازي، أي: نجزيهم ذلك الجزاء بما لنا من العظمة، وفيه إشارة إلى علوِّ رتبة الإيمان والعمل الصّالح وفخامة جزائهما.

نكتةُ تقديمِ التَّكفير على المجازاة:

قدَّم النَّظم الجليلُ تكفيرَ السّيئات على الجزاء الحسنِ في قوله

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 20/ 133.
(2) الرّاغب، المفردات: (جزا).

أزالَ داعي العذاب ليتمَّ الفرح بالتَّبشير

جلَّ شأنه: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، فبدأ بتكفير السّيئات، وقدَّمها على إعطاء الحسنات؛ لأنَّ التَّخلية قبل التَّحلية، فالله تعالى يطمئن عباده بأنَّه سوف يُطهِّرهم من هذه الذُّنوب قبل أنْ يعطيهم الحسنات[1]، فهو تبشير بمحو ما في صحائفهم ممّا يقلقهم من الافتضاح، فأزال داعي القلق؛ ليفرحوا بداعي البشارة والجزاء الحسن أتمَّ الفرح وأحسنه.

توجيهُ التَّعبيرِ بمفردة الحُسن دلالةً وصيغةً:

جمالُ الأعمالِ وحسنها يكافأ بحسن الجزاء وكماله

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ الأحسن في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ الحسن هو الشَّيء المبهج لمن ينظر إليه، والمرغوب فيه، وذلك من جهات العقل والشَّرع والهوى والحسِّ[2]، فدلَّ على كمال جزائهم وجودته، وجاء بصيغة المفاضلة؛ للتَّنبيه على أنَّه سيجزيهم على كلِّ أعمالهم، فإنَّه إذا جازاهم بالأحسن، فلا شكَّ أنَّه سيجازيهم بما هو دونه، فهو من التَّنبيه على الأدنى بالأعلى[3].

نكتةُ إضافة ﴿أَحْسَنَ﴾:

رتبةُ الأعمالِ معتبرةٌ برتبة أفضل أعمالهم في الجزاء

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الأحسن إلى أعمالهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على تعظيم الجزاء كلِّه؛ على أنَّ الجزاء يكون مقدَّرًا "بأحسن أعمالهم، وتقدير الكلام: لنجزينَّهم عن جميع صالحاتهم جزاء أحسن صالحاتهم"[4]، فلمّا كانت الأعمال متفاضلةً، وهي ليست برتبة واحدة، فإنَّ الجزاءَ عليها يكون مختلفًا بالأصل، ولكنَّ الله تعالى تفضَّل بمحض كرمِهِ أن يكون الجزاءُ برتبة واحدة، وهو الجزاءُ الذي يقابل أحسن أعمالهم، فرفع رتبة جزاء سائر الأعمال ﷻ.

---

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/ 11082 - 11083.
(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (حسن).
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 15.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 212.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

العملُ الذي يتَّصف بأعلى رتبة في الأجر هو معيار جزائهم

آثر النَّظمُ الكريم إيراد الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دون أن يقول (أحسن ما كانوا يعملون)؛ لأنَّه أراد التَّعبير عن فعل محدَّد وهو أفضل أعمالهم، فلمّا بيَّنَ أنَّه سيجازيهم جزاء أحسن عملهم؛ فإنَّه سيكون محدَّدًا بالفعل الأعلى رتبة في الأجر، وهو عمل محدَّد، فليس السّياق في الدَّلالة على عموم الأعمال.

توجيهُ المتشابه اللفظي:

خُصَّتْ هَذِه السّورَة بِـ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لأنَّ الحديث عن فعل محدَّد، وهو أفضل أعمالهم، وليس على عموم الأعمال، وخُصَّت آية النَّحْل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل: 97]، بِـ﴿مَا﴾؛ لكون الحديث عن عموم الأعمال بدلالة تنكير ﴿صَٰلِحًا﴾ [النحل: 97].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي:

صَلُح طبعهم فحسن عملهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بفعل الكون في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، دون أن يقول: (أحسن الذي يعملون)؛ لما في فعل الكون من دلالةٍ على رسوخ الفعل فيهم، أي: الفعل الذي عملوه قبل الإسلام وبعده، وقد رسخ في طبعهم فعْلُهُ[1]، فاعتادوا عليه حتّى سَهُلَ عليهم، فهُم يأتونه سجيَّةً بلا كلفة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالعمل دون الفعل:

يُعتبرُ العمل بالنّيَّة والقصد

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ العمل دون الفعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ العمل ما كان مقصودًا مرادًا، فهو يتضمَّن النّيَّة والقصد، والعمل إنَّما يكون

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 395.

معتبرًا متى ما قُصِدَ ونويَ، وبناء على هذا قال الفخر الرّازي: "هذا يقتضي أن تكون النّيَّة شرطًا في الصالحات من الأعمال، وهي قصد الإيقاع للّه"[1].

دلالةُ الانتقالِ من المُضيِّ إلى المضارعة:

الأعمالُ الصّالحة راسخةٌ في طباع المؤمنين متجدِّدة في سائر أزمانهم

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بعد ورود فعل الكون الماضي في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على دوام التَّجدُّد والاستمرار في أفعالهم منذ القدم، فهم راسخون على تلك الأفعال مع تجديدها والدَّوام فيها، وهذا يدلُّ على إصرارهم على الخير والعمل الصّالح.

بلاغةُ المقابلة في الآية:

جـزاءُ الإيمانِ تكفيرُ السّيئات، وجـزاء العمل الصالح الأحسنُ

ذكرَ اللّه من أعمال العبدِ نوعين: الإيمانَ، والعملَ الصالح، وذكر في مقابلتهما من أفعال اللّه أمرين: تكفيرَ السَّيِّئات والجزاءَ بالأحسن، فتكفيرُ السَّيِّئات في مقابلة الإيمان، والجزاء بالأحسن في مقابلة العمل الصالح، وهذا من بديع نظم القرآن تناسقًا وتكاملًا[2].

۞ الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

السيئات والمعاصي:

المعصيةُ خلاف الطّاعة، والعناد وعـدم القبول بالأمر، والسَّيِّئة ضدُّ الحسنة

والسَّيِّئَةُ: الفعلةُ القبيحة، وهي ضدُّ الحسنة[3]، أمّا العِصيانُ؛ فهو خِلافُ الطّاعة، عَصى العبدُ رَبَّهُ؛ إذا خالَفَ أَمْرَه، وعَصَى فُلانٌ أميرَه؛ إذا لَمْ يُطِعْهُ، ويُقالُ للجَماعةِ؛ إذا خَرَجَتْ عَنْ طاعة السُّلْطان: قَدِ اسْتَعْصَتْ عَلَيْهِ[4]، ويقال: عَصا؛ إذا صَلُبَ، أي: اشتدَّ، واستعصى عليه الشَّيءُ، واعتَصَتِ النَّواة: اشتدَّت، ومن هذا جاءَ العصيانُ، فأصله الصَّلابة وعدم الانثناء، أو الانقياد: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 30.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 30.
(3) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عصا).

فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ [إبراهيم: 36][1]، فالمعصية نقيض الطّاعة، والسّيئة نقيض الحسنة، فيُلاحظ أنَّ العصيان يدلُّ على العناد، وعدم القبول بالأمر، وانتفاء الطّاعة، أمّا السَّيِّئة؛ فهي ارتكاب فعلٍ لا يقبله الشَّرع، فالمعصية أشدُّ من السَّيِّئة، لما فيها من دلالة على العناد والصَّلابة وعدم التَّقبُّل من الأصل، وقد عبَّر في الآية بالسَّيِّئات؛ لأنَّ المعاصي خلاف ما يلزم الإيمان، فهي لا تتصوَّر بمن قبل الإيمان، والتزم بالطّاعة.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عصو - عصى).

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العنكبوت: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكرُ اختلافِ النّاس في الاعتقاد يوجبُ بيانَ علاقة المؤمن بأقربائه المشركين

ذَكرَ الرّازي أنَّ وجهَ تعلُّقِ الآية بما قبلها هو: "لمّا بيَّن اللّه حُسْنَ التَّكاليف ووقوعها، وبيَّن ثواب من حقَّق التَّكاليف أصولها وفروعها تحريضًا للمكلف على الطّاعة؛ ذكر المانع، ومنعه من أن يختار اتِّباعه، فقال: الإنسانُ إنِ انقاد لأحد؛ ينبغي أن ينقادَ لأبويه، ومع هذا لو أمراه بالمعصية؛ لا يجوز اتِّباعهما فضلًا عن غيرهما، فلا يمنعنَّ أحدكم شيءٌ من طاعة اللّه، ولا يتبعنَّ أحدٌ من يأمر بمعصية اللّه"[1]، أي: لمّا بيَّن النَّظم الجليل أحوالَ النّاس من حيثُ الإيمان، وكان من دأب القرآن أن يبيِّن ما يجب على المؤمنين تجاه المخالفين لهم، وكان ممّا يجبُ على المؤمنين مناوأة الكافرين ومغاضبتهم، أتبع النَّظم ذلك في هذه الآية ما يجب على المسلم في معاملة الأقرباء وذوي الرَّحم من المشركين، فخصَّ منهم الوالدين؛ لأنَّهما أولى النّاس بالإحسان[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَوَصَّيۡنَا﴾: (وصى) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى وصْلِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، والوَصيَّةُ مِنْ هَذا القياسِ، كَأَنَّهُ كَلامٌ يوصَى، أيْ: يوصَلُ[3]، والوَصيَّةُ: التَّقدُّمُ إلى الآخر بما يعمل به مقترنًا بوعظ، من قولهم:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 31.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 212.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصى).

أرضٌ واصيَةٌ: متَّصلة النَّبات، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة: 132][1]، وأوصيْتُهُ بولده، أي: استعطفتُهُ عليه، وهذا المعنى: لا يقتضي الإيجاب، وأوصيته بالصَّلاة أمرتُهُ بها، وعليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: 153]، وقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: 11]، أي: يأمركم[2].

2) ﴿حُسۡنٗاۖ﴾: (حسن) أصْلٌ واحِدٌ، فالحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ[3]، والحَسَنَةُ: ضدُّ السَّيِّئَة، والإحْسانُ: ضدُّ الإساءَة، والحَسَنُ: ما حَسُنَ من كلِّ شيءٍ[4]، والحُسْنُ: عبارةٌ عن كلِّ مُبهِجٍ مرغوبٍ فيه، وأكثرُ ما جاءَ في القُرْآن في المُسْتَحْسَن مِن جهَةِ البَصيرَةِ[5]، والمقصود بالحُسنِ في الآيةِ: ما يَحْسُنُ من الفعل.

3) ﴿جَٰهَدَاكَ﴾: (جهد) أصْلُهُ المَشَقَّةُ والجُهْدُ الطّاقَةُ[6]، جَهَدَ دابَّتَهُ، وأجْهَدَها: إذا حَمَلَ عَلَيها في السَّيرِ فوقَ طاقَتِها، وجَهَدَ الرَّجُلُ في كَذا، أي: جَدَّ فيه، وبالَغَ، وجَهَدتُ اللَّبَنَ، فهوَ مَجْهودٌ، أيْ: أخْرَجْتُ زُبْدَهُ كُلَّهُ، وجَهَدْتُ الطَّعامَ: اشْتَهَيْتُهُ، والاجتهادُ والتَّجاهُدُ: بَذْلُ الوُسْعِ والمجهود[7]، والمعنى الجامع لكلِّ ذلك يدلُّ على إفْراغِ قوَّةِ الشَّيْءِ[8]، والجُهْدُ: الوُسْعُ والطَّاقَةُ، وهو بلوغك غايةَ الأمرِ الَّذي لا تألو عن الجهد فيه، تقول: جهدْتُ جهدي، واجتهدت رأيي ونفسي، حتَّى بلغتُ مجهودي، واجهد جهدَك في هذا الأمر، أي: ابلُغْ فيه غايتك[9]، والمراد في الآية: إفراغُ الوسع وبذل غاية الجهد.

4) ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾: (نبأ) أصله الإتيانُ من مكانٍ إلى مكان، يُقالُ للَّذي يَنبَأ من أرض إلى أرض: نابِئٌ، وسَيلٌ نابِئٌ: أتى من بلدٍ إلى بلد، ومن هذا القياس النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّه يأتي من مكان إلى مكان، والمُنبِئُ المُخبِرُ، وأنبَأته، ونَبَّأته[10]، والنَّبأ: خبر ذو فائدة عظيمةٍ

(1) الرّاغب، المفردات: (وصى).
(2) الفيّومي، المصباح المنير: (وصى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (حسن).
(5) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (جهد).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جهد).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جهد).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).

يحصل به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل: نبأٌ حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثَّلاثة[1]، والمراد به في الآية الكريمة: أخبركم بما كنتم تعملون.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

طاعةُ الله تعالى يجب أن تُقدَّم على كلِّ طاعة مع حفظ البرِّ لمستحقّيه

يُخبر النَّظمُ الجليلُ أنَّ الله تعالى بعظمته وجلاله قد أمر كلَّ إنسان، موصيًا إيّاه بأن يُحسن لوالديه غايةَ الإحسان، بأن يبرَّهما بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقَّهما، ويُسيء إليهما في قوله وعمله، ومع أنَّ البرَّ إليهما واجبٌ، فإنَّه لا ينبغي متابعتهما في حالة شركهما، فإنْ طلبا منك - أيُّها الإنسان - وألزماك أنْ تُشرك باللّه الواحد تعالى إلهًا ليس لك به علمٌ بكونه إلهًا؛ فلا توافقهما في الإشراك، فإنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وذلك لأنَّ مرجعكم جميعًا - أيُّها النّاس - يوم القيامة كائنٌ إليَّ لا إلى أحد آخر، فأحاسبكم على أعمالكم، وأجازي الذين أساؤوا بما عملوا، وأجازي الذين أحسنوا بالحسنى[2].

وقد روى مسلم والواحدي أنَّ هذه الآيةَ نزلت في سعد بن أبي وقاص، وذلك أنَّه لمّا أسلم جاهدته أمُّهُ؛ لأنْ يعود إلى الشِّرك، جاء في صحيح مسلم: «حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ لا تُكَلِّمُهُ أبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدينِهِ، ولا تَأْكُلُ، ولا تَشْرَبُ، ومَكَثَتْ ثَلاثَةَ أيّام حَتَّى غُشيَ عَلَيْها مِنَ الجَهْدِ، فَأنْزَلَ اللّه تَعالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ﴾»[3]، وكما لا يخفى أنَّ العِبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، فالحكمُ بوجوب الإحسان إلى الوالدين عامٌّ لكلِّ إنسان.

(1) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 627، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 347، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 16.

(3) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1748)، وينظر: الواحديّ، أسباب النّزول، ص: 341.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مع بُغض الشِّرك فإنَّ المؤمن لا ينفكُّ عن البرِّ بالوالدين

بلاغةُ العطف بالواو في ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

عطف النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 3]، فلمّا ذكر أنَّ الفتنة واقعةٌ - لا محالة - وكان الشِّرك أكبرَ المنكرات، وهو مناقض التَّوحيد، وكان المسلمون ينفرون منه ومن أهله أشدَّ النُّفور، أفاد العطف أنَّ الفتنةَ بالوالدين المشركَين هي من أشدِّ الفتنةِ، بخاصَّة إذا كانوا يدعون إلى شركهم، فأشار إلى ضرورة البرِّ بهم برغم شركهم[1].

الوصيَّة بالإحسان تدلُّ على فشوِّ الخير، وتأكيد الأمر

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل التَّوصية دون الأمر:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالتَّوصية دون الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ ولم يقل: (وأمرنا الإنسان بوالديه حسنًا)؛ لأنَّ التَّوصية تتضمَّن الخير والنَّفع لطرفي التَّوصية؛ الوالدين، والأبناء، فالفعل (وصّى) "يجري مجرى أمَرَ معنًى وتصرُّفًا غيرَ أنَّه يُستعمل فيما كان في المأمورِ به نفعٌ عائدٌ إلى المأمورِ أو غيره"[2]، كما أنَّ لفظ التَّوصية يشعر بتأكيد الأمر بالإحسان.

وصيَّة الله تعالى في الوالدين، عظيمة القدر جليلة الشَّأن

توجيهُ إسناد الفعل (وصَّى) إلى ضمير العظمة:

أسندَ النَّظمُ الجليل الفعل إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه فعل ذلك بما له من العظمة[3]، والمرادُ من ذلك بيانُ عظمة الوصيَّة، فهي صادرة من الإله العظيم، فيجب أن تُؤْخَذَ على أعلى محامل الجدِّ والإنفاذ.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

عرَّف النَّظم الجليل لفظَ الإنسان بالألف واللّام في قوله جل

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 395.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 31.

(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 14/ 395.

المأمورُ بالإحسان للوالدين جنس الإنسان

شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، وهي هنا لام الجنس التي تفيد الاستغراق(1)، فيكون شاملًا لكلِّ إنسان؛ فإنَّه يُطلق على الذَّكر والأنثى، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: 1 - 2]، ومعلوم: أنَّ اللّهَ لم يقصد الذكور خاصة(2)، كما أنَّه لم يقصد المؤمنين خاصَّة كذلك، فتكون هذه الوصيَّة جارية مجرى الحكم العام للإنسانيَّة جميعًا.

معنى (الباء) في القيد: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾:

الواجبُ إيصال الخير ملتصقًا بالوالدين

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، وهي هنا دالَّة على الإلصاق والمصاحبة(3)، فالمعنى: أنَّ الوصيَّة بالإحسان تقتضي إلصاق هذا الإحسان بهما، وهذا يدلُّ على تأكيد إيصاله لهم بتأكيد فعلهِ وإظهار الخير والإحسانِ لهم حتّى يرونه ظاهرًا مصاحبًا لهم.

نكتةُ تغليبِ الولادة دون الأبوَّة والإضافة فيها:

علَّةُ التَّوصية بالوالدين مبنيَّةٌ على التَّذكير بسبب الإيجاد

غلَّب النَّظمُ الجليل لفظَ الوالدين، وأضافَهُ إلى ضمير الإنسان، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، وذلك باعتبار لفظ الوالدة دون تغليب الأبوَّة، فلم يقل: (بأبويه)؛ والمراد التَّذكير بشأن الولادة؛ تهييجًا للسّامع وحثًّا على الامتثال لهذه الوصيَّة، وتذكيرًا بعلَّة التَّوصية، وهي كونهم سبب وجوده وولادته، فيكون ذلك أدعى للامتثال.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّمييز ﴿حُسْنًا﴾، ولطيفة تنكيره:

الاجتهاد في البرِّ مطلوب حتّى يكون البرُّ هو الإحسان ذاته

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ الحُسْن بصيغة اسم المصدر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾؛ للمبالغة في الإحسان

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 142.
(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 139.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 20/ 134.

ووجوبه، أي: إنَّ البرَّ بهما يجب أن يكون هو الحُسن ذاته؛ وذلك لبيان شدَّة حسنه[1]، والتَّنكير في ﴿حُسۡنٗاۖ﴾ يفيد تفخيمَ شأنه وبيان كماله، كما أنَّه يفيد التَّعميمَ والتَّكثير، فيشمل "الإحسان إليهما بكلِّ ما يمكنه من وجوه الإحسان، فيشمل ذلك إعطاء المال والخدمة ولين القول، وعدم المخالفة لهما وغير ذلك"[2].

نفيُ فكرة أنَّ دعوة الوالدين بإصرار إلى الشِّرك مسوِّغٌ لإهانتهما

توجيهُ المتُّشابه اللَّفظي:

وردتْ كلمة ﴿إِحۡسَانٗا﴾ في خمس آيات من القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ [البقرة: 83]، وفي قوله تعالى: ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: 36]، وفي قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ [الأنعام: 151]، وفي قوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: 23]، وفي الأحقاف: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: 15]، ويلاحظ أنَّ الآيات الأربع الأولى وردت في سياق النَّهي عن الإشراك بالله، فاستُعملتْ لفظة (إحسانًا)، أمّا آية العنكبوت؛ فذُكِرت فيها حالةُ شدَّة الحمل والوضع، وفي لقمان ذكرَ شدَّة الحمل ومدَّة الرَّضاعة: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: 14]، ولم يرد فيها لفظتا: الإحسان والحسن.

ولم ترد كلمة: ﴿حُسۡنٗاۖ﴾ إلّا في آية واحدة هنا في العنكبوت؛ وذلك لأنَّ ﴿حُسۡنٗاۖ﴾ آكدُ في الوصف من إحسانًا، فجاءت في هذه الآية: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾؛ لأنَّ هذه الآية تتعرَّض لمسألة صعبة

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 31، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 16.

(2) القنّوجي، فتح البيان: 10/ 168.

تمسُّ قمَّة العقيدةِ، التي يطلب الوالدان من الابن أن يشرك بالله؛ لذلك احتاج الأمر أنْ نوصي الابن بالحُسْنِ في ذاته، وفي أسمى توكيداته، فلم يقل هنا: (إحْسانًا)، إنَّما قال ﴿حُسۡنٗاۖ﴾؛ حتى لا يظنَّ أنَّ دعوتهما إياه بإصرار إلى الشِّرك مسوِّغٌ لإهانتهما، أو التَّخلي عنهما؛ لذلك يُعلِّمنا ربُّنا: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: 15][1].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾:

التَّوصية بالوالدين حاصلةٌ حتّى أثناء كونهما دعاةً للشِّرك

عطف النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾، والمعطوف محذوفٌ، وتقديره: (وقلنا له)، فعطف القول على التَّوصية، وذلك لأنَّ التَّوصية تتضمَّن القول[2]، فعطف قولًا على قولٍ، فجمع الأحكام التي أمر الله تعالى عباده المؤمنين تجاه الوالدَين المشركَين.

لطيفةُ تقييدِ جهادِهم إيّاه بـ (إن) دون (إذا):

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بأداة الشَّرط الدّالَّة على الشَّكِّ والاحتمال (إنْ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾، دون (إذا) الدّالَّة على تحقُّق الشَّرط؛ لأنَّ ليس كلُّ والدَين مشركين يقومان بمجاهدة ابنهما لردِّه إلى الشِّرك، فسيق الكلامُ على سبيل الاحتمال والافتراض.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمجاهدة، وصوغها ماضيًا:

إفراطُ الجهد وإفراغ الوسع يقابلُ بالصَّبر مع الإحسان

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ المجاهدة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهما يبذلان جهدهما بإفراط ومبالغة وإلحاح[3]، وصيغة المفاعلة تدلُّ على المشاركة، وقد تدلُّ على وقوع الفعل من طرف واحد على سبيل

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 19/ 11640.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 214.

القوّة والتّأكيد، فالصّيغة هنا دالّةٌ على أنّهما استفرغا الجهد في ذلك[1]، وعبّر عنها بالفعل الماضي؛ إشارةً إلى أنّ جواب الشّرط - وهو عدم طاعتهما - يجب أنْ يكون في حالة تحقُّق المجاهدة، وظهور إصرارهما على حثّه على الشّرك.

لطيفةُ إسناد المجاهدةِ إلى ضمير والديه:

قوّةُ المجاهدةِ ما وقعت بتعاون ومشاركة

أسند النَّظمُ الجليل فعلَ المجاهدة إلى ضمير التّثنية في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾؛ إشارة إلى أنّ كلا الوالدين يبذلان الجهد لصرف ابنهما عن الإيمان، وذلك يدلُّ على قوّة المجاهدة، فهي تقع بالاشتراك من الوالدين، ومع ذلك جاءت الوصيّة بالثّبات على البرِّ والإحسان إليهما، فيكون المعنى: على المؤمن التّمسُّك بدينه، وإن أُصِرَّ عليه أن يترك دينه، وعليه أن يبرَّ والديه، وإن اشتركا على تغيير معتقده.

دلالةُ إيقاع مجاهدتهما جميعًا على ضمير المخاطَب:

تظافرُ جهود الوالدين على ابنهما المقصود ببذل الجهد

عبَّر النَّظمُ الجليل بالضّمير المخاطَب مفعولًا به لفعل المجاهدة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي﴾؛ وذلك لبيان المقصود بالمجاهدة، وهو الإنسان المخاطَب ببرِّ الوالدين؛ تعبيرًا عن وقوع المجاهدة من الوالدين جميعًا على ابنهما، فجعل مجاهدتهما مخصوصةً به.

معنى (اللام) في ﴿لِتُشۡرِكَ﴾:

علّةُ المجاهدةِ إيقاع الشّرك بالمؤمن

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي﴾، وهي هنا دالّة على التّعليل، جيء بها لبيان علّة المجاهدة وغايتها، وهو إرغامُه على الشِّرك، فغاية المجاهدة الدّعوة إلى الشِّرك.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 395.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإشراك، وصوغه مضارعًا:

العقيدة الفاسدة هي الغاية الدّائمة للمشركين

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الشِّرك في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ لدلالته على مشاركةِ العبادةِ بين اثنين فأكثر، والشِّرْكُ العظيم: هو إثبات شريك للّه تعالى[1]، فعبَّر بذلك؛ للدَّلالة على إثباتِهم شريكًا للّه تعالى في العبادة، وعبَّر عن ذلك بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على أنَّ المرادَ من سعيهم دوامُ الإشراك وتجدُّده.

توجيهُ المتشابه في قوله: ﴿لِتُشْرِكَ﴾:

الأمرُ بالإحسان للوالدين في سياق البرِّ أشدُّ منه في سياق الشِّرك والابتلاء

أورد النَّظم الجليل قولَهُ جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ موافقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [لقمان: 15]، إلّا أنَّه فرَّق بينهما بحرف الجرِّ، فاستعمل في سورة العنكبوت: ﴿لِتُشْرِكَ﴾، وفي لقمان: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ [لقمان: 15]، فلِمَ قال هنا: ﴿لِتُشْرِكَ﴾، وقال هناك: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ [لقمان: 15]؟ وذلك لأنَّ المجاهدة في سورة لقمان "أشدُّ وأقوى مقارنةً بالمجاهدة في آية العنكبوت، ولذلك جاء بكلمة ﴿عَلَىٰٓ﴾ [لقمان: 15]؛ لتفيد المشقَّة والعلوَّ"[2]، فالسّياقُ في سورة لقمان كلُّه كان في توصية الأبناء بالإحسان للوالدين، فقرَّر الإحسان إليهما، حتّى في حالة حملهما الابنَ على الإشراك بما دلَّ عليه حرفُ الاستعلاء؛ فلذا زاد في سورة لقمان مزيدًا من الأوامر تجاه الوالدين: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ [لقمان: 15]، أمّا الإحسان إليهما في سورة العنكبوت على سبيل الاحتراس؛ لأنَّ السّياق في الشِّرك والفتن والابتلاء، وذكر الإحسان إليهما عرضًا، ولتقرير أخلاقِ المؤمن مع أقربائه المشركين، فأصلُ السّياق في الحديث عن الشِّرك والإيمان.

(1) الرّاغب، المفردات: (شرك).
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 20/ 134.

معنى (الباء) في القيد ﴿بِي﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾، وهي هنا دالَّة على الإلصاق، أي: إلصاق الشَّريك بالله تعالى.

علَّةُ تقييدِ الإشراك بالجار والمجرور ﴿بِي﴾:

الشِّركُ إثمٌ شنيع لتعلُّقِهِ بذات الله تعالى

قيَّد النَّظم الجليل الإشراك بشبه الجملة ﴿بِي﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾، وذلك لإظهار قباحة الشِّرك وشناعته، فلم يجعله مطلقًا، بل قيَّده بكون الشِّرك واقعًا بالله تعالى الخالق الحقِّ، فأفاد القيدُ بأنَّه شركٌ بالله الواحد مستحقِّ العبادة على جهة الإفراد والتَّوحيد.

براعةُ التَّعبيرِ بضمير المفرد في القيد ﴿بِي﴾، دون (بنا):

الإفرادُ أنسبُ لسياق التَّوحيد والنَّهي عن الشِّرك

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالضَّمير المفرد في القيد ﴿بِي﴾، دون الجمع في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِتُشۡرِكَ بِي﴾، دون أن يقول: (لتشرك بنا)، فترك ضميرَ الجمع الدّالَّ على التَّعظيم، وعبَّر بالمفرد، وذلك للنَّصِّ على المقصود بالشِّرك، وهو الله تعالى[1]، فنصَّ بالضَّمير المفرد على أنَّ العبادة واجبةٌ لإله واحد، فلمّا كان السّياق في النَّهي عن الشِّرك؛ كان من البلاغةِ التَّعبيرُ بضمير المفرد المناسب للتَّوحيد، لا بضمير الجمع المناسب لسياق التَّعظيم.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾:

لا تصحُّ عبادة مجهول الحال، ولا يُشهد لغير الله بالألوهيَّة

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ مفعولًا به للشِّرك[2]؛ وذلك لما فيه من الإبهام والعموم، فالإبهام دالٌّ على الجهالة بحال

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 395.

(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 140.

هذا الإله، والعموم يدلُّ على أنَّ كلَّ شيء ليس لك به علمٌ، لا يصحُّ اتِّباعه، والمعنى: وإن جاهداك لتشرك بي شيئًا[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَيۡسَ﴾:

انتفاءُ العلمِ المؤكَّد بوجود إلهٍ غير الله يوجب انتفاء الشَّريك عنه

آثر النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بـ ﴿لَيۡسَ﴾؛ لنفي العلم في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾؛ وذلك للدَّلالة على تأكيد انتفاء العلم، فـ (ليس) تدخل على الجملة الاسميَّة التي تدلُّ على تأكيد المعنى وثبوته، فيكون مؤدّى النَّفي بـ(ليس) أنَّ العلمَ منتفٍ على وجه التَّأكيد والثُّبوت، وإنَّما جعل النَّفي مؤكَّدًا؛ لأنَّه لا يوجد إلهٌ دونَ اللّٰه تعالى يمكن أن يعلم بشأنه؛ ليكون شريكًا للّٰه تعالى، وفائدة تأكيد النَّفي هنا: أنَّه "إشارةٌ إلى أنَّ نَفْيَ الشِّرك منَ العلمِ الضَّروريِّ، وأنَّ الفِطْرَةَ السَّليمةَ مَجْبولةٌ عليه"[2].

معنى (اللام) في القيد ﴿لَكَ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾، وهو هنا دالٌّ على التَّمليك، فمقصودُ النَّفي أنَّ المخاطَب لا يحوز على علم بإلهٍ يصحُّ أن يكون شريكًا للّٰه تعالى.

معنى (الباء) في القيد ﴿بِهِۦ﴾:

شرطُ العِلم بالإله أن يكون متَّصلًا وثيقًا

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء) الدّالِّ على الإلصاق، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾، وذلك للإشارة إلى أنَّ الإله الحقَّ يُشترط أن يكون العلم به علمًا ظاهرًا صحيحًا مؤكَّدًا، بحيث إنَّه علمٌ متَّصل وملتصق به؛ تعبيرًا عن اشتراط قوَّة العلم بشأن العقائد، فيكون المرادُ انتفاءَ هذا العلم المؤكَّد.

(1) النّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 666.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 142.

نكتةُ تقديمِ القيد في الآية:

يـنـتـفـي الـعـلـمُ بـوجـود إلـهٍ غير الله انتفاء مؤكّدًا

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبه الجملة من الجارّ والمجرور على المسند إليه، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾، وأصل العبارة: (ليس علمٌ به لك)؛ وعلَّةُ التَّقديم تخصيصُ انتفاء العلم بهذا الإله المجهول عن المخاطَب دون غيره، والمراد تقوية النَّهي، وذلك لأنَّ كلَّ أحدٍ ليس له علم بهذا الإله الذي يجاهد الوالدان؛ ليشركَ ابنهما به، فليس العلمُ المنفيُّ مخصوصًا بالمخاطَب، ولكنَّه جعله مخصوصًا به للمبالغة في انتفائه، والمرادُ من ذلك تقوية النَّهي عن الشِّرك.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ العلم نكرةً:

نـفـيُ الـدَّلـيـل الـعـلـمـي على وجـود إلـهٍ غير الله

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ العلم، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾، والعلم دالٌّ على إدراك الشَّيء بحقيقته[1]، فالمراد العلمُ الحقُّ الذي يستند على الدَّليل العقليِّ أو الشَّرعي، فلا يوجد دليلٌ تدرك به استحقاق تلك الأشياء العبادةَ[2]، وجيء به نكرةً؛ للدَّلالة على انتفاء أيِّ شيءٍ ممّا يمكن أنْ يُقال: له علم، أي: ليس لك أيُّ علم، وإنْ كان ضئيلًا.

نكتةُ تعليقِ النَّهي عن الإشراك على انتفاء العلم:

الواقعُ المحتوم انـتـفـاءُ الـدَّلـيـل عـن كـلِّ إلـهٍ مزعوم

مع أنَّ الإشراك مُحرَّمٌ كلُّه، فإنَّ النَّظم الجليل علَّق النَّهي عن الشِّرك بعدم وجود العلم، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾، فهل إذا وُجد العلم بالإله؛ جاز الشِّرك؟ مع أنَّ ظاهر النَّصّ يدلُّ على جواز الشِّرك في حالة وجودِ العلم بالإله، إلّا أنَّ هذه العبارة ليست تقييدًا، بل هي بيانٌ للواقع، والواقعُ أنَّه ليس هناك إلهٌ سوى اللّه ﷻ[3]، أي: إنَّك في كلِّ الأحوال لا يمكن

(1) الرّاغب، المفردات: (علم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 214.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 16.

أن تملك علمًا بصحَّة إلهٍ ما، هذا هو الواقع، فلا يدلُّ على أنَّه يجوز الإشراكُ في حالة تحقُّق العلم.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾:

معصيةُ الوالدين وانتفاء طاعتهما متعلِّقة بدعوتهما للشِّرك

أدخلَ النَّظمُ الجليل الفاء على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾؛ لتربطَ بين الشَّرط والجواب، فهي واقعة في جواب الشَّرط[1]، وجيء بها لأنَّ الجملة في الجواب جملة طلبيَّة إنشائيَّة يجب إلحاق الفاء بها؛ لتكون مرتبطةً بالشَّرط، فإنَّ النَّهي عن الطّاعة متعلِّق بوقوع المجاهدة على الشِّرك.

وجهُ التَّعبير بـ (لا) في قوله: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾:

الكفُّ عن طاعة الوالدين واجبٌ في حالة دعوتهما للشِّرك

عبَّر النَّظمُ الجليل بالجملة الإنشائيَّة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾، فهي جملة طلبيَّة أُنشئت للنَّهي بـ (لا) النّاهية الدّاخلة على الفعل المضارع، والمراد طلب الكفِّ عن طاعة الوالدين في حال تحقُّق الشَّرط، وهو الحمل والدَّعوة إلى الشِّرك، والنَّهي دالٌّ على وجوب الكفِّ، فالطّاعة محرَّمة في تلك الحال.

دلالةُ المضارعةِ في الفعل ﴿تُطِعۡهُمَآۚ﴾:

على المؤمن عدمُ تلبيةِ دعوة الشِّرك بإصرارٍ واستمرارٍ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالفعل المضارع عن الطّاعة المنهيِّ عنها في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الكفَّ عن الفعل مطلوبٌ على وجه الدَّوام والاستمرار، فعدمُ طاعة الوالدين في دعوتها للشِّرك يجب إيقاعها على وجه الإصرار والدَّوام.

توجيهُ الجمع بين الإحسان وعدم الطاعة للوالدين:

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

جمعَ النَّظمُ الحكيم بين الأمر بالإحسان للوالدين والتَّوصية به مع النَّهي عن طاعتهما، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾، ففي صدر الآية بدأ بالوصيَّة بهما، وفي أثنائها نهى عن طاعتهما،

(1) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 140.

وتوجيه ذلك أنَّ الجمع بينهما للتَّنويه بأنَّ الوصيَّة بالإحسان إليهما، لا تقتضي طاعتهما في السّوء ونحوه، وأنَّ المقصودَ تأكيدُ الإحسان إليهما في سائر الأحوال إلّا حال الأمر بالشِّرك، فالقصد من الجمع ألّا يقعَ المسلمون في التباس بين الأمر بالإحسان، والأمر بالعصيان في شأن الوالدين، فظهر أنَّه لا تعارض بينهما؛ لأنَّ أمرهما ابنهما بالشِّرك وعصيانه لا يعدُّ عصيانًا بشيء يخصُّهما[1].

معنى (إلى) في قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ﴾:

نهايةُ أمرِ النّاس ومرجعُهم لله تعالى دون سواه

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ (إلى) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على انتهاء الغاية، أي: إنَّ نهاية الرُّجوع كائنةٌ إلى اللّه تعالى، فمنتهى كلِّ شيء إلى اللّه تعالى؛ إشارة إلى أنَّ الحكم بينهم في شأن الاعتقاد ستظهر حقيقته يوم الحساب.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّمير مفردًا في ﴿إِلَيَّ﴾ دون (إلينا):

الضَّميرُ المفرد أبلغُ في بيان التَّوحيد

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالضَّمير المفرد دون الجمع، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، دون أن يقول: (إلينا مرجعكم)، فلم يعبِّر بضمير الجمع الدّالِّ على التَّعظيم، بل عبَّر بالضَّمير المفرد، وذلك للنَّصِّ على أنَّ الرَّجوعَ كائنٌ إلى اللّه تعالى وحده، فلمّا كان سياق الآية في التَّوحيد، والنَّهي عن الشِّرك، أورد النَّصُّ الضَّمائرَ بصيغة الإفراد؛ تعزيزًا لأمر التَّوحيد، ولم يسلك السّياق طريقَ التَّعظيم، فلم يأتِ بالضَّمائر بصيغة الجمع، وهذا من لطائفِ البلاغة القرآنيَّة، فنصَّ بالضَّمير المفرد على أنَّ المرجعَ يوم القيامة كائنٌ لإلهٍ واحد ﷻ.

نكتةُ تقديم الجار والمجرور ﴿إِلَيَّ﴾:

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على المسند

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 213 - 214.

تثبيتُ المؤمنين ببيان اختصاص الرُّجوع بالله تعالى

إليه، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾، فلم يقل على الأصل: (مرجعكم إليَّ)، وذلك لإرادة الحصر والتَّخصيص، فالرُّجوع مختصٌّ محصور بأنَّه إلى اللّه تعالى لا إلى أحدٍ سواه[1]، والإخبار بذلك حثٌّ للمؤمنين على التَّمسُّك بالتَّوحيد إزاءَ مجاهدة الوالدين له، وترهيبٌ للمشركين الذين يدعون النّاس إلى ترك التَّوحيد واتِّباع سُبُلِ المشركين.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمرجع دون الرجوع:

الرُّجوعُ إلى الله تعالى مؤكَّدُ الوقوع

"المصدر الميمي يصوِّرُ المعنى المصدري واقعًا قائمًا متحقِّقًا في الوجود، أمّا المصدرُ غير الميمي؛ فيصوِّر المعنى مجرَّدًا، فإذا كانت كلمة مقال بمعنى القول؛ فإنَّ التَّعبير بالقول يصوِّر معنًى مجرَّدًا من غير نظر إلى كونه تحقَّق وجوده أم لا، أمّا كلمةُ مقال؛ فتصوِّر معنى وجد، وتحقَّق، أو في صورة الوجود المتحقَّق"[2]، وعلى هذا يكون معنى ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾: أنَّ المرجع إلى اللّه تعالى حقيقةٌ واقعة مؤكَّدة، لا مراء فيها، ولا شكَّ، وهو معنًى لا يؤدّيه المصدر المجرَّد (الرجوع)؛ لأنَّ السّياق في المجادلة في الشِّرك والمجاهدة في الدَّعوة إليه وفي تثبيت المؤمنين، فعبَّر بأنَّ الرُّجوع مؤكَّدُ الوقوع، مع قوَّة الرُّجوع بحيث إنَّه رجوعٌ للحساب مع حضور الأعمال لا مطلق الرُّجوع.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾:

المختلفون في شأن الاعتقادِ كلُّهم راجعون إلى الله تعالى للحساب

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ المرجع إلى ضمير المخاطَبين في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ للدَّلالة على أنَّ الجميع عائدون إلى اللّه تعالى مَن آمَنَ ومَن أشركَ، ومَن برَّ بوالديه ومَن عقَّهما[3]، كما أنَّه يشير إلى أنَّكم - أيُّها المخاطَبون - ميّتون، ثمَّ بعد ذلك

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 347.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/ 647.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 31.

سوف ترجعون إلى الله تعالى وحده، وأنَّه سيُحاسبكم على معتقدكم جميعًا، فهو دعوة للتَّحرّي واتِّباعٌ عن عِلْمٍ ودراية لا عن جَهْلٍ.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾:

علّةُ الرُّجوع الإخبارُ بالحقّ وإنصاف أهله

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله عزَّ اسمُه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ بالفاء العاطفة[1]؛ وذلك للدَّلالة على التَّعقيب والتَّرتيب، فالإنباء مترتِّبٌ على الرُّجوع، ويقع إثرَهُ، ومشعرة بالسَّببيَّة[2]، أي: إنَّ سبب الرُّجوع كائنٌ للإنباء بما عملوا، أي: إنَّ سببَ البعث إقامةُ العدل وإظهار الحق، وإنصاف أهل الحقِّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّنبئة دون الإنباء، وصوغها مضارِعةً:

الإخبارُ عن حوادث الدُّنيا ومعتقدات أهلها حدثٌ عظيمٌ ونبأٌ خطيرٌ

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الإنباء بصيغة التَّفعيل في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأنَّ الإنباء دالٌّ على الإخبار العظيم، أي: أخبركم إخبارًا عظيمًا[3]، وجاء بصيغة التَّفعيل للدَّلالة على قوَّة الإنباء وتأكيده، والمعنى: فأخبركم إخبارًا ينتفي به الشَّك عن الجزاء الفاصل بين المحقِّ والمبطل منكم[4]، وجيءَ بِهِ بصيغة المضارع للدَّلالة على دوام ذلك الإنباء وتصويره وجعله متخيَّلًا لهم.

بلاغةُ الكناية في الفعل: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾:

الإنباءُ بالأعمال سببٌ لتحقيق الجزاء، وتهديدٌ بالافتضاح

كنّى النَّظمُ البليغ بالإنباء في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عن المجازاة، فهو تحذيرٌ من الجزاء يوم القيامة، ودعوةٌ للإيمان والتَّوحيد؛ لأنَّ الإنباء سببٌ لطروق الجزاء إليهم، وفيه إشارةٌ إلى تهديدهم بالافتضاح على رؤوس الأشهاد[5].

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 313.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 396.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 396.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/ 452.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 396، وينظر: إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 449.

دلالةُ إفرادِ ضمير الفاعل في ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾:

المنبئُ عن أعمال العباد يوم الحساب واحد

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة الإفرادِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، دون الجمع، فلم يقل: (فننبِّئكم)، فترك التَّعبيرَ بصيغة التَّعظيم، وعبَّر بصيغة المفرد، وذلك للنَّصِّ على أنَّ المحاسبَ والمُنبئَ واحد، وهذا أنسبُ لمقام التَّوحيد والدَّعوة إلى الثَّبات عليه، فالسّياق في النَّهي عن الشِّرك والثَّبات على التَّوحيد، فأمر بترك طاعة الوالدين حال أمرهما بالشِّرك، فكان من تمام البلاغة بيانُ أنَّ الإلهَ الحقَّ الذي سترجعون إليه، وينبِّئكم بما تفعلون هو واحدٌ في الإنباء والمرجع.

معنى (الباء) في القيد ﴿بِمَا﴾:

عِلمُ الله تعالى متَّصلٌ بكلِّ فعل من أفعال عباده

عبَّر النَّظم الجليلُ بحرف الجرِّ (الباء)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهي هنا دالَّةٌ على الإلصاق[1]، وذلك للدَّلالة على قوَّة الإنباء، فكأنَّ الإنباء لقوَّة وصفه وإظهاره الأعمال يقع فيها، ويلتصق بها.

علَّةُ التَّعبير بالموصول (ما):

وكلُّ شيءٍ أحصاه عددًا

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول (ما) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على الإنباء يشمل كلَّ الأعمال صغيرها وكبيرها، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: 47]، وذلك لما فيه من دلالة على العموم والإبهام.

براعةُ المقابلة بين: ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

الإنباء عامٌّ بكلِّ فعل، وجزاء المؤمنين بأفضل عمل من أعمالهم

عبَّر النَّظمُ الجليل عن وصيَّة الله تعالى لعباده المؤمنين بالإحسان إلى الوالدين المشركين، فأخبر بقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أمّا في الإخبار عن جزاء المؤمنين يوم القيامة؛

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 20/ 134.

فأخبرَ بقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، فاستعمل ﴿ٱلَّذِى﴾ في جزاء المؤمنين؛ لأنَّه جعل جزاءهم تبعًا لأفضل عمل جاؤوا به، أمّا الإنباء؛ فيقع على عموم الأعمال، فقال: (ما).

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الكون ﴿كُنتُمْ﴾:

من دأبَ على عملٍ صار راسخًا فيه

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل الكون، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، دون أن يقول: (فأنبِّئكم بما عملتم)؛ وذلك للدَّلالة على أنَّهم كانوا يأتون تلك الأعمال برغبة[1]، ويداومون عليها بإصرار، حتّى صارت لهم طبعًا راسخًا بهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مادَّةً وصيغة:

العملُ المقصودُ هو مناط الحساب والتَّكريم

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ العمل دون الفعل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ العمل ما كان مقصودًا مرادًا، أمّا الفعلُ؛ فهو مطلقٌ في كلِّ الأفعال، فدلَّ ذلك على أنَّ الحساب والإنباء يشمل ما فُعِلَ بقصدٍ وإرادة له، وجيء به بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على أنَّ عملهم الذي سيخبرون به هو من الأعمال التي كانوا دائبين عليها، يفعلونها باستمرار وإصرار، فأكَّد معنى التَّجدُّد في المضارع إصرارهم على الفعل المعبَّر عنه بفعل الكون.

دلالةُ حذف متعلّق ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

أعمالُ الخيرِ وأعمال الباطل كلُّها ستعرض يوم القيامة

أطلقَ النَّظمُ الجليل الفعلَ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ عن المتعلِّق، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الإنباءَ يشمل المؤمنين والمشركين، فكان الإطلاق أنسبَ؛ للدِّلالة على عموم الأعمال: السَّيِّئ منها والصّالح، وأعمال التَّوحيد والإشراك.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 396.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّوصية والأمر:

الأمْرُ ضِدُّ النَّهْيِ[1]، وهو التكليفُ بفعل شيء[2]، أمّا الوصيَّة؛ فهي التَّقدُّمُ إلى الآخر بما يعمل به مقترنًا بوعظ[3]، فالأمرُ تكليفٌ وإلزام، والتَّوصية إرشادٌ ودلالة إلى الخير وما فيه النَّفع، بطريقة الوعظ والتَّعليم، وقد آثرَ في الآية لفظَ الوصيَّة لما في الأمر بطاعة الوالدين والإحسان إليهما من منافعَ وخيرَ وبركة للنّاس جميعًا، فكلُّ النّاس يمرّون بمرحلة الأبوَّة والبنوَّة، فالنَّفع عامٌّ للجميع بهذه الوصيَّة.

الأمــرُ تكـليفٌ ملزم، والوصيَّة إرشادٌ إلى نفع

الطاعة والامتثال:

تدلُّ الطّاعة عَلَى الإِصْحابِ والانْقيادِ، والموافقة للآخر، أمّا الامتثالُ؛ فهو من المماثلة، وهو أصلٌ يَدُلُّ عَلَى مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ[4] واحتذائه[5] وسلوك طريقته واتِّباعها من غير أن يعدوَها[6]، فالامتثال يدلُّ على أنَّ الشَّخص يفعل مثل ما يُؤمَرُ به، ولا يُشترط فيه الرِّضا، أمّا الطّاعة؛ ففيها قَبولٌ ورضا عمّا يُطاع، وفي الآية جاء النَّهي عن الطّاعة لا عن الامتثال؛ لأنَّ المطلوبَ مِنَ المؤمن تَرْكُ الشِّرك؛ لأنَّه لا يرضاه.

الـطّـاعـة فعـلُ المـأمـور بـرضا وقـــبـــول، والامتثال فعلُهُ بلا شرط الرِّضا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(2) الرّاغب، المفردات: (أمر).
(3) الرّاغب، المفردات: (وصى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(5) الجوهريّ، الصحاح: (مثل).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (مثل).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩﴾

[العنكبوت: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا عمل ينجي صاحبه يوم الإنباء بالأعمال غير الإيمان المتبوع بالعمل الصّالح

بعد أن أمرَ المولى تعالى ببرِّ الوالدين، وأعقب ذلك ببيان أنَّ مرجعهم إليه يوم القيامة، فيخبرهم بما عملوا في الدُّنيا؛ أتبع ذلك ببيان فضيلة الإيمان والعمل الصّالح وعظيم الجزاء عليه، فبيَّن تعالى أنَّ مَن يؤمن، ويعمل الصّالحات يدخله اللّه في زمرة الأنبياء والأولياء[(1)].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الوعدُ الإلهيُّ بإدخال المؤمن العامل في زمرة الصّالحين في الجنَّة

يخبر النَّظمُ الكريم أنَّ مَن آمن باللّه تعالى، وأتبع ذلك الإيمان بالعمل الصّالح، فإنَّ اللّه وعده أن يدخله الجنَّة في زمرة عباده الصالحين، من النَّبيّين والصِّدّيقين والشُّهداء والصّالحين، فالإيمانُ باللّه تعالى ورسله والتَّصديق بما جاؤوا به، والعمل الصّالح عنوان على سعادة صاحبه، فاستحقَّ أن يدخله اللّه تعالى في عداد الصالحين من عباد اللّه تعالى[(2)].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواو في ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الثَّبات على التَّوحيد والإحسان إلى الوالدين من علامات المؤمن

افتتح النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالواو الاستئنافيَّة[(3)]، والجملة مستأنفة سيقَتْ للتَّصريح بما أفادته الكنايةُ في الإنباء في قوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وذلك للاهتمام بجزاء

(1) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 116.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 627.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 375.

المؤمنين[1]، فاقتصر على بيان جزاءِ المؤمنين بعد ذكر الإنباء يوم القيامة؛ لأنَّ السّياق في توصية المؤمنين وحثّهم على الثَّبات على التَّوحيد، والصَّبر على الأذى والابتلاء، وأجاز الإمام البقاعيُّ أن تكون الواو للعطف، والجملة معطوفةٌ على جملة محذوفةٍ لدلالة السّياق عليها، والتَّقدير: (فأنبِّئكم بما كنتم تعملون، فالَّذين أشركوا، وعملوا السَّيِّئات؛ لندخلنَّهم في المفسدين)، فعطف عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ زيادةً في الحثِّ على الإحسان إلى الوالدين[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

علَّةُ التَّكريم مضمَّنةٌ بصلة الموصول

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاسم الموصول دون الاسم الصَّريح في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لما في الموصول من دلالةٍ على علَّة الحكم بما تضمَّنته صلتُهُ، فالإيمان والعمل الصّالح هما علَّةُ التَّكريم بعد رحمة اللّه تعالى وتوفيقه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإيمان وصياغته ماضيًا:

أعلى رتبةِ الأعمال الإيمانُ بالله

عبَّر النَّظمُ الجليل في إخباره عن أهل الحقِّ بصفة الإيمان، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وذلك لأنَّ الإيمانَ أعلى الأعمال رتبةً في الخير، وهو رأس الأمر، وآثر أنْ يأتي به بصيغة الفعل الماضي لما فيه من دلالة على تحقُّقه ورسوخه فيهم.

دلالةُ عطفِ العمل الصالح على الإيمان:

الإيمانُ تصديق بالجنان وتحقيقه ما تفعله الأركان

عطف النَّظمُ الجليل العمل الصّالح على الإيمان في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ إشارةً إلى تحقُّق إيمانهم بما عملوا من الصّالحات[3]، وأنَّ الإيمان لا يتمُّ ما لم يصدِّقه العمل،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 215.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 397.
(3) الخطيب، السّراج المنير: 3/ 126.

وأنَّ العمل لا يُقبل ما لم يكن إيمان، كما أنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ، فيكون العمل الصّالح غيرَ الإيمان؛ لأنَّه فرعٌ عنه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالعمل دون الفعل، وصوغه ماضيًا ﴿وَعَمِلُواْ﴾:

المرءُ مؤاخذٌ بما قصدَ مِنَ العمل

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ العمل دون الفعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ لأنَّ العمل ما كان مقصودًا مرادًا، والفعل عامٌّ في الأفعال؛ إشارةً إلى أنَّ الفعل المعتبر في الحساب والجزاء ما بُني على نيَّةٍ وقصدٍ، ومِنَ المعلوم أنَّ النِّيَّة مشروطةٌ في الأعمال، وذلك بأن يوقع العمل للّه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

صلاحُ العملِ يُبقي الأعمال؛ لأنَّه أُريد بها الباقي تعالى

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ الصّالحات في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ للدِّلالة على بقائها ونفعها؛ لأنَّ الصّالح نقيضُ الفاسد، والفاسد هو الهالك والتّالف، فكما أنَّ فسادَ الزُّروع يدلُّ على هلاكها وانتهاء الانتفاع بها، فكذلك يدلُّ صلاحها على بقاء الانتفاع بها، فالعمل الصّالح باقٍ؛ لأنَّه أريد به وجه اللّه تعالى، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88]، فينبغي أن يكون العمل لوجه اللّه؛ حتى يبقى، فيكون صالحًا، وعليه فإنَّ العمل الصّالح هو الذي يأتي به المؤمن خالصًا للّه تعالى[2]، وجيء بها على صيغة اسم الفاعل للدَّلالة على ثبوت صفة الصَّلاح فيها.

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ودلالة جمعها:

كلُّ عملٍ صالحٍ مِن جنسِ الصّالحات قد حقَّقه أهلُ الإيمان وقصدوه

عرَّف النَّظمُ الجليل لفظَ الصّالحات بالألف واللّام الدّالَّة على الجنس في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 29.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 30.

﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ للدّلالة على أنَّهم قد عملوا كلَّ عملٍ من جنس الأعمال الصّالحات، فتشمل كلَّ أعمالِ الخير من الواجبات والمستحبّات[1].

علّةُ تقديمِ الإيمان على العمل في: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ﴾:

الإيمانُ شرطٌ لقبول العملِ

قدَّم النَّظمُ الجليل ذكرَ الإيمان على العمل الصّالح في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ قبول العمل مشروط بتقدُّم الإيمان، فالعمل بلا إيمان لا يُقبل[2].

دلالةُ توكيدِ جملة ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ﴾:

وعْدُ اللهِ تعالى منجزٌ محقَّقٌ

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بلام القسم ونون التَّوكيد الثَّقيلة، والتَّقديرُ: (وعزَّتي وجلالي؛ لندخلنَّهم)، وعلَّة التَّوكيد أنَّ "الصّالح في الغالب سيِّئَ الحال في الدُّنيا، ناقصُ الحظِّ منها، فكان عدوُّه ينكر أن يحسِّنَ حالَهُ أشدَّ إنكارٍ، فأكَّد قوله: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ﴾، أي: بوعدٍ لا خُلف فيه"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الإدخال:

الدُّخولُ في حيِّزِ الصّالحين مكافأةٌ للإيمان والعمل الصّالح

عبَّر النَّظم الجليل بالإدخال في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ للدِّلالة على أنَّهم أُدخلوا بفعل فاعل، وهو الله تعالى، فأكرمهم بذلك الإدخال، كما يدلُّ على أنَّهم أُدخلوا بعد أن كانوا خارج هذه الزُّمرة، وذلك أنَّ الدُّخول نقيضُ الخروج[4]، وهذا يدلُّ على أنَّ للصّالحين حدودًا، هي عبارة عن أعمالهم وصفاتهم وجزائهم يوم القيامة، فالإدخالُ فيهم شهادةٌ لهم بالصَّلاح.

---

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 627.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 30.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 397.

(4) الرّاغب، المفردات: (دخل).

اسـتـجـلابُ صـوةِ الإدخـال تهييجٌ وتشويقٌ للسّامع

توجيهُ استعمالِ الفعل (نُدخل) مضارعًا:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع عن الإدخال في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ تصويرًا للحدث، واستحضارًا للصّورة، وهو حدث عظيمٌ وإكرام جليل "وناهيك به من مدخلٍ، فإنَّه من أبلغ صفات المؤمنين"[1].

الإدخالُ في زمرة الصّالحين شأنُ العـظيـم ربِّ العالمين

دلالةُ صيغة التَّعظيم في: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل عن فعل الإدخال بصيغة الجمع دون الإفراد، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فلم يقل: (لأدخلهم)، وذلك لتعظيم ذلك الإدخال، أي: ندخلهم بما لنا من العظمة في زمرة الصّالحين.

زمرةُ الصّالحين ظـرفٌ للإنعـام والإكرام

دلالة التعبير بـ ﴿فِي﴾:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على إدخالهم في عداد الصّالحين، أي: نجعلهم من جملة الصّالحين - وهم الأنبياء والأولياء - كما يقال الفقيه داخل في العلماء، وأوَّله بعض المفسِّرين على حذف مضاف، وتقديره: ندخلهم مدخَلَ الصّالحين، أو في دار الصّالحين في مقام الصّالحين، أي: الجنَّة[2]، والظَّرفيَّة هنا مجازيَّة، فكأنَّ الصّالحين ظرفٌ يحوي على الذين آمنوا، وعملوا الصّالحات؛ وذلك للدَّلالة على المبالغة في كونهم منهم، فهم صاروا جزءًا منهم.

نكتةُ تعريف ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ولطيفة جمعهم:

"الصَّلاحُ مِن أبلَغِ صفاتِ المؤمنينَ، وذلك أنَّ الصَّلاحَ ضِدُّ الفسادِ، والفسادُ: خروجُ الشَّيءِ عن كوْنِه مُنتفَعًا به، ولا كمالَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 397.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 33، وابن عادل، اللباب: 15/ 320.

للإنسان أكملُ من حُصولِه على ما خُلِقَ له منَ البقاءِ"[1]، وعرَّف النَّظمُ الجليل لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على جنس الصّالحين، أي: زمرة الصّالحين وجماعتهم[2]، وعبَّر عن ذلك بصيغة الجمع؛ للدَّلالة على كونهم جماعة وزمرة مشهورة بهذا الوصف.

الصّالحون زمرةٌ مشهورة بالصَّلاح حازوا الوصف حيازةَ الاسم على المعنى

وجهُ التَّعبيرِ عن الصّلاح بصيغة اسم الفاعل:

عبَّر النَّظمُ الجليل عن الصّالحين بصيغة اسم الفاعل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وذلك للدَّلالة على ثبوت صفة الصَّلاح في هذه الزُّمرة، فهم راسخون في الصَّلاح، وهي أبلغ صفات المؤمنين، فقد سألها الأنبياء الكرام، قال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل: 19]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101][3].

صفةُ الصَّلاح راسخةٌ فيهم لا تزول

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّلاح والفلاح:

الفلاحُ أصله من (فَلَحَ)، وهو يدلُّ عَلَى فَوْزٍ وبَقاءٍ[4]، وهو: الفوز والنَّجاة[5]، أي: الظَّفَرُ وإدراك البغية[6]، أمّا الصَّلاح؛ فهو يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الفَسادِ[7]، والصّالح من عباد الله هو الذي تتَّفق أعماله مع ما يطلبه الشَّرع، أو يرضاه[8]، فالفلاح النَّجاة والفوز، أمّا الصَّلاح؛ فهو الخلوُّ من صفات الفساد، فالصَّلاح هو الأعمال، والفلاح هو النَّتيجة.

الفلاحُ النَّجاة والظَّفر وهو نتيجة الصَّلاح

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 144.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 32.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 10/ 169.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (فلح).
(6) الرّاغب، المفردات: (فلح).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلح).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صلح).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾

[العنكبوت: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شأنُ النّاس مع الدّين إمّا مؤمن، وإمّا كافرٌ، وإما منافق

بعد أن بيَّن النَّظم الجليل حالَ قسمين من النّاس، وكان من المعلوم أنَّ شأنَ النّاس مع الدّين ينقسم إلى ثلاثة أقسام: مؤمن حسن الاعتقاد والعمل، وكافر مجاهر بالكفر والعناد، والثّالث: مذبذب بينهما، منافقٌ يُظهِر الإيمانَ بلسانه، ويُبطن الكفرَ في قلبه، فلمّا بيَّن حال الصِّنفين الأوَّلين في الآيات السّابقة؛ أتبعه هنا ببيان حال القسم الثّالث، وهم المنافقون بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أُوذِيَ﴾: (أذي) أصلٌ واحدٌ، وهو الشَّيءُ تتكرَّهُهُ، ولا تَقرُّ عليه[2]، والأذى: ما يصل إلى الحيوان من الضَّرر إمّا في نفسه، أو جسمه، أو تبعاته دنيويًّا كان أم أخرويًّا، قال تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ [النساء: 16] إشارةٌ إلى الضَّرب[3]، والأذى قد يكون مادّيًّا، وقد يكون معنويًّا، فمنه ما يطالُ البدنَ، ومنه ما يصيبُ العِرْضَ، ويؤلمُ القلبَ، أو يمسُّ الدّينَ والقيمَ، وذلك أشدُّ وآلمُ على الإنسان منَ الأذى المادّيِّ، وكلُّ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 118، وينظر: البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 397.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذي).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذي).

ما جاء في القرآن مِنَ الأذى والإيذاء؛ فمعناه الإيلامُ النَّفسيُّ، وهو من التَّكرُّه، أو البدنيُّ غيرُ المُبَرح[1].

2) ﴿فِتْنَةَ﴾: (فتن) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ابْتِلاءٍ واخْتِبارٍ، مِنْ ذَلِكَ الفِتْنَةُ، وفَتَنْتُ الذَّهَبَ بِالنّارِ؛ إذا امْتَحَنْتُهُ[2]، وهو أصل الفَتْن: بإدخال الذَّهب النّارَ؛ لتظهرَ جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النّار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: 13]، ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: 14]، أي: عذابكم[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

من سمات المنافقين التَّذبذب في الاعتقاد لأجل عرضٍ زائل من الدُّنيا

يخبر النَّظم الكريم أنَّ فريقًا من النّاس يقول قولًا بلسانه، لا يوافق ما في قلبه: آمنّا باللّه ووحدانيَّته، فإذا نزلت به مصيبةٌ بأن يؤذيه المشركون لأجل إيمانه سوّى بين عذاب النّاس في الدُّنيا وعذاب اللّه في الآخرة، فارتدَّ عن الإيمان، ورجع إلى الكفر، وكان ينبغي أن يصبر على الأذى، ويجعل قلبَهُ مطمئنًّا بالإيمان، ولكنَّه جعل فتنة النّاس تصرفه عن الإيمان، كما أنَّ عذاب اللّه يصرف المؤمنين عن الكفر[4]، وهؤلاء المنافقون لا يثبتون على طريق واحد، فإنَّ نصرَ اللّه تعالى المؤمنين، وفتح عليهم، وكسبوا المغانم؛ فإنَّ المنافقين سيقسمون: إنّا كنّا معكم إخوانًا في الدّين ننصركم على أعدائكم، كذبًا من عند أنفسهم، فتوعَّدهم اللّه تعالى على كذبهم هذا، وذكر أنَّه عليمٌ بما في صدورهم، لا تخفى عليه منهم خافية، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ فكيف يجرؤون على الكذب على اللّه تعالى بإظهار الإيمان وإسرار الكفر، مبتغين السَّهم من الغنيمة[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أذي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن).
(3) الرّاغب، المفردات: (فتن).
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 349.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 119 - 120.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ الآية بالواو:

المنافقون قسمٌ آخرُ من النّاس

افتتح النَّظم الجليل الجملةَ بالواو، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وهي دالَّة على الاستئناف، فالجملة مستأنفةٌ مسوقة لبيان حال المنافقين، بعد أن بيَّن السّياق حال المؤمنين والمشركين[1]، وهؤلاء النّاس هم فريق ممَّن أسلم في مكَّة قبل الهجرة، وكانوا لا يصبرون على أذى المشركين، فعند لحوق الأذى بهم يرجعون إلى الشِّرك، ويظهرون الإيمان للمسلمين، فكانوا منافقين[2].

معنى (مِن) في مطلع الآية:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (مِن)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وهي هنا دالَّة على التَّبعيض، فمَن يفعل ذلك هم بعض المسلمين[3]، لا كلُّهم.

دلالة التعريف بـ (أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

عرَّف النَّظمُ الجليل النّاس بالألف واللّام، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وهي هنا دالَّة على الجنس، أي: بعضٌ من جنس النّاس يقول ذلك.

نكتة التَّعبيرِ بالموصول ﴿مَن﴾:

السّوءُ يكمن في الفعل لا في الشَّخص

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على تعميم المقول، فهو ليس قولًا لأحد بعينه، أو لفئة منحصرة محدَّدة، بل هو عامٌّ شامل لكلِّ زمان، فهناك من يعلن الإيمان بقولهِ، ويكتمُ الكفر في فؤادِه نفاقًا ومداراة

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 375.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 215.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 348.

لمصالحه، وهذا من دأب القرآن أن يعبِّر عن الحكم لا عن الشَّخص؛ لأنَّ الحكم سائر عامٌّ لا يختصُّ بفرد دون غيره، ولأنَّ القرآن لا يهتمُّ بالذّوات، بل بالأعمال.

دلالةُ التَّصريح بفعل القول مضارعًا:

ادِّعاءُ المنافقين الإيمان قولٌ لا يصدِّقه العمل

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير بالقول، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، دون أن يقول: (ومن النّاس من يؤمن، فإذا أوذي..)؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ إيمانهم كان قولًا مجرَّدًا عن الصِّدق والحقيقة، فهو ادِّعاءٌ وحسب، وإيماء إلى أنَّ إيمانهم ليس راسخًا[1].

دلالةُ التَّعبيرِ عن الإيمان بصيغة الماضي:

ادِّعاءُ تحقُّق الإيمان ورسوخه دليلٌ على شدَّةِ كذب المنافقين

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل الماضي عن ادِّعائهم الإيمانَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وذلك لتأكيد ادِّعاء إيمانهم، وأنَّه واقع محقَّقٌ، وقد أسنده إلى ضمير الجمع للدَّلالة على أنَّ فاعل ذلك ليس فردًا واحدًا، بل هم مجموعةٌ وفئة من النّاس، وفيه إشارة إلى كثرتهم[2]، فالمنافق كان يشبِّهُ نفسَهُ بالمؤمن، ويقول: إيماني كإيمانك، فقال: (آمَنّا) يعني: أنا والمؤمن حقًّا آمنّا؛ إشعارًا بأنَّ إيمانَهُ كإيمانه؛ لأنَّ المفهومَ منه المساواة، فَهُمْ لمّا أرادوا إظهار كون إيمانهم كإيمان المحقّين؛ كان الواحدُ يقول: آمَنّا، أي: أنا والمحقُّ[3].

معنى (الباء) في القيد ﴿بِٱللَّهِ﴾:

لا يُعتبر الإيمانُ ما لم يكن محقًّا متَّصلًا بالله

عبَّر النَّظم الجليلُ بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وهو هنا دالٌّ على الإلصاق،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 216.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 398.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 33.

أي: إنَّ الإيمانَ محقَّقٌ متَّصل باللّه تعالى؛ تعبيرًا عن قوَّة إيمانهم الذي ادَّعوه.

سرُّ إيثار لفظ الجلالة دون لفظ الرُّبوبيَّة:

ادّعاءُ الإيمان بجلال الألوهيَّة بعد الإيمان بصفة الرُّبوبيَّة

حكى النَّظمُ الجليل أنَّ الذين أظهروا متعلِّقَ الإيمان في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، فلم يقولوا: (آمنّا) حسب، بل أظهروا المتعلِّق؛ وذلك تقوية لإيمانهم، أي: إنَّنا آمنّا باللّه تعالى الذي اختصَّ بصفات الكمال والجلال[1]، وعبَّروا بلفظ الجلالة دون لفظ الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ المشركين كانوا يؤمنون بالرُّبوبيَّة كذلك، فعلَّقوا إيمانَهم باللّه تعالى؛ إشارةً إلى ما يقتضيه من العبوديَّة والطّاعة بما فيه من دلالةٍ على الجلال.

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ﴾:

وقوعُ الابتلاءِ عقب ادّعاء الإيمان

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ على جملة: ﴿يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ بالفاء العاطفة[2]، والعطف بالفاء يدلُّ على التَّعقيب، أي: إنَّ ما يقعُ منه بسبب الأذى يكون قريبًا من ادّعائه الإيمان، وذلك للدَّلالة على أنَّ الإيمان لم يخالط قلوبَهم؛ إذ يزعون بسرعةٍ إلى الخوف والقلق والاضطراب.

نكتةُ تقييدِ الإيذاء بـ (إذا) دون (إن):

الفتنةُ بالشَّدائد حتميَّةٌ لا تتخلَّف عن مؤمن

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بأداة الشَّرط (إذا) دون (إنْ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ الشَّرط محقَّقٌ، ولا بدَّ منه، فالأذى في الدُّنيا واقعٌ لا محالة، ولمّا كان السّياق في الابتلاء والفتنة، وكان الأذى محقَّقًا بسبب الإيمان باللّه تعالى وتوحيده عبَّر عن ذلك التحقُّق بـ (إذا)[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 397.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 375.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 398، 400.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الإيذاء دون الابتلاء:

المشركون يؤذون المؤمنين حقيقةً لا يختبرونهم

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالأذى دون الابتلاء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾؛ وذلك لأنَّ الابتلاء يدلُّ على الاختبار، وكان المشركون يوقعون الأذى للتَّعذيب لا للابتلاء، فكان التَّعبيرُ في الآية بالأذى أنسبَ للواقع، وعبَّر عنه بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّقه ووقوعه.

دلالةُ بناءِ فعل الإيذاءِ لغير فاعله:

علَّةُ الارتداد تحقُّق الإيذاء لا بكونه من فاعل محدَّد

بنى النَّظمُ الجليل فعلَ الأذى للمفعول دون البناء للفاعل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾، فلم يقل: (فإذا آذاه المشركون)؛ وذلك للاهتمام بالأذى ذاته لا بفاعله، أي: من أيِّ مؤذٍ كان[1]، فوقوعُ الأذى هو مناط ارتدادهم لا بسبب كونه من فاعل ما.

معنى ﴿فِي﴾ في القيد ﴿فِي ٱللَّهِ﴾:

السُّلوك في مدارج الإيمان متضمِّنٌ الابتلاء والأذى

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾، وهي هنا دالَّةٌ على السَّببيَّة، أي: بسبب اللّه تعالى[2]، أي: إنَّ الأذى الذي لحق به لم يقع إلّا؛ لأنَّه آمن باللّه تعالى، ومعنى الظَّرفيَّة ليس منقطعًا عن ﴿فِي﴾ هنا، فإنَّه لمّا آمن باللّه؛ كان سائرًا في سبيله ومنهاجه، فلحقه الأذى؛ لأنَّه كان في ذلك السَّبيل، ولأنَّه دخل في دين اللّه تعالى.

نكتةُ إظهارِ اسم الجلالة والسّياق للإضمار:

بجانب عظمة الله تعالى كلُّ شيء يهون

أظهر النَّظمُ الجليل لفظَ الجلالة، فوضعَهُ موضعَ المضمر، في قوله جلَّ شأنه: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾، فلم يقل: (فإذا أوذي فيه)، والغرض من ذلك تهوين الأذى؛ لأنَّه وقع بسبب الإيمان باللّه وفي سبيله، فإظهار الأذى بجانب ذكر اللّه تعالى العظيم

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 398.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/ 11089.

يذهب بألم الأذى وضرره، فالمراد من ذلك تقريع الذين ارتدّوا عن الإيمان بسبب الأذى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجعل، وصوغه ماضيًا:

من الجهلِ الظَّنُّ بتصيير عذاب النّاس مشابهًا لعذاب الله تعالى

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ الجعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لما فيه من دلالة على التَّصيير والاعتقاد[1]، فجعلوهما في رتبة واحدة، والأمر ليس كذلك، فإنَّ فتنة النّاس لا تداني عذابَ اللّه تعالى في الشِّدَّة بأيِّ وجهٍ من الوجوه، ولكنَّهم لضعف إيمانهم عمدوا إلى التَّسوية بينهما في الأذى؛ جهلًا منهم وتعلُّقًا بالدُّنيا.

سرُّ إيثار لفظ الفتنةِ دون العذاب والإيذاء:

تدلُّ الفتنةُ على الأذى والعذاب والغاية منها الاختبار

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الفتنة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾ دون أن يقول: (جعل عذاب النّاس، أو جعل إيذاءهم)؛ وذلك لأنَّ لفظَ الفتنة يدلُّ على الأذى؛ فضلًا عن دلالته على الغاية من ذلك، وهو الاختبار والابتلاء، فالتَّعبير بالفتنة فيه تصريحٌ بأنَّ ذلك الأذى وقَعَ بعلم اللّه تعالى وبإذنه، وأنَّ المرادَ منه فتنتُهم واختبارهم، فهو تعبيرٌ بالغرض من الأذى، فدلَّت لفظةُ الفتنة على شدَّة الأذى مع الغاية منه، وهي الاختبار، فـ"فعلُ العبدِ ابتلاء وامتحان من اللّه، وفتنتُهُ تسليط بعض النّاس على من أظهر كلمةَ الإيمان ليؤذيَهُ، فتبيَّن منزلته، كما جعل التَّكاليف ابتلاءً وامتحانًا، وهذه إشارة إلى أنَّ الصَّبر على البلية الصادرة ابتلاءً وامتحانًا من الإنسان كالصَّبر على العبادات"[2].

لطيفةُ إضافة الفتنة إلى الناس:

شتّان بين عذاب الخالق وفتنة المخلوق

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الفتنة إلى النّاس في قوله جلَّ شأنه:

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 20/ 136.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 34.

﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾: تهوينًا لشأن هذه الفتنة، فإنَّها مهما بلغت شدَّتها؛ فهي محكومةٌ بكونها من النّاس، وهي ليست بشيءٍ أمام عذاب اللّه تعالى، فالإضافة للتَّهوين والتَّحقير.

بلاغةُ تشبيه الفتنةِ بالعذاب:

من تمام الضَّلالِ مشابهة الفتنة الزّائلة بالعذاب الخالد

شبَّهَ النَّظمُ الجليل فتنةَ النّاس في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾ بعذاب اللّه تعالى، فالمشبَّه الفتنةُ، والمشبَّه به العذابُ، ووجه الشَّبه المساواة في التَّأثير، فكما أنَّ الخوفَ من عذاب اللّه يصرف المؤمنَ عن الكفر إلى الإيمان، فإنَّ خوفَ أذى الكافرين يصرف عن الإيمان إلى الكفر[1]، ونوع التَّشبيه: مرسلٌ؛ لذكر أداة التَّشبيه - وهي الكافُ - ومجملٌ؛ لأنَّه حُذف منه وجه الشَّبه، فهو تشبيهٌ مرسل مجمل، والغرض من التَّشبيه تبيينُ حالهِم ومعتقدهِم، فراحوا يتَّقون فتنةَ النّاس؛ لأنَّها عاجلةٌ، ولم يكترثوا لعذاب اللّه تعالى؛ لأنَّه آجلٌ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (عذاب):

العقابُ بالإيجاع الشَّديد هو العذاب الموعود

عبَّر النَّظم الجليلُ بلفظ العذابِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾؛ للدَّلالة على الإيجاع الشَّديد[3]، وقد عبَّر في شأن النّاس بالفتنة؛ لأنَّ العذاب منهم واقعٌ للفتنة والابتلاء، أمّا عذابُ اللّه تعالى؛ فهو عذابٌ للعقاب على وجه الحقيقة.

دلالةُ الإضافة في ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾:

نسبةُ العذاب للّه تعالى تُعبِّر عن قوَّة العذاب وشدَّته

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ العذاب إلى اللّه تعالى في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾: تفخيمًا لشأن العذاب وتهويلًا له، وإيقاظًا للسّامعين بأنَّ العذاب الذي ينتظرهم هو العذاب المنسوب إلى اللّه تعالى ذي العقاب الشَّديد.

---

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 223.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 216.
(3) الرّاغب، المفردات: (عذب).

نكتةُ تكرار اسم الجلالة وإظهاره:

العذابُ يعظُم بعظمة فاعله

أعاد النَّظمُ الجليل ذِكرَ لفظ الجلالة للمرَّة الثّالثة، فوضعه موضعَ المضمرِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾، فلم يقل: (كعذابه)؛ فوضع الظّاهر موضعَ المضمر، وذلك تفخيمٌ لشأن العذاب، ولإيقاع المقابلة بين تحقير الفتنِ المنسوبة للنّاس، وبين تعظيم العذاب المنسوب إلى الله تعالى، والغرض إظهارُ جهل هذا الفريق، وتقبيح جعْلِهم فتنة النّاس كعذاب بالله تعالى.

معنى (الواو) في جملة: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ﴾:

ادِّعاءُ الإسلامِ مشفوع ببيان غرضهم منه

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ بالواو العاطفة[1]، والغاية من العطف بيانُ غايتهم من إظهار الإسلام ادِّعاءً، فجعلوا إسلامهم مجرَّد عدَّة لما يتوقَّع من نصر المسلمين، فيبتغون مشاركتهم بفوائد ذلك النَّصر[2].

معنى (اللام) في جملة: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ﴾:

مناقضة المنافقين لأنفسهم تظهر بحلول نصر الله عباده المؤمنين

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ بلام القسم المحذوف، أي: "وعزَّتي وجلالي، لئن جاء نصر قريب من عند ربِّك للمؤمنين وفتحٌ وغلبة للأعداء، وغنيمةٌ يغنمونها منهم"[3]، فإنَّ هؤلاء المنافقين سيظهرون مقولةَ النِّفاق والغاية من ادِّعائهم الإيمان، فالقسم تأكيدٌ لمضمون الجملة، وفائدةُ تأكيد جملة الشَّرط يقتضي تحقيق وقوع الأمرين: مجيء النَّصر، ومقولة المنافقين حينئذٍ[4].

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 315.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 217.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 350.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 217.

نكتةُ تقييدِ مجيء النَّصر بـ (إن) دون (إذا):

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بأداة الشَّرط (إن)، دون (إذا)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾، وهي دالَّةٌ على الشَّكِّ دون اليقين؛ وذلك لبيان أنَّ زمان الفتنة التي جعلها المنافقون، كعذاب الله تعالى قد يطول دون وقوع النَّصر، فعلى طول تلك المدَّة سيبقى المنافقون على سلوكهم، وفي ذلك يقول الإمام البقاعيُّ: "وأشار إلى أنَّ الفتنة ربَّما استمرَّت إلى الممات، وطال زمنها بالتَّعبير بأداة الشَّكِّ"(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بمجيء النَّصر دون إتيانه:

دون النَّصرِ خرطُ القتاد

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ المجيء في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ تعبيرًا عن قوَّة النَّصر، وأنَّه لا يأتي بسهولة؛ لأنَّ الإتيان تعبيرٌ عن المجيء السَّهل، فلمّا أخبر عن مجيئه دون إتيانه؛ بيَّن أنَّ النَّصر لا يأتي يسيرًا، ونصْرُ الله للمؤمنين - وإن تأخَّر - فإنَّه آتٍ لا محالة.

من نُكَتِ إسناد المجيء إلى النَّصر:

النَّصرُ يحلُّ على المسلمين قادمًا كحلول شخص يأتي دياره

أسند النَّظمُ الجليل المجيءَ إلى النَّصر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ على طريق الاستعارة المكنيَّة؛ تشبيهًا للنَّصر بشخص يجيء، فحذف الشَّخص، وأبقى صفة من صفاته، وهو المجيء الدّالُّ عليه، والجامع الحضور والحلول والبلوغ والوصول؛ تعبيرًا عن قوَّة ذلك النَّصر بحيث إنَّه يُرى كالشَّخص القادم.

دلالةُ التَّعبير بالـ ﴿نَصۡرٞ﴾، وتنكيره:

نصرةُ الله عبادَهُ شاملةٌ لكلِّ أنواع الإعانة على الأعداء

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ النَّصر، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾، وذلك لدلالة النَّصر على إيتاء الخير، فنصْرُ الله

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 398.

المسلمين يدلُّ على أنَّه آتاهم الظَّفر على عدوِّهم[1]، وصيغة التَّنكير فيه تدلُّ على عموم النَّصر، أي: أيّ نصرٍ كان، فإنَّ المنافقين سيأتون معلنين إيمانهم طلبًا لنصيبهم، كما أنَّ التَّنكير يشمل كلَّ أنواعه كالفتح والغنيمة[2].

لا نصرَ إلّا من عندِ الله تعالى

معنى ﴿مِّن﴾ في القيد ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِّن﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾، وهي هنا دالَّةٌ على الابتداء، للدَّلالة على مصدر النَّصرِ، وبيان جهة صدوره، أي: إنَّ مصدر هذا النَّصر بدأ من اللّه تعالى، وفائدة ذلك: أنَّ النَّصر إنَّما يكون بإذن اللّه تعالى؛ ترسيخًا لدلائل التَّوحيد في أذهان المسلمين.

عند النَّصر يذُكِر الاسم الدّال على الرَّحمة والعاطفة

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الربوبية، دون الألوهية:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾، "مع أنَّ ما تقدَّم كان كلُّه بذكر اللّه، كقوله: ﴿أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾؛ وذلك لأنَّ الربَّ اسمٌ، مدلوله الخاص به الشَّفقةُ والرَّحمة، واللّه اسمٌ مدلوله الهيبةُ والعظمة، فعند النَّصر ذُكِرَ اللفظُ الدّال على الرَّحمة والعاطفة، وعند العذاب ذكر اللفظ الدّال على العظمة"[3]، وفيه أيضًا دلالة على أنَّه أكرمهم بالنَّصر إكرامًا منه تعالى وإحسانًا عليهم، وأنَّه محضُ تفضُّلٍ منه ورحمة بهم[4].

نصرُ المسلمين محضُ تكريم لنبيِّهم

دلالةُ إضافةِ (رب) إلى ضمير المخاطَب:

أضافَ النَّظمُ الجليل لفظَ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير المخاطَب في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 32.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 34.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 398.

للإشارة إلى أنَّ اللّهَ تعالى قد أكرمهم بذلك لأجل النَّبيِّ ﷺ، فيدلُّ على أنَّ النَّصر وقع من اللّه الذي قد سبق منه الإحسانُ إليك بالنُّبوَّة، فهو يحسن إليك اليوم مرَّةً أخرى بنصرك؛ تصديقًا لما وعدت به أتباعَ دينك، وإدخالًا للسُّرور عليك[1].

دلالةُ تأكيدِ الجملة في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ﴾ باللّام الموطِّئة للقسم، ونون التَّوكيد الثَّقيلة؛ تأكيدًا لسلوك المنافقين الكاذب المتذبذب، فيقسم اللّه تعالى على أنَّ المنافقين في هذه المواقف سيسلكون سبيلَ الكذب والادِّعاء لكسب عرض زائل من الدُّنيا[2].

مَن غايتُهُ الدُّنيا الزّائلة لا يتوانى عـن ارتـكـاب الـكـذب لينال بغيته

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل القول مضارعًا:

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ القول في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ مجرَّدُ قول يقولونه بألسنتهم دون أن يوافقَ ما في قلوبهم، وعبَّر عنه بصيغةِ الفعل المضارع؛ للدَّلالة على أنَّهم يكرِّرون ذلك دونما حياء أو وجل.

كينونةُ مدَّعي الإيـمـان مع المؤمنين قول لا يصدِّقه العمل

موقعُ جملةِ ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ حكايةً لمقولتهم، فالجملة في محلِّ نصب مقول القول[3].

غرضُ التوكيد في جملة: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾:

أكَّد النَّظمُ الجليل جملةَ مقول القول في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ بالجملة الاسميَّة، وبـ (إنّ)؛ لأنَّ المنافقين يشعرون

تـأكـيـدُ المـقـول لظهور معالم الكذب فيه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 399.
(2) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 223.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 316.

أنَّهم كاذبون، فاحتاجوا لترويج كذبهم إلى توكيده وإخراجه مخرج الصِّدق[1]، كما أنَّهم يعلمون أنَّ النّاس ينكرون قولهم ذلك، فأكَّدوا لردِّ تكذيب النّاس لهم[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالكون الماضي:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بفعل الكون ماضيًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾؛ للمبالغة في وصف كونهم معهم، أي: نحن معكم منذ أن وُجِدنا، وفيه تأكيدٌ لانتفاء مفارقتهم لهم.

دلالةُ المعيَّة في ﴿مَعَكُمۡۚ﴾:

الاتِّكالُ على المعيَّة التي تنطلي بادِّعاء الإيمان دون المعيَّة الصّادقة في القتال

عبَّر النَّظم الجليل بالظَّرف (مع) الدّالِّ على المصاحبة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على مصاحبتهم في الدّين، وانتفاء مفارقتِهم في القلوب، والمرادُ من هذه المعيَّة معيَّةُ الإيمان لا معيَّةُ القتال، والغرض من ذلك طلبهم المشاركةَ في الغنيمة[3].

وجهُ اجتماعِ همزة الاستفهام والواو في قوله: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ﴾:

إبطالُ ظنِّهم بخداع المؤمنين وفضح بواطنهم

أدخلَ النَّظمُ الجليل همزةَ الاستفهام على الجملة المفتتحة بالواو، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ وذلك لأنَّ الاستفهام واجب الصَّدارة، والواو اعتراضيَّة، والجملة معترضةٌ جيء بها تذييلًا للرَّدِّ ظنًّا منهم برواج كذبهم ونجاح سعيهم[4]، أي: إنَّهم يفعلون ذلك الكذب والادِّعاء، والحقيقة المقرَّرة أنَّ الله تعالى عالمٌ بأسرارهم كاشف لكذبهم، فخيبتُهم وخسرانهم - لا محالة - محقَّقةٌ، وفيه تنبيهٌ للمؤمنين وتحذير من هذا السُّلوك.

بلاغةُ الاستفهام في الآية:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاستفهام في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 223.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 399.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 399، والقنّوجي، فتح البيان: 10/ 171.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 217.

تقريرُ علمِ الله بخفايا الصُّدور يبطل كذب المنافقين

﴿بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لتقرير المضمون وتأكيده؛ لأنَّ همزة الاستفهام دخلت على (ليس)، والتَّقرير مناسب للسّياق، فالكلام مسوقٌ للرَّدِّ على المنافقين، الذين أعلنوا خلاف ما في صدورهم، فهدَّدهم اللّه بأنَّه يعلم ما يُسرّون في الصُّدور[1].

دلالةُ نكتةِ التَّعبيرِ بـ (ليس) في ﴿أَوَلَيۡسَ﴾:

تأكيدُ النَّفي بالجملة الاسميَّةِ يؤكِّد مضمون التَّقرير

آثر النَّظمُ الكريم النَّفيرَ بـ (ليس)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والغرض من ذلك تقويةُ النَّفي؛ لأنَّ نفيَ الجملة الاسميَّة أبلغُ في الدَّلالة على ثبوت المعنى، فيكون التَّقريرُ بالاستفهام دالًّا على ثبوت المعنى المقرَّر، وهو علمُ اللّه تعالى بما أسرَّ النّاس.

وجهُ التَّصريحِ باسم الجلالة:

تفخيمُ لفظِ الجلالة

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الجلالة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ وذلك لتفخيم علمهِ وتعظيمه، فعلمُ اللّه تعالى محيطٌ بالباطن والظّاهر، لا يخفى عنه شيء[2].

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِأَعۡلَمَ﴾:

عِلمُ اللهِ تعالى بما تحوي الصُّدور مؤكَّد مقطوعٌ به

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهو الباءُ الذي يدخل على خبر ليس للتَّأكيد، وأثره البلاغي تقوية النِّسبة بين طرفي الإسناد[3]، فأفاد تأكيد التَّقرير، أي: إنَّ اللّه هو الأعلمُ على وجه القطع والتَّأكيد.

دلالةُ إسنادِ العِلمِ إليه تعالى دون المعرفة:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ العلم دون المعرفةِ في قوله جلَّ

---

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 223.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 399.

(3) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 224.

عِلمُ اللهِ تعالى كـائـنٌ بعلم الأشـيـاء على حـقـائـقـهـا لا بتفكُّر

شأنه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِىٓ صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّه دالٌّ على إدراك الشَّيء بحقيقته[1]، ومعرفته على ما هو عليه[2]، أمّا المَعْرِفَةُ والعِرْفانُ؛ فهي: إدراك الشَّيء بتفكُّر وتدبُّر لأثره، وهو أخصُّ من العِلم[3]، فاللّه تعالى يعرفُ الحقائقَ على ما هي عليه، فلا يحوجه ذلك إلى التَّفكُّر والتَّدبُّر، وجيء به بصيغة (أفعل) الدالَّةِ على المفاضلة، والتَّفاضل واقعٌ بين علم اللّه تعالى الكامل، وما يعلمه بعض المسلمين ببعض ما في صدور المنافقين ممَّن أوتوا فراسةً وصدق نظر، ويجوز أن يكون اسم التَّفضيل هنا مسلوبَ المفاضلة، والمرادُ تأكيد علمه تعالى حسب، أي: أليس اللّه عالمًا علمًا تفصيليًّا بأحوالهم، فلا تخفى عليه منهم خافية[4].

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

عِلمُ اللهِ تعالى بـالـغ كـلَّ شيء ملتصق به

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو هنا دالٌّ على الإلصاق، وذلك للمبالغة في حلول علمه تعالى بما في صدورهم، فعلمُهُ ﷻ ملتصقٌ بما في صدورهم متَّصل به.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول (ما):

كـلُّ مـا في صـدورهـم معلومٌ ظاهر لله تعالى

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول (ما) في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على العموم، فعلم اللّه تعالى شامل على عموم في صدور النّاس، والإبهام في (ما) يدلُّ على المبالغة في ذلك المعلوم، فهو يعلمُ ما يسرون من أسرار دفينةٍ في صدورهم.

(1) الرّاغب، المفردات: (علم).

(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (علم).

(3) الرّاغب، المفردات: (عرف).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 218.

معنى ﴿فِي﴾ في جملة الفاصلة:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والظَّرفية هنا دالَّةٌ على مكان تلك الأسرار، وأنَّ اللّه تعالى يعلم ما أخفي في تلك الصّدور دون أن تقوله، أو أنَّهم قالوا خلاف ما يُسرّون في صدورهم، فهو إخبارٌ بأنَّ اللّه تعالى يعلم ما في القلوب، ويعلم أوافق القول ما فيها، أم خالفها؟.

الإيمانُ المُدَّعى كامنٌ في الصُّدور واللّه لا تخفى عليه مضامينه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿صُدُورِ﴾، وجمعها:

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ الصُّدور في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ الصَّدر مكان القلب، والقلب مقرُّ الأسرار والعقائد، فالصَّدر أوسعُ من القلب وأشمل، فالتَّعبير به أدلُّ على سَعة العلم، قال البسيلي: "لم يقل: (في قلوب الناس)؛ إشارةً إلى كثْرةِ وسوسَتِهِ وعمومِها، وأنَّ بدايتَها من الصُّدور، ونهايتَها للقلوب"[1]، والتَّعبير بصيغة الجمع أدلُّ على المراد من السّياق، وهو تأكيدُ علمه تعالى وسعته، فهو يعلم ما في جميع صدور العالمين.

يعلمُ اللهُ ما في القلب وما ليس في القلب

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وجمعه:

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو اسم يشمل الملائكة والثَّقلين، والجمع يدلُّ على شمولهِ كلَّ الأجناس الَّتي يقال لها: عالَمٌ[2]، فعبَّر به للدَّلالة على استغراق لجميع الأفراد؛ تأكيدًا لسعة علمه.

عِلمُ الله تعالى وسع كلَّ مخلوقاته لا يغيب عنه منهم شيء

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيذاء والضُّر:

الضُّرُّ من (ضَرَّ)، وهو خِلافُ النَّفْع، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى هَذا كُلُّ ما جانَسَهُ أَوْ قارَبَهُ كالهزالِ، والضُّرُّ: تَزَوُّجُ المَرْأةِ عَلَى ضَرَّةٍ[3]، وكلُّ ما

(1) البسيلي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 3/ 661.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/ 10 - 11.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرّ).

الإيــذاءُ أخـصُّ من الضُّرِّ، فهو إيصال الضُّرِّ إلى البدن كالضَّرب

كانَ من سوء حالٍ وفقْرٍ في بدنٍ[1]، إمّا في نفسه؛ كقلَّة العلم والفضل والعفَّة، وإمّا في بدنه، كعدم جارحة ونقص، وإمّا في حالة ظاهرة من قلَّة مال وجاهٍ[2]، أمّا الإيذاءُ؛ فهو ما يصل إلى الحيوان من الضَّرر إمّا في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويًّا كان أم أخرويًّا، قال تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، قوله تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ [النساء: 16] إشارة إلى الضَّرب[3]، وعبَّر في الآية بالأذى؛ لأنَّه عبَّر به عن التَّعذيب والفتنة التي لحقت المؤمنين في العهد المكّي.

النصر والظفر:

الظَّـفر الـفوز، والـنَّـصـر إيتـاء الظَّفر والإعانة عليه

الظّفر من (ظَفِرَ)، وهو أصلٌ يَدُلُّ عَلَى القَهْرِ والفَوْزِ والغَلَبَةِ[4]، وأصله من: ظَفِرَ عليه، أي: نشب ظُفُرُهُ فيه، قال تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الفتح: 24][5]، أمّا النَّصر؛ فمن (نَصَرَ)، وهو أصلٌ يَدُلُّ عَلَى إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِهِ، ونَصَرَ اللهُ المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدوِّهِمْ[6]، والنَّصر: إعانة المَظْلوم؛ نصَره عَلَى عَدوِّهِ[7]، والنَّصر والنُّصرة: الإعانة والمنعة، يقال: نصرته، أي: أعنته على عدوِّه ومنعته منه[8]، فعبَّر في الآية بالنَّصر؛ للدَّلالة على الإعانة الإلهيَّة بنصر المسلمين على أعدائهم.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضر).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (ضرّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظفر).
(5) الرّاغب، المفردات: (ظفر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(8) السّمين، عمدة الحفاظ: (نصر).

﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العنكبوت: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلمُ بما في الصُّدور يتبعه الابتلاء لكشف ما قرَّ فيها

بعد أن ذكر النَّظمُ الجليل أنَّ الأذى ما هو إلّا فتنةٌ أتبع ذلك ببيان أنَّ الفتنة إنَّما هي ابتلاءٌ من اللّه تعالى يختبر بها عباده؛ ليستبين صادق الإيمان من المنافق، الذي يدَّعي الإيمان قولًا لا فعلًا[1]، ومن المناسبة كذلك أنَّ النَّظم بعد أن بيَّن أنَّ اللّه تعالى يعلم ما في صدور العالمين على العموم؛ أتبعه بتخصيص ذلك، فبعد عُموم العالمين خصَّ منهم فريقين، اهتمامًا بهما وببيان حاليهما؛ لأنَّ الجزاء يترتَّب على العلم بما في صدور هذين الفريقين من الإيمان الصّادق والإيمان الَّذي هو مجرَّد دعوى كاذبة[2]، ومن المناسبة أنَّه تعالى "لمّا بيَّن أنَّه أعلمُ بما في قلوب العالمين؛ بيَّن أنَّه يعلم المؤمنَ المحقَّ، وإن لم يتكلَّم، والمنافق وإنْ تكلَّم، فقال: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الابتلاءُ لبيان مكنون القلوب سنَّةٌ إلهيَّة ماضية

يُقرُّ النَّظم الجليل حقيقة كونيَّة مؤكَّدة بأنَّ اللّه تعالى سيختبر عباده بالسَّرّاء والضَّرّاء؛ ليميز بذلك صادقَ الإيمان من المنافق، ومَن يطيعُ اللّهَ في كلِّ حال، فيصبر على البأساء؛ إذا مسَّته، ومن يعصيه؛ إذا حزبه الأمر، واشتدَّ به الخطب[4]، أي: واللّهِ ليختبرنَّ اللّهُ عبادَه؛ ليظهرَ الصّادقُ من الكاذب، والمؤمن من المنافق.

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 120.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 218.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 35.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 120.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ العطف بالواو:

الإيمانُ الحقُّ ظاهرٌ لعلم اللّه تعالى من الإيمان الزّائف

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ على ما أفهمه السّياقُ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: فقد علم اللّه تعالى ما أخفوا، وما أعلنوا، وليعلمنَّ الذين آمنوا[1]، وفائدة هذا العطف التَّنبيهُ والتَّأكيد على عدم التباس الإيمان الصَّحيح بالإيمان الزّائف[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالعلم، وصوغه مضارعًا:

يعلمُ الله تعالى حقائقَ النّاس فيجازيهم على ما علم منهم

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ العلم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ اللّه تعالى يعلم حقيقة كلِّ فريق منهم وصدقه وكذبه؛ لأنَّ العلم هو إدراك الشَّيء بحقيقته[3]، والمرادُ من العلم هنا لازمه، فهو كنايةٌ عن مجازاتهم على حسب ما علم اللّه تعالى منهم[4]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع للدَّلالة على تحقُّق لازمه في المستقبل، فالمجازاة واقعةٌ يوم القيامة لكلا الفريقين، كما أنَّه يدلُّ على تجدُّد العلم بحالهم، فمن صبأ منهم؛ فإنَّ اللّه يعلم بحاله.

دلالةُ التَّأكيد في ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ﴾:

الجزاء المبنيُّ على علمه تعالى بحالهم محقَّق الوقوع

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملةَ الدّالَّة على العلم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ باللّام الموطِّئة للقسم، وبنون التَّوكيد الثَّقيلة، والغرض: أنَّ المنافقين لمّا ظنّوا أنَّ اللّه تعالى لا يعلم ما تكنُّ صدورهم من النِّفاق ردَّ عليهم بجملة

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 400.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 218.

(3) الرّاغب، المفردات: (علم).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 218.

مؤكّدة لنقض إنكارهم، وليقلعوا عن نفاقهم، ويتّبعوا سبيل المؤمنين الثّابتين على الحقّ[1].

دلالةُ التَّصريح باسم الجلالة:

المحيطُ بكلّ شيء علمًا لا يعزب عنه حال المؤمنين والمنافقين

أسندَ النَّظمُ البليغ العلم إلى لفظ الجلالة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ للدَّلالة على تفخيم علمهِ وتعظيمه، فاللّه تعالى هو المحيط بكلِّ شيء علمًا وقدرة، وهو عالم الغيب والشَّهادة[2]، ففيه إيماءٌ بانكشاف أمرهم وظهور حقيقة إيمانِهم وتأكيد ذلك.

علّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المؤمنون اشتهرت صفة إيمانهم

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن المؤمنين بالاسم الموصول في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ لما في الموصول من إشارة إلى شهرة إيمانهم[3]، بحيث إنَّهم عُرفوا به، فصاروا معهودين بالإيمان.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإيمان وصوغه ماضيًا:

ثبت إيمانُ المؤمنين حتّى صار حقيقةً مدركة

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل الماضي عن الإيمان في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق إيمانهم، وأنَّ إيمانهم حقٌّ مؤكَّد[4]، والماضي أنسب في سياق إثبات صفة ما في الموصوف.

نكتةُ حذف متعلّق الإيمان:

مطلقُ الإيمان يشمل كلَّ ما في القرآن

حذف النَّظمُ البليغ متعلّق الإيمان، في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فلم يقل: (آمنوا باللّه ورسوله) مثلًا؛ وذلك للاهتمام بمطلق الإيمان، فالسّياق على صدق الإيمان من زيفه، وهذا لا يحوج لبيان المتعلّق، كما أنَّ عدم ذكر المتعلّق يشير إلى إعمام الإيمان،

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 18.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 400.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 218.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 18.

فيشمل كلَّ الغيبيّات، ثمَّ إنَّ حذفَ المعروف بالاعتماد على شهرتهِ إيجازٌ بليغ، فمعلوم أنَّ المراد هو الإيمان بنبوَّة النَّبيِّ ﷺ، وبما أخبر به من صفات الألوهيَّة وحقوقها والغيب كلِّه.

معنى (الواو) في ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾:

علمُ الله تعالى بالمنافقين يقرِّرُ علمَهُ تعالى بالمؤمنين

عطف النَّظمُ الجليل جملةَ القسم على العمل بالمنافقين على العلم بالذين آمنوا في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، وفائدةُ العطف تقريرُ مضمون الجملة الأولى، وتأكيدُ علم اللّه تعالى بكلا الفريقين، أي: "واللّه ليميزنَّ اللّه بين الطائفتين، ويُظهر إخلاص المخلصين ونفاق المنافقين، فيجازي الفريقين"(1).

وجهُ تَكرارِ فعل العلم مؤكَّدًا:

تأكيدُ العلم ردٌّ على جهل المنافقين

كرَّر النَّظمُ الجليل فعلَ العِلم مؤكَّدًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ وذلك لزيادة تأكيد علمه تعالى، لتقوية الرَّدِّ "على دعاوى ضعاف الإيمان بأقوى أسلوب، وأبلغه، حتى يقلعوا عن نفاقهم، ويتَّبعوا المؤمنين الصادقين في ثباتهم"(2)، فلمّا اعتقد المنافقون أنَّ اللّه تعالى لا يعلم ما يسرّون من الكفر؛ ردَّ عليهم بتكرار تأكيد العلم، فظهر أنَّ المقصود من الجملتين المؤكَّدتين هو تأكيد علمه تعالى بالمنافقين(3).

دلالةُ التَّعبير بالنفاق بصيغة اسم فاعل:

صفةُ إظهارِ الإيمان وكتمان الكفر راسخةٌ ثابتة في المنافقين

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ النِّفاق في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم قومٌ يدخلون في الإسلام ظاهرًا، ويخرجون منه سرًّا في قلوبهم، فالنِّفاقُ: هو الدُّخولُ في الشَّرْعِ من

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 172.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 18.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 218.

بابٍ، والخروجُ عنه من بابٍ[1]، وجيء به بصيغة اسم الفاعل للدَّلالة على أنَّ النِّفاق صفةٌ ثابتة فيهم.

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، و﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾:

الجمعُ بين النَّقيضين يظهر ميزة المؤمنين

جمع النَّظمُ الجليل بين الإيمان والنِّفاق في عبارة واحدة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ على وجه المطابقة بين النَّقيضين، وذلك للتَّنبيه على جزاء كلِّ فريقٍ، ويدلُّ على أنَّ النِّفاق مناقضٌ للإيمان؛ إيماءً للمؤمنين بالثَّبات على إيمانهم.

بلاغةُ الكنايةِ بِعِلمه سبحانه بالمثوبة:

جزاءُ النّاس يوم الحساب مبنيٌّ على العلم بأحوالهم

كنّى النَّظمُ الجليل بلفظ العِلم المؤكَّد في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ عن المجازاة، فإنَّ العلمَ بحال أحدٍ ما يلزم منه الفعل بما يناسبه، فلمّا علمَ اللّه تعالى إيمان فئة ما؛ فإنَّ إيمانَهم يقتضي مكافأتهم، وأنَّ نفاقَ فئة أخرى يقتضي جزاءهم بالعقاب الشَّديد، فالمرادُ من العلم هنا لازمه، فهو كنايةٌ عن مجازاتهم على حسب ما علم اللّه تعالى منهم[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (نفق).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 218.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾ [العنكبوت: 12 - 13]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعد الفتنة بالتّعذيب والقسر شرعوا بالفتنة باللّين والتّزيين

لمّا ذكر النَّظم الجليل في السّياق أمرَ الفتنة والأذى الذي يلحق المؤمنين؛ بيَّن في هذه الآية صورةً من صورِ الفتنة والأذى، وبيَّن دوامَ المشركين في محاولاتهم لاستمالة المؤمنين ودفعهم إلى الارتداد، فبعد أن خابوا من حمْلِ المسلمين على الكفرِ بالعذاب والأذى والفتنة؛ شرعوا بإثارة الفتنة بالمغالطات، والشَّكِّ بأمر الدّين، فذكرَ سبحانه بعضَ ما قالوه لهم جهلًا باللّه وغرورًا[1]، ومن المناسبة أنَّه قد ذكر فيما سلف محاولة الكفّار ردَّ المؤمنين إلى الشِّرك بالقسر والإكراه والأذيَّةِ والوعيدِ، وأردف ذلك بمحاولتِهم ذلك بطريق الرِّفق واللّين والاستمالة، بأن قالوا: لا عليكم بردَّتكم من بأس، فنحن نحتمل تبعات ذنوبكم[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلَنَا﴾: (سبل) أَصْلٌ يَدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ، والمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ مِنْهُ، وهوَ الطَّريقُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِامتِدادِهِ[3]، والسَّبيل: الطَّريق الَّذي فيه سهولةٌ وما وضُح منه، يُذَكَّر ويؤنَّث، وجمعُه: سُبُلٌ[4]، وسَبيلُ اللّهِ: طَريقُ الهُدى الذي دَعا إليهِ، وجمعُه:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 400، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 219.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 32، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(4) الرّاغب، المفردات: (سبل).

سُبُلٌ[1]، فيُطلَق السَّبيل على المذهب، والطَّريقة في الدّين، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾، أي: طريقتنا في ديننا[2]، والمقصود بالسَّبيل في الآية: طريقتنا وديننا.

2) ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ﴾: (حمل) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِقْلالِ الشَّيْءِ[3]، يقال: حملت الشَّيء على ظهري أَحْمِلُهُ حَمْلًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠﴾ [طه: 100][4]، والحَمْل معنًى واحدٌ اعتُبِر في أشياء كثيرة، فسوّي بين لفظه في فعل، وفُرِّق بين كثير منها في مصادرها، فقيل في الأثقال المحمولة في الظّاهر كالشَّيء المحمول على الظَّهر: حِمْلٌ، وفي الأثقال المحمولة في الباطن: حَمْلٌ، كالولد في البطن، والماء في السَّحاب، والثَّمرة في الشَّجرة تشبيهًا بحمل المرأة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٌ﴾ [فاطر: 18][5].

3) ﴿أَثۡقَالَهُمۡ﴾ (ثقل) أصلُ الثِّقَل يُطلق على ضدِّ الخفَّة[6]، فكلُّ ما يترجَّح على ما يوزن به، أو يُقدَّر به؛ يُقال: هو ثَقيل، وأصلُه في الأجسام، ثمَّ يُقال في المعاني، نحو: أَثْقَلَهُ الغُرْمُ والوِزْر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرًا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠﴾ [الطّور: 40]، وقال ﷻ: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾، أي: آثامهم التي تثقلهم، وتثبِّطهم عن الثّواب[7]، والثَّقَلُ: متاعُ المسافر وحَشَمُه، وجمعُه: أثقالٌ، والأثقالُ: الآثام[8]، والمراد به في الآية الكريمة: آثامهم وأوزارهم.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر النَّظمُ الكريم عن إصرار الكفّار على إضلال المؤمنين وصرفهم عن التَّوحيد، وافتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، فيحكي النَّظم الجليل أنَّ الكافرين قالوا للذين آمنوا: ارجعوا إلى ديننا الذي كنتم عليه، واسلكوا طريقنا، وإن كانت عليكم آثامٌ،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 330، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (حمل).
(5) الرّاغب، المفردات: (حمل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثقل).
(7) والرّاغب، المُفردات: (ثقل).
(8) الخليل، العين: (ثقل).

منهجُ الكافرين في دعوتهم التّضليلُ والافتراءُ والخداعُ

فعلينا تبعتها، فكذّبهم اللّه تعالى، وردَّ عليهم بأنَّ الكفرة لا يحملون ذنوب المؤمنين؛ إذا اتَّبعوهم في الكفر يوم القيامة، فلا أحدَ يحمل وزر أحدٍ، ثمَّ أكَّد كونهم كافرين بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، فيما قالوا، وفيما وعدوا[1]، ثمَّ أخبر مقسمًا على أنَّ الدُّعاة إلى الكفر والضَّلال يوم القيامة سيحملون أوزارَ أنفسهم مع أوزارِ مَن أضلّوهم من النّاس من غير أن ينقص من أوزار الضّالّين شيئًا، وإنَّهم سوف يُسألون سؤالَ توبيخٍ وتقريع عن كذبهم وإضلالهم النّاس[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

تعدَّدت أنواعُ الأذى والفتن لصدِّ المؤمنين عن دينهم

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ بالواو الاستئنافيَّة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فالجملة مُستأنفة[3]؛ لأنَّها سيقَتْ لبيان نوع آخر من الأذى الذي يلحقه المشركون بالمؤمنين، وهو محاولة فتنة مَن لم يقدروا على فتنته بالأذى والتَّعذيب، فعمدوا إلى إثارة الشَّكِّ والمغالطات لصدِّهم عن الإسلام[4].

دلالةُ التعبير بفعلِ القول ماضيًا:

كثُرت مقولات الكافرين لفتنة أهل الإيمان

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل الماضي عن قولهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق هذا القول ووقوعه، وعبَّر بلفظ القول تعبيرًا عن قولهم ذلك المعنى بطرقٍ مختلفة من الألفاظ، تؤدّي ذلك المعنى، فضلًا عمّا فيه من الدَّلالة على التَّصريح والمجاهرة بمطلبهم عن إصرار وتعمُّد، ورغبة في سوق حججهم، كأنَّها أمرٌ صحيح يجب أن تقبله العقول السَّليمة مع أنَّها محض تخرُّصات، ودعوات باطلة.

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 353.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 122.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 377.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 219.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

دعاةُ الكفرِ وأئمّتُهُ هم المعهودون من كبراء المشركين

عبَّر النَّظمُ الجليل بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، دون الاسم الصَّريح (الكافرون)؛ لأنَّ المقصود فئةٌ محدَّدة من الكفّار، وليس كلَّ الكفّار، فالموصول دالٌّ على جماعة معهودة معروفة، ولو عبَّر بالاسم (الكافرون)؛ لدلَّ على أنَّ الذي فعل ذلك هو كلٌّ من اتَّصف بالكفر، وهذا يخالف الواقع، فدأب القرآن على الدِّقَّة في بيان الفاعل والوصف، كما أنَّ التَّعبيرَ بالموصول يشير إلى أنَّ سبب قولهم ذلك ما تضمَّنته صلة الموصول، وهو الكفر.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الكفر، وصياغته ماضيًا:

رسوخُ الكفر حتّى انقطع زمان التَّغيير

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ الكفر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على الكفر العقدي، فهم أعرضوا عن دعوة الإسلام، ودعوا المؤمنين إلى اتِّباع سبيلهم بعبادة الأصنام، فضلًا عن أنَّ مساقَ الكلامِ هو لبيان جناياتهم[1]، وجيء به بصيغة الفعل الماضي للدَّلالة على رسوخ الكفر فيهم وتحقُّقه.

معنى (اللّام) في الاسم الموصول:

بلوغُ القولِ للمقولِ له تحقيقٌ لفتنته واستمالته

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهي هنا دالَّة على التَّبليغ، أي: إنَّ الذين كفروا قالوا مخاطبين المؤمنين تلك المقولة؛ استمالةً لهم إلى الكفر[2]، فاللّام تعبِّر عن بلوغ تلك الدَّعوة إلى المؤمنين، وهي نوعٌ آخر من أنواع الفتنة والأذى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن المؤمنين بالاسم الموصول في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 32.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 32، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 454.

إنّما أُلقي الخطاب بالفتنة لفئةٍ معروفةٍ بسبب إيمانهم

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، دون أن يقول: (للمؤمنين)؛ لأنَّهم قالوا ذلك لجماعة محدَّدة من المؤمنين، ولم يقصدوا بعرض ذلك كلَّ المؤمنين، كما أنَّ الاسم الموصول يشير بصلته إلى علَّة قولهم لهم ذلك، وهو كونُهم آمنوا بالله تعالى، وصدَّقوا دعوة النَّبيِّ ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بالإيمان وصوغه ماضيًا في ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تصديقهم بالنُّبوَّة محقَّق ثابت

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الإيمان في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ تعبيرًا عن تصديقهم بدعوة النَّبيِّ ﷺ وما أخبر به من التَّوحيد واليوم الآخر وغيره ممّا تضمَّنته دعوة الإسلام، وقد عبَّر عنه بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على أنَّه إيمان محقَّق راسخ.

موقعُ جملة ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾:

دعوة الضالين فارغةٌ عن أسباب الاتِّباع

حكى النَّظمُ البليغ ما قاله الكافرون للمؤمنين في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾، فالجملة مقول القول[1]، فدعوتهم فارغةٌ عن أسباب الاتِّباع، بل هي مجرَّد طلب المتابعة ووضع وعود زائفة للتَّرغيب بها.

غرضُ الأمر في جملة ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾:

الدَّعوةُ للاجتهاد باتِّباع سبيل الضَّلال

استعمل النَّظمُ الجليل فعل الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ استعمالًا مجازيًّا، فليس المراد منه الإلزام، بل الدَّعوة للتَّضليل والإغراء[2]، ودلَّت صيغةُ الافتعال في الاتِّباع على التَّكلُّف، أي: كلِّفوا أنفسكم، وأجهدوها؛ لاتِّباعنا[3].

بلاغةُ الاستعارة في ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾:

استعار النَّظمُ البليغ الاتِّباع للسُّلوك في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 316.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 18.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 401.

سبيلُ المؤمنين هدًى ورشادٌ، وطريق الكافرين زيغ وضلال

﴿سَبِيلَنَا﴾؛ وذلك أنَّ الاتِّباع يدلُّ على المشي خلف ماشٍ ما، فجعلوا السَّبيل شخصًا يُتَّبع، فأنزلوا المسلك منزلةَ السّالك[1]، فحذفوا السّالك، وأبقوا المسلك، فشبَّهوا متابعة الدّين بمتابعة السّالك، أي: اسلكوا طريقتنا، ففيها الدّين، فالاستعارة تصريحيَّةٌ للتَّصريح بالمشبَّهِ به، وهو السَّبيل المرادُ به السّالك، وهي استعارة تبعيَّة؛ لأنَّه اشتُقَّ من الاتِّباع اتَّبعوا، الذي بمعنى: السُّلوك، فاشتقَّ منه اسلكوا[2].

إيثارُ تعديةِ الاتِّباع إلى سبيلِهم دون ضميرِهم:

الإغراءُ باتِّباع السَّبيل دون أهلِهِ تزكية لصحَّة السَّبيل

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باتِّباع السَّبيل دون اتِّباعهم أنفسَهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾، فلم يقل: (اتَّبعونا)؛ تزكيةً لدعوتهم بأنَّهم لا يدعون إلى أنفسهم، بل لفكرتهم ومعتقدهم، ففيه إغراءٌ يخدع المدعوّين، أي: إنَّكم لا تتَّبعونا كأشخاص، بل تتَّبعون ديننا المتَّصف بالوضوح والبيان.

دلالةُ التَّعبيرِ بالسَّبيل دون الطريق:

استمالةُ المؤمنين بادِّعاء كثرة السّالكين لطريق الضّالين

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالسَّبيل دون الطَّريق في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على سهولة سلوكه وكثرة سالكيه، أي: اتَّبعوا سبيلنا الواضحَ البَيِّنَ لنا ولغيِّرنا[3]، وأضافوه إليهم للدَّلالة على أنَّ ما هم فيه من غنًى وقوَّة سببُها ديننا واتِّباعنا لآلهتنا.

معنى (الواو) في قولهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾:

تسويلُ الاتِّباع بادِّعاء تحقُّق الالتزام وتأكيده

عطف النَّظمُ الجليل تحمُّلَ الخطايا على اتِّباع السَّبيل في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ بالواو للدَّلالة على معيَّة مضمون الجملتين، فالجملتان مترابطتان معًا، وهما بقوَّة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 32، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 454.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 387.

(3) البسيلي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 2/ 377.

الرَّبط بين جملتي شرط وجزاء، وذلك لتأكيد الالتزام بين الاتِّباع وتحمُّل الخطايا[1]، فعطفوا صيغةَ الأمر (لنحملْ) على الأمر ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق مجازاتهم، وأنَّه محقَّق بلا شكٍّ[2].

معنى (اللام)، ودلالة الأمر ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ﴾:

أمـرُ الـنَّـفـسِ أدلُّ على تحقُّق المـضـمـون من الإخبار

عبَّر النَّظمُ الجليل بصيغة الأمر، بلام الأمر الدّاخلة على الفعل المضارع، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾، والأمر هنا لأنفسهم، فأمروا أنفسهم بتحمُّل خطايا المؤمنين؛ إغراءً لهم باتِّباعهم[3]، فليس الأمر هنا دالًّا على الطَّلب، بل هو إخبار مؤكَّدٌ؛ وذلك لأنَّ أمر النَّفس آكدُ من الإخبار بأنَّهم سيحملون ذنوبهم؛ لأنَّ صيغة الأمر تدلُّ على الامتثال، فعدلوا عن الإخبار إلى الأمر؛ لأنَّه يدلُّ على تحقيق المضمون، وهو الإيفاء بالحماية[4].

بلاغةُ التمثيل بالحمل في ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ﴾:

التزامُ الكافرين بـحـمـل أعـبـاء أتباعِهم كالتزام حـامـل أمتعة النّاس

عبَّر النَّظمُ الجليل بحَمل الخطايا في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ على طريقة المجاز التَّمثيليِّ؛ وذلك لبيان حال من يلتزم بتحمُّل أعباء غيره ومشقَّته، فشبَّهه بحال مَن يحمل أمتعة الناس، ويكون ضامنًا لها[5]، وهذا يدلُّ على تأكيد إغرائهم للمؤمنين، وقوَّة فتنتهم لهم بدعوى ضمان المحاسبةِ؛ إن وقعت محاسبة يوم القيامة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالخطايا دون الأخطاء:

من كمال الدَّعوة والاستمالة في الفتنة ادِّعاء ضمان جميع الخطايا

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالخطايا دون الأخطاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على التَّكثير؛ لأنَّ الأخطاء جمع قلَّة يدلُّ على أنَّها معدودة، والأنسب لسياق الإغراء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 401.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 19.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.

بحمل الذُّنوب إنَّما يقع بالتَّعبير عن كثرة الخطايا، أي: نحملها عنكم، مهما كثُرتْ.

لطيفة الإضافة في ﴿خَطَٰيَٰكُمۡ﴾:

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ (الخطايا) إلى ضمير المخاطَبين، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾؛ وذلك للدَّلالة على العموم[1]، أي: نحمل عنكم جميع الذُّنوب المنسوبة إليكم.

معنى (الواو) في ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾:

قطع الطَّريق على دعوة الضَّلال بإعلان كذبهم

صدَّر النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ﴾ بالواو الاعتراضيَّة، فالجملة معترضةٌ[2]، جيء بها لإبطال قولهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾، فما ذكروا أنَّهم يحملون عنهم الخطايا على وجه العموم، أبطله تعالى بالنَّفي الدّالِّ على العموم؛ ليبيِّن كذبهم وافتراءهم[3].

معنى (ما) في ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾:

إلجامُ الكافرين بتكذيبهم وإبطال ادّعائهم

نفى النَّظمُ الجليلُ الجملة الاسميَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ﴾، بـ (ما) العاملة عمل ليس[4]، وذلك لجعل النَّفي مؤكَّدًا، فيكون الرَّدُّ بالجملة المنفيَّة المؤكَّدة مكافئًا للجملة المثبتة: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾، وفائدته تأكيدُ إبطال قولهم وتكذيبهم؛ ليلجمَ ألسنتهم، ويخرسهم، ويزيل ما علق في أذهان سامعيهم من كلامهم الكاذب[5].

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِحَٰمِلِينَ﴾:

لا يحملُ المرءُ سيِّئاتِ غيرِه عنه

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 316.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.
(4) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 146.
(5) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 19.

﴿هُم بِحَٰمِلِينَ﴾، وهو هنا دالٌّ على التَّأكيد؛ لأنَّه داخلٌ على خبر (ما)، فدلَّ على قوَّة انتفاءِ حمْلِهم خطايا غيرهم عنهم، تبيينًا لكذبهم.

نكتةُ إيقاع صريح النَّفي على حَمْلِهم الذُّنوبَ:

خلطُ الحقِّ بالباطل يقتضي تخصيصَ الباطل بالتَّكذيب

صرَّح النَّظمُ الجليل بإيقاع النَّفي على حمْلِهم الذُّنوبَ دون الاكتفاء بتكذيبهم الآتي عقيبه في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، وجملة تكذيبهم بتحمُّل الذُّنوب اعتراضيَّة[1]، والغرض من هذا الاعتراض: الاحتراسُ من تعميم حكم الكذبِ عليهم، حتّى لا يفهم أنَّ تكذيبهم يشمل ما يدلُّ عليه قولهم من التَّصديق بالحساب على الذُّنوب يوم البعث، فهو اعتراضٌ للاحتراس من الجملة اللّاحقة التي تحكم على كذبهم، أي: إنَّ كذبهم كائنٌ في ادِّعائهم حملَ الذُّنوب، لا الحساب على الأعمال.

دلالةُ التَّعبير بصيغة اسم الفاعل في (حاملين):

صفةُ حمْل الذُّنوب منفيَّةٌ عنهم نفيًا مؤكَّدًا ثابتًا

عبَّر النَّظمُ الجليل البليغ عن نفي حملهم الذُّنوب بصيغة اسم الفاعل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على ثبوت النَّفي، فانتفاء حمْلِهم الذُّنوبَ ثابتٌ، شأنه شأن الحقائق التي لا تتغيَّر.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في القيد ﴿مِنۡ خَطَٰيَٰهُم﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم﴾ وهي هنا بيانيَّة[2]، أي: إنَّ المحمول هو من جنس الخطايا.

دلالةُ تكرير ﴿خَطَٰيَٰهُم﴾:

تأكيدُ حضور الخطايا في السّياق لتأكيد كذِبهم بحملها

كرَّر النَّظمُ الجليل ذِكرَ لفظ الخطايا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 316.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 10/ 172.

﴿هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم﴾، فلم يقل: (وما هم بحامليها)، فوضع الظّاهر موضعَ المضمر؛ وذلك للاهتمام بالخطايا، فهي مساق الحديث، فكرَّرها بلفظها تنويهًا بها، وتنبيهًا على كذبهم في ادِّعاء حَمْلها عن غيرهم.

معنى ﴿مِّن﴾ في القيد ﴿مِّن شَيۡءٍۖ﴾:

إزالةُ ما علق في الأذهان من دعوة الكافرين بالنَّفي الاستغراقي

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ﴾، وهي مزيدة للتَّأكيد، وأصلُ الكلام: (وما هم حاملين من خطاياهم شيئًا)؛ وفائدتها الدَّلالة على استغراق النَّفي[1]، أي: إنَّهم لا يحملون عنهم أيَّ شيء ممّا يعدُّ خطيئة، مهما صغر، وجيء بهذا الأسلوب الدّالِّ على استغراق النَّفي لنقضِ دعواهم من الأصل وإزالتها من الأذهان[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالشَّيئية في القيد ﴿مِّن شَيۡءٍۖ﴾:

لا يحملون شيئًا ما من خطايا غيرهم عنهم

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ شيء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ﴾؛ وذلك للدَّلالة على العموم في النَّفي؛ لأنَّ تنكير لفظة ﴿شَيۡءٍۖ﴾ في سياق النَّفي يفيد العموم[3]، أي: لن يحملوا عنهم أيَّ شيءٍ يكون خطيئة، أو إثمًا، أو ذنبًا، صغيرًا أو كبيرًا، والتَّعبير بشيء دون غيره فيه مبالغةٌ في النَّفي مع الدَّلالة على الاستغراق، فأيُّ شيءٍ ممّا يقال له: شيءٌ، لا يمكن أن يكون محمولًا عنهم.

بلاغةُ الطباق والجناس بين ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ﴾، ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾:

الجناسُ والطِّباق تأكيدٌ لمضمون الخطاب والتَّنويه بما كذبوا به

جمع النَّظمُ الجليل بين لفظين من جذر واحد، ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ﴾ و﴿بِحَٰمِلِينَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم﴾، وهو جناس اشتقاقيٌّ، والفائدة الدَّلاليَّة

---

(1) القنّوجي، فتح البيان: 10/ 172.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 19.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.

فيه التَّنويه بموضوع كذبهم، وهو حمْلُ الذُّنوب، وفي العبارة جمعٌ بين لفظين متناقضين على طريقة طباق السَّلب، وهما: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ﴾، و﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾؛ وذلك للتَّعجيل بنقض دعوتهم، ومع ما في ذلك من جماليَّة في التَّركيب بجمع المتوافقات لفظًا في الجناس، والمتناقضات دلالة في الطِّباق تثير الانتباه، فيقع الاهتمام بالمضمون.

علَّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ عمّا قبلها:

التَّصريحُ بلفظ التَّكذيبِ أبينُ في إظهار كذبهم

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لأنَّها بدلُ اشتمال من الجملة قبلها؛ لأنَّ قوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ﴾ يدلُّ على تكذيب قولهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾، فهو كذب؛ لأنَّه غيرُ مطابق للواقع[1]، ففُصِلت الجملتان، ولم تُعطفا؛ وذلك لما بينهما من كمال الاتِّصال[2].

غرضُ توكيد الخبر في ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾:

تأكيدُ كذِبهم ضرورةٌ لإزالة أثر كلامهم عمّن ظنَّ صدقهم

أورد النَّظمُ الجليل الخبرَ في الجملة في قوله جلَّ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ مؤكَّدًا بالجملة الاسميَّة، وباللّام و(إنَّ)؛ وذلك لتأكيد كذبهم، ولأنَّ من سمع مقالتهم قد يظنُّهم صادقين في ادِّعائهم، فجيء بالتَّأكيد لإبطال هذا الظَّنِّ[3].

سرُّ صوغ كذبهم في صيغة اسم الفاعل:

صفةُ الكذبِ راسخةٌ في الدُّعاة إلى الكفر

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن كذبهم باسم الفاعل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ وذلك لما في الاسم من دلالة على ثبوت المعنى، فهم متَّصفون بالكذب على جهة الرُّسوخ والأصالة، فالكذبُ لا يفارقهم بحال، ولا بمرِّ الزَّمان.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 220 - 221.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 402.

نكتةُ حذف متعلّق كذبهم:

الكاذب يكذب في كلِّ شيءٍ لا سيَّما في وعوده

حذف النَّظمُ الجليل متعلِّقَ الكذب، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، فلم يذكر بأيِّ شيءٍ كذبوا، وذلك لدلالة السّياق عليه، فاكتفى به طلبًا للإيجاز، والتَّقدير: (إنَّهم لكاذبون في حمل ذنوب غيرهم عنهم).

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾:

بعزَّة الله إنَّهم لا ينجون من ذنوبهم ولا من ذنوب مَن أضلّوه من النّاس

عطف النَّظمُ الجليل حمْلَ الكافرين أثقالهم وأثقال غيرهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ على تكذيبهم في ادِّعاء تحمُّلهم ذنوبَ غيرهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ﴾، وفائدة العطف: أنَّه "بيانٌ لما يستتبعه قولُهم ذلك في الآخرةِ من المضرَّة لأنفسِهم بعد بيانِ عدم منفعتِه لمخاطبيهم أصلًا"[1]، أي: "إنَّهم غيرُ ناجين من حمل تبعات لأقوام آخرين، وهم الأقوامُ الذين أضلّوهم، وسوَّلوا لهم الشِّرك والبهتان على وجه التَّأكيد بحملهم ذلك"[2]، فأفاد العطف أنَّ الأمر عكس ما زعموا من حمْلِهم ذنوبَ غيرهم، بل الحقيقة أنَّهم سيحملون خطايا أنفسهم غير منقوصة، ويحملون معها خطايا مَن أضلّوهم من النّاس[3].

دلالةُ تأكيدِ الجملة في قوله: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ﴾:

إنكارُ دعوةِ الكافرين بتأكيد كذبِهم

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ باللّام الموطِّئة للقسم المحذوف، وبنون التَّوكيد الثَّقيلة، والتَّقدير: (وعزَّتي ليحملنَّ أثقالهم)[4]، والغرض من التَّأكيد الرَّدُّ على إنكارهم الحساب وحمْلِ الخطايا، فإنَّهم إنَّما قالوا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 33.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 221.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 19.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 33.

مقولتهم للمؤمنين لا على سبيل الإيمان بيوم القيامة، بل على سبيل الشَّرط الافتراضي، أي: إن كان هناك حساب؛ فنحن نحمل الذُّنوب عنكم، "وهذا قولُ صناديد قريش: كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن عسى كان ذلك؛ فإنّا نتحمَّل عنكم الإثم"[1]، فردَّ عليهم بتأكيد حمْلِ تلك الذُّنوب؛ ردًّا على تكذيبهم وافترائهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالحمل، وصوغه مضارعًا:

الذُّنوبُ تثقل كاهلَ صاحبِها كالأثقال التي تنوء بحاملها

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ الحمل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على حمْلِ تلك الأثقال على الظَّهر[2]، والمراد تشبيه الذَّنب بالحمل بجامع الثِّقل المسبِّب للشَّقاء والعناء، وآثر النَّظمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع للدَّلالة على تصوير الحمل واستجلاب الصّورة والمشهد، كما أنَّه يدلُّ على تجدُّد حمْلِهم الذُّنوب واستمراره.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾:

الشَّقاءُ بالعذاب عن ذنوب الآخرين كمعاناة من يحمل أمتعة الآخرين

عبَّر النَّظمُ الجليل عن الذُّنوب والآثام بالأثقال في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾؛ للإيذانِ بغاية ثقلِها وكونِها فادحةً[3]، ومجازًا عن كونها ذنوبًا عظيمة[4]، فمثَّل حال الذين يحاسبون على ذنوبهم وذنوب غيرهم بحال الذي يحمل متاعه، وهو مثقلٌ به، فيزاد عليه بحمل أمتعةِ أناس آخرين[5]، والجامع الشَّقاء والعناء، فالاستعارة تمثيليَّة؛ إذ شبَّهت حالًا بحالٍ وصورة بصورة.

دلالةُ جمع ﴿أَثۡقَالَهُمۡ﴾، وإضافتها إليهم:

ذنوبُ الكافرين العظام كثيرة وفيرة

جمع النَّظمُ الجليل لفظ الأثقال في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 444.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حمل).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 33.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 225.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 221.

﴿أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على كثرتها، وأنَّهم يحملونها كاملةً غير منقوصةٍ، وأضاف تعالى الأثقالَ إلى ضمير الكافرين للدَّلالة على أنَّهم يحملون ذنوب أنفسِهم مع ذنوب غيرهم[1].

علَّةُ ذِكر أثقالِهم في: ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾:

ذنوبُهم كافيةٌ في شدَّة العذاب، وألحقَ بها غيرها زيادة في التَّنكيل

صرَّح النَّظمُ الجليل بلفظ أثقالهم في صدر الجملة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾، ولم يُقلْ: (وليحملنَّ أثقالًا مع أثقالهم)، وهو كافٍ في الدَّلالة عليها؛ وذلك لأنَّه أراد أن يبيِّن "استقلالَ أثقال أنفُسِهم، وأنَّها بَهظَتْهُم، واستَفرغت جُهدَهُم، ومع ذلك جُعِلت أثقالُ الذين يُضِلّونَهم كالعَلاوَةِ عليها"[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾:

يحملُ أئمَّةُ الكفرِ نوعين من الذُّنوب، ذنوبهم وذنوب من ضلَّ بسببهم

عطف النَّظمُ الجليل الأثقالَ على أثقالهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا﴾، فعطف الأثقال التي كانت بسبب إضلالِهم لغيرهم، على الأثقال التي كانت بسبب ضلالهم بأنفسِهم[3]، فدلَّ النَّصُّ على أنَّهم يحملون نوعين من الأثقال؛ الأوَّل الأثقال التي اكتسبوها بأنفسهم، والثّانية أثقال غيرهم بما أضلّوهم.

دلالةُ تنكير ﴿وَأَثۡقَالٗا﴾ وفائدة الجناس:

دعاةُ الكفرِ يحملون وِزرَ الإضلال، لا كلَّ ذنوب مَن أضلّوه

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير عن الأثقال بصيغة التَّنكير، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ ولم يقل: (وأثقال الذين يضلّونهم)؛ وذلك للدَّلالة على أنَّهم يحملون بعضَ ذنوب غيرهم، فالتَّنكير هنا يدلُّ على ما دلَّت عليه (مِن) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ [النحل: 25]، أي: ويحملون بعضَ أوزارِ الذين ضلّوا بسبب

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 33.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 149.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/ 11093.

إضلالهم، أي: يحملون وزرَ الإضلال[1]، فالإثمُ الذي يحملونه عن غيرهم ما كان بسببهم، لا كلَّ ذنوب الآخرين.

دلالةُ المعيَّة في قولهم: ﴿مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالظَّرف ﴿مَّعَ﴾ الدّالِّ على المصاحبة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم يحملون ذنوب غيرهم فضلًا عن ذنوبهم، والمعيَّة هنا صفةٌ للأثقال، أي: يحملون أثقالًا مصاحبةً لأثقالهم[2].

دلالةُ جمع الأثقال والإضافة فيها:

ذنوبُ الكفّار كافيةٌ في إيرادهم النّار

أورد النَّظمُ الجليل لفظَ (الأثقال) جمعًا مضافًا إلى ضميرهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على كثرة ذنوبهم الكبيرة، وفي إعادة لفظها تنويهٌ بجسامة ذنوبهم وكونها كافيةً في تحقيق العذاب الخالد لهم.

معنى (الواو) في ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

فضحُ أئمَّةِ الكفرِ وإذلالهم بسؤالهم عن افترائهم

عطف النَّظمُ الجليلُ السُّؤال عن الافتراء في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ على حمل الذُّنوب في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾[3]، فلمّا بيَّن أنَّهم غيرُ ناجين من حمّلِ ذنبهم في إضلال غيرهم؛ أتبعَ ذلك بأنَّهم مع حمل تلك الذُّنوب، فإنَّهم سيسألون أمام النّاس عن افترائهم؛ فضحًا لهم وتشهيرًا بهم وإظهارًا لكذبهم، وليت عَمري ماذا سيكون جوابُهم وردُّهم، وتضمَّنت الجملةُ تذييلًا جامعًا لكلِّ ما افتراه الإفكُ والتَّضليل[4].

دلالةُ تأكيدِ الجملة في ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ﴾:

سؤالهم على رؤوس الملأ محقّقٌ مؤكَّد

أكَّدَ النَّظمُ الكريم الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 149.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 317.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 317.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 221.

﴿عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ باللّام الموطِّئة للقسم المحذوف، وبنون التَّوكيد الثَّقيلة، والتَّقدير: (وعزَّتي وجلالي ليسألنَّ يوم القيامة)، وجاء بالتَّأكيد؛ لكونهم ينكرون يومَ القيامة، فردَّ بالتَّأكيد على إنكارهم[1].

سرُّ إيثار لفظ السؤال بهيئة المضارع:

ومن السُّؤال ما يحقِّق الازدراء والإذلال

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ السُّؤال، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، والمرادُ به سؤالهم؛ توبيخًا وتقريعًا لهم[2]، وليس المرادُ معرفةَ جوابهم، بل فضْحَهم أمام مَن أضلّوهم، لما في ذلك من خزيٍ وإذلال، وإنَّما عبَّر بالسُّؤال دون غيره وذلك لما يثيره السُّؤال المراد به الإذلال والازدراء والإهانة في القلب من رعب وهلع[3]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّد سؤالهم، والتَّجدُّد مناسب للتَّأنيب والتَّقريع، فيكرِّر عليهم السُّؤال لتجديد التَّوبيخ والتَّقريع.

توجيهُ بناء لفظ السُّؤال للمفعول:

إضمارُ السّائل إهانةٌ للمسؤول وتأنيب له

بُني لفظُ السُّؤال للمفعول دون الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ للدَّلالة على صدور السُّؤال من أيِّ سائلٍ كان، فالمقصود تأنيبُهم بالسُّؤال ذاته، لا بكونه من سائل معيَّن، وفيه حطٌّ من قدرِهم، وإهانة لهم، فَهُم ليسوا أهلًا ليظهرَ اللّهُ سائلَهم.

نكتةُ التَّقييدِ بالظَّرف ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

يومُ القيامةِ لا يجاب بالكذب، فالسّامع العاقلُ يبادر بالتَّوبة

قيَّد النَّظمُ الجليل السُّؤال بأنَّه كائنٌ يوم القيامة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ إشارةً إلى اليوم الذي هم به مكذِّبون ومستهينون[4]، وفيه إشارة إلى أنَّهم لن يُسألوا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 403.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 225.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 402 - 403.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 403.

في الدُّنيا سؤال الحساب، بل إنَّه محصورٌ بيوم القيامة، وفي هذا القيد إيماءٌ إلى أنَّ السُّؤال سيكون في يوم لا تنفع فيه شفاعة، فهو وعظٌ وترغيبٌ بتعجيل التَّوبة.

معنى (عن) في قوله: ﴿عَمَّا﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (عن) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، وهو هنا دالٌّ على المجاوزة[1]، والمجاوزة هنا تدلُّ على أنَّ افتراءهم أثار سؤالًا انفصل عنه، وابتعد عنه، وذلك أنَّ الافتراء وادِّعاء حقٍّ ممّا يثير لذاته وغرابته أن يُسأل عنه، ويُتحقَّق منه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول (ما):

كـلُّ افـتـراءٍ افـتروه سيقع سؤال عنه أمام الخلائق

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الافتراء بالاسم الموصول دون الصَّريح، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، فلم يقل: (عن افترائهم)؛ وذلك لما في (ما) الموصولة من دلالة على العموم والإبهام، فيكون السُّؤال متناولًا لكلِّ ما افتروه، وفي الإبهام تفخيمٌ لشأن افترائهم، فهو افتراءٌ كبير.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الكون ماضيًا:

الافـتـراءُ صفةٌ راسـخـةٌ في أخـلاق الـدُّعـاة إلى الكفر

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل الكينونة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، دون أن يقول: (عمّا يفترون)؛ للإشارة إلى أنَّهم فعلوا ذلك بغاية الرَّغبة[2]، وذلك لكون الفعل راسخًا فيهم، وكأنَّه خلَّة فيهم وسجيَّةٌ وطبع، فالافتراء موجود فيهم، مرافقٌ لهم في كلِّ أوقاتهم بحيثُ لا يُتصوَّر لهم وجود من غيرِه، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى إصرارهم عليه واستمرارهم فيه.

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 20/ 139.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 403.

دلالةُ التَّعبيرِ بالافتراء ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ مادَّة وصيغة:

تعمُّدُ اختلاقِ الكذبِ فعلٌ يزاولُه أئمَّةُ الكفر على وجه الدَّوام

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالافتراء في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ لِما فيه من دلالة على اختلاق الكذب، فهو تعبيرٌ عن قصدهم إحداثَ ذلك الكذب، فهم يتعمَّدونه، فالافتراء هو اختلاق الكذب المتعمَّد، وعبَّر عن افترائهم بالمضارع للدَّلالة على أنَّه متجدِّدٌ متكرِّرٌ مستمرٌّ[1]، والتَّعبير بصيغة الافتعال يدلُّ على أنَّهم تعمَّدوا الكذبَ، وقصدوه، وذلك لِعلمهم بصدق النَّبيِّ ﷺ[2].

بلاغةُ التذييل بجملة الفاصلة:

المؤاخذةُ واقعةٌ محقَّقةٌ عن كلِّ افترائهم وإضلالهم للنّاس

ذيَّلَ النَّظمُ البليغ في رأس الآية بالجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ لمؤاخذتهم بجميع ما اختلقوهُ من الافتراء والكذب لتضليل النّاس، فلفظ الافتراءِ دالٌّ على كلِّ ما حاولوا به إضلالَ النّاس من الوعود والتَّرغيب بكلِّ ما هو زائفٌ[3].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الاتِّباع والتقليد:

الاتِّباعُ اقتفاءُ أثرِ سابِقٍ، والتَّقليدُ أخصُّ منه وأشدُّ التزامًا بمتبوع

الاتِّباع: من (تبع): وهو أصلٌ يدلُّ على التُّلوِّ والقَفْو، يقال: تبعتُ فلانًا؛ إذا تلوتُهُ، واتبعته، وأتبعته؛ إذا لحقته، واتَّبعه؛ إذا مَشى خَلْفه، ويقال للظِّلِّ: تابعٌ؛ لأنَّه تابع أبدًا للشَّخص، والتَّبَعُ قَوائِمُ الدّابَّةِ، وسُمّيَتْ؛ لِأَنَّهُ يَتْبَعُ بَعْضُها بَعْضًا، والتَّبيع: ولدُ البقرة؛ إذا اتَّبع أمَّه، والتَّبيع: النَّصير؛ لأنَّه يتبعُهُ: نصره، وتبعه في كذا؛ إذا وافَقه عليه[4]، فالاتِّباع يُطلق على من لحق غيره، واقتفى أثره؛

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 20/ 139.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 403.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 221.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).

ولذلك يطلق على القرن الذي بعد الصَّحابة (التابعين)؛ لأنَّهم اقتفَوا أثر السّابقين، وساروا على طريقتهم، أمّا التَّقليدُ؛ فأصله من القلادَة التي في العنق، وقَلَّدتُ المرأةَ، فَتَقَلَّدَتْ هي، ومنه التَّقليد في الدّينِ، وتَقليدُ الوُلّاةِ الأعمالَ، وتَقْليدُ البَدَنةِ، أن يُعلَّقَ في عنقها شيءٌ؛ ليُعلمَ أنَّها هدي[1]، وقَلَّد إمامًا في الدّين، أي: تعلَّق به، واتَّبعه، ولزمه، وكأنَّه قلَّده أمرَ نفسه[2]، فالتَّقليد يدلُّ على الاعتماد على غيره في تبيين الأمرِ، وتفويض الأمر له، أمّا الاتِّباع؛ فهو اقتفاء السّيرة والأثر، فالتَّقليد أخصُّ من الاتِّباع؛ لأنَّ الاتِّباعَ سيرٌ خلفَ متقدِّم، أمّا التَّقليد؛ فمن القلادة في العنق، ففيه إلزامٌ وتتبُّعٌ أشدُّ.

السَّبيل والطريق:

الطَّريق عامٌّ، والسَّبيل ما أوصل لما يراد منه من الطَّرق

السَّبيلُ: طريقٌ فيه سهولة، وجمعه سُبُلٌ، ويُستعمل لكلِّ ما يُتَوصَّل به إلى شيء آخر، خيرًا كان أو شرًّا، قال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النَّحل: 125][3]، فلمّا كان السَّبيل يُطلق على كلِّ ما يُتوصَّل به؛ أُطلق على الأعمال التي تكون موصلةً لله تعالى، كالدَّعوة والقتال وغيرهما، وأغلب استعماله في الخير، وأمّا الطَّريق؛ فهو لا يقتضي السُّهولةَ، ولا يكاد يُراد به الخير إلّا مقترنًا بوصف أو إضافة تخلِّصه لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30][4]، وقد حكى النَّظمُ الجليل في الآية إطلاقَهم لفظَ السَّبيل على طريقتهم، وذلك ترغيبٌ لمن يعرضون عليهم دينهم بأنَّه سهلُ السُّلوكِ، وقد كثُر سالكوه، فهو سبيلٌ واضح بيِّنٌ.

الثِّقل والوزر والإصر:

أصلُ الثِّقَل يُطلق على ضدِّ الخفَّة[5]، فالثِّقَل والخفَّة متقابلان،

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (قلد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قلد).
(3) الرّاغب، المفردات: (سبل).
(4) العسكري، الفروق، ص: 313.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثقل).

فكلُّ ما يترجَّح على ما يوزن به، أو يُقدَّر به يُقال: هو ثَقيل، وأصلُه في الأجسام، ثمَّ يُقال في المعاني، نحو: أَثْقَلَهُ الغَرْم والوِزْر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠﴾ [الطّور: 40][1]، والثَّقَلُ: متاعُ المسافرِ وحَشَمُهُ، وجمعُه: أثقالٌ، والأثقالُ: الآثام[2]، والمراد به في الآية الكريمة: آثامهم وأوزارهم، وأمّا الوزر؛ فمن (وزر)، وهو الثِّقَلُ في الشَّيْءِ، والوِزْرُ: حِمْلُ الرَّجُلِ؛ إذا بَسَطَ ثَوْبَهُ، فَجَعَلَ فيهِ المَتاعَ، وحَمَلَهُ، ولِذَلِكَ سُمّيَ الذَّنْبُ وِزْرًا[3]، وأصله في كَلامِ العَرَبِ الجَبَلُ الَّذي يُلْتَجَأُ إليه، وهو الحِمْلُ الثَّقيلُ، والوِزْرُ: الذَّنْبُ لِثِقَلِه[4]، فسُمّي الذَّنب وزرًا تشبيهًا بالجبل في ثقله؛ لأنَّه يثقل صاحبه[5]، فالوِزر: هو الثَّقيل من الأحمال، التي تشابه في ثقلها الجبال، وعبَّر في الآية بالأثقال؛ لتشمل كلَّ ذنوبهم، وذلك لإيماء الوِزر إلى الكبير من الذُّنوب.

الـثِّـقـل صـفة مـعـنويَّـة ضـدُّ الـخفَّة، والـوزر هـو الـحـمـل الثَّقيل

الافتراء والكذب:

الكذبُ: عدمُ مطابقة الخبرِ للواقع، أو لاعتقاد المخبرِ لهما على خلاف في ذلك، والافتراء: أخصُّ منه؛ لأنَّه كذْبُ المرءِ في حقِّ غيره بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب، فإنَّه قد يكون في حقِّ المتكلِّم نفسه، ولذا يقال لمن قال: (فعلت كذا، ولم أفعل كذا) غير صادقٍ: هو كاذب، ولا يقال: هو مفترٍ، وقال سبحانه حكاية عن الكفار: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [سبأ: 8]، لزعمهم أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه اللّٰه سبحانه مع نسبته إليه[6]، والافتراء: افتعال من الفري، وهو أقبح الكذب،

الـكـذبُ الإخبارُ بخلاف الواقع، والافتراء الإخبار بـمـا لا يرتضيه المكذوب عنه

(1) والرّاغب، المُفردات: (ثقل).
(2) الخليل، العين: (ثقل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وزر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وزر).
(5) السّمين، عمدة الحفاظ: (وزر).
(6) العسكريّ، الفروق، ص: 449 - 450.

وهو الكذب المتعمَّد[1]، والافتراءُ هو العَظيمُ مِنَ الكَذِب، يُقالُ لِمَن عَمِلَ عملًا، فبالغَ فيهِ: إنَّه ليَفري الفَريَ، يعني: ليقطعَ الأمرَ العجيبَ[2]، فعبَّر في الآية بالكذب أوَّلًا؛ للدَّلالة على أنَّهم يعلمون أنَّ قولهم يخالف الواقع، وعبَّر بالافتراء ثانيًا لكونهم اختلقوا الكذب بأن ادَّعوا ما ليس لهم بحقٍّ، ولأنَّهم تعمَّدوا الكذب، ولأنَّ كذبهم هذا من أعظم الكذب.

(1) السّمين، عمدة الحفاظ: (فري).
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّثنيةُ بذكر ابتلاء الأنبياء بعد فتنة النّاس

بعد أن أخبر النَّظمُ الجليل عن أقسام النّاس وحالهم في الفتنة والاختبار، وأخبر عن الأذى في سبيل الله تعالى بسبب الإيمان، وأخبر عن ابتلاء المؤمنين بأذيَّة الكفّار لهم؛ أتبع ذلك بالإخبار عن ابتلاء الأنبياء وفتنتهم بأذيَّة قومهم، فبدأ بقصَّة نوح عليه السلام، فساق القصَّة شاهدًا على ما لاقاه الأنبياء والرُّسل من الأذى وتكذيب الأقوام؛ ليكون صبرُ الأنبياء مثابةً وأسوةً للنّاس والمؤمنين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلَبِثَ﴾: (لبث) أصلٌ يدُلُّ على تَمَكُّثٍ، يُقالُ: لَبِثَ بالمَكانِ: أقامَ[2]، وقيَّدَهُ الرّاغِبُ بكونِهِ إقامةً بالمكانِ على وجْهِ المُلازَمَةِ لَهُ[3]، فهو يدلُّ على مُلازَمَةٍ مُمْتَدَّةٍ لِلمكانِ[4]، يُقالُ: لَبِثَ بالمَكانِ: أقامَ به مُلازِمًا له، وألبِثْ عن فلانٍ، أي: انتَظِرْه حَتّى يُبديَ انتِظارُكَ إيّاه خطأ رأيِه[5]، واستَلبَثَهُ: إذا استَبطَأَهُ، وهوَ استَفعَلَ مِنَ اللَّبثِ، وهوَ الإبطاءُ والتَّأَخُّرُ[6]، والمقصودُ باللَّبثِ في الآيةِ: أقامَ مع قومه زمانًا طويلًا.

2) ﴿سَنَةٍ﴾: (سنه) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى زَمانٍ، فالسَّنَةُ مَعْروفَةٌ[7]،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 36، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 33، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 222.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لبث).
(3) الرّاغب، المفردات: (لبث).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لبث).
(5) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (لبث).
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (لبث).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سنه).

وهي: الحولُ اثنا عشر شهرًا[1]، والسَّنةُ مُطْلَقَةً: السنةُ المُجْدِبةُ، أَوْقَعوا ذَلِكَ عَلَيْها إكبارًا لَها وتَشْنيعًا واسْتِطالَةً، يُقالُ: أصابتهم السَّنَةُ، والجَمْعُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ سَنَهاتٌ وسِنون[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، عبارةٌ عن الجدب، يقال: أَسْنَتَ القومُ: أصابتهم السَّنَةُ[3].

3) ﴿عَامًا﴾: (عوم) العامُ الحَوْلُ يأْتي عَلَى شَتْوَة وصَيْفَة، والجَمْعُ أعْوامٌ[4]، سُمّيتِ السَّنةُ عامًا لِعَوْمِ الشَّمس في جميع بروجها، ويدلُّ على معنى العَوْمِ قوله: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: 40][5]، العام: اثنا عشر شهرًا كالسَّنة، إلّا أنَّ العام إذا أطلق؛ غلب في الخصب، والسَّنة في الجدب، قال تعالى: ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسف: 49]، وقوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[6].

4) ﴿ٱلطُّوفَانُ﴾: (طوف) أصلٌ يدلُّ على دَوَران الشَّيء على الشَّيء، وأن يُحَفَّ به، يُقالُ لِما يَدورُ بِالأَشْياءِ، ويُغَشّيها مِنَ الماءِ: طوفانٌ[7]، والطّوفان: الماءُ الذي يَغْشَى كلَّ مكانٍ، ويُحيط به[8]، والطّوفان مِن كُلِّ شَيءٍ: ما كان كثيرًا مُطيفًا بالجَماعة كلِّها، كالغَرَقِ الذي يَشْتمِلُ على المدُن الكَبيرَة، والمَطر، والقتل الذَّريع، والموت الجارف[9]، فهو: كلُّ حادثة تُحيط بالإنسان، وصار متعارفًا في الماء المتناهي في الكَثْرة؛ لأجل أنَّ الحادثة التي نالت قومَ نوح كانت ماءً، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾[10]، والمراد به في الآية الكريمة: ما طاف بهم، وغلبهم مِن مطرٍ أو سيل[11].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر النَّظمُ الجليل عن صبر الأنبياء وفتنتهم بكفر قومِهم بادئًا بقصَّة نوح عليه السلام،

(1) السّمين، عمدة الحفاظ: (سنه).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سنه).
(3) الرّاغب، المفردات: (سنه).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عوم).
(5) الرّاغب، المفردات: (عوم).
(6) السّمين، عمدة الحفاظ: (عوم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).
(8) الخليل، العين: (طوف).
(9) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 164، والنَّحاس، معاني القرآن الكريم: 5/ 217.
(10) الرّاغب، المفردات: (طوف).
(11) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/ 146.

افتتانُ الأنبياءِ بأذى أممهم وصبرهم على شدائد الدَّعوة

فيخبر تعالى أنَّه بعظمتهِ أرسل نوحًا برسالة إلى قومه الذين يعرفونه، ويعرفون حالَه وصلاحه؛ ليدعوهم إلى عبادة اللهِ تعالى وحدَهُ، وقد لبث فيهم زمانًا طويلًا لذلك، ولكنَّهم أصرّوا على الكفر، واستكبروا حتّى أخذهم الماء بالطّوفان؛ لكونهم قومًا ظالمين لأنفسهم مستحقّين للعذاب[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾:

بعد ذِكر ما يجري مع أهل الإيمان؛ شرع في قصِّ ما جرى لأولي العزم من الرُّسل

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ بالواو الاستئنافيَّة[2]، فبعد أن فصَّل النَّظم الجليل في شأن النّاس وأنواعهم من حيثُ الإيمان والكفر، وما ذكره من شأن الابتلاء والصَّبر، وبيان علم اللّه تعالى وقدرته على إنجاء المؤمنين، وتعذيب الكافرين؛ شرع في ذكر ما جرى للرُّسل الكرام عليهم السلام من البلاء، ومع ذلك لم يفتروا عن دعوة العباد ونصحهم؛ تسليةً لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولمن آمن به، وتهديدًا ووعيدًا لمن كفر به.

معنى ﴿وَلَقَدۡ﴾ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾:

تأكيدُ الإرسال لنقضِ دعوى الاكتفاء بهداية الله تعالى

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ باللّام الموطِّئة للقَسَم المحذوف، و(قد) الدّالَّة على التَّحقيق[3]، وقد علَّل البقاعي استهلال القصَّة بالتَّأكيد تعليلًا بارعًا عامًّا لكلِّ الرِّسالات بقوله: "وأكَّده دفعًا؛ لوهم من يقول: إنَّ القدرة على التَّصرُّف في القلوب مغنية عن الرِّسالة في دار التَّسبُّب"[4]، فقدرة اللّه تعالى على تقليب القلوب ليست مغنية عن الرِّسالة، فبها تقوم الحجَّة على العالمين.

---

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 627.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 318.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 318.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 403.

سرُّ إيثارِ لفظ الإرسال دون البعث:

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبير بالإرسال دون البعثِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾؛ لأنَّ الإرسال مختصٌّ بكونه حُمِّل رسالة إلى قومه، والبعث أعمُّ؛ لأنَّه "يجوز أن يبعث الرَّجل إلى الآخر لحاجة تخصُّه دونك ودون المبعوث إليه، كالصَّبي تبعثه إلى المكتب، فتقول: بعثته، ولا تقول: أرسلته؛ لأنَّ الإرسال لا يكون إلّا برسالة وما يجري مجراها"[1].

إرســالُ رســولٍ تصريح بتضمين رسالة

نكتةُ إسنادِ الإرسال إلى ضمير العظمة:

أسند النَّظمُ الجليل الإرسالَ إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾؛ لتعظيم الرِّسالة، أي: أرسلناه بما لنا من العظمة[2]؛ تفخيمًا للإرسال والتَّنويه بشأنه، فإنَّه من مظاهر رحمة اللّه العظيمة بعباده، فهو إرسالٌ عظيم؛ لصدوره من اللّه تعالى، ومن مظاهر عظمته أنَّه يحمل الهداية للنّاس، ومن مظاهره ما يتضمَّنه من تعريف النّاس بخالقهم، فالعظمةُ تأتي من المصدر ومن الغاية ومن المضمون، فإنَّ العظمةَ تحفُّ الإرسال من كلِّ جانب، فحسن أن يُعبَّر بضمير التَّعظيم.

الإرسالُ رحمةٌ عظيمة من مُرسل عظيم وتعاليم جليلة

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ في القيد ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ الدّالِّ على انتهاء الغاية في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾؛ لبيان أنَّ الرِّسالة إنَّما كانت الغاية منها قومه أنفسهم، ولم يُرْسَل إلى قوم لا يعرفونه.

مقصدُ الرِّسالة بلوغ التَّعاليم للنّاس

وجهُ إيثارِ لفظ القوم على الملأ:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ القوم دون الملأ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾؛ لأنَّ الرِّسالة كانت عامَّة إلى جميع القوم، وليس مختصَّة بالملأ الأشراف منهم.

---

(1) العسكري، الفروق، ص: 289.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 403.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿قَوۡمِهِۦ﴾:

إنَّما يتَّبع النّاس مِن يعرفون حاله

أضاف النَّظمُ الجليل القوم إلى الضَّمير العائد على نوح عليه السلام في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الرَّسول معرَّف لديهم، فهم يعرفونه قبل أن يكون رسولًا، ويعرفون صدقَهُ وخُلقَهُ، فليس الرسول بعيدًا عنهم أو مجهولًا لهم[1]، وهذا أدعى لقبول الدَّعوة منه، فإنَّ النّاس لا يتَّبعون من يجهلونَ أمره وشأنَهُ.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَلَبِثَ﴾:

ملازمةُ الكافرين واجبةٌ لتبليغ الرِّسالة

عطف النَّظمُ الجليل اللَّبث على الإرسال بالفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ لَبثه فيهم أعقب الإرسال، وأنَّه حدث بسببه[2]، فبقاء نوح وملازمته لقومه إنَّما وقع بسبب إرساله إليهم، وهذا يدلُّ على أخذ نوح الرِّسالة بقوَّة وعزيمة لا تتوانى.

دلالةُ التَّعبيرِ باللَّبث دون المكث:

طولُ المقامِ وملازمة القوم في الدَّعوة لبثٌ لا مكثٌ

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باللَّبث دون المكث في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾؛ لأنَّ اللَّبث يدلُّ على ملازمة المكان وطول الإقامة، أمّا المكث؛ فيدلُّ على الانتظار، فلمّا طال بقاء نوح عليه السلام في قومه؛ عبَّر عنه باللَّبث لبيان طول ملازمته لقومه في دعوته.

معنى (في) في القيد ﴿فِيهِمۡ﴾:

لا يَهْلِك على الله إلا هالك

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (في) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ لَبْثَهُ وطول ملازمته كانت في قومه وبين ظهرانيهم يدعوهم، ويرشدهم، فلم يفارقهم، وفي ذلك بيانٌ لقيام الحجَّة عليهم.

---

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/ 11095.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 404.

نكتةُ تقييد لبثِهِ عليه السلام بالجار والمجرور:

استغرقتْ دعوةُ نوحٍ لقومه عمرَهُ كلَّهُ دون أن يغادرهم

قيَّد النَّظمُ الجليل لبث نوح عليه السلام أنَّه كائنٌ في قومه في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾؛ لتأكيد كونِ ذلك العمرِ المتطاول كان فيهم فقط، فلم يخرج منهم، ولم ينقطع عنهم صوتُ الدّاعي، فكلُّ المدَّة التي قضاها نوح عليه السلام في الدَّعوة كانت بين ظهراني قومه، وفي ذلك أبينُ في وقوع الحجَّة عليهم، وأدلُّ على شدَّة إصرارهم على الكفر.

نكتةُ التَّعبير بمفردة الـ ﴿أَلْفَ﴾:

في نوح أسوةٌ حسنة لمن آمن وفُتِن

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ الألف لبيان المدَّة التي لبثها نوح عليه السلام في قومه في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾؛ لأنَّ ذِكرَ الألفِ أفخمُ وأوصل إلى الغرض[1]، وفيه تخييلُ طولِ المدَّة، والمرادُ بيانُ عِظم المدَّة التي قضاها فيهم، فذكر الألفَ لأنَّه رأسُ عددٍ، جرَتِ العادةُ على تكبير المعدود به[2]، والمقصود من بيان مدَّة بقاء نوح في قومه هذه المدَّة الطَّويلة تسليةُ المؤمنين والنَّبيِّ ﷺ، وتثبيتهم على الإيمان إزاء الأذى، والفتنة التي تلحقهم بسبب إيمانهم بالله، فقد كان النَّبيُّ ﷺ يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام وإصرارهم على الكفر، فأُخبر بقصَّة نوح عليه السلام، وأنَّه لبث ألف سنة تقريبًا في الدُّعاء ولم يؤمن من قومه إلّا قليلٌ، وصبر، وما ضجر فأنت أولى بالصَّبر لقلَّة مدة لبثك وكثرة عدد أمَّتك، وأيضًا كان الكفارُ يغترّون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا، فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغي أن يغترّوا؛ فإنَّ العذابَ يلحقهم[3]، ففيه إظهارُ ركاكةِ رأي الذين يحسبونَ أنَّهم يُتركون بلا ابتلاءٍ[4].

(1) القنّوجي، فتح البيان: 10/ 173.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 404.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 36.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 33.

معنى ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾:

استثناءُ المعدودِ يدلُّ على تحقُّقه على التَّمام خاليًا من الزّيادة والنُّقصان

بيَّن النَّظمُ الجليل مدَّةَ بقاء نوح في قومه بطريقة الاستثناء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ ولم يقل: (تسعمئة سنة وخمسين)؛ لأنَّ الاستثناء يدلُّ على أنَّ العددَ المذكور محقَّق، أي: لبث هذا المقدار بلا زيادة أو نقص، ولو قال الجملة الثّانية؛ لدلَّ على أنَّ الرَّقم قد يكون قد ذُكِر على وجه التَّقريب لا التحقيق، فعبارةُ القرآن أكثرُ اختصارًا وأجود بناء وأعذب صياغة[1].

ذِكرُ العددِ الأعلى في مراتب الأعداد يناسب طولَ مدَّةِ الدعوة ويدعو إلى التأسّي به

وفي ذكر مدَّةِ لبثِ نوح عليه السلام في قومه بيانُ أنَّه صبرَ كثيرًا، فالنَّبيُّ ﷺ أولى بالصَّبر مع قصر مدَّةِ دعائه، وإذا كان كذلك؛ فذكر العدد الذي في أعلى مراتب الأعداد التي لها اسم مفرد موضوع، فإنَّ مراتبَ الأعداد هي الآحاد إلى العشرة، والعشرات إلى المئة، والمئات إلى الألف، ثمَّ بعد ذلك يكون التَّكثير بالتَّكرير، فيقالُ: عشرة آلاف، ومئة ألف، وألف ألف[2].

نكتةُ المغايرة بين تمييز الأول بالسَّنة والثّاني بالعام:

السَّنةُ دالَّةٌ على شقائه بدعوتهم، والعام دالٌّ على الرَّغد بعد غرقهم

غاير النَّظمُ الجليل بين التَّمييزِ، فاستعمل العام والسَّنة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾، والفرق: أنَّ العام يُستعمل فيما كان خيرًا رغدًا، والسَّنة فيما كان شديدًا مجدبًا، فجعل لفظ (السَّنة) تمييزًا لسنوات الدَّعوة قبل الفيضان، وذلك لذمِّ أيّام الكفر وبيان شدَّتها، وجعل لفظ (العام) تمييزًا للزَّمان بعد النَّجاة من الفيضان؛ للإشارة إلى أنَّ المرحلة بعد إغراقهم كانت رغدًا وخصوبة ونماء[3].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 36، والبقاعيّ، نظم الدرر: 14/ 404، والقنّوجي، فتح البيان: 10/ 173.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 36.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 404.

أخـــذُ الـقـوم الظّالمين يعقب انـتـهـاء مـدّة الدَّعوة بلا تأخير

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾:

عطف النَّظمُ الجليل الأخذَ على الإرسال في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ بالفاء؛ للدَّلالة على التَّعقيب، أي: أخذهم عقب تمام المدَّة المتطاولة[1]، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ عدمَ إيمان القوم برسولهم سببٌ في أخذهم وعذابهم.

الأخـــذُ دلـيـلٌ عـلى الـعـذاب القاهر الشّامل المستأصل للقوم

دلالةُ التَّعبير بالأخذ في ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير بلفظ الأخذ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾؛ لما فيه من الدَّلالة على شدَّة الأخذ والقهر والغلبة فيه، فأخذهم أخذًا فيه شدَّة وعنف في التَّناول[2].

أحاط بهم الماء وغشيهم حتّى استأصلهم

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلطُّوفَانُ﴾ مادةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الطّوفان، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾، دون الماء؛ وذلك للدَّلالة على الماء الكثير الذي طاف بهم جميعًا، وأحاط بهم، فهو تعبيرٌ عن شدَّة ذلك الماء وقوَّته وامتلاء الأرض به[3]، والطّوفانُ مَصدَرٌ مِثْلُ الرُّجْحان والنُّقْصان[4]، سُمّي به الماءُ الكثير، وهو ما يُغشى منه، ويُعذِّب النّاس[5]، ويُغرقهم لكونه يحيط بهم، ويدور حولهم، وينزل بهم.

الأخذُ والتَّعذيبُ وقـــعَ حـال تلبُّسهم بالظُّلم

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾:

افتتح النَّظمُ الجليل ختامَ جملةِ الفاصلة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ بالواو الحاليَّة، للدَّلالة على الحال الذي أخذهم فيه، أي: أخذهم الطّوفان في حالة كونهم مستمرّين على الظُّلم[6]، ودلَّ هذا الحال على إصرارهم على الكفر ومعاندتهم، وعلى أنَّ

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 226.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/ 11098.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 226، وينظر: البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 404.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (طوف).
(5) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 7/ 4185.
(6) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 21.

الأخذَ كان في حالة تلبُّسهم بالشِّرك وتكذيب الرَّسول، تلبُّسًا ثابتًا لهم متقرِّرًا، وجاء التَّعبير عن الحال بالجملة الاسميَّة؛ للدَّلالة على استقرار الحال فيهم وثباته، فالظُّلم متلبِّسٌ فيهم تلبُّسًا لا ينفكُّ عنهم(1).

نكتةُ التَّعبيرِ بضمير الفصل (هم):

الإصـرارُ على الظُّلم أمارةُ استحقاق الإهلاك

أكَّد اللّه تعالى وصفَهم بالظُّلم في قوله: ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ بالتَّعبير بضمير الفصل (هم)؛ للدَّلالة على أنَّه تعالى أهلكهم، وهم على ظلمهم، ولو كانوا تركوه؛ لَمَا أهلكهم؛ لأنَّ اللّه تعالى لا يعذِّب على مجرَّد وجود الظُّلم وإلّا لعذَّبَ من ظلم، وتاب، فإنَّ الظُّلم وُجِدَ منه، وإنَّما يعذِّب على الإصرار على الظُّلم(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بالظلم في الخبر ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

وضعُ العبادةِ في غير موضعِها ظلمٌ ثابتٌ في المشركين ما لم يتوبوا

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عنهم بصفة الظُّلم في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم مشركون، فيضعون العبادة في غير موضعها؛ إذ يكذِّبون الرَّسول مع ظهور الدَّلائل الدّالَّة على صِدقه، ويصرّون على ذلك، وجاء التَّعبيرُ عنه بصيغة اسم الفاعل؛ للدَّلالة على عراقة الظُّلم فيهم وثبوته في صفاتهم(3).

بلاغةُ التَّعريضِ للمشركين بالإخبار عن أخذِ الظّالمين:

أخذُ الظّالمين سنَّةٌ لا تتوقَّف، لعل السّامع يتَّعظ، والظّالم يرتدع

عرَّض النَّظمُ الجليل بالمشركين، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾، فالإخبارُ عن أخْذِ قوم نوح بالطّوفان تعريضٌ بالمشركين بأنَّهم يسيرون إلى المصير ذاته(4)، فلمّا كان قومُ نوح ظالمين، والمشركون ظالمين بما أشركوا باللّه تعالى، وكذَّبوا رسوله ﷺ؛ فإنَّ مصيرهم واحدٌ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 222.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 37.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 404.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 222.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السنة والعام:

السَّنةُ للشِّدَّة والجدب، والعام للرخاء والخصب

العام: اثنا عشر شهرًا كالسَّنة، إلا أنَّ العام إذا أُطلق؛ غلب في الخصب، والسَّنة في الجدب، قوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ في كون المستثنى منه بلفظ السَّنة، والمستثنى بلفظ العام لطيفة حسنة، وهو أنَّ هذه الخمسين بقاؤه بعد هلاك قومهِ، فهي أعوامُ خيرٍ حيث هلك الكفرةُ المتمردة، وبسطه في غير هذا[1]، فبين السَّنةِ والعام فرقٌ دقيقٌ في الدَّلالة؛ فالسَّنة تستعمل في الشِّدّة، والعام في الرَّخاء، وفي الآية الكريمة استثنى الأعوام من السِّنين؛ فدلَّ ذلك على أنَّ نوحًا عليه السلام عاش ألف عام إلا خمسين سنة قبل الطّوفان، وقد عبر عنها القرآن الكريم بالسَّنة؛ لأنَّها كانت سني شدَّةٍ عليه، فقد عانى فيها من قومه ما عانى من العناد والإعراض والإصرار على الكفر والعصيان، وأنَّه عاش بعد الطّوفان خمسينَ سنة، وقد عبَّر عنها بالعام؛ لأنَّها كانت أعوامَ راحةٍ ورخاء حتّى وفاته بعد هلاك قومه بالطّوفان[2].

---

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (عوم).

(2) عبد الجبار الحمداني، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 486.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾

[العنكبوت: 15]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

امتنانُ اللهِ على نوحٍ ومن معه بالنَّجاة بعد إغراقِ الكافرين المكذّبين من قومه

بعد أنْ بيّن سبحانه سوءَ عاقبةِ المكذّبين مِنْ قوم نوحٍ ﷺ بالإغراق الّذي لم يغادرْ منهم أحدًا؛ لاستمرارهم على الظّلم والكفرِ بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14]، أعقبَ ذلكَ ببيانِ حُسْنِ عاقبةِ نوحٍ ﷺ ومَنْ آمنَ معه؛ فقد صَدَقَه اللّهُ وَعْدَه، ونصرَ عباده فقال: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾: (نجو) أصلان يدلُّ أحدُهما عَلَى كشطٍ وَكَشْفٍ، والآخَرُ عَلَى سَتْرٍ وَإِخْفاءٍ[2]، والنَّجاء: الذّهابُ والانكشافُ من المكان، وقيل أصله: الانفصالُ من الشّيء، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: المكانُ المُرتفِع المنفصل بارتفاعه عمّا حوله، وسُمّي كذلك لكونه ناجيًا من السَّيْل[3]، والنَّجْوَةُ: هي الارْتِفاعُ مِن الهَلاكِ، والنَّجاةُ الخَلاصُ ممّا فيهِ المخافَةُ، ونَظيرُها السَّلامَةُ[4]، يُقال: نجا الشّخصُ من الشّرِّ: سَلِمَ وخَلَص من أذاه[5]، ونجّاه اللّهُ تعالى: سلّمه من الشّرّ، ومعنى ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ في الآية: خلّصناه، أي: خلّصنا نوحًا من العذاب الّذي نزلَ بقومه وهو الغرق.

2) ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾: (سفن) أصلٌ يدلّ على تنحيةِ شيءٍ عن وجهِ

---

(1) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 21.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نجو).
(3) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نجو).
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نجو).

شيء، ونحتِ ظاهرِ الشّيء، كالقِشْر، وسُمّيتِ السّفينة بذلك؛ لأنّها تَسْفِنُ الماءَ كأنّها تَقْشِرُهُ[1]، أي: تغوصُ فيه وتزيحهُ حين جَرْيها، أو لأنّها خشبٌ نُحِتَ وصُنِعَ[2]، والسّفينة: الفُلْكُ والمركِبُ لنقلِ النّاس أو البضائع في البحر أو النهر[3]، والمراد بالسّفينة في الآية هي الفُلْكُ الّتي صنعها نوحٌ عليه السلام.

المَعْنى الإجْماليّ:

لا تبديلَ لسنّته سبحانه في نُصرة دينه

المعنى الإجماليّ للآية الكريمة الّتي تبيّن إنجاءَ اللّه لنوحٍ عليه السلام ومَن آمنَ معه من الطّوفانِ هو: أنجَيْنا بعظمتنا نوحًا ومَنْ حمَلَهم معه في السّفينة مِنَ الغَرَقِ والهلاكِ، وجعَلْنا بعظمتنا هذه الحادثة المشتملةَ على الإغراق والإنجاء، وهذه السّفينة عِبرةً للعالَمِينَ، وحُجَّةً عليهم، وعلامةً على قُدرةِ اللّهِ وعِلمِه، وإنجائِه للطّائعِ، وإهلاكِه للعاصي[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتُها في قوله ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾:

سُرعةُ إنجاءِ اللهِ تعالى لرسله والمؤمنين تطمينٌ وتثبيتٌ لهم

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14] وهي تفيدُ التّعقيبَ، بما يدلُّ على إثباتِ كمالِ قدرة اللّهِ، أي: إنّ إنجاءَ الطّائعِ جاء عَقِبَ تعذيبِ العاصي بالإغراقِ والإهلاك، كما تفيدُ السُّرعة في هذا الإنجاء، وفي هذا إيماءٌ إلى أنّ اللّهَ مُنَجي المؤمنين ممّا يلاقونه من عذاب[5]، وهذا تسليةٌ لِرَسولِه ﷺ ولمن آمنَ معه، وتثبيتٌ لهم، وتهديدٌ لِقُريش[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سفن).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سفن).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (سفن).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 18.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 222.
(6) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 403.

الغرض من التّعبير بالجملة الخبريّة:

في الإخبار بأنّ الله سبحانه مُنْجي أوليائِه اتّعاظٌ واعتبارٌ

الجملتان ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ و﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ في الآية مِن نوعِ الكلام الخبريّ الابتدائيّ؛ لخلوّهما مِنْ أدواتِ التّوكيد، وفائدةُ الخبرِ فيهما هو إفادةُ المخاطَب الحُكْمَ الّذي تضمّنَتْه الآية، وهو إنجاءُ الله لنوحٍ ﷺ ومن ركبَ معه في السّفينة، وجَعْلُ هذه الحادثةِ عبرةً للعالمين، وغرضُ هذا الخبر الاتّعاظ والاعتبار بأنَّ مَن كذَّب الرُّسُلَ سيكون آخِرَ أمرِه الهلاكُ، وأنَّ المؤمنينَ سيَجعَلُ اللهُ لهم مِن كُلِّ هَمٍّ فرَجًا، ومِن كُلِّ ضيقٍ مَخرَجًا[1]، وأنّ هذه القصّة واللّاتي بعدها شواهدُ على ذلك[2]، وهذا ليَمْتَنِعوا عَنْ تكذيبِ الرّسلِ والعِنادِ مَعَهم.

نكتة التّعبير بـ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ مادةً وصيغةً:

مِنِ امْتنان الله على نوحٍ ومَنْ معه تخليصُهم مِنَ الغرق دونَ الوقوع فيه

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبير بالفعل ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ دون غيره كـ(خلّصناه) مثلًا؛ لاتّساع دلالة لفظ الإنجاء ومناسبته للسّياق؛ إذ أصلُ مادّته: الذّهابُ والانكشاف من المكان، أو الانفصال من الشّيء[3]، ومن معانيه الارْتِفاعُ مِن الهَلاكِ، وذلك بنفاذه إلى مرتفعٍ من بين ما يحيط به أو يجاوره فلا يُخْلَصُ إليه بأذى، ومن معانيه أيضًا الخَلاصُ والإنقاذ ممّا فيهِ المَخافَة، كخطرٍ محدقٍ أو عذابٍ أو غرقٍ أو كربٍ، والسَّلامَة من الأذى والشّرّ[4]، كما أنّ إيثار التّعبير بـ(أنجينا) دون (نجّينا)؛ لأنّ الإنجاء يختصُّ بأنّه الخلاصُ قبل الوقوع في المَهْلَكة، بينما التّنجية تختصُّ بأنّها الخلاصُ بعد الوقوع فيها[5]، وكلّ هذه المعاني تتناسبُ مع السّياق الّذي هو الامتنانُ على

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 628.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 222.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نجو).

(4) الزَّبيديّ، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نجو).

(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 77.

نوحٍ عليه السلام ومن معه بتخليصِهم وإنقاذِهم من خطرٍ محدقٍ بهم؛ وهو الغرق، وذلك بارتفاعهم من الهلاك؛ بأنْ بقيتِ السّفينة مرتفعةً على وجهِ الماء، إلى أنْ رَسَتْ على الجوديّ، وقد سلّمهم اللّه من الأذى والشّرّ دون أنْ يقعوا في الغرق مع الكافرين.

وقد آثَرَ البيانُ الإلهيُّ استعمالَ فعل الإنجاء ماضيًا في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾؛ للدّلالة على تحقّقِ وقوعِ الإنجاءِ، وأنّه أمرٌ وَقَعَ وانقَضَى؛ باعتبارِ أنّ الّذي يقصّ القصّة، وينقلُ الوقائع إنَّما هو القرآن، حيث يقصُّ أحداثها الّتي مضتْ وانقضتْ.

سِرّ إسناد الفعل إلى ضمير التّعظيم:

في تفخيم الإنجاءِ الّذي أوتيه نوحٌ ومن معه تسليةٌ للنّبيّ صلى الله عليه وسلم

في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أُسند الفعل إلى ضميرِ التّعظيم؛ للتّنبيهِ على تربيةِ المهابةِ تجاهَ المُنْجي جل جلاله وعلى تَفْخيم ذلك الإنجاءِ الّذي أكرمَ اللّهُ به نوحًا ومن رَكِبَ معه في السّفينة، وعلى أنَّه إنجاءٌ مؤكَّدٌ بعظمةِ اللّهِ سبحانه وفي تفخيم هذا الإنجاء تسليَةٌ للنّبيّ صلى الله عليه وسلم بأنَّ المؤمنينَ سيَجعَلُ اللّهُ لهم مِن كُلِّ هَمٍّ فرَجًا، ومِن كُلِّ ضيقٍ مَخرَجًا.

سِرّ إفراد نوح بضمير خاص في حالة الإنجاء:

في إرجاع الضمير إلى نوحٍ واختصاصه بالإنجاء مزيدُ اهتمامٍ به وتشريفٌ له

ضميرُ الهاء في ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ يعودُ إلى نوحٍ عليه السلام[1] وفي إفراد نوح بضمير راجعٍ إليه في اختصاصه بالإنجاء مع أنه داخلٌ مع أصحاب السّفينة مزيدُ اهتمامٍ به وتشريفٌ له عليه السلام.

دلالةُ العطف في قوله ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾:

الواو تفيد الجمع والاشتراك في المعنى؛ وتفيدُ معه الاتّحاد في الزمن بين المعطوف: (أصحاب السّفينة)، والمعطوف عليه:

(1) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 11/ 490.

اشتراكُ أصحاب السّفينة في الإنجاءِ مع نوحٍ تشريفٌ لهم وتسليةٌ لكلّ مؤمن

(الهاء)؛ فقد نجا نوحٌ وأصحابه في وقتٍ واحدٍ معًا بدليلِ النّصوصِ القرآنيةِ الأخرى وروايات التاريخ القاطع؛ فلا ترتيب ولا مهلة[1]، ورأي من يقول: إنّ الواو في ﴿وَأَصۡحَٰبَ﴾ هي واو المعيّة أو المصاحبة يؤيّد هذا، ثم إنه كان يُمكن أنْ يُكتفَى بقوله ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾، وإنجاؤه يتضمّن إنجاءَ المؤمنين معه، ولكنّه أطنبَ بعطفِ أصحابِ السّفينة عليه بعد ذكرِ الطوفان الّذي أخذَ قومَهم المُصِرّين على ظلمهم؛ تشريفٌ بذكر المؤمنين، وتسليةٌ لكلّ مؤمنٍ يتّبع أنبياءَ اللّه وأولياءَه في هذه الحياة.

كما إنّه كان يمكنُ أنْ يأتي البيان الإلهي: (فأنجينا أصحاب السّفينة) ليشملَ نوحًا ومن ركبَ معه؛ ولكنّه آثَرَ هذا التّركيب؛ وهو ذكرُ نوحٍ عليه السلام وعَطْفُ مَنْ ركب في السّفينة عليه؛ للدّلالة على مكانته في العطف عليه، وللإشارة إلى مكانتهم وامتداحهم باشتراكهم بهذا العطف بالإيمان باللّه تعالى.

سِرّ التّعبير بلفظ الأصحاب:

في وصفهم بأصحابِ السّفينة إشارةٌ إلى طولِ مُكْثِهم فيها

في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ عبّر البيانُ الحكيمُ بلفظِ ﴿وَأَصۡحَٰبَ﴾ الّذي يدلّ على الملازمة والمرافقةِ والاقترانِ وطولِ اللُّبْث[2] تناسبًا مع السّياق الّذي ذُكر فيه الإغراقُ والإنجاء، وللإشارةِ إلى طول مُكثهم في السّفينة، وأنّ عمليّةَ الطّوفان الّذي عمّ الكرة الأرضية كلَّها أخذتْ وقتًا، وأنّهم بَقوا فيها زمنًا إلى أنْ توقّفتِ السّماءُ عن الإمطار، وابتلعتِ الأرضُ الماءَ، واستوتِ السّفينة على الجوديّ.

سِرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾:

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بلفظِ السّفينة في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبَ

---

(1) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 3/ 560.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صحب).

شقُّ الماءِ شقًّا وقشْرُه قشْرًا سَفْنٌ يتناسبُ مع الطّوفان العظيم والنّجاةِ منه

﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾ دون غيرها كالفُلك مثلًا؛ لكونِ اسم السّفينة هو الأصلُ والأشهر، ولكونِ لفظِ السّفينة أنسبَ للسّياقِ الّذي يتحدّثُ عن الإغراقِ بالطّوفانِ - الّذي يدلُّ على الكثرةِ المتناهيةِ من الماء -، وعن الإنجاءِ منه؛ فالسّفينة تدلّ في مادتها على تنحيةِ شيءٍ عن وجهِ شيء، كالقِشْر، وقد سُمّيت بذلك؛ لأنّها تَسْفِنُ الماء كأنّها تَقْشِرُه قشرًا، أي تغوصُ فيه وتزيحه حين جَرْيِها[1]، فعندما عمّ الطّوفان المعمورة ذكر اللّه السّفينة الّتي تشقُّ الماءَ شقًّا وتطفو عليه، بما يحقّقُ لهم النّجاة بها، بخلاف لفظِ (الفُلك) الّذي تدلُّ مادتُه على الاستدارة، وسُمّي بذلك لأنّه يُدار في البحر[2]، كما أنّ لفظ السّفينة يتناسبُ مع قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، فالسّفينة في أصلها وجنسها هي آيةٌ للعالمين.

معنى (أل) التعريف ودلالتُها في قوله: ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾:

إنجاءُ اللهِ لأصحابِ السّفينةِ المعهودة الّتي صنعها نوحٌ وحمل عليها المؤمنين

(أل) التّعريف في ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾ للعهد الذّهني، لأنّها معهودةٌ معروفةٌ، فهي الّتي أُمِرَ نوحٌ بصنعِها، في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ [هود: 37]، وهي الّتي كانت سببَ نجاةِ نوحٍ والمؤمنين معه، وقد جعلها اللّه سبحانه آيةً للعالمين، فقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥﴾ [القمر: 15].

سِرُّ الإضافةِ في ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾:

الّذين حملهم نوحٌ في السّفينة هم أصحابُها

إضافة ﴿وَأَصۡحَٰبَ﴾ إلى ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ إضافةُ تعريفٍ وتشريف لهم، فهُمُ الّذين حملهم نوحٌ عليه السلام في السّفينة[3]، وقد بيّنهم القرآنُ في غير هذه الآية في قوله: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [هود:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سفن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فلك).
(3) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 11/ 490.

40]⁽¹⁾، وقدِ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ ساكنَ الدّارِ يُدعَى (صاحِبَها)، وإنْ لم تكُنْ له مِلكًا[2].

توجيه المتشابِهِ اللّفظيِّ:

من بلاغةِ القرآن مناسبةُ كلِّ لفظٍ لسياقه

في آية العنكبوت: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ عبرّ القرآن الكريم بفعل (أنجينا) متعدّيًا بالهمزة، وبلفظ السّفينة، بينما في سورة يونس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [يونس: 73][3] فقد عبّر بفعل (نجّينا) بتشديد الجيم، وتوجيهُ ذلك: أنّ (أنجينا) و(نجّينا) للتّعدّي، لكنَّ التّشديدَ يدلّ على الكثرة والمبالغة، فكان في يونس ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ [يونس: 73]، ولفظ (مَنْ) يقعُ على أكثرَ ممّا يقع عليه ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، فـ(مَنْ) يَصلُحُ للواحد والتّثنية والجمع والمذكّر والمؤنّث، بخلاف (أصْحابَ السّفينة) فإنّه للجمع؛ فكان التّشديد مع (مَن) أليقَ[4]، وكذلك لفظ (أنجينا) فيه زيادةُ الهمزةِ فناسبَ مجيئُه مع لفظ ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، وأمّا (نجيّنا) فإنّه أقصرُ فجاء مع لفظ ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ [يونس: 73] وهو أقصرُ من قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾.

بلاغةُ العطف في قوله ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾:

غايةُ الإنجاء جَعْلُ السّفينة آيةً وعبرةً للعالمين

جملة ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ معطوفة على جملة ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ وتكمنُ بلاغةُ العطف في كونِ الجملةِ المعطوفة تتمّةً للجملة المعطوف عليها، فهي من تتمّةِ قصّةِ نوحٍ عليه السلام، وهي بمثابة الغاية من الإنجاء، أي: جَعلُ السّفينة الّتي أنجاها اللّهُ تعالى بمن فيها آيةً وعبرةً للعالمين.

---

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 164.

(2) ابن الفرس الأندلسيّ، أحكام القرآن: 3/ 410.

(3) وقد ورد (أنجينا) في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [الأعراف: 64]، وقوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩﴾ [الشّعراء: 119]، وورد (نجّينا) في قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ [الأنبياء: 76].

(4) الكَرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 122.

نكتة التّعبير بالجَعْل دون غيره:

الجَعْلُ لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلّها ويتناسبُ مع عمومِ المفعول

عَبّرَ النّظمُ الحكيمُ بلفظِ ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ﴾ دون غيره؛ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنّه لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلّها، وهو أعمُّ مِنْ (فَعَلَ) و(صَنَعَ) وسائرِ أخواتهما، وهذا يتناسبُ مع ضميرِ المفعول في الفعل ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ﴾ الّذي قد يكون السّفينة المعهودةَ أو جِنْسَ السّفن أو القصّةَ أو الحادثةَ أو الإغراقَ أو الإنجاءَ، كما أنَّ الجَعْلَ لغةً فيه معنى التّهيئةِ والتّضمينِ والتّبعيةِ، وإحداثِ شيءٍ من شيءٍ وتكوينِه منه[1]، وهذا يتناسبُ مع المقام فهذه القصّة أو الحادثة أو السّفينة أحدَثَ اللّهُ منْها العبرةَ للعالمين.

سِرّ إسناد ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ﴾ إلى ضمير التّعظيم:

جَعْلٌ مفخّمٌ تبشيرًا للنّبيّ ﷺ بمعجزةٍ شاهدةٍ لهُ بصدْقِ ما جاءَ بِهِ

أسندَ سبحانه فعل (جَعَلَ) إلى ضميرِ التّعظيم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ مناسَبَةً للسّياقِ الّذي هو سياقُ بيانٍ لعظمةِ اللّه تعالى في إرساله الرُّسلَ، وأخذِه الظّالمين المتكبّرين المتعالين بالطّوفان الّذي عمّ المعمورة كلَّها، ثمّ في إنجاءِ نوح عليه السلام ومَنْ ركب معه في سفينةٍ ﴿ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾ [القمر: 13] ﴿تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ [هود: 42]، وتعظيمًا وتفخيمًا لهذا الحدثِ العجيب، ولجَعْلِه عبرةً باقيةً للعالمين، فهو جَعْلٌ مؤكَّدٌ بعظمةِ اللّه سبحانه وفي هذا التّفخيم تبشيرٌ للنّبيّ ﷺ بمعجزةٍ ستبقى شاهدةً لهُ بصدْقِ ما جاءَ بِهِ إلى أنْ تقومَ السّاعة، كما أنّ في الإضافة لضميرِ التّعظيم تربيةَ المهابة تجاهَ المَلِكِ الأعظم القادرِ على كلِّ شيءٍ سبحانَه.

دلالةُ مرجع الضّمير (ها) في ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ﴾:

الضّمير (ها) في ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعودُ إلى السّفينة

(1) الرّاغب، المفردات: (جعل).

بيان الاهتمام بما جعله الله آيةً وموعظةً للمكذّبين وحجّةً للمؤمنين

المعهودة[1]، أيْ: إنّه سبحانه جعلَ السّفينة دليلًا على وقوعِ الطّوفان عذابًا من اللّهِ لمن كذّبَ الرّسلَ، فكانتِ السّفينة آيةً ماثلةً في عصورِ جميعِ الأمم الّذين جاءتهم الرّسُلُ بعد نوحٍ موعظةً للمكذّبين وحجّةً للمؤمنين، وقد أبقى اللّهُ بقيّةَ السّفينة إلى صدرِ الأمّة الإسلاميّة[2]، ويحتملُ أنْ يكون عائدًا إلى جِنْسِ السّفينة[3]، من بابِ التَّدْريجِ مِنَ الشّخْصِ إلى الجِنْسِ[4]، أي: وجعلنا جِنْس السّفينة آيةً للعالمين، أي: علامةً على قدرةِ اللّه وعلمه؛ يعتبرون بها رحمةَ ربِّهم، فقد قيّضَ لهم أسبابَها، ويَسَّر لهم أمرَها، وجعلَها تحملُهم وتحملُ متاعَهم[5]، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحۡمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٤٤﴾﴾ [يس: 41 - 44].

ويحتمل أنْ يكونَ عائدًا إلى الحادثة أو القصّة[6]، والمعنى: وجعلْنا حادثةَ إغراقِ قومِ نوحٍ وإنجائه ومن معه من المؤمنين، أي: جعلنا عقوبتَنا إيّاهم آيةً للعالمين[7]، أو جعلنا القصّةَ آيةً للعالمين[8].

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿ءَايَةً﴾:

إنجاءُ السّفينة علامةٌ ظاهرةٌ ومعجزةٌ وعبرةٌ للعالمين

عبّر البيانُ الإلهيّ بلفظ ﴿ءَايَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون غيرها من الألفاظ كالعلامة مثلًا؛ لاتّساعِ دلالة لفظِ الآية، فهي تشملُ معنى العلامة والمعجزة والعبرة، والجزء المحدود

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 37.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 222.
(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 405.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 268.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 628.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 37، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 347، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 223.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 18.
(8) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 22.

من القرآن[1]، كما أنّ الآيةَ أبلغُ؛ فهي العلامة الظّاهرة[2]، وهذا يتناسبُ مع كون إنجاءِ الله لأصحابِ السّفينة علامةً ظاهرةً ودلالةً واضحةً على صدقِ قولِ الأنبياء، ونجاةِ مَن آمن بهم وهلاكِ مَن كذَّبَهم[3]، وهي كذلك معجزةٌ وعبرةٌ لكلّ الأمم بعد نوحٍ عليه السلام وليستْ مجرّدَ علامةٍ يُسْتَدَلُّ بها.

عِلَّة عدمِ وَصْفِ الآيةِ هنا بالبيّنة:

الإنـجـاء بالسّفينة أمرٌ يقبَلُه كلُّ عَقْلٍ فلا يحتاجُ إلى تأكيد

لم يَصِفِ اللهُ سبحانه (الآية) في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ بالبيّنة أي: لم يقل: (وجعلناها آيةً بيّنةً للعالمين) بخلاف قوله في قصّة إهلاك قوم لوط: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ [العنكبوت: 35]؛ مراعاةً للمقام؛ فالإنجاءُ بالسّفينة أمرٌ يقبله كلّ عقل، وقد يقعُ في ذهنِ جاهلٍ أنّ الإنجاءَ لا يفتقرُ إلى أمرٍ آخرَ، فإنجاءُ السُّفنِ أمْرٌ مَعهودٌ؛ ولهذا لا حاجة إلى تأكيد الآيةِ بأنها بيّنة، وأما الخَسْفُ، وجَعْلُ ديارِ قومِ لوطٍ عليه السلام المعمورةِ عاليَها سافِلَها، فهو ليس بأمرٍ مُعتاد، وإنّما ذلك بإرادةِ قادرٍ، فأتى تأكيدُها بالبيّنة، إذ لا يمكنُ لجاهلٍ أنْ يقولَ: هذا أمرٌ يكون كذلك في العادة[4].

سِرّ إفرادِ لفظ ﴿ءَايَةٗ﴾:

إرادة استغراق جـنـس الآيـة الّـذي يصلح للقليل والكثير

أفردَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ءَايَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: (آيات)؛ إمّا لإرادة الجنس، وهو صالحٌ للقليل والكثير، أو مراعاةً للإفراد في لفظ السّفينة - على قول مَنْ أعادَ الضّميرَ إلى السّفينة -؛ فالآيةُ إنجاؤه تعالى أصحابَ السّفينة وقتَ الحاجة[5].

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأَعْيُنِ النَّواظِر، ص: 154 - 155.
(2) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (أبي).
(3) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 11/ 490.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 15/ 351، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 347.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 347.

الغرض من تنكير لفظ ﴿ءَايَةً﴾:

إفـادةُ معنى التّفخيم والتّعظيم للحدث الكبير

نَكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿ءَايَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ في سياقِ بيانِ عظيم قدرتِه سبحانه في الإغراقِ والإنجاءِ؛ لإفادةِ معنى التّفخيم والتّعظيم لهذهِ السّفينة الّتي ما زالتْ إلى الآن وستبقى آيةً عظيمةً تدلُّ على قدرةِ اللّه تعالى أو لإفادةِ معنى التّفخيمِ لهذه الحادثةِ العظيمةِ وما تضمّنته من إغراقٍ عظيمٍ للمعمورة، وإنجاءٍ عظيمٍ للمؤمنين في سفينةٍ عظيمةٍ تجري في أمواجٍ كالجبال برعايةِ اللّه وحفظه، كما أنّ تعظيمَ الآية بالتّنكير يتناسبُ مع عموم كونِها للعالمين، وليسَتْ فقط لأهلِ ذلك الزّمان.

سِرّ اختيار التّعبير بلفظ (العالمين):

وجــود مـثـال للسّفينة عند كل أمم العالم مما يذكّرهم بقصّة قوم نوح لتكون لهم عبرةً

آثرَ النّظمُ الحكيم لفظ (العالمين) في قوله تعالى: ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ دون لفظ العاقلين أو (قوم يعقلون) كما في قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣٥﴾ [العنكبوت: 35] في آية إهلاك قوم لوط بالخسْف؛ لأنَّ السّفينة موجودةٌ معلومةٌ في جميع أقطار العالم سواءٌ بعينها أو بجنسها؛ فعند كلّ قوم مثالُ السّفينة يتذكّرون بها حالَ نوحٍ عليه السلام وإذا ركبوها يطلبون من اللّهِ النّجاةَ، فلا يثقُ أحدٌ بمجرّد ركوب السّفينة، بل يكون دائمًا مرتجفَ القلبِ متضرّعًا إلى اللّه طالبًا النّجاة، وأمّا آثارُ الهلاك في بلاد لوط فهو في موضعٍ مخصوصٍ لا يطّلعُ عليها إلا من يمرّ بها، ويصل إليها، ويكون له عقل يعلمُ أنَّ ذلك من اللّه[1].

كما أنّ التّعبير بالعالمين دون لفظ النّاس؛ لأنّ في العالمين معنى الوصفيّة الدّالة على العلم، ولأنّ فيه تغليبًا للعقلاء على غيرهم[2]؛ تعريضًا بالكافرين الّذين عطّلوا عقولهم، ولم يعتبروا بهذه الآية العظيمة وعبدوا أصنامًا لا تعقلُ، كما أنّ لفظ العالمين

---

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 15/ 351.

(2) البَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 1/ 28.

- وهو صيغة جمع - يتناسبُ مع السّياقِ الّذي يُبرزُ عظمةَ اللّه في الإهلاك والإنجاء.

دلالة (أل) في ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾:

استغراق جنس العالمين سواءٌ من رأى سفينة نوحٍ أو رأى أيّ سفينةٍ

(أل) في قوله تعالى ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ دالّة على استغراق الجنس، المفيد للعموم، ليشملَ كلّ العالمين؛ لأنّها بَقيَت أعوامًا حتّى مرَّ عليها النّاسُ ورأوها، فحصَلَ العِلْمُ بها لهم[1]، ولأنَّ مَن لمْ يُشاهِدْ بَقايا سفينةِ نوحٍ فإنَّه يُشاهِدُ السُّفنَ، فيَتذكَّرُ سَفينةَ نوحٍ وكيف كان صُنْعُها بوَحْيٍ من اللّهِ لإنْجاءِ نوحٍ ومَن شاء اللّهُ نَجاتَه، ولأنَّ الّذين من أهْلِ ذاك المكان الّذي هي فيه يُخبِرون عنها، وتُنقَلُ أخبارُهم، فتَصيرُ مُتواتِرةً[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأصحاب والأهل:

الصّحبة ملازمةٌ ومعاشرة، والأهولة خصوصيّةٌ في الزّواج والقرابة والعشيرة

الأهلُ أخصُّ من الأصحاب؛ إذ أهلُ الرّجل: مَنْ يجمعه وإيّاهم مسكنٌ واحد، وأهلُ الرّجلِ: زوجُهُ، وأخصُّ الناسِ به[3]، وقيل: أَهْلُ الرَّجُلِ: عَشيرَتُه وذَوو قُرباه[4]، والْأَهْل في عُموم التّعارف الأقارِبُ مِنَ الْعَصَبَة ومن ذَوي الْأَرْحام؛ لِأَنَّهُ يجمعهُمُ النّسَب والتّناصر[5]، بينما الصّاحِبُ هو المُعاشِر[6] والملازِم إنسانًا كان أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا، ولا فرقَ بين أنْ تكون مُصاحَبَتُهُ بالبدن - وهو الأصلُ والأكثر - أو بالعناية والهمّة[7]، ولمّا كان أهمُّ ما يتميّز به الصّاحبُ هو الملازمةُ وطولُ اللُّبْثِ ناسبَ التّعبيرَ به في الآية؛ وذلك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 222.
(3) ابن فارس، مقاييس، والرّاغب، المفردات: (أهل).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أهل).
(5) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 163.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صحب).
(7) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (صحب).

لكون أصحابِ السّفينة لازموها فترةً من الزّمن وهم على ظهرها إلى أنْ رَسَتْ وأنجاهم اللّهُ من الغرق.

السّفينة والفُلْك:

السّفينة تَسْفِنُ الماءَ كأنّها تَقْشِرُه، والفُلْكُ تَفْلِكُ كأنّها تَستديرُ وتُدارُ في عُرضِ البحر

اسم السّفينة هو الأصل؛ إذ يُعرَّف الفُلْكُ بالسّفينة[1]، فهي تدلّ في أصل مادتها على تنحيةِ شيءٍ عن وجهِ شيء، كالقَشْر، وسُمّيت بذلك؛ لأنّها تَسْفِنُ الماءَ كأنّها تَقْشِرُه، أي: تغوصُ فيه وتُزيحهُ حين جَرْيِها، أو لأنّها خشبٌ نُحِتَ وصُنِعَ[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى أصلها الّذي صُنعت منه، بينما الفُلْكُ سُمّيت بذلك لاستدارتها، ولأنّها تُدارُ في البحر[3]، والفَلَكُ: موجُ البحر المُضْطَرِب المُستَديرُ المُتَرَدِّدُ[4]، وقد ناسبَ هنا استعمال السّفينة دون الفُلْك؛ لأنّ قصّة نوح عليه السلام جاءت هنا عامّة مجملةً، وليست مفصَّلة كما هي في مواضعَ أخرى، فناسبَ استعمال السّفينة لأنّها الأصل، كما أنّ السّياق عن الإغراقِ بالطّوفانِ وعن إرساءِ السّفينة وإنجاءِ اللّه لأصحابها من الغرق، لا للتّعبير عن استدارتها في البحر، فأتى التّعبير بالسّفينة الّتي تشقُّ الماءَ شقًّا وتطفو عليه، إلى أنْ رسَتْ على الجبلِ وتحقّقَت لهم النّجاة.

العالمون والنّاس:

العالمون أعمُّ من النّاس واشتقاقه من العلم فالسّفينة رأوها وحصلَ العلم لهم بها

لفظُ العالمين أعمُّ من لفظ النّاس؛ إذ يشملُ كلّ العوالم لا عالَم الإنس فقط؛ فيقعُ على عالَم الملائكة والإنس والجنّ، واشتقاقه من العِلْم؛ لأنّه يقعُ على مَنْ يعلم، ويَصْلُحُ أنْ يكونَ من العلامة؛ لأنّ فيهم دلائلَ على خالقهم، وقد ورد في الاستعمالِ القرآنيِّ على أربعة معانٍ، **الأوّل**: الملائكة والجنّ والإنس، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2]، **والثّاني**: الجنّ والإنس خاصّة؛ قال تعالى:

(1) الخليل، العين، وابن سِيْدَهْ، المحكم: (فلك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سفن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فلك).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فلك).

﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾ [الفرقان: 1]، والثّالث: كما في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ⑯﴾ [الجاثية: 16] يعني: عالم زمانهم، والرّابع: الناس من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ㊷﴾ [آل عمران: 42][1]، بينما النّاسُ خاصٌّ بجنسِ الإنس، وهو جمعُ (إنسان) من غير لفظِه، ومشتقٌّ من الأُنس، أي: ضدّ الوحشة، أو من النّسيان، أو من النَّوْس وهو الحركة[2]، وقد ناسب هنا التّعبير بالعالمين للعموم؛ ولملاحظة صفة العلم؛ فالسّفينة بقيتْ أعوامًا حتى مرّ عليها النّاس ورأوْها، فحصل العلم بها لهم[3].

(1) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 335.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أنس).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 347.

﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾ [العنكبوت: 16]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ عظيمِ مكانة النّبيّين في الدّعوة وعِظَمِ القدرة الإلهيّة في الإنجاء من الماء والنار

لّمّا قصَّ ربُّ العِزَّة علينا قصّة نوحٍ عليه السلام والطّوفان الّذي عاقب به الظّالمين من قومه الّذين لبث فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا يدعوهم وهم به كافرون، وكيف أنَّ إنجاء اللّه له وللمؤمنين من الطّوفان كان حَدَثًا عظيمًا وموعظة كبيرة؛ ثنّى سبحانه بذكر قِصّةٍ عظيمةٍ يبيّن فيها عبرة وموعظة أخرى، هي قصّة إبراهيمَ عليه السلام وكيف أن اللّه تعالى أنجاه من النار، وجعلها بردًا وسلامًا عليه، فقال: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾ أي ولقد أرسلنا إبراهيم[1]، بما يدلُّ على عظيمِ صبرِ النّبيّين الكريمين، وعظيم مكانهما في الدعوة إلى اللّه، وعظمِ القدرة الإلهيّة؛ الّتي أنجتْ من الغرق في الماء ومن الاحتراق في النار[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يَنبوعُ الخَيرِ وأصْلُه هو إخلاصُ العَبدِ لِرَبِّه عِبادةً واستِعانةً

المعنى الإجماليّ في البيان الإلهيّ في هذه الآية: اذكرْ يا محمد لقومك قصّةَ إبراهيم حين كَمَلَ عقلُه، وأصبح قادرًا على النّظر والاستدلال، وترقَّى من مرتبةِ الكمال في نفسه إلى مرتبةِ إرشادِ الخَلْقِ، وتصدّى للدّعوةِ إلى طريقِ الحقّ، فدعا قومه إلى عبادةِ اللّه وحده لا شريكَ له، وإلى الإخلاصِ له في السِرّ والعلن، واتّقاءِ سَخَطِه بأداءِ فرائضه، واجتنابِ معاصيه، ثم بيّنَ لهم فائدة ذلك فقال: فذلك الّذي آمركم به خيرٌ لكم ممّا أنتم عليه إنْ كان لديكم

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.

ذرّةٌ من الإدراكِ والعلم، تُمَيِّزون بها الخيرَ من الشّرّ، وتعلمون ما ينفعكم في مستأنَفِ حياتكم الدّنيويّة والأُخرويّة[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّة اقتران قصّتي نوح وإبراهيم عليهما السلام:

تشابهُ قصّتي نوح وإبراهيم عليهما السلام في الأحداث والمآل

قرَنَ البيانُ القرآنيُّ بين قصّة إبراهيم وقصّة نوحٍ عليهما السلام؛ لأنّ جُزْءًا من قصّة إبراهيم هنا يتناسقُ مع قصّة نوحٍ قبلَها؛ من حيث الدعوةُ إلى التّوحيد وطولُ زمانها، وسوءُ مقابلةِ قومه له، ورفضُهم دعوتَه، وظلمُهم له ولأنفسهم، ثم إنجاؤُه تعالى له من كيدهم، ومن عقابِ اللّه لهم، ولكنّه في قصّة إبراهيم أطنبَ في تصويرِ عقيدةِ التّوحيد والاستدلال لها، وإبطالِ عبادة الأصنام؛ لأنَّ إبراهيم عليه السلام يُعَدُّ جدَّ العرب، ولهذا فإنّ الاتّعاظ بقصّته وبما حلّ بقومه آكَدُ[2].

الغرض من التّعبير بالجملة الخبرية:

الإخبارُ بقصّة إبراهيم وعظٌ وتذكيرٌ لقريش، وتسليةٌ للنّبيّ ﷺ

قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾ جملة خبريّة على تقدير فعلِ (أرسلنا) قبلَها، وفائدةُ الخبر: إفادةُ المخاطَب الحكمَ الّذي تضمّنَتْه الآية، وغرضُه الوعظُ والتّذكيرُ بهذه القصّة الّتي هي تمثيلٌ لقريش، وتذكيرٌ لحال أبيهم إبراهيم من رفضِ الأصنام، والدّعوى إلى عبادةِ اللّه وحده، حيث كان نُمرودُ وأهلُ مدينته عُبّادَ أصنام[3]، وإيرادُها ليس إلّا إرادةً للتّنفيسِ عن رسولِ اللّهِ ﷺ وأنْ تكونَ مَسْلاةً له، وسبيلَ تفريجٍ عليه بأنَّ أباهُ إبراهيمَ خَليلَ الرّحمن كان قد مُنيَ بنَحْوِ ما مُنيَ به؛ مِن شِركِ قومِه، وعِبادتِهم الأوثانَ[4].

معنى الواو ودلالتها في قوله ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ

(1) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 125.
(2) عبد السّلام أحمد الرّاغب، وظيفة الصّورة الفنّيّة في القرآن، ص: 273.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 347.
(4) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف: 3/ 448.

تسلية النّبيّ ﷺ ودعوة قومه للاتّعاظ

عليه قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [العنكبوت: 14]، وهو عطفُ مفردٍ على مفرد؛ أي عَطَفَ إبراهيمَ على نوحٍ، والتقدير: وأرسلنا إبراهيم إلى قومه[1]، ويمكن أنْ يكون المعطوفُ عليه الضَّميرَ في ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ﴾، والتّقدير: فأنجينا نوحًا وإبراهيم[2]، ونكتةُ هذا العطف بيانُ استمرارِ الصراعِ بين الحقِّ والباطلِ؛ تطمينًا وتخفيفًا وتسليةً عن النّبيّ ﷺ؛ بأنّه ليس بِدْعًا من الرّسل، وأنّ الحقَّ منتصرٌ.

وتحتملُ أنْ تكون الواو استئنافيّة، وما بعدها كلامٌ مستأنَفٌ لِسَوقِ قصّةٍ ثانية بعد قصّةِ نوح والطّوفان، ومِنْ ثَمَّ يكون لفظ (إبراهيم) منصوبًا بفعل أمرٍ محذوفٍ تقديره: اُذْكُرْ، ويكون ﴿إِذْ﴾ الظرفُ بدلَ اشتمالٍ من إبراهيم[3]، والمعنى: واذكرْ إبراهيم أباكَ الأعظم لتتأسّى به وتتسلّى عمّا تعانيه، وليتّعظ قومُك بقصّته[4].

وفائدةُ حذفِ عامل النّصب على القولين تنبيهُ المخاطب على الاهتمام باستحضارِ المعنى العظيم في إرسالِ الرسل، أو تذكّر حالِ إبراهيم في الذهن بشكلٍ دائم.

سِرّ إيثار ورود ذكر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

البيانُ بأنّ القدرةَ الّتي أنجت من الماءِ والنّارِ تنجيكَ أنت أيضًا يا رسول الله

ذكرَ القرآنُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في سياقِ سورةٍ من خصائصها الحديثُ عن الابتلاءِ في سبيلِ الدّعوة إلى الله، والصبرِ على هذا الابتلاء؛ لأنّه كان من النّماذجِ العظيمة في ذلك، وليُنَبّه ربُّنا سبحانه إلى عظيم قدرته الّتي كما أنجتْ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ من الغرقِ العظيم أنجتْ إبراهيمَ من النّار العظيمة، فالقدرةُ الّتي أنجتْ من الماءِ والنّار تُنجيكَ يا رسول لله فاصبرْ واثْبتْ[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.

(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 310.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 413 - 414.

(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.

سِرّ التّعبير بالظّرف ﴿إِذۡ﴾:

بيانُ سُرْعةِ تبليغ إبراهيمَ للرّسالة ومبادرته للامْتثال

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ظرفٌ للوقت الماضي من الزمان، وتُخَلِّصُ المضارعَ لمعنى المُضيّ، وهي متعلّقة بـ(أرسلنا) المقدّر، والتّقدير في الآية: وأرسلنا إبراهيمَ في وقتِ ماضٍ قالَ فيه لقومه كذا وكذا، فأفادَ أنّ زمنَ القول كان وقتَ الإرسال، فربطَ اللّهُ جلّ ثناؤه بين الإرسال وقولِ إبراهيم لقومه؛ لبيانِ سُرْعَة تطبيقِ إبراهيم للرّسالة ومبادرته للامتثال[1]، أي: (أرسله فقال لقومه)، كأنّ العمليّتين وقعتا في زمن واحدٍ، وكأنّ الرّسالة جاءتْ ساعةَ التّبليغ فلا فاصلَ بينهما.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿قَالَ﴾ ماضيًا:

محاورةٌ حدثت في الزمنِ الماضي يُقصَدُ منها الاعتبارُ في المستقبل

جاء فعل قول إبراهيم عليه السلام لقومه ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذا الفعل قد وقعَ من إبراهيم وتحقّقَ في الزّمن الماضي؛ بدلالة ﴿إِذۡ﴾ الّتي هي ظرفٌ للزّمن الماضي، ولأنّ صيغةَ الفعلِ الماضي تُناسبُ السّياقَ الّذي هو ذِكرٌ لقصصِ أنبياءٍ سبقوا النّبيّ ﷺ وأوّلها قصّة نوحٍ الّتي عُطفتْ عليها قصّةُ إبراهيم عليه السلام وقد جاءت الأفعال فيها بصيغةِ الفعل الماضي ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ [العنكبوت: 14] و﴿فَلَبِثَ﴾ [العنكبوت: 14] و﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ [العنكبوت: 14] و﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ و﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ﴾.

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿لِقَوۡمِهِ﴾:

بلّغَ إبراهيمُ قومه بالدّعوة إلى عبادةِ الله وحده وتقواه وخصّهم بها

اللّامُ في: ﴿لِقَوۡمِهِ﴾ هي لامُ التّبليغ بلاغةً ومعنًى، ولامُ الجرّ إعرابًا، فهي الجارّةُ لاسم السّامع لقولٍ أو ما في معناه[2]، ويتمُّ بها تعديةُ فعلِ القولِ إلى المخاطَبِ بالقول، أي: بَلَّغَ إبراهيمُ عليه السلام قومَه بالرّسالة، وفيها معنى اختصاصِ التّبليغ لهم؛ فقد خَصَّهم بالدّعوة إلى عبادةِ اللّه وتقواه؛ لأنّهم كانوا أهلَ كفرٍ أو شركٍ.

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.

(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 266.

سِرّ التّعبير بلفظ القوم وإضافته:

تلطّفُ إبراهيم بقومه حتى يستمعوا لنصحه ويستجيبوا لدعوته

اختارَ النّظمُ الحكيمُ لفظ (القوم) في قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾ دون غيرها من الألفاظ كالرّهط أو العشيرة أو الملّة؛ لِما في لفظ (قوم) من المناسبة للمقام؛ فلم يكن خطابُ إبراهيم لقرابته الأدنين من الرّجالِ الّذين لا يتجاوزُ عددهم عشرة حتى يعبّر بـ(رهطه)، ولم يكونوا موافقين له في الطريقة حتى يعبّر بـ(ملته)، بل كانوا وثنيين، ولم يكونوا كذلك أقاربه من بني أبيه الّذين يخالطهم ويجمعهم معه أمرٌ واحد حتى يعبّر بـ(عشيرته)، وإنّما كان خطابه لعامّةِ قومه الأقارب والأباعد من الرجال الّذين هم مسؤولون عمّن تحت قَوامتهم[1]، وهم كثيرو العددِ كما يشيرُ استعمال القرآن للفظ القوم، بما يقطعُ بمعنى الكثرة فيهم، ولِما في لفظ (قوم) من التّلطُّفِ والتّودّد؛ لأنّ قومَ الرّجلِ لا بُدَّ أن ينْصُروه ويؤيّدوه، ويَقْبَلوا ما جاء بِهِ، ولأنّ صفةَ القوامةِ محبوبةٌ لدى الرّجال، وتدلّ على الشّدّةِ والقوّة.

وأمّا إضافةُ لفظ القوم إلى إبراهيم عليه السلام ﴿لِقَوۡمِهِ﴾: فطلبًا للتّأثيرِ في نفوسهم؛ لأنّ معنى الإضافة في الآية الانتسابُ إليه، وهي تَلطُّفٌ بهم؛ حتى يلينوا له ويستمعوا لنصحه، ويستجيبوا لدعوته، ولا يتّهموه، فهُمْ قومُه وهو منهم[2]، والمرءُ لا يغشُّ أهله، كما أنّ الإضافة تشيرُ إلى اهتمامِ إبراهيم بقومه وخوفِه عليهم وحرصِه على إنقاذهم من الشّرك والإفكِ الّذي يودي بهم إلى الجحيم.

الغرضُ من التّعبير بفعل الأمر:

الحضّ والحثّ على وجوب الاستجابة السريعة لما تضمنه هذا الفعل

الأمرُ بالعبادةِ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ دليلٌ على أنَّ شأنَ العبادةِ هو مرتكزُ التّوحيد ودليلٌ عليه؛ إذ إنّ المشركين كانوا يشركون

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (قوم).

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.

باللّهِ غيره في العبادة، فأمَرَهم بإخلاصِ العبادة للّه وحده، وغرضُ هذا الأمرِ هو الحضُّ والحثُّ؛ أي: حضّهم على عبادةِ اللّه وحده لا شريكَ له، والإخلاصِ له في السِرّ والعلن[1]، وفائدتُه أنّ العبادةَ الّتي لا تكون خالصةً للّه، أي مقرونةً بالإشراك ليست عبادةً في الحقيقة.

سِرّ إيثار التّعبير بلفظ العبادة:

العبادةُ طاعةٌ مع خضوعٍ وتذلّلٍ ولا يستحقّها إلا مَن له غايةُ الإفضالِ سبحانه

آثَرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبير بلفظ العبادة في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ دون غيرها من الألفاظ كالطّاعةِ مثلًا؛ لكون لفظِ العبادة أبلغَ وأنسبَ للسّياق والمقام، إذِ العبادةُ هي الطاعةُ مع الخضوعِ، وهي غايةُ التذلّل ولا يستحقها إلا مَن له غايةُ الإفضال سبحانه[2]، فالأمرُ بعبادةِ اللّه هو أمرٌ بطاعته والخضوع له وتوحيده، وهذه المعاني للعبادة تتناسبُ مع السّياق والمقام، فإبراهيمُ عَلَيۡهِ السَّلَامُ يدعو قومه إلى إفراد اللّه سبحانه بالعبادةِ وطاعته والخضوع له، فهو وحده المستحقّ للعبادة، وكذلك في التّعبير بلفظ العبادة تعريضٌ بقومِ إبراهيم عَلَيۡهِ السَّلَامُ إذ كانوا يعبدون أصنامًا لا تستحقّ العبادة.

سِرّ تخصيص لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ بالذِّكر:

اللهُ الجامعُ لكلّ صفاتِ الكمالِ يبعثُ اسمه في النّفس المهابةَ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾؛ لتربيةِ المهابة والتّعظيم والحبّ في قلوبِ قومِ إبراهيم تجاهَ اللّه سبحانه بذكر الاسم الّذي يجمعُ كلّ صفاتِ الكمالِ والقدرة والعظمة، بما يدفعهم للإيمان والتّقوى، أي: "﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي الملكَ الأعظم بما يأمركم به من طاعته ﴿وَٱتَّقُوهُۖ﴾ أي خافوه في أنْ تشركوا به شيئًا"[3].

بلاغةُ عطف الأمر (اتقوا) على (اعبدوا):

في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُۖ﴾ عطفٌ للأمرِ بالتّقوى على الأمرِ

(1) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 124.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.

بالعبادة، والجامعُ هو أنّ العبادةَ والتّقوى أصلُ الدّين، وأنّ كلا الفعلين أمرٌ من إبراهيمَ ﷺ لقومه، إلا أنّ أحدَهما بالعبادةِ وتوحيدِ اللّه عن الشّركاء وامتثالِ ما أمرَ اللّه به من تكاليف، والآخرَ بالتّقوى؛ أي: الخوف والحذر والتّحرّز من غضب اللّه بتوحيده، وبتركِ ما يُغضبه من المعاصي وتزكيةِ النَّفس؛ لتُحرزوا رتبةَ الكمال في ذلك، فلا يَمَسُّكم عذابٌ، أي: اعبدوا اللّه واتّقوه في حقِّ الاعتقاد، واعبدوا اللّه واتّقوه في حقّ المعاملة[1].

التّوحيدُ والتّقوى أصلُ الدين

الغرض من تقديم الأمر بالعبادة على التّقوى:

في تقديم الأمر بعبادة اللّه على الأمر بالتَّقوى في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾، مراعاةٌ للأهمّ والأسبق، فالعبادةُ الّتي تتضمّن توحيدَ اللّه والإخلاصَ له في العبادة دون سواه تسبقُ التّقوى الّتي هي الامتثالُ للأوامرِ واجتنابُ النّواهي، فعبادةُ اللّهِ وتوحيدُه أهمّ؛ إذ لا ينفعُ الإنسانَ تقواه إذا لم يكن موحّدًا عابدًا للّه ومخلصًا له، كما أنّ طاعةَ اللّه وعبادته وسيلةٌ لتحقيق التّقوى والتّقرّب منه سبحانه.

لا تنفعُ الإنسان تقواه إذا لم تسبقها العبادةُ بإخلاص التّوحيد

علاقة جملة ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ بما قبلها:

بيّن النّظم الإلهيُّ علاقة جملةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ بما قبلها بأنّها تعليلٌ للعبارة السّابقة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾؛ وقد فصل بينهما من غير رابطٍ لفظيٍّ اكتفاءً بالرّابط المعنويّ الّذي جعل بينهما اتّصالًا شبه كاملٍ؛ إذ جاء قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ تَعليلًا واضحًا للأمْرِ بِعبادةِ اللّه وتقواه، أي: اعبدوا اللّه واتّقوه؛ لأنّه خيرٌ لكم[2].

تعليلٌ للأمرِ بالعبادة والتّقوى

الغرض من التّعبير باسم الإشارة البعيد:

عبّر البيان القرآنيُّ باسم الإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ لإفادة التّنبيهِ على

تعظيمٌ وتفخيمٌ لِما أمرَ به إبراهيمُ قومَه من عبادةِ الله وتقواه

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السنّة: 8/ 215.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.

عِظَمِ ما أمرهم به سيّدُنا إبراهيمُ عليه السلام من عبادةِ اللّه وتقواه، وعلى تفخيم شأنه، أي: "ذلكم الأمر العظيم الّذي هو إخلاصكم في عبادتكم له وتقواكم"[1].

نكتة العدول عن المفرد إلى الجمع:

التّنبيه على عظمة ما أمرَ به إبراهيمُ قومَه من عبادةٍ وتقوى

عدلَ البيان الإلهيّ من اسم الإشارة المفرد (ذلك) إلى اسم الإشارة الجمع ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾؛ تنبيهًا على عظمة ما أمرَ به إبراهيمُ قومَه من عبادةٍ وتقوى وإشارةً إليها جميعِها؛ لِما تضمَّنَتْه مِنْ تكليفٍ بالعبادة، مع الإخلاص في التّوحيد، ومِنْ أمرٍ بالتّقوى مع الوعظِ والإرشاد، فجاءت الإشارة إلى هذا الجمع باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ تعظيمًا وتفخيمًا لهذه التكاليف والإرشادات في تحقيق السعادة لهم، كما أنّ في خطاب الجمع ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ مناسبةً لخطابِ قومه وهم جمعٌ.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿خَيۡرٞ﴾:

كلُّ خيرٍ يوجدُ في الدنيا والآخرة فإنّه من آثارِ عبادةِ الله وتقواه

﴿خَيۡرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من أفعال التّفضيل، والمعنى: عبادةُ اللّه وتقواه خيرٌ لكم من تركِ ذلك، أو من كلّ شيء[2]، أو ممّا أنتُم عليه، ومعنى التفضيل - مع أنَّه لا خيرية في تركِ عبادة اللّه، وتركِ تقواه قطعًا بأيّ وجهٍ من الوجوه - باعتبارِ زعمِهم الباطلِ[3]، أو من باب إطلاقِ (أفعل التّفضيل الّذي ليس على باب التّفضيل)، أي: بما ليس في الطرفِ الآخر منه شيء، وإنّما كانت عبادةُ اللّه وتقواه خيرًا عامًّا للناس؛ لأنّه لا سبيلَ إلى نيلِ كرامةِ العبد في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكلُّ خيرٍ يوجدُ في الدنيا والآخرة فإنّه من آثارِ عبادةِ اللّه وتقواه[4].

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.
(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 34.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 628.

الغرض من تنكير لفظ ﴿خَيۡرٞ﴾:

إفادة التّعظيم والعموم لكل أنواع الخير في العبادة والتّقوى

نكّر البيانُ القرآني لفظ ﴿خَيۡرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ لإفادةِ الإبهام الّذي أفاد التّعميم والتّعظيم لهذا الخير من غير تحديد متعلّقه، فهو خيرٌ عظيمٌ فخمٌ يعمّ حالهم في دينهم ودنياهم، وفي حياتهم وآخرتهم، أي خيرٌ لهم في كلّ شيء[1]، وهو خير لا يقادَرُ قدرُه؛ وفي هذا حثٌّ وترغيبٌ لقومِ إبراهيم عليه السلام على عبادةِ اللّه وتقواه.

سِرّ التّقييد بالجارّ والمجرور ﴿لَّكُمۡ﴾:

ترغيبٌ من إبراهيم لقومه بأنّه خيرٌ خاصٌّ بهم ويستحقّونه إذا عبدوا الله واتّقوه

أتى البيانُ القرآنيُّ بالجارِّ والمجرور ﴿لَّكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ لإفادة الاستحقاق والاختصاص لهم من خلال معنى اللّام الّتي أفادتْ ذلك، أي: ذلكم خيرٌ خاصٌّ بكم وتستحقّونه إذا عبدتم اللّه واتّقيتموه، وفي هذا حثٌّ لهم على الاستجابة وترغيبٌ لهم.

معنى ﴿إِن﴾ ودلالتُها في ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

العلمُ بالخيريّة دافعٌ للعبادة والتّقوى

﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ شرطيّةٌ، و﴿كُنتُمۡ﴾ فعلٌ ماضٍ في محلّ جزم فعل الشّرط، وجوابُ الشّرط محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله، والتّقدير: إنْ كنتم تعلمون خيريّة ذلك فاعبدوا اللّه واتّقوه[2]، وفي هذا تأكيدٌ للخيريّة؛ لِما يتضمّنه الكلامُ من معنى التّكرير، أو التّقدير: إنْ كنتم تعلمون فاعبدوا اللّه واتّقوه[3]، أو: إنْ كان فيكم علمٌ بما هو خيرٌ لكم ممّا هو شرٌّ لكم فاعبدوا اللّه واتّقوه، أو: إنْ نظرتم بعين الدّرايةِ المبصرة دون عينِ الجهل العمياء؛ علمتم أنّه خيرٌ لكم[4]، وفي هذا كلّه استنهاضٌ للنّفوس

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 544.

(2) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 379.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 414.

(4) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 447.

نحو الخير، وحثٌّ على الاستجابةِ للرّسول ﷺ في دعوتهم إلى عبادةِ اللّه وتقواه.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿كُنتُمْ﴾:

مَنْ تحقّق علمُه بخيريّة عبادةِ اللهِ وتقواه لا بدّ أنْ يدفعه إلى الاستجابة

عبّر البيان الإلهيُّ بفعل الكون ﴿كُنتُمْ﴾ ماضيًا؛ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ للدّلالة على تأكُّدِ علمِهم بالخيريّة وتحقُّقِه؛ فإذا تحقّق علمهم بخيريّة عبادةِ اللّهِ وتقواه دفعهم ذلك للاستجابة، وأتى بفعلِ الكونِ مجموعًا؛ لأنّ السّياقَ في خطابِ الجماعة، وهو خطابُ إبراهيم عليه السلام لقومه، وهذا يشملُ جميعَ مَن تحقّق علمُه بخيريّة عبادة اللّه وتقواه.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

تجدّدُ العلم بخيريّة العبادة والتّقوى، وهو دافعٌ إلى الاستجابة

جاء التّعبير القرآنيُّ بفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على أنّ الخيريّة مرهونةٌ بتجدّد كونِهم في عدادِ من يتجدّد له العلم بأدلّة اختصاصِ اللّه بالألوهيّة، أو بما هو خيرٌ لكم ممّا هو شرّ لكم، أو يتجدّد اتّصافهم بأنّهم أهلُ علمٍ ونظر، لأنّ هذا التجدّد للعلمِ يعني الاعتقاد بالخيريّة، ومن ثَمَّ العمل بما أمرهم به إبراهيمُ من عبادةِ اللّه وتقواه[1].

الغرض من حذف المفعول:

قرائن الأحوال أو دلالة السّابق تقتضيان الحذف وتغنيان عن الإطالة

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ الفعل في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ اختصارًا؛ لدلالة ما قبل الشّرط عليه، أو أنه محذوف بقرائنِ الأحوالِ[2]، والتقدير: إنْ كنتم تعلمون أدلّةَ اختصاص اللّه بالألوهية، كما أنّ الحذف يتيحُ للذّهن أن يستحضرَ أكثر من معنى، في تقدير المفعول المحذوف بما يدلّ على العموم، فقد ذكر المفسرّون العديد من التّقديرات لهذا المفعول، ومنها: (إنْ كنتم تعلمون ما هو

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 407.

(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 152.

خيرٌ لكم ممّا هو شرٌّ لكم)[1]، أو (إنْ كنتم تعلمون الخيرَ والشّرَّ وتُميّزون أحدَهما من الآخرِ، أو إن كنتم تنظرون إلى الأمور بنظرِ العلمِ دون نظر الجهل)[2]، أو (إنْ كنتُم تعلمونَ شيئًا من الأشياءِ بوجهٍ من الوجوهِ فإنَّ ذلك كافٍ في الحكمِ بخيريّةِ ما ذُكِر لكم من العبادةِ والتَّقوى)[3]، ويمكن أنْ يُنزَّل فعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ منزلةَ الفعلِ اللّازم، أي: إنْ كنتم أهلَ علم ونظر[4]، أو: إنْ نظرتم بعين الدّراية المبصرة دون عينِ الجهل العمياء[5]، فلا يَعقِلُ خَيريَّةَ عِبادةِ اللّهِ وَحْدَه وتَقْواهُ إلّا ذو عِلم[6].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 18.

(2) البَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 190.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 34.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.

(5) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 447.

(6) ابن عُثَيْمين، تفسير العنكبوت، ص: 70.

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾ [العنكبوت: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان فضل ما يدعو إبراهيم قومه إليه، وفساد ما هم عليه

بعد أنْ أمَرَهم إبراهيم عليه السلام بعبادةِ اللّهِ وتوحيده وتَقْواه؛ نهاهم عن عبادةِ الأصنامِ، بأنْ قرّر لهم ما هم عليه من الضّلال، وبيَّن لهم نَقْصَ أوثانهم وعجزها، وعَدَمَ استِحقاقِها للعبوديَّةِ، فقال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡثَٰنٗا﴾: (وثن) كَلِمةٌ واحِدَةٌ، والوَثْنُ: حجارةٌ كانتْ تُعبد، وَأَصْلُها قَوْلُهُمُ اسْتَوْثَنَ الشّيْءُ: قَوِيَ[2]، والواثِنُ: الثّابتُ الدّائم، والوَثَنُ: الصَّنَمُ[3]، وقيلَ الوثن: الصَّنَمُ الصَّغيرُ، والوَثَنُ: الصَّليبُ، وقيلَ: سُمّي وَثَنًا لانْتِصابِه وثَباتِه على حالَةٍ واحِدَةٍ، من وَثَنَ بالمَكانِ أقامَ بِهِ، فهوَ واثِنٌ[4]، ومعنى الوثن في الآية موافقٌ للمعنى اللّغوي، أي صورَةٌ مِنْ حَجَرٍ أَوْ خَشَبٍ مُجَسَّمَةٍ على صورَةِ إِنْسانٍ أَوْ حَيَوانٍ كانوا يعبدونها[5].

2) ﴿وَتَخۡلُقُونَ﴾: أصلُ (خلق) تَقْديرُ الشّيْءِ[6]، ويُستعملُ في إبداعِ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، وهو بهذا المعنى يختصُّ بالباري تعالى والخَلْقُ لا يُستعمَلُ في كافّة النّاس إلا على وجهين:

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 311، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 628.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وثن).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (وثن).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وثن).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).

أحدهما في معنى التّقدير، والثّاني بمعنى الاختلاق وهو الكذب، كما هو الحال هنا في هذه الآية ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾[1]، فمعنى ﴿وَتَخۡلُقُونَ﴾ هنا تكذبون، أو تصنعون وتنحتون أصنامًا بأيديكم تسمّونها آلهة[2]؛ وتضعون لها أخبارًا ومناقبَ وأعمالًا مكذوبةً موهومةً[3].

3) ﴿إِفۡكًاۚ﴾: أصلُ (أفك) يدلُّ على قَلْبِ الشّيْءِ وَصَرْفِه عَنْ جِهَتِه، والْإِفْكُ: الْكَذِبُ[4]، وأفَكْتُه عن الأمر: صرفته عنه بالكذبِ والباطل[5]، والإفكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهه الّذي يحقّ أنْ يكونَ عليه[6]، كالصّرفِ عن الحقّ في الاعتقادِ إلى الباطل، ومِن الصدقِ في المقالِ إلى الكذب، ومِن الجميلِ في الفعل إلى القبيح[7]، والمقصودُ بالإفكِ هنا: الكذب[8]، أي: وتخلقون كذبًا في صرفِ عبادتكم إليها واستحقاقِها العبادة[9].

4) ﴿فَٱبۡتَغُواْ﴾: (بغي) أصْلانِ: أحَدُهُما طَلَبُ الشَّيْءِ، والثّاني جِنْسٌ مِنَ الْفَسادِ[10]، بَغَيْتُ الشّيْءَ: طَلَبْتُه، وابْتغى الشّيْءَ: أرادَهُ وَطَلَبه، والبُغْيَةُ: الْحاجَةُ[11]، والبَغْيُ: طلبُ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يتحرّاه الشّخص، تجاوزَه أمْ لمْ يتجاوزْه، وابتغى: افتعالٌ من البغي بمعنى الطلب، يُقال: بَغَيْتُ الشّيء: إذا طلبتُ أكثرَ ما يجبُ، وقد غلبَ اختصاصها للاجتهاد في الطلب؛ فإنْ كان ذلك المطلوبُ محمودًا فابتغاؤه كذلك، وكذا عكسه[12]، ومعنى ﴿فَٱبۡتَغُواْ﴾: فالتمسوا عند اللّه الرّزق، واطلبوه منه، واصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إليه، فإيّاه فاسألوه وحده دون غيره تدركوا ما تبتغون من ذلك[13].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (خلق).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 19، والقُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 335، والبَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 191.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفك).
(5) الخليل، العين: (أفك).
(6) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 101.
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 24.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.
(9) الماتُريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 215.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزَّبِيديّ، تاج العروس: (بغي).
(12) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (بغي).
(13) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 20، والقُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 336، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 117.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ إبراهيم عليه السلام فسادَ عبادتهم لأوثانٍ عاجزة

بيّن القرآنُ إرشادَ إبراهيم قومَه إلى فضلِ ما يدعوهم إليه، وفسادِ ما هم عليه بالقول: ما تعبدون من دون اللّه إلا تماثيل صنعتموها بأيديكم، وتكذبون حين تسمّونها آلهة، وتدّعون أنّها تشفعُ لكم عند ربكم، ثم زادَ في النّعي عليهم والتّهكّمِ بهم، وبيانِ أنّ ذلك لا يجديهم نفعًا بالقول: إنَّ أوثانكم الّتي تعبدونها لا تقدرُ أنْ ترزقكم شيئًا من الرزق الّذي لا قوامَ لكم بدونه، فكيف تعبدونها؟ ثم ذكرَ لهم من ينبغي أنْ يعبدوا بالقول: فالتمسوا الرّزق عند اللّه لا عند أوثانكم تدركوا ما تطلبون، واعبدوه وحده، واشكروا له نعمه عليكم مستجلبين بذلك المزيدَ من فضله، فاستعدّوا للقائه تعالى بالعبادة والشّكرِ له، فإنّكم إليه ترجعون فيسألكم عمّا أنتم عليه من عبادتكم غيرَه، وأنتم عبادُه وخلقُه، وفي نعمه تتقلّبون، ومن رزقه تأكلون[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة الجملة الخبريّة:

وَعْظُ إبراهيم قومَه من خلالِ بيانِ حقيقة ما يعبدونه وعدمِ استحقاقها العبادة

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ جملة خبريّة، وفائدةُ الخبر: إفادةُ المخاطَب الحكمَ الّذي تضمّنته الآية، وهو بيانُ حقيقة ما يعبدونه، وأنّها صورٌ لا روحَ فيها، ولا تَستَحِقُّ شَيئًا مِن رُتبةِ الألوهيَّةِ، فهي مصنوعةٌ بأيديكم، وأنتم من سميتموها آلهةً، واختلقتم الكذب بالأمرِ بعِبادتِها، وأنها ناقِصةٌ وعاجِزةٌ، لا تَستطيعُ أنْ تَرزُقَكم أيَّ شَيءٍ مِن الرِّزقِ، وغرضُ هذا الخبر الوعظُ والتّذكير، والتّنفير من فسادِ ما هم عليه من باطلٍ، ولذلك ختمَ الآية بأنْ أمرهم بعبادةِ اللّه وحده، فالرزقُ منه وَحْدَه، وإليه وحده الرجوعُ للحساب يوم القيامة.

---

(1) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 125.

بلاغةُ الفصل الآية عما قبلها:

فَصَلَ النّظم الحكيم جملةَ ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ عمّا قبلها، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بينهما من كمال اتّصال؛ إذ جاءتِ الجملةُ تعليلًا لجملة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾[1]، أي: علّل أمره لهم بعبادةِ اللّه وتوحيده، بأنّ ما يعبدونه من دون اللّه أوثانٌ لا تستحقُّ العبادة.

تعليلُ الأمرِ بعبادةِ الله لأنّ ما يعبدونه أوثانٌ لا تستحقّ العبادة

دلالةُ الفعل المضارع ﴿تَعۡبُدُونَ﴾:

التّعبير بالفعل المضارع ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ إشارةٌ لحالِ قومِ إبراهيمَ عليه السلام مِنَ الإصرارِ على عبادةِ أوثانٍ لا تضرّ ولا تنفع، وذلك باستمرارهم على هذه العبادة وتجدُّدها منهم، وكذلك أفاد المضارع تصويرَ خضوعهم وذلّهم لها، بما يحملُ النّفس على النّفور ممّا هم فيه، والرّجوع إلى الحقّ، ففي التّعبير بالمضارع استحضار لبشاعة الجرم الّذي هم عليه.

تصويرُ استمرار إصرارِ قومِ إبراهيمَ على عبادة ما لا يضرّ ولا ينفع لتنفيرهم من ذلك

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها:

يحتمل أنْ تكون ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ للتّوكيد، إنْ كانت ﴿دُونِ﴾ بمعنى غير، والمعنى: إنّما تعبدون أوثانًا غيرَ اللّه، وهذا على الوجه القائل بأنّ قوم إبراهيم كانوا كفارًا، أو ابتدائيةً، إنْ كانت كلمة ﴿دُونِ﴾ اسمًا للمكانِ المُباعِدِ، فهي إذن مُستعارةٌ لمعنى المخالفة، والمعنى: إنّما تعبدون أوثانًا موصوفة بأنّها مخالفةٌ لصفاتِ اللّه[2]، وهذا على الوجه القائل بأنّ قومَ إبراهيم كانوا مشركين.

إفادة التوكيد في الاحتقار والدونية لكلّ مَن يعبد ما سوى الخالق العظيم

سِرّ ذكر الظرف في ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

التّعبير بلفظ ﴿دُونِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يفيدُ معنى الدونيّة والاحتقار يومئُ باحتقارِ من يعبدون الأوثان، وهي

لا ظلمَ أشنعُ من وضعِ الأخسّ موضعَ الأشرف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.

باطلٌ ليسَ له في ذاته إلا العدم، ويتركون عبادةَ اللّه الّذي هو فوقَ كلِّ شيءٍ بقهره وسلطانه، وكلّ ما سواه سافلٌ حقير، تحت قهره وأمره، فلا ظُلمَ أشنعُ من وضعِ الأخسِّ موضعَ الأشرف.

سِرّ الإظهار في موضع الإضمار لاسم الجلال:

الكفرُ بالله الأعلى الّذي دونه كلُّ شيء؛ دليلٌ على شدّة الضّلال

أظهرَ البيانُ الحكيم الاسمَ الجليل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يأتِ بضميره، رغم أنّه قد سبقَ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ وذلك للمبالغة في إظهارِ ضلالِ قوم إبراهيم بعبادتهم أوثانًا؛ هي في نفسِها صورٌ وتماثيلُ مصنوعةٌ لا روحَ فيها[1]، وإعراضهم عن عبادةِ اللّه الأعلى من كلِّ شيء، الجامعِ لكلّ صفاتِ الكمال الّذي لا شبيهَ له ولا نظير، ولا ثاني ولا وزير[2]، كما أنّ في التّصريح بالاسم الجليل تربيةً للمهابةِ والتّعظيم في النّفوس، بما يكون رادعًا عن كفرهم أو شركهم.

إيثار التّعبير بلفظ الأوثان دون غيره:

دلالةٌ على أنّ كلّ ما يُعبدُ من دون الله أوثانٌ لا تستحقّ العبادة

عبّر البيانُ القرآني بلفظ (الوثن) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ دون غيره من الألفاظ كالصنم مثلًا؛ لأنّه أعمّ، إذ يشملُ كلّ ما عُبد من دون اللّه، سواءٌ كان منحوتًا، أو غير منحوت كشجرٍ وحجر، وسواءٌ كان له جسمٌ أو صورة أو لم يكن له جسمٌ أو صورة، فيُطلقُ الوثنُ على الصّليب وعلى القبر وعلى الإنسان إذا عُبدَ من دون اللّه[3]، وفي التّعبير بلفظ ﴿أَوۡثَٰنٗا﴾ إشارةٌ إلى تفرّق الهمم بكثرةِ المعبود، فمادة (وثن) بجميع تقاليبها تدورُ على الزيادة والكثرة والفُرقة والرّخاوة، وهذه المعاني تتناسبُ مع دونيّة هذه الأوثان، فلا ينبغي لرتبةِ الألوهيّة أنْ تتصف بهذه المعاني[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 34.

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 407.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (صنم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (وثن)، والهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 385.

(4) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 544 - 545.

بلاغةُ التّعبير بـ﴿إِنَّمَا﴾:

قَصْرٌ فيه إبطالٌ لاعتقادهم أُلوهيّةَ ما يعبدونه من أوثان أو شراكتها

﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا﴾ أداةُ قَصْرٍ؛ وهو هنا قصرُ موصوفٍ على صفة؛ فقد قَصَرَ عبادتَهم على عبادةِ أوثان، وهو قَصْرٌ قد يكونُ حقيقيًّا، إذا كان قومُ إبراهيم لا يعبدون اللّه، أي: كانوا كافرين به إطلاقًا، بمعنى أنّهم يرَون أنَّ أوثانهم هي الإلهُ الحقّ، وهذا القصرُ مُنصبٌّ على قوله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنّما تعبدون غيرَ اللّه، أو قد يكون قصْرَ قَلْبٍ، إذا كان قومُ إبراهيم مشركين، أي: يعبدون اللّهَ ويشركون أوثانهم في العبادة(1)، فهُمْ مثلُ مشركي العرب، فيكون القصرُ منصبًّا على عبادتهم الموصوفة بالوثنيّة، أي: يكون القصرُ قصرَ قلبٍ لا قصرَ صفة، وذلك لإبطالِ اعتقادهم أُلوهيّةَ تلك الأوثان الّتي يشركونها مع اللّهِ في العبادة(2)، جرًّا لهم نحو الإيمان، وفي كلتا الحالّتين يخاطبُ إبراهيمُ قومه بأسلوبٍ قويٍّ شديد.

دلالةُ العطف في ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾:

بيانٌ لفساد اعتقادهم بالّذين يعبدونهم من دون اللّه، إذ ما هو إلا كذبٌ وزورٌ اختلقوه

في عطف جملة ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ على جملة ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا﴾ بيانٌ لفسادِ ما هم عليه من العقيدة من جهتين؛ من جهة أنّهم يعبدون من دون اللّه أوثانًا، ويعدلون بها عن عبادة اللّهِ، ومن جهةٍ أخرى أنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهانٍ أو دليل، وإنّما يختلقون إفكًا وينشئون باطلًا(3)، ففي العطف جمعٌ بين شناعةِ عبادتهم لغير اللّه، وبين شناعةِ افترائهم الكذبَ في جعلِ هذه الأوثان مستحقّةً للعبادة، وجَعْلِها شركاءَ للّه أو شفعاءَ إليه، فأفاد العطف أنّ الّذين يعبدونهم من دون اللّه ويزعمون أنّهم شفعاؤهم عند اللّه ما هو إلا كذبٌ وزورٌ بلا دليلٍ أو برهان.

---

(1) قد وصفهم الله بالشّرك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾ [الأنعام: 78].

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.

(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 544.

إيثارُ التّعبير بـ﴿وَتَخۡلُقُونَ﴾ مادة وصيغة:

تصويرُ شناعة استمرارهم على عبادة أصنامٍ نحتوها واتّخذوها آلهة كذبًا وافتراءً

اختار النّظم الحكيم التّعبير بفعل ﴿وَتَخۡلُقُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ دون غيره، فلم يقل مثلًا: (تُكَذِّبون)؛ لكونه أبلغَ وأنسبَ للسّياق والمقام؛ فلفظُ (خلق) في أصله يُستعملُ في إبداعِ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، ويأتي بمعنى التّقدير، وبمعنى الاختلاق، أي: الكذب[1]، وهذه المعاني تتناسبُ مع السّياق الّذي يَنْعَى عليهم عبادتهم لغيرِ اللّه، وتتناسبُ مع حالهم من إحداثِ الكذب واختراعِه من عند أنفسهم بلا سابقةٍ أو مقدّمة، وينشئونه إنشاءً بلا أصلٍ ولا قاعدة، وكيف كانوا يصنعون وينحتون أصنامًا بأيديهم ويسمّونها آلهة كذبًا وافتراءً، وقد جاء الفعل بصيغة المضارع ليدلّ على استمرارهم في الاختلاق والكذب، وليصوّر شناعة فعلهم هذا الّذي تَنْفِرُ منه النّفوس.

سِرّ التّعبير بلفظ (الإفك) مادةً وصيغةً:

أسوأُ الكذبِ وأشنعُه ما يتعلّق بوحدانية الله تعالى

عبّر البيانُ القرآني بلفظ الإفك في قوله تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾؛ لكون الإفكِ أسوأ الكذب، وذلك زيادةً في التّشنيع عليهم، إذ هو كذبٌ يتعلّق بوحدانيّة اللّه سبحانه؛ فجعلوا هذه المنحوتات الّتي صنعوها بأيديهم آلهة، وهذا صرفٌ للأمرِ عن وجهه، وقد سُمّي الكذب إفكًا؛ لأنّه مأفوك؛ أي: مصروفٌ عن وجهه، فهم صرفوا عبادتهم إليها وجعلوها مستحقّة للعبادة، والحقيقة أنَّ المستحقّ للعبادة هو اللّه وحده، ويجوز في الإفكِ هنا أنْ يكون مصدرًا، والمعنى: تكذبون كذبًا، وأنْ يكون صفة؛ أي: خُلُقًا إفْكًا؛ أي: ذا إفكٍ وباطل[2]، وكلا الإعرابين تأكيدٌ على بطلان فعلِهم وشناعته.

الغرض من التّنكير:

نكّر البيان الإلهيّ لفظ ﴿إِفۡكًاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾؛

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (خلق).

(2) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 385.

لتهويلِ هذا الإفك الّذي اختلقوه، فهو كذبٌ عظيم إذ يتعلّق بوحدانيّة اللّه، وأنْ جعلوا له شركاءَ يعبدونهم، وفي هذا تشنيعٌ من إبراهيم على قومه، وتنفيرٌ من هذا الباطل الّذي اختلقوه، ومِن تَسميَتِهمُ الأوثانَ آلهةً وشركاءَ للّه.

تهويلُ الإفك الّذي اختلقوه تشنيعًا عليهم وتنفيرًا لهم منه

بلاغةُ الفصل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ﴾:

فَصَلَ النّظم الحكيم جملةَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ عمّا قبلها، وهي جملة ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لواحد من أمرين: **الأوّل:** لِما بينهما من كمالِ اتّصالٍ؛ لأنّها جاءتْ بيانًا لشَرّيّةِ ما يعبدونَه من حيثُ إنَّه لا يكادُ يجُديهم نفعًا؛ فلا يقدِرون على أنْ يرزقوهم شيئًا من الرِّزق[1]، أو أنّها جاءت تفصيلًا لِما أجمله القرآنُ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2]، **والثّاني**: لِما يمكن أن يكون تعليلًا باعتبار أنّ قومَ إبراهيمَ يَعترِفون للّهِ تعالى بالألوهيَّةِ والخلْقِ والرِّزق، ولكنَّهم يَجعَلون له شُركاءَ في العِبادةِ ليَكونوا لهم شُفعاءَ، كحالِ مُشركي العرَبِ؛ أي: هو المُستحِقُّ للعِبادةِ الّتي هي شُكْرٌ على نِعَمِه، وإنْ كان قومُه لا يُثبِتون ألوهيَّةً لغيرِ أصنامِهم، كانتْ جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّةً مُستأنَفةً؛ إبطالًا لاعتِقادِهم أنَّ آلهتَهم تَرزُقهم، وما يُرجِّح هذا الاحتِمالَ التَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾[3].

دونيّة ما يعبدون من دون الله إذ لا يملكون لهم رزقًا ولا نفعًا

بلاغة التّوكيد في قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾:

أكّد البيانُ القرآنيُّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بعدّة مؤكِّدات، وهي ﴿إِنَّ﴾ الّتي تفيدُ التّوكيد، والجملة الاسميّة الّتي تفيد

المبالغةُ في تأكيد عدم استحقاق الأوثان للعبادة تنفيرًا من عبادتها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 34.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.

الثّبات والاستمرار، والاسم الموصول الّذي يفيد العموم، وذلك لإفادة المبالغة في تأكيد أنّ كلّ الأوثان الّتي يعبدونها من دون اللّه لا تستحقّ العبادة، فهي لا تملكُ لعابديها النّفعَ والرّزق، فكان هذا التّأكيد ردًّا لِما كانوا يتوهّمونه من نفعها وضرّها، ومن ثَمّ كان تنفيرًا لهم من عبادتها، ودفعًا لهم إلى عبادة اللّه وحده مالك النّفع والرّزق.

سِرّ التّعبير بالاسم الموصول مجموعًا:

جميعُ المعبودات من غير اللّهِ عاجزةٌ مهما تنوّعت صورها

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾، ولم يُعبّرۡ بالاسم الظاهر (الأوثان)، فلم يقلۡ: إنّ الأوثانَ لا يملكون لكم رزقًا؛ لأنّ دلالة الاسم الظّاهر (الأوثان) دلالةٌ قاصرةٌ حاصرةٌ لهذا الوصف، أمّا الاسمُ الموصول فإنه يدلُّ على العموم، فالتّعبير به يشملُ كلّ ما عُبد من دون اللّهِ، ولا يقتصرُ على الأوثان، وهذا أيضًا سِرُّ التّعبير بالاسم الموصول مجموعًا، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لا مفردًا (الّذي)؛ لِما فيه من دلالةٍ واضحةٍ على كثرةِ المعبودات من دون اللّه، وهذا مما يتناسب مع صيغِ الجمع الواردة في السّياق ﴿أَوۡثَٰنٗا﴾ و﴿تَعۡبُدُونَ﴾.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع مجموعًا:

بيانٌ لاستمرارهم على تحقير عقولهم في عباداتهم لِما لا يملك لهم أيّ رزقٍ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أفادَ تعبيرُ القرآن عن عبادةِ المشركين للأوثان بصيغة المضارع المجموع ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ - الّتي تفيد التّجدّد والاستمرار - المبالغةَ في بيانِ عجزِ أوثانهم وعدم نفعها لهم؛ إذۡ إنّها لا تملكُ لهم أيّ رزقٍ؛ رغم استمرارهم على تحقير عقولهم في الاجتماع والإجماع على عبادتها، والخضوعِ لها، والدعوةِ إليها، ومحاربةِ الحقّ في سبيلها.

أسلوبُ الإطناب بالتّكرار:

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿أَوۡثَٰنًا﴾ بتكرير الفعل ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ وتكرير ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ للمبالغة في التشنيعِ عليهم في عبادةِ الأوثان[1]، الّتي تمثّل قمّةَ العجزِ بكونها مجرّدَ صورٍ لا روحَ فيها، وفي إعراضهم عن عبادةِ اللّه الّذي خلقهم وخلقَ أوثانهم.

مبالغةٌ في تشنيعِ إبراهيمَ على قومه بعبادتهم صورًا لا روحَ فيها

سِرّ النَّفي بـ﴿لَا﴾ دون (ما):

استعملَ البيانُ القرآنيُّ حرف النَّفي ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا﴾، دون (ما) فلم يقل: (ما يملكون)؛ لأنّ من معاني ﴿لَا﴾ أنّها تُخلِّصُ المضارعَ للمستقبل بخلاف (ما) فإنّها تخلّص المضارع للحال، فيكون النّفي بـ﴿لَا﴾ أبلغَ؛ إذ يشيرُ إلى عدم المنفعة في الحالِ وفي المآل، فالأوثانُ لا تملكُ أنْ ترزقهم في الحال، ولا في المستقبل، فيدلّ هذا على كمالِ عجزها، وعدم نفعها، ولا أملَ لها في أنْ تَرزُقَ في المستقبل، فأفادَ النَّفي بـ﴿لَا﴾ نَفْيَ جِنْسِ مِلْكِ الأوثانِ للرّزق في كلّ وقت.

الأوثانُ لا تملكُ الرزقَ في الحال ولا في المستقبل لكمالِ عجزها

دلالة التّعبير بالمضارع مادّةً وصيغةً:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ المِلْك في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا﴾؛ لاتّساع دلالتها؛ إذ أصلُ (مَلَكَ) في اللّغة يدلُّ على قوّةٍ في الشّيء وَصِحَّةٍ[2]، ومن معاني الْمُلْك بضم الميم: العظمة والسّلطان، وكلُّ مَن يَمْلِكُ تكون له القدرة على احْتِواءِ الشّيْءِ الّذي يملكه وضَبطِه، وله الْقُدْرَةُ عَلَى الاسْتِبْدادِ بِهِ، والتّصرّف فيه[3]، فكان نَفْيُ مِلْكِ الأوثان للرّزق نفيًا لقدرتهم وتصرّفهم، فهُم في كاملِ العجزِ والضّعف.

بيانٌ لاستمرار عجز أوثانهم في عدم قدرتها على الرّزق فلا تستحقّ العبادة

أمّا من حيث الصيغةُ فقد استعملَ القرآنُ صيغةَ الفعل المضارع

(1) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 20/ 212.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملك).
(3) ابن سِيْدَهْ، المحكم، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ملك).

المنفيِّ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ الّذي يدلّ على تجدّد هذا النّفي واستمراره، فعجزُ الأوثانِ الّتي يعبدونها عن الرّزق دائمٌ ومستمرّ، وهذه المعاني تتناسبُ مع السّياق الّذي يَنۡعَى على المشركين عبادتهم أوثانًا عاجزةً لا تملكُ التّصرّف ولا القدرةَ على الرّزق، وفي هذا إثباتٌ لعدمِ استحقاقها للألوهيّة والعبادة.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور على عامله:

مبالغةٌ في تصوير عجزِ الأوثان عن تمليكِ الرّزق لعابديها فضلًا عن غيرهم

الأوثانُ لا تملكُ أنْ ترزقَ أحدًا، أو أنْ تُحصِّلَ له الرّزق، ولكنَّ البيانَ القرآنيَّ لَمّا قدّم الجارَّ والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ على المفعول ﴿رِزۡقٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ أفادَ التَّأكيدَ على نفي قدرةِ الأوثانِ على إيتاءِ الرّزقِ؛ إذ إنّها لا تملكُ الرّزقَ ولا النَّفع لمن يتّخذُها آلهةً ويعبدُها من دون اللّه، ومن بابٍ أولى أنها أيضًا لا تملكُ لغيرهم ذلك الرّزق، وفي هذا مبالغةٌ في إبطال السّببِ الّذي من أجله عبدوها من دون اللّه، وتبكيتٌ لهؤلاء العابدين.

نكتة تخصيص الرِّزق بالذِّكر:

تقريرٌ في عجزِ الأوثان عن أهمّ ما يسعى الإنسان في تحصيله لمعاشه، فضلًا عمّا هو دونه في الأهمّيّة

خَصَّ النَّظم الحكيم الرِّزقَ بالذِّكر في موضعين في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ رغم أنّ الأصنامَ لا يملكون شيئًا؛ وذلك لِمكانةِ الرّزق مِن الخَلۡقِ في معاشهم، ولكون الاحتجاجِ بعجزِ الأصنام عن الرزق أمرًا هامًّا يسعى إليه كلّ أحدٍ ويفهمه عامّتهم وخاصّتهم، فقرّر أنّ الأصنام لا تَرۡزُقُ[1].

الغرض من تنكير المفعول:

تَنكيرُ المفعول به ﴿رِزۡقٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ للتّعميم[2]، والتّقليل، والمعنى: لا يقدرون على أنْ يرزقوكم شيئًا من الرّزق[3]، وكون هذا التّنكير في سياقِ النَّفيِ فإنّه يدُلُّ على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 843.
(2) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 191.
(3) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 385.

مبالغةٌ في تعميم نَفْيِ قُدرةِ أوثانهم على تَمَلُّكِهم أيَّ رزقٍ

العُموم، أي نَفْيِ قُدرةِ أوثانهم على كلِّ رِزقٍ ولو كان قليلًا[1]، أي: لا يَقدِرونَ على شَيءٍ منه[2]، ولو كان غايةً في القلّة[3]، وهذا العموم يدلُّ على منتهى عجزِ هذه الأوثان وتفاهتها[4]، وفيه تعريضٌ من إبراهيم عليه السلام بقومه لعبادتهم أوثانًا في غايةِ العجز.

نكتةُ ثراءِ المعنى في تَنَوُّعِ إعرابِ ﴿رِزْقًا﴾:

بيانُ عجزِ الأصنامِ عن الرّزق بأيّ وجهٍ من وجوهِ الرّزق

﴿رِزْقًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ يحتملُ أنْ يكون مصدرًا مؤوّلًا، والتّقدير: لا يملكون أنْ يرزقوكم، أو مصدرًا منصوبًا وناصبه ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾؛ لأنّه في معناه، أو أنْ يكون اسمَ المرزوق، والتّقدير: لا يملكون لكم إيتاءَ رزقٍ ولا تحصيله، أو مفعولًا به لفعلِ ﴿يَمْلِكُونَ﴾، لأنّه بمعنى المرزوق[5]، وفي هذا كلّه بيانُ عجزِ الأصنام عن الرّزق بأيّ وجهٍ من الوجوه.

بلاغة العطف بالفاء:

تفريعٌ على إثباتِ عجزِ الأوثان عن الرّزق نتيجتُه استحقاقُ الرّزّاق الحقيقي للعبادة

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ تفريعيّة؛ فرّعتِ الأمرَ بابتِغاءِ الرِّزقِ من اللهِ على نَفْيِ قُدرةِ أصنامِهم على كلِّ رِزقٍ، وفي هذا التّفريع إبطالٌ لِظَنِّهم الرِّزقَ مِن أصنامِهم، أو تَذكيرٌ بأنَّ الرّازقَ الحقَّ هو اللهُ، فابتغاءُ الرّزق منه يقتضي تخصيصه بالعبادة وحده سبحانه، كما دلّ عليه عطف ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾[6]، ويمكن أنْ تكونَ الفاءُ الفاءَ الفصيحةَ؛ لأنّها أفصحتْ عن جوابِ شرطٍ مقدَّر، تقديره: إذا عرفتم ما قلتُ لكم، وأردتم بيانَ ما هو اللّازم لكم فأقول لكم: ابتغوا عند الله الرزق[7].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 843.
(3) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 22.
(4) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 22.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 843، والهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 379.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.
(7) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 379.

وقد جاءَ العطفُ في قوله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ نتيجةً للكلامِ السابق، أي: لَمّا أثبتَ نقص معبوداتهم بنفي الخير عنها وصرّحَ بعجزها؛ أثبتَ سبحانه اختصاصه بالخيرِ والنّفعِ والقدرةِ على الرّزق، ومِنْ ثَمّ استحقاقه للعبادة دون غيره.

سِرّ التّعبير بالابتغاء:

عادةُ الله الغالبة ألّا يؤتي الرزقَ إلا بكدٍّ واجتهادٍ من المرزوق

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ الابتغاء في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ دون غيره من الألفاظ كالطّلب مثلًا، فلم يقل: (فاطلبوا عند الله الرّزق)؛ لكون لفظِ الابتغاء أبلغَ وأنسبَ للسّياق، فالابتغاءُ هو شدّةُ الطّلبِ والاجتهاد فيه[1]، وهذا يتناسبُ مع طلبِ الرّزق؛ لأنّه سبحانه أجرى عادته أنّه في الغالب لا يؤتيه إلا بكدٍّ وجهدٍ من المرزوق؛ إمّا في العبادة والتّوكّل، وإمّا في السّعي الظّاهر في تحصيله بأسبابه الدّنيويّة[2].

الغرض من فعل الأمر ﴿فَٱبۡتَغُواْ﴾:

حضٌّ وإرشادٌ إلى ابتغاءِ الرّزق من الرّزّاق الحقيقيّ

الأمرُ بابتغاء الرّزق في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ مجازيّ غرضُه الحضُّ والإرشاد إلى طلبِ الرّزق من الرّزّاق الحقيقيّ؛ فهو سبحانه الّذي يكفيكم ويغنيكم لا تلكَ الأوثان العاجزة.

سِرّ التّعبير بالظّرف المضاف:

الرّزقُ كلّه عند اللهِ المستحقّ للعبادةِ لذاته

﴿عِندَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ ظرفُ مكانٍ وهو مجازٌ، شَبَّهَ طَلَبَ الرِّزْقِ من اللهِ بالبحثِ عن شيءٍ في مكانٍ يختصّ به، فاستعير له عند الدّالّة على المكانِ المختصّ بما يُضافُ إليه الظّرف[3]، وكونه مبتغًى عند اللهِ الجامع لكلّ صفاتِ الجلال

(1) الرّاغب، المفردات: (بغي).
(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 546.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.

والجمال والكمال[1]؛ يستوجب أنْ يكونَ كثيرًا؛ لأنّه كلَّه عند اللّه[2]، والأمرُ بيده، إنْ شاءَ أنجحَ، وإنْ شاءَ خيّب[3]، وفي هذا إشارةٌ إلى استحقاقِ عبوديّته سبحانه لذاته[4].

دلالة (أل) في كلمة ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾:

شمولُ كلِّ أنواعِ الرّزقِ المُبتغى عند الله وحده بما يدلُّ على كثرته وعظمته

(أل) التّعريف في كلمة ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ لاستغراق جنس الرّزق كلِّه، أي: فاطْلُبوا كلَّ رِزقٍ قَلَّ أو كَثُرَ مِن اللّهِ دونَ غيرِه، فإنَّه هو الرزّاقُ ذو القوَّةِ المتين[5]، والمُعَرَّفُ بلامِ الجنسِ في قوَّةِ النَّكرةِ في الشمول والتعميم، فكأنَّه قيل: فابْتَغوا عندَ اللّهِ أيّ رزقٍ[6]، وقد عرَّف البيانُ القرآنيُّ الرِّزقَ هنا رغم أنّه نكَّرَهَ في قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾؛ لأنَّه أراد أنّ هذه الأوثان لا تستطيعُ أنْ تَرزقكم شيئًا مِن الرِّزقِ مهما كان قليلًا، فابْتَغوا عندَ اللّهِ الرِّزقَ كلَّه؛ فإنَّه هو الرَّزّاقُ وحْدَه، لا أحدٌ يَرزقُ غيرُه؛ فنكَّر أوَّلًا للتَّعليلِ؛ مُبالَغةً في النَّفي، ثمَّ عرَّفَ ثانيًا للاستِغراقِ؛ ولدلالته على العموم، ليَشْملَ كلَّ ما يُسمَّى رزقًا[7]، فهو تعالى عنده الأرزاق كلُّها، وهذا يدلُّ على أنّ الرّزق كلَّه مبتغًى عند اللّه وحده، بما يدلّ على كثرته وعظمته[8]، بالإضافة إلى أنّ الرّزقَ من اللّهِ معروفٌ، والرّزقَ من الأوثان غيرُ معلوم فنكّره لعدمِ حصولِ العلم به[9].

دلالة عطف العبادة على ابتغاء الرِّزق:

إيماءٌ إلى أنّ الله الرّزّاقَ الحقَّ هو من يستحقّ العبادة، وتعريضٌ بعابدي مَن لا يرزق ولا ينفع من الأوثان

في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ عطفَ الأمر

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 413.
(2) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 387.
(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 546.
(4) الرّازيّ مفاتيح الغيب: 25/ 39.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 34.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.
(7) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 447، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 153، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 348.
(8) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 387.
(9) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 39.

بالعبادةَ على الأمر بابتغاء الرّزق عند اللّه؛ للإيماءِ إلى أنّه هو الرّازقُ الحقيقيُّ، وهو من يستحقُّ العبادة وحده، "فابتغاءُ الرّزق منه يقتضي تخصيصه بالعبادة"[1]، ويمكن أن يكون العطف أيضًا للتّعريض بعبادتهم الأوثانَ الّتي لا تملكُ رزقًا ولا نفعًا ولا تستحقّ العبادة، وعلى ذلك فإن اللّهَ سبحانه هو الرّازقُ المنعمُ المتفضّلُ عليهم، الّذي لابدّ أنْ يُخلصوا له العبادة، ولا يشركوا به شيئًا؛ فإنّه لا يقبلُ الشِّرك ولا الشّريك.

سِرّ وضع المضمر موضع المظهر في ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾:

الإضمار أحيانًا أعمق بلاغةً من الاسم الظاهر، لبيان أنَّ المتكلَّم عنه واحدٌ لا غير

في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ عبّر البيان القرآنيُّ بالضّمير (الهاء) في فعل ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾، ولم يذكر اسم اللّه ظاهرًا، فلم يقل: (واعبدوا اللّه)؛ لأنّ الإضمار في بعض الأحايين اختصارٌ لما يُلحَظ فلا يلفظ، فيكون الكلام أعمقَ بلاغةً، وأكثرَ دلالةً على أنَّ المتكلَّم عنه واحدٌ لا غير، وهو هنا أنّ الرّازقَ والمعبودَ واحدٌ، وخصوصًا إذا كان قد سبقَ ذكره من قريب، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ من يملكُ الرّزقَ هو من يستحقُّ العبادة وحده سبحانه.

سِرّ الجمع بين الشّكر والعبادة ودلالة الترتيب:

تلازمُ العبادة والشّكر معًا استحقاقٌ واجبٌ على العباد لرازقهم، ومن لا يخلص العبادة لا يخلص الشكر

جمعَ النَّظمُ الحكيم بين العبادة والشّكر في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾؛ للتّلازم بينهما، فكلاهما استحقاقٌ للّه تعالى؛ لكونه ربًّا ورازقًا؛ أي إنّ الّذي يملكُ الرّزق هو إلهٌ عظيم يستحقّ إفرادَه بالعبادة الخالصة لوجهه الكريم، وكذلك يستحقّ الشّكر الخالصَ على إنعامه ورزقه سبحانه.

وقد رتّب القرآن الشّكر على العبادة في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ فأمرَ بالعبادة أولًا ثم بالشّكر ثانيًا؛ لمراعاة الأهمّ والأسبق، إذ إخلاصُ العبادة للّه، والبعدُ عن الشّرك يأتي أولًا، ثم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.

يأتي بعده شكرُ اللّهِ على إنعامه وفضله، فلا يُقبلُ شكرٌ بلا عبادةٍ خالصةٍ للّه، وكأنّ شرطَ الشّكر العبادة، فتكون العبادةُ اعترافًا باستحقاق الإله للألوهيّة، ويكون الشّكرُ اعترافًا وتعظيمًا للمنعم سبحانه على إنعامه.

سِرّ تعدية الشّكر باللام في قوله ﴿لَهُۥٓ﴾:

تخصيصُ الشّكر لمن يستحقّه وهو الرّزاقُ سبحانه

عُدّيَ الشّكرُ باللّامِ في قوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ جرْيًا على أكثَرِ استعمالِه في كلامِ العربِ؛ لِقَصدِ إفادةِ ما في اللّامِ مِن معنى الاختِصاصِ، أي: الاستِحقاقِ[1]، كما أنّ في تعديةِ الشّكر باللّام ملاحظةُ إحسانِ المشكورِ لِما صدر عنه، أي: اجعلوا شكرَكم موجَّهًا له امتنانًا منكم على إحسانه سبحانه إليكم بالرّزق.

بلاغةُ الفصل في قوله ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

ظاهرةٌ في الاتّصال المعنويّ (التّعليل) إذ الأمرُ بعبادةِ الله وشكره معلّل بالرّجوع إليه لا إلى غيره، الّذي أغنى عن الرّابط اللّفظيّ (العاطف)

أوردَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بانفصال لفظيٍّ عن الّتي قبلها ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾؛ فلم يأتِ بينهما بحرف من حروف الوصل (العاطف) هنا؛ لِما بينهما من شبه كمالِ الاتّصال المعنويِّ؛ الّذي أغنى عن الرّابط اللّفظيّ (العاطف)؛ إذ جاءت جملة ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ تعليلًا لها؛ أي: تعليلًا للأمْرِ بِعبادتِه وشُكْرِه؛ لأنَّه هو الّذي يُجازي على ذلك ثَوابًا، وعلى ضِدِّه عِقابًا؛ إذ إلى اللّهِ لا إلى غيرِه مَرجِعُكم بعدَ الموتِ، وفي هذا إدماجُ تَعليلِ العِبادةِ بإثباتِ البعثِ[2]، والمعنى: اعبدوه وحدَه ولا تشركوا به شيئًا، واشكروا له ما خوّلكم به من النِّعم العظيمة لأنّكم إليه ترجعون.

الغرضُ من تقديم الجارّ والمجرور على عامله:

إفادةُ حصرِ الرُّجوعِ إليه وحده لا إلى غيرِه سبحانه

تقديم الجارِّ والمجرور على عامله في قوله تعالى ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لإفادة شِدّة الاختصاص، والمعنى: الرّجوع إليه حصرًا لا إلى غيره[3]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.
(3) السّامُرّائيّ، لمسات بيانيّة: 10/ 19.

أي: إلى اللّه لا إلى غيره مرجعُكم بعد الموت[1]، والمقصودُ الرّجوع إلى جزائه وحكمه[2]، وفي هذا الاختصاص تخويفٌ للمشركين من الحساب والجزاءِ، ورَدْعٌ لهم ليتوبوا عن شركهم، وتطمينٌ للمؤمنين وتثبيتٌ لقلوبهم على الحقّ، بأنّه لا حُكمَ يوم القيامة إلّا له سبحانه.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تُرۡجَعُونَ﴾:

توصيفٌ للواقع، وتصويرٌ للمآل المستمرّ، وحثٌّ على تخيُّل الرجوع إلى الله

استعملَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ المضارع للتّعبير عن الرجوع في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ وصفًا لواقعِ الحال المتكرّر الّذي عليه الخلق، وتصويرًا للمآل بدلالة الحال المستمرّ بدوام رجوع الخلق إلى اللّه، وحثًّا للعباد على تخيُّل كيفيّة هذا الرّجوع إلى اللّه يوم البعث، ممّا يبعث في النّفس المهابةَ والاستعدادَ لهذا اليوم.

توجيهُ قراءة ﴿تَرۡجِعُونَ﴾:

الرجوعُ إلى الله حاصلٌ لا محالةَ سواءٌ كان قَسْرًا أو عن إرادة

في قوله تعالى: ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ قراءتان؛ قراءةُ (الجمهور) بضمِّ التّاء وفَتْحِ الجيم مبنيًّا للمفعول ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، وقراءةُ يعقوب بفتح التّاء وكَسْرِ الجيم، مَبنيًّا للفاعل ﴿تَرۡجِعُونَ﴾[3]، مِنْ رَجَع رُجوعًا، فالحجّةُ لمن ضَمَّ: أنّه أراد: تُرَدّون، على اعتبارِ أنّ اللّه أرجعهم قَسْرًا فلا يستطيعون فكاكًا، والحجّة لمن فتَحَ: أنّه أراد: تَصيرون[4]، أي: سيصير رجوعكم إلينا، وستأتوننا بأنفسكم، كأنّكم مضبوطون على ذلك، أي: سواءٌ أردتم الرّجوعَ إلى اللّه أم لم تريدوه فإنّكم إليه راجعون على كلّ حال.

توجيه المتشابه اللّفظيّ بين صيغتين:

من بلاغة القرآن تنوّع الأسلوب في العطف والتّعليل

في عدد من الآيات كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 348.

(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 669، وابن الجزريّ، النّشر، النشر في القراءات العشر: 2/ 343، والبنّا، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعةَ عشرَ، ص: 439.

(4) ابن خالَوَيْهِ، الحُجَّة في القراءات السَّبْع، ص: 249، وابن الجزري، النشر: 2/ 341.

﴿٢٨﴾ [البقرة: 28]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [الروم: 11]، وقوله: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾ [الزمر: 44] أتى البيان القرآنيُّ بحرف العطف (ثُمَّ)، بينما في قوله هنا في سورة العنكبوت قال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فلم يأتِ بالعاطف (ثُمَّ)؛ لأنّ قوله: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ في آية العنكبوت جاء تعليلًا لِما قبله، أي: تعليلًا للأمْرِ بعِبادتِه وشُكْرِه؛ والتّعليل لا يُفصل بينه وبين المُعَلَّل بفاصل قاطع للصّلة بينهما، فكان المعنى: اعبدوه وحده واشكروا له لعلّةٍ مهمّةٍ هي أنّكم إليه تُرجَعون، ولهذا لم يأتِ معطوفًا على ما قبله، فلم يذكر (ثُمَّ) العاطفة المفيدة للتّراخي الّذي يومِئُ بنوعٍ من الفَصل، أمّا في الآيات الأخرى فقد جاء قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: 28] معطوفًا على ما قبله بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ [البقرة: 28] الّذي يفيد التّراخي إذ ليس ثمّةَ حاجةٌ للتّعليل.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الأوثان والأصنام:

الـوثـنُ أعـمُّ من الصَّنم إذ يُطلق على كلّ ما يُعبدُ من دون الله

بين الوثنِ والصَّنم عمومٌ وخصوص؛ إذ الْوَثَنُ أَخَصُّ من الصَّنَم؛ من جهة أنَّ الصَّنَمَ يُطْلَقُ على حِجارَةٍ غَيْرِ مُصَوَّرَةٍ، مِثْلِ أَكْثَرِ أَصْنامِ الْعَرَبِ، كما يُطلَقُ على المصوَّرَة كأَصْنامِ قَوْمِ إِبْراهيمَ[1]، ومن جهةٍ أخرى أنّ الصَّنمَ هو المصنوعُ من حجارةٍ وغَيْرِها كالخشب والذّهبِ والفضّة وغيرها من جواهرِ الأرض، والوَثَنُ: ما يُتَّخَذُ مِنْ جِصٍّ أَوْ حِجارَةٍ[2].

والصَّنمُ: أخصُّ من الوثنِ من جهةِ أنّ الصَّنمَ ما كانَ لَهُ جسمٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.
(2) القُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 335، وابن منظور، لسان العرب: (صنم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (وثن).

أو صورَةٌ، فإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ جِسْمٌ أو صورَةٌ فهوَ وثَن[1]، فالوثنُ هو كلّ معبود من دون اللّه سواءٌ أكان مجسّدًا على صورة أم على غيرها، فيُطلق الوثنُ على الصليب وعلى القبر إذا عُبدَ من دون اللّه[2]، وقيل: الصَّنمُ: شيءٌ من الحجارةِ يُصنع على مثالٍ حيّ، أمّا الوثنُ: فهو قطعةٌ من حجرٍ خام لم يُشَكَّلْ[3].

ومن العلماء مَن لم يُفرّق بين الوثن والصّنم، واستعمل أحدهما موضع الآخر[4]، ودليلهم أنّ القرآن في قصّة إبراهيم عليه السلام؛ سمّاها مرّة أصنامًا، ومرّة أخرى سمّاها أوثانًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ [العنكبوت: 25]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١﴾ [الشّعراء: 71].

واستعمالُ الأوثان في الآية هنا جاء مقابلَ قوله لهم: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾، فالآياتُ هنا جاءتْ عامّةً تتحدّثُ عن نَعْيِ إبراهيم على قومه لعدم عبادتهم اللّه وعبادتهم غيرَه عمومًا، أمّا في الشّعراء فقد جاءت قصّةُ إبراهيم مفصّلةً، واستعمالُ الأصنام جاء مقابل سؤاله لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ٧٠﴾ [الشعراء: 70] فكان جوابُهم أنّها أصنامٌ منحوتة.

الخَلْقُ والصُّنع:

الخَلـقُ أبلغُ مـن الصُّنـعِ ويتنـاسب مع عِظَـم افـتراءِ المشـركين في عبادتهم الأوثان

الخلقُ أبلغُ من الصُّنع؛ إذ أصلُ الخَلْقِ هو إبداعُ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، وإحداثُه بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ، وليس الخَلْقُ الّذي هو الإبداعُ إلّا للّه تعالى[5]، والخَلْقُ للإنسان يأتي بمعنى التّقدير، وبمعنى

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صنم).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وثن).
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 6/ 3735.
(4) مثلًا يقول الطَّبريُّ: "الأصنام: جمع صنم، والصّنم: التِّمثال من حجر أو خشب أو من غير ذلك في صورة إنسان، وهو الوثن، وقد يقال للصّورة المصوَّرَة على صورة الإنسان في الحائط وغيره: صنمٌ ووثنٌ"، يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 11/ 469.
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (خلق)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 566.

الاختلاق وهو الكذب[1]، وأمّا الصُّنْع: فهو عملُ الشّيء بحِذْق[2]، وإجادةُ الفعل، ولا يقال: صُنْعٌ إلا للحاذق المُجيد[3]، وقد ناسب هنا التّعبير بلفظ ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ ولم يقل تصنعون؛ لأنّ الخَلْقَ أبلغُ، فالخَلْقُ هنا معناه الاختلاقُ والكذبُ والصُّنع والوضع والاختراعُ؛ فالْكاذِبُ يَخْلُقُ خَبَرًا لَمْ يَقَعْ، ويخترعُ أقوالًا غير موجودة، وهذا يتناسبُ مع عِظَم جرم المشركين وافترائهم الكذبَ على اللّه في اتّخاذهم شركاءَ مع اللّه، وعبادتهم الأوثان.

الإفْك والكذب:

الإفكُ أشدُّ وأسوأُ الكذب فهو تعمّدُ الكذبِ وصرفٌ للحقائق عن وجهها

الإفكُ أبلغُ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل: هو البُهتان، لا تشعرُ به حتّى يَفْجَأكَ[4]، والإفكُ أشدُّ وأسوأُ الكذب والاختلاق[5]؛ فهو تعمّدُ الكذبِ الّذي يقلبُ الحقائق، وأصله الانقلاب، وقيل للكذبِ إفكٌ؛ لأنّه يُغيّرُ الواقعَ ويقلبُ الحقيقةَ، ويصرفها من الحقّ إلى الباطل[6]، فالإفكُ يُستعملُ في التّلبيسِ والشّرّ وقلبِ الحقائق، وفي الاستعمالِ القرآني أُطلق الإفكُ على الكذبِ الفاحشِ القبيح، مِثْلِ الكذبِ على اللّه ورسوله، ومِثْلِ قذفِ المُحْصَنات[7]، بينما الكذبُ هو خلافُ الصّدق[8]، والإخبارُ بخلافِ الحقيقة والواقع، فالكاذبُ هو الّذي يخبرُ بخلاف ما هو عليه في الواقع[9]، ومن هنا ناسبَ استعمالُ الإفكِ السّياق في الآية؛ لأنّ السّياقَ تحدّث عن أعظمِ الذنوبِ وهو الإشراكُ

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (خلق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنع).
(3) الرّاغب: المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (صنع).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 160.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 19/ 69، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11541، ومَجْمَع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 429.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أفك)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 101.
(7) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 45، والبَغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 392.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كذب).
(9) مَجْمَع اللّغة العربيّة في القاهرة، المعجم الوسيط: (كذب).

باللّه، واختلاقُ عبادةِ الأوثان، وهذا درجته أشدُّ وإثمهُ أعظمُ من مجرّد الكذب.

الشّكر والحمد:

عبّر البيانُ القرآنيّ بالشّكر دون الحمد في قولِه تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾، ولم يقل: (واحمدوا له)؛ كونه أنسبَ للسّياق الّذي يتحدّث عن الرّزق ووصول النّعمة للمرزوق، إذ الشّكرُ يختصّ بما كان مقابلَ نعمةٍ معيّنة مُسداة، فهو عبارةٌ عن تعظيم الفاعل لأجلِ إنعام وصلَ إليه[1]، ويكون باللسانِ والجوارحِ والجَنان[2]، كما أنّ الشّكرَ ضِدّ الكفر[3]، وليس كذلك الحمد، إذ الحمد ثناءٌ على المحمود بجميل صفاته، سواء تعلّق بالفضائل مثل كونه سبحانه عليمًا حليمًا حكيمًا، أم بالإفضال كالرّزق والإنجاء والإغاثة، ويمكن أنْ يكون المقصود بالشكر عبادته سبحانه وحده، أي: واعبدوه ولا تكفروا به، والسّياقُ هنا يدلّ على ذلك؛ فالآياتُ السّابقة تتحدّث عن توبيخِ المشركين لأنّهم يعبدون أوثانًا من دون اللّه، فناسبَ استعمالُ لفظِ الشّكرِ تأكيدَ إيمانهم وعدمَ كفرهم باللّه، وأن يكون شكرُهم له سبحانه منوطًا بما خوّلهم به من النّعم العظيمة.

الشكر ما كان مقابل نعمةٍ مُعيّنة، فهو أخصُّ من الحمد الّذي هو ثناءٌ على المحمود بجميل صفاته

(1) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/ 19.

(2) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: 1/ 450.

(3) الشّاطِبيّ، الموافقات: 4/ 220، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 39.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾ [العنكبوت: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيانِ التّوحيد أعقَبَ بالتّهديد

لَمّا فرَغَ إبراهيمُ مِنْ بيانِ التّوحيدِ، وإرشادِ قومِه إلى الدّين الحقّ، والتّنفيرِ من عبادة الأوثان ببيانِ تفاهتِها وحقارتِها وعجزِها، أتى بَعْدَه بالتّهديدِ؛ فحذّرهم من تركِه، وهددَهم بما حلَّ من الهلاك بمَن قبلَهم من المكذّبين للرّسل، فقال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَمٞ﴾: (أمّ) أصلٌ واحدٌ يتفرّعُ منه أربعة أبوابٍ متقاربة؛ وهي الْأَصْلُ والْمَرْجِعُ والْجَماعَةُ والدّينُ، وهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ مُتَقارِبَةٌ[2]، والأمّةُ: الجماعةُ من النّاس يجمعهم أمرٌ ما؛ دينٌ أو زمانٌ أو مكانٌ واحد، سواءٌ كان ذلك الجامعُ اختياريًا أم قهريًا، وجمعها أُمَمٌ[3]، والأُمَّةُ: القَرْن مِنَ النّاسِ؛ يُقالُ: قَدْ مَضَتْ أُمَمٌ، أي: قُرونٌ، وأُمَّةُ كُلِّ نَبيٍّ: مَن أُرسِل إليهم مِنْ كافرٍ ومؤمنٍ، والأُمّة: كلُّ قوم في دينهم من أُمّتهم[4]، والمراد بالأمم في الآية، الأقوامُ السّابقون للرّسلِ السّابقين، كقوم شيثٍ وإدريسَ ونوحٍ وغيرِهم[5].

2) ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾: (بلغ) أصلٌ يدلُّ على الوصول إلى الشّيء[6]،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 39، والمَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 125.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمّ).
(3) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (أمم).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(5) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 24.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلغ).

والإبلاغُ والتّبليغُ: الإيصالُ، وتَبَلَّغَ بِالشّيْءِ: وصَلَ إلى مُرادِه[1]، والبَلاغُ: الكفايةُ[2]، والانتهاءُ إلى أقصى المقصدِ والمنتهى[3]، وبلَّغَ النّاسَ بالخبر: أوْصله إليهم، وأعْلَمهم به، وأنهاه إليهم[4]، ومعنى ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللّغوي، أي: إنّ مهمّةَ الرّسول ﷺ إيصالُ ما يريده اللّهُ تعالى إلى النّاس وإعلامهم به على الوجهِ المطلوب الكافي.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تهديدٌ للمكذّبين بـحـالِ مَـنْ سبـقَـهُـم مِـنَ الأممِ

هدّدَ إبراهيمُ عليه السلام قومَه بما حلَّ بمَنْ قبلَهم من المكذّبين للرّسل فقالَ لهم: إنْ تُكذِّبوني فيما أخبرتُكم به من أنَّكم إليه تُرجعون بالبعثِ فلا تضرونني بتكذيبكم، فإنَّ مَنْ قَبْلَكم من الأمم قدْ كذَّبوا مَنْ قَبْلي مِنَ الرُّسلِ، وهم شيثٌ وإدريُس ونوحٌ عليهم السلام فلم يضرَّهم تكذيبُهم شيئًا، وإنمّا ضرَّ أنفسَهم حيثُ تسبَّبَ لهم ما حلَّ بهمْ منَ العذابِ، فكذا تكذيُبكم، وما عَلَيَّ إلا التَّبليغُ الّذي لا يبقى معه شكٌّ، وما عَلَيَّ أنْ تُصدّقوني أو لا تُصدّقوني فقد خرجتُ من عُهدةِ التَّبليغ[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾:

هي إمّا عاطفةٌ تُـتَـمِّـمُ قـولَ إبـراهـيـمَ أو اعتراضيّةٌ تُهدِّدُ المشركين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ما سبقَ مِنْ كلام إبراهيمَ عليه السلام لقومِه، أيْ: هذه الجملةُ من بقيّةِ مقالةِ إبراهيم[6]، بأنْ يكون رأى منهم مخايِلَ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (بلغ).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (بلغ).
(3) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بلغ).
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 34، والمَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 125.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 415.

التّكذيبِ ففرَضَ وقوعَه، أو يكون قد سَبَقَ تكذيبُهُمْ إيّاهُ مَقالَتَهُ هذه، فيكونُ الغَرَضُ مِنْ هذه الجملةِ لازِمَ الْخَبَر، وهوَ أنَّ تَكْذيبَهُمْ إيّاهُ ليسَ بِعَجيبٍ فلا يَضيرُهُ ولا يحسَبوا أنّهم يَضيرونَه به ويَتَشَفَّون منه، فإنّ ذلك قدِ انتابَ الرّسلَ قبلَه مِنْ أممهم.

ويجوزُ أنْ تكونَ الواو اعتراضيّةً، والجملةُ معترضةً بين كلام إبراهيمَ وجوابِ قومه المقدّر، وهي مِنْ كلامِ اللّهِ الموجَّهِ إلى المشركين؛ التفتَ به من الغَيبة إلى الخطاب تسجيلًا عليهم، والمقصودُ منه بيانُ فائدةِ سَوق قصّة نوحٍ وإبراهيم، وأنَّ للرّسول ﷺ أسوةً برسلِ الأممِ الّذين قَبْلَه، وخاصّةً إبراهيمَ جَدَّ العرب المقصودين بالخطاب على هذا الوجه[1].

الغرض من التّعبير بأسلوب الشّرط:

التّكذيبُ هو المتوقَّعُ مِنْ قومِ إبراهيمَ أو قومِ النّبيّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ يفيد الشَّرطُ وفعله ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ مع جوابه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ أنَّ التّكذيبَ هو المتوقَّعُ مِنْ قومِ إبراهيمَ أو قوم النّبيّ ﷺ فلا غرابة؛ لأنَّه أصبح في الأمم المشركة كالسّنّةِ الجاريةِ، وكأنهم يتواصَون به، فقد كذَّبَ مَنْ قبلَهم، ويمكن أنْ يكونَ المرادُ أنّ حالكم في تكذيبكم كحالِ الأمم الّتي قبلكم الّذين لم ينفعهم تكذيبُهم شيئًا فقد نالوا جزاءهم عندما حلَّ بهم عذابُ اللّه.

سِرّ التّعبير بأداة الشّرط (إنْ) دون (إذا):

الشّكّ والتّقليل في تحقّق تكذيب كفّار قريش للرّسول ﷺ إطماعًا لهم بالإيمان

استعملَ النّظم الحكيم (إنْ) دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾؛ لكون (إنْ) تدلّ على الشّكّ والتّقليل في تحقّق الوقوع، بخلاف (إذا) الّتي تستعمل في معنى التّحقّق الغالب، وفائدةُ ذلك إيماءٌ لمشركي مكّة بأنّ تكذيبهم أمرٌ غير مُتحقِّقٍ، بل هو مشكوكٌ في حصوله ووقوعه منهم، وفي هذا

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 670، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226 - 227.

تلميح وإطماعٌ لهم بالإيمان بما جاءهم به رسول اللّه ﷺ، أو أنه إشعارٌ بما سيكون منهم في المستقبل أي بأن بعضًا منهم سيكون من المؤمنين، وخاصّةً أنّ السّياق في التّحذير من الكذب والتّخويف من مصير من كذّبوا قبلّهم.

سِرُّ إيثارِ التّعبير بصيغة التّكذيب في الآية:

التّكذيبُ يتناسبُ مع عنادِ الكافرين وتجرُّئهم على رسلهم

عَبَّرَ البيانُ الحكيمُ بصيغة التّكْذيبِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ﴾؛ مناسبةً للسّياق الّذي يتحدّث عن قولِ إبراهيم لقومه ومحاجّتِه لهم، وتكذيبِهم له، وعِنادِهم وتجرُّئِهم عليه ومجاهرتهم بالتّكذيب وعدم تصديقهم بما جاء به من التّوحيد؛ وكذلك يتحدّثُ عن نوحٍ وقد عانده قومه وكذّبوه فأخذهم الطّوفان، والكذبُ لا يقعُ إلا في الخبر[1]، والتّكذيبُ هو نسبةُ الغير إلى الكذبِ[2] تهمةً أو افتراءً أو إنكارًا، كأنّهم قالوا لرسلهم في جُرأةٍ: (كَذَبْتَم)؛ لأنّ مَعْنَى كَذَّبْتَه، قلتَ لَهُ: كَذَبْتَ، وأَخْبَرْتَ أنّه كاذبٌ[3]، وكذلك للدّلالةِ على سوءِ حالِ قوم إبراهيمَ أو حالِ المشركين وشدّةِ عِنادهم والجرأةِ في الباطل.

سِرُّ استعمال المضارع ﴿تُكَذِّبُواْ﴾:

استمرارُ الكافرين في التّكذيب وتجدّده منهم دليلُ استكبارهم وعنادهم

التّعبير عن فعلِ التّكذيب بصيغةِ المضارع يدلُّ على استمرارِ قوم إبراهيمَ في نسبةِ الكذبِ عليه، أو استمرارِ المشركين في نسبةِ الكذبِ على الرّسول محمّد ﷺ وتجدّد ذلك منهم، فكلّما أمرهم الرّسول بشيء ممّا أوحي إليه من الشّرائع والأحكام كذّبوه، وهذا يدلّ على إصرارهم واستكبارهم وعدم إيمانهم.

دلالةُ الخطاب في الفعل ﴿تُكَذِّبُواْ﴾:

يُحْتَمَلُ أن يكونَ المرادُ بالخطاب في الفعل ﴿تُكَذِّبُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ﴾ قومَ إبراهيم عليه السلام تذكيرًا لهم

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 43.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كذب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (كذب).

تعدّدُ احتمالات اللفظِ إثراءً للمعنى

بقوم شيثٍ وإدريسَ ونوحٍ وغيرِهم ممّن كان قبلهم؛ فقد خاطَبَهم مُبيّنًا لهم أثناء حواره معهم عدمَ اكتراثه بتكْذيبِهِمْ إيّاهُ، وأنّ ذلك لا يَضيرُهُ، وإنّما يَضُرّون أنفسهم، فقد حلّ بسلفِهم ممّن كذّب الرّسل العذابُ المهين، ويُحتَمَلُ أنْ يكونَ المرادُ كفارَ مكّة؛ فقدْ كذّبوا محمّدًا ﷺ بالعذاب وبالبعث[1]، والخطابُ موجّهٌ من اللّه لهم في أثناءِ قصّة إبراهيم عليه السلام على سبيلِ الاعتراض؛ تسجيلًا عليهم، وبيانًا أنّ لرسوله ﷺ أسوةً برسلِ اللّه قبله، وخاصّةً جدّ العرب إبراهيم عليه السلام[2]، وتسليةً للنّبيّ ﷺ بأنّ أباه إبراهيم عليه السلام كان مبتلى بنحو ما ابتلي به من شركِ قومه وعبادتهم الأوثان[3].

سِرّ استعمال (الفاء) و(قد):

تحقيقُ وقوعِ تكذيبِ الأممِ السابقة لرسلهم

(الفاءُ) في ﴿فَقَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ رابطةٌ لجواب الشّرط الّذي هو ﴿كَذَّبَ أُمَمٞ﴾؛ لاقترانها بـ(قد)، ويمكن أن يقال: إنّ جوابَ الشّرط محذوفٌ، والتقدير: فلا يَضُرُّني تكذيبكُم فقد كذّب أمم من قبلكم أنبياءَهم ورسلهم[4]، وتكون (الفاءُ) و(قد) وما بعدهما تعليلًا للجوابِ في الحقيقة[5]، لأنّه لا يصحُّ أنْ يكون جوابُ الشّرط في الآية ماضيًا.

وحرفُ (قد) في الآية يُفيدُ التّحقيقَ؛ إذا دخل على الفعل الماضي ﴿كَذَّبَ﴾؛ أي: يُفيدُ تحقيقَ وقوعِ الخبرِ، وهو تكذيبُ الأمم السّابقة لرسلهم، وحلولُ العذاب بهم، بما يُفْهَمُ منه عدمُ مبالاةِ إبراهيم بتكذيبِ قومه له؛ لأنّه قد تحقّق تكذيبُ الأمم السّابقة لرسلهم، ولم يضرَّهم ذلك شيئًا، ولن يضرَّه.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 20.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226 - 227.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 670.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 415.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 350.

فائدةُ حذفِ المفعول:

إيجازٌ بلاغيٌّ يجعلُ القرآنَ حمّالًا لمعانٍ عدّة؛ تدلُّ على ثراء النّص القرآنيّ

في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعول ﴿تُكَذِّبُواْ﴾ ومفعول ﴿كَذَّبَ أُمَمٞ﴾؛ اختصارًا واكتفاءً بدلالةِ ما قبْلَه عليه؛ إذ الآيةُ إمّا أنْ تكونَ من تتمّةِ خطابِ إبراهيم لقومه، والتقديرُ: وإنْ تكذّبوني فقد كَذَّبَ أممٌ من قبلكم رسلَهم[1]، أو أن تكون مِنْ خطابِ اللّه لمشركي قريش؛ لبيانِ فائدة سَوْقِ قصّة نوح وإبراهيم، والتقديرُ: وإنْ تُكذّبوه - أيْ: تكذّبوا رسولَ اللّه محمّدًا ﷺ - فقد كَذَّبَ أممٌ من قبلكم رُسُلَهم، وخاصّةً نوحًا وإبراهيمَ[2]، ومِنْ جماليّة الحذفِ هنا مع الاختصار أنْ يجعلَ الآيةَ تحتملُ أكثرَ من معنى، ممّا يجعل القرآنَ حمّالًا لمعانٍ تدلُّ على ثراءِ النّصِ القرآنيّ.

سِرُّ اختيارِ التّعبير بقوله ﴿أُمَمٞ﴾ مسندًا إليه:

مبالغةٌ في تهديدِ إبراهيم لقومه، أو تهديدِ الله للمشركين وعدمِ الاكتراثِ بهم

اختارَ النّظمُ الحكيمُ لفظَ ﴿أُمَمٞ﴾ دون غيره كالأقوام في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾؛ مبالغةً في تهديدِ قومِ إبراهيم أو المشركينَ، وبيانِ عدم اكتراثِ إبراهيم بتكذيبِ قومِه له، أو عدم الاكتراث بتكذيبِ المشركين للنّبيّ ﷺ رغم كثرةِ المكذّبين؛ لأنّ لفظَ (الأمّة) أعمُّ مِنَ القوم والجماعة، ويدلُّ على الكثرةِ؛ فالأمّةُ: القَرْن مِنَ النّاسِ، والأمم: القرون، فتشملُ كلّ من كذّب مِنَ الأمم من القرون السّابقة، ولا يختصُّ بالرجالِ، أو بشيعةِ نبيّ خاصّ وعشيرته، يقول البِقاعيُّ: "فقد كذَّبَ أممٌ في الأزمانِ الكائنة من قبلكم كثيرةٌ"[3] فكان هذا اللفظ أنسبَ للسياق الّذي يتحدّث عن أمم كثيرةٍ.

الغرض من تنكيرِ المسند إليه في قوله ﴿أُمَمٞ﴾:

التَّنكيرُ في لفظِ ﴿أُمَمٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ﴾ يفيدُ

(1) الإيجيّ، جامع البيان في تفسير القرآن: 3/ 247.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 414.

كثرةُ المكذّبين لا تضرُّ المرسلين وفيها إقامةُ الحجّة على المخاطبين

الكثرةَ، أي: كذّبتْ أممٌ كثيرةٌ كعادٍ وثمودَ وقومِ نوحٍ وغيرِهم، ممّا يكون فيه زيادةٌ في إقامةِ الحجّة على المخاطبين، فإنّ هذه الأمم رغمَ كثرتها جرى الأمرُ فيهم على سَنَنٍ واحدٍ لم يختلفْ قطُّ في نجاةِ المطيعِ للرّسول وهلاكِ العاصي له، ولم يضرَّ ذلك برسولهم شيئًا وما ضرّوا به إلا أنفسَهم[1]، كما أفادَ التّنكيرُ الإبهامَ؛ إذ لم يُذكَرْ مَنْ هي الأمم الّتي كذّبتْ؛ تحقيرًا لهذه الأمم المكذِّبة بعدم تعيينها، وإنّما وصَفَها بصفةِ التّكذيب وأنّها أممٌ سابقة.

دلالة الحرف الجارّ ﴿مِّن﴾:

دائرةٌ بينَ التّأكيدِ والابتداءِ والتّبعيضِ

﴿مِّن﴾ في قوله ﴿أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ حرفُ جرٍّ، يحتملُ أنْ يكونَ للتّأكيدِ، أيْ تأكيدِ تكذيبِ الأمم السّابقةِ لرسلهم، وهم شيثٌ وإدريسُ ونوحٌ عليهم السلام، والمعنى: ولقد كذَّبَ أممٌ قبلَكم، أو أنْ يكون للابتداءِ، والمعنى: ولقد ابتدأ أممٌ قبلكم بتكذيبِ رسلِهم، أو للتّبعيض، والمعنى: كذَّبَ أممٌ مِنْ بعض مَنْ كان قبلَكم.

سرّ التّعبير بالظّرفيّة المضافة ﴿قَبۡلِكُمۡۖ﴾:

التّصريحُ بالقَبْليّةِ لتأكيدِ الإخبارِ بتكذيبِ الأممِ السّابقة لرسلهم

عبّرَ النّظمُ الحكيمُ بالظّرفيةِ المُضافةِ ﴿قَبۡلِكُمۡۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾؛ لأنّ في التّصريح بالقَبْليّةِ مبالغةً في تأكيدِ الإخبارِ بتكذيبِ الأمم السّابقةِ لرسلها؛ لأنّ العلمَ بالحدث في الزمانِ، وبالقربِ في المكانِ أتَمُّ في التّأثير[2].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

مراعاةُ سياقِ الآياتِ في تمامِ معنى الخطاب جزءٌ مهمٌّ من بلاغةِ القرآن

التّشابه اللّفظيّ قائمٌ بين آية سورة العنكبوت هنا ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ وآية سورة فاطر، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [فاطر: 25]، فقد عبّر البيانُ القرآنيُّ بصيغةِ الخطاب المباشر للكافرين في العنكبوت

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 414.

(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 76.

﴿تُكَذِّبُواْ﴾؛ لأنَّ الآيةَ جاءتْ في سياقِ ذِكْرِ قَصصِ الأنبياء مع أقوامهم، وسياقِ قصّةِ إبراهيمَ مع قومه، وخطابه لهم، وهو سياقُ مخاطَبَةٍ ومحاوَرةٍ، ومِن ثَمّ احتملَ أنْ يكون الخطابُ من إبراهيم لقومه؛ تتميمًا لهذا الخطاب، أو من الله للمشركين على سبيلِ الاعتراض؛ توبيخًا للمشركين، وتسليةً للنّبيّ ﷺ وأمّا في آيةِ فاطر: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر: 25] فقد خاطبَ القرآن النّبيّ ﷺ بقوله ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ [فاطر: 25]، لأنّ الآيات السّابقة هي في سياقِ خطابٍ للنّبيّ ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [فاطر: 22 - 24] فلذلك وُجِّهَ الخطابُ في الآية للنّبيّ ﷺ، توحيدًا للخطاب، ولم يكن هناك احتمالٌ آخرُ، وللسّببِ ذاتِه - وهو كونُ السّياقِ في آيةِ العنكبوت عن الأنبياء وأممهم، وما دار بينهم مِنْ محاوراتٍ - عُبِّر بلفظِ ﴿أُمَمٌ﴾، وأمّا في آيةِ فاطر فعُبِّر بلفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ [فاطر: 25]، إضافةً إلى ذلك فإنّ آية فاطر سَبقتْ كلمةُ الأمّة في الآية الّتي قبلها ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ [فاطر: 24]، ومنْ ثَمَّ لم تُذكرْ في هذه الآية تَفَنُّنًا في الكلام.

معنى الواو في قوله ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾:

الواو بين الحاليّة والاستئنافيّة والعاطفة

تحتملُ (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أنْ تكونَ حاليّةً، والمعنى: وإنْ تكذّبوا أو تكذّبوني فقد كذّب أممٌ من قبلكم، والحالُ أنّ رسلهم بلّغوهم الرسالةَ على الوجه الكافي المطلوب[1]، أو استئنافيةً والجملة بعدها مستأنفةٌ مبيِّنةٌ أنّ مهمّةَ الرسولِ ﷺ هي البلاغُ فحَسْب، وأنّه بذلك خرجَ من العُهدةِ، وقد غدتْ كالمثلِ يُضربُ للتّشديد والوعيد فيمن خالف، أو عاطفةً،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 415.

والجملةُ الاسميّة معطوفة على الجملة الشّرطيّة ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْۖ﴾[1]؛ لتفيدَ إعلامَ المخاطبين بأنّ تكذيبهم لا يَلْحقُ إبراهيمَ أو النّبيَّ ﷺ ما فيه تشَفٍّ منه، إذ لا يضرّونه وإنّما يضرّون أنفسهم؛ لأنّ مهمَّتَه مقصورةٌ على تبليغهم لا هدايتهم[2].

دلالة النَّفي بـ(ما):

مبالغةٌ في نفي كـون مـهـمّـةِ الـرسـول غـيرَ التّبليغ عن الله

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ نافيةٌ؛ وهي من الألفاظ الّتي لها الصّدارة في الكلام، وقد ألغتْ في الآية الاستثناء في (إلا)؛ ليصبحَ المعنى: (على الرسول البلاغ فحسب) وقد آثرَ البيانُ القرآنيّ النفيَ بـ(ما) دون غيرها من أدواتِ النّفي؛ لِقوّة النَّفي بها؛ إذْ إنّها آكدُ من (ليس) و(لم) و(لا)، كما أنّ النَّفْيَ بها نَفْيٌ مؤكّدٌ قاطعٌ؛ لأنّه نفيٌ في الماضي والمستقبل، إذْ إنّ (ما) تُستخدم لِنَفْيِ كلٍّ من الفعل الماضي والمضارع على حدٍّ سواء، ومن ثَمّ فإنّ استعمالَ هذه الأداة في الآية يدلُّ على المبالغة في نفي كون مهمّة الرّسول غيرَ التّبليغ عن الله لا في الماضي ولا في المستقبل، ومِن ثَمّ تفيدُ المبالغةَ في القَصْر.

دلالة الحرف الجارّ ﴿عَلَى﴾:

استعلاءٌ مجازيٌّ فـائـدتـه وجـوب التّبليغ على مَن كُلِّفَ به

حرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ يفيد الاستعلاء والإلزام عمومًا، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ استعلاءٌ مجازيٌّ كُنّيَ به في الآيةِ عن الإلزام والوجوب، والمقصودُ من الآية: وجوبُ التّبليغ على الرسول، كما أنّ الاستعلاءَ هنا يفيدُ تَخيُّلَ نزولِ الأمر من الله على الرّسول ﷺ وقد تمكّنَ منه وتلبَّسَ بِهِ، ولا يستطيعُ التّخلّيَ عنه أو الانفكاك منه، وهذا النّزولُ من عُلوٍّ يخلعُ على هذا البلاغ لباسَ المهابة؛ لتَتَهيّأ النّفوسُ لتَقبُّلِه والعملِ به.

---

(1) الهَرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 380.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 227.

سِرّ العدول عن صيغة إلى صيغة:

التّنويه إلى ما يفيده عنوان مصطلح (الرّسول) من وجوبِ التّبليغِ الواضحِ

عَدَلَ النّظمُ الكريم عن صيغة الإضمار (وما عليَّ) أو (ما عليه)؛ إلى صيغة الإظهار ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾، وذلك تنويهًا إلى ما يفيده عنوان مصطلح ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ ولفظه؛ بأنّ واجبَه إبلاغُ ما أُرْسِلَ به بَيِّنًا واضحًا، سواءٌ كان القول من كلام إبراهيم عليه السلام أو كان الكلامُ خطابًا من الله لمشركي قريش، والرسولُ هو محمّدٌ ﷺ فيكون العدولُ عن الإضمار إلى الإظهار تأكيدًا على وصفه بالرّسالة الّتي تقتضي منه التّبليغ الواضح فهو عنوانها، وذلك رغم كونه معلومًا من المقام وأنه قد غَلَبَ ذكرُه في القرآن بهذا الوصف[1].

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾:

البلاغُ واجبٌ على الرّسول المعهود في الخطاب وعلى كلّ رسول

(أل) التعريفِ في كلمة ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ عهديَّةٌ، معهودُها ذِكْريٌّ، إنْ كانَ إبراهيمُ عليه السلام هو المقصودَ، إذِ الآياتُ كلّها حديثٌ عنه وعن قومه، أو أنّ معهودَها ذِهْنيٌّ، إنْ كان النّبيُّ محمّدٌ ﷺ هو المقصودَ، إذْ قد غَلَبَ عليه هذا الوصف في القرآن، ولأنّ مقصودَ القرآن من سَوْقِ قصّة إبراهيم عليه السلام تسليةُ قلبِ النّبيِّ محمّدٍ ﷺ[2]، ويحتملُ أنْ تكونَ (أل) جِنسيّةً[3]، أي لاستغراق جنس الرّسل، إذِ البلاغُ وظيفةُ كلّ الرّسل، ويدخلُ إبراهيم عليه السلام والنّبيُّ محمّدٌ ﷺ في هذا العموم دُخولًا أوّليًّا.

بلاغةُ التّعبير بالقصر:

توكيدُ حَصْرِ مهمّةِ الرّسول تجاهَ قومه في التّبليغ إذ لا يسعهُ التّخلّي عنها

القَصْرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ هو قصرٌ بالنَّفي والاستثناء، والغرضُ البلاغيّ منه هو توكيدُ حَصْرِ مهمّةِ الرّسول ومسؤوليّته تجاهَ قومه في التّبليغ، ونفي أنْ تكونَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 227.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 227.
(3) الإيجيّ، جامع البيان في تفسير القرآن: 3/ 274.

غيرَ ذلك، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ إذ الكلامُ حولَ مسؤوليّة الرّسول تجاه قومه في موضوعِ رسالته، ولا يدخلُ هذه الدّائرة الخاصّة ما يجبُ على الرّسول من واجباتٍ أخرى، فمهمّتهُ إيصالُ الرّسالة إلى المكلَّفين على الوجهِ الكافي المطلوب، وليس عليه هِدايةُ الخَلْق، فهي للّه، وكذا حسابُهم قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝٤٠﴾ [الرعد: 40][1]، فإنْ لم يطيعوه فلا يضرّون إلا أنفسهم، أي ما عليه إلا أنْ يبلِّغهم عن اللّهِ رسالته، ويؤدّي إليهم ما أمَره بأدائه ربُّه[2]، وهو قصرٌ غير حقيقيّ؛ لأنّ على الرسول أمورًا أخرى غيرَ البلاغ، كالجهاد وقيام الليل والتعبّد للّه تعالى وغير ذلك[3].

سِرّ إيثارُ التّعبير بلفظ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾:

لـلـدلالـة على بـلـوغِ الرّسـول غايةَ وُسْعِه في إيصالِ الرّسالة عـلى الـوجـهِ الكافي

عبّر البيانُ القرآنيّ بلفظ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ لدلالته على بلوغِ الرّسول غايةَ وُسْعِه في إيصالِ ما يريده اللّهُ من عباده على الوجهِ المطلوب الكافي دون زيادةٍ أو نقصانٍ أو تحريفٍ أو تغيير؛ إذ البلاغُ في اللّغة الكفايةُ[4]، وهو الانتهاءُ إلى أقصى المقصدِ والمنتهى[5]، يقال: بلَّغَ النّاسَ بالخبر: أوْصله إليهم، وأعْلَمهم به، وأنهاه إليهم[6]، ومِنْ ثَمّ يقطعُ عنهم الاعتراض ويُلزمهم الحجّة، وكذلك فإنّ هذا التّعبير مناسبٌ للسّياق الّذي يتحدّث عن رسلٍ بَلَّغوا الغايةَ في الدّعوة إلى اللّه كنوحٍ وإبراهيمَ وغيرِهم.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في قوله ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾:

أطلقَ البيانُ الحكيم لفظَ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ وأراد التّبليغ، فعبّر باللّازم

(1) ابن عُثَيْمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 73.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 20.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 61.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (بلغ).
(5) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(6) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بلغ).

الّذي هو البلاغُ عن الملزوم الّذي هو التّبليغ، وهذا مجازٌ مرسلٌ علاقتُه اللّزوميّة، والغرضُ منه التركيزُ على الغايةِ وهي البلاغ؛ استغناءً به عن وسيلته الّتي هي (التّبليغ)، ومن ثَمَّ الإشارةُ إلى أمانةِ الرّسول فيما يبلّغه، وأنّه مؤتمنٌ عليه، وسيوصله كما تلقّاهُ عن ربِّه سبحانه بكمالٍ وعصمة، وقد ورد في جميع القرآن الكريم اسم المصدر (بلاغ)، ولم يرد المصدر (تبليغ)؛ لأنّ من عادةِ القرآنِ أنْ يذكر من الألفاظ ما يغني استعمالُها عن غيرها، كما هو الحال في لفظَي (البلاغ) و(التّبليغ)، كما أنّه يذكر الاسم من غير أنْ يذكر فعلَه لَفْظًا أو تقديرًا.

في التّركيزِ على الغاية (البلاغ) استغناءٌ عن الوسيلة (التّبليغ) لدلالة الأولى على الثانية

سِرُّ وصف ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾ بـ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾:

وصَفَ القرآنُ الكريمُ البلاغَ المكلَّفَ به الرّسولُ بأنّه مبينٌ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ للتأكيدِ على وضوحِ هذا البلاغ بحيث لا يبقى معه شكٌّ أو شبهةٌ؛ لأنّه ربّما يكون من البلاغ ما هو مجرّدُ عرضٍ للمسألة دون تأكيدٍ وإظهارٍ للحجّة الّتي تؤيّدُ البلاغ[1]، ولأنّ البيانَ في اللّغة: إظْهارُ المَقْصودِ بأبلغِ لفظٍ[2]، ومن ثَمَّ فهو بلاغٌ ظاهِرٌ بَيِّنٌ لا شُبهةَ فيه، بِحَيْثُ لا يَخْفى على أحَدٍ مِنَ العُقَلاءِ، ولا يبقى معه أيّةُ حجّةٍ يتعلّلُ بها المُبَلَّغون، ولا يبقى معه أيُّ لومٍ للرّسول؛ فقد خرجَ بهذا التّبليغ المبين عن عُهدةِ التَّبليغ بما لا مزيدَ عليهِ فلا يضرُّه بعد ذلك تكذيبُ قومِه الكافرين، وما عليه إنْ لم يُصدِّقوه البتَّةَ[3]، كما أنّ دلالةَ ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ من حيث الصيغةُ؛ تدلُّ على كمال وضوحِ هذا البلاغ؛ لأنّه يحتملُ أنْ يكون لازمًا من (بانَ) بمعنى ظَهَرَ؛ فهو ظاهرٌ في نفسه لا غموضَ فيه من حيث ألفاظُهُ ومعانيهِ، أو أنْ يكون مُتعدّيًا من (أبانَ) بمعنى أظْهَرَ؛ فهو مُبَيِّنٌ

إزالةٌ للشّبهة، وإظهارٌ للحجّة، وإيضاحٌ للمحجّة، ومِنْ ثَمَّ إلزامٌ للمُبَلَّغين

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11114.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بين).

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 34.

الْحَقَّ من الباطلِ والحلالَ من الحرام، ولكلِّ ما تقومُ به الحياة، يقول الطّبري: "ويعني بالبلاغ المبين: الّذي يُبيّن لمن سمعه ما يُرادُ به، ويُفهَم به ما يعني به"[1].

مجيءُ لَفْظَي ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ و﴿ٱلْمُبِينُ﴾ مُعَرَّفَين:

البلاغُ النّبويّ بلاغٌ بلغ الغايةَ في الإبانةِ والوضوحِ والتّوضيح

البلاغُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ مبتدأٌ مؤخَّرٌ جوازًا؛ لأنّه معرفة، وتعريفُه بالألفِ واللّام العهديّة، ومعهودها ذِهْنيٌّ، أي: البلاغُ المعهودُ المعروف، وهو ما أُمرَ الرّسول بتبليغه عن ربّه من غيرِ زيادةٍ أو نقصان، وهو هنا ما أوحى به اللّهُ لإبراهيم عليه السلام أو للنّبيّ محمّدٍ ﷺ وأمّا (أل) التّعريف في كلمة ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ فهي (أل) الكمالِ الّتي تفيدُ المبالغةَ في وصفِ الشّيء بالصّفة المذكورة، وتشيرُ إلى أنّ الموصوفَ قد استكملَ الصّفةَ وبلغَ نهايتها، أي: تُفيدُ هنا الكمالَ في الإبانة، فهو البلاغُ المبين الكامل الّذي بلغَ الغايةَ في الإبانة والوضوحِ والتّوضيح.

سِرُّ التّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلْمُبِينُ﴾:

مبالغةٌ في البيان والوضوحِ الّذي لا تبقى معه شبهةٌ

عبّر البيانُ القرآنيّ باسمِ الفاعل ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ دون المصدر، فلم يقل: البلاغُ البَيِّن؛ للدّلالةِ على المبالغةِ في بيانِ ثباتِ وضوحِ هذا البلاغ، فليس به نَوْعٌ من الخَفاءِ، وللدلالة على استمرارِ هذا الوضوح، وأنّ ملازمتَه للبلاغِ لا تتخلّف عنه، بما لا يدعُ حجّة لأحدٍ يبلغه؛ لأنّ اسمَ الفاعل يدلُّ على الثّبوتِ والدّوام، وخاصةً أنّه جاء في سياقِ جملةٍ اسميّةٍ تدلّ كذلك على الثبوتِ والدّوام.

الغرض من حذف متعلَّق الوصف ﴿ٱلْمُبِينُ﴾:

بلاغُ الرسول بلاغٌ مبينٌ في كلّ شيءٍ يتعلّق به

حذفَ البيانُ القرآنيُّ المتعلّقَ في ﴿ٱلْمُبِينُ﴾؛ لإفادة العموم، فهو بلاغٌ مبينٌ في كلّ شيء، فهو بَيِّنٌ في نفسه، ومُبَيِّنٌ لغيره في كلّ شيءٍ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 20.

يتعلّق به؛ سواءٌ في ألفاظه أو مضامينه، ولو قيّده بمتعلّقٍ لَحَدَّ هذا من عموم بيانه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّكذيب والكفر:

الكُفرُ ضدّ الإيمان وهو أعمّ من التّكذيب الّذي هو ضدّ التّصديق

الكفرُ أعمُّ من التّكذيب، فالكذبُ ضدّ الصّدق[1]، والتّكذيب: هو ضدّ التّصديق، والكاذبُ هو الّذي يخبرُ بخلافِ ما هو عليه في الواقع[2]، وأمّا الكُفْرُ فهو ضِدُّ الْإيمانِ، فهو تَغْطِيَةُ الْحَقِّ، وجُحودُ النِّعْمَةِ، وهوَ ضِدُّ الشّكْرِ[3]، والكافرُ يُقال فيمن يجحدُ الوحدانيّة، أو النّبوّة، أو الشّريعة، أو ثلاثتها[4]، فمن كذّب النّبيّ ﷺ فهو كافر[5]، وقد ناسبَ هنا التّعبير بالتّكذيب دون الكفر - مع أنّ تكذيبهم بالرّسل هو كفرٌ - للتّركيز على عدمِ تصديقهم لِما جاء به النّبيّ ولِما أخبرهم به عن ربّهم، وأنّ هذا التّكذيب كان حالَ الأمم السابقةِ مع أنبيائهم، وفي هذا تسليةٌ للنّبيّ ﷺ.

الأمّة والقوم:

الأمّـةُ أعـمُّ مِنَ الـقـوم فهي كـلّ جماعة يجمعهم أمرٌ ما وتشملُ الرّجال والنّساء

الأمّةُ أعمُّ من القوم؛ فالأمّةُ هي الجماعةُ من النّاس يجمعهم أمرٌ ما؛ دينٌ أو زمانٌ أو مكانٌ واحد، سواءٌ كان ذلك الجامعُ اختياريًا أم قهريًا[6]، والأُمَّةُ هي القَرْنُ مِنَ النّاسِ؛ يُقالُ: قَدْ مَضَتْ أُمَمٌ أي قُرونٌ، وأُمَّةُ كُلِّ نَبِيٍّ: مَن أُرسِل إليهم مِنْ كافرٍ ومؤمنٍ[7]، بينما القومُ جماعةٌ من النّاس ولا يكون إلا للرّجال[8]، وربّما تدخله النّساءُ على سبيلِ التّبع، وسُمّوا بذلك؛ لأنهم قَوّامون على النِّساءِ بالأُمورِ الّتي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كذب).
(2) مَجْمَع اللّغة العربيّة في القاهرة، المعجم الوسيط: (كذب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(4) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كفر).
(6) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (أمم).
(7) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).

ليس للنِّساءِ أنْ يَقُمْنَ بها[1]، وقومُ كلّ رجلٍ: شيعتُه وعشيرته، وقد ناسبَ هنا التّعبير بالأمم دون الأقوام؛ لأنّ السّياق عامٌّ يدلّ على الكثرة، ويدخل فيه كلّ من كذّب من الأمم من القرون السّابقة، ولا يختصّ بالرّجال، أو بشيعةٍ وعشيرةِ نبيّ خاصٍّ، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الجامعَ بينهما هو تكذيبهم للرّسل.

(1) الزَّبِيديّ، تاج العروس: (قوم).

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩﴾ [العنكبوت: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا يصحُّ الإيمانُ إلا باجتماعِ أصوله من التّوحيد والرّسالة والحشر

لَمّا بيَّن اللّهُ تعالى الأصلَ الأوَّلَ، وهو: التَّوحيدُ، وأشار إلى الأصلِ الثّاني، وهو: الرِّسالةُ، بقولِه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ شرَعَ في بيانِ الأصلِ الثّالثِ، وهو: الحَشرُ، وهذه الأصولُ الثَّلاثةُ لا يَكادُ يَنفَصِلُ بَعضُها عن بعضٍ في الذِّكرِ الإلهيِّ؛ فأينَما يَذكُرِ اللّهُ تعالى منها اثنَينِ يَذكُرِ الثّالثَ[1].

ولَمّا كان التّقديرُ في الآيةِ السّابقة وعظًا من إبراهيمَ لقومِه وتهديدًا لهم بما حلَّ بالمكذّبين: ألمْ تروا إلى مصارعِهم؟ واتّساق الحال في أمرهم؟ فيكفيكم ذلك زاجرًا؛ ناسبَ أنْ يعطفَ على هذه الدعوة في التّفكّر في مصارعِ المكذّبين التّفكّرَ في آثارِ قدرةِ اللّه على الخلقِ للدّلالة على إثباتِ الرجوع إليه، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾[2].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُبۡدِئُ﴾: (بدأ) أصلٌ يدلّ على افْتِتاحِ الشّيْءِ، يُقالُ: بَدَأْتُ بالْأَمْرِ وابتَدَأْتُ، مِنَ الِابْتِداءِ، واللّه تَعالَى الْمُبْدِئُ والْبادِئُ[3]، هو الّذي أنشأ الأشياءَ واختَرعَها ابْتِداءً من غيرِ سابق مِثالٍ[4]، والبَدْءُ والابتداء: تقديمُ الشّيءِ على غيره ضربًا من التّقديم، وبَدَأ الشّيءَ: فعَلَه ابتِداءً، أي قَدَّمه في الفِعل، والبَدْءُ والبَديءُ: الأوَّلُ، ومَبْدَأُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 39، والصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1436.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 414.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدأ).
(4) ابن الأثير: النّهاية: (بدأ).

الشّيء: هو الّذي منه يتركّب، أو منه يكون[1]، ومعنى ﴿يُبۡدِئُ﴾ موافقٌ للمعنى اللّغوي، وهو الفعلُ الّذي لم يُسبَق إليه، فاللّهُ يَبْدَأُ الخلق: أي يخلُقهم ابتداءً من نطفةٍ، ثم من مُضغة إلى أنْ يتمّ الخَلْق[2].

2) ﴿يَسِيرٞ﴾: (يسر) أصلٌ يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وخِفَّتِه، والْيُسْرُ: ضِدُّ الْعُسْرِ[3]، والْيُسْرُ: السَّهْلُ اللَّيِّنُ الانقيادِ، واليَسارُ واليُسْرُ واليَسارَةُ والمَيْسَرَةُ: السّهولةُ والغنى والسَّعَة، والْيَسيرُ: الهَيِّنُ أو الْقَليلُ، يُقال: شيءٌ يَسيرٌ، أي هَيِّنٌ أو قَليل[4]، والمقصود بـ﴿يَسِيرٞ﴾ في الآية: السّهلُ والهيّن، والمعنى: إعادةُ الخلقِ على اللّهِ سهلٌ وهيّنٌ لا يتعذّر عليه ذلك، كما كان يسيرًا عليه ابتداؤه[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

آيـةٌ مـن آيـاتِ الحِجاجِ ولفتِ الأنظارِ إلى آثارِ قدرةِ الله الباهرة القاهرة

ذَكَرَ اللّهُ تعالى ما يدُلُّ على أنَّ البعثَ حقٌّ، وأنّه تعالى لا شيءَ يُعجِزُه، فكأنّ المعنى في هذا الخطاب القرآنيِّ هو: أوَلَمْ يَرَ أولئك المُشرِكونَ المُنكِرونَ للبَعثِ كيف يَبتدِئُ اللّهُ الخَلْقَ بعدَ العدَمِ، ثمَّ يُعيدُه مِن بعدِ فنائِه وبَلائِه مرَّةً أُخرَى؟ إنَّ ذلك على اللّهِ تعالى أمرٌ سَهلٌ، والّذي قَدَرَ على الإبداءِ قادِرٌ على الإعادةِ، وهو إذا أرادَ شَيئًا قال له: كُنْ؛ فيَكونُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهام في قوله ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾:

إنــكــارٌ على تكذيبِ الكافرين بـالـبـعـث مـعَ وضـوحِ دليلِه وسنوحِ سبيلِه

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ لإنكارِ عدمِ رؤيتِهم الموجبِ لتقريرِها[6]، نُزّلوا منزلةَ مَنْ لمْ يرَ فأنكرَ

(1) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بدأ).
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 403.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يسرّ).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (يسرّ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 25.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 6 - 7.

عليهم[1]، والتّقدير: ألم ينظروا ولم يعلموا علمًا جاريًا مجرى الرؤية في الجلاء والظّهور كيف أنّ اللّه تعالى خَلَقَ الخلق ابتداءً من مادّةٍ ومن غيرِ مادّة، أي: قد علموا[2]، ويمكن أنْ يُجعل الاستفهام للتّقرير، ويكون الإنكارُ تابعًا له متولّدًا عنه، أي: يقرّرهم اللّه تعالى برؤيتهم لِما ذَكَرَ، ثم يُنكرُ عليهم عدمَ جَرْيِهم على موجبِ علمهم؛ لأنّ المَقامَ يستدعى أنْ يكون الاستفهامُ في الآية للتّقرير؛ لأنّ الكلامَ مسوقٌ فيه للتّوقيف والإلزام، ولأنّ الهمزةَ مقدَّمة من تأخير، والأصلُ: وألم يروا، فدخلتْ همزة الاستفهام على (لم) فأزالتِ النّفي الواقعَ منها على فعل الرؤية، فصار المعنى إثباتًا[3].

دلالةُ التّعبير بلفظ الرؤية هنا:

تجدّدُ المخلوقات واضحٌ لكلّ ذي بصرٍ أو المعوّل عليه العلم لا مجرد البصر

الرُّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ قَلْبيَّةٌ عِلْميَّةٌ مُتعَدّيةً إلى مفعولَين، أنكر عليهم تَرْكَهم النَّظرَ والاستدلالَ الموصلَ إلى عِلم كيفيّةِ ابتداء اللّه الخلْقَ ثم إعادتِه؛ لأنَّ أدلَّةَ بَدْءِ الخلقِ تُفضي بالنّاظرِ إلى العِلم بأنَّ اللّهَ يعيدُ الخلْقَ، ويؤكّدُ كونها علميّةً أنّ طريقَ حصولِ هذا العلم هو التّأمُّل، وليس البصر، حتى وإنْ كان للبصرِ مدخلٌ هنا فالمعوّلُ عليه في حصولِ المعرفة في هذا الموضع ونظائره هو العقل[4]، ويجوزُ أنْ تكونَ بَصريّةً، والاستدلالُ بما هو مشاهَدٌ من تَجَدُّدِ المخلوقات في كلّ حينٍ بالولادةِ، وبروزِ النّبات دليلٌ واضحٌ لكلّ ذي بَصَرٍ[5].

توجيهُ القراءات الواردة في ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾:

المُخاطَبُ على القراءتين هو اللهُ مباشرة أو على لسانِ نبيّه إبراهيم عليه السلام

قَرَأَ بصيغةِ الخطابِ ﴿أَوَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكرٍ بخُلف عنه وخلف، لتشديدِ الإنكارِ وتأكيدِه[6]، والمخاطَبُ بذلك قومُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 228.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.
(3) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 225.
(4) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 225.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 228.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.

إبراهيم ﵇ أي إنّه أراد: معنى المواجهة بالخطاب لّما أنكروا البعثَ والنّشور، فقيل لهم: فإنكاركم لابْتداءِ الخَلْقِ أولى بذلك، فإمّا أنْ تنكروهما جميعًا أو تُقرّوا بهما جميعًا(1).

وقرأ الجمهورُ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ بياء الغائب(2)، والضميرُ عائدٌ إلى الّذين كفروا في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العنكبوت: 12]، أو إلى معلومٍ من سياقِ الكلام، على طريقِ الغَيْبَة والبلاغِ لهم(3).

وعلى القراءتين يحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ من جهةِ اللّه سبحانه وتعالى، أو مِنْ جهةِ إبراهيمَ ﵇، إلا أنّ قراءة الجمهور ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ تُرجّحُ أنْ يكونَ الخطابُ في هذه الآية من اللّه لا من إبراهيم، ومناسبةُ هذا الخطاب من اللّهِ للمشركين بعد كلام إبراهيم لقومه هو ما جرى من الإشارةِ إلى البعث في قوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ تنظيرًا لحالِ مشركي العرب بحالِ قوم إبراهيم(4).

بلاغة الالتفات من الخِطابِ إلى الغَيبةِ:

في الغَيبةِ إبعادٌ إلهيٌّ للمشركين عن شرَفِ الحضورِ أو إعراضٌ من إبراهيمَ عن قومه

قولُه تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ إذا لم يُعتبر خطابًا من إبراهيم لقومه، واعْتُبِرَ خطابًا مسوقًا من جانبِ اللّه تعالى إلى المشركين الّذين كفروا بالنّبيّ محمّد ﷺ فيكونُ ضميرُ الغائبِ في الآية اللّاحقة في قوله تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ التِفاتًا من ضمير الخِطابِ إلى ضمير الغَيبةِ؛ لنُكتةِ إبعادِهم عن شَرَفِ الحضورِ بعدَ الإخبارِ عنهم بأنّهم مُكَذِّبون(5)، أمّا إذا اعْتُبِرَ مسوقًا من جانب إبراهيم لقومه فيكون الالتفاتُ من ضمير خطابهم ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ

(1) ابن خالَوَيْهِ، الحُجّة في القراءات السَّبْع، ص: 279.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 670، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 343.
(3) ابن خالَوَيْهِ، الحُجّة في القراءات السَّبْع، ص: 279.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 227.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 227.

﴿فَقَدۡ كَذَّبَ﴾ إلى ضمير الغَيبة في ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ إعراضًا عنهم وتوبيخًا لهم.

مفهومُ الاستفهام في قوله ﴿كَيۡفَ يُبۡدِئُ﴾:

استفهامٌ مجازيٌّ للتَّنبيهِ ولَفْتِ النَّظرِ بقصدِ الاعتبارِ لا في طلَبِ الإخبارِ

الاستِفهامُ بـ﴿كَيۡفَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ ولَفْتِ النَّظرِ، لا في طلَبِ الإخبارِ[1]؛ لأنّ المراد بـ﴿كَيۡفَ﴾ هنا هو الكيفيّة الواقعة مفعولًا أوّلَ لـ﴿يَرَوۡاْ﴾، وهذا المفعولُ الأوّل سدَّ مسدَّ المفعولين لاكتفاء المعنى به والتّقدير: ألم يعلموا كيفيّة بَدْءِ اللّهِ الخلقَ، وهذا معنًى تامٌّ يحسنُ السّكوت عليه من المتكلّم والسّامع[2].

دلالةُ التّعبير بفعل البَدْءِ دون سواه:

لفتِ الانتباه إلى قدرة الله على الخَلْقِ من العَدَمِ، وأنّ مَن بَدَأ الخلق يعيدُه وهو أهون عليه

آثَرَ البيانُ القرآني استعمال لفظ البَدْءِ في قوله تعالى: ﴿يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ لأجل لفتِ الانتباه إلى معنى آخر إضافةً إلى الإيجاد - الّذي هو وجودُ الشّيء في حيّز وإخراجه من العدم - ألا وهو معنى الابتداء في الإيجاد أوّلَ مرّة؛ فالبَدْءُ يدلّ على افْتِتاحِ الشّيْءِ[3]، وبَدْءُ الخَلْقِ إنشاؤه لأوّل مرّة[4]، من غيرِ سابقِ مِثالٍ[5]، كما أنّ في التّعبير بالبَدْءِ مراعاةً للسّياق الّذي ذُكِرَتْ فيه الإعادةُ وهي: النَّشأةُ الآخرة؛ لتتحقّق بذلك المقابلة بين النَّشأةَ الأولى والنَّشأةَ الآخرة، بما يدلّ على كمالِ قدرته سبحانه.

دلالة التّعبير بالمضارع:

تجدّدُ بَدْءِ الخلْقِ كلّما رآه النّاظرُ أبلغُ في الاستدلالِ على كمالِ قدرته سبحانه

التّعبير بصيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿يُبۡدِئُ﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ بَدْءِ الخلقِ كلّما وجَّهَ النّاظرُ بصَرَه في المخلوقاتِ[6]، أي يجدّد إبداءه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 229.
(2) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 225.
(3) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بدأ).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بدأ).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (بدأ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 228.

في كلّ لحظة[1]، وهذا أبلغُ في الدّلالةِ على عظيمِ قدرتِه سبحانه وكمالها، وعلى استحقاقه للعبادة دون الأصنام المخلوقة والمنحوتة بأيديهم، ومن ثَمَّ فهو أدَلُّ بذلك على الإيمان.

سِرّ إظهار لفظ الجلال ﴿ٱللَّهُ﴾:

الاسمُ الدالُّ على كلّ كمالٍ يتجلّى بمَعْنى القدرة التامَّةِ الكاملةِ

رغمَ أنّ الحديثَ في الآياتِ السّابقة عن اللّهِ سبحانه؛ ورغمَ أنَّ بَدْءَ الخلْقِ لا يصلُحُ إلا له إلا أنّ البيانَ القرآنيَّ أظهرَ الاسمَ الجليلَ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ بيانًا لعظمةِ الخالقِ سبحانه وعظمة هذا الدّليل، وهو دليلُ ابتداءِ الخَلْقِ من العدم وإعادة الخلق بعد الموت، الّذي يُناسبه إظهار الاسم الجليل الّذي يجمعُ كلّ صفاتِ الجلال والجمال والكمال، ولا بدّ من الإشارة إلى أنّه قد وردَ صريحًا عشرَ مرّات في السّياق القريب لهذه الآية.

سِرُّ إيثارُ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ دون غيره:

الخلقُ يختصُّ بالباري تعالى، وتنوُّعُه يدلُّ على كمالِ قدرته

آثَرَ البيانُ الحكيم لفظَ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ دون غيره كالإيجاد مثلًا؛ لأنّ لفظ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ يعني إبداعَ الأشياء، وإيجادَها على مثالٍ لم يُسبق إليه[2]، أي: يُستعملُ في إبداعِ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ ولا سابق مثالٍ، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، أيّ: هو إيجادٌ من العدم، وهو بهذا المعنى يختصُّ بالباري تعالى وليس إلا له، إذن يتميَّز لفظُ الخلْق عن غيره بمعنى التّقدير والإبداع والأوّليّة، ويشملُ كذلك معنى إيجادِ الشّيء بالشّيء[3]، أي: حتّى وإنْ كان من أصل، وفي هذا دلالةٌ على أنّه سبحانه قادرٌ على الإطلاق؛ يخلقُ من غير أصلٍ، كما خلقَ السموات والأرض، ويخلقُ من أصلٍ كخَلْقِ ما بينهما، فيُنشئ من أصلٍ ليس

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 414.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).

من جنسه؛ كآدم خَلَقَهُ من تراب، ومن أصلٍ يُجانسه كخَلْقِ حوّاءَ من آدم، أو كخَلْقِ عيسى من مريم عليهما السلام، أو كخَلْقِ ذرّيّة آدم وحوّاء منهما، وهذا التّنوّع في الخلقِ يدلُّ على كمال قدرته، ومن ثَمَّ كان لفظ الخلقِ أنسبَ للسّياق الّذي يَظهر فيه كمالُ قدرة اللّه تعالى.

سِرّ (أل) التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾:

هو الخالقُ لكلّ الخلقِ لا خالقَ غيرُه سبحانه

(أل) التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ تفيدُ العمومَ لأنه لاستغراق الجنس، أي: إنّ اللّهَ يُبدِئ كلَّ الخلق بجميعِ أنواعه من الإنسان والحيوان والنبات والجمادات، أي يخلُقُها ابتداءً، بما يدلُّ على عظيم قدرته سبحانه.

علاقة عبارة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ بما سبق ودلالتها:

تنزيل الإعادة منزلةَ ما يُرى بالبصر لوضوحها

عبارة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ عطفٌ على ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ لا على ﴿يُبۡدِئُ﴾؛ لعدمِ وقوعِ الرُّؤية البصريّة عليه فهو إخبارٌ بأنَّه تعالى يعيدُ الخلقَ قياسًا على الإبداء، وقد جوِّز العطفُ على ﴿يُبۡدِئُ﴾ إمّا بتأويل الإعادةِ بإنشائه تعالى كلّ سنة مثلَ ما أنشأه في السَّنةِ السّابقةِ من النّبات والثّمار وغيرِهما، فإنَّ ذلك ممّا يُستدَلُّ به على صِحَّة البعثِ ووقوعه من غير رَيبٍ[1]، أو بأنْ تكونَ الإعادة هي البعث بعد الموت ودخولها في حيز الرّؤية باعتبار ورود البراهين والأدلّة القاطعة على إمكانها عقلًا، ووجوبها شرعًا، وأنّ هذا نزلَ لوضوحه وضرورة التّسليم به منزلةَ ما يُرى بالبصر إنْ كانت الرّؤية بصرية، أو منزلة ما حصلَ به العلمُ الضّروري إنْ كانت الرّؤيا علميّةً، وما أكثرَ ورودَ هذا التّنزيل في كتاب اللّه العزيز[2]، ويكون العطف "من حيثُ إنَّ مشاهدةَ حالِ الابتداء جُعِلَتْ مشاهدةً لحالِ الإعادة من حيث إنّه لا فرق"[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.

(2) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 226.

(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 415.

دلالة التّعبير بالمضارع:

جاء الفعل ﴿يُعِيدُهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾؛ ليفيدَ تجدّد إعادته سبحانه المخلوق بعد موته في كلّ لحةٍ، هذا إنْ كان المقصود بالإعادة في الدنيا للنّبات[1]، الّذي جعله اللّهُ دليلًا على المعاد بعد الموت[2]، قال تعالى: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١﴾ [ق: 11]، وإنْ كان المقصودُ بالإعادة هو البعثُ فمجيءُ الفعل بصيغة المضارع يفيدُ تصويرَ حدثِ الإعادة يوم القيامة، بما يحمله ذهنُ القارئ والمستمعِ من صورٍ لإعادةِ خَلْقِ النّبات، كما أنّه يفيد الدّليل على المعاد.

تجديدُ إعادته سبحانه لخَلْقِ النّبات مستمرٌّ ويساهِمُ في إحداثِ صورةٍ للمعاد

بلاغةُ التّعبير بالطباق:

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ جَمعَ النَّصُّ القرآنيُّ بين لفظين متقابلين في المعنى، وهما: ﴿يُبۡدِئُ﴾ و﴿يُعِيدُهُۥٓ﴾ على سبيلِ الطِّباق، ممّا زادَ الكلامَ حُسنًا، ودلّ على أنّ كمالَ قدرةِ اللّه تستوعبُ كلّ شيء من الموجودِ والمعدوم؛ من الخلقِ والإماتة والإعادةِ بعد الموت، والدّنيا والآخرة، فهو سبحانه على كلّ شيء قدير، وكلُّ شيء عليه يسير.

قدرةُ اللّه تستوعبُ كلّ شيء من الموجود والمعدوم

توجيه المتشابه اللفظي: بين ﴿يُبۡدِئُ﴾ و﴿يَبۡدَؤُاْ﴾:

انفردتْ سورةُ العنكبوت بالتّعبير عن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ بهذه الصيغة للفعل ﴿يُبۡدِئُ﴾، وهو من (أَبْدَأ) بهمزة في أوّله، بينما وردَ المتشابه اللفظيّ لهذه الآية في بقيّة المواضع بصيغة الفعل ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾ [يونس: 4]، وهو من (بَدَأ) بدون همزة في أوله، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: 4]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ﴾ [يونس: 34]، وقوله

تَفَنُّنٌ في الكلام وتنشيطٌ للأذهان تنبيهًا على أهمّيّة دلالة بَدْءِ الخلق على الإيمان

---
(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 415.
(2) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 191.

تعالى: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [النمل: 64]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: 11]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: 27]؛ وذلك لأنّه قصدَ التّفنّنَ في الكلام والتّنشيط للأذهان؛ وخاصّة في العنكبوت؛ إذ قد وردتِ الصّيغتان معًا في السّياق القريب في الآيتين، ففي الأولى منهما قال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾، وفي الثانية قال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ [العنكبوت: 20][1]، وهما: أبْدَأ وأعادَ، وبَدَأ وعادَ لغتان بمعنًى واحدٍ[2]، وهو الإنشاءُ من العدم، يقال: بدأهم وأبدأهم[3]، وقال في القاموس: "بدأ اللّه الخلق: خَلَقَهم، كأبدأ"[4]، وفي هذا إشارةٌ إلى أهمّيّة هذا الدّليل الّذي يتوقّف عليه الإيمان باللّه.

سِرّ الفصل في قوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾:

بيانٌ لما تَضمَّنَه الاستِفهامُ مِن الإنكارِ لعدَمِ رؤيةِ المشركين دليلَ الخلقِ والمعادِ

فصّلَ النَّظم الحكيم جُملةَ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ عمّا قبلها، فلم يأتِ بينهما بحرف رابط؛ لِما بينهما من كمالِ اتّصال معنويّ يُغْني عن الرّابط اللّفظيّ؛ إمّا لكون هذه الجملة مُبيِّنةً لِما تَضمَّنَه الاستفهامُ مِن إنكارِ عدمِ الرُّؤيةِ المُؤدّيةِ إلى العِلْم بوُقوعِ الإعادة؛ إذ أحالوها مع أنَّ إعادةَ الخَلْقِ إنْ لم تكُنْ أيْسَرَ مِن الإعادةِ في العُرْفِ، فلا أقَلَّ مِن كَونِها مُساويةً لها[5]، أو لكونها مَسوقةً لتقريرِ ما قبله من قدرةِ اللّه على التّصرّف في الخلق؛ إحياءً وإماتةً وإعادةً[6].

بلاغة اجتماع المؤكّدات في ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾:

مبالغةٌ في تأكيد سهولة أمرِ الخَلْقِ والإعادة بالنِّسبة إلى القادر العظيم

أكّد النّظمُ الحكيم الخبرَ في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ بعدّة مؤكّدات؛ وهي: ﴿إِنَّ﴾ الّتي تفيدُ توكيد النّسبة بين المسندِ والمسندِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 20.
(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 415.
(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (بدأ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 229.
(6) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن: 3/ 226.

إليه في الجملة، والمؤكّد الثّاني: الجملةُ الاسميّة الّتي تفيدُ الثّبوتَ وقوّةَ الحُكمِ وبَقاءَه، والمؤكّد الثّالث: تقديم شبه الجملة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الخبر ﴿يَسِيرٌ﴾؛ وقد أفادتْ كلّ هذه المؤكّداتِ مجتمعةً المبالغةَ في تأكيدِ أنّ الخلقَ ابتداءً، والإعادة إلى الحياة بعد الموت أمرٌ يسيرٌ وهيّنٌ على اللّه؛ لأنّه سبحانه لا يعجزه شيء، وقد قال في موضعٍ آخر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27]، أي أفادت تأكيدَ يُسْرِ أمرِ الخلقِ والإعادةِ بالنسبة إلى عظيم قدرته[1]، ووجْهُ توكيدِ الجُملةِ لأجل إنكارهم[2]، وردٌّ لدَعْواهم أنَّه مُستحيل[3].

الغرض من التّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أشارَ البيانُ القرآنيُّ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الإعادةِ بعد الإبداء[4]، أو إلى ما ذكر من الأمرين وهما: بَدْءُ الخلق، وإعادته إلى الحياةِ مرّةً أخرى[5]، والنتيجةُ واحدة؛ لأنّ الإشارةَ إلى الأمرين يقصد منها أنّ صُنْعَ اللّه وآياته في الخلقِ بَدْءًا وإعادةً سواءٌ، ليدركَ الكافرون أنّ الّذي أنشأ يعيدُ بلا عناء.

صُنْعُ اللهِ في الخلقِ بَدْءًا وإعادةً سواءٌ، فالّذي أنشأ يعيدُ بلا عناءٍ

وقد آثرَ استعمالَ اسم الإشارة الّذي يُشارُ به للبعيد؛ للإشارة إلى حالهم مع المشار إليه، وأنّهم يستبعدونه، وكأنّه يقول: إنّ ذلك الّذي يرونه بعيدًا أي مستحيلًا هو على يسيرٌ، ذلك أنّهم ادّعوا استحالته[6].

دلالة التّعبير بـ﴿عَلَى﴾:

أفادَ معنى الاستعلاء في حرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ المبالغةَ في بيانِ يُسْرِ أمْرِ البَدْءِ والإعادة بعد الموت، وعدمِ عُسْرِه على اللّه، وأنّهما بالنّسبة لقدرته وعلمه شيءٌ يسيرٌ،

من كمالِ قدرة اللهِ تعالى أنّه لا يَعْسُرُ عليه شيءٌ

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 415.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 415.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 229.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11117.
(5) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 24.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 229.

وذلك لأنّه دلّ على الاستعلاء الكامل للّه تعالى، وكمالِ قدرته على الخلق والمعاد.

سِرّ وضعِ الاسم الظاهر موضع المضمر:

صفاتُ كَمالِه سبحانه توقِعُ في الذِّهن كمالَ قُدرتِه على المعاد

في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ أظهرَ البيانُ القرآنيُّ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، ولم يُضمره رغمَ أنّه قد سبقَ ذكره سبحانه، فلم يقل: إنّ ذلك عليه يسير؛ تأكيدًا لكمالِ قدرته على الخلق والإعادة، بأنّه الجامعُ لكلّ صفات الكمال، المنزّه عن كلّ شائبةٍ نقص[1]، أي: أكَّد هذا الدليلَ بإظهار اسم الذّاتِ الّذي يُفْهِمُ المسمّى بصفاتِ كَمالِه، ونُعوتِ جَلالِه؛ ليقعَ في الذِّهن كمالُ قُدرتِه، وشُمولُ علمِه، ونُفوذُ إرادتِه[2].

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور على الخبر:

الأهمُّ في السّياق بيانُ استعلاءِ اللـه وقدرته على بدء الخلق وإعادته

تقديم شبه الجملة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الخبر ﴿يَسِيرٌ﴾؛ لأنّ الأهمَّ في السّياق هنا بيانُ استعلائه وقدرته على بيان بَدْءِ الخَلْقِ وإعادته، ثم جاء بيانُ على أيّ صفةٍ كانت قدرته في بَدْءِ الخَلْقِ وإعادتِه سبحانه وهي الغايةُ في اليُسْرِ، فلا يُعجزه شيءٌ، كما يفيدُه التّخصيص، ولذا عبّر بالاسم الجليل؛ للإشعار بأنّ بَدْءَ الخَلْقِ وإعادتَه يسيرٌ لا عسيرٌ على اللّه وحده، بمقتضى ألوهيّته، كما أنّ في التَّقديمِ مراعاةً للفاصلة الّتي تليها وهي ﴿قَدِيرٌ﴾.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿يَسِيرٌ﴾:

اللـهُ يقيسُ للبشر بمقاييسهم، فالإعادةُ أيْسَرُ من البَدْء في تقديرهم

المقصود بـ﴿يَسِيرٌ﴾ في الآية: السّهلُ والهيّن، أي إنّ المعادَ سهلٌ لا صعوبةَ فيه ولا يتعذّر عليه سبحانه كما كان يسيرًا عليه إبداؤه[3]، وقد استعملَ القرآن هذا التّعبير؛ لأنّه يناسبُ مَنْطِقَ النّاس وفَهْمَهم، وإلا فإنّ اليسير والعسير لا مفهومَ لهما عند من قدرتُه

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 415.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 40، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 157.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 25.

غيرُ محدودةٍ، ومطلقةٌ غيرُ مقيدةٍ، فهذه قدراتنا الّتي أوجدت مثل هذا المفهوم، ومع الالتفات إلى إنجازها، ظهرت لدينا أُمورٌ يسيرة وأُخرى عسيرة، أي إنّ اللّه يقيسُ للبشر بمقاييسهم، فالإعادةُ أَيْسَرُ من البَدْءِ في تقديرهم؛ فليس في خلق اللّه شيءٌ عسيرٌ عليه، وإنّما هو توجّهُ الإرادة وكلمةُ (كُن) فيكون.

سِرّ اختلاف التّيسير والتّهوين بين العنكبوت والروم:

تفننٌ في الخطاب وتقريبٌ للأفهام بما يعقلون

يكمنُ الاختلافُ في التّعبير بين آيةِ العنكبوت ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وآيةِ الروم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: 27] في مادّة الكلمة وصيغتها؛ أمّا المادّة فاليسيرُ هو الهيّن، واختلافُ المادّة بينهما تفنّنٌ في التّعبير وتنشيطٌ للأذهان، كما أنّ التّعبير بهما إنّما هو بالنسبة لمنطقِ البشر ومقاييسهم، فليس في خَلْقِ اللّه شيءٌ يسير أو عسيرٌ، أو هيّنٌ أو صعبٌ عليه، وأمّا الصّيغة فكلاهما فيهما مبالغة؛ أمّا ﴿يَسِيرٌ﴾ فهي بصيغة (فعيل)، وهي من صيغ المبالغة وأمّا ﴿أَهْوَنُ﴾ [الروم: 27] فهي بصيغة التّفضيل؛ وكذلك في هاتين الصيغتين خاطبَ فيهما العباد بما يعقلون، فأعلمَهم أنّه يجبُ أنْ يكونَ عندهم البعثُ أسهلَ من الابتداءِ في تقديرهم وحُكمهم[1]، والمفاضلةُ والمبالغةُ هنا على طريقةِ إرخاءِ العِنان والتّسليم الجدليّ، فلو سُلِّمَ لهم تحديدُ مفعول القدرة لكان يقتضي إمكانَ البعث بقياس الأحرى، فإنّ إعادةَ المصنوع مرّة ثانية أهونُ وأيسَرُ على الصّانع من صَنْعَته الأولى، وأدْخَلُ تحت تأثير قدرته فيما تعارفَهُ النّاس في مقدوراتهم.

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 421.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإبداء والإيجاد:

الإبداءُ هــو الـفـعـلُ ابـتـداءً وأوّلَ مــرّة، والإيــجــادُ هو الوجودُ والإخراج من العدم

الإبداءُ يدلُّ على افْتِتاحِ الشّيْءِ[1]، وتقديمِه على غيره ضربًا من التّقديم، ومَبْدَأُ الشّيء: هو الّذي منه يتركّب، أو منه يكون[2]، وبَدْءُ الخلقِ هو خلقه ابتداءً، أي إنشاؤه لأوّل مرّة[3]، بينما الإيجادُ في أصله هو الشّيُّ يُلْفيه[4]، ووجودُ الشّيء العثورُ عليه في الحيّز، والمَوْجود خِلافُ المَعْدوم، وأوْجَد الله الشّيْءَ من العَدَم فوُجِدَ فهوَ مَوْجود، وأوجد اللّهُ الكونَ: أنشأه من غير سَبْق مثال[5]، إذن فالإبداءُ هو فعلُ الشّيء أولًا ففيه إشارةٌ إلى البداية، بينما الإيجادُ هو وجوده في حَيِّزٍ وإخراجه من العدم إلى الوجود، واصطفاءُ التّعبير بالإبداء هنا دون الإيجاد؛ للتّركيز على الخلق أوّل مرّة، ولتتمّ المقابلة مع الإعادة؛ وهي الخلقُ مرّة ثانية، وليس المراد هنا مجرّد التّركيز على الوجود والإخراج من العدم.

الإعادة والرَّدّ:

الإعــادةُ تـكـرُّرٌ لـوجـود الـشّيء وهـذا يتناسبُ مع إعادةِ الخلق مرّة ثانية

يتميّز لفظُ الإعادة بأنّ فيه معنى التّجدّد والتّكرّر لوجودِ الشّيء ولو بحالٍ مختلفة[6]، فأصلُ الإعادة يدلّ على تثنيةٍ في الأمر، أي تثنيةِ الأمر عَوْدًا بعد بَدْءٍ[7]، وفيه معنى الرّجوع إلى نقطة البداية، أي إلى سابقِ عهده، بعد الانصرافِ عنه إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقولِ والعزيمة[8]، بينما يتميّز الرّدُّ: بمعنى رجوعِ الشّيء وصرفِه بذاته، أو بحالةٍ من أحواله[9]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ هناك شيئًا خارجًا عن إرادةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدأ).
(2) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بدأ).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بدأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجد).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وجد).
(6) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عود).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عود).
(8) الرّاغب، المفردات: (عود).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ردد).

الشّخص الّذي ارتّد، وكأنّ أحدًا قطعَ عليه استرساله، وصرفه عن وجهته فينعكس اتّجاهه، ويرجع إلى الموضع الّذي ابتدأ منه[1]، واختيارُ التّعبير بالإعادة أنسبُ في مقابل البَدْءِ، وهو الخَلْقُ أوّلًا، فالإعادةُ هي تكرارُ الخلق مرّة ثانية.

(1) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ردد).

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [العنكبوت: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستـدلال بما هـو مَـرْئيٌّ في أنفسهم إلى ما هو بعيدٌ عنهم لم يألفوه

بعدَ أنْ ساق الدَّليلَ المشاهَدَ في الأنفُسِ ممّا هو مَرْئيّ منهم، وأنكرَ عليهم تركَ الاستدلال به؛ أرشَدَ إلى السّير في الأرض للاعتِبارِ بما في الآفاقِ مِنَ الآياتِ المُشاهَدةِ، من أحوالِ إيجاد المخلوقات وتعاقبِ الأمم؛ لأنّ التَّعوُّد صَرَفَ عقولهم عن التّأمُّل، فقال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾[1]، ولَمّا كانَ ما ذُكِرَ من قصّة إبراهيم ووعظه قومَه وإقامة الحُجج عليهم لإثباتِ المعاد إنّما سيق تسليةً للنّبيّ ﷺ ووعظًا لقومِه؛ أتبعَ ذلكَ بخطابٍ للنّبيّ ﷺ ليخاطبَ قومَه الّذين يدّعون الانتسابَ إلى إبراهيمَ عليه السلام بأنّهم إنْ لم يقتدوا بإبراهيم ويتأمّلوا ما أقامَ من الدّليل القاطع والبرهان السّاطع فليسيروا في الأرضِ ويتأمّلوا في دلائله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِيرُواْ﴾: (سير) أصلٌ يدلّ على مُضيٍّ وجَرَيانٍ، يُقالُ سارَ يَسيرُ سَيْرًا، وذلك يكون ليلًا ونهارًا[2]، وسارَ القَومُ: إذا امتَدّ بهم السَّيْرُ في جِهَةٍ تَوَجَّهوا لَها، والسَّيْرُ: الذّهابُ، والمُضيُّ في الأرض، والانتقالُ من مكانٍ إلى مكانٍ، والتّسيير ضربان: تسخيرٌ، كقوله سبحانه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [النبأ: 20]، واختيارٌ كقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ [يونس: 22][3]، والمقصود بالأمر بالسّير في الآية:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 230، والمَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 127.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(3) الرّاغب، المفردات: (سار)، والزَّبيديّ، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سير).

السّير بِقَصْدِ التّدبّر والتّأمّل والاعتبار[1] أي: سيروا لتعلموا أنّ الّذي بَدَأ الخَلْقَ هو اللّهُ لا خالقَ غيرُه[2].

2) ﴿يُنشِئُ﴾: (نشأ) أصلٌ يدلّ على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ وسُموٍّ[3] وأنشأ يُنْشِئ إنشاءً، فهو مُنْشِئ، وأنشأ الشّيءَ: أقامه، أوجدَه وأحدَثه، وأنْشَأَهُ اللّهُ: خَلَقَهُ وأبدعه، والِاسْمُ النَّشْأَةُ، وأنْشَأَ يَفْعَلُ كذا أي ابْتَدَأ، وأنْشَأ اللّهُ الخَلْقَ، أي: ابتَدَأ خَلْقَهم[4]، والمقصود بـ﴿يُنشِئُ﴾ في الآية: يُبْدِئُ تلك البَدْأةَ الآخرةَ بعد الفناء، فاللّهُ قادرٌ على إنشاءِ جميعِ خلقِه بعد إفنائه، وإعادتهم إلى الحياة مرّةً أخرى، بعد أنْ أوجدهم في المرّة الأولى[5].

3) ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾: اسمٌ من الفعل (أنشأ) يُنْشِئ، إنشاءً، فهو مُنْشِئ، وأنشأ الشّيءَ: أقامه، أوجدَه وأحدَثه، وأنْشَأَهُ اللّهُ: خَلَقَهُ وأبدعه، وأنْشَأَ يَفْعَلُ كذا أي ابْتَدَأ، وأنْشَأ اللّهُ الخَلْقَ، أي: ابتَدَأ خَلْقَهم[6] والمراد بالنّشأة الآخرة في الآية: إعادةُ الخلقِ في الآخرة بعد فنائهم، أي: الحياة بعد الموت، وهو النّشور[7].

4) ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾: (أخر) أصل وهو خِلافُ التَّقَدُّم، والآخِرُ: نَقيضُ المُتَقَدِّم[8] والآخِرُ هو الّذي يبقَى بعدَ هلاكِ كلِّ شيءٍ، فهو موضعٌ للنِّهاية، وهو تالٍ لِلأَوَّلِ، وتأنيثُهُ: الآخرةُ وهي مقابِلَةُ الأولى وسُمّيَتِ الْآخِرَةُ آخِرَةً؛ لِأَنَّها بعد الدُّنيا[9] والمرادُ بالنَّشأةِ الآخرة في الآية: إعادةُ الخلقِ في الآخرة، للبعث والنّشور[10].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمُرُ اللّه سبحانه رسولَه ﷺ أنْ يَلفِتَ أنظارَ قومِه من المُشركينَ المُنكِرينَ للبَعثِ بعدَ الموتِ إلى النَّظرِ والتَّأمُّلِ في صنعِ اللّهِ في الخلقِ والإنشاء، قائلًا له: قُلْ لهم يا محمَّدُ:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21، وسيّد طنطاويّ، التّفسير البسيط: 11/ 25.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 17/ 508.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نشأ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نشأ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21، وسيّد طنطاويّ، التّفسير البسيط: 11/ 25.
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نشأ).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21، والحجازي، التّفسير الواضح: 2/ 864.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخر).
(9) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 149.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 670، والحجازي، التّفسير الواضح: 2/ 864.

تتبّعُ صنعِ اللهِ وآياته في الخلقِ والإنشاء يقضي بأنّ الّذي أنشأ يعيدُ بلا عناء

سيروا في الأرضِ، فانظُروا كيف بَدَأ اللّهُ الخَلْقَ مِن العَدَمِ، ثمَّ هو سُبحانَه يُنْشِئُ الخَلقَ نَشأةً ثانيةً بعدَ فنائِه، إنَّ اللّهَ على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ، يَبْدَأُ الحياةَ ويعيدها بهذه القدرةِ المُطْلَقَةِ الّتي لا تَتَقَيَّد بتصوّرات البشرِ القاصرة.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصل في ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

إرشـادٌ للاستدلال بالبعيد تنبيهًا للفكر الّذي غفلَ عمّا اعتاده من مشاهدةِ القريب

اعتراضٌ انتقاليٌّ من الإنكارِ عليهم لتركهم الاستدلال بما هو مَرْئيٌّ منهم من أنفسهم ومن ما حولهم، إلى إرشادهم للاستدلال بما هو بعيدٌ عنهم من أحوالِ إيجاد الأمم والموجودات الأخرى[1]؛ ليرَوا الحياةَ الأولى في صورٍ مختلفةٍ وظروفٍ متفاوتةٍ تمامًا، وليطّلعوا على عموميّة قدرةِ اللّه، وليستيقنوا قدرته على إعادةِ هذه الحياة؛ لأنّ الإنسانَ لمّا نشأ فيها من زمنِ الطّفولة فما بعده قبل حدوثِ التّفكير في عقله اعتادَ أنْ يمرَّ ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها، حتى إذا شاهد أمثالَها ممّا كان غائبًا عن بصره جالتْ في نفسه فكرة الاستدلال، فالسيرُ في الأرض وسيلةٌ جامعةٌ لمختلف الدّلائل[2].

دلالةُ الخطاب في قوله ﴿قُلۡ﴾:

بيانٌ يُظهرُ أهمّيّة المقول ووظيفة الرّسول ﷺ

الخطابُ بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للنّبيّ ﷺ، أي: (يا محمّد قل لقريش سيروا في الأرض فانظروا)؛ وإنّما لم يوجّه اللّهُ تعالى للكافرين الخطاب، وإنّما خاطبهم على لسان النّبيّ ﷺ؛ تفنُّنًا في البيانِ وتنشيطًا للأذهانِ حتى كأنَّ الكلامَ صدَرَ مِنْ قائلَيْن[3]، وترفيعًا لقدْرِ نَبيِّه ﷺ بإعطائه حظًّا من التّذكير معه كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [الدخان: 58][4]، وللدّلالة على أنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 230.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 230.

(3) وهذا إن كان الخطاب في الآيتين السابقتين من خطاب الله تعالى لقريش، أو من كلام إبراهيم لقومه.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 46.

هذا الأمر بالسّير في الأرض والنّظر هو من عند الله تعالى، وأنّ النّبيّ ﷺ مجرّدُ مُبَلِّغٍ ورسولٍ أمين، وهذا يناسبُ ما ورد في السّياق، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، وللدّلالة على الاهتمام بالمقول؛ فإنّ أصلَ الأمرِ بالقول في مقام التّصدّي للتّبليغ دالٌّ على الاهتمام[1]، ويحتملُ أنْ يكون الأمر ﴿قُلْ﴾ خطابًا للجميع، بما يدلّ على أسلوبٍ حواريٍّ في إقامةِ الحجّة، أي أمَرَ كلّ واحدٍ بأنْ يقول ذلك[2].

الغرض من التّعبير بالأمر:

إرشادٌ وحضٌّ على السيرِ في الأرضِ للتّأمّل والتدبّر في آثارِ قدرةِ الله

غرضُ التّعبير بفعْلِ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ الإرشادُ والحضُّ، أي: أرشدَ إبراهيمُ قومه وحضّهم على السيرِ في الأرض؛ لتنبيهِ الحواسّ والمشاعرِ برؤيةِ المشاهد الجديدة، ودعوتها إلى التّأمّل والتّدبّر في آثارِ قدرةِ الله على إنشاءِ الحياة الّتي تبرزُ في كلِّ لحظةٍ من لحظات اللّيل والنّهار؛ ذلك أنّ الإنسانَ يعيش في المكان الّذي ألفه فلا يكاد ينتبهُ إلى شيءٍ من مشاهده أو عجائبه؛ لأنّ "تَعَوُّدَ الناس بما بين أيديهم يصرفُ عقولهم عن التّأمّل فيما وراء ذلك من دلائل دقائقها على ما تدلّ عليه"[3]، حتى إذا سافرَ وتنقّل وساحَ استيقظَ حسّه وقلبه إلى كلّ مشهدٍ في الأرض الجديدة، ممّا كان يمرُّ على مثله أو أروع منه في موطنه دون التفاتٍ ولا انتباهٍ له، فسبحان منزّل هذا القرآن، الخبير بمداخل القلوب وأسرار النّفوس.

ولم يتقيّد الأمرُ بالسّير، بل جاء عامًا؛ لأنّ كلّ إنسانٍ في كلّ زمانٍ ومكان ليأخذَ وجوهَ العبرةِ والعظة عن طريقِ هذا السّير بما يتناسب مع عقله، وثقافته، وبيئته، وفكره، ومستواه الماديّ، والاجتماعيّ، والحضاريّ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 192.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 339.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 230.
(4) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 25.

سِرّ التقييد بالجارّ والمجرور:

مبالغةٌ في الحثّ على تتبّع أحوالِ الأمم والموجوداتِ تتبّعَ باحثٍ عن الحقّ

حرف الجرّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بمعنى (على)، إذ ليس المقصودُ السّيرَ في جوفِ الأرض، وإنّما على ظهرها، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ آثَرَ حرفَ الجرّ ﴿فِي﴾ الّذي يفيد الظّرفية؛ للدّلالةِ على ضرورةِ المبالغةِ في الحثّ على الإيغالِ في تتبّعِ أحوالِ الأممِ والموجوداتِ من مختلفِ الأرض في جميعِ أقطارها بجبالها وأنهارها ومحتوياتها، والمرورِ على منازلِ الأمم؛ حاضرها وبائدها ممّا لم يعتدْ رؤية أمثالها؛ للاستدلال بقدرة اللّه الواسعة على إمكانِ المعاد، أي سيروا سيرَ باحثٍ عن الحقّ، لا يتركُ شيئًا حتى يتفحّصه ويتأمّله.

بلاغةُ العطف بالفاء:

ترتيبُ النّظر على الأمر بالسّير مُؤْذِنٌ بِتَتَبُّعِ أحوالِ جميع أصنافِ الخلق

أفادتِ الفاءُ العاطفة في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ ترتيبَ أمرِ إبراهيم قومَه بالنّظرِ في كيفيّة خَلْقهم ابتداءً على أطوارٍ مختلفةٍ وطبائعَ متغايرةٍ وأخلاقٍ شتَّى على الأمر بالسّير في الأرض بقوله: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: إنّ النّظرَ في كيفيّة الخلْق هو المقصدُ من السّير، وهذ التّرتيبُ الّذي أفادتْه الفاءُ العاطفة مُؤْذِنٌ بِتَتَبُّعِ أحوالِ أصنافِ الخلق القاطنينَ في أقطارها[1].

إيثارُ التّعبير بالنَّظر دون سواه:

إدراكُ ما خلَقَه اللّه بِفِعلِ النَّظرِ أولَى وأشهَرُ

جيءَ في هذا الاستِدلالِ المترتّب على السّير في الأرض في قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ بفِعلِ النَّظرِ ﴿فَٱنظُرُواْ﴾؛ لأنَّ إدراكَ ما خلَقَه اللّهُ حاصلٌ بطريق البصَرِ، وهو بفِعلِ النَّظرِ أولَى وأشهَرُ؛ ليَنتقِلَ منه إلى إدراكِ أنّه يُنشِئُ النَّشْأةَ الآخِرةَ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 230.

الـنّـظـرُ طـريـقٌ للرُّؤيةِ والعلم ومُفْضٍ لهما

عِلّة التّعبير بلفظ النّظر هنا وبالرّؤية في الّتي قبلها:

عبّر البيانُ الحكيم بلفظِ النَّظرِ هنا فقال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ بينما عبّر بلفظِ الرُّؤيةِ في الآية السّابقة، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ وذلك لأنَّ العِلْمَ الحَدْسيَّ الحاصلَ مِن غيرِ طلب أتَمُّ مِن العِلْمِ الفِكْريِّ، ولأنّ الرُّؤية أتَمُّ مِن النَّظرِ؛ وذلك لأنَّ النَّظرَ يُفْضي إلى الرُّؤيةِ، يُقال: نظرْتُ فرأيتُ، والمُفْضي إلى الشّيءِ دونَ ذلك الشّيءِ؛ فقال في الأوَّلِ: أما حصَلَتْ لكم الرُّؤيةُ؟ إنْ لا فانْظُروا في الأرضِ؛ لِتَحصُلَ لكم الرُّؤيةُ[1].

التّـعـقـيـبُ في النّظر أو التّراخي فيه يتناسبُ مع مُتَعَلِّقِه

توجيه المتشابَه اللّفظيّ:

المتشابَه اللّفظيّ واقعٌ بين قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ وقوله جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ [الأنعام: 11]، فالعبارة الأولى في سورة العنكبوت: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾، والثانية في سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾ [الأنعام: 11]، والرابط بينهما هو أنّه سبحانه رتّبَ النّظر والتّأمّلَ فيهما على السّير في الأرض، إلّا أنّ مَتَعَلّق النّظر في آية العنكبوت هو كيفيّة الخَلْق؛ للاستدلال على المعاد، ولهذا عطف بالفاء الدّالّة على التّرتيب والتّعقيب؛ لأنّ كيفيّةَ الخلقِ أمرٌ قريبٌ من كلّ الناس، ويشهدُه الإنسان بأدنى نظرٍ، ولا يحتاجُ لزمنٍ قد يطولُ، وأمّا مُتَعَلِّقُ النّظر في آية الأنعام فهو عاقبةُ المجرمين للاتّعاظ بحالِ المكذِّبين، ولذا عطف بـ﴿ثُمَّ﴾ [الأنعام: 11] الّتي تفيدُ التّراخي الرُّتْبيّ؛ لأنّ النّظرَ في عاقبةِ المكذّبين يحتاجُ إلى زمنٍ يطولُ، إذ إنّ اللّهَ يمهلُ المجرمين المكذِّبين ولا يعاجِلُهم بالعقوبة.

براعةُ الاستفهام في ﴿كَيۡفَ﴾:

﴿كَيۡفَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ اسمُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 40 - 41.

تنبيهٌ على دليل عقليٍّ بُرْهانيٍّ وهو قياسُ ما سيكونُ على ما كان

استفهام، وجملتُه سَدَّتْ مسدَّ مفعول ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ المعلّق عن العمل لفظًا بسبب الاستفهام[1]، ولسائلٍ أن يسأل: لمَ قد علّقَ البيانُ الحكيم النَّظر بالكيفيَّة، لا بالخَلق، ولم يقل: (فانظروا أنّ اللّه خلق)، مع أنّ الكيفيَّةَ غيرُ مَعلومةٍ؟ والجوابُ: إنَّ لدى كلّ إنسان مقدارًا معلومًا كافيًا من كيفيَّةِ الخَلْق، وهو أنَّه تعالى خلقَه ولم يكُنْ شيئًا مَذكورًا، وأنَّه خلقَه من نُطفةٍ هي مِن غذاءٍ، وهذا الغذاء آتٍ مِن ماءٍ وتُرابٍ، وهذا القَدْرُ من العلم بكيفيّة الخَلْق كافٍ في حُصولِ العِلم بإمكان الإعادةِ؛ فإنَّ الإعادةَ مِثلُه[2].

والاستفهامُ هنا مجازيٌّ لا يُقصدُ منه طلبُ الإخبار، وإنّما يَتَضمَّنُ التّنبيهَ على دليلٍ عقليٍّ بُرْهانيٍّ، وهو قياسُ ما سيكونُ على ما كان، فالّذي بدأ الخلْقَ الأوّلَ على غير مثالٍ سَبَقَ قادرٌ على أنْ يُعيدَهُ بعد فنائه، إنّه سبحانه لم يَعْيَ بالخلقِ الأول، أي: لم يَعْجِزْ عن خَلْقِه فكيف يَعْيا بالخلْقِ الثّاني؟!!.

دلالةُ التّكرار في الحديث عن بَدْءِ الخِلْق:

تنبيهٌ وتأكيدٌ على أهمِّ الأدلّةِ على الإحياءِ بعدَ الموتِ والقدرةِ على بَدْء الخلق من جديد

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ في حديثه عن بَدْءِ الخَلْقِ في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾؛ إذ سبقَ في الآية السّابقة قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ وذلك اهتمامًا به وتأكيدًا على كونه من أهمّ الأدلّة على قدرةِ اللّه سبحانه على الإحياء بعد الموت، ومن أهمّ الأدلّة على قدرةِ اللّه تعالى مطلقًا، ولذا كانتْ أوّلَى الآياتِ الّتي نزلتْ قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق: 1].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿بَدَأَ﴾ ماضيًا:

لـلـشّيءِ المُتقرِّرِ تحقُّقًا مَحسوسًا

جيءَ في جانبِ بَدْءِ الخلْقِ بالفعلِ الماضي ﴿بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾؛ لأنَّ السّائرَ ليس له مِن قَرارٍ في طَريقِه؛ فنَدَرَ أنْ يَشهَدَ حُدوثَ بَدْءِ

(1) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 159.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 40.

مخلوقاتٍ، ولكنَّه يَشهَدُ مخلوقاتٍ مَبدوءةً مِن قبْلُ، فيَفْطَنُ إلى أنَّ الّذي أوجَدَها إنَّما أوجَدَها بعدَ أنْ لم تكُنْ، وأنَّه قادرٌ على إيجادِ أمثالِها، فهو بالأحْرى قادرٌ على إعادتِها بعدَ عدَمِها، والاستدلالُ بالأفعالِ الّتي مَضَتْ أمْكَنُ؛ لأنَّ للشَّيءِ المُتقرِّرِ تحقُّقًا مَحسوسًا[1].

سِرّ إضمار المسند إليه (اللهُ):

ابتداءُ الخَلْقِ بعد أنْ لم يكن موجودًا لا يصلحُ إلا له سبحانه

أضمر البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليل (الله) في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ فلم يظهره؛ لأنه سبق إظهار ذكره سبحانه في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾، ولأنّ هذا الفعل الّذي هو ابتداءُ الخَلْقِ بعد أنْ لم يكن موجودًا لا يصلحُ إلا له سبحانه فهو المعروفُ بالقدرة على الإبداء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾ [البروج: 13].

دلالة العطف بـ﴿ثُمَّ﴾:

أمرُ إعادةِ الخلق أهمُّ وأرفعُ رتبةً من بَدْئِه

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ عاطفةٌ، والجملةُ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ داخلةٌ معها في حيِّز القول[2]، أو معطوفة على قوله: ﴿بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ الإبداءَ إنشاءٌ، والإنشاءَ إبداءٌ، لا تَفاوُتَ بينهما، وكلاهما إخراجٌ منَ العَدَمِ إلى الوجودِ[3].

والتّراخي الرُّتَبيّ الّذي تُفيده ﴿ثُمَّ﴾ يدلُّ على أنَّ أمرَ إعادةِ الخلْق أهمُّ وأرفعُ رتبةً من بَدْئِه؛ لأنّه غيرُ مشاهد، ولأنّهم ينكرونه ولا ينكرون بَدْءَ الخلْق[4].

سِرّ ذكرِ المسندِ إليه صَريحًا بعد إضماره:

مَن عُرِفَ بالقدرة على الإبداءِ يُحْكَمُ لَه بالقدرة على الإعادة

صرّح البيانُ القرآنيُّ باسْمِ الله وبإيقاعِه مُبْتَدَءًا في قولِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 230.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 156.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 228.

سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ بعدَ إضْمارِه في قولِه: ﴿كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ وكان القياسُ أنْ يُقالَ: (كيف بدَأ اللّهُ الخلْقَ، ثمَّ يُنشِئُ النَّشأةَ الآخرةَ)؛ ولكنّه صرّح به مبالغةً في الاهتمامِ بشأنِ الإعادة وتفخيمًا لشأنها[1]؛ لأنّ في اسم الجلالة إحضارًا لجميعِ الصّفات الذّاتية الّتي بها التّكوين[2]؛ ولأنَّ الكلامَ معهم كان واقعًا فيها، فلمّا قرَّرَهم في الإبداءِ بأنَّه من اللّهِ، احتجَّ عليهم بأنَّ الإعادةَ إنشاءٌ مِثلُ الإبداءِ، فكأنَّه قال: ثمَّ ذاك الّذي أنشأ النَّشْأةَ الأولى هو الّذي يُنشِئُ النَّشْأةَ الآخِرةَ؛ فلِلدَّلالةِ والتَّنبيهِ على هذا المعنى، - وهو أنّه مَنْ عُرِفَ بالقدرةِ على الإبداءِ يُحكَمُ لَه بالقدرةِ على الإعادةِ - أبْرَزَ اسْمَه وأوقَعَهُ مُبْتَدَءًا[3]، كما أنّ في تقديم الاسم الجليل ﴿ٱللَّـهُ﴾ على الخبرِ الفعليّ ﴿يُنشِئُ﴾ تحقيقًا للخبر، وتقويةً للحكم، وتأكيدًا للمعنى في بيانِ قدرته على تحقّق الإعادة؛ وذلك لتكرارِ الإسناد[4]؛ فكأنَّ الحُكمَ هنا ذُكر مرّتين؛ مرّةً حين أُسْنِدَ الفعلُ ﴿يُنشِئُ﴾ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسْنِدَ إلى ضميره العائد إلى المبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾، ولو تأخّرَ المُسْنَدُ إليه فقال: (وينشئُ اللّه) لَما تحقّق هذا التّكرار.

فائدة التّصريح بالاسم الجليل:

عـدمُ خُـلـوّ الـجُـمـلـتن مِـن صَـريـحِ اسْمِـه تعالى إبرازٌ لمزيدِ الاعـتـنـاءِ ببيانِ تحقُّق الإعادةِ

في الآيةِ السابقة صرَّحَ باسْمِه تعالى في قولِه: ﴿كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾، ثمَّ أضمَرَ في قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾ وهنا عكسَ؛ حيثُ أضمَرَ في قولِه: ﴿كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾، ثمَّ أبْرَزَه في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ﴾؛ وذلك حتَّى لا تَخْلوَ الجُملتانِ مِن صَريحِ اسْمِه تعالى[5]، الّذي يُضفي على الآيتين جميعَ صفات الجلال والكمال والجمال، وليكونَ كلٌّ مِنْ

(1) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 387.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.
(3) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 449، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 349، والأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 437.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 349.

صَدْرِ الآيتَين وعَجُزِهما مُسَجّلًا بالاسم المُتَجَلّي في هذا المقام، لِمَعْنى القدرة التّامَّةِ والعالَميَّة الكاملةِ[1]، وهو بهذا أظهرَ الاسمَ الجليل مرّة مع بَدْءِ الخَلْقِ، ومرّةً مع إعادته، فحصل التّكاملُ بين الجملتين.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿يُنشِئُ﴾ مضارعًا:

تجديدٌ مستمِرٌّ لإحياء الخَلْق يحمل على تعزيز الإيمان بقدرةِ الله المطلقة

التّعبير بصيغة المضارع للفعل ﴿يُنشِئُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾، يؤكّدُ على حدوثِ النّشأةِ في المستقبل القريب وتجددِّها المستمرّ، ممّا يجعل حَدَثَ الخَلْقِ يبدو وكأنّه مَرْئيٌّ قريبٌ محدّدٌ في الزّمان والمكان، ويفيد تصويرَ حَدَثَ الإنشاء بما يحمله الذّهن من صورِ الإنشاء الأوّل، أي: يجعله يبدو وكأنّه يحدثُ أمام القارئ في اللّحظة الحاليّة، بما يعزّزُ عنده الإيمان بقدرةِ اللّه المطلقة بإحياء الخلق بعد الموت.

سِرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ معرّفًا:

الحياةُ الأولى خَلْقٌ للفناءِ، والحياةُ الآخرة خَلْقٌ للبقاء

المرادُ بالنّشْأة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ هي الإحياءُ والإعادةُ بعد الموت، وهي معروفة؛ إذ لام التّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾، عهديةٌ معهودُها ذِكريٌّ؛ إذ سَبَقَ ذِكْرُ الإعادة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾[2]، كما ورد في الحديث الصحيح: «يقال: يا أهْلَ الجنَّةِ خُلودٌ فلاَ مَوْتَ، ويا أهْلَ النّارِ خُلودٌ فلاَ مَوْتَ»[3]، كما أنّ خَلْقَ الإعادة مختلفٌ فلا تطرأُ عليه التّغيّرات، كما ورد عن النّبيّ ﷺ أنّ أهلَ الجنّةِ يَشِبّون فلا يَهْرَمون، ويَصِحّون فلا يمرضون، ويسعدون فلا يَشْقَون، ويَحْيَون فلا يموتون، أمّا في الدّنيا فهي دار التّقلّبات؛ صحَّةٌ يعقُبُها مرضٌ، وقوّةٌ يعقُبُها ضَعْفٌ، كما أنَّ أهل

---

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 157.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.

(3) متّفق عليه، فهو عند البخاريّ في صحيحه في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ [مريم: 39]، برقم: (4730)، وعند مسلم في صحيحه في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النّار يدخلها الجبّارون والجنّة يدخلها الضّعفاء، برقم: (2849).

الجنّة أنشأهم الله نشأةً حسنةً فكلُّهم على طولِ آدم، وفي حُسْنِ يوسفَ عليه السلام.

جماليّةٌ في السّمعِ وتأكيدٌ على أهمّيّة القَول

الغرضُ من الجناس الاشتقاقيّ:

بين اللّفظين ﴿يُنشِئُ﴾ و﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ جناسُ اشتقاقٍ[1]؛ إذ يجمعُهما جذرٌ لغويٌّ واحدٌ هو (نَشَأ)، إلّا أنّ لفظَ ﴿يُنشِئُ﴾ أتى بصيغةِ الفعلِ المضارع، ولفظَ ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ أتى بصيغة الاسم، ممّا يُعطي جماليَّةً في السّمع، ويحمِلُ على الإصغاءِ، ويزيدُ المعنى وُضوحًا ويُساعدُ على ترسُّخِهِ في الذّهن.

الجمع بين المصدر واسم المصدر لإثراء المعنى

توجيه القراءات في ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ وبلاغتها:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بألِفٍ بَعْدَ الشّينِ: ﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾، وقرأ الباقون بإسْكانِ الشّينِ مِنْ غَيْرِ ألِفٍ فيها: ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾[2] وهما لغتان؛ كالرأفة والرّآفة والكأْبة والكآبة وقيل: ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾: بغير مدٍّ: اسم المصدر كـ: (العطاء)، و﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾ بالمد هو المصدر كـ: (الإعطاء)، يدل على المدَّة الثانية في الخلق كالكرَّة الثانية، فهو مصدر صدر عن غير لفظ ﴿يُنشِئُ﴾، ولو صدر عن لفظ ﴿يُنشِئُ﴾ لقال: (الإنشاءة الآخرة)، والتقدير فيه: (ثم اللّه ينشئَ الأموات، فينشؤون النشأة الآخرة)، فهو مثل قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ [آل عمران: 37]، ومثل قوله: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزمل: 8]، ومثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: 17][3]:

كلتا النّشأتين شأنٌ واحدٌ من شؤونِ الله ولا فرقَ بينهما إلا بالأوّليّة والآخريّة

سِرُّ وصْفِ ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ بـ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾:

في وصْفِ النَّشأة بـ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ أي: بعدَ النَّشأةِ الأولى الّتي شاهدتُموها إيماءٌ بأنَّها

---

(1) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 388.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 343.
(3) مكّي، الكشف: 2/ 178.

مُساويةٌ للنَّشْأةِ الأولى؛ لأنّ وصْفَ النّشأة بأنها (آخرة) دليلٌ على أنّهما نشأتان، وأنّ كلَّ واحدةٍ منهما إنشاءٌ، أي: ابتداءٌ واختراعٌ وإخراجٌ من العدم إلى الوجود؛ فلما قرّرهم في الإبداء بأنّه من الله احتجَّ عليهم بأنّ الإعادةَ إنشاءٌ مثلُ الإبداء، فإذا لم يُعْجِزْه الإبداءُ وجَبَ ألّا تُعْجِزَه الإعادة، فكأنّه قال: ثُمّ ذلك الّذي أَنْشَأ النَّشأة الأولى هو الّذي يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ[1]، فلا شُبْهَةَ لهم في إحالةِ وُقوعِ النّشأة الآخرة[2]، كما لم تكنْ شُبهةٌ في وقوع النّشأةِ الأولى فكلاهما شأنٌ واحدٌ من شؤونِ الله تعالى حقيقةً واسمًا، ولا فرقَ بينَهما إلّا بالأوّليّةِ والآخريّةِ[3].

سِرّ المغايرة بذكر ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ و﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ في الواقعة:

تفنُّنٌ في البيان وتنشيطٌ للأذهان وتأكيدٌ على المعاد

في قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الواقعة: 62]، وصَفَ البيانُ الحكيم النّشأة بأنّها الأولى؛ رغم أنّ النّشأةَ على وزن (فَعْلَة)، أي: المَرّةُ من النَّشْءِ على سَبيلِ المُشاكَلةِ التَّقديريَّةِ؛ لأنَّ قولَه قبْلَه: ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦١﴾ [الواقعة: 61] يَتَضَمَّنُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ، فعبَّرَ عن مُقابلتِها بالنَّشأةِ الأولى، فالمراد بالنّشأة الأولى ابتداءُ الخَلْق، فجاء وصْفُها بالأولى، وأمّا في سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ فقد وصَفَ النّشأةَ بالآخِرَة لِتُشيرَ كما مَرَّ على مساواتها للنّشأة الأولى في بداية الآية ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾[4]، فالمراد بالنّشأة الآخرة الإحياءُ بعد الموت، ولهذا وصَفَها بالآخرة، وهذا التّغايرُ بين الأسلوبين جاء تَفَنُّنًا في البيان وتنشيطًا للأذهان وتأكيدًا على الرجوع إلى الله.

---

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 671.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.

بلاغةُ الفصل في قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾:

مَن عَلِمَ قُدرتَه تعالى على جَميعِ الأشياءِ فلن يتردّد في الإيمان بقدرته على الإعادة

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ عمّا قبله ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بينهما من كمالِ اتّصالٍ؛ إذ جاء قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تعليلًا لِما قبْلَه بطريقِ التَّحقيقِ؛ فإنَّ مَن عَلِمَ قُدرتَه تعالى على جَميعِ الأشياءِ الّتي مِن جُملتِها الإعادةُ، لا يُتَصوَّرُ أنْ يَتردَّدَ في قُدرتِه عليها ولا في وُقوعِها بعدَ ما أخبَرَ به[1]، وتأكيدًا لشمول قدرته فإنّه سبحانه لا يُعْجِزُ قدرتَه شيءٌ، تنزيلًا لهم منزلةَ المُنْكِر لإنكارهم البعثَ[2].

الرّابط المعنوي بين مواضع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ الثّمانية:

قـوّةُ تأثيرِ قدرةِ الله المطلقة على النَّفس بجميع أحوالها تثبيتًا وتطمينًا

ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ في ثمانية مواضع هي: [البقرة: 20، 109، 148]، و[آل عمران: 165]، و[النحل: 77]، و[النور: 45]، و[العنكبوت: 20]، و[فاطر: 1] والرّابط المعنويُّ بينها جميعًا أنّها جاءت تذييلًا يناسبُ المعاني الّتي تتضمّنَتْها آياتُها، وهو تأكيدُ قدرةِ اللّه تعالى المطلقة على كلِّ شيء من المادّيّات والمعنويّات، والمشاهدات والغيبيّات، من إذهابِ أبصارِ المنافقين وأسماعِهم، ونصرِ المؤمنين على أهل الكتاب المعتدين، وقدرتِه على الخَلْقِ والعِلْم بهم أينما كانوا، وقدرته على نُصرةِ الحقّ، وقدرتِه على أمرِ الغيبِ وأمرِ السّاعة وقدرته على الخَلْقِ مهما تنوّعَتْ أشكاله، وقدرته على الإعادة بعد الموت، وأنّها جاءتْ كلُّها بالعدول عن إضمارِ الاسم الجليل إلى إظهاره؛ لِما فيها من استقلالٍ دلاليٍّ، لها أثرٌ قويٌّ على النّفس البشريّة تثبيتًا وتطمينًا، بما يجعلُها تجري مجرى المثل السّائر؛ تعليمًا للعباد أنْ يقولوا في كلّ شؤون حياتهم؛ في النّوائب والجوائح والنّصر والظّفر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، بما يُدْخِلُ الطّمأنينةَ على قلوبهم والإقناعَ على عقولهم.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 417.

بلاغة توالي المؤكّدات:

تأكيدٌ لكمالِ قدرةِ الله، وتهديدٌ للمشركين، وتطمينٌ للمؤمنين

توالتِ المؤكّدات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ بدايةً من الجملة الاسميّة، الّتي تَدلُّ على الثّباتِ وقوّةِ الحُكْم وبَقائِه، فقدرةُ الله ثابتةٌ دائمةٌ، ثُمَّ حرف ﴿إِنَّ﴾ الّذي يفيدُ توكيد النّسبة بين المسندِ والمسندِ إليه، ثم تقديم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على الخبر ﴿قَدِيرٞ﴾؛ الّذي يؤكّدُ اختصاصَ الله بهذه القدرةِ المطلقة، ثمّ إظهار الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾، وأخيرًا ختمَ الجملة بصفة ﴿قَدِيرٞ﴾ على وزن (فَعيل)، وهو من صيغِ المبالغة، وكلّ هذه المؤكِّدات مجتمعةً تفيدُ المبالغةَ في تأكيدِ كمالِ قدرة الله تعالى وإحاطتِه بكلّ شيء، وتفيد تهديدَ المشركين، وتحذيرَهم من الحساب والجزاء بعد هذا البيان، فهو يعذّبُ من يشاء بعدله، فلا يقدرُ أحدٌ بشفاعة ولا بغيرها على الحماية منه، كما يُطمْئِنُ المؤمنين فهو يرحمُ من يشاء بفضله، فلا يقدرُ أحدٌ على أنْ يَمَسَّه بسوءٍ[1].

سِرُّ وضْعِ الاسم الظاهر موضع المضمر:

تأكيدٌ على أنّ شمولَ القدرة لجميعِ الأشياء من أحكامِ الألوهيّة

اسمُ الجلالِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ظاهر لا مضمر إذ لم يقل: (إنّه على كلّ شيء قدير) رغم أنّه قد سَبَقَ ذِكْرُه في الآية؛ لِتَكونَ جُملةَ التَّذييلِ مُستقِلَّةً بنفْسِها، فتَجْري مَجرى الأمثالِ[2]، ولِتُقرِّر أنّ اللّهَ في كلِّ أفعاله لا سيما هذا مطلَقٌ غيرُ مُقَيّدٍ بجهةٍ من الجهات، ولا مشروطٍ بأمرٍ من الأمور[3]، ولِما في ذِكْرِ اسم الله من الهيْبةِ والتّعظيم، فهو أهيبُ أسماءِ الله، بما يؤكّدُ قدرةَ الله في بَدْءِ الخَلْقِ وإعادته، فإنّ شمولَ القدرةِ لجميعِ الأشياء من أحكامِ الألوهيّة، مع التّيَمُّن بذكره[4].

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 418.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.
(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 417.
(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 417.

سِرّ إضافة لفظ ﴿كُلِّ﴾:

بيانٌ للإحاطة التّامّة لقدرة الله على كلِّ شيءٍ

﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ من ألفاظ العموم، الّتي تدلُّ في الآية على عموم قدرته سبحانه، ولكنّ إضافتُها إلى لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ المفيد كذلك للعموم وهو نكرة أفادَ استقصاءَ العموم والشُّمولَ لكلِّ ما يصْلُحُ أنْ يُطلَقَ عليه لفظُ شيء، ويتصوّرُه الذّهن، أي أفاد الإحاطةَ التّامّةَ لقدرته سبحانه على كلّ شيء.

الغرض من تقديم الجارّ ومجروره على الخبر:

عظمةُ قدرة الله وشمولُها يُدخلانِ الطّمأنينةَ على القلوب والإقناعَ على العقول

قدّم النّظم الحكيم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على المسند ﴿قَدِيرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ اهتمامًا بالمُقدَّم وتشويقًا للمؤَخَّر؛ فالأهمُّ في السّياق هنا بيانُ كمال استعلائِه وكمالِ قدرته، فالإحاطةُ والشّمولُ الّتي يفيدهما الجارُّ والمجرور هما المراد من الإخبار، ثم يأتي بيانُ: على أيّ صفةٍ كانت هذه الإحاطةُ وهذا الشّمولُ؟ وهي القدرةُ العُظْمى، كما أنَّه إذا ما سمع المخاطَبُ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تَطلَّعَ إلى الخبر ما يكون؟ فيأتيه قولُه ﴿قَدِيرٞ﴾، وهو المُتَطلّع إلى أنْ يعرفه مِنْ بعد أنْ ملأ سمعه وقلبه بالتّهديد والوعيد الّذي فاضَتْ به الجمل السّابقة، فيستقرّ المعنى في قلبه ويقيمُ فيه[1]، كما أنّ في التّقديم تأكيدَ اختصاصِ الله بهذه القدرة المطلقة، وأنّ هذا الاختصاصَ أمرٌ مستقرٌّ في اعتقادِ المخاطَبين، بما يُدْخِلُ الطّمأنينة على القلوب ويُقنِعُ العقول، ومراعاةً لعادةِ القرآن في كلّ المواضع المشابهة؛ إذ لم يأتِ في القرآن الكريم تقديمُ (قدير) على متعلّقه: (على كلِّ شيءٍ)[2].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ وسِرّ تنكيره:

لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ يُطلق على المعدوم والموجود، وقد أفادَ استعماله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أنّه تعالى على كلِّ

(1) محمود توفيق، شذرات الذّهب دراسة في البلاغة العربيّة، ص: 61.

(2) محمود توفيق، شذرات الذّهب دراسة في البلاغة العربيّة، ص: 61.

شمولُ قدرة الله تعالى لكلِّ شيء مهما كان وفي أيّ حالٍ كان، مع المبالغة في تأكيد العموم

شيءٍ ممّا في السّموات والأرض وممّا هو خارج (عنهما) قدير[1] وتنكيره مبالغةٌ في تأكيدِ عموم قدرةِ اللّه تعالى وخاصّة أنّه أُضيف إلى لفظ ﴿كُلِّ﴾، وهو من ألفاظِ العموم، أي: أنّ قدرةَ اللّه تشملُ كلّ شيءٍ مهما كان، وفي أيّ حالٍ كان، ومراعاةً لعادة القرآن؛ فإن لفظَ ﴿شَيۡءٖ﴾ لم يَرِدْ في القرآن إلا نكرةً.

دلالةُ الوصف بِزِنَةِ (فَعيل) في ﴿قَدِيرٌ﴾:

مبالغةٌ في بيان قدرةِ الله المطلقة وأنّها ثابتةٌ لازمةٌ له ﷻ

معنى ﴿قَدِيرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ هو: قادر[2] لكنَّ البيانَ الحكيم آثر لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغةً في بيانِ قدرةِ اللّه المطلقة على إنشاء جميع خلقه بعد إفنائه كهيئته قبل فنائه، وعلى غير ذلك ممّا يشاء موجودًا أو معدومًا، وأنّ ذلك ثابتٌ لازمٌ له ﷻ فلا يُعْجِزُه شيء[3] لأنّ لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾ من صيغ المبالغة على وزن (فعيل)، كما أنّ الوصف بزنةِ (فعيل) يناسبُ السّياق الّذي يدلُّ على العموم لاستعماله لفظ ﴿كُلِّ﴾ وإضافتها إلى نكرة ﴿شَيۡءٖ﴾، ويناسبُ عادةَ القرآن الأغلبيّة، وهي أنّه حيث يُعمِّم القدرة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يأتي بصيغة المبالغة ﴿قَدِيرٌ﴾ وحيث يُقيِّدها يأتي باسم الفاعل (قادر) وهذا هو الفارق الدَّلاليّ بين اسم الفاعل وبين صيغة المبالغة الّتي تدلّ على التّكثير[4] فهو قديرٌ سبحانه، وقدرته مطلقةٌ محيطةٌ لا يُعْجِزُها شيءٌ.

فائدة تذييل الآية بصفة القدرة:

كمالُ قدرة الله على جميع الأشياء موجبٌ لقدرته على النّشأة الأولى والآخرة

ذيّلَ البيانُ الإلهيُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بصفة القدرة؛ مبالغةً في تأكيدِ مضمون ما قبلَه وتقريرِه؛ والمعنى: قديرٌ على البعث وعلى كلِّ شيء إذا أراده[5]، فإنّ كمالَ قدرته تعالى

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 338.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 671.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21.
(4) فاضل السّامُرّائيّ، لمسات بيانيّة لسور القرآن: 4/ 325.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.

على جميعِ الأشياء موجبٌ لقدرته على ما ذكرَ من أنّه يُبدئ الخلقَ ثمّ يعيده، أي: ينشئُ النّشأةَ الآخرة بعد النّشأةِ الأولى، كما أنّ قدرته لذاته ونسبة ذاته إلى كلّ الممكنات على سواء[1]، فيَقْدِرُ على النَّشأةِ الأُخرى كما قدرَ على النّشأة الأولى[2].

وسببُ التّفاوت والاختلاف بين تذييلِ هذه الآية والّتي قبلها، ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ هو أنّ الآيةَ الأولى تُعالجُ مطالَعَةً محدودةً، وهي مشاهدةُ الآيات في الأنْفُس، أمّا الثّانية فتعالجُ وتبيّن مطالَعَةً وسيعَةً جدًّا، وهي مشاهدةُ الآيات في الآفاق.

الغرض من تنكير ﴿قَدِيرٌ﴾:

نكّرَ النّظمُ الحكيم لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لإفادة معنى التّعظيم والتّفخيم لقدرةِ اللّه سبحانه فهي قدرةٌ عظيمةٌ فخمة لا يُقادر قدرها، ولا يُحدُّ حدّها.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(ينْشِئ) و(يُحدث):

الإنشاءُ إيجادُ الـــشّيء، وإحـداثـه حـالًا بعد حال

الإنشاءُ هو الابتداءُ والارْتِفاع[3]، وهوَ الإحداثُ حالًا بعد حالٍ من غير احتذاءٍ على مِثال[4]، وكلّ من ابتدأ خَلْقَ شيءٍ واخترعه فقد أنشأه، والإنْشاءُ: إحداثُ الشّيءِ وإيجاده وتربيتُهُ[5]، والإحداثُ هوَ كَوْنُ الشّيْءِ لَمْ يَكُنْ[6]، وأحْدَثَه: ابْتَدَأَهُ وابْتَدَعَهُ، ولم يكنْ قبلُ[7]، وحَدَثَ الأمرُ: وقعَ، وأحدثه اللّه: أوْقَعَه وأظْهَرَه[8]، فيشترك لفظ

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 417.
(2) البَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 191.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (نشأ).
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 134.
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (نشأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حدث).
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حدث).
(8) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حدث).

الإنشاء والإحداث في معنى الابتداء، ويتميّز الإنشاء بمعنى إيجادِ الشّيء حالًا بعد حالٍ من غير احتذاءٍ على مِثال، ويكون من غير سَبَب، ويتميّز الإحداث بمعنى إيجاد الشّيْء بعد أنْ لم يكن، ويكون بِسَبَبٍ وبِغير سَبَب[1]، وقد ناسبَ هنا التّعبير بالإنشاء، للتّنبيه على أنّ الإبداءَ يُسَمّى نشأةً أولى، كالإعادة، ويكون التّغايُرُ بينهما بالوصف، حيث قالوا: نشأةٌ أولى، ونشأةٌ أخرى، فالإبداءُ والإعادة نشأتان من حيث إنّ كلًا منهما اختراعٌ وإخراجٌ من العدم[2].

الآخرة والثّانية:

النّشأةُ الآخرة هي الّتي تأتي بعد النّشأة الأولى، فلا فناءَ ولا نشأةَ بعدها

الآخِرُ هو الّذي يبقَى بعدَ هلاكِ كلِّ شيءٍ، فهو موضعٌ للنِّهاية، وهو تالٍ لِلْأَوَّلِ، وتأنيثُ (الآخرة) آتٍ على مُقابَلَةِ (الأولى)، ونَقيض المتقدِّمَة[3]، و(الآخِر) ما كان قبلَه سابقٌ، وسُمّيَت الْآخِرَةُ (آخِرَةً)؛ لِأنَّها بعد الدُّنْيا[4]، فالدّارُ الآخِرة: هي دارُ البقاءِ بعد الموت[5]، وأمّا الثّانية: فتُقال باعتبارِ العدد، وأصلُه يدلُّ على تَكْرير الشّيْءِ مَرَّتَيْن، أَوْ على جَعْلِهِ شَيْئَيْنِ مُتَوالِيَيْنِ أَوْ مُتَبايِنَيْن[6]، والاِثْنانِ: ضِعْفُ الواحِد، والثّاني اسمٌ للعدد الكائن بين الواحد والثّلاث[7]، والخلاصة أنَّ كُلًّا من (الآخرة) و(الثّانية) تأتي بعد الأولى، إلا أنّ الآخرةَ لا شيءَ بعدها، بينما الثّانيةُ تشيرُ إلى العددِ والتّسلسل، وتكريرِ الشّيء مرّتين، وتأتي بعدها الثّالثة، ومن هنا ناسبَ التّعبيرُ بالآخرة في الآية دون الثّانية؛ لأنّ النّشأةَ الآخرة لا نشأةَ بعدها، فهي لا تتكرّر، وتكون من أجل البعث والجزاء فلا فناءَ بعدها.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.
(2) البَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 191، والهَرَرِيّ، الرّوح والرَّيْحان: 21/ 389.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (أخر)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 89.
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 149.
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أخر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ثنى).
(7) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 94.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ [العنكبوت: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

النّشأةُ الآخرة لتعذيبِ أهلِ التَّكذيبِ عدلًا ولإثابةِ أهلِ الإيمان فضلًا

لَمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى النَّشْأةَ الآخِرةَ؛ ذكَرَ ما يَكونُ فيها، وهو: تعذيبُ أهلِ التَّكذيبِ عَدلًا وحِكمةً، وإثابةُ أهلِ الإنابةِ فضْلًا ورَحمةً فقال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تُقۡلَبُونَ﴾: (قلب) أصلٌ يدلّ على رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ[2]، وقلَبَ الشّيءَ إليه: ردَّه وأرجعه، وصرفه عن وجهٍ إلى وجهٍ، أي: غيّر حاله إلى عكسِ ما كان، كقلبِ الثّوب، والِانْقِلابُ: الرُّجوع، وعبّروا عنه بالرُّجوع إذْ هو عكسُ الذَّهاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾، والانقِلابُ: الانصراف[3]، والْمُنْقَلَب: مَصيرُ العباد في الآخِرَة، والانْقِلابُ إلى اللّهِ ﷻ: المَصيرُ إليه والتَّحَوُّلُ[4]، والمعنى في الآية: وإليه تُرجعون وتُردّون بعد موتكم، فيحاسبكم على أعمالكم[5].

المَعنى الإجماليُّ:

تعذيبُ أهلِ التّكذيب عدلًا وحكمة، وإثابة أهلِ الإنابةِ فضلًا ورحمةً

يذكر البيانُ الإلهيُّ أنّه تعالى ذِكْرُه يعيدُ خَلْقَ عباده من بعد فنائهم، فيعذّب يوم القيامة بعدله من يشاء تعذيبَه منهم على ما أسلفَ من جُرمِه وتكذيبه في أيام حياته، ويَرْحمُ بفضلِه من يشاء رحمتَه منهم ممّن تاب وآمن وعمل صالحًا[6]، أو أنّ المعنى: أنّه يعذِّبُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 42.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(3) الرّاغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (قلب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (قلب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 22، والمَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 128، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 25.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 22، والزَّمَخْشَريّ، الكشّاف: 3/ 449.

في الدنيا من يشاءُ ويرحمُ من يشاء، فإنْ تأخَّرَ عنكم ذلك أيها المخاطَبون فلا تظنّوا أنّه فات، فإنَّ إليه إيابَكم، وعليه حسابَكم، وعندَه يُدَّخر ثوابُكم وعقابُكم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصل في قوله ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾:

من ثَبَتَتْ له القُدرةُ على البَدْءِ والإعادة ثَبَتَتْ له القدرةُ على التّعذيب والإثابة

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ قولَه: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ عمّا قبله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بينهما من كمالِ اتّصالٍ؛ إذ جاءت جملة ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تكملةً لما قبلها فقد جاءتْ لبيانِ ما بعد النشأة الآخرَة[2]، لأنّه لمّا ثبتتْ قدرةُ اللّهِ على كلّ شيء - ومنها النّشأةُ الآخرة للحساب والجزاء - نتجَ عنها قولُه: ﴿يُعَذِّبُ﴾ بعدله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ و﴿وَيَرۡحَمُ﴾ بفضله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مُهَدِّدًا به بعد البيان[3].

دلالة التّعبير بالفعلَينِ المضارعَين:

بيانٌ لقدرةِ الإله على العذابِ والرّحمة بأنها حاضرةٌ ومستمرّةٌ في كلِّ لحظة في الدّنيا والآخرة

أتى البيانُ القرآنيُّ بالفعلين ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿وَيَرۡحَمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾: بصيغة المضارع؛ ليشيرَ إلى أنّ عذابَه ورحمتَه بمن يشاء أنْ يعذِّبه أو يرحمه لا ينقطعان سواءٌ أكانَ في الدّنيا؛ فهي دارٌ تشتملُ على نِعَمٍ لا تُحصى، وعلى ابتلاءاتٍ ومصائبَ لا تنقطع، أم كان في الآخرة فهي دارُ الخلود في العذاب أو النّعيم اللّذَينِ لا ينقطعان، وهذا يعكسُ قدرةَ اللّهِ المطلقة على العذابِ أو الرّحمةِ في أيِّ وقتٍ يشاء، وبهذا يَشْعُرُ القارئُ بأنَّ هذه القُدرةَ الإلهيّة حاضرةٌ ومستمرّةٌ في كلِّ لحظةٍ في الدّنيا والآخرة، بما يكون فيه تهديدٌ وتحذيرٌ للكافر، وتبشيرٌ وتثبيتٌ للمؤمن.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 42.
(2) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاوِيّ: 15/ 36.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 417.

معنى ﴿مَن﴾ ودلالتها:

تعميمٌ لكلِّ مَنْ حكمتِ المشيئةُ الإلهيّةُ بتعذيبه أو برحمته

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ اسمُ موصول بمعنى الّذي، يفيدُ العموم، وفي هذا بيانُ المرادِ بمَنْ يعذِّبهم اللّهُ تعالى وبمن يرحمهم، أي: يُعذِّبُ كلَّ من يشاءُ اللّه تعالى أن يُعذِّبه، ويرحمُ كلَّ من يشاء اللّه أنْ يرحمه، كما يفيدُ التّركيزَ على الصِّلة، وهي المشيئةُ الإلهيّة الحكيمة في التّعذيبِ والإثابة؛ لأنّ القرآن يأتي بالاسم الموصول عندما تكون صلتُه هي الّتي عليها مدارُ الحكم، ويفيدُ كذلك التَّشويقَ لمعرفةِ هذه الصّلة، لِما يتضمّنُه الاسم الموصول من الإبهام.

سِرُّ التّعبير بفعل المشيئة مادّةً وصيغةً:

اقترانُ المشيئةِ الإلهيّةِ بالهيبةِ والحكمةِ والعدْلِ

لم يقلِ البيانُ القرآنيُّ: (يعذِّبُ الكافرَ ويرحمُ المؤمن)، وإنّما عبّر بفعل المشيئة فقال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ وذلك إظهارًا للهيبة الإلهيّة[1]، وهذا أبلغُ في التّخويف؛ لأنَّ اللّهَ أثبتَ بهذا إنفاذَ مشيئته، وأنّه إذا أرادَ تعذيبَ شخصٍ فلا يمنعُه منه مانعٌ[2]، وأبلغُ في الدَّلالة على الحكمة الإلهيّة في الحسابِ وفْقَ ما يستحقّ الإنسان؛ إذ المشيئةُ الإلهيّةُ مقرونةٌ بحكمته سبحانه، أي: كلّ من كان جديرًا ومستحقًّا لذلك، فإنّ مشيئةَ اللّه ليستْ عبثًا، بل هي منسجمةٌ مع الاستحقاقِ والجدارة، وكذلك فإنّ هذا التّعبير أبلغُ في التّربية؛ لأنّه يتضمّنُ مع التّرهيب معنى التّرغيب؛ فإنّه سبحانه في الوقت الّذي يُهَدِّدُ فيه بالعذاب يلوِّحُ لعبادهِ حتّى الكافرين بأنّ رحمتَه تعالى ما زالتْ متاحةً لهم إنْ تابوا وأصلحوا؛ ليرتدِعوا وليؤمنوا، ثم يلوِّحُ لهم برحمته سبحانه ليرغِّبَهم في طاعته ويُلفتَهم إلى الإيمان به[3]، وإضافةً إلى ذلك كلّه فإنّ تعليقَ العذابِ والرحمةِ

(1) النِّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 380.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 42.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11121.

بالمشيئة للدَّلالة على أنّه لا يجبُ عليه شيءٌ سبحانه، وإنَّ تعيينَ العذابِ للمشرك يقوم بناءً على الوعيد الأكيد[1]، وأتى فعل المشيئة بصيغة المضارع الّتي تدلُّ على التّجدّد والاستمرار؛ تناسبًا مع فِعْلَي ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿وَيَرۡحَمُ﴾ اللّذَينِ جاءا بصيغة المضارع؛ فيفيدُ بذلك استمرارَ مشيئته سبحانه في عذابِ مَن يستحقّ التّعذيب، ورحمةِ من يستحقّ الرّحمة، وفي هذا تهديدٌ وردعٌ للكافر عن كفره، وتبشيرٌ للمؤمن وتثبيتٌ له على إيمانه.

الغرض من حذف مفعولي المشيئة:

اختصارٌ حسنٌ، إذ ما يُلحظ لا يُلفظ، فكلّ سليمِ الذّائقة يلاحظ المفعول في الفعل

حذفَ البيانُ القرآنيّ مفعولَي المشيئة في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لبلاغة الإيجاز، إذ التقدير: يُعَذّبُ مَن يَشَآء أنْ يعذّبهُ، وهم المشركون، ويَرْحَمُ مَن يَشاء أنْ يرحمَه، وهم المؤمنون[2]؛ "لأنّ مَفْعول المشيئة يُقَدَّرُ من جنسِ ما قبلَه، وحذفُه كاللّازم احترازًا عن العبث[3]، ولو أظهره لصارَ الكلام غَثًّا واللّفظ رَثًّا، ولا فائدةَ مقصودةٌ منه، فمن البلاغةِ الحذفُ في هذا المقام؛ لانصباب الكلام على مشيئة اللّه، فنابتْ قرينةُ الحال عن ذكرِ المفعول[4]، لأنّه يلزمُ من وجودِ المشيئة وجودُ المُشاء[5]، كما أنّ حذفَ مفعولي المشيئة هو غالبُ الاستعمال فيهما، والفريقان معلومان من آياتِ الوعد والوعيد، فأصحابُ الوعدِ شاء اللّه رحمتهم، وأصحابُ الوعيد شاء تعذيبهم، فالّذين شاء تعذيبهم هم المشركون، والّذين شاء رحمتهم هم المؤمنون، والمقصود هنا هم الفريقان معًا، كما دلّ عليه الخطابُ العامُّ في قوله ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾[6].

(1) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاوِيّ: 15/ 36.
(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 449، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.
(3) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاوِيّ: 15/ 36.
(4) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 163.
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (شيأ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232.

دلالةُ العطف في قوله ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾:

بيانٌ لكمالِ قدرته سبحانه في أنْ يجمعَ بين تعذيبِ من يشاء ورحمةِ من يشاء

في عطف قوله تعالى: ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ على قوله تعالى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بيانٌ لكمالِ قدرتِه سبحانه إذ جمعَ بين قدرته على تعذيبِ من يشاء بعدله، فلا يقدرُ أحدٌ بشفاعةٍ ولا بغيرها على الحماية منه، وعلى إثابةِ من يشاءُ بفضله، فلا يقدرُ أحدٌ على أنْ يمسّه بسوءٍ، أو أنْ يمنعَ عنه الرحمة، وفي هذا العطف كذلك جمعٌ بين التّرغيب والتّرهيب، فهو يهدّد سبحانه عباده أوّلًا بالعذابِ ليرتدعوا وليؤمنوا، ثم يُلوِّح لهم برحمته سبحانه ليرغِّبَهم في طاعته، ويُلفِتَهم إلى الإيمان به[1].

الغرض من تقديم العذاب على الرَّحمة:

تناسُبُ تقديم التَّرهيبَ بالتَّعذيب مع سياق إنذار الأنبياءِ السّالفِ ذكرُهم لأقوامهم

قدّم البيانُ الحكيم ذِكْرَ العذاب على الرحمة في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ رغم أنّ القرآن يبدأ بذكر الرّحمة حيث ذكر الرّحمة والعذاب، كقوله: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: 18]، ولكنّه قدَّمَ هنا العذاب مراعاةً للسّياق، وهو هنا سياقُ إنذارِ إبراهيم لقومه، ومخاطبة النّمرود وأصحابه، وأنّ العذابَ وقع بهم في الدنيا[2]، فقد أنذرَ إبراهيم قومه قائلًا: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا﴾ إلى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، ومراعاةً للمقام، فالخِطابُ جارٍ مع مُنْكري البَعثِ الّذين حظُّهم فيه هو التَّعذيبُ[3]، أي اقتضتِ الحكمةُ هنا تقديم ذكر العذاب ترهيبًا وزجرًا للمشركين، ومراعاةً لكثرةِ من يُعذَّب[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11121.
(2) السّامُرّائّي، أسرار البيان في التّعبير القرآنّي، ص: 76.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 349، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232.
(4) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاوِيّ: 15/ 36.

توجيه المتشابه اللّفظيّ في التّقديم والتّأخير:

من بلاغة أسلوبِ القرآنِ مراعاةُ السّياقِ في تقديم الأنسبِ له

قدّم البيانُ القرآنيّ في هذه الآية ذِكْرَ العذاب على الرّحمة مراعاةً للسّياق، وهو هنا سياق إنذارِ إبراهيم لقومه الكافرين بدعوته، المكذِّبين بالبعثِ، والمعرضين عن آيات الله، كما قدَّمها كذلك في آية أخرى فقط، وهي في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤٠﴾ [المائدة: 40] كذلك مراعاةً للسّياق؛ إذْ تَقَدَّمَها حَديثٌ عَن حُكْمِ الحِرابَةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ [المائدة: 33]، وعن حُكم السّارق والسّارقة: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38] فكان المناسبَ تقديمُ العذاب على المغفرة(1).

بينما قُدِّمَتِ المغفرة على العقاب في كلّ القرآن، ومنها مثلًا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: 284]؛ لوقوعها في سياقِ خطابٍ للمؤمنين، وحديثٍ عنهم وإقرارٍ من قِبَلهم بالسّمع والطاعة وطلبِ المغفرة، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]، فناسبَ ذلك تقديمُ المغفرة على العذاب رحمةً منه تعالى، وحَثًّا لعباده على المُسارَعَةِ إلى العبادة فهي من موجبات المغفرة(2).

بلاغةُ المقابلة في الآية:

تعميقُ الإحساسِ بعظمة الله وقدرته المطلقة وأنّه المنفردُ بالحكم

جَمعَ البيان الإلهيُّ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ بين لفظين متقابلين في المعنى هما ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿وَيَرۡحَمُ﴾ على سبيلِ الطّباق؛ ليلفتَ انتباهَ المخاطَبين إلى التّباينِ الشّديدِ بين الحالتينِ، ويجعلَ المعنى أكثرَ وضوحًا وتأكيدًا، ويُبرزَ

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/ 74، والكَرمانيّ، أسرار التّأويل في القرآن، ص: 87.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/ 74.

قدرةَ اللّه المطلقةَ في التّحكّم بمصائر النّاس، بما يجعله حقيقًا بالخشيةِ والرّجاء، وذلك يدلّ على أنّ اللّهَ سبحانه هو المنفردُ بالحكم الجزائيّ، وهو إثابةُ الطّائعين ورحمتُهم، وتعذيبُ العاصين والتّنكيلُ بهم[1]، وأنّه هو الحاكمُ المتصرّف الّذي يفعلُ ما يشاء، ويحكمُ ما يريد، لا معقّبَ لحكمه، ولا يُسأل عمّا يفعلُ وهم يُسألون[2].

دلالة الواو في قوله ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾:

مَعادُ الخلقِ إلى الله، فالعذابُ والرّحمة بمشيئته وتحت أمره

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ عاطفةٌ، والجملةُ معطوفةٌ على جملة ﴿يُعَذِّبُ﴾[3]، بجامع أنّ الفاعلَ في هذا الموقفِ الجليل هو اللّهُ، فهو المعذِّبُ بعدله من يشاء، وهو الرّاحمُ بفضله من يشاء، وهو الّذي يَرجِعُ الخَلۡقُ كلُّهم إلى حكمِه؛ ليكشفَ بواطنهم ويَقۡلِبَ أحوالهم إلى جنةٍ أو إلى نار، وليؤكِّدَ بذلك قدرته على التّعذيب والإثابة، أي: بما أنّ معادكم إليه وحده وأنّ كتابَكم وحسابَكم لديه؛ فالعذابُ والرّحمة أيضًا بإرادته وتحت أمره؛ لا يُعۡجِزُه أحدٌ، ولا يمتنعُ عليه أحدٌ.

ويحتمل أنۡ تكون استئنافية[4]، وتكون الجملةُ تقريرًا لإعادةِ الخلقِ الّتي سبقَ ذكرها، وتوطئةً لِما بَعۡدُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾[5].

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور على عامله:

لَفۡتُ اهتمامٍ بما سينقلب إليه العبادُ مؤمنُهم وكافرُهم

قدّم البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرور (إليه) على عاملِه ﴿تُقۡلَبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾؛ للتّعظيم[6]، وللاهتمام والتّأكيد؛ إذ ليس المَقامُ للحصۡرِ؛ إذۡ ليس ثمَّةَ اعتقادٌ مَردودٌ، وفي هذا إعادةُ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 628.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 270.
(3) الهَرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 382.
(4) بهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 9/ 28.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 353.
(6) بهجت عبد الواحد صالح، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 9/ 28.

إثباتِ وُقوعِ البعثِ، أي: "تقريرٌ للإعادة بعد سوقِ برهانها"[1]، وتعريضٌ بالوعيدِ[2]، وبما يكون في هذا اليوم من انقلابِ أحوالهم إلى جنّةٍ أو إلى نار، وانكشافِ بواطنهم بما يردعهم عن كفرهم، ويلفتهم إلى التّوحيد الخالص.

سِرّ إيثار التّعبير بالفعل ﴿تُقۡلَبُونَ﴾ مادة وصيغة:

تَضَمُّنُهُ معنيين الأوّل الرّجوع، والثّاني رجوعٌ فيه تَحَوُّلٌ مِنْ حالةٍ إلى أُخْرى غيرِها

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿تُقۡلَبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ بدلًا من (تُرْجَعونَ) لِتَضَمُّنِهِ معنى مضافًا على الرّجوع الّذي هو عودةٌ للحالةِ الأوّلى الّتي كان فيها، والمعنى هو صرفُ الشّيء عن وجهٍ إلى وجهٍ آخر[3]، والانقلابُ من حالةٍ إلى حالةٍ عكسِها[4]، حيث لا يملكُ أحدٌ فيه النَّفعَ والضُّرَّ إلا اللّه؛ أي: ليس مقصود الآية هو التّأكيدُ على إثباتِ الرّجوع، أي: البعث والجزاء والحساب، وإنّما المقصودُ هو أنّ الفريقينِ من المؤمنينَ والكافرينَ يَرْجِعوْنَ إلى اللّه فتَنْقَلِبُ حالُهم إمّا إلى جنةٍ أو إلى نار، فبعدَ النّعيم الّذي كان يجدهُ الكافرُ في الدنيا يجدُ العذابَ الأليم، وبعد الشّقاءِ والظلم الّذي كان يعانيه المؤمنُ يجدُ النعيمَ المقيم، أو أنْ تنقلبَ بواطنُهم فتصبحَ ظاهرةً كما ينقلبُ باطن الثّوب فيصبح ظاهرًا، في يوم تُبلى فيه السَّرائِرُ وتنكشفُ فيه البواطنُ وتتجلى أسْرارُ الإنسان الخفيّة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾ [الطارق: 8 - 9] ومِنْ ثَمَّ يكون لفظ ﴿تُقۡلَبُونَ﴾ أنسبَ للسّياق الّذي يذكرُ قدرةَ اللّهِ المطلقةَ على تعذيبِ من يشاء، وإثابةِ من يشاء في كلّ ما أَسَرّوه أو أَعْلَنوه.

كما أنّ لفظ ﴿تُقۡلَبُونَ﴾ يدلُّ كذلك على الغَصْب والانقياد عُنْوةً؛ وكأنّه يقول لهم: مهما بلغَ بكم الطّغيان والجبروتُ والتّعالي بنعم

(1) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاوِيّ: 15/ 36.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (قلب).

اللّه، فلا بُدَّ لكم من الرّجوعِ إليه، والمثولِ بين يَديْه، فتذكَّروا هذه المسألة جيدًا، حيث لا مهربَ لكم منها؛ لذلك كان مناسبًا أنْ يقول بعدها: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

وقد عبّر البيانُ القرآنيُّ بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾؛ لإفادة التّصوير؛ أي تصوير العنف والشّدّة الّتي يلاقونها في رجوعهم إلى ربّهم للحساب، سواءٌ بانقلابِ أحوالهم وما كانوا عليه في الدّنيا إلى قبرٍ وبعثٍ وحشرٍ وحسابٍ تنقلبُ فيه بواطنهم من الخفاء إلى الظّهورِ، وتنقلب فيه أحوالهم من الكبرِ والغرور إلى الذّلّة والضّمور، ومن مُتعِ الدّنيا إلى جحيم الآخرة، وذلك ليحملهم هذا التّصوير على استدراكِ أحوالهم والتّوبة إلى اللّه قبلَ فواتِ الأوان.

بيانُ المخاطَب بالفعل ﴿تُقۡلَبُونَ﴾:

الخلقُ كلّهم ينقلبون إلى حكمِ الله من جنةٍ أو نار

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ عامٌّ، والمخاطَبون هم أصحابُ الوعد الّذين شاء اللّه رحمتَهم وهم المؤمنون، وأصحابُ الوعيد الّذين شاء اللّه تعذيبَهم، وهم المشركون، فالفريقان من المؤمنين والمشركين كلُّهم ينقلبون إلى حكمِ اللّه من جَنّةٍ أو نار[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العذاب والإهلاك:

العذابُ أعمّ من الإهلاك فقد يكون العذابُ بالإيلام وقد يكون بالإهلاك

العذابُ أعمّ من الإهلاك من جهة أنّ العذابَ قد يكون إيجاعًا شديدًا، ونكالًا وعُقوبَةً، وقد يكون إهلاكًا[3]، فأصلُ العذاب هو الضَّرْبُ ثُمَّ اسْتُعيرَ ذَلِكَ في كُلِّ شِدَّةٍ[4]، وقيل أصلهُ من المنعِ، لمنعه من معاودةِ ما عوقبَ عليه[5]، بينما الإهلاكُ هو أشدُّ العذاب؛ إذ

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11121.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232.
(3) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عذب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذب).
(5) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (عذب).

هو عذابُ الاستئصال والإبادة والإفناء مؤاخذةً، يُقال: أهلكَ اللّه الظالمين أي جعلهم يَهْلِكون ويموتون، وأبادهم فلم يتركْ لهم أثرًا[1]، فالإهلاكُ يُطلق على الموت، وعلى وجوبِ النّار والخلود فيها[2]، فأصلُ الهلاك يدلّ على الكَسْرِ والسُّقوط[3]، وقد جاء التّعبير بالعذاب هنا تناسبًا مع عموم السّياق؛ إذ هو عامٌّ يشملُ العذاب بالإيلام ويشملُ عذابَ الإهلاك.

الرّحمة والعفو:

الرّحمةُ من الله إحسانٌ وإنعامٌ وإفـضـالٌ منه لـلـمرحوم، أما العفو فإسقاط للعقوبة

أصلُ الرّحمة الرّقّةُ والعطفُ والرّأفةُ[4]، والرَّحْمَةُ في بَنِي آدَمَ: رِقّةُ القَلْبِ وعَطْفُهُ، ورَحْمَةُ اللَّهِ: عَطْفُه وإحسانُه ورزْقُهُ[5]، والرَّحْمَةُ رقّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المَرْحوم، وإذا وُصفَ به الباري فليس يُراد به إلّا الإحسانُ المجرّدُ دون الرّقّة، وعلى هذا روي أنّ الرَّحْمَةَ من اللّه إنعامٌ وإفضال[6]، وأمّا العفو في أصله فهو تَرْكُ الشّيْءِ، والعفو يقتضي إسقاطَ اللّوم والذّمّ، وتَرْكَ عُقوبَةِ المُسْتَحِقّ، وعَفْوُ اللّهِ تعالى عنْ خَلْقِهِ: تَرْكُهُ إيّاهُمْ فلا يُعاقِبُهُمْ فضْلًا مِنْهُ[7]، وقيل: العَفْوُ: المَحْوُ، من عَفَتِ الرّياحُ الأثَرَ، أي دَرَسَتْه ومَحَتْه[8]، إذن الرّحمةُ من اللّه إحسانٌ وإنعامٌ وإفضالٌ منه للمرحوم، ولا يُشترطُ أنْ تكون بعد ذنْبٍ، بينما عفو اللّه تركُ عقوبةِ المستحقّ فضلًا منه ويكون بعد ذنب، فالرّحمةُ أعمّ فهي تشملُ المذنب وغير المذنب، وقد ناسب التّعبير بها هنا إذ السّياقُ عامٌّ فهو خطابٌ للجميع.

---

(1) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (هلك).
(2) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (هلك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(6) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 235.
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عفو).

الانقلاب والرّجوع:

الانقلابُ تَغيُّرٌ وتحوّلٌ من حالٍ إلى حال، والرّجوعُ عَوْدٌ إلى الحال الّتي كان منها البَدْءُ

الانقلابُ في أصله رَدُّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ[1]، أي: تغيُّرُ حاله إلى عكسِ ما كان عليه، كقَلْبِ الثّوب، والانْقِلابُ: الانصراف[2]، والانْقِلابُ إلى اللَّهِ ﷻ: المَصيرُ إليه، والتَّحَوُّلُ[3]، وأمّا الرّجوعُ فهو العَوْدُ إلى ما كان منه البَدْءُ، وتقديرُ البَدْءِ مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعُه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفعلٍ من أفعاله[4]، وقد جاء التّعبير بالانقلاب متناسبًا مع الطّباق في الآية (يعذّب، يرحم)، ومع انقلابِ الإنسان من الدّنيا إلى الآخرة، وتغيُّرِ حالِه وتحوُّلِه من حالٍ إلى حال.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(2) الرّاغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (قلب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (قلب).
(4) الرّاغب، المفردات: (رجع).

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢﴾ [العنكبوت: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمِا قَبْلَها:

إبطالُ أيِّ مانعٍ من القُدرةِ على المعاد

لَمّا لم يُبقِ اللّهُ تعالى للقُدرةِ على إعادتِهم مانِعًا يُدَّعَى إلّا مُمانَعَتَهم منها؛ أبطَلَها على تقديرِ ادِّعائِهم لها، فقال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، ولَمّا بَيَّنَ سبحانَه لِمَنْ تأخَّرَ ثوابُه وعقابُه في الدُّنيا أنّ الانقلابَ سيكون إليه، وأن الحسابَ سيكون عليه، وذلك بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ أكَّدَ عَدَمَ الانفلاتِ مِنْه سبحانَه بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾: (عجز) أصلان صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما عَلَى الضَّعفِ، والآخَرُ عَلَى مُؤَخَّرِ الشَّيءِ، والعَجْزُ: الضَّعْفُ، يُقالُ: عَجِزَ عَنِ الشّيءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فهوَ عاجِزٌ، أيْ ضَعيفٌ، وقيل: أصله: التَّأَخُّرُ عن الشّيءِ، يُقالُ: أعْجَزَني فُلانٌ، إذا عَجِزْتُ عَنْ طَلَبِهِ وإدْراكِهِ، وصار في التّعارف اسمًا للقصور عن فعلِ الشّيءِ، وهو ضدّ القدرة، واللّهُ تَعالَى لَنْ يُعْجِزَه شَيْءٌ، أيْ لا يَعْجِزُ اللّهُ تعالَى عَنْهُ مَتَى شاءَ[3]، ومعنى معجزين في الآية مجازٌ في الْغَلَبَةِ والانْفِلاتِ من المُكْنَةِ، والمعنى: وما أنتم بقادرين على أنْ تفلتوا أو تهربوا من لقاء اللّه تعالى ومن حسابه[4].

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 418.
(2) النِّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 380.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عجز).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 26.

المَعْنى الإجْماليُّ:

كَمالُ قُدرةِ اللّه ﷻ؛ إذ لا يُعْجِزُه شيءٌ

المعنى في البيان الإلهيّ في خطاب مشركي قريش في هذه الآية هو: ما أنتم بمُفْلِتينَ مِن عذابِ اللّهِ، سواءٌ كنتم في الأرض وتواريتم فيها، أو هبطتم في مَهاويها، أم كنتم في السّماء وتحصّنتم بها لو استطعتُم الرُّقيَّ فيها، فاللّهُ قادِرٌ على أنْ يُعَذِّبَكم أينَما كُنتُم، وليسَ لكم مِنْ دونِ اللّهِ وليٌّ يَتَولّاكم، ولا نصيرٌ يَنصُرُكم منه إنْ أرادَ بكم سوءًا، ولا يمنعكم مِنْه إنْ أحلَّ بكم عقوبَتَه[1]، أو لا يُعْجِزُ اللّهَ أحدٌ مِنْ أهلِ سماواته وأرضه، بلْ هو القاهرُ فوق عباده، وكلُّ شيء خائفٌ مِنْه، فقيرٌ إليه، وهو الغنيُّ عمّا سواه[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ في قوله ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾:

وعيدٌ بانقلابِ الكافرين إلى اللهِ وعجزهم عنِ الفرارِ مِنْ عذابِه

عَطْفُ جملة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على جملةِ ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ باعْتِبارِ ما تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الوَعيدِ[3]، بأنّ الكافرين - الّذين سيرجعون إلى اللّه وتنقلبُ أحوالهم - مقهورون للّه خاضعون لسلطانه لا يمكنهم الهروب منه، ولا الخلاص بحالٍ من الأحوال[4]، بما يُقَرِّرُ العَجْزَ التّامَّ إشارة بقوله ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ وتصريحًا بقوله ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، وأنّه ليستْ هناك قوّةٌ في هذا الوجود تَحوْلُ بينهم وبين الانقلابِ إليه سبحانه، والوقوفِ بين يديه للحسابِ والجزاء.

دلالة النَّفي في قوله ﴿وَمَآ﴾:

تأكيدُ نفي إفلاتِهم عَنْ عقابِ اللهِ وإعجازِهم الله عن إجراءِ حُكمِه

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ مِنَ المُبالَغَةِ المَفْروضَةِ؛ لِقوّةِ النَّفي بها، وكثيرًا ما يقترن منفيُّها بـ(من) الاستغراقيّة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 26.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 271.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232.
(4) أبو بكر الجزائريّ، أيسرُ التّفاسير: 4/ 121.

المؤكِّدة، بخلاف (لم) و(ليس) و(لا)، ومِنْ ثَمّ فاستعمالُ هذه الأداةِ يَدُلُّ على بلوغِ الغايةِ في انتفاءِ الإفلاتِ من قدرةِ اللّه وعقابه، وإعجازه عن إجراءِ حُكمِه وقَضائه في الكافرين، وفيه "إشارةٌ إلى إبطالِ اغترارِهم بتأخيرِ الوعيدِ الّذي تَوَعَّدوهُ في الدنيا"(1).

دلالةُ التّعبير بضمير المخاطب ﴿أَنتُم﴾:

تأكيدٌ يحملُ في طَيّاته التّهديدَ بالمواجهةِ للمشركين

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالضَّميرِ المُنْفصِلِ المخاطَب ﴿أَنتُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ استمرارًا في مواجهتهم بالخطابِ الّذي سَبَقَ بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ والّذي يحملُ في طَيّاته التَّنبيهَ الشّديدَ للمشركين، والتَّهديدَ بالمواجهة والتَّصدّي لبيان شركهم؛ إذ التَّهديدُ بالمواجهة أشدُّ من التَّهديدِ بالغَيبة، وفيهِ إيماءٌ كذلك بأنّ حالهم لا يغيبُ عنه سبحانه.

معنى الباء ودلالتها في قوله ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾:

تأكيدُ نَفْيِ إعجازهم لله في الأرضِ والسّماءِ تقريرٌ لعجزهم التّامّ

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ للتَّأكيدِ(2)؛ لأنّه يصحّ أنْ يقول: (وما أنتم معجزون)، ولكنّه أتى بالباء؛ ليؤكّدَ نفيَ إعجازِهم للّه في الأرض والسّماء، بما يقرّرُ عجزَهم التّامّ، وأنّه لا مهربَ يملكون الفرارَ إليه إلا بالإيمان والتّقوى.

الغرض من التّعبير بالجملة الاسميّة:

عجزُ الكافرين عَنِ الإفلاتِ مِنْ عقاب الله ثابتٌ لا يتخلّفُ

جاءَ البيانُ القرآنيُّ بالخبر جملةً اسميةً في قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ للدّلالةِ على ثباتِ الخبرِ ودوامِه، أي: دوامِ النَّفيِ لا نفيِ الدّوام(3)، والمعنى: عجزُ الكافرين عن الإفلاتِ من حكم اللّه وعقابه ثابتٌ لا يتخلّفُ؛ فهم في مُكْنَةِ خالقِهم(4).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 233.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 416، وابن عُثَيْمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 93.

(3) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاويّ: 15/ 36.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 104.

دلالة التّعبير بالخبر الاسميّ (معجزين):

نفيُ إعجازِهم اللهَ هربًا منه وفرارًا من قضائه وصفٌ لا يتبدّلُ ولا يتغيّرُ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ عن عدم إعجازِ المشركين للّه بالاسم (معجزين) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، ولم يعبّرْ بصيغةِ الفعلِ، فلم يقلْ: (لا تُعجِزون)؛ وذلك لأنَّ نَفْيَ الفعلِ لا يدُلُّ على نفْيِ الصَّلاحيَّةِ[1]، فنفيُ الفعل غيرُ نفي الوصف؛ فحينَ تقول مثلًا: (أنت لا تَخيط لي ثوبًا)، فهذا يعني أنّه يستطيع أنْ يخيط لك ثوبًا لكنَّه لا يريدُ أن يفعل، فالقدرةُ موجودة لكنْ يَنْقُصها إرادة مزاولة الفعل، إنّما حينَ تقول: (أنتَ لسْتَ بخائطٍ)، فقد نفيتَ عنه أصلَ المسألة، لذلك لم ينْفِ عنهم الفعلَ حتى لا يُتَوَهَّمَ إمكانيّةُ حدوثِه منهم، فالهربُ والإفلاتُ من لقاءِ اللّهِ في الآخرة أمرٌ غيرُ واردِ على الذِّهْن أصْلًا، وإنّما نَفَى عنهم الوصْفَ مِن أساسه[2].

الغرضُ من حذف مَفعولِ ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾:

نفيُ إعجازِ الكافرين لله، لأنّه أمرٌ معلومٌ فالمخلوقُ لا يُعجِزُ الخالقَ

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ مَفعولَ ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ اختصارًا للعِلْم به، أي: بمُعجِزين اللّهَ[3]، أو بمعجزين رَبَّكُم[4]، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢﴾ [التوبة: 2].

علّةُ ورودِ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ في مواقعَ مختلفةٍ:

تذييلٌ يقرِّرُ معنى الآية، وسياقٌ يُثبِتُ كمالَ القدرة الإلهيّة

في آية العنكبوت: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ ومثلها في آية الشّورى ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾ [الشّورى: 31] جمَعَ البيانُ القرآنيُّ بينَ إثباتِ عجْزِ الكافرين أو

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 43.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11122.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232.
(4) ابن عُثَيمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 94.

العاصين عن الفِرارِ مِنْ قضاءِ اللّه وعقابِه وانعدامِ الولي والنّصير، أي: أثبتتْ كمالَ القدرة الإلهيّة والعجزَ التّامَّ للمخاطبين بما يدفعُهُم إلى الإيمان أو التّوبة، فكلُّ آيةٍ منهما متكاملةٌ بين صَدْرها وعَجُزها، ولذا لم يأتِ الإخبارُ بالعَجْز عن الفِرارِ من عذاب اللّه في ذيلِ ختام الآيتين، أما في بقيّة ورود هذه الجملة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤﴾ [الأنعام: 134] وسورة يونس: ﴿۞وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ [يونس: 53] وسورة هود: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾ [هود: 33] فقد جاءت ذيلًا للآية الّتي تقرّرُ نفيَ إعجازِ عذاب اللّه في الدّنيا أو الآخرة.

سِرّ التقييد بالجارّ والمجرور:

بيانُ عظمةِ قدرة اللهِ المحيطةِ بالكافرين في أيّ مكان من الأرض أو السّماء

يتعلّق قوله ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وقوله ﴿فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ بـ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾، والجارُّ والمجرورُ فيهما حالٌ مِن (مُعجِزينَ)، يعني: حالَ كونِكُمْ في الأرض أو في السّماءِ، والظَّرفيّة في الأرض والسّماء إمّا أنْ تكونَ على سبيل الحقيقة، والتّقدير: (وما أنتم بمعجزي ربِّكُم في الأرض، ولا في السّماء لو كنتم فيها)؛ لأنَّ النّاسَ في الأرضِ وليسوا في السّماءِ، أو أنْ يكون المعنى على سبيلِ المبالَغَةِ، يعني: لا تُعْجزونَ اللّه سواءٌ كُنتم في أعماقِ الأرض أو في أجواءِ السماءِ، فيكون المعنى: لا تُعجزونُه في أيِّ مكانٍ كُنتم فيه، فقدرتُه محيطةٌ بكم.

دلالةُ (أل) التعريف في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

التعميمُ ليستغرقَ مُلْكُه سبحانه كلَّ ما في الأرض إذ كلُّه تحتَ سلطانِه تعالى

لامُ التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، تفيدُ العمومَ؛ لتشملَ جنسَ الأرضِ كلِّها، والمعنى: وما أنتم بقادرين على أنْ تفلِتوا أو تهرُبوا من لقاءِ اللّه ومن حسابِه كيفما تقلّبتم في أيِّ مكانٍ من الأرض في ظاهرها وباطنها(1)، ولن

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 418.

تجدوا موئلًا يُنجيكم من قدرتنا عليكم في أيِّ مكانٍ مِنَ الأرضِ سهلِها وجبلِها، وبَدْوِها وحَضَرِها[1].

نَفْيٌ وتَيْئِيسٌ واحتراسٌ من وهْمِ النّجاة من لقاءِ الله حالَ الالتحاقِ بالسماء

بلاغةُ العطف في قوله ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾:

في عطْفِ ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ على ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ - والعطفُ يقتضي المغايرةَ - نَفْيٌ وتَيْئِيسٌ واحتراسٌ من أنْ يُظَنَّ أنَّ انتفاءَ قدرتِهم على الهرب والإفلاتِ من اللّه مقتصرٌ على الأرضِ، فجاءَ العطفُ؛ ليزيلَ هذا الوهمَ عن الأذهان وليُكَمِّلَ المعنى، وليُحَقِّقَ لهم التَّيْئِيسَ مِن الطَّمعِ في النَّجاةِ، وأنّه لا مَطمَعَ لهم بذلك حتى ولوِ الْتَحَقوا بالسَّماء، مع أنّ ذلك غير حاصلٍ لهم[2].

تأكيدُ انتفاءِ انفلاتِ الكافرين من حُكم الله وقضائه

نكتةُ تكرارِ النَّفي (لا):

كرّرَ النّظمُ الحكيمُ معنى النَّفي بـ(لا) مع العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾؛ ولم يقلْ: (وما أنتم بمعجزين في الأرض والسماء)؛ للتّنبيه على استقلالِ النَّفي[3]، وهذا فيه تأكيدٌ لنفي انفلاتهم مِنْ حُكم اللّه وقضائِه بالتَّحصُّنِ في السَّماءِ الّتي هي أفسحُ من الأرض لو استطاعوا الرُّقيَّ فيها[4]، وأنّه حُكْمٌ قاطعٌ لا استئنافَ له فيما بَعْدُ، وفي هذا تأكيدٌ لقدرة اللّه على أنْ يُعَذِّبَهم أينَما كانوا، ومزيدٌ من التَّيْئِيس للكافرين مِن أنْ يكونَ لهم موئِلٌ يُنْجيهم من اللّه، أو مَلاذٌ يلوذون به.

مبالغةٌ في بيان أنّ الكلَّ مُلْكُهُ سبحانَه، فهل سَيُعْجِزُهُ بَعْضُ مَنْ في مُلْكِهِ؟

دلالة الطّباق في قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾:

جَمَعَ النّظمُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 232.
(3) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوِيّ: 15/ 37.
(4) كما في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾ [الرّحمن: 33].

﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بين لفظي السّموات والأرض، بما يدلُّ على المبالغةِ في بيانِ كمالِ قدرةِ اللّه تعالى، الّتي لم تقتصرْ على الأرض، وإنّما شَمَلَتْ كذلك السّماء، أي لا يُعجزُه أحدٌ لا أهلُ الأرض يعجزون اللّهَ في الأرض ولا أهلَ السّماء يعجزون اللّهَ في السّماء؛ لأنّ كلَّ مخلوقٍ لا يخلو عن أنْ يكون في إحدى هاتين الجهتين، أو أنّكم أيّها النّاس لا تعجزون اللّهَ سواءٌ كنتم في الأرض، أم كنتم في السماء؛ إذ ليستْ هناك قوّةٌ في هذا الوجود تحولُ بينكم وبينَ الانقلابِ إليه[1].

الغرض من تقديم ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

الأرضُ بهم ألْصَقُ، وفي ظنّهم أنّهم عليها أقْدَرُ، والهروب فيها أسْهَلُ

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لِتَقَدُّمِ العذابِ فيها[2]، ولأنَّ الأرضَ بالكافرين ألْصَقُ، وهُم منها أقْرَبُ، وفي ظنّهم أنّهم عليها أقْدَرُ، وهروبهم فيها من قضاء اللّه أسهلُ وأيْسَرُ، أي فإنْ كان يقَعُ منهم هَرَبٌ يكونُ في الأرضِ، ثمَّ إنْ فرَضْنا لهم قُدرةً غيرَ ذلك، فيكونُ لهم صعودٌ في السَّماءِ[3]، ولأنّ السماءَ أبعدُ، فالمعنى: لن تُعجزوا اللّه إنْ هربتم من حُكْمِه وقضائِه في الأرض الفسيحة، فهبطتم في أعماقِ الأرض، أو صعدتم في السّماء الّتي هي أفْسَحُ منها وأبْعَدُ، فعَلَوْتُم إلى البروج المُشَيَّدةِ الذّاهبةِ في السّماء، ولن تُعْجِزوا كذلك بلاءَه الظّاهرَ في الأرض أو النّازلَ عليكم مِن السّماء.

توجيه المتشابه اللفظي بين آية العنكبوت هنا وآية الشّورى:

سياقٌ يقتضي المبالغةَ في التّحدّي والتّهديد والوعيد

هذه الزيادة ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الواردة في آية العنكبوت في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ لمْ تقعْ في آيةِ الشّورى في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾

(1) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 26.
(2) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاويّ: 15/ 37.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 43.

[الشّورى: 31]؛ لأنَّ آيَةَ الشّورى جَمَعَتْ خِطابًا للمسلمينَ والمشركينَ بقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: 30]؛ إذِ العفو عَنِ المسلمين[1]، ولذا لمْ يبالِغْ في التَّحدّي والتّهديدِ والوعيدِ، وأمّا الخطابُ في سورة العنكبوت فهو خطابٌ للكافرين فقط، والسّياقُ فيه سياقُ تهديدٍ ووعيدٍ، ومِنْ ثَمَّ كانتِ الزيادةُ في آيةِ العنكبوتِ؛ فناسَبَ المبالغةَ في نفي قدرتِهم عَنْ الإفلاتِ مِنْ لقاءِ اللّهِ وحسابِه في مُلْكِ اللّهِ كلِّه مِنْ أرضٍ أو سماءٍ، أيِ السّياقُ يقتضي هذا النّوعَ من المبالغةِ في التّحدي والتّهديدِ والوعيدِ، كما أنّه قدْ تقدَّمَ في سورةِ العنكبوتِ قولُه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤﴾ [العنكبوت: 4] وهذا مِن أشَدِّ الوعيدِ؛ إذْ حاصِلُه أنَّه لا يَفوتُه سُبحانه أحدٌ، ولا مَهرَبَ منه تعالى إلّا إليه، ولم يَرِدْ في سورةِ الشّورى مِن أوَّلِها إلى الآيةِ المذكورة آنفًا مِثلُ هذا الوعيدِ الشّديدِ، ولا كان فيها ما يَستدعي هذا التَّعميمَ والاستيفاءَ الوعيديَّ، ولم يكُنِ التَّعميمُ هنا مناسبًا هناك؛ فورَدَ كلٌّ على ما يجِب[2]، كما أنّ في ذكر السّماء في العنكبوت مراعاةً للمقام؛ لأنَّ الخطاب لقوم فيهم النّمرود الّذي حاول الصّعود إلى السماء[3]، وقد حُذِفا معًا للاختصارِ في قوله في سورة الزُّمَر: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٥١﴾ [الزُّمَر: 51][4].

بلاغةُ العطف في قوله ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ﴾:

عُطِفَتْ جملة ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ على جملةِ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾؛ ومقتضى العطف أنْ يَعلمَ المخاطَبُ بأنّه لا وليَّ ولا نصيرَ له من دونِ اللّهِ تعالى، كما عَلِمَ انتفاءَ قدرته عن الهروبِ والإفلاتِ من لقاءِ اللّه، وفي هذا الجمع

لا وليَّ ولا نصيرَ غيرُ اللهِ، كما لا مهربَ ولا مفرَّ مِنْه إلا إليه

(1) النِّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 380، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 233.
(2) الغِرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 390.
(3) الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغرة التّأويل: 1/ 1006، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 362.
(4) القِنَّوْجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 10/ 180.

بينهما مبالغةٌ في بيانِ عجزِهم، وبيانِ كمالِ قدرةِ اللّه سبحانه؛ إذ لَمّا آيَسَهم اللّهُ تعالى مِن الانفلاتِ بأنفُسِهم في جميعِ الأمكِنةِ؛ أعْقَبَه بتَيْئيسِهم مِن الانفلاتِ مِنَ الوعيدِ بسَعْي غيرِهم لهم، مِنْ أولياءَ يَتَوسَّطونَ في دَفعِ العَذابِ عنهم بنَحوِ السِّعايةِ أو الشَّفاعةِ، أو من نُصَراءَ يُدافِعونَ عنهم بالمُغالَبةِ والقوَّة[1]، لأنّه ربّما بقيَ احتِمالٌ أنَّ غَيْرَهم يَنْصُرُهم، فلذلك صَرَّحَ بِنَفْيِهِ فقالَ: ﴿وَمَا لَكُم﴾[2].

دلالة النَّفي بـ(ما):

تيئيس الكافرين مِن الانْفِلاتِ مِنَ الوعيدِ بسَعْيِ غَيرِهِم لهم

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ نافيةٌ؛ والنّفي بها آكَدُ؛ لاقتران مَنْفيِّها بـ﴿مِن﴾ الاستغراقيّة المؤكِّدة، ولأنّ النّفي بها يكونُ للماضي والمضارع على حدّ سواء، ومِنْ ثَمّ فإنّها تدُلُّ على المبالغةِ في نفي أولياءَ يتَوسَّطونَ في دَفعِ العَذابِ بشَّفاعة، ونُصَراءَ يُدافِعونَ عنهم بالمُغالَبةِ والقوَّة، بما يحقّق تَيْئيسَهم مِن الانفِلاتِ مِنَ الوعيدِ بسَعْيِ غيرِهم لهم، كما أكّدَ تَيْئيسَهم من الانفِلاتِ بأنفُسِهم في جميعِ الأمكِنةِ.

الغرض من تقديمِ خَبَرَيْ (ما) الجارِّ ومجروره والظّرف على اسمها:

اهتمامٌ بنفي قدرةِ الكافرين على الإفلاتِ وتعجيلِ يأسِهم مِن ذلك

في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ نجد أنّ (ما) الّتي تعمل عمل (ليس) لها اسمٌ مؤَخَّرٌ، وخبرانِ مُتَقَدِّمان، فاسمُها المؤَخَّر هو ﴿وَلِيٍّ﴾ المجرورُ بحرف جَرٍّ زائدٍ، مع معطوفه ﴿نَصِيرٍ﴾، والخبرانِ المُتَقدِّمانِ هما الجارُّ والمجرور ﴿لَكُم﴾ والظَّرفُ المُسْتَقِرُّ ﴿دُونِ﴾ المجرور بحرف جَرٍّ زائدٍ ﴿مِّن دُونِ﴾ وقد قَدَّمَ البيانُ الحكيمُ الخبرين لمزيدِ اهتمامٍ بهما، وهو نَفْيُ قدرتِهم على الإفلات من حُكْم اللّه وقدرته، ولتعجيلِ يأسِهم مِن ذَلِك[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 233.
(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 419.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 104.

أيُّ وليٍّ أو ناصرٍ غيرِ اللهِ باطلٌ

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إمّا للتّأكيد، إنْ كانتْ ﴿دُونِ﴾ بمعنى غير، والمعنى: وما لكم من وليّ ولا نصير غيرُ اللّه، أو للابتداء، إنْ كانت ﴿دُونِ﴾ اسمًا للمكانِ المُباعِد، فهي إذنْ مُستعارةٌ لمعنى الخِسّةِ والحقارةِ، بما يدُلُّ على سُفولِ وخِسّةِ رتبةِ مَنْ سواه سبحانه مِنْ قريبٍ، أو نصيرٍ يَرجونَ منْهُ الشّفاعةَ والنُّصرةَ.

وحده سبحانَه القادرُ على جَلْبِ المنافِعِ ودَفعِ المضارِّ

دلالة ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن وَلِيٍّ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ للتّأكيد(1)، أي: أكَّد نَفْيَ أيِّ وليٍّ يشفعُ لهم أو ينفعهم بإثباتِ الجارِّ(2)، والمعنى: ليس لكم وليٌّ يواليكم، ولا نصيرٌ ينصرُكم، ويدفعُ عنكم عذابَ اللّه(3)، وفيها معنى العموم، أي: التّنْصيص عليه(4).

سفولُ رتبةِ كلِّ ما سوى الله فهو أعظمُ مِنْ كلِّ عظيمٍ

نكتة التّعبير بالدّونية في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ظَرْفٌ مُستَقِرٌّ، أشارَ البيانُ القرآنيُّ من خلال التّعبير به وإضافته إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ إلى انحطاطِ وسُفولِ رتبةِ كلِّ ما سواه سبحانه، فهو أعظمُ من كلِّ عظيمٍ(5)، والمعنى المراد أنّهم إنْ أرادوا الوليَّ الحقَّ والنَّصير الحقّ فليؤمنوا باللّه، فهو وليُّهم ونصيرُهم، وكأنّه سبحانه يقول لهم: إنْ تُبْتم ورجعتم عمّا كنتم فيه من الكفر واعتذرتم عمّا كان منكم، فأنا وليُّكم وأنا نصيركم(6)، ولذلك لم يقل: (من دون اللّه) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾ [العنكبوت: 25]؛ لأنّ الموقفَ في الآخرة، والآخرةُ لا توبةَ فيها

(1) القُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 337، والقِنَّوْجِيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 10/ 180.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 419، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 130.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 228.
(4) ابن عُثَيْمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 98.
(5) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 419، وابن عُثَيْمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 96.
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11123.

ولا اعتذارَ ولا رجوعَ، بخلافِ الآيةِ هنا فقدْ عبَّرَ بقوله ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها خطابٌ للكافرين وهُمْ في الدّنيا، وقصْدُهُ توبتُهم عَنْ عِنادِهم وكفرِهم[1].

سِرّ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار:

إظهار قدرة الله وعجز الكافرين وتَسَفُّل أوليائِهم ونصرائِهم

أظهرَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليلَ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ رغْمَ أنَّه أضمره في قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ فلم يقلْ سبحانه: (ومالكم من دونه)؛ ولكنّه أظهره تربيةً للمهابةِ في النّفوس، ومبالغةً في إظهارِ قدرته تعالى، وبيان عجزهم، وتَسَفُّلِ ما يتّخذونَ مِنْ أولياء ونُصراءَ مِنْ دونِ اللّهِ سبحانَه، بذِكْرِ الاسم الجامعِ لكلِّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، فهو أعظمُ مِن كلِّ عظيمٍ، وخاصّةً أنّ السّياقَ سياقُ تعظيمٍ لقدرةِ اللّه.

سِرُّ التّعبير بالوليّ والنّصير مادةً وصيغةً:

نَفْيُ المُعين والنّاصرِ مِنْ دون اللهِ، مستفادةٌ من اتّساعِ دلالةِ الألفاظِ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الوليّ في قولِه تعالى: ﴿مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ دونَ لفظِ القريبِ؛ لأنَّه وإنْ كانَ الأصلُ في معناه أنّه يدلّ على القُرْبِ والدُّنوّ[2]، إلا أنَّ مِنْ معانيهِ كذلك المحبَّ والنّاصرَ والحليفَ والملازمَ الّذي لا ينفكُّ عَن مَولاه[3]، أي: إنَّ دلالتَه أوسعُ، وكذلك لفظُ ﴿نَصِيرٖ﴾ فهو من الإعانةِ والمَنَعَةِ والعطاءِ والإنجاءِ والتَّخليصِ[4]، بما يدلُّ على المبالغةِ في نفي النَّفْعِ مِنْ كلِّ أحدٍ؛ فإذا انتفى نفعُ القريبِ الحليفِ النّاصرِ الملازمِ، وكذا المعينِ والمانعِ والمُعطي والمُنجي

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11123.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).

(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ولي).

(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، وتاج العروس: (نصر).

والمُخلِّصِ فانتفاءُ نَفْعِ غيرِهم مِنْ باب أولى، وممّا يؤكِّد هذه المبالغةَ في بيانِ عجزهم عن الانتفاع بأيّ وليٍّ أو نصيرٍ أنّ كِلا اللَّفظَينِ جاء على وزن (فعيل) بمعنى فاعل على وجه المبالغة[1].

تأكيدُ انتفاءِ النَّصيرِ بعدَ انتفاءِ القريبِ زيادةً في تَيْئيسِ الكافرين

نكتة تكرار النَّفي في (لا):

تكرَّرَ النَّفيُ بـ(لا) مع العطف في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ فلم يقلْ: (وما لكم من دون اللّه من ولي ونصيرٍ)؛ لإفادةِ توكيدِ نَفْيِ وجودِ النَّصيرِ الّذي يَنْصُرُهم، ويدفَعُ عَذابَ اللّهِ عنهم بالمُغالَبةِ والقوَّةِ، أي: هو حُكْمٌ قاطعٌ لا استئنافَ له فيما بَعْدُ، وفي هذا التَّأكيدِ مزيدٌ مِنَ التَّيْئيسِ للكافرينَ، وقد صرَّحَ به في الآية الّتي بعدها بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾.

إفادةُ عُمومِ نَفيِ أيِّ ولايةٍ أو نُصْرةٍ للكافرين مِنْ أيِّ أحَدٍ

الغرض من التنكير في لَفْظَيْ ﴿وَلِيٍّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾:

تنكيرُ لَفْظَيْ ﴿وَلِيٍّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ يفيدُ عمومَ نَفْيِ أيِّ قريبٍ يشفعُ لهم أو نصيرٍ ينصرُهم ويدفعُ عنهم ما هم فيه؛ لوقوعهِ نَكِرةً في سياقِ النَّفيِ.

الوليُّ أقربُ، وشفاعتُه أسهلُ، ونصرته أجملُ وأشملُ، وخيرُه أعمُّ

الغرض من تقديم الوليّ على النّصير:

قَدَّم الوليَّ على النَّصيرِ في قوله تعالى: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ لأنّ الوليَّ أعمُّ مِن النَّصيرِ؛ فهو الّذي يتَوَلَّى الإنسانَ في جميع أحوالِه فينْصُرُه في مقابلَةِ عَدوِّه، ويأتي إليه بالخيرِ ولو في غيرِ مقابلَةِ العَدوِّ، أي يتولّاه في جَلْبِ الخيرِ ودَفْعِ الشّرِّ، وأمّا النَّصيرُ فقد لا يكونُ من أوْليائك، لكن يدْفَعُ عنك المكروهَ فقط في الحالِ المُعَيَّنة الّتي تحتاج فيها إلى ناصرٍ[2]، ولأنّ الوليَّ أقربُ من النّصيرِ؛ إذْ بِهِ تقومُ الأمورُ والأحوالُ، ثمّ يكونُ النّصيرُ في أحوالِ النّصرة، والمعنى: وما لكمْ بعْدَ اللّهِ مِن قَيِّمٍ بأمركم، ولا نصيرٍ يؤيّدُكم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 253.

(2) ابن عُثَيمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 97.

ويقوّيكم ويعينكم، ولكونِ الوليّ أسهلَ الطريقين في النُّصرة؛ إذْ هو الركنُ الشّديدُ الّذي يُستَندُ عليه، وعلى كلٍّ فإمّا وليٌّ يشفعُ أو ناصرٌ يدفعُ[1]، ولأنَّ العاقِلَ ما أمْكَنَه الدَّفعُ بأجمَلِ الطُّرُقِ فلا يرتقي إلى غيرِه، والشّفاعةُ أجمَلُ، فالوليُّ يستطيعُ أنْ ينصرَك لكنْ بالحُسْنى وبالسّياسة، أمّا النّصير فهو الّذي ينصرُك بالقوّة[2]، ولأنَّ ما مِن أحدٍ في الشّاهِدِ إلّا ويكونُ له شَفيعٌ يَتكَلَّمُ في حَقِّه عندَ مَلِكٍ، ولا يكونُ كُلُّ أحدٍ له ناصرٌ يُعادي المَلِكَ لأجْلِه[3].

سِرُّ تخصيص ذِكْرِ لَفْظَيْ ﴿وَلِيّٖ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾:

نَفْيُ أيِّ ظَنٍّ يَرِدُ على الأذهان في نُصرةِ أحدٍ من دون الله

خصّ البيانُ القرآنيُّ لفظي ﴿وَلِيّٖ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾ بالذّكر دون غيرهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾؛ لأنَّ الركنَ الشّديدَ الّذي يُستندُ إليه إمّا وليٌّ يشفعُ أو ناصرٌ يدفعُ[4]، ولأنّ الوِلايةَ تكون بإخلاصِ المودَّة، والنُّصرةَ تكونُ بالمعونة والتّقوية، وقد لا تكون النُّصرةُ مع حصولِ الوِلاية[5]؛ إذ قد يضعُفُ الوَليُّ عن النُّصرة، والنَّصيرُ قد يكون أجنبيًا عن المنصور، فلحصولِ التّكامل بين وِلايةِ الوَليِّ ونُصرةِ النَّصير جَمَعَ بينهما بعطفِ أحدِهما على الآخر؛ لأنّ نَفْيَ الوليِّ لا يقتضي نَفْيَ كلِّ نصيرٍ، مُحَقّقًا بهذا العَطْفِ الاحتراسَ الّذي كمَّلَ المعنى، ونَفَى أيَّ ظنٍّ يَرِدُ على الأذهانِ في نُصرةِ أيِّ أحدٍ من دون الله.

الغرضُ من حذفِ متعلّق ﴿نَصِيرٍ﴾:

اختصارٌ حسنٌ، لبيانه فيما دلَّ عليه السّابق فلا يُذكَرُ في اللّاحق

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ متعلّقَ ﴿نَصِيرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ اختصارًا للعلم به، ولظهوره؛ وما يُلحظ لا يُلفظ، فكلُّ سليمِ الذّائقة اللّغوية يلاحظ متعلّقَ ﴿نَصِيرٍ﴾؛

---

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 380.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11122.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 43.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 380.
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 189.

إذِ النَّصيرُ هو الّذي يُدفَعُ به العذابُ، وقد دلَّ عليه ما سبق في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾، والتّقدير: ولا نصيرٍ يَدۡفَعُ عذابَ اللّهِ عنۡكم.

الفُروقُ المُعۡجَميَّةُ:

الوليُّ والنَّصير:

الوليُّ القريبُ المُحِبُّ، والنّصيرُ المعينُ والمقوّي لمن ينصره

الوِلايةُ تكون بإخلاصِ المودّة[1]، والوَليُّ في أصله يدلّ على القُرۡبِ والدُّنوّ، والۡوَلي: المُحِبُّ وهو ضِدُّ الۡعَدوِّ، مِن والاهُ إذا أَحَبَّه، والۡمَوۡلَى: (الۡمُعۡتِقُ والۡمُعۡتَقُ وابۡنُ الۡعَمِّ والۡجارُ والحَليفُ والصديق والنَّصير)؛ مِنۡ والاهَ إذا نَصَرَهُ[2]، وأما النُّصۡرَةُ فهي حُسۡن المَعونة، وإعانة المَظۡلوم، ونَصَره نَصۡرًا ونُصۡرَةً: نَجّاه وخلَّصه[3]، والنَّصۡرُ: العَطاء، وأصلُه يدلُّ على إتۡيانِ خَيۡرٍ وإيتائِهِ[4]، إذن فالوليُّ هو القريبُ صاحبُ المودّة، وقد لا تكون النُّصرة مع حصولِ الوِلاية، ولكن غَلَبَ إطلاقُ النَّصيرِ على الوَليِّ؛ لأنّ الوَليَّ لقربِهِ فهو في الغالب يحبُّ وليَّه فينصره، والنُّصرةُ تكونُ بالمعونة والتّقوية، وقد لا يكون النّاصر قريبًا لمن ينصره[5]، ولهذا جمعَ اللّه تعالى بين الوِلاية والنُّصرة في الآية للتّأكيد على أنّ الكافرين ليس لهم مودّةٌ وقربى، ولا معونةٌ ولا نصرةٌ من دون اللّه.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 189.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ولي).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (نصر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 189.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣﴾ [العنكبوت: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تهديدٌ للكافرِ الّذي أصرّ على كفره ولم تُجْدِ معه موعظةٌ

بعدَ أنْ بيّنَ النّصُّ القرآنيُّ الأصلَين (التّوحيد والإعادة)، وقرّرهما بالبرهان، وبيّنَ القدرة الإلهيّة الفائقة التّصوّر بأنّه سبحانه يعذّبُ من يشاء، ويرحمُ من يشاء، وأنّ الكافرين غيرُ معجِزين اللّهَ في الأرض ولا في السّماء، هدّدَ كلَّ مخالفٍ وتوعّدَ كلَّ كافرٍ أصرّ على كفره ولم تُجْدِ معه موعظةٌ ولا تذكيرٌ، فلا ملجأ له ولا منفَذَ له إلى رحمةِ اللّه[1]، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

ولمّا ذكر البيانُ القرآنيّ قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ أتبعَهُ ببيانِ ذلك[2]؛ وبالقطع على الكافرين أمْرَ الاستدلالِ والدّعوةِ إلى الهداية من الضّلال؛ إذ في الكلام تقديرُ جملةٍ، هي: (فالّذين آمنوا بآيات ربِّهم ولقائِه أولئك يرجون رحمتي، وأولئك لهم نعيمٌ مقيمٌ) قد عطفَ عليها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِقَآئِهِۦٓ﴾: (لقي) أصلٌ يدلُّ على تَوافي شَيْئَيْنِ وتقابُلِهما، وكلُّ شيءٍ اسْتَقْبَلَ شَيْئًا أو صادَفَهُ فقَدْ لَقِيَه مِنَ الأشياء كُلِّها[4]، وكلُّ (لَقِيَ) و(الْتَقى) هي بمعنى المقابلة والوجود القوّيّ، أي: يستقبله

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 43، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 233.
(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 419.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).

ويلقاهُ ويجده[1]، واللِّقاءُ: مقابلةُ الشّيءِ ومصادفته معًا، ويُقالُ ذلك في الإدراكِ بالحسّ، وبالبصرِ، وبالبصيرة[2]، ومعنى الكفرِ بلقاءِ اللّه في الآية: إنكارُ البعثِ بعد الموت والحساب والجزاء[3].

2) ﴿يَئِسُواْ﴾: (يأس) أصلٌ وهو قَطْعُ الرَّجاءِ[4]، واليَأْسُ: انتفاءُ الطّمعِ، واليأس: القنوطُ، وهو ضدُّ الرّجاء، أو هوَ قَطْعُ الأمَلِ عَن الشّيْءِ[5]، ويئِسَ من الأمر: قنطَ منه، وانقطعَ أملُه منه، وانتفى طمعُه فيه، وقطعَ الأملَ منه[6]، واليأسُ شعورٌ حادٌّ بتمام استغلاقِ السّبيل نحو خيرٍ مُعَيَّنٍ يصحبه سُخْطٌ، ويَتْبَعُهُ إعراضٌ تامٌّ عن المحاولة[7]، ومعنى ﴿يَئِسُواْ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللّغوي، أي: قَنَطوا وانتفى طمعُهم فلا أملَ لهم في رحمة اللّه[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الكافرُ بآياتِ اللهِ ولقائِه محرومٌ مِنْ رحمةِ اللهِ، ومَصيرُه العذابُ الأليمُ

البيان الإلهيُّ في الآية الكريمة فيه تهديدٌ شديدٌ لكلِّ كافرٍ مُصِرٍّ لم تنفعْ معه موعظةٌ، فالّذين كفروا حُجَجَ اللّه، وأنكروا أدلّتَه، وجحدوا لقاءه والورود عليه، يوم تقومُ السّاعة، أولئك يئسوا من رحمة اللّه في الآخرة؛ لَمّا عاينوا ما أُعِدَّ لهم من العذاب[9]، أو استحقّوا اليأسَ من رحمة اللّه، ولا أملَ لهم فيها؛ لأنّهم لم يخافوا عقابه سبحانه، ولم يرجوا ثوابه[10]، وأولئك لهم عذابٌ مؤلِمٌ موجِعٌ في الدُّنيا والآخرة[11].

---

(1) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لقي).
(2) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 233، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 26.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يأس).
(5) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (يأس)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 374.
(6) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (يأس).
(7) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (يأس).
(8) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 128.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 23.
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 233.
(11) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 128.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطف في الآية:

بيانٌ وزيادةُ إخبارٍ بشدّةِ عذابِ الكافرِ

عطَفَ البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ على قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾، وإنْ كانت هي بيانٌ لها؛ لِما فيها من زيادةِ الإخبارِ عن حكم اللّه بعذابهم؛ بأنّهم لا ينالهم اللّه برحمةٍ، وأنَّه يصيبهم العذابُ الأليمُ[1].

ويحتملُ أنْ تكون الجملةُ المعطوفُ عليها جملةً مقدَّرةً، بمعنى: (فالّذين آمنوا بآياتِ ربِّهم ولقائه أولئك يرجون رحمتي وأولئك لهم نعيمٌ مقيمٌ)، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ﴾[2].

نكتة استعمال الاسم المَوصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

إيماءٌ إلى سببِ الخبر، وهو كُفْرُهم بآياتِ اللهِ وبالبعثِ الّذي هو سببُ يأسِهم وعذابِهم

استعمل النَّصُّ القرآنيُّ الاسم المَوصول وصلته الفعليّة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾، ولم يستعمل الاسم الظّاهر: (والكافرون بآيات اللّه ولقائه أولئك ...)؛ للإيماءِ إلى سببِ الخبر وعِلّته، وهو وصفُ الكفر[3]، فعُلِمَ من خلالِ جملة الصِّلة أنّ كفرَهم بالقرآن وبالبعث هو السَّببُ لِما يلقَونه من اليأسِ من رحمةِ اللّه والعذابِ الأليم، وأنّ هذا يحصلُ للّذين لم يُقْلِعوا عن هذا الوصف قبل حلول الأمرين بهم، وفي التّعبير بالاسم المَوصول وصلته الفعليّة كذلك عمومٌ واستغراقٌ يشملُ كلَّ من تحقّقَ بِوصْفِ الكفرِ، ومن ثَمَّ فهو تحذيرٌ من الكفرِ وأسبابه، وذمٌّ وتهديدٌ لأهله وأصحابه[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 233.
(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 419.
(3) القَزْوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 342.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 20/ 149.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾:

آيـاتٌ كـثـيراتٌ بــاهِــراتٌ واضِـحــاتٌ لا تَخفى إلّا على مكابِرٍ جاحِدٍ

أتى البيانُ الإلهيُّ بلفظ ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دون غيرها من الألفاظ؛ لتشملَ عدّة معانٍ، فهي الأدلَّةُ الدّالّةُ على الوَحدانيَّة والنُّبوة والمعادِ؛ من الآيات الكونيَّة والمعجزاتِ النَّبويَّة والقرآنِ الكريم، "ويدخلُ فيها النَّشأةُ الأولى الدّالَّة على تحقُّقِ البعثِ والآياتُ النّاطقةُ به دُخولًا أوليًا[1]"؛ وذلك لاتّساع دلالة لفظ الآية؛ فهي تشملُ معنى العلامة والمعجزة، والجزء المحدود من القرآن[2]، والآيةُ هي العلامةُ الظّاهرة[3]، ولذلك قيل لأعلامِ الطّريق آيات؛ لأنّهم وضعوها للإرشاد إلى الطّرق الخفيّة في الرّمال، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ هذه الآياتِ هي الشّيءُ المرشدُ على أمرٍ، مِنْ شَأنِه أنْ يخفى على الكافرين، وأنّها الحُجَّةُ الّتي تُظهِرُ لهم الحقَّ الخفيَّ[4]، وبالتّالي كيف لهم أنْ يَبقَوا على كفرهم وعِنادِهم، وقد ظَهرتْ دلائلُ المَلِكِ الأعْظمِ المرئيَّةُ والمسموعةُ الّتي لا أوضحَ منها[5].

دلالةُ جمع لفظ ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾:

بـيـانُ كـفـرهـم بآيات الله رغم كثرتها وتَعَدُّدِها

مجيءُ لفظ ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ جمعًا يدلّ على كثرة هذه الآيات وتَعَدُّدِها، فكفرُهم بها مع كثرتها يدلُّ على شِدّةِ عِنادهم وإعرضهم عن الحقّ، أي: والّذين كفروا بآياتِ الله على كثرتها وتَعَدُّدِها يستحقّون اليأسَ من رحمتي، والعذابَ المؤلمَ الموجِع.

سِرُّ إضافةِ الآياتِ إلى الله ﷻ:

بيانُ أحقّيَّةِ آياتِ الـلـهِ الـعَـظـيـمـةِ بأنْ لا يُكْفَرَ بها

جاءتِ الآياتُ مضافةً إلى الاسم الجليلِ في قوله ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لِما في الاسمِ الجليلِ من التّذكير بأنّه حقيقٌ بأنْ لا يَكْفُرَ هؤلاءِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 36.

(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأَعْيُنِ النَّواظِر، ص: 154 - 155.

(3) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (أيي).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 445.

(5) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 419.

المشركون بآياته[1] ولِما في الاسم الجليل من تعيينٍ لحيثيّة كُفرِهم، وتَهويلٍ لِأمرهم، وتأكيدٍ لاستحقاقهم العذابَ الشّديدَ، وإيذانٍ بأنَّ ذلكَ الاستحقاقَ لا يُشْتَرطُ فيه الكفرُ بالكلِّ، بل يكفي فيه الكفرُ ببعضٍ منها"[2]، وفي الإضافة تشريفٌ وتعظيمٌ للآياتِ بالنّظر للّذي نُسِبتْ إليه، وتَهديدٌ ووعيدٌ بالنّظر إلى الّذين كفروا وصَدّوا عنها، وتَهاونوا باتِّباعِها.

سِرُّ التّعبير بالاسم الظّاهر:

تـنـويـهٌ بـشأن آيـاتِ الله فهي آيـــاتُ المَـلِـكِ الأعظمِ سبحانه

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الظّاهر الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ولم يعبّر بضمير التّكلّم فلم يقل: (كفروا بآياتنا أو بآياتي) رغم أنّه صُرِّح بالاسم الجليل في الآية السّابقة؛ وذلك للتَّنْويهِ بشأن الآيات[3]، ولتربيةِ المهابة في النّفوس تجاه هذه الآيات الكونيّة والتّنزيليّة، فهي دلائلُ المَلِكِ الأعظم سبحانه المرئيَّةُ والمسموعةُ الّتي لا أوضحَ منها[4]، فهي تدلُّ على ذاتِ اللّه وصفاتِه وأفعالِه[5]، كما أنّ المقامَ مقامُ المجازاةِ والمحاسبةِ على الكفر بآيات اللّه، فناسَبَهُ النَّصُّ على الألوهيَّةِ المَنوطِ بها التَّكليفُ.

بلاغةُ العطفِ في قوله ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾:

تـنـوّعُ معاني العطْفِ دلالـةٌ على ثراءِ اللّفظ القرآنيّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه لفظ (آيات)[6]، وقد أفادَ هذا العطف عدّة معانٍ، ذَكَرَها المفسِرّون نظرًا لتنوُّعِ معنى لفظ (آيات) في الآية، فمن فسَّرَ الآيات بالآياتِ الكونيّة، فالعطفُ عنده يفيدُ أنّ الكافرين جمعوا بين كفرٍ بآياتِ اللّه على وحدانيّته وقدرته، وعلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 234.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/ 5.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 234.
(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 419.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 36.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 416.

ذاته وصفاته، وكفرٍ بالأدلّة الدّالّة على ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ بأنْ أنكروا البعثَ والحساب والجزاء[1]، أي: إنّهم منكرون للمبدأ وللمعاد كليهما، ومن فسَّرَ الآياتِ بالآياتِ التّشريعيّة الّتي تتحدّث عن المبدأ وعن النُّبوّة وعن المعاد، فيرى عطف ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ على ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ من قبيل ذكرِ الخاصّ بعد ذكر العامّ؛ تنبيهًا على أهمّيّة المعاد، ومن فسَّرَ الآياتِ بالآياتِ الكونيّةِ والتَّنزيليةِ معًا فالعطفُ عنده يفيدُ أنّ الكافرين جمعوا بين كفرهم بدلائل اللّه الكونيةِ والتَّنزيليّةِ وما ينتجُ عنها من الكفرِ بلقائه الّذي تنطقُ به تلك الآياتُ[2].

تخصيصُ (لقاء الله) بالذِّكر دون سواه:

بيان آثار غضبه سبحانه على الكافرين يوم لقائه دون إمهالٍ

خصّصَ البيانُ القرآنيُّ الكفرَ بلقاءِ اللّه بالذِّكر من باب الإطنابِ؛ إذ في ذكرِ الكفرِ بآيات اللّه التّنزيليّة كفايةٌ؛ لشمولها على الإيمان بلقاءِ اللّه تعالى، وهذا من بابِ ذكرِ الخاصِّ بعد ذكر العامِّ - كما ذكرنا في لفتة سابقة - ؛ تنبيهًا على أهمّيّة ذِكْرِ هذا اللّقاء، وهو يومُ البعث والحساب في إقامةِ الحجَّةِ عليهم؛ لأنَّ العبدَ العاقلَ السَّويَّ يحرِصُ على طاعةِ أوامر سيّده وعدم مخالفتها، لأنّه يعلَمُ أنَّه سيعودُ إلى سيّدِه، وسيحاسِبُه عن أعمالِه كلِّها، ولذا أقامَ البيانُ القرآنيّ فيما سبق من آياتٍ الدَّليلَ على قدرته على البعث بما لا أجلى منه[3].

كما أن التّعبير بلفظ لقاء اللّه - وقد كفروا به - فيه تخويفٌ للكافرين؛ فإنّ المراد بلقاءِ اللّه هو آثارُ رضاهُ وغضبِه دون تأخيرٍ ولا إمهالٍ ولا وقايةٍ بأسبابٍ عاديّة من نظام الحياة الدّنيا، وهو من باب الاستعارةِ التَّمثيليّة؛ لأنَّ أصلَ كلمةِ اللِّقاءِ الحضورُ نحو الغير بقصدٍ

(1) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 26.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 36.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 419.

أو بغير قصد[1]، وتدلُّ كذلك على المواجهة والتَّماسّ بقوّة واستقبالِ الشّخص قريبًا منه[2]، ومقابلتِه[3]، فشُبِّهَتْ حالةُ الخَلْقِ عند المصير إلى تنفيذِ وعدِ اللّه ووعيده بحالةِ العبيد عند الحضورِ إلى سيّدِهم بعد غَيْبَةٍ ليَجْزيَهم على ما فعلوا في مُدَّة المَغيب[4]، وقريبٌ منه كلامُ الرَّسول ﷺ: «مَنْ أحَبَّ لِقاءَ اللّٰه أحَبَّ اللّٰهُ لِقاءَهُ، ومَنْ كَرِهَ لِقاءَ اللّٰه كَرِهَ اللّٰه لِقاءَهُ»[5].

نكتة فصل قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾:

إخبارٌ بأنّ جزاءَ الكافرين التَّيْئيسُ من رحمة الله

فَصَل البيانُ الإلهيّ بين جملة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ والّتي قبلها ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾، ولم يأتِ بالعاطف؛ لما بين الجملتين من كمالِ اتّصالٍ، أي: اتّحادٍ تامٍّ في المعنى؛ بسببِ كونِ هذه الجملة خبرًا للمبتدأ (الّذينَ)[6]، أي: هي إخبارٌ بأنّ جزاءَ الكافرين بآيات اللّه ولقائه هو التَّيْئيسُ من رحمةِ اللّه.

بلاغةُ إيثار التّعبير باسم الإشارة للبعيد:

استحقاق الكافرين لليأسِ من الرّحمة وللعذاب الأليم

أطنبَ البيانُ الإلهيُّ باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾، ولم يقل: (والّذين كفروا بآيات اللّه ولقائه يئسوا)؛ لإفادةِ أنّ ما سيذكره بعد اسم الإشارة نالهم من أجلِ ما ذُكِرَ قبْلَهُ مِنْ أوصافٍ، أيْ أنّهم استحقّوا اليأس من الرحمةِ وإصابتهم بالعذاب الأليم لأجلِ كفرهم بالقرآن وإنكارهم البعث[7] وآثر البيانُ الحكيم أنْ يكون اسمُ الإشارة للبعيد؛ تنبيهًا على ذلك الوصف القبيح، وهو كفرهم بآياتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 437.
(2) محمّد جبل، المعنى الاشتقاقيّ: (لقى).
(3) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 189.
(5) البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الرِّقاقِ، الحديث رقم: (6142).
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 417، والدّعّاس، إعراب القرآن: 2/ 451.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 233.

اللّه ولقائه، فهُمْ بُعداءُ بُغضاءُ، انْحَطّتْ درجتُهم، وأُبْعِدوا عن رحمةِ اللّهِ[1]، فينبغي أنْ يُتَباعَدَ مِنْهُم، ومن الاقتداءِ بهم، ومِنَ الاتِّصافِ بصفاتِهم؛ فهُمْ غالَوا في كفرهم، وأوْغَلوا فيه[2].

إيثارُ التّعبير بصيغةِ التّيْئيسِ:

مبالغةٌ في انقطاعِ الرَّجاءِ وانتفاءِ الطَّمعِ برحمةِ اللهِ

آثرَ النَّصُّ القرآنيُّ التّعبير باليأسِ من رحمةِ اللّهِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ ولم يعبّر بلفظٍ آخر؛ للمبالغة في قطعِ رجائهم من رحمة اللّه، فاليأسُ يعني قطعَ الرَّجاء من الأمرِ[3]، وانتفاءَ الطّمعِ بهِ[4]، وهو قنوطٌ من الأمر، وشعورٌ حادٌّ بتمام استغلاقِ السّبيل ممّا يؤدّي إلى الإعراض عن المحاولة[5]، فأراد سبحانه ردًّا على كفرِهم وعِنادِهم وعظيم صنعِهم المبالغةَ في أنْ يقطعَ رجاءَهم وطمعهم من رحمتِه، فهُمْ عَبدوا ما لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يرحمُ نفسَه ولا يرحمُهم، وتركوا مَنْ رحمتُه وسعتْ كلَّ شيءٍ، ومَنْ بيده النَّفعُ والضُّرُّ[6]، فاستحقّوا أنْ يَيْأسوا مِنْ رحمةِ اللّهِ الّتي لم يطلبوها، ولم يَسْعَوا إليها.

وأضافَ اليأسَ إليهم فحرَّمَ الرحمةَ عليهم، ولو طَمِعوا لأباحَها لهم، فهم تلبَّسوا باليأسِ حقيقةً[7]؛ لأنَّهم جحدوا الحياةَ الآخرة فكانوا آيسين من السَّعادة المؤبَّدة والجنَّة الخالدة، أو أنَّه كنايةٌ عن قضائِه تعالى المحتوم أنَّ الجنَّةَ لا يدخلُها كافرٌ.

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿يَئِسُواْ﴾ ماضيًا:

مبالغةٌ وتأكيدٌ بأنَّ وعيدَ اللهِ للكافرينَ باليأسِ منْ رحمتِهِ متحقِّقٌ واقعٌ لا محالة

عبَّر النّصُّ القرآنيُّ بصيغة الماضي في قوله: ﴿يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾؛

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 70، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 4/ 481.
(2) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 3/ 1121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يأس).
(4) الرّاغب، المفردات: (يأس).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (يأس).
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11123.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 43.

تنبيهًا على تحقّق وقوعه على سبيلِ المبالغةِ والتّأكيدِ، من باب استعارةِ صيغةِ الماضي للتّعبيرِ عن المستقبل، وهذا من عادة القرآن أنّه يعبّر عن أحداثِ يوم القيامة بصيغة الماضي؛ للمبالغة في تحقّق الوقوع، والتّقديرُ: (أولئك سَيَيْأسون من رحمة اللّه لا محالة)[1]، وفي هذا وعيدٌ شديدٌ لهم؛ إذ صَوَّرَهم كأنّهم ماتوا وقامتِ السّاعة، وانقطعتْ عنهم رحمةُ اللّه، وحصلَ لهم اليأس.

أو أنَّ الكلامَ على حقيقته، وليس من باب المجازِ، والمعنى: يئسوا من رحمة اللّه في الدُّنيا لإنكارهم البعث والجزاء[2]، "فالماضي على حقيقته لكنَّ المجازَ في اليأسِ؛ لأنَّه جُعِلَ ذلكَ الإنكارُ يأسًا بالقوَّة"[3]، فهذا وصفٌ لحالهم؛ لأنّ المؤمنَ إنّما يكون راجيًا خاشيًا، فلا يَيْأسُ من رَوْحِ اللّه ولا مِنْ رَحْمَتِه، وأمّا الكافرُ فلا يخطرُ بباله رجاءٌ ولا خوفٌ[4].

معنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن رَّحۡمَتِي﴾:

رَحمةٌ مبتدأُها مِنَ الرَّحمنِ فلا يُحْرَمُها إلّا هالكٌ

جاء حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾؛ ليدلَّ على معنى ابتداء الغاية، أي: إنَّ الرَّحمةَ الّتي يئسوا من تحصيلها إنَّما مبتدأُها من اللّه سبحانه وتعالى، فكيف لهم - وقد أعمَوا قلوبهم واستنكفوا عنها - أنْ يدخلوا فيها، وأنْ تشملهم؟!.

دلالةُ ذِكْرِ الرَّحمة دونَ غيرِها:

الرَّحمةُ أجْمعُ الخيرِ وأعْظَمُهُ وأنفَعُهُ

ذكر النّصُّ القرآنيُّ الرّحمةَ في قوله سبحانه: ﴿مِن رَّحۡمَتِي﴾ تناسبًا مع السّياق؛ لأنَّ الكافرين لَمّا أشركوا أخرَجوا أنفسَهم عن محلِّ الرَّحمةِ؛ لأنَّ من يكون له جهةٌ واحدةٌ تَدفَعُ حاجتَه لا غيرَ يُرْحَمُ، وإذا كان له جهاتٌ متعدّدةٌ لا يُبْقي محلًّا للرَّحمة، فإذا

(1) البَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 234.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 36.
(3) القونَويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاوِيّ: 15/ 39.
(4) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 449، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 159.

جَعلوا لهم آلهةً لم يَعترفوا بالحاجة إلى طريق متعيّن فيَيْأسوا من رحمة اللّه[1]، وكذلك لَمّا كان اليأسُ فيه انقطاعُ الرَّجاء عن خيرٍ، ذَكَرَ الرحمةَ لأنَّها أعظمُ الخير وأنفعُه وأشملُه.

ويمكن أنْ يكونَ النَّصُّ القرآنيُّ قد أطلقَ الرَّحمةَ، وأرادَ لازمها، وهو الجَنَّةُ، وذلك كما جاء في آياتِ أخرى إطلاقُ اسم الرَّحمة على الجَنَّة، كقولِه سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ٣٠﴾ [الجاثية: 30] وقولِه سبحانه: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾ [الإنسان: 31].

سِرّ إضافة الرَّحمةِ إلى الذّات العليّة:

دلالـةٌ علـى أنّ الرَّحمةَ والجَنَّةَ من اللـهِ، ومن الكافرين اليَأْسُ والقُنوطُ

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الرَّحمة لذاته العليَّةِ في قوله: ﴿يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ لبيان عمومِها لهم، ولزومها له، ولم يُضِفْ العذابَ لنفسه لتخصيصه بالكفّار، وليُؤذِنَ بأنَّ رحمتَه سَبقَت غَضبَه[2]، وبالمقابل قد أضافَ اليأسَ إلى الّذين كفروا بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ﴾ فلو طمعوا بالرَّحمة لأنزلها عليهم[3]، وبمجرَّدِ أنْ يقرأ القارئ قوله تعالى: ﴿مِن رَّحۡمَتِي﴾، وقوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: 156]، سينتابه إدراكٌ بزيادةِ التَّحسير عليهم، فهذه رحمةُ اللّه الواسعة، ومع ذلك لم ينالوها.

بلاغةُ الالتفات من المُظْهَر إلى المُضْمَر:

زيـادة شعـور المؤمنين بالقرب، وزيادة إحساس الـكـافـريـن باليأس

بدأ البيانُ القرآنيُّ بأسلوبِ استعمال الاسم الظّاهر الغائب بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ لأنّ استعمال الاسم الظّاهر الغائب في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إنما هو لإظهارِ الاسم الجليل؛ تشنيعًا على الكافرين بأنّهم كفروا بآياتِ صاحب ذلك

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 43.

(2) الهَرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 388.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 43.

الاسم الجليل[1]، ثم التفت إلى أسلوبِ ضميرِ المتكلّم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾[2]؛ ولم يقل: (أولئك يئسوا من رحمة اللّه)، وذلك لأنّه الأصلُ في التّعبير عن الأشياء المضافة إلى ذاتِ المتكلّم، وفيه الكثير من زيادة شعور المؤمنين بالقرب منه سبحانه، موازاة لزيادة إحساس الكافرين باليأس، إذ التّعبير بضمير المتكلّم أشدُّ وأبلغُ في التَّيْئيس من رحمة اللّه، وأبلغُ من التهديدِ بالغَيْبَةِ.

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

الفوز للمتّقين يُناسبه الخُسْران للكافرين، وعجزُهم يناسبه يأسُهم من رحمة الله

أخبرَ البيانُ القرآنيُّ في آية العنكبوت عن الّذين كفروا باستحقاقهم التَّيْئيس من رحمة اللّه والعذاب الأليم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، بينما أخبرَ في آيةِ الزُّمَر عَنِ الّذين كفروا باستحقاقهم الخُسْران فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾ [الزُّمَر: 63]، وكلٌّ منهما مناسبٌ لسياقِه؛ فأمّا الحكمُ على الكافرين في آيةِ العنكبوت باليأس من رحمةِ اللّه والعذاب الأليم؛ فلأنَّ سياق الآية يتحدّث عن انقلابهم إلى اللّه خاضعين مقهورين منقادين عنوةً قد تبدّلتْ وانقلبتْ أحوالهم وانكشفت سَرائِرُهم بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ ممّا سبّبَ لهم اليأس، ويتحدّث عن كمال عجزهم وتحقّق يأسهم عن الانفلات والفِرار من عقابِ اللّه في الأرض أو في السماء، ويأسِهم عن وجود قريبٍ ينفعهم أو ناصرٍ يدفع عنهم العذاب بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، وأمّا الإطنابُ في العنكبوت بذكر استحقاقهم للعذاب الأليم مع اليأسِ من رحمة اللّه؛ فذلك مناسبٌ للسّياق الّذي أطنبَ في ذكر كفرهم؛ فقد كفروا بآيات اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 179.

(2) الزَّرْكَشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/ 332.

الكونيّة والقرآنيّة وكفروا بالبعث، أي لَمّا أطنب بذكر ما كفروا به أطنبَ بذكر ما يستحقّون من عذاب.

وأما الحكمُ على الكافرين في آية الزُّمَر بالخُسْران؛ فلأنَّه قد ورد في سياق الآية استحقاقُ المتّقين للفوز فناسبَ ذِكْرُ ما يقابلُهم وهو استحقاق الكافرين للخُسران، في قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١﴾ [الزُّمَر: 61]، وذلك جمعًا بين التَّرغيب والتَّنفير، وكذلك فإنّ لفظ الخسارة ناسبَ قولَه سبحانه في الآية نفسِها: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الزُّمَر: 63]؛ لأنَّهم لَمّا كفروا بآياتِ مَنْ له مقاليدُ خزائنِ الخيرِ عَرَّضوا أنفسَهم للحرمان ممّا في خزائنه، وأعظمُها خزائنُ خيرِ الآخرة[1]، وهل يوجد خسارةٌ أكبرُ من هذه الخسارة، خسارةُ الاستفادة مِنْ خزائن مَنْ له مقاليد السَّموات والأرض.

بلاغة الوصل والعطف:

اجتماع اليأس من رحمةِ الله والعذابِ الأليم على الكافرين

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ جاءت جملة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ معطوفة على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ وكلاهما تتحدّث عن الجزاء الّذي توعّد اللّه به الّذين كفروا بآيات اللّه ولقائه، فأفاد العطف جزاءً جديدًا لهم وهو ما أعدّه اللّه لهم من العذاب الأليم، وفي هذا العطف مبالغةٌ في التّخويف والتّهديد والوعيد فيما أعدّه اللّه للكافرين بأنْ جمع عليهم قَطْعَ رجائهم من رحمة اللّه مع عذابهم العذابَ الأليم.

بلاغةُ تكرارِ اسمِ الإشارة:

تهديد الموصوفين بالكفر والتَّنكيل بهم

جاء النَّصُّ القرآنيُّ باسم الإشارة مكرَّرًا مرّتين في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ للتَّأكيد على

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 55.

اليأسِ من رحمةِ الله، والتَّأكيدِ على العذابِ الأليم[1]، ولو قال: أولئك يأسوا من رحمتي، ولهم عذابٌ أليم لتخيَّلَ المتخيِّلُ أو لوَهِم الواهمُ أنَّهم جمعوا هاتين الصِّفتين، ولا يوجدُ غيرُهم، فهُمْ انفردوا بكلِّ صفةٍ على حِدَةٍ، بحيث لا تنطبقُ الصّفتان مجتمعتَيْن، إنَّما تنطبقُ كلُّ صفة على انفراد، وأنَّ كلَّ حُكمٍ كالمستقلِّ عن الآخر[2]؛ تكثيرًا للتَّنكيل الحاصلِ بهم، وزيادةً في تهديدهم ووعيدهم، وللإيماءِ إلى أنَّ اليأسَ من الرَّحمة ثبتَ لهم بكفرهم فقد ثبتَ العذابُ الأليم عليهم، فجُعِلَتْ كلُّ خَصلَةٍ في تَمييزهم بالعقوبة الّتي لو انفَردتْ لكانت كافيةً، فأُبرِزَ الخبرُ في صورةِ جملتين توكيدًا وتعظيمًا[3]، كما في نظيراتها ممّا تكرّرَ فيه اسمُ الإشارةِ.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على عامله:

استحقاق الكافرينَ من العذابِ الشديدِ الّذي ليس لغيرهم

تقدَّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿عَذَابٌ﴾ في جملة التّذييلِ: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ ليُبيّنَ اختصاصَ هؤلاء الكافرين بالعذابِ الأليم واستحقاقَهم له[4]، فلا يراهُ غيرُهُم من أهلِ المعاصي، وهو قَصْرُ صِفةٍ على موصوفٍ قَصْرًا ادِّعائيًّا، ونكتتُه: الإيماءُ إلى شِدَّةِ العذاب وألَمِه، وكأنَّ العذابَ الّذي ينالُ غيرَهم ليس بشيءٍ مقابلَ ما يلقى هؤلاءِ الكافرون، وفي هذا مبالغةٌ في تخويفِ الكافرين، وفيه بشارةٌ للمؤمنِ باللّه واليوم الآخر بأنّه لا ينالهُ هذا العذابُ الأليم.

سِرُّ اختيارِ التّعبير بلفظ ﴿عَذَابٌ﴾ دونَ سواه:

جمع كلّ أنواعِ الإيجاع والشّدّة للكافرين

عبّر القرآن بلفظ ﴿عَذَابٌ﴾ دون غيره من الألفاظ كالإهلاك أو العقاب؛ لاتّساع دلالة لفظ العذاب، ومناسبته للسّياق؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 234.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 43، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 15/ 336.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 70، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 36.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 20/ 149.

فالعذابُ أعمّ من الإهلاك ومن العقاب من جهة أنّ العذاب قد يكون إيجاعًا شديدًا، ونكالًا وعُقوبَةً، وقد يكون إهلاكًا[1]، وكذلك يصدقُ بإيقاعِ الإهانة والإذلال لذوي الكِبْرِ والاعتزاز، فهو يتفاوتُ في الأنواعِ والشّدّة والأثر[2]، فأصلُ العذاب هو الضَّرْبُ ثُمَّ اسْتُعِيرَ ذَلِكَ في كُلِّ شِدَّةٍ[3]، وقيل أصلهُ من المنعِ، لمنعه من معاودةِ ما عوقبَ عليه[4]، وهذه المعاني كلّها لمعنى العذاب تتناسبُ مع السّياق الّذي هو في عقوبةِ الكافرين الجاحدين الّذين تكبّروا عن الإيمان باللّه وبآياته ولقائه، وما أعدّ اللّه لهم من عذابٍ أليم يجمعُ كلّ أنواع العذاب المؤلم الموجِع الشّديد جزاءً لهم على كفرهم، وكذلك تناسُبًا مع السّياق الّذي ورد فيه لفظ ﴿يُعَذِّبُ﴾ في قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

الغرض من تنكير ﴿عَذَابٌ﴾:

تهويلٌ وتخويفٌ بُغْيَةَ ردعِ الكافرين وزَجْرِهِم

تنكير لفظة ﴿عَذَابٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يفيدُ تهويلَ هذا العذابِ، فهو عذابٌ لا يُحدُّ حدُّه ولا يُقادرُ قَدْرُه، بما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خطرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، وفي هذا مِنَ الدّلالةِ عَلى كمالِ فظاعةِ حالِهم ما لا يَخْفى بسببِ أوصافِهم القبيحةِ[5]، وفيه ردعٌ وتخويفٌ لهم ليَنْزَجِروا عن كفرهم وغَيِّهم.

سِرُّ وصف العذاب بـ﴿أَلِيمٌ﴾:

مبالغةٌ في شدَّةِ التّنكيلِ والإيلامِ والتَّعذيبِ

جاء وصفُ العذابِ بأنّه ﴿أَلِيمٌ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على غاية الشّدة في الإيلام[6]، فلا يستطيعُ أن

(1) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عذب).
(2) ابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عذب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذب).
(4) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: 3/ 43.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل: 7/ 36.
(6) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 229.

يُطيقه أو يَتحمَّله أحدٌ[1]، مع أنَّ العذابَ لا يكون إلّا مؤلِمًا؛ لأنَّ الألمَ هو صُلْبُ العذابِ، والمعنى على المبالغة في الإيلام، فكأنَّ الإيلامَ تكرَّر في الكلام، فهو محمولٌ على أنَّه مؤلِمٌ، لكنْ أُتيَ بصيغة فعيلٍ للمبالغةِ ولبيانِ أنّ الألم راسخٌ فيه.

ومجيءُ ﴿أَلِيمُ﴾ على وزن فعيل، بمعنى اسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول، أرسخَ في التَّهديد؛ لأنَّ التّعبير بالأليم جاء ليشملَ الاحتمالين؛ إذ اللَّفظُ يحتملُ الوجهين: أليمٌ بمعنى مؤلم، أي عذاب يوجِعُ من يقعُ عليه، وأليمٌ بمعنى مُؤَلَم، ويكون مجازًا عقليًا؛ لأنّ المؤَلَمَ هو المعذَّبُ لا نفسَ العذاب، والقصدُ منه بلوغُ العذاب الغايةَ في الإيلام[2].

نكتة تنكير لفظ ﴿أَلِيمُ﴾:

عـذابٌ لا يقادَر قدرُه في الشّدَّةِ والإيلامِ

مجيءُ صفة ﴿أَلِيمُ﴾ للعذاب نكرة في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يفيدُ المبالغةَ في بيانِ الألمِ الّذي يحمله هذا العذاب لهم، فهو عذابٌ لا يقادَر قدرُه في الشّدَّةِ والإيلام[3]، ولا يعلم مقدارَ شدّته وفظاعته إلا هو سبحانه[4]، وكذلك جاء نكرة تطابقًا مع الموصوف ﴿عَذَابٌ﴾ الّذي جاء نكرة.

الغرض من حذف متعلّق ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

احـتـمـال كـون الـعـذاب الأليم في الدّنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا

تنوّعت تفاسيرُ العلماء في بيان متعلَّق لفظِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فبعضهم قدّره بـ(في الآخرة)[5]، وبعضهم بـ(في الدنيا والآخرة)[6]، وقد حذفَه البيانُ القرآنيُّ لإفادة

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 20/ 149.
(2) البَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 3/ 45.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 36.
(4) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 26.
(5) تفسير يحيى بن سلّام: 2/ 624، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 23، والسَّمَرقَنديّ، بحر العلوم: 2/ 629.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 271، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 420.

العموم؛ ذلك أنّ الاسمَ وما في معناه متى قُيّد بشيءٍ تقيّدَ به، فإذا أطلقَه اللّه تعالى، وحَذَفَ المتعلَّقَ أفادَ التَّعميمَ، وكان الحذفُ أحسنَ وأبلغَ من التَّصريح بالمتعلّقات، وأجمعَ للمعاني النّافعة، فنتجَ عن ذلك أنَّ كلَّ ما يمكن أنْ يتخيلَه الإنسان من العذابِ الأليم في الدُّنيا أو الآخرة سَيَحيّقُ بالكافرين وينالُهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٖ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضٗا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾ [العنكبوت: 24 - 25]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعدَ الحُجَجِ والبراهينِ إعلانُ الكفرِ الصّريحِ، والكيدُ للدّاعي ونجاتُه منهم

بيّنَ النّظمُ الجليل أنّ إبراهيمَ ﷺ بعد أنْ فصّل لقومِه الأدّلةَ على وحدانيّة اللّه تعالى، وعلى صدقِ الرّسالة والبعث، وأمَرَهم بعبادة اللّه تعالى، وقرّعهم على عبادةِ الأوثان، أوردَ النّظمُ ما قاله قومُه له، وبيّن أنّهم لم يَجدوا جوابًا على كفرهم وعنادِهم إلّا اللّجوءَ إلى القوّة، كما هو شأنُ المغلوبِ بالحُجَج، فبنَوا له بُنيانًا وألقوه في النّار، فأنجاه اللّه من كيدِهم، وجعلَها عليه بردًا وسلامًا، ثمّ أتبعَ ذلك بجوابِ إبراهيمَ ﷺ لقومِه بعد النّجاة من النّار مُقرّعًا لهم، وموبّخًا على عبادة الأوثان، ثمّ بيّن أنّ المودّةَ والاجتماعَ على عبادتها إنّما هو في الدّنيا لغرضِ مصالحِهم وتوادِّهم، فإنّ تلك المودّةَ تنقلبُ يومَ القيامة بُغضًا وحِقدًا وعَداوة، فيتبرّأ بعضُهم من بعض[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرِّقُوهُ﴾: (حرق) أصلٌ يدلُّ على حَكِّ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ مَعَ حَرارَةٍ والْتِهاب[2]، والحَرَقُ: النّارُ، والحُرْقةُ: حَرارتها، والتحريقُ: تأْثيرها في الشَّيْءِ[3]، يقال: أحْرَقَ كذا فاحترقَ، والحريقُ: النّار،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 44، والمراغي، تفسير المراغي: 20/ 129.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرق).
(3) ابن منظور، اللسان: (حرق).

وقال تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [الحج: 22]، وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: 68]، فحَرَّقُ الشيء: إيقاعُ حرارةٍ في الشّيء من غير لهيب، كحَرَقِ الثَّوبِ بالدّقِّ، والإحراقُ: إيقاعُ نارٍ ذاتِ لهيبٍ في الشّيء، ومنه استُعيرَ: أحرقَني بلَوْمِه: إذا بالغَ في أذيّته بلَوْمٍ[1]، والمرادُ به في الآيةِ الكريمة: تحريقُهُ بالنّار[2].

2) ﴿مَّوَدَّةَ﴾: (ودّ - ودد) أصلٌ يدلُّ عَلَى مَحَبَّةٍ، ووَدِدْتُ أنَّ ذاكَ كانَ، إذا تَمَنَّيْتَهُ، أَوَدُّ فيهما جَميعًا[3]، والوُدُّ: مَصْدَرُ المَوَدَّة، وهو الحُبُّ يَكونُ في جَميعِ مَداخِلِ الخَيْرِ؛ وهوَ مِنَ الأُمْنيَّة؛ قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ﴾ [البقرة: 96]، أي: يَتَمَنَّى[4]، ويُستعملُ في كلّ واحدٍ من المعنيينِ على أنَّ التّمنّيَ يتضمّنُ معنى الوُدّ؛ لأنّ التّمنّيَ هو تَشهّي حصولِ ما تَوَدُّهُ، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ [الروم: 21]، وقوله: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: 96]، إشارةٌ إلى ما أوقعَ بينهم من الأُلْفة، وفي المودَّة التي تقتضي المحبّةَ المُجرّدة قولُه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: 23][5]، والمرادُ به في الآيةِ الكريمة التّوادُّ والمحبّةُ[6].

3) ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ﴾: (أوى) أَصْلٌ يدلّ على التَّجَمُّع، يُقالُ: أَوَى الرَّجُلُ إِلَى مَنْزِلِه وآوَى غَيْرَهُ أويًّا وإيواءً، قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾ [المؤمنون: 50]، والمَأْوَى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يأوي إِلَيْهِ لَيْلًا أَوْ نَهارًا[7]، وأَوَيْتُ مَنْزِلي وإلى مَنْزِلي: عُدْتُ، وآوانا: أي ردَّنا إلى مأوًى لَنا ولَمْ يَجْعَلْنا مُنْتَشِرِينَ كالبهائم، والمَأْوَى: المنزلُ[8]، وأوى إلى كذا: انضمّ إليه، قال ﷻ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ [هود: 43]، وقال تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: 69]، أي: ضمّه إلى نفسِه[9]، ومعناه في الآية: أنّ النّار هي منزلُكم الَّذي تأوونَ إليه[10].

(1) الراغب، المفردات: (حرق).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 312.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ودّ).
(4) ابن منظور، اللسان: (ودد).
(5) الراغب، المفردات: (ودد).
(6) الخطيب، السراج المنير: 3/ 133.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى).
(8) ابن منظور، اللسان: (أوا).
(9) الرّاغب، المفردات: (أوى).
(10) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 230.

4) ﴿نَّـٰصِرِينَ﴾: (نصر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه، ونَصَرَ اللَّه المُسْلمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدوِّهِمْ، يَنْصُرُهُمْ نَصْرًا[1]، والنَّصرُ: إعانةُ المَظْلوم[2]، ونَصَرَهُ منه: نَجّاهُ وخَلَّصَهُ[3]، والنَّصْرُ والنُّصْرَةُ: العَوْنُ، قال تعالى: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: 250]، والتَّناصُرُ: التَّعاوُن، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥﴾ [الصافات: 25][4]، والمراد به في الآية الكريمة: الإنجاءُ والتّخليصُ والمنعُ من العذاب[5].

المَعْنى الإجْماليّ:

جـوابُ قـومِ إبـراهـيـمَ لـه وتـقـريـعُـه لـعـبـادتـهـم وعـلاقـتـهـم ببعضهم

يُخبرُ النّظم الجليلُ عن قومِ إبراهيمَ عليه السلام - بعدَ أنْ بيّن لهم إبراهيمُ الحُجَجَ والبراهين على دعوته - بأنّهم رجعوا معَه إلى أسلوب الغلَبة والقهر، وأعرضوا عن طريقِ الاحتجاج والمناظرة حينَ لم يكن لهم قدرةٌ على ردّ حُجَجه، فاختلفوا في قتلِه أوْ تحريقه بالنّار، واتّفقوا آخرًا على تحريقِه، فأنجاه اللّه تعالى من نارهم بأنْ جعلَها عليه بردًا وسلامًا، وقد كان في ذلك الإنجاءِ دلالاتٌ واضحةٌ وعلاماتٌ ظاهرة، على عظيم قدرة اللّه، وبديعِ صُنعه؛ إذ أضرموا تلك النّارَ العظيمة، وألقَوْه فيها، ولم تُحرِّقْه، ولا أثَّرت فيه أثرًا، وبعدَ أنْ منّ اللّه تعالى على إبراهيمَ بالنّجاة من النّار، أقبلَ على قومه يُقرّعُهم في شأن دينهم، فقال: إنّما اتّخذتُمُ الأوثانَ للتّودُّد والتّواصُلِ فيما بينَكم لاجتماعِكم على عبادتها، وحفظًا لمودّتهم الدّنيويّة، وأنّهم يومَ القيامة يَجحَدُ بعضُهم بعضًا ويتلاعنون؛ لأنّ توادَّهم كان على غيرِ تقوى، ولن يكونَ لهم في ذلك اليومِ مَن يُخلّصهم من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(2) ابن منظور، اللسان: (نصر).
(3) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (نصر).
(4) الراغب، المفردات: (نصر).
(5) الخازن، لباب التأويل: 3/ 379.

عذاب اللّه تعالى وسوءِ المصير، والمقصودُ بيانُ أنّ هؤلاء المشركينَ لم يتّخذوا الآلهةَ لأنّهم يعتقدونَ صحّة ذلك على سبيل اليقين، بل اتّخذوها في الدّنيا آلهةً على سبيل التّوادّ والتّقليدِ والمُسايرةِ لغيرهم، وفي الآخرة تتحوّلُ تلك المودّةُ إلى عداوةٍ ومُقاطعةٍ ومُلاعنة[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ في قوله: ﴿فَمَا كَانَ﴾:

تسرّعُ الكافرينَ بالجوابِ نكوصٌ على الأعقاب

عطفَ النّظم الجليل الجملةَ في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ بالفاءِ الدّالّة على التّفريع؛ لأنّ جوابَ قومِه مترتّبٌ ومتفرّعٌ عن قول إبراهيم عليه السلام في الآية: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ [العنكبوت: 16][2]، كما أنّ جوابَهم هذا مسبّبٌ عن قوله، فعبّر عن ذلك بـ(الفاء) لما فيها من دلالة على السّببيّة مع التّرتيب والتّفريع؛ "لأنّ إبراهيم عليه السلام لمّا أتى ببيان الأصولِ الثلاثةِ وأقامَ البرهانَ عليه، بقي الأمرُ من جانبهم إمّا الإجابةُ أوِ الإتيانُ بما يصلح أنْ يكونَ جوابَه، فلم يأتوا إلا بقولهم: اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقوهُ"[3].

دلالةُ النفيِ بـ(ما):

استمرارُ الجحودِ إيذاءٌ بلا حدود

التَّعبيرُ بـ(ما)، فيه دلالةٌ على النَّفيِ والعموم؛ إذ من خصائصِ (ما) نفيُ الجملِ الاسميَّة والفعليَّة، ولذلك فهي تفيد توكيدَ النَّفي، فضلًا عن إفادته استمرارَه، أي: انتفاءُ جوابِهم مؤكّدٌ مُستمرٌّ لا ينفكّ عنهم.

دلالةُ نفيِ فعلِ الكون بصيغةِ الماضي:

شدّةُ الانحراف تعبيرٌ عن عظمةِ الخلاف

سلّطَ النّظمُ الجليل النّفيَ على فعلِ الكون في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ دونَ أن يقول: (ما جواب

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 312 - 313، والقنوجي، فتح البيان: 10/ 182 - 183، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 29.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 234.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 44.

قومه إلّا أن قالوا) للدّلالةِ على انتفاءِ الجواب عنهم انتفاءً بليغًا، أي: لم يكُنْ لهم جوابٌ من الأصل، وإقحامُ الكونِ الماضي بينَ أداة النفي ولفظ (الجواب) أفادَ تحقيقَ النّفي وتأكيدَه في الماضي واستمرارَه في الحاضر، وفيه دفْعٌ لتوهّمِ اقتصارِ النّفي على الحالِ دون المُضيّ والدّوام؛ وفي ذلك ترسيخٌ لجهلهم، وعنادهم.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿جَوَابَ﴾:

الرّدُّ على البرهانِ بالتّهديد دليلُ إفلاسِ العنيد

عبّرَ النّظمُ الجليل عن ردِّ قوم إبراهيمَ على دعوتِه وحُجَجه بلفظ (الجواب) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ وهو وإنْ لم يكنْ في الحقيقةِ جوابًا؛ لأنّه لا يتعلّقُ بمقوله ولا بحُجَجِه وإلزاماته؛ بل سمّى الكلامَ المتضمّنَ للتهديد والوعيد (جوابًا)؛ لأنّه جاءَ على صورةِ الجوابِ عن الحُجَج، ففيه استعارةٌ تصريحيّةٌ، وفائدةُ التَّعبيرِ عن ذلك بأنّه جوابٌ الدّلالةُ على أنّهم لا يملكونَ جوابًا حقيقيًّا، ولا ردًّا موضوعيًّا يَدفعون به حُجَجَ إبراهيمَ عليه السلام، فبيّن أنّهم لم يكن لهم جوابٌ أصلًا سوى الكلامِ المهدِّد والمتوعِّد؛ ذلك أنّ السّاكتَ عن الجواب لا يُعلَمُ أنّه يَقدرُ على الجواب أم لا؟ لجوازِ أنْ يكون سكوتُه لعدم الالتفات أوْ عيًّا وحَصَرًا، وأمّا إذا أجابَ بجوابٍ فاسد عُلِم أنَّه قصدَ الجوابَ وما قدَر عليه، أوْ أنّه خرجَ مُخرَجَ كلامِ المتكبر[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ القوم مضافًا إلى الضّمير:

اجتماعُ كلمةِ المُعاندين على إيذاءِ المُرسَلين

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (قومه) في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ للدّلالة على أنّهم ذوو "قوّةٍ ونَجْدةٍ بحيث يُخشى شرُّهم، ويُتّقي أذاهم وضرُّهم، لمّا أنكرَ عليهم ما أنكرَ"[2]، ويدلّ على أنّ القومَ كلّهم قد تواطَؤوا على هذا القول، وقد

(1) الخطيب، السراج المنير: 3/ 133.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ القوم إلى الضّميرِ العائد إلى إبراهيم ﷺ؛ للدّلالةِ على شِدّة غُربتِه تعبيرًا عن صعوبةِ مُهمّة الرّسل؛ إذ إنّ أثقل ما يكونُ على النّفس أن يحاربَ المَرْءَ أهلُه وقومُه.

دلالة الحصر في: ﴿إِلَّآ﴾:

حصرُهم في الكلام انحصارٌ عن بلوغِ المَرَام

عبّر النّظمُ الجليل بـ﴿إِلَّآ﴾ الدّالّة على الحصر في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ لنفي كلِّ قول يقالُ، وإثباتِ قولٍ واحد، فأفادتْ ﴿إِلَّآ﴾ إثباتَ قولٍ واحدٍ من سائرِ المقولاتِ المنفيّة، فأعرضوا بجوابِهم هذا عن كلّ مقولةٍ منطقيّة ممكنٍ قولُها، وأجابوا بمقولةٍ تدلُّ على إفلاسِهم وانهزامِهم(1)، والقصرُ إضافيّ؛ لأنّهم لم يكونوا مُقتصرينَ على هذا الجواب، فقد قالوا غيرَها من المقولات، ولكنّه حصرَ مقولتهم على ذلك للدّلالة على انتفاء الجوابِ المنطقيّ عنهم، وأفادَ الحصرُ الإضافيّ إجماعَهم على هذا القرار المُجحِف؛ إذ سلَّط الضوءَ عليه دونَ سائرِ الأقوال؛ لبيان أنَّه قرارٌ إجماعيٌّ وصلَ إلى درجةِ القطْعِ والحسم لديهم حتى إنَّه لم يبقَ لهم قولٌ غيرُه.

دلالةُ التعبيرِ بالمصدرِ المؤوّل:

الإصرارُ على الإيذاء كاشفٌ لعميقِ العَداوة

عبّر النّظمُ الجليل بالمصدر المؤوّل المكوَّن من ﴿أَن﴾ المصدريّة والفعل الماضي في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ للدّلالة على صدورِ قولِهم ذلك، أي: كان قولُهم ذلك هو جوابَهم له، واستيعابُ المصدر المُؤوَّل للدلالة الاسميّة والفعليّة معًا، يجعلُ معناه مُنتظمًا في مسارين: حركةُ المعنى في الزّمن، وهو الفعليّة، ومعنى المصدر في دلالتِه على أصلِ الحدث وحقيقته، فيجمعُ بين الحدوثِ والحدَث، والتعبيرُ به في قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ يدلّ على نسبةِ القول إليهم جميعًا بتمامِه، وتحقّقِ وقوعه منهم

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11124.

مُصرّحين به جهارًا ومصرّينَ عليه؛ إمعانًا في حقدهم على إبراهيم عليه السلام، واصرارِهم على الخلاصِ منه قتلًا أوْ تحريقًا.

سرّ إيثارِ التَّعبير بالفعلِ ماضيًا:

شدّة الجحودِ والقسوةُ في الانتقام

اصطفاءُ النّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ القولِ ماضيًا في المصدر المؤول: ﴿أَن قَالُواْ﴾ يدلُّ على تحقُّقِ وقوعِ القول منهم على سبيلِ القطع والجزمِ، ويشملُ كلَّ أنواع التَّعبير اللفظي، المباشر وغير المباشر، ففيه - فضلًا عن الإيجاز المناسبِ لبلاغة القرآن - الدلالةُ على التّصريح والمُجاهرة بكُفرهم وجحودِهم عن إصرارٍ وتعمُّدٍ دونَ مواربة، وأنّ جرأتَهم وشدّةَ عنادهم، قادَتْهم إلى الكبْر، والجُحود، والحقد، والقسوةِ في الانتقام.

إيثار التَّعبير بلفظ القتل أمرًا:

ديدنُ الظّالمين قتلُ المُصلحين

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (القتل) في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ للدّلالة على أنّهم أرادوا إزهاقَ روحِه، والقتلُ بالآلةِ الجارحةِ يُسبّب هدمَ بنيةِ الجسد هَدْمًا يتبعُهُ خروجُ الرّوح؛ لأنها لا تبقى في بنيةٍ غيرِ سليمةٍ، أمّا الموتُ فتخرجُ الروحُ أوّلًا، ثمَّ تُهدَمُ البنيةُ بتحلُّلِها في التّراب(1)، وسرُّ اختيار صيغةِ الأمر دلالتُها على الوجوب والجزم بتحقيق المراد، وتكشفُ الجملة ﴿ٱقۡتُلُوهُ﴾ على وقوع التشاور في كيفيَّة التخلُّص منه، فطلبوا القتلَ والإيذاءَ الجسديَّ، وعبَّروا عنه بصيغة الغَيبة امتهانًا لمكانته بينهم، ولأنه لم يكن حاضرًا معهم، وأنهم قد دبَّروا ذلك سرًّا، وذلك ديدنُ الظّالمين مع المُصلحين.

دلالةُ العطفِ بالحرف ﴿أَوۡ﴾:

التّردّدُ في الوسيلة مفصحٌ عن العزم في الغيلة

عبّر النّظمُ الجليل بحرف العطف ﴿أَوۡ﴾ الدّالّة على التّخيير والتّردّد بين أمرينِ في قوله: ﴿ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ للدّلالة على أنّ قومه

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11125.

تردّدوا في شأنِه بين كيفيّات القتل وصورِه، فبعضُ قومه أشاروا بالقتل مباشرةً، وذلك يكونُ بآلةٍ جارحةٍ عادةً وفيها إيذاءٌ جسديٌّ لكنَّه محدودٌ ومؤقَّت، وبعضُهم أشارَ بتحريقه، ثمَّ اتفقوا جميعًا على التحريق[1]، أو أنّ ﴿أَوۡ﴾ بمعنى (بل) فتدلّ على الإبطال، أي: اقتلوهُ بل حرّقوه، وقد عدلوا إلى ذلك؛ لأنّ التّحريق أشدّ إيلامًا وأسوأ وسائلِ القتل، وهذا التردُّدُ في كيفيَّة التخلُّص منه كاشفٌ عن اتفاقِ كلمتِهم على الخلاص منه، لكنَّهم مختلفونَ في الآليَّة والطريقة، ممّا يكشف عن اتّخاذهم قرارَ الإعدام أصلًا، لكنَّهم يتخيَّرون الطريقةَ التي تَشفي عليلَ صدروِهم وتَروي غليلَ أفئدتِهم.

دلالة التَّعبير بصيغة التضعيف في ﴿حَرِّقُوهُ﴾:

التّحريقُ أشدُّ إيلامًا من الإحراق

آثر النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة التّضعيف للفعل الثلاثي المجرد دون (أحرقوه) في قوله: ﴿ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾؛ لأنّ التّحريقَ يدلّ على المبالغةِ في فعلِ الإحراق، والمبالغةُ هنا تشيرُ إلى شدّة التّحريقِ بحيث إنّ النّار تحرقُ كلَّ جسمِه إحراقًا كاملًا، وهذا التكثيرُ في الفعل يظهَرُ بجمعِ حطبٍ كثيرٍ وإيقادِ نارٍ فيه، وإلقائه وسطَ تلك النار المتأجِّجة، وليس مجرّدَ عرضه على أيّةِ نارٍ وإشعالِه فيها كما يُفعَلُ بالمهرطِقِ العاديِّ والسّاحرِ المحتال، فكان اختيارُ هذه الصيغة في القتل كاشفةً عن مدى حِقدهم عليه بعد أنْ كسَّرَ أصنامَهم، فأرادوا عذابًا يُطفئُ حقدَهم، فلم يجدوا إلا النار المُحرّقة وسيلةً لإيذائِه وارتياحِهم منه.

بلاغة تقديم المسند على المسند إليه:

العجزُ عن المناظرة داعٍ للقتل والمُعارضة

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ جرى تقديمُ المسند ﴿جَوَابَ﴾ على المسند إليه ﴿أَن قَالُواْ﴾؛ فوقعَ خبرُ ﴿كَانَ﴾ متقدِّمًا على اسمِها؛ للدلالة على اختصاصِ الجوابِ بالقول

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 27.

المذكور؛ فلم يصدر منهم جوابٌ عن حُجَجه وإلزاماته البرهانيَّة لهم في عبادتِهم الأوثانَ والكواكبَ من دون الله تعالى، وإنَّما تمخَّضَ الجوابُ عن استكبارٍ وظُلْم ومكرٍ وإيذاء، فكانَ التقديمُ مع أسلوبِ القصر متناغمًا في تصويرِ عدم صدورِ جوابٍ حقيقيٍّ عنهم سوى كلامِ التهديد والوعيد والإفناء.

سرُّ العطف بالفاء في ﴿فَأَنجَىٰهُ﴾:

تعجيلُ الإنجاء بعدَ الإلقاء

افتتحَ النّظم الجليل الجملةَ بـ(الفاء الفصيحة) في قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾، التي أفصحَتْ عن جملةٍ محذوفة، والجملةُ المحذوفة هي المعطوفُ عليها، والتّقدير: فألقَوه في النّار فأنجاهُ الله تعالى منها[1]، كما أنّها تشيرُ إلى سرعةٍ في الإنجاء، والسّرعة فيه هنا مطلوبةٌ، لكون النّار لا يتأخّر حتفُ مَن أُلقي فيها عادةً، فكان التّعجيلُ بإنقاذِه قرارًا إلهيًّا حاسِمًا، كما تحملُ (الفاء) المتسبِّبة عن إلقائه في النار أنَّ أمرَ الإنجاء هيّنٌ، لا يحتاج من المولى تعالى إلى تعَبٍ أو نصب، بل إلى مجرَّد أمرِ النار بعدمِ الإحراق.

سرّ إيثار التَّعبير بـ(أنجاه) دون (نجّاه):

لا فعلَ يعظُمُ إنجازُه عندَ الله تعالى

آثر النّظمُ الكريم التَّعبير بالفعل المتعدّي بالهمزة (أنجاه) دون الفعل المتعدي بالتضعيف (نجّاه) في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ لأنّ تعدية لفعل بالهمزة هنا دالّةٌ على سرعة الإنجاز ويُسره، فإنّ التّضعيفَ يدلّ على التّكثير، ويشيرُ إلى أعمال كثيرة للتّنجية المتدرجة مع صعوبةٍ في الإنجاز، وهذا يشعرُ بالبطء، والمقامُ يقتضي التّعجيلَ، فآثر لذلك التَّعبيرَ بالفعل المتعدّي بالهمز، ولم يحتجْ إلى تكثيرٍ ولا إلى تدريجٍ وهما مدلولا صيغة التّفعيل[2]، وبهذا تتحقّقُ المقابلة الصيغيّة بين ﴿حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ﴾؛ فالأولى دالّةٌ على أنَّ فعلهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 36.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 421.

استغرقَ وقتًا طويلًا لتهيئة مكان التحريق، وجمع الأخشاب وإيقاد النار، والثانية دالّةٌ على إنجازٍ هيّنٍ يسير، تمثّلَ بمجرّد أمرِ النار بعدمِ مسِّه بسوءٍ معَ وجود لهبها المتطاير في أرجاء المكان.

علّة مجيء لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مُظْهَرًا:

التصريحُ بالعلَم كافٍ في إدراكِ العظمة

أظهرَ النّظم الجليل لفظَ الجلالة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ دون الإضمار؛ وذلك لبيانِ عظمةِ الإنجاء، وبيان كونِه مُعجزًا لا يقعُ في وسع أحدٍ إلّا اللّه تعالى، أي: أنجاه اللّه تعالى بما له من كمالِ العظمة[1]، والتّعظيمُ وقع هنا في أبلغ موقع؛ إذ إنّ التّعجيلَ بالإنقاذ من النّار لا يقدرُ عليه إلا إلهٌ عظيم الشأن، بالغُ القدرة.

معنى ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾:

تعيينُ محلِّ النجاة توضيحٌ للفعل العظيم

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ وهي هنا دالّةٌ على الابتداء المكانيّ، أي: بدأ وقوعُ ذلك الإنجاءِ من تلك النّار، أي: إنّه كان فيها وقد بلغَها ودخلها، وهذا التحديدُ لمحلِّ النجاة كاشفٌ عن قدرة عظيمة؛ فلم ينجُ منهم قبلَ الدخول إلى النار، بل دخلَها ورأَوْه عند الدخول، واطمأنوا إلى احتراقِه بالكامل، لكنَّ القدرة العظيمة أدركَتْه في النار وأنجته منها، حتى يكونَ ذلك الإنجاءُ آيةً ومعجزةً ظاهرةً على صدق نبوّتِه.

سرّ ورودِ لفظِ ﴿ٱلنَّارِۚ﴾ معرفًا:

لا نجاةَ من النار إلا بالتمسُّك بالله تعالى

عرّفَ النّظم الجليل لفظ ﴿ٱلنَّارِۚ﴾ بالألف واللّام في قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ الدّالّة على العهد، إشارةً إلى النّار المعهودة التي طلبوا إحراقه بها، وفي هذا الإخبارِ دلالةٌ على أنَّ نجاة إبراهيم من النار نجاةٌ لكلِّ مَن سار على طريقته في التوحيد بالنَّجاة من عذاب النار، وأنَّ مَن حاد عن دعوته وأسِّ قضيّته فإنَّ مصيره إلى النار.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 421.

دلالة الحرف ﴿إِنَّ﴾:

الإنجاءُ من النّار الموقَدةِ برهانٌ لا يُنكر

أكّد النّظم الجليل جملةَ الفاصلة بتصديرها بحرفِ التّأكيد في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ تقويةً للخبر، وتأكيدًا لمضمونِ الخطاب، وكونُ ذلك الإنجاءِ آيةً بليغةً لا يُنكرُهُ إلّا مُكابرٌ معاند، وفُصِلت الجملةُ عمّا قبلَها استئنافًا نحويًّا أوْ بيانيًّا؛ إظهارًا لذلك الإنجاء الخارج عن حدودِ طاقةِ المكنات، والدّاخلِ في قدرة اللّه تعالى وحدَه لعلَّهم يرعَوونَ عندَ رؤيةِ تلك الآيةِ العجيبة.

سرُّ مجيءِ حرفِ الظّرف ﴿فِي﴾:

في الإنجاءِ برهانٌ عظيمٌ وبيانٌ قويم

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ الدالِّ على الظرفيَّة المجازيَّة في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ البيانَ والعلاماتِ الدّالّةَ على الحقّ كامنةٌ داخلَ ذلك الإنجاء، وكأنَّ الإنجاءَ صار وعاءً للآيات، ينظر إليها كلُّ مَن نظر إلى ذلك الوعاءِ بعينِ البصيرةِ والإدراك الصّادق، ومعنى كونها فيه أنّها ظاهرةٌ وُجِدت مع وجوده، فكلُّ ذي بصيرةٍ يرى أنّ النّجاة من تلك النّار آيةٌ بليغةٌ على صِدْقِ إبراهيمَ وعلى عظيمِ قُدرةِ اللّه تعالى.

بلاغة الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإنجاءُ من النّار عالي الرّتبة في الإعجاز

عبّر النّظم الجليل باسم الإشارة الموضوعِ للمشارِ إليه البعيد عن الحسّ، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ إشارةً لإنجاءِ إبراهيمَ من النّار، أي: إنّ في إنجاءِ إبراهيمَ من النّار لآياتٍ[1]، والدّلالةُ على البُعد فيه المأخوذةُ من (اللّام)؛ تدلّ على البُعْد المعنويِّ والرُّتَبيّ، المرادِ به علوُّ مكانةِ ذلك الإنجاء وعظيمُ برهانه، فهو بعيدُ الشّأن والرُّتبةِ في كونه آيةً بليغةً دالّةً على عظمةِ اللّه تعالى.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 36.

دلالةُ التَّعبير بلفظِ (الآيات):

الإنجاءُ وما فيه دلائلُ بيّنة على صدق إبراهيم وألوهيّة الله تعالى

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (آيات) دون (دليل أو برهان) في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ دلالةً على كونِ الإنجاء دليلًا واضحًا لغرابته ونُدْرته، وإعجازًا بيّنًا عجيبًا على وحدانيّة اللّه تعالى وربوبيّته، وتصرُّفه في الأعيان والمعاني بحفظِه تعالى نبيَّه من حرِّ النار ولهيبها، فهي برهانٌ قاطعٌ على صدق إبراهيم[1]، بخلافِ (الدليل) الذي يكون قاطعًا وغيرَ قاطع، و(البرهانِ) الذي يكون مثبتًا للمطلوب من دون غرابةٍ فيه، وإنّما عبّر عنها بصيغة الجمع؛ لأنّها ليست آيةً واحدة، بل تتضمّنُ آياتٍ كثيرةً تدلّ على قدرة اللّه: من انتفاء الحرّق، وتحوّلِها إلى بردٍ وسلام، وكرامةِ رسوله بخروجه سالمًا، وتصديقِ وعده، وإهانةِ عدوه، وأنَّ المخلوقات كلَّها مُسخّرةٌ لقدرة اللّه تعالى[2].

دلالةُ اللّام في: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

الآياتُ خاصّةٌ بالمؤمنينَ ولأجلِهم

عبّرَ النّظم الجليل بحرف الجرّ (اللّام) الدالِّ على العلَّة والغرض في قوله جلّ شأنه: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ للدّلالةِ على أنّ الآياتِ خاصّةٌ بالّذين يريدونَ الإيمانَ ويسعَونَ إليه برغبةٍ وتفكيرٍ سليم دون مَن سواهم، إذ غيرُهم مشغولونَ بالشّهوات، غافلونَ عن إدراك تلكم الآيات الظّاهرة، التي سُرعان ما يتوهَّمون أنَّها سحرٌ أوْ دجَل، ويُبادرونَ إلى التكذيب.

سرُّ مجيء الفعل ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مضارعًا:

إيمانُ المؤمنينَ يترقّى في مدارجِ السّالكين

آثَرَ النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع عن الإيمان في قوله تعالى: ﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ للدّلالة على تجدُّدِ إيمانهم، حتّى صارَ لهم خُلُقًا وسجيَّةً حيثُ إنَّهم في كلِّ لحظة يُجدِّدون التّرقّي

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 421.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 235.

في مراتبه[1]، وفي ذلك تعريضٌ وتهديدٌ لمشركي مكّة، الَّذين يرونَ الآيات والمعجزات النبوية، ولا يُبادرونَ إلى التصديق بها، والسرُّ في ذلك أنَّهم تخلَّوا عن الرغبةِ بالإيمان والسَّعيِ إليه؛ انشغالًا بملذّات الحياة، وصدودًا عن طريق النَّجاة.

دلالة التَّعبير بالصفة: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

تخصيصُ المنتفعينَ بالآيات من الدروسِ النّافعات

عبّر النّظم الجليلُ عن الإيمان بالجُملة الوصفيَّة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ تحديدًا للمنتفعين بتلك الآيات، وأمّا غيرُهم فهم في غَفلة ساهون[2]، ودلالةً على أنَّ إيمانهم مُتمكّنٌ منهم وهي من مُقوّمات قوميَّتهم، وتعريضًا بقوم إبراهيم عليه السلام بأن تلك الآيات لم يُصدّقوا بها لكونهم قومًا مكابرين، وأنّ الإيمانَ لم يخالطْ عقولَهم[3]، وفي تحديدِ المُنتفعينَ بتلك الآيات تطمينٌ وتسليةٌ للنبيِّ الكريم ﷺ بأنَّ قوم إبراهيم قد رأوا الآياتِ الباهرة ولم ينتفعوا بها؛ فلا تيأس من دعوتِهم لأنَّ تلك الآياتِ مختصّةٌ بالرّاغبين في الإيمان الباحثينَ عنه.

بلاغةُ حذفِ متعلّقِ الفعل ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

إنجاءُ إبراهيم آيةٌ لكلّ مصدّق

حذفَ النّظم الجليل متعلّق فعل الإيمان في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فلَم يُبيّن بأيّ شيءٍ يؤمنون، وذلك للدّلالة على مطلق الباحثين عن الإيمان بالنظر، والتصديق بالبراهين الحقَّة والأدلّةِ القاطعة، ويَحْتمِلُ أنْ يُرادَ بالفعل اللّزوم فلا يكون له متعلّقٌ، ويكون المعنى: إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يوجَد منهم الإيمانُ والتصديق عندَما يرونَ الآياتِ الظاهرةَ والبراهينَ الواضحة، التي لا تحتمل الإنكارَ والتشكيك.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 422.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 235.

توجيه المتشابه اللفظيّ:

الإنجاءُ من النار صنيعٌ عجيب

قال تعالى في إنجاء نوح ﵇ وأصحاب السّفينة ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: 15] بإفراد الآيات، وقال هاهنا ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ بالجمع؛ " لأنَّ الإنجاءَ بالسَّفينة شيءٌ تتّسعُ له العقولُ، فلم يكن فيه من الآيةِ إلا بسببِ إعلامِ اللّه إيّاه بالاتّخاذ وقتَ الحاجة، فإنَّه لولاه لما اتّخذَهُ لعدم حصول علمِه بما في الغيب، وبسبب أنَّ اللّه قد صانَ السّفينةَ عن المُهلكات كالرياح العاصفة، وأمّا الإنجاء من النار فعجيبٌ، فقال: فيه آياتٌ"[1].

آيـةُ السّفينة بفعل الطّوفان، وآيةُ النارِ ذاتيّة

يُلاحظُ أنّه قال في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ﴾ [العنكبوت: 15]، وقال هاهنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾؛ "لأنَّ السَّفينة ما صارت آيةً في نفسها، ولولا خلقُ اللّهِ الطّوفان لبقي فعلُ نوحٍ سَفَهًا، فاللّه تعالى جعلَ السَّفينةَ بعدَ وجوده آيةً، وأمّا تبريدُ النار فهو في نفسِه آيةٌ؛ إذا وُجِدت لا تحتاجُ إلى أمرٍ آخرَ، كخلق الطّوفان حتى يصيرَ آيةً"[2].

إعجاز النّار آنيٌّ للمشاهدين، دائميٌّ للمؤمنين

وقالَ تعالى في خاتمةِ الآيةِ المتشابهةِ نفسِها ﴿ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: 15] وقال هاهنا ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ فخصَّ الآيات هاهنا بالمؤمنين، وأطلقَها في الأولى؛ لأنّ السّفينة بقيتْ أعوامًا حتى مرّ عليها الناسُ، ورأوْها فحصل العلمُ بها لكلِّ أحد، وأمّا تبريدُ النار فإنَّه لم يَدُمْ وانتهى في وقته، فكان الإيمانُ به للخالفينَ بطريق الإيمان بالغيبِ والتصديق به لا بالمشاهدة[3].

جـزاءُ المقتدين بإبراهيم ﵇ النجاةُ من نارِ العذاب

ثمّ إنّ اللّه تعالى لمّا برّد النّارَ على إبراهيم ﵇ بسبب اهتدائه في نفسِه وهدايته لأبناءِ جنسه، وكان قد قرَّر تعالى بأنَّ للمؤمنينَ أسوةً حسنةً في إبراهيم ﵇، جعلَ للمؤمنين بشارةً بأنَّ اللّه يبرّدُ عليهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 45.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 45.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 45.

النار يومَ القيامة ويجعلُها سلامًا بأنْ يُنجيَهم منها فلا يدخلوها، والمعنى: إنّ في ذلك التبريدِ والإنجاءِ لآياتٍ لقومٍ يُؤمِنون[1].

الشّروع في الدّعوةِ وتسفيهُ الشّركِ بعدَ النّجاة

دلالةُ الواو في ﴿وَقَالَ﴾:

افتتحَ النّظمُ الجليل الجملةَ بـ(الواو الاستئنافيّة) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾، والجملةُ مُستأنفةٌ[2]، سيقتْ للشّروع في بيان ما قال إبراهيمُ لقومِه بعدَ النّجاة؛ إذ لا شكَّ أنْ يَعقِبَ النجاةَ تهكُّمٌ بهم وعتابٌ شديدٌ، وتقريعٌ على ما هم عليه من التكذيبِ والإنكار؛ إذ رؤيةُ تلك الآية العجيبةِ والخروجِ من النّار، جعلَهم يفقدونَ الاتّزانَ ويتيهونَ في دروب الوهْم، فيُصيخون السَّمعَ ولا يستطيعونَ الردَّ والجواب، بعد أنْ لم يكن لهم جوابٌ إلا الأمرَ بالإحراقِ والقتل.

العكوفُ على الأوثان حرصٌ على التآلف بينهم والحنان

بلاغةُ أسلوبِ القصر:

حصَرَ النّظمُ الجليل عبادتَهم الأوثان على الغاية التي كانوا يَرجونها من عبادتِهم لها، وذلك في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾، والحصرُ وقعَ على المفعول لأجلِه، أي: ما اتّخذتم أوثانًا إلّا لأجلِ مودّةِ بعضِكم بعضًا، ووجهُ الحصر أنّه ظهرَ لهم الحقُّ بصدْقِ الرّسول، فلم يبقَ لهم سببٌ لعبادةِ الأوثان إلّا مودّةَ بعضِهم بعضًا[3]، وأفادَ الحصرُ تأكيدَ المعنى وتقويةَ المضمون، فانحصرتْ عبادتُهم لها على كونها إرضاءً لنفوسِهم وعلاقاتِهم الاجتماعية، وإبقاءً للتآلفِ والحنانِ فيما بينهم، وفضّلوا ذلك على الحقّ واتّباعِه، واختارَ النظمُ أسلوبَ الحصر مقابلَ حصرِهم السّابق الدالِّ على اجتماع كلمتِهم على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 45.
(2) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1747.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 235.

قتلِه وتحريقِه بالنار، الدالِّ بالاستلزام الظّاهر على رغبتِهم بالعكوفِ على معبوداتِهم الباطلة، مبيِّنًا لهم أنَّ رغبتَهم بتحريقِه وعكوفَهم على الباطل كان منشؤُه الحرصَ على إدامةِ علاقاتهم، وتفضيلها على الحقِّ المبين.

إيثارُ التَّعبير بلفظ الاتّخاذ:

أعـظـمُ الـغـيِّ الاجـتـهـادُ في عبادة مصطَنع لا يـسـتـحـقُّ العبادة

آثر النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ (الاتّخاذ) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا﴾ للدّلالة على أنّهم يعلمونَ أنّها ليستْ بآلهة، فهم الَّذين اتّخذوها كذلك، وقد آثر التَّعبيرَ بصيغة (الافتعال) للدّلالة على المبالغة، أي: أنّهم اصطَنعوها وتكلّفوا اتّخاذَها آلهةً[1]، وفيه إشارةٌ إلى انتفاءِ استحقاقِها العبادة، لأنّها متّخذةٌ لذلك وليست حقيقيَّة، وأفادَ الفعلُ الماضي الدلالةَ على أنَّ ذلك الاتّخاذ صارَ قديمًا فيهم، ومتأصِّلًا حتى آلَ بهم الأمرُ إلى ثبوتِ ذلك الاعتقادِ بشكلٍ راسخٍ وعميق.

معنى الحرف ﴿مِّن﴾:

رتبةُ الأوثان دونَ رتبةِ الإلهِ الحقّ

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا﴾ الدالّة على الابتداء، أي: ابتدأتْ رتبةُ الأوثان من رتبةٍ أعلى ما تكونُ فإنّها دونَ رتبةِ الإله الحقّ، كما أنّه يتضمّنُ انتفاءَ صفةِ العلوّ والعظمةِ الرتبيّة عنها، فـ﴿مِّن﴾ صِلةٌ لتأكيدِ نفي الاتّخاذ عن جانب اللّه بالكليّة، أي: لا اتّخاذَ يقع منك البتّة.

دلالة التعبير بـ﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾:

الإلـهُ الـحـقّ لا يبلغُ أحدٌ رُتبتَه

عبّر النّظم الجليل بالظّرف ﴿دُونِ﴾ الدّالّ على أدنى مكانٍ من الشيءِ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا﴾ وقد أُضيف إلى لفظ الجلالة؛ للإشارة إلى عظمة اللّه وعلوّ شأنه، فكلُّ شيءٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 422.

تحتَ سُلطانِهِ وقهره[1]، وفيه أيضًا دلالةٌ على أنّ كلَّ معبودٍ غيرَ اللّه تعالى فإنّه كائنٌ في رتبةٍ دونيّةٍ لا يَستحقّ العبادة، فالإلهُ المعبود يجبُ أنْ يكون أعلى كلِّ شيءٍ في الرّتبة، ومن ثمّ فلا تساويَ بوجهٍ بينَ معبوداتهم الباطلةِ وبينَ اللّه سبحانه، ونلمحُ في معنى ﴿دُونِ﴾ استخفافًا وتهكُّمًا بعقولهم، فهم فضلًا عن اتِّخاذِهم معبوداتٍ واعتقادِهم ألوهيّتَها مع أنَّها متّخذةٌ منهم، إلا أنَّها كانت دون اللّه تعالى في الرُّتبة والمكانةِ بالاعتراف منهم، وهذا ما لا يليقُ بأدْنى العُقلاء فِعلُه.

اختيار التَّعبير بلفظ ﴿أَوۡثَٰنًا﴾:

كـثرةُ الأوثـان تتضمّنُ دليلَ البُطلان

آثرَ النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ (الأوثان) جمْعًا في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا﴾ للإشارة إلى أنّها كثيرةٌ، وكثرتُها منافيةٌ لرُتبة الإلهيّة[2]، إذ رتبةُ الإله الحقّ تقتضي التّوحيدَ والتنـزُّهَ عن الشُّركاء والأنداد، ويشيرُ التَّعبير بالأوثان إلى مادّةِ صُنْعِها، وأنّها تماثيلُ مصنوعةٌ من حجارةٍ وحديدٍ ونُحاسٍ وفضّةٍ، وكلُّها مخلوقاتٌ جامدةٌ وعاجزةٌ.

سرُّ إيثار المفعول لأجله: ﴿مَّوَدَّةَ﴾:

المـودّةُ دالّـةٌ عـلى الـحُـبّ مـعَ الائـتـلافِ والتّواصُل

آثرَ النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظِ (المودّة) دونَ سواها في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾؛ وذلك لما فيها من دلالةٍ على التّواصل والائتلاف مع الحبّ وتمنّي تحقيقِ الخير فيما بينَهم، أي: إنّكم اتّخذتُم هذه الأصنامَ آلهةً لتتوادّوا بينكم، فيحبُّ بعضُكم بعضًا وتتواصلونَ فيما بينكم، وكلّ هذا من الخير الَّذي تُريدونَ الحصولَ عليه من اتّخاذكم إيّاها آلهة[3]، أوْ تكونَ

(1) الخطيب، السراج المنير: 3/ 133.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 422 - 423.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 36.

المودّةُ بينَ الأوثان وبينَ عبَدَتِها؛ إذ رَأوْها مزيّنةً بجواهرَ فودّوها فاتّخذوها آلهةً، وفيه تعريضٌ بهم بأنّهم كانوا قليلي العقل، غلبتْ الجسميّةُ عليهم فلم يتّسعْ عقلُهم لمعبودٍ ليس كمثله شيءٌ[1]، وفي هذا التعبيرِ ما يكشفُ عن علّة الاتخاذ لتلك التماثيل، بعدَ أنْ أقام لهم الحجّة العقلية القاطعةَ على وحدانية اللّه تعالى وتنزُّهِه عن الشُّركاء، لكنهم فضَّلوا حمايةَ التواصُلِ الاجتماعيِّ بينهم على اتّباع الحقيقة، فمالوا إلى قرار تحريقِه؛ حفظًا للنسيجِ المجتمعيِّ من التهدُّم حالةَ اتّباعه وصدودِ بعضٍ منهم عنه، فلم يكن ذلك الاتخاذُ قائمًا على برهانٍ صحيحٍ وعقلٍ صافٍ، بل حرصًا على عواطفَ غيرِ صحيحة.

لا غـرضَ لهم سِــوى حـفْـظِ التّواصُل بينَهم

دلالةُ الظرفيّة في قوله: ﴿بَيۡنِكُمۡ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بالظّرف (بين) في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ للدّلالةِ على أنّ الودّ والحبّ قد وقعَ بينهم، فلا يبتغونَ المفارقةَ عن بعضِهم لما بينَهم من موافقةٍ في السّيرة والطّريقة[2]، فليس غرضُهم الحقَّ ومعرفةَ الإله الحقّ الّذي يستحقّ التّوحيد، بل عبادتُهم محضُ مراعاةٍ لمشاعرِ الوُدِّ بينهم، وفي تشخيص محلّ المودّة المكانيّ تأشيرٌ دقيقٌ على تفضيلِهم علاقاتِهم بعضِهم ببعضٍ على علاقاتِهم الحقيقيَّةِ بخالقِهم ومُبدعِهم الحكيم.

براعة الاتساع والإضـافـة في الـقـراءات القرآنية

توجيه القراءات في ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ وبلاغتها:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وروَيْسٌ برفع ﴿مَّوَدَّةُ﴾ مِنْ غَيْرِ تَنْوين، وخَفْض ﴿بَيۡنِكُمۡ﴾، وكذا قرأ حَمْزَةُ وحَفْصٌ ورَوْحٌ إلّا أنَّهُمْ نَصَبوا ﴿مَّوَدَّةَ﴾، وقرأ الباقون بنَصْبِها مُنَوَّنَةً: ﴿مَّوَدَّةً﴾، ونَصْبِ ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾[3]، فحجّة من رَفَع وأضاف: أنه جعل (ما) في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 46.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 46.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 343.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم﴾ اسم (إنَّ)، وأضمر (هاء) مع ﴿ٱتَّخَذۡتُم﴾ تعود على (ما)، وجعل ﴿مَّوَدَّةُ﴾ خبر (إنَّ)، والتقدير: (وقال إن الذين اتخذتموهم أوثانًا مودةً بينكم)، فعدّى ﴿ٱتَّخَذۡتُم﴾ إلى مفعولين، على إضمار ما يجب له، فتكون المودة هي ما اتَّخذوه أوثانًا، على الاتساع، وتحقيقه: (إن الذين اتخذتموهم أوثانًا ذوو مودة بينكم)، وحجة من نصب وأضاف، أو لم يُضِف: أنه جعل (ما) كافّة لعمل (إنَّ)، فلم يحتج إلى إضمارها، وجعل (اتخذ) متعدّيًا إلى مفعول واحد، وهو (الأوثان)، ونصب ﴿مَّوَدَّةَ﴾، على أنه مفعول من أجله، أي: (اتخذتم الأوثان للمودة)، والإضافة على الاتساع، والتنوين على الأصل، ونصب ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ على الظرف، أو على أنه صفة لـ: ﴿مَّوَدَّةَ﴾[1]، فمن بلاغة القراءات هنا جمعها في أسلوب بديع بين السبب والمُسبِّب.

سرُّ ورودِ الحرف ﴿فِي﴾:

تفضيلُ الدنيا على الآخرةِ عادةُ الضالّين

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ الدّالّ على الظّرفيّة المجازيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ للدّلالةِ على أنّ مدى حبّهم كائنٌ في الحياة الدّنيا، أمّا ما وراءَها فلا علْمَ لهم به؛ لأنّ عبادتَهم عن هوىً لا عن علْم ودراية، وكأنَّ الحياة الدنيا قد صارتْ وعاءً لمودَّتهم، وبما أنَّها فانيةٌ وقصيرةٌ فإنَّ مودّتَهم قصيرةٌ وفانية، وفي ذلك استخفافٌ آخرُ بهم لتفضيلِهم متاعَ الدُّنيا الفانيةِ على نعيم الآخرةِ الباقية، وفي إتباعِ الظّرف الزمانيِّ للظرفِ المكانيِّ تحقيقُ تفاعلٍ لهؤلاءِ العابدينَ بمحدوديّةِ المكان والزّمان؛ فهم يَحرِصونَ على مودّةٍ ضيّقةٍ في المكانِ والزّمان دونَ إقامةِ مودّةٍ حقيقيّةٍ بالمتنزِّه عن المكان والزَّمان.

(1) مكّي، الكشف: 2/ 178.

دلالة التقييد بالوصف الزماني:

دنيويّةُ الضالّين باعثةٌ على محبَّةٍ ضيِّقة

قيّد النّظمُ الجليلُ المودّةَ بوصفٍ زمانيّ متكوّنٍ من جارٍّ ومجرور، والتقدير: (مودةً بينكم كائنةً في الحياة الدّنيا) وذلك في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ تقييدًا لزمان هذه المحبّة، فهو يبيّن أنّها تكونُ بينهم في الحياة الدّنيا الفانيةِ فحسب، أمّا في الآخرة فإنّها تنقطعُ وتزولُ، واشتمل الوصفُ الزمانيُّ على وصفٍ لتلك الحياة، بأنّها ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، وعندما يرِدُ هذا الوصفُ في السّياق القرآنيّ فالمرادُ به تصويرُ استغراقِ الإنسان في هذه الحياةِ القريبةِ ذاتِ المنزلةِ القليلة، وعدمِ اهتمامه بما بعدَها، وتصوير اغترارِه بأهوائِها وشهواتِها، ظنًّا منه بأنَّها هي الحياةُ المطلقةُ، ولا حياةَ حقّةً فُضْلَى بعدها، ويدلُّ على ذلك وصفُها بكونها متاعَ الغُرور، وأنّ الَّذي يغترُّ بها هالك[1].

بيانُ المراد من العطف بـ: ﴿ثُمَّ﴾:

الودُّ القائم على باطلٍ تعقبُه عداوةٌ وتباغُض

عطف النّظم الجليل ما يفعلونه عند الحسابِ يومَ القيامة في قوله: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ على شأنِهم مع آلهتِهم في الحياة الدّنيا في قوله: ﴿ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ إشارةً إلى أنّ تلك المودّةَ المؤسَّسةَ على مبدأٍ باطلٍ لا يُراعي حقوقَ الله عليهم تنقلبُ إلى عداءٍ وتخاصُم؛ لأنّه تفضيلٌ لعلاقاتهم الدنيويَّة القاصرةِ القائمةِ على مصالحَ ضيّقةٍ على علاقاتِهم بخالقِهم العظيم المبنيَّة على ثوابتَ مُحكمةٍ لا تخشى في تطبيقها لومَ لائم، وإنّما عطفَ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدّالّ على التّراخي والبُعد إشارةً إلى عظيم ذلك اليوم، كما أنّ طولَ الزّمان في ﴿ثُمَّ﴾ يدلّ على أنّه جعلَ في الحياة أمدًا يُمكنهم فيه توقّي ذلك اليوم[2].

(1) أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، ص: 349 - 350.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 423 - 424.

سرُّ التّنصيص على ذكر ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

سوء عاقبة المودّة المؤسّسة على باطل في الدّنيا

قيّد النّظمُ الجليل أنّ كفرَهم ببعضٍ وتلاعُنَهم كائنانِ يومَ القيامة في قوله: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ دونَ أنْ يقول: (ثمّ يكفر بعضُكم ببعض)؛ تنبيهًا على سوءِ عاقبةِ المودّة التي كانت بينَهم، كما أنّه يدعوهم ويُنبّهُهم إلى إزالةِ الغُرور والغفلة، ليَعلموا أنَّ اللّذّاتِ العاجلةَ لا عِبرةَ بها إنْ أعقَبَتْها ندامةٌ آجلة[1]، ونلمحُ في تخصيص ظرف الزمان بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ دون (الحياة الآخرة) ليكونَ مقابلًا لظرف الزّمان ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ إشارةً إلى أنّ الحياة الحقيقيةَ تبدأ في يوم قيام الأمواتِ للحساب والجزاء، وأنَّ هذه الحياةَ مهما طالت فإنَّ هنالك موتًا ونهايةً، بخلاف تلك الحياة التي يقومُ فيها الناسُ لربِّ العالمين، لتبدأ حياتُهم الحقيقية الباقية من ذلك اليوم المخصوص، فإمّا جنّةٌ دائمةٌ وإمّا نارٌ باقية، وفي ذكر ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بيانٌ لمحطِّ ما يُنكرونه وأسِّ ما يَجحدونه من إنكارِ البعث والرُّجوع للحساب، فيفضِّلون علاقاتهم ومودّاتهم القاصرةَ على علاقاتِهم باللّه تعالى.

مغزى التَّعبير بالمضارع ﴿يَكۡفُرُ﴾:

التّباغض والتلاعُنُ متجدِّدٌ ومُستمرّ

آثر النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة الفعل المضارع عن (الكفر) والجحود في قوله: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ للدّلالة على التَّبَرُّؤِ بينَهم في الآخرة[2]، وأنّه تبرّؤٌ مُتجدّدٌ ومُستمرٌّ لا يتوقّفُ في عرَصات القيامة وأهوالِها وأحوالِها، وذلك لأنّ كلَّ واحدٍ منهم يتبرّأ، فيكونُ الحدثُ متجدّدًا ومتكرّرًا، ونلمحُ في اختيار مادّة (الكفر) لطيفةً عميقةً؛ إذ كانوا يَحرِصونَ على مودَّتهم ويكفرونَ باللّه خالقِهم، فكانتِ النّتيجة أنَّهم يكفرونَ ببعضهم وينكرون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 237.

(2) ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ص: 287.

معرفتَهم وعلاقاتِهم، والجزاءُ من جنسِ العمل، ويريدونَ الإيمانَ، وأنَّى لهم؟.

مفهوم (البعضيّة):

كلّ واحدٍ يُنكر أخاه ويتبرّأ من عبادتِه

عبّر النّظم الجليل بلفظ (بعض) في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ للدّلالة على أنّ كلّ واحدٍ منهم يُنكِر مودّة أخيهِ وقومِه، ويتبرّأ من كلّ أحدٍ منهم، ويلعنُ الأتباعُ القادة، ويلعنُ القادةُ الأتباعَ، والمقصدُ أنّ كلّهم يُنكرونَ عبادةَ الأوثان(1)، فالتَّعبيرُ بالبعضيّة يدلّ على وقوعِ الفعل من كلّ فردٍ منهم بخصوصِه إزاءَ الأفراد كلِّهم، وذلك يومُ التناكر والتخاصُم بينهم دونَ مراعاةٍ منهم لمودَّتهم ومحبَّتِهم الزائفةِ المبنيَّة على مصالحَ ضيِّقةٍ وآنيَّةٍ.

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِبَعۡضٖ﴾:

الكفرانُ ملتصِقٌ بكلّ الأفراد والخُلّان

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ وهو هنا بمعنى الإلصاق والتعدية، وذلك للدّلالة على أنّ وقوعَ الكفر يكونُ بكلّ فردٍ منهم، وأنّ الكفر والإنكار ملتصِقٌ بكلّ فرد منهم ألصقَه به فردٌ آخر، فتشير (الباء) على وقوع الفعل بالأفراد لا بالنّظر إلى المجموع، وهذا يدلّ على شدّة الجحودِ بينهم يومَ القيامة وكثرته، وعلى أنَّه آلَ بهم الأمر إلى تقاطعٍ عنيفٍ وتشاجُرٍ كبير بعدَ مودّةٍ ومحبَّةٍ ضيقة، كما أفاد تعديةُ الفعل بـ(الباء) إلى تحديدِ محلِّ الكفران؛ فإنْ كان في الدنيا مُتعلِّقًا باللّه ورسله وحِرصًا على محبَّةٍ بشريّة أو انجذابًا لصنمٍ زائف؛ فهنالك يكونُ محلُّ الكفران أولئك البشرَ الّذين أطاعوهم ولا يملكونَ لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، وتلك الأوثانَ العاجزةَ عن نُصرتهم وإنجائِهم من النار.

(1) الخطيب، السراج المنير: 3/ 134.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَيَلۡعَنُ﴾:

مُنتهى التخاصُم تعقيبُ الكفرانِ بالتلاعُن

عطفَ النّظمُ الجليل الجملةَ الفعليّةَ المشتملةَ على اللَّعنِ على الجملةِ الفعليَّة المتضمِّنة للكُفر في قوله جلّ شأنه: ﴿يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا﴾؛ للتناسُبِ بين المتعاطفينِ خبرًا وللجمعِ بين الإنكار والجُحود وبينَ الإبعادِ والتّنافُر، وهذا يدلّ على شِدّة التّباغُض بينهم في تلك الدّار، وبهذا يتحقّقُ التقابلُ والانسجامُ بين العكوفِ على عبادة الأصنام والحرصِ على المودَّة فيما بينهم وبينَ الكُفر واللَّعن؛ فهم كفروا بمعبوداتهم وتلاعنوا فيما بينهم.

دلالةُ التَّعبير باللّعْن صيغةً وتعلُّقًا:

عاقبةُ المودّة الدّنيويّةِ التنافرُ والتقاطُع

آثرَ النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة (اللّعن) مضارعًا في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا﴾؛ للدّلالة على أنَّ اللّعنَ مُتبادَلٌ بينهم على سبيل التجدُّد والاستمرار، وكأنَّ دأبَهم في النار هو التخاطبُ بالتلاعن والإبعاد والطّرد، ممّا يدلُّ على شدَّة النّفور والقسوة التي أخلفَتْ تلك المودّةَ الدنيويَّة الزائلة، ودلَّ تعلُّقُ اللّعن بالمفعول على أنّ كلّ واحدٍ منهم يريدُ أنْ يُبعِدَ صاحبَه باللّعن عنه، ولكنّهم لا يتباعدونَ، بل هم مُجتمعون في النّار كما كانوا مجتمعينَ في الدّنيا على عبادةِ الأوثان[1]، ويدلّ ذلك على شدّةِ التّنافُرِ بينهم، وهذه موعِظةٌ تحذّرهم بأنَّ هذه المودّة الحاصلة بينكم في الدّنيا يعقبُها تنافرٌ شديدٌ.

دلالة العطف في ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾:

تقريع إبراهيم لقومه بمآلهم يوم القيامة

عطف النّظمُ الجليلُ الجملةَ الاسميَّةَ الدالّةَ على الثبوت والدّوام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ على الجملة الفعليَّة الدالَّة على التجدُّد والحدوث ﴿ٱتَّخَذۡتُم﴾؛ لأنّها من مقول إبراهيمَ ﷺ، فهي في محلِّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 46.

نصبِ مقولِ القول[1]؛ والغرضُ من العطفِ الجمعُ بينَ المسبَّب والسّبب؛ إذ الاتخاذُ للأوثان حدوثًا كان سببًا لدخولِ النّار دوامًا، وفائدةُ ذكرِ المأوى بعدَ ذكرِ اللّعن الدّلالةُ على أنّ التّباعد بينهم لن يقعَ ذلك اليومَ، بل هم مُجتمعونَ في العذاب كما كانوا مُجتمعينَ في عبادتهم الأوثان ومودّتِهم إيّاها[2]، بقي أنَّ تعريفَ طرفَي الجملة الاسميّة دالٌّ على الحصر، فلم يكن لهم مأوىً يلجؤونَ إليه سوى النار يستعرونَ فيها.

سرّ اختيارِ صيغة (المأوى):

الاجتماعُ على الضَّلالة سببٌ للاجتماع في المأوى

آثرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغةِ (المأوى) الدالّةِ على مكان السُّكنى والمكوث في قوله: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ للدّلالة على منزلِهم الذي يَستقرّونَ فيه، ومكانِهم الَّذي يأوونَ إليه[3]، فكما أنّهم يتجمّعونَ في عبادتهم للأوثان، فإنّ النّار تجمعُهم هناك معَ انتفاءِ المودّة بينهم، وفي التعبير استخفافٌ وتهكُّمٌ بهم؛ إذ المأوى هو المكانُ الذي يلجأ إليه الإنسانُ للاحتماء به، فلم يكن لهم ملجأٌ إلا النارَ يكتوونَ بلهيبها، وكان الجزاءُ من جنس العمل، إذ قرارُهم بتحريق إبراهيمَ كانت عاقبتُه المكوثَ واللُّجوءَ إلى النار.

عود الضمير في: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ﴾:

النّارُ مأوى العابدينَ والمعبودينَ معًا

أضافَ النّظمُ الجليل لفظ (المأوى) إلى ضمير المخاطبينَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ والمرادُ به العابدونَ والمعبودونَ جميعًا[4]، للدّلالة على أنّهم مجتمعونَ في النّار، واجتماعُ العابدِ بمعبودِه في النار مُنتهى الذلّ والخيبةِ والخُسران.

دلالةُ عطفِ الجملةِ الاسميَّة:

الاحتراسُ دافعٌ للتوهُّم مزيلٌ للظّنون

عطفَ النّظمُ الجليل الجملةَ الاسميّةَ الدالّةَ على الدّوام والثّبوت

---

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 327.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 46.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 230.
(4) الخازن، لباب التأويل: 3/ 379.

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ على الجُملةِ الاسميّة قبلها[1]، والمرادُ منها بيانُ حالهم يوم القيامة على التّفصيل، فالنّار في الآخرة هي مأواهم ولا ناصر لهم يُخرجهم منها كما أخرج اللّٰه تعالى إبراهيمَ من النّار التي ألقيتموه فيها[2]، ولذا فإنَّ فائدةَ عطفِ الجملةِ المنفيَّة على الجملة المثبتة؛ الاحتراسُ مِن وهم مَن يعتقدُ أنَّ بقاءهم في النار لا يَنفي وجودَ ناصر لهم ومعينٍ مستقبلًا يُخرجهم منها، فدفعَ ذلك التوهُّمَ وأزالَ ذلك الظنَّ بنفي النّاصرِ والمُعينِ لهم.

دلالة نفيِ النَّكرة بـ(ما):

نفـيُ جنـسِ النّـصـير مع الاسـتـمـرار للانتفاء

نفى النّظمُ الجليل جنس النّاصرِ عنهم يومَ القيامة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ نفيًا دالًّا على الاستغراق بـ(ما) الدالّ على العموم؛ إذ من خصائص (ما) نفيُ الجمل الاسميّة والفعليَّة، وهي آكدُ في النفي وأوسعُ استعمالًا، وبإيراد النّكرة في حيّز النّفي، وإدخالِ حرف الجرّ الزّائد ﴿مِّن﴾ الدالّ على الاستغراق والشمول - والغرضُ من ذلك التّرهيب بتأكيدِ انتفاء النّصير انتفاءً قطعيًّا شاملًا لكلّ نصير صغُر شأنُه أَوْ كبُرَ، والنفيُ بـ(ما) هنا يفيدُ أيضًا استمرارَ النفي، أي: انتفاءُ وجود النّصير مستمرٌّ لا ينفكّ عنهم.

فائدةُ تقديمِ الخبرِ ﴿لَكُم﴾:

شـدّةُ التّقريع بنفيِ النّصير عـلى وجـهِ الاختصاص

عبّر النّظم الجليل بتقديمِ الخبر وهو شبهُ الجملة ﴿لَكُم﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ للدّلالة على انتفاءِ النّاصرين عنهم على وجْهِ الخصوص، والمراد من هذا التّخصيص المبالغةُ في ترهيبهم؛ إذ إنّ يوم القيامة ينتفي النّاصرُ عن كلّ الكافرين وليس عنهم خاصّة.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 427.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 46.

دلالة الحرف ﴿مِّن﴾:

كمالُ انتفاءِ التّصير باستغراقِه وشمولِه

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ الزّائد ﴿مِّن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ للدّلالةِ على استغراق النّفي وشمولِه على سبيل التوكيدِ والتقرير؛ لأنّها مزيدةٌ داخلةٌ على نكرةٍ في سياق النّفي، والمرادُ نفيُ جنس النّاصر عنهم، أي: لا ناصرَ لكم أصلًا يَحميكم منها[1]، وذلك أبلغُ في التَّعبير عن الخيبة والخذلان.

بلاغةُ التَّعبير بصيغة الجمع:

سلبُ الناصر عن جميعِ الآحاد

آثر النّظم الكريم التَّعبيرَ بصيغة الجمعِ في قوله جلّ شأنه: ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ دون أن يقول: (وما لكم من ناصر)؛ وذلك لمجيئه في مقابلة ضميرِ المخاطبينَ بصيغةِ الجمع ﴿لَكُم﴾، فيقتضي التوزيعَ على الآحاد، أي: لا ناصر لكلّ واحد منكم أصلًا[2].

حذفُ متعلّق قوله: ﴿نَّٰصِرِينَ﴾:

الإطلاقُ متناسبٌ مع العموم

حذفَ النّظمُ الجليل المتعلّق بالنّاصرينَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ وذلك للعلّم به من السّياق، أي: ليس لكم منقذٌ يُنقِذُكم من عذابِ اللّه تعالى[3]، فحذفَهُ طلبًا للإيجاز وإطلاقًا لجنسِ النّاصر، ولكيفيّةِ نصْرِه.

توجيهُ المتُشابِهِ اللَّفظيّ:

اعترافُهم بأنَّ الأوثانَ هي الشُّفعاء أغنى عن ذكر لفظ الوليّ

قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٢٢﴾ [العنكبوت: 22] فذكر لفظ (الوليّ)، ولم يذكره هاهنا، وتوجيه ذلك أنّ المراد بالوليِّ: الشّفيعُ، يعني: ليس لكم شافعٌ ولا نصيرٌ دافِع، وهاهنا لمّا كان الخطاب قد دخلَ فيه الأوثان، وكانوا معترفينَ أنهم جميعًا ليس لهم شافع؛ لأنهم كانوا يدّعون أنَّ آلهتهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 237.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 463.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 396.

هي شفعاؤُهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ [يونس: 18] فلم ينفِ عنهم الشّفيعَ لعدم الحاجة إلى نفيه، وأما في العنكبوت فكانَ الكلامُ معَهم وهُم كانوا يدَّعون أنَّ لأنفسِهم شُفعاءَ فنفاهم[1].

مَن لم يكُنِ الله ناصرَهُ فليس له ناصِرٌ

قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: 22] فأوردَه على معنى الاستثناء، والمعنى: ليس لهم غيرُ اللّه من وليٍّ ولا ناصر، وقال هاهنا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ من غير استثناءٍ، وتأويلُ ذلك أنّ الكلامَ هناك على أنّهم في الدُّنيا، فقال لهم في الدنيا: لا تظنّوا أنّكم تُعجزون اللّه فما لكم أحدٌ ينصرُكم إنْ تبتم غيرَ اللّه تعالى، والكلامُ هنا في يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ وعدمُ النّاصر عامٌّ؛ لأنَّ التوبة في ذلك اليوم لا تُقبَلُ فسواءٌ تابوا أوْ لم يتوبوا لا ينصرهم اللّه، ولا ناصرَ لهم غيرُه، فلا ناصرَ لهم مُطلقا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(حرِّقوه)، و(اصلوه):

والصّليُ إيقاع الشّيء بالنّار، والتحريقُ أعمُّ منه

أصلُ الصَّلْيِ الإيقادُ بالنار، ويقال: صَليَ بالنار وبكذا، أي: بلي بها، واصْطَلَى بها، وصَلَيْتُ الشاةَ: شويتها، وصَلَى النارَ: دخلَ فيها، وأصْلاها غيرَهُ، قال: ﴿فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ﴾ [النساء: 30][3]، وصَلى اللَّحْمَ يَصْليهِ صَلْيًا: شَواهُ، أوْ ألقاهُ في النّارِ للإِحْراقِ[4]، والحاصل أن الصَّلْيَ إيرادُ الشيء على النار، وأمّا التحريق فهو أعمُّ، ويشملُ إيرادَ نار ذاتِ لهيبٍ على الشيء، ومنه استُعير: أحرقَني بلومِه: إذا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 46 - 47.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 47.
(3) الراغب، المفردات: (صلا).
(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (صلى).

بالغ في أذيّته بلَوْمٍ[1]، وإيرادَ الشّيءِ على النار، والتّحريقُ المذكور في الآية من هذا القبيل؛ لأنهم أضرموا نارًا وألقَوه فيها، فقد أوردوه على النّار ليحترقَ بها ويتفحّمَ، وهنا دلالةٌ أخرى يفترقُ فيها الصَّليُ عن التحريق؛ إذ الصّليُ تعريضٌ للشيء على النار بغية شَوْيِه، والتحريقُ إيرادُه بغيةَ تفحُّمِه.

(أنجاه)، و(أنقذه):

التّخليصُ من خطرٍ شديد أوْ مُحدِقٍ نجاةٌ، ومن ورْطةٍ مّا إنقاذٌ

الإنقاذ يَدُلُّ عَلَى اسْتِخْلاصِ شَيْءٍ[2]، والتَّخْليصِ من ورْطَةٍ[3]، أمّا الإنجاء فهو يَدُلُّ على الذَّهابِ والانْكِشافِ مِنَ المَكانِ[4]، والنّجاء: السُّرعةُ والخلاصُ من خطر، فهو خلوصٌ بصعوبةٍ من خطرٍ مُحدقٍ، أوْ عذابٍ، أوْ غرقٍ، أوْ كربٍ[5]، وفي الآية عبّر بالإنجاءِ لشدّةِ الخطرِ المُحيط بمَن أُلقي في النّار الحارقة.

الوثن والصنم:

الصّنم جثّة مصوّرة، والوثن ما جُعِل شريكًا لله تعالى عن ذلك

اختلفَ اللغويّون في الفرق بين (الوثن والصّنم)؛ جاء في لسان العرب: الوَثَنُ: كُلُّ ما له جُثَّةٌ معمولةٌ مِن جواهِرِ الأرض أو من الخشبِ والحجارةِ كصورةِ الآدميِّ تُعمَلُ وتُنصَبُ فتُعْبَدُ، والصَّنَمُ الصّورةُ بلا جُثَّةٍ[6]، فجعل الوثن جثّةً والصّنمَ صورةً، وجاء في المفردات: الصَّنَمُ: جُثَّةٌ متّخذةٌ من فضّة، أوْ نحاس، أوْ خشب، كانوا يعبدونَها مُتقرّبين به إلى اللّه تعالى، وجمعُه: أَصْنامٌ، قال اللّه تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: 74]، وقال بعضُ الحكماء: كلُّ ما عُبِد من دون اللّه، بل كلُّ ما يشغلُ عن اللّه تعالى يقالُ له: صَنَمٌ[7]، فمنهم مَن سوّى بينهما.

(1) الراغب، المفردات: (حرق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقذ).
(3) الراغب، المفردات: (نقذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نجو).
(6) ابن منظور، اللسان: (وثن).
(7) الراغب، المفردات: (صنم).

وقال في المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: "ويترجّح لديّ أنّ الصَّنَم مُصوّر؛ فهذا أدْعَى إلى توهُّم سرٍّ فيه، ويرجّح أنّه جثّة منصوبة، أمّا الوثنُ فإنّه يُلْحَظُ فيه التّكثير، ويرجّحُ أنّ المعتبرَ فيه أنّه شريكٌ أوْ ثانٍ، أي: فيه دلالةٌ على تعدّد المعبود، فملحظُ الوثن أنّه شريكٌ، وملحظُ الصّنم أنّه جثّةٌ مصوّرة منصوبة، فيكون الوثنُ أعمَّ من الصّنم"[1]، كما أنَّ (الوثن) يشيرُ إلى الإقامةِ في المكان والثباتِ على الشّيء، وفي الآية بيَّن إبراهيم ﵇ لهم أنّهم إنَّما اتّخذوا الأوثان من دون اللّه يعبدونَها حرصًا على المودَّة بينهم وعدمِ قطعِ العلاقات الاجتماعيّة المترتبةِ على نبذِ الأوثان وتخصيصِ العبادةِ باللّه وحدَه، فاختارَ الأوثانَ دونَ الأصنام والتماثيل لما في (الوثن) من معنى الإقامة عليها والاستمرارِ على عبادتها، وذلك ينسجمُ مع لفظ (المودَّة) والرغبة في دوامِ التواصُل والإقامةِ على العهد الثابتِ القديمِ بينهم.

المأوى والمثوى:

المأوى مكانٌ يُتجمّع فيه، والمثوى مكانٌ يقامُ فيه طويلًا

المثوى كلمةٌ تَدُلُّ عَلَى الْإِقَامَةِ[2] مع الاستقرار والثَّواءُ: طولُ المُقام، والمَثْوى: المَوْضِعُ الَّذي يُقام بِهِ، ومَثْوَى الرَّجُلِ: مَنْزِلُهُ[3]، أمّا المأوى فيدلّ على التَّجمُّع، والمَأْوَى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يأوي إِلَيْهِ لَيْلًا أَوْ نَهارًا[4]، أَوَيْتُ مَنْزِلي وإِلى مَنْزِلي: عُدْتُ، وآوانا: أي ردَّنا إلى مأوًى لَنا ولَمْ يَجْعَلْنا مُنْتَشِرينَ كالبهائم، والمَأْوَى: المنزلُ[5]، وعبّر في الآية بالمأوى للدّلالة على أنّهم يتجمّعون في النّار مع الأوثان كما تجمّعوا في الدّنيا[6].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صنم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوي).
(3) ابن منظور، اللسان: (ثوا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى).
(5) ابن منظور، اللسان: (أوا).
(6) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 230.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 26 - 27]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعدَ العملِ الصّالحِ الإكرامُ بذكرِ الجزاءِ الجزيل

بعدَ أنْ بيَّن النَّظم الجليل تقريعَ إبراهيمَ الخليلِ لقومه، وفضحَه لشأن عبادتهم ودينهم بعدَ نجاته، وتجديدَ دعوته إليهم؛ أخبر أنّه لم يؤمنْ به إلّا لوطٌ عليه السلام، فلمّا رأى إبراهيمُ عزوفَ النّاس عن الإيمان به، أعلنَ هِجرتَه عن قومه ولُجوءَهُ إلى ربّه الذي أحسنَ إليه، ثمّ بيّن النّظمُ إكرامَ اللّه تعالى لإبراهيمَ عليه السلام؛ فبعد ذلك العملِ الصّالح والجهادِ الكبير في إرشادِ النّاس ودعوتِهم أتبعَه النّظمُ الجليل ببيان جزاءِ إبراهيم في الدّنيا والآخرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُهَاجِرٌ﴾: (هجر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى قَطيعَةٍ وقَطْعٍ، والْهَجْرُ: ضِدُّ الْوَصْلِ، وكَذَلِكَ الْهِجْرانُ، وهاجَرَ الْقَوْمُ مِنْ دارٍ إِلَى دارٍ: تَرَكوا الْأُولَى لِلثّانيَةِ، كَما فعَلَ الْمُهاجِرونَ حينَ هاجَروا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدينَةِ[1]، فالهَجْرُ والهِجْران: مفارقةُ الإنسان غيره، إمّا بالبدن، أوْ باللّسان، أوْ بالقلب، والمُهاجَرَةُ في الأصل: مصارمةُ الغيرِ ومُتاركتُه، وقوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: تاركٌ قومي وذاهبٌ إليه[2]، والمُهاجِرُ: مَن ترك وطنه رغبةً في رضى اللّه تعالى عنه[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).
(2) الراغب، المفردات: (هجر).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 314.

2) ﴿وَوَهَبۡنَا﴾: (وهب) الهِبةُ: العَطيَّة الخاليةُ عَنِ الأعْواضِ والأغْراضِ، وكلُّ ما وُهِبَ لَكَ، مِنْ ولَد وغَيْرِه: فهوَ مَوهوبٌ[1]، وهي: أنْ تجعلَ ملكَكَ لغيرك بغيرِ عِوَضٍ، ويوصَفُ اللّه تعالى بِالواهِبِ والوَهّابِ، بمعنى: أنّه يعطي كلًّا على استحقاقِه بلا عوض ولا غرض، والمقصودُ به في الآية: إعطاءُ اللّه تعالى نبيَّه إبراهيم عليه السلام الذريَّةَ الصّالحة، وحَصْرَ النبوَّةِ في ذريّته وأولادِه من بعده.

3) ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾: (ذرّ) أصلٌ يَدُلُّ على لَطافَةٍ وانتِشار[2]، والذَّرُّ: مَصْدَرُ ذَرَرْتُ، وهو أخذُك الشَّيءَ بأطراف أصابعك تَذُرُّهُ ذَرَّ المِلْحَ المَسْحوقِ على الطَّعام[3]، والذُّرّيَّةُ: الخَلْقُ والنَّسْلُ، مَأْخوذَةٌ من الذَّرْءِ، تقول: ذَرَأَ اللّهُ الخلقَ، أي: خَلَقَهُم، وذُرّيَّةُ الرَّجُلِ: وَلَدُهُ[4]، وقيل: هو مأخوذٌ مِن الذَّرِّ، وهو: النَّشْرُ، فيُقال: ذَرَّ الشَّيءَ، يَذُرُّهُ، أي: نَشَرَهُ، أو مِنْ صِغارِ النَّمْلِ؛ لأنَّ اللّهَ أخْرَجَ الخَلْقَ مِن صُلْبِ آدَمَ كالذَّرِّ[5]، والجَمْعُ: الذَّراري والذُّرّيّاتُ، والمقصودُ به في الآيةِ: نَسْلُه من بني إسماعيل وبني إسرائيلَ[6].

4) ﴿وَٱلۡكِتَٰبَ﴾: (كتب) أصلٌ يدُلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ، من ذلكَ: الكتابُ والكتابةُ، يُقالُ: كتبتُ الكتابَ أكْتُبُهُ كَتْبًا[7]، والكتابُ: الفَرْضُ، قال اللّه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، ويُقالُ للحُكْم: الكتابُ، قال تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣﴾ [البينة: 3]، أيْ: أحكامٌ مُستقيمةٌ، ويُقالُ للقَدَرِ: الكتابُ[8]، والمرادُ به في الآية الكريمة جنسُ الكتب، أي: التّوراةُ والإنجيلُ والزّبورُ والقُرآن[9].

5) ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: (صلح) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الْفَسادِ، يُقالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا[10]، فالصَّلاحُ: ضدُّ الفساد، وهما مُختصّانِ في أكثرِ الاستعمالِ بالأفعال، وقوبلَ في

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وهب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرَّ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (ذرَّ).
(5) الجوهري، الصحاح: (ذرر).
(6) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 463.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).
(8) الجوهري، الصحاح: (كتب).
(9) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 673.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلح).

القرآن تارةً بالفساد، وتارة بالسّيّئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: 102]، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][1]، والمرادُ به في الآية أنّ إبراهيمَ عليه السلام في عدادِ الكاملينَ في الصَّلاح[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الجزاءُ الجزيل لإبراهيمَ عليه السلام في الدّنيا والآخرة

أخبرَ النّظم الكريم أنّه لم يؤمنْ بإبراهيمَ بعد رؤيتهم نجاتَه من النّار إلّا لوطٌ عليه السلام، فقد بادرَ بالإيمان به، واستقرَّ الإيمانُ في قلبه، ثمّ أخبر أنّ إبراهيمَ عليه السلام لمّا يئِسَ من إيمانِ قومه بعدَ أنْ لم يُؤمنوا بتلك الآياتِ والبراهينِ هاجرَ إلى بلاد الشّام فرارًا بدينِه، وقَصدًا إلى إرشاد النّاس وهدايتهم، وقد منّ اللّه تعالى على إبراهيمَ بكثيرٍ منَ النِّعَم جزاءً لصَبره وهِجرته وإيمانه، فوهبَ اللّه تعالى له بعدَ أنْ هاجرَ ابنًا هو إسحاقُ، ووهبَ لإسحاقَ يعقوبَ، ومن نِعَمِه عليه أنّه جعلَ في ذرّيّته النّبوّة، فلا نبيَّ بعدَه إلّا من نسلِه؛ فهو أبُ الأنبياء، وجعلَ في ذرّيّته الكتبَ والشرائعَ التي أنزلَها على الأنبياءِ من بعده، كالتّوراة، والإنجيلِ، والزّبورِ، والقُرآن، فآتاه اللّه تعالى أجرَه على أعمالِه الصّالحةِ في الدّنيا، ورزقَه الزّوجةَ الصّالحةَ، والذِّكرَ الحسنَ بعدَ وفاته، وهو في الآخرةِ من زُمرة الصّالحين، الّذين نُعطيهم فيها أجزلَ العطاء وأوفاه، وهكذا جمعَ اللّه تعالى بفضله وإحسانِه، لنبيّه إبراهيم، خَيْرَي الدّنيا والآخرة، جزاءَ إيمانِه العميق، وعملِه الصّالح، ووفائِه في تبليغِ رسالةِ ربِّه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الجملةِ المعترضة:

أوّلُ ثمار الدعوة إيمانُ لوط

ذكرَ النّظمُ الجليل الجملةَ الفعليَّة في قوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾

---

(1) الرّاغب، المفردات: (صلح).
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 464.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 131، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 30.

معترضةً بين الجمل المتحدثة عن إبراهيم عليه السلام، وجيءَ بهذا الاعتراضِ ضمنَ الإخبار عن إبراهيمَ عليه السلام؛ للدّلالة على أنّ دعوةَ إبراهيمَ لقومه أثمرَتْ عن إيمانِ لوطٍ عليه السلام به، وأفادتِ (الفاء) بيانَ أنّ إيمانَ لوط كانَ سريعًا بلا مُهلةٍ بعدَ نجاةِ إبراهيمَ عليه السلام[1]، ومُترتّبًا عليه، فلا ريب أنّ يخصَّ بالذكر وينوّه بالشأن؛ لأنّه تيقّنَ بصدقِ الدّعوةِ وعظيمِ الآيات والدَّلائل.

سرُّ مجيءِ فعلِ الإيمانِ ماضيًا:

استقرارُ الإيمانِ في القلب ورسوخُ اليقين

آثرَ النّظم الكريم التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي عن الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾ للدّلالةِ على سرعةِ إيمانِ لوطٍ به، وأنّه قد استقرّ الإيمانُ في قلبه[2]، لأنَّ الماضيَ بصيغتِه الزمنيَّة يدلُّ على تحقُّق الوقوع، حتّى صارَ كأنّه قد مرّ عليه زمانٌ طويلٌ في الماضي.

سرّ التعدية بـ(اللام) وتقديمِ (شبه الجملة):

إيمانُ لوطٍ بإبراهيمَ تصديقُ ركونٍ وإقرارٍ وثقةٍ

عدّى النّظمُ الجليل فعلَ الإيمانِ بحرف الجرّ (اللّام) في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾ وهي هنا دالّةٌ على التّعليل، أي: إنّ لوطًا آمنَ لأجل ما جاءَ به إبراهيم من حُجَج وبراهين، وما وقع معه من النّجاة[3]، والذي يبدو لنا أنّها لمحضِ التعدية، ودلالةُ التعليل مُتأتيةٌ من العطفِ بالفاء، ومعنى آمن له: صدَّقه وسلّم له، وأقَرَّ له ما يقول، فالإيمانُ لا يتعدّى بـ(اللام) إلا إذا أُريدَ بالتّصديقِ الثّقةُ والرّكون، كقوله: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: 61] أي: فيكونُ تصديقًا خاصًّا تضمّن معنىً زائدًا، وهو الجزمُ، والإقرار، والرّكون، ولذلك قدّمَ الجارّ والمجرور؛ لبيان أنّ إيمانَ لوط بالله تعالى كان ناجمًا عن ثقةٍ منحصرةٍ بإبراهيم عليه السلام وحقيَّة دعوتِه ووضوحِ مُعجزته.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 237.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 131.

(3) الواحدي، البسيط: 17/ 514.

التنويه بأوّل المؤمنين دعوةٌ للصّادقين بالمبادرة

دلالة تخصيص ﴿لُوطٌۘ﴾ عليه السلام بالذّكر:

خصّ النّظمُ الجليل ذكرَ لوط عليه السلام في قوله جلّ شأنه: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ للدّلالة على أنّ لوطًا وحدَه قد بادرَ بالإيمان لإبراهيمَ عليه السلام، فلم يصدّق له إلّا هو[1]، وفيه كذلك تشريفٌ وتنويهٌ بلوط؛ إذ آمنَ منفردًا ولم يأبَه إلى جمهور النّاس وغِلظتهم، وفيه أيضًا دعوةٌ لكلِّ الصّادقينَ بالمبادرةِ للإيمانِ والتوبةِ، وعدمِ التأخُّر عن طاعةِ اللّه تعالى ورُسُلِه.

من سُبُل الدّعوة مفارقةُ ديار الكافرين

دلالة العطف في: ﴿وَقَالَ إِنِّي﴾:

عادَ النّظمُ الجليل بعدَ إيراد الاعتراض إلى التحدُّث عن بقيّةِ أخبار إبراهيمَ عليه السلام ببيانِ إعلانِ المُهاجرة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ عاطفًا له على النّجاة من النّار في قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ للتناسبِ بينَ الجملتينِ الخبريتينِ لفظًا ومعنًى، والغرضُ من العطف بيانُ ارتباط الجملتين بعلاقةِ السببيَّة والمسبَّبيَّة، فلمّا لم يؤمنوا بعدَ الآية العظيمة بالنّجاة من النّار اقتضى ذلك مفارقتَهم وتركَ ديارِ أهل الكفر[2].

إعلانُ مفارقة الكفّار من نهجِ الأنبياء الأبرار

دلالةُ التّعبير بالقول:

عبّر النّظم الجليل بفعل القول في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾؛ للدّلالة على أنّه قد أعلنَ خروجَه عنهم ومفارقتَه لهم جهارًا، فلم يخرجْ من بلدِه مُتخفّيًا، بل إنّه أعلن ذلك لهم إعلانًا صريحًا؛ وأنبأتْ تلك المجاهرةُ وذلك الإعلانُ عن إحساسٍ بأنهم لن يكفّوا عن محاولاتِ إيذائه، وأنَّهم مستمرّون في الصدِّ عن الدَّعوة، ولا سبيلَ لإيمانهم البتّة، ومن شأنِ الدّاعي أن يبلِّغَ دعوتَه حتى يجد له أتباعًا ولو كان بالخروج إلى أقوامٍ آخرين.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 29.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 238.

بلاغةُ التوكيد في قوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾:

مفارقةُ الوطنِ نصرةً للدّين محلُّ إنكارِ الدنيويّين

أكّد النّظم الجليل الجملةَ بـ(إنّ) واسميّتها في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾؛ لأنّ صعوبة الهجرة، ومفارقةَ الأهل ممّا تنكرُه طِباعُ أهلِ الدنيا الراكنينَ إليها، فردّ الإنكارَ بالتّأكيد[1]، فلم يرَ النّاسُ حينئذٍ أنّ أحدًا مّا يفارقُ وطنَه وأهلَه في سبيل مبادئه ومعتقدِه.

سرّ ورودِ الخبر اسمَ فاعل:

هجرة إبراهيم بسبب عناد قومه

عبّر النّظم الجليل عن المهاجرة الواقعة خبرًا بصيغة اسم الفاعل في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ بوزن (المفاعلة) للدّلالة على المبالغةِ في الفعل والإصرارِ عليه تركًا للكفر وأهلِه، ولأنّ الهجرةَ لم تقع بفعلِه حسبُ، بل شاركَه قومُه بإحداثِها، فهم قد آذَوْه واضطرّوه للخروج من وطنه ومفارقة أهله، فهم شريكٌ فيها[2]، كما أفاد اسمُ الفاعل أنَّ تلك المهاجرة تستمرُّ طويلًا ولن يعودَ إليهم سريعًا، ولذا لم يقل: (مُسافر) إذ السّفرُ ينتهي المسافرُ فيه من تحقيقِ غرضِ سفره ويعودُ لأهلِه، فقد اتّصف بالمهاجرة وتحوّل إلى تارك للقوم تركًا بعيدَ الأمد، ففي الهجرةِ معنى النّبذِ والتركِ للمحلّ وأصحابِه.

معنى حرف الجر ﴿إِلَىٰ﴾:

الهجرة إلى الله تفخيمٌ لشأنِ الهجرة وبيانٌ لوجوبها

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ وهو هنا دالّ على الغايةِ المجازيّة، إذ جعلَ هجرته إلى المكان الذي أمرَه الله تعالى به هجرةً إلى الله تعالى ذاته[3]، وهو من المجاز العقليّ بتعليق الفعل إلى غير ما هو له في الظاهر، وفي هذا التعليق المجازيّ إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى هو الّذي أمرَه بالهجرة، ومن ثمَّ كانت هجرته إلى الله تعالى؛ لأنها تنفيذٌ واتّباعٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 425.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11132.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 238.

لما أمره به، وفائدة ذلك أيضًا التَّعبيرُ عن وجوبِ الهجرة وتعظيم شأنها لتعلّقها باللّه تعالى، وتعيينُ الجهة ليس هو المقصود، بل بيان أنّ الغايةَ من الهجرة هو اللّه تعالى.

إيثارُ التَّعبير بصفة الربوبيّة:

إخلاصُ النّيّة بالهجرة إلى الرّبّ الذي سبقَ إحسانُه

آثرَ النّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرّبوبيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ للدّلالةِ على أنّ المحسِن إليّ بالنّبوّة هو المتكفّل بأمر هجرتي وتيسيرها لي، فضلًا عن أنّه يشير إلى الإخلاص بهذا العمل؛ فهو لم يهاجر إلى بلدٍ آخرَ لذات البلد، بل طلبًا لمرضاة ربّه تعالى، كما أنّه خاطبَ القوم الذين اتخذوا من دون اللّه أربابًا، فبيَّن لهم امتيازَ ربِّه الحقيقيِّ عن تلك الأرباب المزيَّفة، وأنَّ ذلك التميز تمثّل بإنقاذه من النار فهو الربُّ الحقيقي بخلاف أربابكم، الذين لا ينفعون ولا يضرّون.

دلالةُ فصلِ الجملة وتأكيدِها:

الهجرةُ إلى الله هجرةٌ إلى جنابٍ عزيز

فصلَ النّظم الجليل الجملة الاسمية المؤكّدة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا تعليليًّا بيانيًا؛ فبينَ الجملتينِ شبهُ كمالِ الاتّصال، وسيقتْ لبيانِ علّةِ هجرته وفراقِه أهلَه؛ لأنّ من كان عزيزًا بذاته فإنّه يكون مَلاذًا يُعتزّ به[1]، ودلّ التّأكيدُ على تقويةِ مضمونِ الخبر وتثبيتِه في ذهن السّامع؛ إذ من عادةِ الأقوام الإنكارُ لمضمونِ كلام الأنبياء، فكان التأكيدُ إزاحةً لذلك الإنكار ودفعًا لذلك الجحد.

سرّ ورود ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

العزّةُ والحكمةُ منحصرتانِ حقيقةً بالله تعالى

أورد النّظمُ الجليل ضميرَ الفصل ﴿هُوَ﴾ بين اسم إنّ وخبرها في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ للدّلالةِ على حَصْر العِزّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 238.

والحكمةِ به تعالى، أي: إنّه وحدَه العزيزُ الحكيمُ لا غيره[1]، وبذلك يعلنُ إبراهيمُ عندَ مهاجرته لهم أنَّه داعٍ إلى التوحيد الخالص، وأنَّ ما يعتقدونَه من آلهةٍ وأوثانٍ فإنَّها ليست عزيزةً ولا حكيمةً، وبذلك يحصلُ تمييزٌ دقيقٌ بين ربِّه الحقِّ وأربابهم الباطلةِ العاجزة.

براعةُ الوصفينِ في قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

عزيزٌ يدافعُ عن أوليائِهِ، حكيمٌ لا يأمرُ إلّا بما فيه خيرٌ

جمعَ النّظم الجليل بينَ صفتَي العزّة والحكمة في جملة الفاصلة من قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنّ صفة (العزّة) تدلّ على أنّ اللّه تعالى غالبٌ، فهو يمنع الأعداء من إلحاق الأذى بأوليائه، ولأنّ صفة (الحكمة) تدلّ على أنّه لا يأمرُ إلّا بما يوافقُ كمالَ الفائدة وما فيه مصلحةٌ لأوليائِه وعباده[2]، وفي ذلك يقول الشّعراوي في تفسيره: "اختار الخليلُ إبراهيم ﷺ من صفات ربِّه ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يُغلَبُ وهو يَغْلِبُ، وهذه الصّفة تناسبُ ما كان من محاولةِ إحراقِه، وكأنّه يقولُ للقوم: أنا ذاهبٌ إلى جنابِ مَنْ لا يُغْلَب، و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: في تصرّفاته، فلا بُدَّ أنّه سبحانه يَنقلُني إلى مكانٍ يُناسبُ دعوتي، وأناسٍ يستحقّون هذه الدّعوةَ بما لديهم من آذانٍ صاغيةٍ للحقّ، وقلوبٍ وأفئدةٍ مُتشوّقةٍ إليه"[3]، ولا يخفى أنَّ من عادة المُهاجرينَ للقضايا الحقّة والمبادئ السّامية إرادةَ الذّهابِ إلى مكانٍ منيعٍ يحميهم، فيه نظامٌ ودقّةٌ في الحُكم، فكان اختيار الوصفينِ مُناسبًا للمهاجرِ المأمور بالهجرة، وفيه تعريضٌ بهم أنَّهم وما يعبدونَ من دون اللّه عاجزونَ عن نُصرتِه والدّفاعِ عنه، عابثونَ في أحكامِهم وقراراتِهم.

دلالةُ تعريف الطّرفين:

لله تعالى دونَ سواه كمالُ العزّةِ والحِكمة

عرّف النّظمُ الجليل طرفَي الإسناد في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 426.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 47.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11135.

﴿هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ للدّلالةِ على كمالِ الوصفين فيه تعالى على سبيل الانحصار، أي: لا عزيزَ بذاتِه على وجهِ الحقيقة إلّا هو، ولا حكيمَ بذاتِه تحقيقًا سِواه، وبذلك يكونُ التعريفُ للطّرَفينِ قد أفاد قصرَ الوصفينِ الجليلين عليه تعالى، فكأنَّ ما عداه ليس عزيزًا ولا حكيمًا بذاته، بل كلُّ عزيزٍ وحكيم فهو مفتقرٌ إليه وإلى فيضِ كرمِه عليه بالعزَّة والحكمة، ولا ينبغي أنْ يتصوَّر أنَّ (أل) الداخلةَ على الوصفينِ للتعريف؛ لأنَّهما موصولانِ اسميّانِ دالّانِ على التعريف بالصِّلة وموصولِها.

بلاغةُ العطف في: ﴿وَوَهَبۡنَا﴾:

الـهـجـرةُ إلى العزيز الحكيم تـورثُ جزيلَ المواهب

عطف النّظم الجليل الجملة الفعليّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ على الجملة الفعليّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1]، عطفَ خبرٍ مُتسبِّبٍ على خبرٍ مُستلزِمٍ لاتّفاقهما لفظًا ومعنًى، إذ بعدَ إعلانِ الهجرة إلى العزيز الحكيم ومفارقةِ الأهل والوطن، شرعَ ببيانِ ما أنعمَ اللّه تعالى عليه به في الدنيا والآخرة جزاءً لإخلاصِه للّه تعالى[2]، وذهبَ بعضُ أئمّة التّفسير إلى أنّها معطوفةٌ على جملة مقدّرةٍ، تقديرها: (فأعززْناه إعزازًا مُحكمًا ووهبنا له ذرّيةً طيّبة) شُكْرًا على هجرته[3].

إيثارُ التَّعبير بلفظ (الهبة):

عطاءُ الله تعالى تفضّلٌ بلا عِوَض ولا غَرَض

آثرَ النّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ (الهبة) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ للدّلالةِ على أنّه عطاءٌ بلا عوض ومُقابل، فهو كرمٌ محضٌ خالص، تكريمًا لإبراهيم عليه السلام؛ فـ(الهبةُ)

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 328.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 132.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 426.

محضُ تفضُّلٍ من اللّه تعالى تمنحُ لِمَن كانَ أهلًا لها جزاءً على صبرِه وشُكره بلا عِوَضٍ يُدفَعُ للواهب، ولا غرضٍ يَبتغي الواهبُ تحقيقَهُ من هِبته وعَطائه؛ إذ أفعالُ اللّه تعالى منزّهةٌ عن العِلَلِ والأغراض، فقد منحَه اللّه تعالى ذرّيّةً من عجوزٍ عاقِر[1].

دلالةُ التَّعبير بضميرِ التّعظيم في ﴿وَوَهَبۡنَا﴾:

تعظيمُ الفاعل تعظيمٌ للفعل

أسندَ النّظمُ الجليل فعل الوهْب إلى ضمير التّعظيم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾؛ للدّلالة على عظمة الفاعل قدرةً وإرادةً وحكمةً المستلزِم لتعظيم هذا الفعل والعطاءِ الّذي تحفّه قدرةُ المولى تعالى العزيزةُ وحكمةُ المولى تعالى الجليلة؛ وذلك لتأخُّرِ مجيءِ الذّرّيّة لإبراهيمَ عليه السلام، إذ هبةُ الذُّرّيَّة لشيخٍ كبيرٍ وعجوزٍ عقيم من القدرة العزيزة والحكمة البليغة، ولذا ناسبَ تعقيبُ الوهبِ صفتَي العزّة والحكمة.

تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿لَهُۥٓ﴾:

الهبةُ خاصّةٌ بإبراهيمَ إعزازًا بالولد وإحكامًا بالكتاب

قدّم النّظمُ الجليل الجارّ والمجرور على المفعول به في قوله جلّ شأنه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾؛ تخصيصًا لإبراهيم عليه السلام بهذا العطاء؛ واللامُ هنا دالّةٌ على التعليل والغرض؛ أي: إنّ ذلك الوهبَ لأجل إبراهيم اللّاجئِ إلى العزيز الحكيم، وفيه مصلحةٌ له مترتّبةٌ على ذلك الوهب، وهو إعزازه بالولد وعدم قَطْعِ نَسْلِه إلى يوم القيامة، ووضعِ الحِكمة في ذريّته وتخصيصِها بالكتب المنزلة، فكان الوهبُ مُناسِبًا لحُسْنِ ظنّه باللّه تعالى، فكان تقديمُ الموهوبِ له اهتمامًا به وتخصيصًا له بالهبة.

دلالةُ عطفِ ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ على ﴿إِسۡحَٰقَ﴾:

مِن كمال الإنعام وتمامِه دوامُ الذّرّيّة والنّسل

عطفَ النّظم الجليل ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ على ﴿إِسۡحَٰقَ﴾ عليهما السلام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾؛ لبيانِ مزيد الإنعام، فبيّن أنّه

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 463.

أنعمَ عليه بولدٍ من صُلْبه وهو إسحاقُ، وبيّن أنّه جعلَ ذرّيّتَه دائمةً باقيةً، بولد ولده وهو (يعقوب)، والغرضُ من ذكر الحفيدِ بعدَ الابنِ الإشارةُ إلى استمرارِ الذرّيَّة وعدم انقطاعها وأنّ عمرَه لنْ ينقضيَ حتى يرى حفيدَه يعقوبَ عليه السلام، وأنَّها سوفَ تتشرّفُ بحمّل رسالةِ التوحيد إلى قيامِ السّاعة.

دلالةُ العطف في: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

إتباعُ نعمةِ الذرّيّة بتكريمها أفخمُ إعزاز

عطفَ النّظم الجليل نعمةَ جعلِ النّبوّة والرّسالة في ذرّيته في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ على نعمة هِبةِ الذّرّيّة نفسها في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾، وذلك لسرْدِ نِعَم اللّه تعالى على إبراهيم عليه السلام، فبعد أنْ ذكر ما أنعمَ به عليه من حُسن الذّرّيّة وإعزازِه بنعمة الولدِ وولدِ الولد؛ لأنه هاجرَ إلى العزيز، أتبعَه ببيان تكريمِ هذه الذّرّيّة، بأنْ جعلَ النّبوّة والرّسالة والحكمة فيها على سبيل الحصر؛ لأنَّه لجأ مُهاجرًا إلى الحكيم، وذلك لبيانِ جليلِ النِّعَم التي أنعمَ اللّه تعالى بها على نبيِّه إبراهيم عليه السلام.

اختيارُ التّعبير بـ(الجعل):

من حكمة الله تـعـالى تـصـيـيرُ النبوّة في نسلِ إبراهيم

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالجعل دونَ غيره في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ لما في الفعل (جعل) من دلالة على التّصيير، فمعنى: جَعَلَهُ اللّه نبيًّا: صيّرَه[1]، فحوّلَه من حالٍ إلى حال، إذ حكمُ اللّه تعالى بأنّ النّبوّةَ تنحصرُ في ذريّةٍ معيَّنة محضُ إنعامٍ وتفضّلٍ منه، فهو صيّر النّبوّةَ محصورةً في نسلِ إبراهيم، وعظّم هذا الجعلَ بإسناد فعله الى ضمير التّعظيم، وتتجلى الحكمةُ الإلهية في هذا الجعلِ ليكونَ إبراهيمُ عليه السلام رابطًا بينَ الأمم والشعوب انتماءً نَسَبيًّا ورابطةً روحيّةً، فيتحقّقُ الوئامُ الإنسانيُّ باتّباع الديانةِ

(1) الجوهري، الصحاح: (جعل).

الإبراهيميَّة الحقَّة المتمثّلة بالتوحيدِ الخالص لله تعالى، ورفضِ عبادةِ غيره، ونلحظُ أنَّ هنالك تناسبًا في الفعلين ﴿وَوَهَبْنَا﴾، ﴿وَجَعَلْنَا﴾؛ إذ نعمةُ الولدِ تتحقّقُ بالهبة التي هي إيجادٌ من العدم المستلزمةِ إعزازَ الأب، ونعمةُ النبوّة والكتاب تتحقّقُ بالجعل المرتبطِ بالحال والوصف وذلك بالانتقال من الإنسانيّة المطلقة إلى النبوّة الدالّ على عظيمِ الحكمة بالاختيارِ والاصطفاءِ، فلا مناقشةَ في ذلك الجعل لصدوره من الحكيم.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِ﴾:

تكريمُ الذّرّيّة بجعلِها الوعاءَ للوحيِ الإلهيّ

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ مُقدِّمًا الجارَّ والمجرور على المفعول به؛ للدّلالة على الظّرفيّة المجازيّة، فالذّرّيّة صارتْ ظرفًا للنّبوّة والرّسالة مجازًا، وفي هذه الظرفيّةِ المجازيّة إشارةٌ إلى أنَّ قسمًا من الذريَّة يكونونَ حاملينَ للنبوَّة والكتاب دون غيرهم، وقسمًا آخرَ يتداولونَ تلك التعاليمَ، ويعملونَ على النظرِ فيها وشرحِها وبيانها وتبليغها، فتكونُ النبوّةُ ويكونُ الكتابُ فاشيًا فيهم وداخلًا في حقيقتهم؛ حتى ينظرَ إليهم العالَم على أنَّهم المتحدِّثون عن الله تعالى وأحكامه، وأفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول به انحصارَ النّبوّة في ذرّيّته، إذ جميعُ الأنبياءِ والرُّسُلِ من بعده كانوا من نسلِه[1]؛ فلا نبوّةَ ولا كتابَ يخرجُ عن إبراهيم وآل بيته الطّاهرين؛ فأيُّ إعزازٍ وأيّةُ حكمةٍ أعظمُ من الهجرة إلى ذلك العزيزِ الحكيم!.

بيانُ المراد من (الذريّة) المضافة:

تكريمُ الذّرّيّة بتكريمِ أصلِها التليد

أضافَ النّظم الجليل لفظَ (الذّرّيّة) إلى ضمير الغائب العائدِ على إبراهيم عليه السلام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ تشريفًا لهذه الذّرّيّة، وتنويهًا بمكانتها بانتسابها إلى

(1) الخطيب، السراج المنير: 3/ 135.

إبراهيم الخليل ﵇، فضلًا عن أنّ فيه إشارةً إلى أنّ سبب التّكريم هو إبراهيمُ ﵇، فمَن أرادَ أن يلوذَ بأهل الكرم فليتّبِعْهم؛ لأنَّهم إنّما شرُفوا بالانتساب إلى أبيهم.

علّة التنصيص على ذكرِ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾:

من أعظم الآلاء جعل الذّرّيّة رسلًا وأنبياء

نصّ النّظمُ الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ على أنّ التّكريمَ وقع بالنّبوّة والكتاب، وذلك لبيان أنّ التّكريمَ وقعَ بأعلى رُتبتينِ يَبلغُهما إنسانٌ في الدّنيا، فالنّصُّ على النّبوّة إشارةٌ إلى اصطفاءِ بعضِ ذريّته أنبياءَ مُبلّغينَ للشرائع والتعاليم، والنصُّ على الكتاب إشارةٌ إلى اصطفاء بعضِ أبنائه ليكونوا رُسُلًا للعالمينَ، ولذا عطفَ ﴿وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ على ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ بيانًا للفرقِ بينَ النبيِّ والرسول، فكأنه قال: وجعلنا في ذريّته النبوَّةَ والرِّسالةَ معًا، فلا نبيَّ ولا رسولَ يكونُ من خارجِ بيته، فيرادُ من الجمع بينهما تفخيمُ الإنعام وتعظيمُه.

بلاغةُ تعريفِ لفظَي: ﴿ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾:

كلّ الأنبياء والكتب المنزّلة كائنةٌ في ذرّيّة إبراهيم

عرّف النّظم الجليل لفظَي: ﴿ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ بالألف واللّام الدّالّة على الجنس والحقيقة والكمال، أي: جعلَ جنسَ النّبوّة بكل كمالها منحصرةً في ذرّيّته، فلا نبيّ بعدَه إلّا من نسلِه، وجنسَ الكتاب بكل كماله وعظمته مُنحصِرًا في أبنائه وأحفاده، فما يصدرُ عن هذه الذريّةِ وحيٌ حقيقيٌّ كاملٌ متكاملٌ يجبُ اتّباعُه ما دام مترسِّمًا خُطى إبراهيمَ بالتوحيدِ والعبادةِ للّٰه تعالى وحدَه، فهو يشملُ الكتبَ المنزّلةَ جميعًا، فكلُّ كتابٍ أنزلَهُ اللّٰه تعالى إنّما ينزلُ على واحدٍ من ذرّيّة إبراهيم[1].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 314.

تعدُّد هبات الرّحمن لخليله عليه السلام

دلالةُ العطف في: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

عطف النّظم الجليلُ إيتاءَ الأجر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ على هِبته الذّرّيّة وجعلِ النّبوّة والكتاب فيها، لجمعِ ما جازى اللّه به إبراهيمَ من المناقب في الدّنيا، وإشارةً إلى جزيل عطاءِ اللّه تعالى لعبادِه المؤمنين.

الأجرُ معنويّ وهو يُؤتى، ولا يُعطى

دلالةُ التَّعبير بالإيتاء:

آثر النّظم الكريم التَّعبير بلفظ الإيتاء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ لأنّه يستعملُ للدّلالة على منحِ الأشياء المادّيّة والمعنويّة معًا، ولمّا كان الأجرُ معنويًّا عبّر بالإيتاء[1]، فضلًا عن أنّ الايتاءَ لا يكون إلّا للشيء الكثير والعظيم الشأن، وحسبُ إبراهيم عليه السلام من عظيمِ الشأن النبوّةُ والولدُ الصّالح، واستمرارُ الرسالة في ذرّيّتِه خالدةً، ونلحظُ في الإيتاء أنَّه يكون بسلاسةٍ ورشاقة وخفّة، ولذا يُعبّر به في قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: 55] بمعنى الإعطاء بكلِّ هدوء ورحمةٍ وانسيابيّة، فيكون وهبُ الولد وحصرُ النبوة والكتاب ومنحُ الأجور قد وقعَ له من حيثُ لا يشعرُ، مع كمال الرّحمة والرّأفة به.

عود الضمير في ﴿أَجۡرَهُۥ﴾:

أضافَ النّظمُ الجليل لفظ (الأجر) إلى الضّمير العائد على إبراهيم عليه السلام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ﴾؛ للدّلالة على أنّ الأجرَ قد نالَه على تعبِه وجهادِه وصبرِه في تبليغ دعوته وصحُفِه؛ لأنَّ الأجر يكونُ في مقابلِ العمل، فهو أجرُهُ الخاصُّ بما قدّمت يداه؛ كرمًا من اللّه تعالى عليه وفضلًا، وإنْ كانت تسميةُ الأجر مجازًا؛ إذ لا استحقاقَ ولا وجوبَ على اللّه تعالى بمكافأة عبيده الطّائعين إلا من بابِ التفضُّل والرَّحمة بهم، لكنّه تعالى من كرمِه البالغ يُسمّي

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 20/ 153.

المنحةَ أجرًا لكي ينهمكَ العاملونَ والطّائعونَ بمقتضى جبلّتهم في تحصيلِ الأعمالِ التي تتطلّبُ الأجور عادةً.

دلالة التّقييد بـ﴿فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:

تعجيلُ الأجرِ في الدّنيا من عظيمِ الإكرامِ

قيّد النّظمُ الجليل الإيتاءَ بكونه واقعًا في الدّنيا في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ للدّلالة على أنّ ذلك الأجرَ قد ناله في حياته، فأعطاه اللّه تعالى الأولاد في غير أوانِه، وجعل النّبوّة منحصرةً ومستمرّة في عَقِبِه، وذلك ممّا تقرّ به عينُه، وجعلَ كلَّ المِلَلِ تتّصلُ به، ويثنونَ عليه الثناءَ الحسَن، ويذكرُه أهلُ الإسلام في آخِرِ كلّ تشهد إلى آخِرِ الدّهر[1]، فهو قد نالَ المكافأةَ الدنيويّةَ على عمَلِه وصبرِه.

بلاغةُ العطف في: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

أجــرُ الــدّنــيا مـشـفـوعٌ بأجر الآخرة

عطفَ النّظمُ الجليل كونَه من الصّالحينَ في الآخرة بإهابِ الجملةِ الاسميّةِ الدالّة على الثبوت والدوام المناسبِ لأحوالِ الآخرة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ على إيتائه الأجر في الدّنيا بإهابِ الجملةِ الفعليَّة الدالّة على التجدُّد والحدوث المناسبِ لأحوالِ الدنيا المتغيِّرة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، وذلك لبيان أنّ اللّه تعالى قد جمعَ له أجرين؛ الأوّلُ في الدّنيا بنصره على أعدائه، وحُسنِ الثّناء، والذّرّيّة الطّيّبة، واستئثارِه بالنبوّة والكتاب، والثّاني في الآخرة وهو كونُه في زمرةِ الصّالحين[2].

دلالةُ توكيد الجملة الاسميّة:

تـأكـيـدُ الـخـبر ردٌّ على منكري البعث

أكّد النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بـ(إنَّ) و(اللّام) و(تقديم الخبر) و(اسميّة الجملة) ردًّا على منكري البعث، فكانَ الكافرونَ من قومه يظنّون

---

(1) القنوجي، فتح البيان: 10/ 185.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 239.

أنّه قد خسِرَ وطنَهُ بالهجرة، ونال النّكد في الدّنيا، فاقتضى ذلك تأكيدَ الخبر[1]، ولبيان أنّ نعمَ الدنيا التي حصلَ عليها شيءٌ يسيرٌ من نعم اللّه تعالى عليه في الآخرةِ الدائمةِ الباقية.

معنى المتعلّق الظَّرفيّ المتقدِّم:

منّة الرّحمن على عباده في الدّنيا لا تنقطع عنهم في الآخرة

عبّر النّظم الجليل بالجارّ والمجرور الظّرْفيِّ وهو ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المتقدم على مُتَعَلَّقِه وهو ﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾؛ للدّلالة على أنّ كونه من الصّالحين يكونُ في تلك الدّار التي هي محلّ الاستقرار والخلود[2]، فهو صالحٌ في الدنيا ويُحشَرُ في زمرة الصّالحينَ في الآخرة أيضًا، لكنْ لمّا كان صلاحُه في الدنيا قد يتعرّض إلى شيءٍ من الإنكار والتكذيبِ؛ حَصَرَ كمالَ صلاحِه بالآخرةِ، التي لا تحتملُ التكذيبَ والإنكارَ.

بلاغة الطّباق:

الجمعُ بين حُسنَيي الدّنيا والآخرة مفصح عن عظيم الجزاء

جمعَ النّظم الجليل بين ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ لبديع الطباق بينهما، تفخيمًا لجزاء إبراهيم ﷺ، إذ عدّد النّعمَ العاجلةَ والآجلة إظهارًا لعظيم نِعَمِه تعالى عليه، وبيانًا لعلوّ مكانته، وإيماء إلى أنّ الإيمان والهجرة للّه تعالى جزيلةُ الجزاء عظيمةُ القدر، وبالجمعِ بين حُسنيي الدنيا والآخرة بالطباق يكونُ المعنى: (وأتيناه أجره في الدنيا والآخرة) معًا، لكنّه عبّر عن أجر الآخرة ببيان ذلك الأجر، وهو كونه في زُمرة الصّالحين، كما عبَّر من قبلُ عن أجرِ الدنيا بنعمةِ الولد والنبوّة.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَمِنَ﴾:

وعدُ الله تعال محقّق مؤكّد

أدخلَ النّظمُ الجليل (اللّام المزحلقة) على الخبر في قوله جلّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 427.
(2) الخطيب، السراج المنير: 3/ 135.

شأنه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهي لامُ التّأكيد، وفائدتها تأكيدُ مضمونِ الخطاب، والمرادُ من التّأكيد تقويةُ الخبر وتأكيدُ تحقيق الوعدِ الإلهيِّ له بالحشرِ معَ زُمرةِ عباد الله الصّالحين.

بلاغة التَّعبير باسمِ الفاعل الجمْعيّ:

استقرّ الصّلاح في إبراهيمَ حتّى باتَ من المشهورين فيه

آثر النّظم الكريم التَّعبيرَ عن مكانة إبراهيم في الآخرة بكونه من الصّالحين على هيئة اسم الفاعل المجموع جمعَ سلامةٍ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ دونَ أن يقول: (وإنّه في الآخرة لصالح)؛ وذلك للمبالغةِ في صفةِ صلاحه من حيث تمكّنُ هذه الصّفة واستقرارُها وثبوتُها فيه فلا تزولُ عنه، فهو بلغَ من الصّلاح بحيثُ يكون من زمرة الصّالحينَ المشهورينَ بهذا الوصف؛ فالجمعُ يدلّ على الجنس، والصّيغةُ أثبتَتْ له الوصف، وقرّرت أنّه متّصفٌ به على وجه الكمالِ والتّمكّن، ولا يكون المعنى كذلك لو قال: (إنّه لصالح).

براعةُ الوصف بـ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ اسمًا معرّفًا:

كمالُ الموصوف بالصّلاح تستدعي كمالَ الوصف

أورد النّظمُ الجليل صفةَ الصّلاح بصيغة الاسمِ في قوله جلّ شأنه: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للدّلالةِ على ثبوتِ صفة الصّلاح فيهم، وجيءَ بالتّعريف بـ(أل) بناءً على أنَّ الوصفَ قد اشتهرَ وخرجَ عن معنى الحدوث؛ للدّلالة على الكمال في الصّلاح، فهو من كُمّلِ الصّالحين ومن زمرتهم[1]، وإنْ لم يكن قد اشتهرَ اسمًا، وفيه دلالةُ الحدوث فإنَّ (أل) في الوصفِ موصولٌ اسميٌّ بمعنى أنَّه في زُمرة الذينَ اتَّصفوا بالصَّلاح، ويكون المشتقُّ حينئذٍ دالًّا على علّةِ الحُكم عليه بكونه منهم، وهو صلاحُه، وفي الجملةِ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كنايةٌ عن دخوله الجنّة؛ لأنَّ مَن كان صالحًا ومع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 239.

الصّالحين في الآخرة فإنَّ أجرَه ونصيبَه الجنّةُ الدائمةُ والباقية، وعدلَ عن التعبيرِ عن منحِه (الجنة) مع الصّالحين بـ(الأجر)؛ للدلالة على أنَّ أجره على عمَلِه قد أخذَه كاملًا عاجلًا في الدنيا، وأمّا نعيمُ الآخرة فهو محضُ تفضُّلٍ وإحسانٍ منَ الكريمِ المُتعال.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المهاجر والذّاهب والمسافر:

المهاجرُ ذاهبٌ للهُجران، والذّاهب مضيٌّ عامٌ، والمسافرُ بنيّة العودة

المهاجرُ مَن ترك أرضًا وانتقلَ إلى أخرى، والمُهاجرةُ من أرضٍ إلى أرضٍ تركُ الأولى للثّانية[1]، والهَجْرُ والهِجْران: مفارقةُ الإنسان غيرَه، والمُهاجَرَةُ في الأصل: مُصارَمَةُ الغير ومتاركتُه، وقوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: تاركٌ لقومي وذاهبٌ إليه[2]، والمهاجرُ مَن تركَ وطنَه رغبةً في رضى اللّه تعالى[3]، فهو يذهبُ في الطّريق بنيَّة الهَجْر وتركِ الوِصال ورغبةٍ في التقاطُع مع المهجورين، وأمّا الذّاهبُ فهو المضيّ[4]، من دون نيّةٍ إلا الوصولَ إلى مقصده، وأمّا المسافرُ فهو الذّاهبُ في الطّريق النّاوي للعودة إليه بعدَ الانتهاءِ من غرضِه، وعبّر في الآية بـ(المهاجرة) لأنّه ترك وطنَه وذهبَ إلى بلاد أخرى، فهي هجرةٌ كاملةٌ فيها معنى المنابذة والمتاركة والكراهيَةِ والقطيعة لَمن هجرَهم.

العزيز والغالب:

العزيزُ يغلِبُ ولا يُغلَب، والغالبُ قد يُغلَب

العِزَّةُ: حالةٌ مانعةٌ للإنسان من أنْ يُغلَبَ، وتَعَزَّزَ اللّحمُ: اشتدّ وعَزَّ، كأنَّه حصلَ في عَزازٍ يصعبُ الوصول إليه، والعَزيزُ: الذي يَقهَرُ ولا يُقهَرُ[5]، أمّا الغَلَبَةُ فهي القهرُ، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ

(1) الجوهري، الصحاح: (هجر).
(2) الراغب، المفردات: (هجر).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 314.
(4) الراغب، المفردات: (ذهب).
(5) الراغب، المفردات: (عزّ).

﴿ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم: 1 - 3]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: 21] أي: قويٌّ قادر، أي: غالبٌ بالحقّ(1)، والعَزيزُ: مِنْ صِفاتِ اللّٰهِ ﷻ: هوَ المُمْتَنِعُ فلا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ، والقَويُّ الْغالِبُ كُلَّ شَيْءٍ(2)، فعبّر في الآية بـ(العزيز) لما فيه من دلالةٍ على المنع والعزّة وامتناعِ القهْر.

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غلب).

(2) ابن منظور، اللسان: (عزز).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: 28 - 30]

۞ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعـدَ قصّـةِ إبراهيمَ إيرادُ خبر لوط عليه السلام

بعد أنْ أورد النّظمُ الجليل قصّةَ إبراهيم ﷺ وقد ذكرَ في طيّاتِها لوطًا مُخبرًا عنه بأنّه قد آمنَ بإبراهيم، شرعَ ببيانِ قصّة لوط عليه السلام، وما وقعَ له مع قومِه، فأتبعَ قصّةَ لوط بقصّةِ إبراهيم؛ لأنّه كان معاصِرًا له قريبًا منه، ومن المناسبة كذلك بيانُ أنّ الملائكة الّذينَ جاؤوا بالبشرى إبراهيمَ حينَ حلّوا به ضيوفًا هم أنفسُهم الّذين أنزلوا العذابَ بقريةِ لوط عليه السلام[1]، ثمّ إنّ "الانتقالَ من رسالةِ إبراهيمَ إلى قومه إلى رسالةِ لوطٍ لمناسبة أنَّه شابَهَ إبراهيم في أنْ أنجاهُ اللّه من عذابِ الرّجْز"[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَتَأْتُونَ﴾: (أتى) الإتيانُ: مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيلَ للسَّيلِ المارّ على وجهه: أتيٌّ[3]، والإتيانُ: يقالُ للمجيءِ بالذّاتِ وبالأمرِ والتّدبير، وفي الخيرِ والشرِّ، وقولُه: ﴿يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [النساء: 15]، أي: يَتلبَّسْنَ بها، واستعمالُ الإتيانِ هنا كاستعمالِ المجيءِ في قولِه: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]، ويُكنى بالإتيانِ عن الوطْءِ، ومنه: أتى

(1) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 134.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 239.
(3) الراغب، المفردات: (أتي).

امرأته، وقولُه: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ﴾ [الشعراء: 165]، ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ [النمل: 55]، وهو من أحسنِ الكنايات[1].

2) ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾: (فحش) أصلُ الفُحْشِ: الزّيادَةُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ المُعْتادِ، والفُحْشُ والفاحِشَةُ: القُبْحُ والسّوءُ مِن القَوْلِ أو الفِعْلِ، يُقال: فحَشَ وفَحُشَ وأفْحَشَ علينا، فُحْشًا: إذا سَبَّنا وقالَ قَوْلًا فاحِشًا[2]، وهما: الذَّنْبُ، والزِّنا، والبَذاءُ، والوَقاحَةُ[3]، وما عظُمَ قُبحُه من الأفعال والأقوال[4]، والمرادُ بالفَحْشاءِ في الآية: الفِعْلَةُ البالغةُ في القُبح، وهي إتيانُ الرّجالِ باللّواطة[5].

3) ﴿سَبَقَكُم﴾: (سبق) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى التَّقْديم، وتقدُّم الشيء من بين ما حوله في قوة وجِدّ[6]، أعيانًا كانت أَوْ معاني[7]، والسَّبْق: القُدْمةُ في الجَرْي وفي كُلِّ شَيْءٍ[8]، واستُعمل بمعنى الفَوْت والإفلات، وبمعنى المُضيّ، فمن الإفلاتِ قوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، ومن المُضيّ كلُّ ما جاء بلفظ (سَبَقَ) و(سَبَقَتْ) فهو بمعنى (مَضَى)، أي: كلمةٌ أَوْ قولٌ أَوْ حكمٌ مضى من الله ﷻ، أي: أُبْرِم؛ مثلُ ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: 68][9]، والمراد به في الآية الكريمة أنْ لا أحدَ قبلَهم قدِمَ على هذه الفِعلة[10].

4) ﴿وَتَقۡطَعُونَ﴾: (قطع) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى صَرْم وإبانَةِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ[11]، والقَطْعُ: فصلُ الشّيء مُدرَكًا بالبصر كالأجسام، أَوْ مُدرَكًا بالبصيرة كالأشياء المعقولة، فمن ذلك قَطْعُ الأعضاءِ نحوُ قولِه: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، وقَطْعُ الطَّريقِ يقالُ على

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أتي).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فحش).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (فحش).
(4) الراغب، المفردات: (فحش).
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 673.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبق).
(7) السّمين، عمدة الحفاظ: (سبق).
(8) ابن منظور، اللسان: (سبق).
(9) الرّاغب، المفردات: (سبق).
(10) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 673.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).

وجهين: أحدُهما: يرادُ به السّير، والثّاني: يرادُ به الغَصْب من المارّة والسّالكين للطّريق، نحو قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، وإنما سمّي ذلك قطعَ الطَّريق؛ لأنه يؤدّي إلى انْقِطاعِ الناس عن الطَّريق، فجعل ذلك قطعًا للطَّريق[1]، والمرادُ به في الآية الكريمة: أنّهم يتعرّضونَ لأبناء السّبيلِ بالفاحشة حتّى انقطعَ النّاس عن الطّريق[2].

5) ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: (سبل) أَصْلٌ يَدُلُّ على امْتِدادِ شَيءٍ، فالْمُمْتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ مِنْهُ، وهوَ الطَّريقُ؛ سُمّيَ بذَلِكَ لِامْتِدادِهِ[3]، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والسّابِلَةُ هم الَّذين يَسْلُكون السُّبل، وسَبيلُ اللّهِ: طَريقُ الهُدى الَّذي دَعا إليهِ، وجمعُه: سُبُلٌ[4]، والمرادُ به في الآية الكريمة: طريقُ النّاس الذي اعتادوا السّلوكَ فيه، وفيه سهولةٌ[5].

6) ﴿نَادِيكُمُ﴾: (ندا - ندي) النّداءُ في الأصل: رفعُ الصَّوت بطلبِ مَن يُنادي، وله حروفٌ مخصوصةٌ مذكورةٌ في كتب العربية، وقد يقال: النِّداء، للصَّوت المجرَّد[6]، وناداهُ مُناداةً ونداء، أي: صاح به، وتنادَوا، أي: نادى بعضُهم بعضًا، وتَنادَوْا، أي: تجالسوا في النّادي[7]، وعُبِّرَ عن المجالسةِ بالنِّداء حتَّى قيل للمجلِس: النّادي، والْمُنْتَدَى، والنَّديُّ، وقيل ذلك للجليس، قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧﴾ [العلق: 17]، ومنه سُمّيتْ دارُ النَّدْوَة بمكَّةَ، وهو المكانُ الذي كانوا يجتمعونَ فيه[8]، والمرادُ به في الآية الكريمة: المجلسُ الذي يجتمعُ فيه النّاس، وهو اسمُ جنس[9].

7) ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾: (نكر) أَصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ ولَمْ يَعترِفْ به لِسانُهُ[10]، والمُنْكَرُ: كلُّ فِعْلٍ تحكمُ العقولُ الصَّحيحةُ بقُبْحِهِ، أَوْ تتوقَّفُ في استقباحِهِ واستحسانِهِ العقولُ، فتحكمُ بقُبْحِهِ

(1) الراغب، المفردات: (قطع).
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 465.
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سبل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(5) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 465.
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ندي).
(7) الجوهري، الصحاح: (ندا).
(8) الراغب، المفردات: (ندا).
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 315.
(10) وابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).

الشّريعة[1]، والإنْكارُ: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ وردُّهُ، يُقالُ: أنْكَرْتُ حَقَّهُ أيْ جَحَدْتُه ونَفَيْتُه، وكُلُّ ما جَهِلَهُ النَّاسُ وجَحَدوهُ فهوَ مُنْكَرٌ[2]، والمرادُ به في الآية الكريمة: المجامعةُ والسّبابُ والفُحشُ في المِزاح[3].

8) ﴿ٱنصُرۡنِي﴾: (نصر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه، ونَصَرَ اللَّهُ المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدوِّهِمْ[4]، والنَّصر: إعانة المَظْلوم[5]، ونَصَرَهُ منه: نَجّاهُ وخَلَّصَهُ، وهو ناصِرٌ ونُصَرٌ[6]، قال تعالى: ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: 68]، ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠﴾ [البقرة: 250][7]، والمرادُ به في الآية الكريمة: النّصرُ على قومه بإنزالِ العقاب على المكذّبين ليُريَهم صدقَ ما أبلغَهم من الرّسالة[8].

9) ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: (فسد) أصْلُ الفَساد: الخُروجُ عن الاِعْتِدالِ[9]، يُقال: فسَدَ الكَلامُ، أيْ: خَرَجَ عن حَدِّه، ويُقالُ: فسَدَ الشَّيء فسادًا، وأفسدَه غيرُه، وضِدُّه: الصَّلاحُ[10]، والفسادُ عامٌّ في الكُفر والضَّلال وكلِّ ما هو ضارٌّ، والفَسادُ في الأرضِ هَيجُ الحروب والفِتَن؛ لأنَّ في ذلك فسادَ ما في الأرض، وانتفاءُ الاستقامة عن أحوال النّاس والزَّرعِ والمنافعِ الدّينية والدُّنيويَّة[11]، والمرادُ به في الآية الكريمة: السَّعيُ بإفسادِ النّاسِ بحَمْلِهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش[12].

المَعْنى الإجْماليُّ:

شرعَ النّظم الجليل ببيان قصّة لوط ﷺ مع قومه قائلًا: واذكرْ أيّها العاقل - لتعتبرَ وتتّعظ بعدَ قصّةِ نوح وإبراهيم ﷺ - ما حصلَ مع لوطٍ ﷺ حينَ قال لقومه على سبيل

(1) الراغب، المفردات: (نكر).
(2) الخليل، العين: (نكر).
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 673.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(5) ابن منظور، اللسان: (نصر).
(6) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (نصر).
(7) الراغب، المفردات: (نصر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 241.
(9) الزبيدي، تاج العروس: (فسد).
(10) ابن منظور، اللسان: (فسد).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فسد).
(12) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 674.

من عظيم القَصَص ما وقع للوطٍ مع قومِه المُفسدين

الزّجرِ والتّوبيخ والإنكار لما هم عليه من فعلٍ قبيح: إنّكم لتفعلونَ الفِعلةَ البالغةَ القبح والفُحش، وأنتم أوّلُ مَنِ ابتدعَها، ولم يَسبقْكم بها أحدٌ، وهي إتيانُ الذّكور دونَ الإناث، فأنتم تأتونَ الرّجال شهوةً من دون النّساء، وتقطعونَ الطّريق على المارّة، بأنْ تنتهبوا أموالَهم، وتكرهوهم إكراهًا على ارتكابِ الفاحشةِ معهم، وأنتم ترتكبونَ المنكَراتِ في مجالسِكم ونواديكُم التي تتلاقونَ فيها، ثمّ أخبرَ النّظمُ الجليل أنّ قومَه لم يُجيبوه بشيءٍ إلّا أنْ قالوا له على سبيلِ الاستخفافِ بوعْظِه وزَجْرِه: ائتِنا يا لوطُ بعذاب اللّه الذي تتوعّدُنا به، إنْ كنت صادقًا في دعواك أنّك رسول، وفي دعواك أنّ عذابًا ينزلُ علينا، بسببِ أفعالنا هذه التي ألِفْناها وأحبَبْناها، فلمّا أدّى لوط ما عليه من الوعظ والإرشاد، ورأى قومه لم يَستجيبوا له لجأ عليه السلام إلى ربّه، يلتمسُ منه النّصرةَ والعونَ، فقال: رَبِّ انصُرني بأنْ تُنزلَ عذابك على هؤلاء القوم المُفسدين، الذين مرَدوا على ارتكابِ فواحشَ، لم يسبقْهم بها من أحدٍ من العالمين، واجتهدوا بإفسادِ غيرهم ونشرِ فِسْقِهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَلُوطًا﴾:

وعظُ السّامعين بقصة أُخرى من قصص السّابقين

عطفَ النّظم الجليل قصّةَ لوط في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ على قصّة نوح عليه السلام[2]، والغرضُ من إيرادِ القصّة هنا تحقيقُ العبرةِ والعظةِ بمّا حدثَ مع قومه؛ إذ كذّبوه واستهزَؤوا به، وفي توالي القصص وتتابُعِها دروسٌ للمعتبرين وبلاغاتٌ للناظرين.

دلالةُ التصريح بالاسم العلَم:

ذكرُ أعلام الانبياءِ تشريفٌ لهم وتنويهٌ بهم

في التصريح بالاسم العلَم (لوطٍ) في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 31 - 33.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 232.

﴿لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ مع حذف المتعلَّق (أرسلنا) إيجازًا، المرتبط بقوله تعالى أولًا: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [العنكبوت: 14]، وقوله ثانيًا: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾ [العنكبوت: 16] تشريفٌ له، وإعلاءٌ لمكانته، إذ جعلَ النظمُ الجليلُ البدايةَ بذكر الشخصيَّة الأساسيّة في القصة؛ ليكون منهاجًا يستنيرُ به الدّعاة، ونبراسًا يقتدي به السّالكون.

معنى الظرفيَّة في: ﴿إِذۡ قَالَ﴾:

تحـديدُ زمـانِ وقـوعِ القصّة بالماضي

عبّر النّظم الجليل بالظّرف ﴿إِذۡ﴾ المتعلق بـ(أرسلنا) المقدَّر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾، والمرادُ الاعتبارُ بقصّة لوط التي حدثَتْ حينَ أرسله اللّه تعالى إلى قومه، ويشيرُ الظّرفُ الدّالُّ على الزّمن الماضي إلى سرعة امتثالِ لوط إلى تكليفِه بالرّسالة[1]، وفي ذلك إشارةٌ أيضًا إلى وقتِ قوله لقومه: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ﴾ وهو أوّلُ زمنِ دعوتِه، والغايةُ من ذكر زمن الحدث والقصَّة الاعتبارُ بتجاربِ الأُمم السّابقة، والانتفاعُ بما آلَ إليه أمرُ المفسدين؛ ليرتدعَ مَن تُتلى عليه تلك الآياتُ البيّنات من مشركي مكّة وغيرهم ممَّن جاء بعدَهم.

نكتة ورودِ فعلِ القول ماضيا:

الإصـرارُ على الدّعوة ورسوخُ الخطاب

آثر النّظم الكريم التَّعبير بفعل القول بصيغة الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ إشارةً إلى إصراره على الدّعوة، فعبّر بالصّيغة الدالّة على التحقّق والوقوع، والفعلِ المتضمّنِ معنى التّصريحِ، والإعلان، والجهرِ بالنُّصح والمؤاخذة؛ فلم يكن هيّابًا عن مواجهتِهم، ولا كاتمًا لما أمره اللّه تعالى بتبليغِه لهم.

مفهومُ اللّام في: ﴿لِقَوۡمِهِۦٓ﴾:

الـغـرضُ من الدّعوةِ والبيان إنـقـاذُ بني الإنسان

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ وهو هنا دالٌّ على

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 428.

التّعليل والغرض، أي: قالَ لأجلِ قومه، فالمستفيدُ من قولِه ودعوتِه هم قومُه، لأنَّ الغرضَ من دعَوات الأنبياء والمرسلين إنقاذُ جميع المهتدينَ بالفوز برضا ربِّ العالمين، والكلامُ وإنْ كان معلَّلًا بقومِه، لكنه شاملٌ لجميع الخلق؛ إذ ما من نبيٍّ إلا ودعا إلى التوحيد وعبادة الله تعالى، واجتناب المحرَّمات والفواحش.

دلالةُ التَّعبير بلفظ القوم مضافًا:

يَـصـدرون إلى الفاحشةِ باقتدارٍ وإصرارٍ وتناصُر

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (القوم) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾؛ للدّلالة على قوّتهم وكونِهم يفعلونَ تلك الفاحشةَ مُجتمعينَ، فكأنّهم يقومونَ قومةً واحدةً لطلبِ تلك الفاحشة، فضلًا عن الضّمير العائدِ على لوط عليه السلام؛ ليدلّ على أنّ دعوتَه كائنةٌ في قوم يعرفونَه ويعرفونَ صِدقه وخُلُقَه، فكان الأجدى بهم السّماعَ له والاتّعاظَ بدعوته، ويترجّحُ أنَّ المخاطبين بالقوم كانوا جماعةَ الذّكور دونَ النّساء؛ لأنَّ ما خاطبَهم به فاحشةٌ تصدرُ عن جماعةِ الرّجال.

دلالةُ التوكيد في جملةِ المقول:

إبـطـالُ زَعْـمِ فاعل الفاحشة أن فعلَه ليس بمنكَر

أكّد النّظمُ الجليل الجملةَ الاسميّةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ بـ(إنّ)، واللّام في ﴿لَتَأۡتُونَ﴾؛ لتأكيدِ كونِ ما يأتونَه فاحشةً، وإنّما أكّد ذلك لأنّهم لم يكونوا يشعرونَ بشناعةِ عملِهم وقُبحِه[1]، ولأنّهم وصلوا إلى مرحلةٍ من الممارسات جعلَتْهم يُنزّلونَ منزلةَ المُنكِر لفحشِ ما يصنعون؛ فجاءَ التأكيد نافيًا لذلك الإنكار ودافعًا له.

توجيهُ القراءاتِ الواردة في: ﴿إِنَّكُمۡ﴾:

الإنـكـارُ على شَناعةِ الفعل تقريرٌ لِقُبْحِه

اختلفَ القرّاء في قراءة ﴿إِنَّكُمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾: فقرأ أبو عمرو، وحمزةُ، والكسائيُّ، وعاصمٌ في رواية أبي بكر بالاستفهام ﴿أَءِنَّكُمۡ﴾،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 240.

والباقون قرؤوها بلا استفهام[1]، والاستفهامُ يدلّ على التقريرِ والإلجاءِ إلى الاعتراف بفعلِهم الشّنيع مع التوبيخِ لهم على ذلك الصَّنيع البشِع، والتعجُّب من حالهم وما وصلوا إليه، وأمّا القراءة بلا استفهام فلتقرير الخبر وتثبيتِه ذمًّا لهم وتوبيخًا[2]، وفي هاتين القراءتينِ يتبينُ أنَّ لوطًا ﷺ كان يدعوهم بطرق مختلفة وبأساليب متعدّدة، فتارةً يلجأ إلى الاستفهام متعجِّبًا ومقرِّرًا، وتارةً أخرى يلجأ إلى الإخبار مُستغربًا من فعلِهم المقيت، ممّا يدلُّ على تحيُّرِ لوطٍ مع قومه في مواجهةِ أفعالهم السيّئة، فهو يتعجّبُ ويوبّخُ ويقرّرُ ويخبرُ لعلّهم ينتهون ويرتدعون.

مجيءُ فعل الإتيان مُضارعًا:

مــزاولــتُــهــم الفاحشةَ دائمٌ متجدّدٌ

آثرَ النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع عن إتيانهم الفاحشة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ للدّلالة على أنّهم يُداومونَ على ذلك، وإنّما عبّر بالإتيان دون الفعل (تجيؤون) للدّلالة على أنّهم كانوا يقصدونَ الفاحشة ويسعَونَ إليها بكلّ يُسرٍ وسهولةٍ، وكأنها أمرٌ مستساغٌ ولذيذ، مع أنّها في حقيقتها شناعةٌ وقباحةٌ عميقة.

دلالةُ التعريف في ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

عظُمَتْ الجناية فكأنْ لا فاحشةَ سواها

عرّف النّظم الجليل لفظ ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ بالألف واللّام الجنسيّة أوِ العهديّة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ للدّلالة على أنّها الفاحشةُ الكاملة، فكأنْ لا فاحشةَ غيرها، ففعلتُهم هي الفاحشة، ولا فاحشةَ وراءَها[3] في القبح والسّوء، وبناءً على أنَّ اللام للعهد فإنَّ عهديّتها أغنتْ عن ذكرها بخصوصِها لانصرافِ الذهن إليها، فقد صارت معلومةً بهذا اللّقب، حتى إنَّ دعوة لوط اقتصرتْ

(1) أبو علي الفارسي، الحجّة: 4/ 139 - 140، وابن الجزري، النشر: 1/ 371، 2/ 343.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 401 - 402.
(3) الخطيب، السراج المنير: 3/ 135.

عليها ولم تذكر قضيّةَ التوحيد؛ لأنَّ التخلُّص من هذه الفاحشة هو الطّريقُ للدّخول في حال الموحّدين والمخلِصين.

علّةُ اطلاقِ لفظ ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ على اللّواطة:

فطرةُ النّفس السّليمة تأنفُ شهوةً لا تُفضي إلى الولد

إنّ الشّهوةَ عمومًا صفةُ قُبح، لولا أنّ هنالك مصلحةً ما كان اللّه ليخلقَها ويركبّها في الإنسان، وقد نظَّمَها عن طريقِ مؤسَّسة الزّواج بقواعدَ وأحكام تجعلُ الإنسان يتحصّنُ بها ويتعفّفُ عن المحرَّمات؛ فإنْ مارسَها بالطريقةِ الصّحيحة كانت نافعةً لخُلُقه وروحِه ونفسِه فليست بفاحشةٍ حينئذٍ، وإنْ نفّذها بطرقٍ غيرِ شرعيّة كانت سببًا لضررِه وأمراضِه وانحطاطِه النفسيِّ والروحيّ وكانت فاحشةً وخبثًا، ومصلحةُ الشّهوة الفرجيّة هي سببُ بقاءِ النوع الإنسانيّ، وأمّا اللّواطةُ التي لا تفضي إلى ذلك فمجرّد قضاء شهوةٍ لا تتولّد عنها مصلحةٌ ولا تفضي إلى نتيجة، بل فيها من المضارّ والضّرر ما تأنفُ النفس البشريّةُ السَّويّة عن مُمارستِه[1].

بلاغةُ فصلِ جملة: ﴿مَا سَبَقَكُم﴾:

نفورُ العالمينَ عن هذه الفِعلة مُقرّرٌ شناعتَها

فصلَ النّظمُ الجليل الجملةَ الفعليّةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنّها مستأنفة استئنافًا تقريريًّا؛ سيقتْ لتوضيح طبيعةِ الفاحشة، ولتقريرِ قبح الفعلة وفَحاشتِها[2]؛ فإنَّ إجماعَ جميع أفرادِ العالمينَ على التَّحاشي عنها، لكونِها ممّا يأباها العرفُ وتشمئزُّ منها الطِّباع وتنفرُ منه النّفوس[3]، تقريرٌ لشناعتِها وسوءِ عاقبتِها، فضلًا عمّا ذكرناه من انتفاءِ المصلحة بها، من حيثُ عدمُ إفضائِها إلى الولد، وهذا الاستئنافُ يتضمّنُ إظهارَ عظيم جرأتهم بكونهم أوجدوا سنّةً سيّئةً للنّاس، ويجوزُ أنْ تكون

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 49.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 455.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 37.

جملةُ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ حاليةً، كأنّه قال: أتأتونَ الفاحشة مبتدعين لها غيرَ مسبوقين بها[1]؟ وفي كون ابتداع مثلِ هذا الفعل القبيح حالَهم مزيدُ تشنيعٍ عليهم، وبيانٌ لعظيمِ جرأتِهم على المنكَر[2].

إيثارُ التَّعبير بـ(سبقَ):

سنّةُ الفعلِ المشين أدعى للتّقريع والتّوبيخ

آثرَ النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بفعلِ (السّبق) ماضيًا في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ للدّلالة على أنّهم أوّلُ مَن جاء بهذه الفاحشة، والمرادُ من ذلك تشديدُ الإنكار عليهم، والتوبيخِ لهم بأنّهم سَنّوا بذلك فِعلًا سيّئًا كانَ لا يخطر على بالِ أحدٍ[3]، وفي السَّبق للفاحشةِ والوصولِ إليها قبلَ كلِّ أحدٍ تهكُّمٌ بما فازوا به من عملٍ مُشين، وفعلٍ مُخالفٍ للذّوق المستقيم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرور ﴿بِهَا﴾ متقدّمًا:

سبقُ النّاس بالخير وهم سبَقوا بالفاحشة

عبّر النّظم الجليل بالجارّ والمجرور في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾؛ لبيان ما وقعَ السّبقُ به، فليس المراد نفيَ السّبق على العموم، بل انتفاءُ السّبق بفعلِ هذه الفاحشة بخصوصها؛ فهم مسبوقونَ بالشّرك وغيرِه من الذّنوب، لكنَّ هذا الذنبَ لم يُسبقوا إليه، بل اختصّوا بعملِه وتقدَّموا مَن جاء بعدَهم بفعله، والباءُ تفيدُ التعدية الدالّةَ على أنَّ السّبق كان بالذّنب الشّنيع والخطيئةِ المُخجِلة، وقدّم النّظم الجليل الجارّ والمجرور ﴿بِهَا﴾ على الفاعل ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ فلم يقل: (ما سبقكم أحدٌ من العالمين بها)؛ اهتمامًا بالمسبوق به أكثر من السّابق، لا سيّما وأنّ الفاعلَ عامّ، فالمراد الذّمّ على هذه الفاحشة والسّبق بها؛ بوصفها بِدْعًا من الأفعال يشمئزّ منه الطّبع السّويّ، وتنفرُ منه الفطرة البشرية.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 353.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 428.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 241.

سلبُ العموم أدلُّ عل الأوليَّة

دلالةُ التَّعبير بالحرف الزائد ﴿مِنْ﴾:

أدخلَ النّظم الجليلُ حرفَ الجرّ ﴿مِنْ﴾ على الفاعل في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ والأصل: (ما سبقكم أحدٌ)؛ وإنّما جيء بـ﴿مِنْ﴾ الزّائدة للدّلالةِ على استغراق النّفي، تأكيدًا لكونهم أوّلَ مَن جاء بهذه الفاحشة، ولم يُسبقوا بها على وجه الإطلاق.

لا أحــدَ على وجــه العموم والــشّــمــول تقدّمهم بفعل الفاحشة

سرّ إيثار لفظ ﴿أَحَدٍ﴾ نكرةً:

لفظُ ﴿أَحَدٍ﴾ اسمٌ بمعنى (واحد)، ومعناه: منفردٌ، وهو صفةٌ مشبّهةٌ مثل (حسن)، ويفيد تمكُّنَ الوصف في موصوفه بأنّه ذاتيٌّ له، وأمّا (واحد) فاسمُ فاعل لا يفيد التمكُّن والاستقرار، هذا هو أصلُ إطلاقه وتفرّعت عنه إطلاقاتٌ صارت حقائقَ للّفظ ﴿أَحَدٍ﴾، أشهرها أنّه يُستعمل اسمًا بمعنى إنسان أوْ موجود، وهو من الأسماء النّكرات العامّة الملازمةِ للوقوع في حيّز النفي، ويدل على المفرد والمثنى والجمع، وعلى المذكر والمؤنث[1]، ومن هنا آثرَ النّظم الكريم التَّعبيرَ بالنّكرة في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ للدّلالةِ على شمول كلّ أحدٍ من النّاس السّابقين، فليس هناك مَن فعل هذه الفاحشةَ قبلَهم، أوْ أقدمَ عليها؛ اشمئزازًا منها في طباعِهم لإفراط قُبْحِها[2].

تــوالي العمومات مـقـرّرٌ السّبـقَ للفاحشة

دلالةُ ﴿مِّنَ﴾ الثّانية:

كرّر النّظم الجليل حرفَ الجرّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ومعنى الأولى أنّها مزيدةٌ جيءَ بها لتوكيدِ النّفي وإفادةِ معنى الاستغراق، ومعنى الثّانية للبيان، أي: لم يسبقكم بها أحدٌ من إنسانٍ أوْ موجود هو من جنسِ العالمين، وقد أضفى البيانُ عمومًا آخرَ على العموم السّابق، وذلك لاقترانه بلفظ

(1) التحرير والتنوير: 30/ 613 - 614، 620.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 353.

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فدلّ على انتفاء فعل هذه الفاحشة عن جميع العوالم فضلًا عن النّاس(1).

دلالةُ مجيء لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ معرّفًا:

كلّ العوالم تنفرُ من الفاحشةِ التي يأتونها

عرّف النّظم الجليل لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للإشارة إلى أنّ كل العوالمِ العاقلة وغيرها تنفرُ من هذه الفعلة المُشينة، مع الإغراق في تقبيح هذه الفاحشةِ المَقيتة.

بلاغةُ الفصل في: ﴿أَئِنَّكُمۡ﴾:

كمالُ الاتّصال مُغنٍ عن العطف

فصلَ النّظمُ الجليل الجملة الاسميّة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾؛ لأنّها في موضعِ كمالِ الاتّصال؛ فهي بدلٌ أوۡ بيانٌ عن الجملة السّابقة، وبينَ الجملتينِ اتّحادٌ تامٌّ في الاتّصال؛ إذ إتيانُ الرّجال بدلُ اشتمالٍ أوۡ عطفُ بيانٍ من إتيانِ الفاحشة(2).

بلاغةُ الاستفهام في الآية:

مَن يتجرّأ على هذا الفعلِ القبيحِ يَستحِقُّ التأنيبَ قبلَ التعذيب

استعملَ النّظمُ الجليل الاستفهامَ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ تأنيبًا لهم وتقريعًا لهم، والاستفهامُ جيءَ به للتوبيخ والتقريع(3) على الفاحشةِ الشّنعاء التي لم يأتِها غيرهم، والغرضُ من التوبيخ والتجريح استعظامُ ذلك الفعل، والإشارةُ إلى أنه عملٌ مستقذرٌ طبعًا، فينبغي الانتهاءُ عنه قبل التعرّض إلى أصلِ دعوةِ الأنبياء والرُّسُل، وهو توحيدُ اللّه تعالى بالعبادة؛ إذ مَن يفعل مثلَ هذا الأمر الشّنيع يكون بمعزلٍ عن الفهم والإدراك لأسِّ الدَّعوة وجوهرِها.

بلاغةُ التوكيد في الآية:

تأكيدُ وقوعِ الفعل الشّنيع محلُّ استغرابٍ

الاستفهامُ داخلٌ ههنا على أمرٍ مؤكّدٍ وقوعُه، فالاستفهام ليس للشّكِّ في إتيانهم الرّجال من دونِ النّساء، وقطعِهم السَّبيل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 428.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 240.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 353، والهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 401.

بل لغرابة الوقوع المؤكّد لهذه الأفعال[1]، وفي هذا التوكيد الداخلِ على الجملةِ مع أنَّهم لا يُنكرونه أصلًا تنزيلٌ لغير المنكِر منزلةَ المنكِر؛ إذ من شأنِ الإنسان الطبيعيِّ إنْ قام بشيء من تلك الأمور استجابةً لضعفٍ بشريٍّ أنْ يُنكِرَ صدورَ هذه الأفعال عنه إنْ نُسبت إليه، فنزَّلهم منزلةَ مَن ينكر ذلك؛ لأنه اللائق والأحرى بهم، مع أنَّهم ليسوا منكرين أصلًا صدورَ تلك الفواحشِ منهم، فلمّا كان فعلُهم الشاذّ هذا لا يتحقّق صدورُه عن أحد، ولا يرتضيه ذو لبٍّ، ولا يُصدِّقُه سامعٌ تناهى إلى مسامعِه خبره؛ لكمالِ بُعدِه من العقولِ أكّده تأكيدًا قويًا بـ(إنّ)، واللام، وتكرار فعل الإتيان، وهو تأكيدٌ للإنكار العامّ السّابقِ، وفيه مزيدُ توبيخ وتقريع.

دلالةُ تكرار فعل الإتيان هنا:

تـكـرارُ الفعل المشـين تقبيحٌ لـه، وتوبيخٌ لفاعله

كرّر النّظم الكريم فعلَ الإتيان في قوله جلّ شأنه: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ بعد أنْ قال: ﴿لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ للإطناب بذكرِ المنكَر الّذي أتَوا به، تقريعًا لهم وتشنيعًا عليهم، وإظهارًا لقبيحِ فعلِهم، وتوبيخَهم عليه، كما أنّ إيراده بصيغة المضارع دليلُ استمرارهم عليه، حتى ألِفوه وصار من طباعِهم المعتادة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ مخالفَ الفطرة قد يتحوّلُ إلى عادةٍ وطبيعة، وأنَّ الفطرة ليست الاعتياد على الشيء، بل هي العملُ الذي يتناسبُ مع العقلِ السَّليم والذَّوق المستقيم.

تخصيصُ لفظ الرجال بالذّكْر:

اللّائق بالرجال ومَن يتصف بهذا الوصف أنْ يسموَ عمّا لا يليق

ذكرَ النّظمُ الجليل لفظ ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ دون الغِلمان والمردان ونحوِهما مبالغةً في توبيخهم، وذمّهم[2]، وتشنيعًا لجريمتهم وفضحًا لهم، وترهيبًا للنّاس من

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5465.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 245.

ارتكاب هذا الجُرم، كما أنَّ في هذا العنوان استخفافًا برجولتِهم التي تتقاطعُ مع أصلِ خلقتها الطبيعيَّة، وأنَّ اللّائق بالرجال ومَن يتصف بهذا الوصف أنْ يسموَ عن هذا الأمرِ، الَّذي لا يتوافقُ معَ طبيعتِه وخِلقتِه.

دلالةُ العطف في: ﴿وَتَقۡطَعُونَ﴾:

كثُرت منكراتهم حتّى تعدّدتْ في ذمّهم

عطف النّظمُ الجليل قطعَ السّبيل في قوله جلّ شأنه: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ على جريمة إتيانهم الرّجال؛ للدّلالة على عظيمِ المناكِر التي كانوا يأتونها، والغرضُ من ذلك بيانُ استحقاقِهم الذّمّ بسبب صفاتٍ مختلفةٍ بالغةِ الأذى[1]، وبيانُ أنَّ الفاحشة قد تعمَّقت فيهم حتى إنّهم لم يكتفوا برجالِ قومهم، بل خرجوا إلى الطّريق متربّصينَ بالمارّة، يريدونَ ذلك الفعل حتى أصبحوا قطّاع طرقٍ من أجله، فينضمُّ هذا العملُ إلى بدل الاشتمال أوِ البيان لتحديدِ تلك الفاحشة التي لم يَسبِقْهم إليها أحدٌ من العالمين، ولتحديدِ أبعادها على النفس البشريّة، التي إنِ اعتادت على ذلك الفعل فإنَّها تخرجُ عن النّسَقِ الطبيعيِّ، وتصبحُ أسيرَ ملذّاتها بشكلٍ خارجٍ عن العقولِ والأذواق.

بلاغةُ التَّعبير بقطع السّبيل:

قـطـعُ سبيل الـنّـاس بالفاحشة إغراقٌ في القبح

آثرَ النّظم الكريم التَّعبيرَ بـ(قطع السّبيل) دون (قطع الطّريق) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ لأنّ قطعَ السّبيل أشنعُ وأكثرُ أذى؛ فالسّبيلُ هو الطّريق المعتادُ الذي يَسلكه النّاس لسهولته ويُسْره[2]، والسبيلُ كلمةٌ مطلقةٌ تعني: الطّريق الماديَّ، أي: الشّارعُ الّذي نمشي فيه أوِ: الطريقَ المعنويَّ، أي: الطّريقةُ التي نسيرُ عليها، ومنها قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: 108][3]، والمرادُ بقطع

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 428.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 465.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11143.

السبيل قطعُ سبيل المارّة بديارهم، فإنّهم كانوا يفعلونَ هذا الفعل بالمُجتازين من ديارهم من الغرباء، ويَغصبونهم على الفاحشة، وبقبحِ الأحدوثة تنقطعُ سبُلُ الناس في التجارات والمعاملات، وتتوقف الحياة بالانقطاع عن الطريق[1].

بلاغةُ الكناية في ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾:

المـنـفـعـةُ من الـنّـكـاح بـقـاءُ الـنـوع وتحويل جـهـتـه قـبـحٌ لا يستره مصلحة

من المعلوم أنّ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ المعتاد مع النساء بنكاحهنّ هو المشتملُ على المصلحة التي هي بقاءُ النوع وقضاءُ الشّهوة بالصّورة الطبيعيَّة عن طريق إقامةِ علاقةٍ شرعيَّة، وأما تحويلُ وِجهته الى الرِّجال أوِ بالزّنا فقبيحٌ لم يَستُرْ قبحَهُ مصلحةٌ؛ لأن الزّنا وإنْ جاء بالولد فإنّه لا يوفّر له البقاءَ الكريم الشّريف في المجتمع، والحقُّ سبحانه جعلَ لبقاءِ النوع طريقًا واحدًا، لا مصلحةَ باتّخاذ غيره، لا مع رجلٍ ولا امرأة، وقطعُ السّبيل كنايةٌ عن الإعراض عن النّساء وتركِ نكاحِهنّ، وقطعِ الولد، بتعطيلِ الفرجِ ووطءِ الرّجال[2]، وهو من السَّبيل المعنويّ، وبهذا يتحقّقُ قبحُ هذه الفِعلة والفاحشة على مستوى الحياةِ الاقتصاديَّة إنْ كان المرادُ بالسَّبيل الحسيَّ، وقبحِها على مستوى التناسُل والبقاء إنْ كانَ المرادُ بالسّبيل المعنويَّ، فأيّةُ مصلحةٍ تتحقَّق من الشذوذِ وأفعاله الغريبة؟.

بيانُ الإيجاز في قطع السّبيل:

ذكرُ المُسبَّبِ دالٌّ على السّبب

وجهُ التَّعبير بـ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أنّ ذكر المُسبَّبِ دالٌّ عَلَى السّبب المحذوف للاختصار، والمُسبَّبُ قطعُ السَّبيل، والسّببُ الوقوفُ في طريق السّابلة لتصيّد الرّجال؛ طلبًا في إيقاع الفاحشةِ بهم[3]، وإنما عبّر بالمسبَّب وحذفَ السّبب؛ لأنَّ النتيجة التي تتولّد

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 50، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 353 - 354.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 50، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 353، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11142 - 11143.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 46.

من الوقوفِ في الطَّريق أثمرَتْ قطعَه وإيقافَه، وذلك متناسبٌ مع بيان اعتيادِهم على تلك الفاحشة، وآثارِها في حياتهم، ونتائجِ الشّذوذِ وثمراته، ومناسبٌ لاستقذارِ ذلك العمل واستفظاعِه بذكر آثارِه وما يترتّبُ عليه.

دلالة ورودُ الفعلِ ﴿وَتَقۡطَعُونَ﴾ مضارعًا:

دوامُ الفاحشة قطعُ الطّريق على الاستمرار

آثر النّظم الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارعِ عن قطعِهم السّبيلَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ للدّلالة على تجدّد هذا القطع واستمراره، فكانَ دوامُهم في إتيان الفاحشة دفعَ النّاس إلى ترك المرور بهم، وتركِ طرقِهم فقُطِعت، أوْ أنّهم قطعوا النّسل بإيثارِهم الرّجالَ على النّساء[1].

إيثارُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ معرَّفًا:

لا سبيل للحياة مع شيوعِ الشّذوذِ وجرائمِه

عرّف النّظم الجليل لفظ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، والمراد بها الدّلالةُ على الجنس، أي: تقطعونَ جنس الطّريق وحقيقته، والغرضُ من ذلك بيانُ أنَّ الشذوذ وما يستتبعُه من خطايا وانحرافاتٍ يؤدّي إلى قطع كلِّ سُبُل الحياة وأنظمتِها الطَّبيعيَّة، التي فطر اللّه تعالى النّاسَ عليها، وأنَّ تلك الأعمالَ المُخِلَّة بالطَّبع الإنسانيِّ السويِّ، تؤدي إلى تدميرٍ للحياة وسُبُلها وأنظمتِها ونواميسِها، وليس المرادُ أنّهم يقطعونَ طريقًا بعينِه.

دلالةُ العطف في: ﴿وَتَأۡتُونَ﴾:

تعديدُ قبائحِهم بالتفصيل بيانٌ لعلّة الذمّ

عطفَ النّظم الجليل إتيانَ المنكَرِ في مجتمعِهم على إتيان الفاحشة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾، وفائدةُ العطف جمعُ المناكر التي كانوا يفعلونَها وتعدادها، بيانًا لكونهم يَستحقّون الذّمّ من وجوه[2]، كما أنّ الإخبارَ عن كونهم

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 379.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 428.

يأتونَ المنكر في النّادي يدلّ على شدّةِ انحرافهم، بحيث إنّهم يجاهرونَ بتلك المناكر، وهكذا يتطوّرُ الشّذوذ ويتداعى في المجتمع مثل كرة الثلج، إنْ لم يتمَّ إيقافُه والتصدّي له بمسؤوليّةٍ؛ فإنَّ فعلَ الفاحشة التي لم يسبقْها إليهم أحدٌ من العالمين أمرٌ مبهمٌ احتاجَ إلى إبدالٍ وبيانٍ منه، فبيّنه أنَّهم يأتون الرجالَ من دون النّساء، وحصلَ نوعُ امتيازٍ لتلك الفاحشة، وبقي الإبهامُ في أمكنة عملِها وممارستِها، وهل تتمُّ سرًّا أَوْ جهارًا؛ فذكر أنَّهم خرجوا إلى الطَّريق يترصّدون الرجالَ لأجلها، وهذا نوعٌ من المجاهرة لكنْ قد يتمُّ في جنحِ الليل أَوْ على سبيل الانفراد والتخفّي، فذكر أنّهم يفعلونَه في وضَح النهار عندما يتجمَّعون في نواديهم، إذ بدلًا من التباحُث بالأمور العامة والمهمّة؛ ينزلونَ إلى الحضيض، ويمارسون تلك الفعلةَ الشنيعة على مرأىً من الجميع، وهذه نتائجُ الشذوذ وأخطارُه، إذ يتحوّل النادي من كونه مركزًا لمناقشةِ مشاكلِ المجتمع بالحكمة، إلى مرتعٍ للرّذيلة، وتضيعُ الحقوق ويسودُ الظّلم وتنتشرُ الفوضى.

بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿نَادِيكُمُ﴾:

القبولُ بالشّذوذ تدميرٌ للمجتمع ومؤسَّساتِه

النّادي هو المجلسُ الذي يجتمعون فيه، ولا يسمَّى ناديًا إلَّا إذا كان فيه أهلُه، وعبّر النّظم الجليل بلفظ (النّادي) لبيان ذمّهم في إتيانهم المنكرَ فيه، وذلك في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾، وإتيانُ المنكر مذمومٌ عامّة، ولكنّه خصّهم بذكره؛ لأنّهم كانوا يأتونه في مكان اجتماعِهم بمرأىً من الجماعة؛ فهم يُجاهرونَ به تعبيرًا عن جرأتهم، ولا يبالونَ بمخالفتهم النّاسَ وسُنّة الخلق، وليس المرادُ من الإضافة هنا بيانَ أنّ لديهم ناديًا واحدًا، بل هو اسم جنس؛ لأنّ أنديتهم في مدائنهم كثيرةٌ، ولا يُسمّى ناديًا إلا ما دامَ فيه أهله، فإذا قاموا عنه، لم يُطلق عليه نادٍ إلا مجازًا؛ فدلّ

على أنّهم يأتون أنواعَ المنكَرات في كلّ مجتمعٍ لهم، أي: تأتونَ المنكرَ في اجتماعِكم حيثُ اجتمعْتُم[1].

سرُّ التَّعبير عن الفاحشة بـ﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾:

جمعوا بينَ كبائرِ الإثم وصغائرِه

آثر النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بـ﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ دون (الفاحشة) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾؛ لأنّ المنكَرَ يُطلَقُ على ما يُخالفُ أوامرَ الشّرع، وما ينفُرُ عنه الطّبعُ السّليم[2]، فهو أعمّ في الدّلالة من الفواحش، إذ الفاحشةُ مختصّةٌ بما عظُم منها، ودلّ على أنّهم يأتونَ كثيرًا من المُنكَرات، ولا يقتصرونَ على تلك الفاحشةِ الشّنيعة، كما أنَّ تسميةَ الفاحشة بالمنكر بيانٌ لكون الشذوذ ينكرُه الطّبعُ السويّ، ولا يرتضيهِ العقلاء، فهم وإنْ ألِفوه وتعارفوا عليه لكنَّه منكرٌ مرفوض، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ تعارفَ الناس على بعض القبائح وانتشارَها بينهم لا يعني أنَّها ليست من المنكَرات، التي ترفضها الشرائع والقوانينُ السَّماويّة، والفطرة الإنسانية السّليمة، والذوق البشريّ، والمنظومة الأخلاقيّة المستقرّة في الوعي الجَمْعيّ.

دلالةُ تعريف لفظ ﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾:

تعارفوا على كلّ المنكَرات المنهيّ عنها

عرّف النّظم الجليل لفظ ﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ وهي دالّةٌ على الجنس، أي: تأتون جنس المنكر المتحقّق في صورٍ وأفرادٍ عديدةٍ ومتكثّرة، فيشملُ كلّ المنكرات المنهيّ عنها شرعًا، وكلّ ما تنكرُه المروءاتُ والعقول[3]، فكانوا في غاية البُعْد عن الحياء وحُسن الأدبِ والسّمت الطبيعيّ.

بلاغةُ العطف في: ﴿فَمَا كَانَ﴾:

عطفَ النّظم الجليل الجملة الفعليّة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ بالفاء الدّالّة على

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 315، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 50.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 353 - 354.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

عـنـادُ الـقـوم وجدالُهم متفرّعٌ عن تعدادِ سوءِ أفعالهم

التّفريع؛ لأنّ جوابَ قومِ لوط مُتفرّعٌ عن بيانِ لوطٍ ﵇ لأفعالِهم السّيِّئة، وما تستلزمُه من آثارٍ في الحياة، وعن دعوته لهم في كلِّ حالٍ ووضع يكونون عليه، وتشيرُ الجملة المعطوفة بالفاء بما فيها من دلالة على السّببيّة إلى أنّ جوابَهم كان عنادًا مُسبَّبًا عن نُصْحِه وعِظَتِه لهم وفَضْحِه لطريقتهم[1]، وهذا أمرٌ متوقّعٌ من قومٍ وقعوا أسرى شهَواتهم الحيوانيّة، ولم يُحكِّموا العقلَ والذوق في تصرُّفاتهم وأعمالِهم.

دلالةُ نفيِ ﴿كَانَ﴾ بصيغةِ الماضي:

انـتـفـى تـحـقُّـقُ الـجـوابِ عنهم أصالةً

نفى النّظمُ الجليل فعلَ الكون بصيغة الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ دونَ أنْ يقول: (ما أجابَ قومُه إلّا أنْ قالوا)؛ للدّلالة على أنّ الجوابَ مُنتفٍ عنهم انتفاءً وجوديًّا، فليس لديهم جوابٌ من الأصل إلا التحدّي وليس ذلك جوابًا.

دلالةُ التَّعبير بلفظ (الجواب):

الإفـــلاسُ عن الـجـواب سـرُّ الـلُّـجـوء إلى التحدّي

عبّر النّظمُ الجليل عن ردِّ قوم لوط على نُصْحه ووَعْظه وبيانه الآثارَ السّلبيّة على تلك الفاحشةِ الشّنيعة بلفظ (الجواب) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ ولمّا كان التحدّي المقرونُ بالاستهزاءِ والسّخرية ليسَ جوابًا مسوِّغًا لأفعالِهم السيّئة، فإنّه أطلقَ عليه لفظَ (الجواب) استعارةً تصريحيّةً للدّلالة على أنّهم أفلسوا من الجوابِ الحقّ الذي يُظهِرُ صوابَ عملهم، فعمَدوا إلى السّخرية بطلبِ العذاب تحدّيًا واستخفافًا ودلالةً على الاستمراريّة واللّزوم لتلك الأعمال المنكَرة وعدمِ الإقلاع عنها، والمراد أنّ القومَ أُسقِطَ في أيديهم فلم يُرجِعوا جوابًا لا فتقارهم إليه؛ إذ العملُ الشّنيعُ لا يمكنُ تسويغُه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

دلالةُ تكرار لفظ (القوم):

جميعُ القوم متّفقونَ على التحدّي المقرون بالتهكُّم والتكذيب

كرّر النّظمُ الجليل لفظ (القوم) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ دون أنْ يقول: (فما كان الجوابُ)؛ وذلك للنّصّ على أنّ القوم جميعًا قد اتّفقوا على هذا القول، وفي التّصريح به أيضًا، وإضافته إلى ضمير لوطٍ عليه السلام؛ تعريضٌ بهم من حيث إنّهم أنكروا ما جاء به مستهزئينَ، مع أنّهم قومُه وأولى الناس بتصديقه، والاستجابةِ لدعوته التي فيها هدايتُهم.

بلاغةُ القصر في الآية:

الإعراضُ عن القول المنطقيّ دليلُ الاعترافِ بشناعة الفعل

حصر النّظمُ الجليل جوابَهم بطلب العذاب في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ لتأكيد مضمون الخطابِ، فنفى عنهم كلّ مقولةٍ تليق بالمقام، وأثبت لهم قولًا واحدًا وهو الاستهزاءُ والتهكّمُ والتكذيب بطلبِ إيقاعِ العذاب إنْ كان صادقًا فيما يتوعّدُهم به من العذاب، وحصرَ قولهم بالاستهزاء للدّلالة على إفلاسِهم عن إقامة الحُجَج والبراهين المنطقية، وعن العِلَل الدّافعة لسلوكِهم المنحرِف، فلا جواب لهم غيرُ التّحدّي والتكذيب المزوجَيْنِ بالاستخفاف والتهكُّم والهُزء، والقصرُ إضافيٌّ؛ إذ إنّهم أجابوا لوطًا بأقوالٍ أخرى منكرةٍ ومعيبةٍ، لكنّ النظم المهذّب جعلَ ردّهم منحصرًا بهذا؛ للدّلالة على افتقارِهم للجواب الحقّ، ولكون بعضِ تلك الردود لا يليقُ نقلُها؛ إذ لا يصدرُ من المتفحّشينَ بالفعل إلا الفحشُ في القول.

معنى الحرف ﴿أَن﴾:

طلبُ الإتيان بالعذاب هو قول قومُ لوط

عبّر النّظمُ الجليل بالمصدر المُؤَوَّل من ﴿أَن﴾ المصدريّة وفعلِ القول في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ لما في المصدر المؤوّل من دلالةٍ على حدوثِ الفعل ووقوعه بشكل متحقق وثابت، إذ دلّ الفعلُ الماضي بصيغتِه على صدور قولهم ذلك، أي: كان قولُهم ذلك هو جوابَهم له.

دلالةُ التعبير بـ(القول) ماضيًا:

التـصـريـح بالقول إمعان فـي المواجـهـة والتكذيب

إنّ المصدر المؤول صيغةٌ استيعابيّة للدلالةِ الاسميّة والدلالة الفعليّة، فينتظِم فيه معنيان: حركةُ المعنى في الزّمن، وهو الفعليّة، ومعنى المصدر في دلالته على أصل الحدثِ وحقيقتِه، فيجمعُ بين الحدوث والحدَث، واستعمالُه في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ يدلّ على نسبة القول إليهم، وتحقّق وقوعه منهم صدْقًا: تصريحًا، لا تلميحًا، وجهرًا لا إضمارًا، ذلك أنّ طلبَ العذاب ممّا يُستبعدُ وقوعُه من المرء على نفسه؛ إذ لا يطلبُ أحدٌ إيلامَ نفسه، فالتّعبيرُ بهذه الصيغة يؤكّد أنّهم طلبوه قولًا مُعلنين ذلك؛ إمعانًا منهم في الاستهزاء، والشّكّ في صدقِ وقوعِه بعدَ أنْ توعَّدَهم بالعذاب إنْ لم يُقلِعوا عن الكُفر والفُحش، وما صدَّهم عن الإيمان باللّه ووحدانيّته إلا اتباعُهم لشهواتهم وخضوعُهم لانحرافِهم، وآثر النّظم الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ للدّلالة على أنّ تلك المقولةَ قد رسَختْ لديهم، ومضتْ دون أنْ تنتقضَ بمقولة أخرى، فأصرّوا على مقولتهم تلك دونَ تغييرٍ أوْ مُراجعة.

بلاغة الأمر في: ﴿ٱئۡتِنَا﴾:

أطلقوا الأمرَ وغايتُهم التحدّي والتعجيز

عبّر النّظم الجليل بفعلِ الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تحدّيًا وتكذيبًا مقرونًا بالاستهزاء والسّخرية، فهو أمرٌ للتّعجيز[1]، أي: ليس باستطاعتك إنزالُ العذاب، ودلَّ هذا الطلبُ على أنَّ لوطًا عليه السلام كان يُنذرهم بنزول العذاب عليهم إنْ لم يُقلعوا عن كفرهم وفُحشِهم وتكذيبهم باللّه ورسوله لوطٍ، وبدلًا من الانصياع وتركِ الموبقات المخجلةِ لدى الطِّباع الإنسانيَّة المستقيمةِ لجؤوا إلى أسلوبِ التحدّي الناشئِ عن التكذيبِ والمقترنِ بالاستخفاف، ليطلبوا نزولَ العذاب وتحقيقَ ما كان يُخوِّفُهم به من الآيات.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 241.

مفهومُ (الباء) في: ﴿بِعَذَابِ﴾:

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ (الباء) الدّالّ على التّعديةِ والإلصاقِ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: اجلبِ العذابَ إلينا بأنْ تأتيَ به إلينا وتُلصقَه بنا كما تُعيبُ علينا إتيانَ الرّجالِ والالتصاقَ بهم، جهلًا منهم بأنّه يدّعي إنزالَ العذابِ من نفسه، وأنَّ اللّه تعالى لم يُبلّغه بذلك التخويفِ والتهديد، ولن يُعجّلَ لهم العذابَ ويُلصقَه بهم، حتى يقلبَ عليهم الأرضَ ويجعلَ عاليَها سافلَها كما قلبوا السُّنَّة في إتيانِ الرّجالِ دونَ النّساء.

دلالة إضافة ﴿بِعَذَابِ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾:

الجهالةُ والجراءةُ للكافرين جالبةُ العذابَ من ربِّ العالمين

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ العذاب إلى اسم الجلالة في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ للدّلالة على قوّة جرأتهم[1]، وفي ذلك دلالة على فحشِ استهزائِهم وعنَتِهم، واختاروا الاسم الجليل دونَ وصف (الربّ)؛ لأنهم كانوا يؤمنون باللّه ربًا لا إلهًا معبودًا، وكان لوط عليه السلام في تخويفه يُنذرُهم بنزول العذابِ منَ المستحقِّ للعبادة وهو اللّه تعالى، فجاء التحدّي منصبًّا على محطِّ التكذيب.

دلالةُ التعبير بإن الشرطيّة:

التكذيبُ والشكُّ في الصِّدق سرُّ التحدّي

آثر النّظم الكريم التَّعبيرَ بـ﴿إِن﴾ الشّرطيّة دون (إذا) في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وذلك للدّلالة على أنّهم لا يثقونَ بصدقه حتّى على سبيل الاحتمال؛ لأنّ ﴿إِن﴾ تفيد الاحتمال والنّدرةَ والشكّ في الشّرط، والذي يترجّحُ أنّهم كانوا مكذِّبين لنبوّته ومنكرينَ لصدقِه في تخويفهم وتهديدهم، إلا أنهم نزّلوا أنفسهم في مقام التحدّي منزلةَ الشاكّين تنزُّلًا منهم معه، لكيلا يقالَ عنهم: إنَّهم جازمونَ بكذبِه وإنذارِه؛ فما الدّاعي إلى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

مطالبته بإنزالِ العذاب؟ وكيف يطالبونَه بتحقيق وعيدٍ وقد ثبت كذبُهُ لديهم؟.

سرُّ ورودِ (كان) فعلًا للشّرط:

وجودُ التمكّن في الصّدق يقتضي الإتيانَ بالعذاب

أتى النّظم الجليل بـ(كان) فعلًا للشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ للدّلالةِ على أنّ التّمكّن في صفة الصّدق[1]، وهذا التّمكّن يقتضي الإيتاءَ بما وعدهم، فدلّ أسلوب الشّرط على نفيهم عنه صفةَ الرُّسوخ في الصّدق، أي: إنْ كنتَ راسخًا في الصِّدق ومتمكِّنًا فيه ومتَّصفًا به على جهة الرُّسوخ فأتِنا بالعذاب، ويستلزمُ ذلك أنَّك لستَ مَكينًا في الصّدق.

معنى ﴿مِنَ﴾ في الخبر:

الانضواءُ في زُمرة الصّادقين يقتضي تحقيق الوعيد

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهي دالّة على التّبعيض، أي: إنْ كنتَ واحدًا من زُمرة المشهورين بالصّدق، وتحتملُ أنْ تكونَ للابتداء، أي: إنْ وُجِد وتحقَّقَ كونُك مَبدأً للصّادقين، وكأنَّ الصّادقين مكانٌ وأنتَ تبدأ به وتتقدّم عليه لكونك أشهرَهم، والمرادُ نفيُ كونِه مِمّن شُهروا بالصّدق ورائدَهم فيه، أي: لست منْ أولئك الصّادقين، ولو كنت منهم فائتنا بالعذاب، وبذلك أفاد الحرفُ تمامَ التكذيب والإنكار معَ الاستخفاف والتهكُّم.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

ثبوتُ الصّفة في بعضٍ حتى صاروا فيها جنسًا ونوعًا

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (الصّادقين) بصيغة اسم الفاعل جمعًا في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ للدّلالة على تمكّن هذه الصّفة واستقرارها وثبوتها فلا تزولُ، أي: الّذين شُهروا بالصّدق وتمكّنوا من الوصف تمكّنًا لا يقبلُ الانفكاك، فالصّيغةُ دالّةٌ على معنى الصّفة المشبَّهة وإنْ كانت على وزن اسمِ الفاعل مثل (طاهر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

وضامر)، وأفاد الجمعُ الجنسَ والزّمرة التي شُهِرت بهذا الوصف، ودلّت (أل) الموصولة في ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ على الَّذين عُرفوا بالصِّدق عند الوعيد، فيفيدُ العمومَ والشمولَ والجنس، وفي الصِّلة إشارةٌ إلى علَّة طلب الإتيان بالعذاب، وهو انتسابُك للصّادقين وادّعاؤك أنّك واحدٌ منهم؛ إذ تعليقُ الحكم بالمشتقّ يدلُّ على أنّه علّةٌ له.

بلاغةُ الفصل في: ﴿قَالَ رَبِّ﴾:

ردّ الجواب بالـلّجوءِ إلى النّاصِر المعين

فصلَ النّظم الجليل الجملةَ الفعليةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فكأنّه قيل: وبمَ أجابَهم؟ قيل: قال لوطٌ ﷵ مُعرِضًا عنهم ومُقبِلًا على اللّه تعالى[1]، ولا تحتاجُ الجملةُ البيانيّةُ حينئذٍ إلى تصديرها بحرف العطف؛ لأنّها وردتْ في سياقِ المحاورة التي تربطُ الكلامَ بلا احتياجٍ إلى عاطفٍ ورابط.

دلالةُ حذفِ حرف النداء:

الشعور بالإحباط داعٍ إلى سُرعة الإقبال

حذفَ النّظمُ الجليل حرفَ النّداء (يا) في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ دون أنْ يقول: (يا ربّ)؛ لأنّ اللّه تعالى لا يحتاجُ في دعائه أوْ مخاطبته ﷻ إلى حرف التّنبيه، وهو القريب إلى أوليائه، وهذا من رفيع أدبِ الأنبياء، ويمكنُ أنْ يقال: إنَّ شعورَ لوط ﷵ بالإحباطِ الشّديد من قومه، وإصرارِهم على التكذيب مع تحدّيه، مُستهزئين بإنزال العذاب الذي كان يتوعّدُهم به، جعلَه يُقبلُ على اللّه تعالى بالكليَّة، ويُسرعُ في طلبِ النُّصرة والعَوْن، حتى إنَّه حذفَ حرفَ النداء لكمالِ حاجته إلى ذلك العَوْنِ العظيم.

إيثارُ التَّعبير بلفظ الرّبوبيّة:

من تمام النّعم الامتنان بالنّصر على المفسدين

آثرَ النّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرّبوبيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ تضمينًا للدّعاء بسابقِ الإحسان، واعترافًا بنعمائه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

السّالفة، وأنّ اللّه تعالى يجازي عبدَه الشّكور بمزيدٍ من العطاء، كما أنَّ اختيار (الربّ) في مقام الخطابِ يوحي بكمال السَّيطرة والعظمة والجبروت، ويسنَحُ للمتكلِّم الداعي أنْ يُضيفه لنفسِه؛ إذ أصل ﴿رَبِّ﴾: يا ربي، وهذه الإضافةُ إلى المتكلِّم الداعي توحي بكمالِ الحاجة والافتقار إلى النُّصرة والعَوْن، فيكون أدعى للإجابةِ والقبول.

اختيارُ النَّصر مادّةً وصيغةً:

لا يُطلبُ نصرٌ إلا من القويّ المتين

آثر النّظم الكريم التَّعبير بـ(النّصر) مادّةً في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ طلبًا للعَوْن، وإفراغًا لذاته من القوّة والحول واللّجوء إلى القويّ المتين، والفعلُ بصيغتِه الأمريَّة هنا دالٌّ على الاستنصار، أي: الدّعاء بطلب النّصر وتحقيقِه له، والأمر لم يُستعمَل بمعناه الحقيقيِّ بل أُريد به الدُّعاء والتوسُّل، وذلك النصرُ يتحقّق بإنزال العذاب على القوم المنحرفين عن السّبيل القويم[1].

سرُّ التعبير بحرف الاستعلاء:

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ الدّالّ وضعًا على الاستعلاء في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، والمرادُ به الاستعلاءُ المجازيُّ، وذلك بالتّمكّن منهم وغلبتِهم وإنزالِ العذاب فيهم، الَّذي أمرتَني بتبليغِه لهم إنْ كذَّبوا، فيكونُ نصرُك لي تصديقًا لكلامِك لي وكلامي لهُم.

سرّ التعبير بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾:

حصرُ الفساد بالقوم مبالغةٌ في الاتصاف

عبّر النّظم الجليل بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ للدّلالة على أنّ لديهم قوّةً وقدرةً على إيقاعِ الشّرّ، ما لا طاقةَ للوطٍ به[2]، فاضطرّه إلى طلبِ النّصر من اللّه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 315، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 241.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

تعالى، ودلّ التّعريفُ باللّام العهديَّة على أنَّ المراد بالقوم المعروفونَ بتلك الخصالِ السّابقة من عملِ الفواحش واقترافِ المنكَرات.

بلاغةُ الوصف المتعدّي:

من شرور الفاسدينَ سعيُهم في الإفساد

وصف النّظم الجليل القومَ بصفة (الإفساد) الدالَّة على التعدّي صَرْفيًّا في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ للدّلالةِ على أنّهم لم يكتفوا بفعل الفاحشة والفساد الذاتيّ، بل إنّهم دأبوا على نشر الرّذيلة وإفسادِ غيرهم بتحبيب ذلك الفعلِ الشنيع وتزيينِه في قلوب الآخَرين؛ إذ (الفاسدُ) اسمُ فاعل من (فسَدَ) اللّازم، وأمّا (المُفسدُ) فهو مشتقٌّ من (أفسدَ) المتعدّي بالهمزة، فهو مَن يقصدُ إفسادَ غيره، والمرادُ من وصفِهم بتلك الصّفة المتعدّية للغير بيانُ انتشار شرورهم في الأرض، المقتضي استعجالَ نزولِ العذاب وتحقيقِ النّصر[1].

دلالةُ التعبير بالموصول وصلته:

علّة طلبِ النّصر والعَوْن سعيُهم بالإفساد في الأرض

أوردَ النّظم الجليل لفظ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ المكوّن من الموصول الاسميِّ وصِلَتِه الوصفيَّة في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: القوم الذين يُفسدون في الأرض ويَسعون إلى تخريبِها وهدمِها وتدميرِها بشذوذِهم وحُثالاتهم، ويرادُ به العمومُ والشمول، أي: انصُرني على جميع الّذين يتحقّق فيه هذا الوصفُ من قومِه المعهودينَ، ويكونُ ذكرُ الصّلة الوصفيّة بعدَ طلب النُّصرة دالًّا على التعليلِ له، أي: انصُرني على القوم المعهودينَ لأنهم مُفسِدونَ وهادِمونَ للحياةِ السَّليمة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفاحشة والسّيّئة:

الفاحشةُ أخصّ من السّيّئة، فهي ما عظُم من السّيّئات

أصلُ الفُحْشِ: الزّيادَةُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ[2]، والفاحِشَةُ: ما عظُم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 38، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11146.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (فحش).

قبحُه من الأفعال والأقوال[1]، أمّا السَّيِّئَةُ فهي الفعلةُ القبيحة، وهي ضدّ الحسنة[2]، فالسّيّئة لفظٌ عامٌّ في المعاصي شاملٌ لأنواعِها المختلفةِ كَمًّا نوعًا، والفاحشةُ خاصّ بما عظُم منها وكَثُر كَمًّا ونوعًا، فعبّر عن فعلتهم بالفاحشة؛ لأنّها بالغة القبح، حتّى إنّها لتنفرُ منها النّفوسُ الكريمة، وهي إتيانُ الرّجال.

المنكَر والمكروه:

المنكر ما حُكِم بقُبحه عقلًا، والمكروه ما حُكم بقُبحِه عقلًا وشرعًا

الكُرْهُ يدلّ على خِلافِ الرِّضا والمَحَبَّةِ[3]، والكُره ما ينالُ الشيء في ذاته وهو ما يُعاف من حيثُ النّفس والطّبع، وما يعافُ من حيث الشرعُ والعقل[4]، فمعنى كراهة الشيء: عدمُ قبول النّفس إياه[5]، وأمّا المنكَر فهو كلُّ فِعْلٍ تحكُمُ العقولُ الصَّحيحةُ بقُبْحِه، أوْ تتوقَّفُ في استقباحِهِ واستحسانه العقولُ، فتحكُمُ بقبحِه الشّريعة[6]، لأنّه يَدُلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ[7]، فالمنكر، ما يَحكمُ العقل بقبحه؛ لأنّه ضدّ المعرفة، وأمّا المكروه فهو ما لا تقبلُهُ النّفس ولا الطّبعُ السّليم؛ لأنّه ضدّ الرّضا والمحبّة، والمرادُ به في الآية الكريمة اللّواطُ والسّبابُ والفحشُ في المزاح[8]، وذلك ممّا تحكمُ العقولُ بقُبحِه.

(1) الراغب، المفردات: (فحش).
(2) الراغب، المفردات: (سوأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كره).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كره).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كره).
(6) الراغب، المفردات: (نكر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(8) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 673.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾ [العنكبوت: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دعاءُ المرسلين في مظنّةِ إهلاك الظّالمين

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ دعاءَ لوطٍ عليه السلام على قومه بقوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾ [العنكبوت: 30]، ناسبَ أن تَذكر الآيةُ اللّاحقةُ استجابةَ الله تعالى دعاءَه وأمْرَ ملائكته بإهلاك قومِه، فهو انتقالٌ من ذكرِ الأسباب إلى ذكر مُسبّباتها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: (بشر) أصلٌ يدل على ظهورِ الشّيء مع حُسنٍ وجمالٍ، فالبَشَرة: ظاهرُ جِلد الإنسان، ومنه باشَرَ الرّجلُ المرأةَ؛ وذلك إفضاؤه ببَشَرته إلى بشَرتِها، وسُمّي البَشَر بَشَرًا؛ لظهورِهم، والبشيرُ: الحسنُ الوجهِ، والبَشارة: الجمالُ، والبُشرى: اسمٌ بمعنى الخبر المُفرِح، وزنه (فُعْلى) بضمٍّ فسكونٍ، وهي اسْمٌ لِلْبِشارَةِ وهي الإخْبارُ بِما فيهِ مَسَرَّةٌ لِلْمُخْبَرِ، والمرادُ بالبُشرى في الآية: تبشيرُ إبراهيمَ عليه السلام بولادةِ إسحاقَ، وولادةِ يعقوبَ من بعده، فبشّروه بميلاد الابنِ والحفيدِ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اقترانُ تبشيرِ المؤمنين بإهلاكِ الظّالمين

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ ما حدثَ حين جاء الملائكةُ إلى إبراهيمَ عليه السلام؛ ليبشّروه بالولد وهو إسحقُ، وبولد الولد وهو يعقوبُ عليهما السلام، ﴿قَالُوٓاْ﴾ لإبراهيم: إنّا مرسَلون من ربّك لإهلاك أهلِ هذه القرية، وهي قريةُ سَدوم التي يسكنُها قومُ لوطٍ، والسّببُ في ذلك: أنّ أهلها كانوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر)، والقنّوجي، فتح البيان: 10/ 188، وصافي، الجدول: 1/ 215.

ظالمين، حيث أتوْا بفاحشةٍ لم يسبقْهم إليها أحدٌ، وقطعوا الطّريقَ على النّاس، واقترفوا في مجالسِهم المُنكراتِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ الجملةِ ممّا قبْلَها:

الاستنصارُ بالدّعاء من هَدْيِ الأنبياءِ

عُطفت جملةُ ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ﴾ على محذوفٍ يقتضيه السّياقُ، أي: فاستجاب اللّه دعاءَ لوطٍ عليه السلام، وأرسل ملائكةً لإبراهيمَ عليه السلام، بالبشرى له بالذّريّة، وبإهلاك قوم لوط، فكأنّه قيل: استجاب اللّه لِلوطٍ عليه السلام، فأرسل رُسلًا لإبراهيم، وكان من شأنهم كذا وكذا وقتَ مجيئِهم إليه.

نكتةُ العطفِ بالواو:

عند امتناعِ ترتُّبِ الأحداثِ يُعطفُ بالواو

جاء العطف بالواو: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ﴾ دون الفاء؛ لأنّ مجيئَهم بالبشرى المختصَّةِ بإبراهيم عليه السلام مُنفكٌّ عن دعوة لوطٍ: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ [العنكبوت: 30]؛ فليس داخلًا في الاستجابة ولا جُزءًا منها، فالاستجابةُ للوطٍ عليه السلام بإهلاك الظّالمين، هي المُدمَجَةُ ضِمْنَ كلامهم مع إبراهيمَ عليه السلام بالبشرى، فلمّا امتنع التّرتُّبُ لم يعطِف بالفاء[2].

فائدةُ استعمالِ أداة (لَمّا):

خيرُ المواقيتِ ساعةُ البُشرى

صُدِّرت جملةُ ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ﴾ بأداة (لمّا) الحينيّةِ الشّرطيّةِ غيرِ الجازمة، وهي تَستدعي فعلَين ماضيَين، الأوّلُ فعلُ الشّرط والثّاني جوابُ الشّرط، وتفيدُ الظّرفيّةَ الزّمانيّةَ. ومعنَى شرطيّتِها موجَب: فهي أداةُ وجودٍ لوجود، أي: وجودُ الجواب لوجود الشّرط، فهي تفيدُ تَحقّقَ الجواب بتحقيق الشّرط، ومعنَى التّحقّقِ ظاهرٌ في مجيء فعلَي الشّرط وجوابِه ماضيَين، وهي ظرفيّةٌ بمعنى (حين)، فحين وقعَ الشرطُ حصلَ الجوابُ، فحينُهما واحدٌ، ولذا جاءا ماضيَين[3].

---

(1) القنّوجي، فتح البيان: 10/ 188، وطنطاوي، الوسيط: 11/ 33.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 429، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 427.

(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 627.

ما يأتي قصدًا يختلفُ عمّا يأتي دمْجًا

نكتةُ انتقاءِ أسلوبِ الشّرط:

جاء التّركيبُ على أسلوب الشّرطِ، ولم يجئْ بالخبر المحْضِ، فلم يقل كما قال في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: 69]؛ وذلك أنّه في سورة هود افتتاحٌ لقصّةِ إبراهيمَ، وتفصيلٌ لِبُشراه، وهنا إجمالٌ عنه مدمَجٌ ضمْنَ قصّةِ لوطٍ عليه السلام، وهو واردٌ على أسلوب الشّرط؛ لأنّه تعيينٌ لتوقيتِ إهلاك قومِ لوطٍ بتعليقه على حينِ مجيئهم لإبراهيمَ بالبشرى.

نكتةُ إلحاقِ تاءِ التّأنيث بالفعل:

أُنِّث الفعلُ في قوله تعالى: ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ مراعاةً للمعنى، فلفظُ الرّسل مذكّرٌ، ومعناه الملائكةُ، فجاء الفعل بالتّأنيث تنبيهًا على لفظ الملائكةِ، وهذا من جوامع الاستعمالِ وتمامِه(1).

فائدةُ اختيارِ لفظِ الرّسل دون الملائكة:

عنوانُ الوظيفةِ مقدّمٌ إذا ارتبطَ ببيان الغايةِ

اختار النّظمُ الكريم مُفردةَ الرّسل دون الملائكة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ وذلك لإفادةِ أنَّ الملائكة يكونون رُسلًا في العذاب والإهلاك كما أنَّهم رُسلٌ في الرّحمة والتّبشير، وأنَّ ما جاؤوا به هو أمرُ اللّه تعالى، فهم مجرّدُ رُسلٍ، فإيثارُ وصفِ الرّسالة دون اسمِهم المعهودِ (الملائكة) لبيان أنَّ الغاية التي جاؤوا بها هي مقصودُ الإرسالِ(2).

دلالةُ الإضافةِ لنون العظمةِ:

مجيءُ رُسلِ العظيمِ عظيمٌ

أُضيف لفظُ الرّسل إلى نون العظمة؛ للدّلالة على أنّهم مُرسَلون في أمرٍ عظيم، وأنّهم كذلك مُعظَّمون في أنفسِهم، بقوّةِ إضافتِهم إلى ضمير العظيمِ جل جلاله.

(1) فاضل السّامرائي، معاني النحو: 2/ 60.

(2) الرّاغب، المفردات: (رسل).

نوعُ الباء ودلالتُها:

بُشرى المؤمنين علّةُ إرسالِ الملائكة

الباءُ الدّاخلةُ على لفظ (البشرى) في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ إمّا على بابها منَ التّعدية وإفادةِ الإلصاق، فالإلصاقُ معنًى لا يُفارق الباءَ، ولا يخفَى أنّ الإلصاقَ مجازيٌّ، أي: جاؤوا مُصاحبين للبشرى أو مُلتبسين بها، والمصاحبةُ والملابسةُ لازمان عن معنَى الإلصاق، ويصحُّ أن تكون الباء سببيّةً، أي: جاؤوا بسببِ البُشرى أو لأجْل البُشرى[1].

معنَى (أل) في لفظ ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾:

الذّريّةُ الصّالحةُ خيرُ ما يُبَشَّرُ به العبدُ

معنَى التّعريف في لفظ ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ للعهد؛ لاقتضاءِ ﴿وَلَمَّا﴾ أنْ يكون ما بعدها أمرًا معلومًا للسّامع، والبُشرى هي ما دلّ عليه قولُه تعالى آنفًا: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: 27][2].

نكتةُ التّعبير ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ اسمًا لا فعلًا:

فخامةُ الإيجازِ مُقدَّمةٌ على التّفصيل

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ دون أن يأتي بها فعلًا فيُقال: (فبشروه) أو (فقالوا إنا نبشرك)؛ لأنّه أراد ذكرَ البشرى باسمِها؛ ليدلَّ على حقيقتها وعيْنِها، وأنّهم إذْ جاؤوه فهم لا يُخبرونه بمجرَّد قولٍ، بل بالبشرى ذاتِها تحقيقًا لها وأنّها لضمانِها كأنّها واقعةٌ حاضرةٌ، ولو عبّر بالقول، فقال: (قالوا إنّا نبشرك) لاقتضى الإتيانَ بالفعليّة دون الاسميّة، واقتضى تعديةَ الفعل إلى مُسمّى البشرى، فيقال: (قالوا إنّا نبشرك بغلام) كما قيل ذلك في مواضعَ أخرى، فعدلَ عنِ الفعل وعن ذِكر المُسمّى، وجمعَهما بإيجازٍ بديعٍ في لفظٍ واحدٍ، في قوله: ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾[3].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 224.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 242.

(3) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 9.

تصويرُ المعاني أرسخُ من إرسالِها بلفظِها المعتادِ

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ البُشرى:

في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ تشبيهٌ للبشرى وهي أمرٌ معنويٌّ بشيءٍ مادّيٍّ محسوسٍ يُحمَلُ ويُجاءُ به، على سبيل الاستعارة المكنيّةِ، وفيه استحضارٌ لمشهدِ الملائكةِ وهم يُهرولون نحوَ إبراهيمَ عليه السلام مبلِّغين إيّاه ما جاؤوا لأجله، وهو أبلغُ من أن يُقال: (ولما بشروا إبراهيم)، لِما فيه منَ التّصوير والتّمثيلِ، وهو أرسخُ في إظهار المعاني، لاسيما وأنَّ أثرَ هذه البشرى ساطعٌ في البشريَّة[1].

الرّسالةُ قولٌ يُسمعُ وفعلٌ يُرى أثرُه

مناسبةُ لفظِ الرُّسلِ مع فعلِ القول:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بوصف الملائكةِ بكونهم رُسلًا، في قوله تعالى: ﴿رُسُلُنَآ﴾ وهو تعبيرٌ يَتَنادَى بالمناسبةِ مع التّعبير بفعل القول في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾ فإنّ مضمونَ القول بلاغٌ، والبلاغ لازمٌ عنِ الإرسال، ولذا وصفَهم بالرّسُل؛ للإشارة إلى كونِه من شؤون الوحيِ الواجبةِ في تبليغِها وإنفاذِها.

خصوصيّةُ التّبشير قد تقتضي الإجمالَ إذا اقترنت بعمومِ الإهلاك

نكتةُ العدولِ عن ذكرِ مضمونِ البُشرى إلى الإهلاك:

عدلَ النّظمُ الكريمُ عن ذكرِ مضمونِ البُشرى الذي بدأت به الآيةُ، إلى ذكرِ لفظِ الإهلاك ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾، فلم يقل: (ولمّا جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنّا نبشّرك بكيت وكيت)؛ وذلك ليدلَّ على أنّ البُشرى مقصودةٌ أصالةً بمجيء الرُّسُل، فأخبرَ عنه باعتبار حدوثِه ووقوعِه، وأنّ الإهلاكَ مقصودٌ تبَعًا، ولذا ساقه تابعا لهم في أمرِ الإرسال، ولأنّ المجيءَ كان لإبراهيم عليه السلام، والبُشرى تخصُّه هو، فوجبَ أن يتعلّق بها المجيءُ مباشرةً من غير تصريحٍ بقولٍ، كما يتعلّقُ الفعلُ بغرضِه، فضلًا عن أنّ البُشرى تتضمّنُ معنى القول؛ لأنّها خبرٌ بما يسرُّ، فلا تحتاجُ إلى قولٍ قبْلَها[2].

(1) عبدالعزيز عتيق، علم البيان، ص: 171.
(2) الرّاغب، المفردات: (بشر).

دلالةُ تقديمِ البُشرى على الإهلاك:

قُدِّمتِ البُشرى على الإهلاك في الآية؛ للإشارة إلى أنّ الرّحمةَ تسبقُ الغضبَ، وأنّ الأصلَ في أعمال الرُّسل: أنْ يُبشّروا ولا يُنفّروا إلّا بحقّه[1].

لطيفةُ الجمعِ بين البُشرى والإهلاك:

قليلُ الذُّرّيّةِ المُبشَّر بها خيرٌ من كثيرٍ من المُهْلَكين

الجمعُ بين البُشرى والإهلاك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾ كالجمعِ بين الإحياء والإفناءِ، ففيه إشارةٌ إلى استبدالِ المُجرمين بالصّالحين، وإزاحةِ المؤمنين للظّالمين، فكأنّهم حين جاؤوه ببُشرى الغلام، وإهلاكِ قومِ لوط، كان في ذلك إيذانٌ بسُنّةِ الاستبدال، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد: 38]، فأزاح قومَ لوطٍ بتوليتهم، وجعل ذريّتَه الطيّبةَ محلَّهم[2]، مع الإيماء إلى أنَّ قليلَ الذريّة المبشَّر بها خيرٌ من كثرةِ القوم المُهلَكين، فالعبرةُ بطيبِ البَشر لا بكثرة العددِ، وفي جمعِ البُشرى مع الإهلاك شبيهُ الطِّباقِ.

نكتةُ استعمالِ اسم الفاعلِ دون الفعل:

تعريفُ الذّات وبيانُ الحدث وتعيينُ الزّمن من بديعِ الاستعمال

آثر النَّظمُ الكريم التّعبيرَ باسم الفاعل ﴿مُهۡلِكُوٓاْ﴾، ولم يقل: (إنّا نهلك أهل هذه القرية) بالفعليّة، وأضافه (للمُهلَكين)؛ زيادةً في تحقيق الوصف وتأكيدِه، باستعمال اسم الفاعلِ الدّالِّ على الحدث والحدوث والذّات، بما لا يدع مجالًا للرّيبة في إمضاء ذلك وإنفاذِه، وفيه إشارة إلى أنّ بناء اسم الفاعل يصحّ الوصفُ به قبل تلبّس الفاعل بالصّفة، فقولُهم: ﴿مُهۡلِكُوٓاْ﴾ أي: باعتبار ما سيكون، ولم يكونوا كذلك وقتَ خطابهم لإبراهيمَ ﵇.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 51.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 51.

بلاغةُ المجاز العقليّ:

الملائكةُ جُنْدُ الله وعلى أيديهم تجري سنَّة الله

إسنادُ لفظ الإهلاك إلى الرّسُلِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾ إسنادُ الفعل إلى غير فاعله الحقيقيّ؛ لأنّ فاعلَ الإهلاك حقيقةً هو اللّه سبحانه، ولكن لمّا كانتِ الملائكةُ هي وسيلةُ الإنفاذ أسندَ وصفَ الفاعليّة إليهم في قوله: ﴿مُهۡلِكُوٓاْ﴾[1].

نوعُ الإضافة ودلالتُها:

أمرُ الله تعالى الموعودُ كالنّافذ في إفادة التَّحقيق

أُضيف اسمُ الفاعل لمعموله في قوله تعالى: ﴿مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ وهي إضافةٌ لفظيّةٌ غيرُ محضة لم تُفد تخصيصًا أو تعريفًا، وقد دلّت على الاستقبال، والتّخفيفُ حاصلٌ بحذف نون الجمع السّالم في: (مهلِكون)[2]، وجوَّز بعضُهم اعتبارَ الإضافة معنويةً محضة؛ لتنزيل ذلك الخبَر منزلةَ الماضي لقصد التّحقيق والمبالغة[3]، وهو غيرُ جارٍ على سَنن النُّحاة، إلّا أنَّه متلائم مع سَنن البيان؛ فإنَّ أمر اللّه تعالى الموعودَ كالنّافذ.

فائدةُ استعمالِ اسمِ الإشارة للقريب:

سَوْقُ الإشارة للإشعار بالذّمّ والإشارة إلى القُرب

استعمل النّظمُ الكريم اسمَ الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾، فلم يقل: (مهلكو أهلِ القرية) بل أضاف الأهلَ لاسم الإشارة، لا للقرية، وجعل القرية بدلًا منه، فقال: ﴿أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ بإقحام الإشارة، تحديدًا للمقصود، وزيادةً في التّعيين، ودفعًا لاحتمال أن يَلتبِس السّامعُ أو المخاطَب في تعيينها، والمراد: قرية سَدوم، وهي أكبر قرى قوم لوطٍ وفيها نشأت فاحِشَتُهم[4]، وفي الإشارة باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾ إشارةٌ إلى أنّها كانت قريبة من محلّ إبراهيم عليه السلام[5].

---

(1) القصّاب، النّكت الدّالة على البيان: 1/ 128.
(2) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 3/ 131.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 359.
(4) درويش، إعراب القرآن: 7/ 428.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 359.

دلالةُ تعليلِ الإهلاك دون البشرى:

لا عِقابَ إلّا عَلى ذَنْبٍ يَقْتَضيهِ العدلُ

سيقتِ البشرى من غير تعليلٍ وقيد، وسيق الإهلاكُ بالتّعليل ببيان ظلم المعذَّبين؛ ليدلّ على أنّ اللّه سبحانه يَمنحُ الرّحمة من غير شرط ولا استحقاقٍ، ولا يُعاقِبُ إلّا بسببٍ وشرطٍ جنَى به العبدُ على نفسِه[1]؛ ففيه إقناعُ العقل.

بلاغةُ فصلِ جملة التّعليل:

شهادةُ اللهِ بظلم العبيد تهديدٌ وإنذارٌ ووعيد

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ للإهلاك الواقع على قوم لوطٍ عليه السلام، وقصِد به إيناسُ إبراهيم عليه السلام لقَبول هذا الخبر المحزن، ولأنَّ العدل يقتضي أن لا يكون العقابُ إلّا على ذنب يقتضيه؛ فكان إظهارُ علَّة الإهلاك مع العلم به بيانًا شافيًا لحلم إبراهيم عليه السلام بهم، وفصلتْ لإغناء حرف التّوكيد في الرّبْط عن العاطف، ويصحّ أن يكون التّذييلُ من كلام الملائكة أو من كلام اللّه سبحانه[2].

فائدةُ التّوكيد:

تأكيدُ الصّادق كلامَه إلزامٌ للمُخاطَبِ باعتناق اليقينِ

أكِّد الكلامُ في قوله: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا﴾ اعتناءً بشأن الخبر وتحقيقًا لمضمونِه؛ دفعًا لِما قد يتوهّمُه المُخاطَب من إمكانيَّة العفْو، أوِ احتماليّةِ الإرجاء والإمهال، فأخبر بما يُفيد القطعَ واليقين[3].

نكتةُ الإظهار في مقام الإضمار:

بيانُ عللِ أفعالِ الحقِّ برهانٌ على قوّته ودليلٌ على مُكنته

آثر النَّظمُ الكريم إظهارَ لفظ الأهل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾، ومقتضى الظّاهر أن يُقال: (إنّا مهلكو أهل هذه القرية إنّهم كانوا ظالمين) لدلالة ﴿أَهۡلِ﴾ عليه، ولكونه أوجزَ وأخصر؛ وذلك لإظهار شناعة ظلم أهل هذه القرية،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 51.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 193، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 38، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 242.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 359.

وأنَّ علَّة الإهلاك هم أهلُ القرية؛ تنصيصًا على اتّفاقهم على الفساد، وأنّ الظّلم الذي اتّصفوا به مُطَّرِدٌ فيهم جميعًا، مع ما في إعادة اللّفظ من إجراء الظّلم على ذواتهم وإرادةِ ذِكْرهم بالذمّ والتّقبيح، وفيه إشارةٌ منهم إلى أنّ المراد من أهل القرية مَن نشأ فيها، فلا يتناول لوطًا عليه السلام، بدليل قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ [النمل: 56]، ويكون قولُ إبراهيم بعده: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ أراد منه التَّنصيصَ على حاله ليطمئنّ قلبُه، لكمال شفقته عليه[1].

علّةُ مجيءِ جملةِ التَّذييل تعليلًا:

تعليلُ الأفعال بيانٌ كاشفٌ لا تسويغٌ راجف

آثر النّظمُ الكريم الإتيانَ بجملة التَّعليل ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾، دون أن يقول: (وهم ظالمون)؛ كما جاء في قصّة نوح عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14]، وذلك أنَّ قائل المقولة في هذه الآية هم الملائكةُ، وقد قيلت قبل بدأ الإهلاك، خطابًا لإبراهيم عليه السلام، فحسُنَ التَّعليل في جملة الخبر، بينما في قصّة نوح عليه السلام فالقائل هو اللّه تعالى، وقد قيل القول أثناء الإهلاك، فاقتضى أنْ يُشير إلى أنّهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم، وعِلمُ ذلك موكولٌ إلى اللّه، فمرجِع الحكم عليهم وقت إلحاق العذاب عائدٌ إلى اللّه، ولذا حسُنَ مجيء التّركيب هنا على هذا النّحو[2].

فائدةُ المؤكّدات في جملة الفاصلة:

حشدُ المؤكّداتِ تحقيقٌ لمسمّى الظّلم

تلاقتِ المُؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ بمؤكِّداتٍ عدّةٍ؛ بتصدير الجملة بحرف التّأكيد ﴿إِنَّ﴾، وبالكون الماضي الواقع خبرًا لإنّ، فجملة: ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ هي الخبر، وبمجيء الوصفِ على صيغة اسم الفاعل ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ الواقع خبرًا للكون الماضي، وفائدةُ هذه المؤكّدات هي تحقيقُ نسبة الظلم لأهل

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 359.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 51.

القرية، مع توكيد عراقتهم فيه وتمكّنِهم منه، مع التّنبيه بالكون الماضي إلى إصرارهم على الظّلم فلا يُرجَى منهم أوْبٌ ولا تَوْب[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفرح والبُشرى:

الـفـرحُ واقـعٌ، والـبُـشـرى متوقَّعَة

البشرى هي سببُ الفرح، وهي خبرٌ بما يُفرِح[2]، وتتعلّق بالاستقبال، والفرح هو الهيئةُ النّفسيّة التي تغمر الشّعور بإحساس السّرور، فالفرح هو الحالةُ الشّعوريّة ذاتُها، وهذه الحالة قد تحصلُ من جهة سماعِ الخبَر بالبُشرى التي تحصل مستقبَلًا، وقد يحصل من جهة مُلابسةِ سبب المسرّة في الحال، أو تحصل من جهة الماضي، باستحضار الذّكريات الحسنةِ، وعليه: فالفرحُ هو انشراحُ الصّدر باللذّة[3]، وقد يقع هذا بسببٍ مضى، أو سببٍ عاجل، أو سببٍ آتٍ كالبشرى، فالبُشرى هي سببٌ خاصّ من أسباب الفرح العامّة، والفرح هو أثرُها ومُسَبَّبٌ عنها، ولذا عبّر بالبشرى في الآية؛ لأنّها خبَرٌ يُجاء بإبلاغه، ولأنّها متوقَّعةٌ، وأمّا الفرح فلا يُجاء به؛ لأنّه ينشأ في الشّعور، فيُجاء بأسبابه، لا به.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 20/ 255.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر)، وصافي، الجدول: 1/ 215.

(3) الرّاغب، المفردات: (فرح).

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ [العنكبوت: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إظهارُ رحمة الرُّسل ليقع التَّأسّي والاقتداء

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة ما سمعه إبراهيمُ عليه السلام من قولِ الملائكة في إهلاك قرية لوطٍ عليه السلام؛ ناسب بيانُ موقفه ممّا سمع، إذ قال لهم على سبيل الإشفاق: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ﴾ استعلامًا منه عن حاله، وتنبيهًا على جلالِه، وإلفاتًا لهم بشدّة اهتمامه به؛ ليَعلم ما يقولون في حقّه؛ لأنّ الحال جِدٌّ، لا تحتمل التّلويحَ، فصرّح لهم ليطمئنّ قلبُه[1].

والحاصل: أنّ سوقَ الإخبار للتَّذْكيرِ بِسُنَّةِ اللَّهِ مَعَ رُسُلِهِ مِنَ الإنْجاءِ مِنَ العَذابِ الَّذي يَحِلُّ بِأقْوامِهِمْ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: يدلُّ أصلُ (غبر) على دلالتين: الأولى: البقاء، والأخرى: لونٌ من الألوان[2]، والغابِر: من الأضداد، يُراد به الباقي، ويُراد به الماضي[3]، والجمع بينهما: أنّ الغابِر هو الباقي الذي مَضى عمّنْ كانوا معه، ويكأنَّه حين بَقيَ صار ماضيًا فائتًا بالنّسبة لمن كانوا معه، فصار نسيًا منسيًّا، والمرادُ به هنا: الباقون في الهلاك الماضون عنكم.

المَعنى الإجْماليُّ:

الإشفاقُ الخليليُّ على المرسلين لا يستلزم العفوَ عن الظّالمين

تُبيِّن الآية إشفاقَ إبراهيم على لوطٍ عليه السلام؛ ليُعلم حالُه للملائكة بأنَّه ليس من الظالمين لأنفسهم، بل هو من رُسل الله وأهلِ الإيمان به والطّاعة له، فأجاب الرّسلُ: نحن أعلم منك بمن فيها منَ الكافرين،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 51، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 429.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غبر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غبر).

وبأنّ لوطًا ليس منهم[1]، فاطمئنّ يا إبراهيم؛ فإنّ اللّه تعالى قد أمرنا أن ننجّي لوطًا، وأن ننجّي معه من الهلاك أهلَه المؤمنين، إلّا امرأتَه فستبقى مع المهلَكين؛ لأنّها منهم؛ بسبب خيانتها للوطٍ ﷺ، حيث كانت تُقِرُّ جرائمَ قومِها، ولا تعملُ على إزالتها وإنكارِها، كما هو شأنُ الزّوجات الصّالحات[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصل الآية عما قبلها:

إيثارُ الوصلِ المعنويّ على اللفظيّ لوجود ما يقتضي

جملة: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ وقع جوابًا لسؤالٍ مقدّرٍ نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: بماذا ردّ عليهم إبراهيمُ ﷺ بعد إخباره بالبشرى والإهلاك؟ فأجيب: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ﴾، والاستئنافُ البيانيُّ من دواعي الفصل، وله مع ما قبله شبهُ كمال اتّصال، وعِلّة المنع من العطف في الاستئناف البيانيّ كونُ الجملة كالمتّصلة بما قبلها لاقتضاء ما قبلها السّؤالَ، أو تنزيلَه منزلةَ السّؤال، والجواب يُفصَل عنِ السّؤال في الواصل اللّفظيّ؛ لِما بينهما منَ الوصل المعنويّ الذي أغنَى عنِ الرّبط بالعاطف، وإنّما كان ما بينهما شبهَ كمال اتّصال؛ لأنّ السّؤال والجواب إنْ نُظِر إلى معنيَيْهما فبينهما اتّصالٌ، وإن نظر إلى لفظَيْهما فبينهما انقطاع؛ لكون السّؤال إنشاءً، والجواب خبرًا، فهو اتّصالٌ مشوبٌ بانقطاع، فنتج عنه شبهُ كمال اتّصال، ولم يكن شبهَ كمال انقطاع؛ لكون العِلّة المعنويّة غالبةً على العِلّة اللّفظيّة، فترجّح اعتبارُ الاتّصال؛ ولأنّ السؤال وإن كان إنشاءً وليس خبرا؛ إلّا أنّه مشوبٌ برائحة الخبر؛ لأنّ معناه ثبوتُ جهالة المُستفهِم، وتقرير عدم عِلْمِه[3].

---

(1) المراغي، تفسير القرآن: 20/ 137.

(2) طنطاوي، الوسيط: 11/ 33.

(3) الدّسوقي، حاشية الدّسوقي على مختصر المعاني: 2/ 504.

تأكيدُ الوصيّةِ بزيادة القُرب

فائدةُ توكيدِ صدرِ الجملة:

صُدّر مقولُ القول بحرف التّوكيد في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ﴾ تنبيهًا على الاهتمام بمضمون القول، ومبالغةً في الإلفاتِ إليه، وتشديدًا على المُخاطَب في زيادة الاعتبار والاعتناءِ بالمقول[1].

نكتةُ تقديمِ الجارّ والمجرور:

قُدّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ﴾ على ذكر المسنَد إليه وهو ﴿لُوطًاۚ﴾؛ لأنَّ الإهلاك واقعٌ على القريةِ، فنكتة التّقديم التّخصيصُ بغرض التّنبيه على خطورة الأمر[2].

الأنبياءُ وقايةٌ لأقوامِهم من الإهلاك ما لم يُسرفِ الأقوامُ

نكتةُ ذكرِ لوط عليه السلام مع العلم بنجاته:

جاء ذكرُ لوطٍ عليه السلام على لسان إبراهيم إمّا لكونه محلَّ الاستشفاع عند إبراهيم عليه السلام؛ فكأنّه يقول لهم: إنّ فيهم لوطًا، فليكن وقايةً لقومه من نزول العذاب بهم، ويؤيّدُه قولُه تعالى عن إبراهيم: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٞ ٧٥﴾ [هود: 74 - 75][3]، وعليه: فيكون الخوف على القوم، لا على لوطٍ عليه السلام؛ لأنّه لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يخفى على إبراهيم عليه السلام - وهو من هو - أنّ الله يُنجّي لوطًا، فلا خوفَ عليه، فتنجيةُ الأنبياء سُنّةٌ إلهيّة لا تخفى على مثل إبراهيم عليه السلام حتّى يخشى الهلاكَ على لوط عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس: 103] فهذه سنّةٌ ثابتة لا تفوت أحدًا في مقام إبراهيم الخليل عليه السلام، فكان ذكرُ لوط لأجل قومه، لا لأجل لوط.

وإمّا للاستكشاف عن منتهى حال لوطٍ عليه السلام حين يقع الهلاك؛ كأنّه قيل: إذا وقع الهلاك على القوم الظّالمين، ففيهم لوطٌ حينئذ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 429، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 38.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 243.

(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 192، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/ 376، وابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التنزيل: 1/ 375، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 123.

وهو من أهل النّجاة فما يُفعَل به؟ فأراد أن يعلم هل يبقى في القرية عند إهلاكهم، أو يخرج منها ثمّ يهلكون، ولا يخفى أنّ هذا شيءٌ منفكٌّ عن تسليمه بنجاته وعرفانِه بها(1).

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

التّصريحُ بالأفضليّة في مقام الرّعايةِ والمسؤوليّة

جملة: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾ استئنافٌ بيانيّ، جاء ردًّا من الملائكة على إبراهيم بما يطمئنه ويزيل خشيته على لوط عليه السلام، وهو تسليمٌ منهم بتعريضه وإلماحِه إلى استحقاق لوطٍ عليه السلام في النّجاة، مع إلفاتِهم له بأنّهم غيرُ غافلين عن ذلك(2).

فائدةُ تقديمِ المسنَد إليه:

علمُ الغيبِ تختصُّ به الملائكةُ عن عموم البشر

قُدِّم ضميرُ الفصل ﴿نَحۡنُ﴾ وهو مسندٌ إليه على المسنَد في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾ الدّالِّ على جماعة المتكلّمين منَ الملائكة، في كونهم يُخبرون عن ذواتهم بأفضليّتهم في العلم عن شأن لوط عليه السلام وقومِه على من سواهم، وفائدةُ الإخبار بضمير الفصل التّصريحُ بالاختصاص، أي هم أعلمُ من غيرهم جميعًا بمن فيهم إبراهيمُ عليه السلام، ومجيء ﴿أَعۡلَمُ﴾ بصيغة التفضيل المشوبِ بروح الفعل قوّى معنى الاختصاص.

دلالةُ صيغةِ أفعل التفضيل:

الأفضليّةُ في الجزئيّات ليست مطّردةً في الكليّات

أفعلُ التّفضيل في قوله تعالى: ﴿أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾ على بابه من قصْدِ المفاضلة بين مُشتركين في أصل الوصف، وهو العلم، مع زيادة أحدِ الأطراف على الآخر في مقدار الوصف، وفي (أفعل) هنا شهادةٌ لإبراهيم عليه السلام بالعِلم والاستئهال؛ لأنَّ المفضولَ مشهودٌ له برُتْبَتِه المُعتبرةِ في الصّفة وإن زاد نظيرُه عليه فيها، فالتّفضيلُ حاصلٌ في النّفل لا في الأصل.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 359.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 243.

بلاغةُ العدولِ عنِ الخصوص إلى العموم:

العمومُ برهانُ الإحاطةِ ودليلُ القوّةِ والمتانةِ

عدلَ النَّظمُ الكريم عن ذكر لوطٍ عليه السلام إلى ذكر العموم في قوله: ﴿أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾، فلم يقل: (نحن أعلم بلوط) وهو مقتضى الظاهر إذ تقدَّم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾، وذلك لإفادةِ أنَّهم أعلمُ منه بعموم من فيها من المستحقّين للإنجاء، والمستحقّين للإهلاك، فليس الأمرُ مقتصرًا على لوطٍ عليه السلام، فجاء جوابُهم بليغًا لشموله الإجابةَ عن سؤاله وإفادةً زائدةً ترجمت علمهم المحيطَ بحال تلك القرية، للدّلالة على زيادة علمِهم وأفضليّتِه على عِلم ما سواهم في هذا الشأن خاصّةً، وما أشبهَ علوَّ علمِهم بعلوِّ علم الخضرِ على علم موسى عليه السلام(1).

دلالةُ استعمالِ الاسم الموصول:

العِلمُ الصّحيحُ فرقانٌ بين أولياء الله وأعدائه

الاسمُ الموصول (من) في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن﴾ أفاد العمومَ العرفيَّ بحسب مناطها المقصود، فتشمل المستحقّين للإنجاء، والمستحقّين للإهلاك في أهلِ القرية كافّةً، والتّعبيرُ بالموصول العامّ المشترك دون الخاصّ؛ للدّلالة على عموم المكلّفين رجالًا ونساءً ممّن سينجو أو يهلكُ، ولا يخفى أنّه اختار (مَن) دون (ما)؛ لأنَّ المقصود به الذّواتُ العاقلةُ المُكلّفةُ بخطاب الوحي.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

الباءُ للتّعديةِ وهي مفيدةٌ معنى الاختصاصِ ضِمنًا

الباء في قوله تعالى: ﴿أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾ للتّعدية ومعنى الإلصاقِ لا يفارقها، وأفعلُ في العِلم يتعدّى بالباء إذا كان المراد الكيفيّةَ، ويتعدّى بحرف (مِنْ) إذا كان المراد المُطاوَعةَ مع المُقارِن، كمن يقول: أعلمُ من محمّد، وأعلم بكذا من كذا، أي: بالكيفيّة والحيثيّة؛ وهنا لم يذكر المقارِن لظهوره وعدمِ خفائه، وهو إبراهيم عليه السلام أو كلُّ سامِعٍ، أي: أعلمُ بحال قاطنيها منك وممّن سواك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 243.

دلالةُ استعمالِ حرف الظّرفية:

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ حرفِ الظَّرفية في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾؛ ليدلَّ بذلك على من هو كائنٌ في القرية، فيشمل أهلَها وغيرَ أهلها الذين هم فيها مستقرّون، وفيها إيماءٌ إلى استحقاق العذابِ لمن مكث فيها وهو راضٍ عمّا فيها من الظّلم والفسقِ العميم، وإشارةٌ إلى نجاةِ لوطٍ عليه السلام ومن معه، فهو بين ظهرانيهم، لكنّه لم يتّصِف بصفتِهم(1).

المُصلِحُ بين الفاسدين ماكثٌ فيهم لا مُنتمٍ لهم

دلالةُ التّوكيد وغرضُه:

أكِّد الفعلُ ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ بلام القسم ونون التّوكيد الثّقيلةِ؛ لأنّه وقع جوابًا على استفسارٍ مؤكَّد، وهو قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ فأكّد قوْلَه بإنّ وبتقديم الجارِّ والمجرور عنايةً وحصرًا، فناسب أن يكون جوابُهم عليه مؤكَّدًا كذلك، ولأنّ قول إبراهيم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ كان على سبيل التّفجّع والتّحزّن على لوطٍ عليه السلام، فأكّدوا له إنجاءَهم له زيادةً في تطمينه، أو إشارةً إلى مزيد اعتنائهم بشأن لوطٍ عليه السلام، أو أنّهم نزّلوا إبراهيم عليه السلام منزلةَ من ينكر تنجيتَه؛ لِما شاهدوه منه من زيادة الحرصِ والمبالغةِ في الإشفاق(2).

الأسلوبُ القرآنيُّ متناسبٌ مع الألفاظ منسابٌ مع المعاني

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الإنجاء:

جاء استعمالُ مفردةِ الإنجاء في قوله تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ للدّلالة على كمال الإخراجِ من بينهم، فأصلُ الإنجاء يدلّ على خُلوص خُلوص الشّيء، أو نفاذِه مرتفعًا من بين ما يحيط به أو يجاوِرُه، وأصلُ ذلك من النَّجْوَة، والنَّجاة: المكانُ المُرتفِعِ المنفصل بارتفاعه عمّا حوله، فهو تمامُ انفصال الشّيء ممّا حوله ببينونَتِه وتمايُزه(3)، مع ما في اللّفظِ من بديع البشارة والعناية والرّعاية.

تخليصُ العبادِ من مهلكة السّوء بشارةٌ في الاعتناء والاجتباءِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 243.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 359.

(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نجو).

توكيـد المعـاني تتعـدّد ألفاظُه وتتنوّعُ قراءاتُه

توجيهُ القراءات القرآنيّة في ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ وبلاغتها:

في قوله تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ قراءتان؛ فقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بفتح النّون وتضعيف الجيم؛ للدَّلالة على مبالغتهم في إنجائه؛ لأنه مرّة بعد مرة، ففيه زيادة تطمينٍ له، وقرأ الباقون ﴿لَنُنجِيَنَّهُۥ﴾ بسكون النّون وتخفيف الجيم[1]، على الأصل بالدّلالة على الإنجاء، اعتمادًا على التّوكيد في صدر الكلام، وقيل هما لغتان بمعنًى[2]، ومن خفّف واحدًا وشدَّد الآخر جمع بين اللّغتين؛ ليعلم أنهما جائزتان.

بلاغةُ الجواب تكون في المطلوب ومُستتبعاتِه

بلاغةُ عطف لفظ (أهل) على الضمير:

عُطف لفظُ الأهل على الضّمير العائد على لوطٍ ﵇ في قوله تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾؛ لتقرير مزيد عِلمِهم وتأكيد أفضليتِهم وتحقيقِ ما يترتَّب على ذلك في قوله: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾، ولمّا كان سؤال إبراهيم ﵇ عن لوطٍ وحده، جاء الجواب بأبلغ ممّا سأل؛ فأجابوه بإنجاء لوط وأهلِه المؤمنين، فكان في جوابهم كمالُ استقصاءٍ وإحاطة.

نسبةُ العُموم والـخُصـوصِ المُطلق بين الآل والأهل

فائدةُ استعمال لفظِ (أهل) دون (آل):

آثر النّظمُ الكريم لفظَ (أهل) على (آل) في قوله تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾؛ لأنّ الأهل أعمُّ من الآل فيدخل فيه أتباعه المؤمنون وقرابتُه أو جماعتُه الخاصّة، كبنتَيه؛ فعبّر بالأهل ليتناول جميعَ من آمن به سواء كانوا من خصوص قرابته أم من عموم أتباعه[3].

دلالةُ الاستثناء ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾:

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ دلَّ على

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 259.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 433، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 360.

(3) الرّاغب، المفردات: (آل).

التخصيص بعدم الإنجاء من الحكم العامّ، فالإنجاء لعموم الأهل، والاستثناءُ إخراج من لا يستحقُّ ذلك.

فائدةُ إيثار الوصْفِ على الاسم العلَم:

الإنجاءُ بصلاحِ الإنسانِ لا بصلاحِ من يلتصقُ به

جاء التّعبير عن زوج لوط ﵇ بوصفها ﴿ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ لا باسمها، والإضافة إضافةُ تعريفٍ، وذلك جريٌ على عادة القرآن في عدم الإفصاح عن شخصيّات النّساء سترًا لهنّ، ولعدم الفائدة من ذكر الاسم العلَم، مع الاكتفاء في التّعريف بهنّ في إضافتهنّ إلى أزواجهنّ، وهي عادةٌ عربيّةٌ كذلك من أدبيّات العرب في القديم والحديث، أنّهم ينسبون المرأة إلى زوجها أو إلى أبيها، وهذا من كمال الحشمةِ وتمامِ التّعفّفِ، ولبيانِ أنَّ العمل الصّالح هو الذي يُنجي صاحبَه لا انتسابَ صاحبه إلى الصّالحين.

بلاغةُ الاستعارة في الأفعال:

الكونُ الماضي دليلٌ على تحقّق الجناية وعدمِ حصول التّوبة

فعلُ ﴿كَانَتۡ﴾ في قوله: ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ مستعملٌ في معنى (تكون) على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، شُبّه الكونُ في المستقبل بالكون الماضي في تحقّق الوقوع، فذُكر لفظُ المشبّه به، وهو الكون الماضي، وأريد المشبّهُ وهو المستقبل، مثل قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]؛ إلّا أن يُقال: إنّ الكون الماضي هو باعتبار ثبوته الكِتابيّ في اللّوح المحفوظ والأزليّ في علم اللّه، فحيئنذٍ فالماضي على حقيقته، ولا استعارةَ، كما قُصِدَ الكون التّقديري في علم اللّه في آية الحجر ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠﴾ [النمل: 57][1]، وعلى القول بالحقيقة أوِ الاستعارة فإنَّ النتيجة واحدةٌ وهي تحقّقُ وقوع الإهلاك عليها.

ويصحّ أن يكون التّعبير بالكون الماضي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ لتحقيق ثبوت نِسبة الوصف للموصوف،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 244.

وهي ثبوتُ النّسبة بين خبرها واسمها، فهي مسلوبةُ الزّمن، كأنّه قيل: امرأته تحقّق وصفُها أنّها الغابرين(1).

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُه:

حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ لبيان الجنس، أي: قدّر أنّها متصفةٌ بهذا الوصف.

معنى التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

التّعريف إمّا للجنس أو العهد

التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ للعهد إذا كان ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ بمعنى الباقين بعد النّاجين، أو للجنس إذا كان ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ بمعنى المُهلكين، فكأنّه جعلهم مُلْتَحِقين بهذا الجنس، و(أل) الدّاخلةُ على الوصف المشتقّ تفيد الكمالَ في الوصف، الدّالِّ على استغراق الموصوفين لخصائص الوصف وماهيتِه، أي: البالغين الغايةَ في الغُبور والثّبور.

نكتةُ ذكرِ الجمع المذكّرِ دون المفرد المؤنث:

سنَّة الله تعالى ماضيةٌ في العباد مُتحقّقة في جميع الأزمان

جاء التّعبير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ دون أن يقول: (إنها كانت غابرة) للدّلالة على التّغليب في تذكير الغابرين وجمعِه، وأنّها جزءٌ من أولئك الغابرين الذين كان لهم من الفساد والمعصية ما كان، وأنَّه سيجري عليها سنّة اللّه تعالى في تعذيب المفسدين، مع ما في التّعبير بجمع المذكّر السّالم من تقريب اللّفظ من الفعليّة وإرادة الحدث، كأنّه قيل: (يغبُرون)(2).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العلمُ والمعرفةُ:

العِلم يُنسَب إلى الله، والمعرفة تُنسَبُ للمخلوق

العِلم هو إدراك الشّيء بحقيقته ودليله، مِنَ العلامة: السِّمَة التي تميّز الشّيء، أو مِنَ العَلَم: الدّليل(3)، والمعرفة: هي إدراك الشّيء

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 158.
(2) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 129.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (علم).

بتفكّرٍ وتدبّرٍ لأثَره[1]، فالعِلم إدراكٌ لذات الشّيء وإدراكٌ لأثره الذي هو دليلٌ عليه، ولذا فهو إحاطةٌ بالجوهر والعرض، وأمّا المعرفةُ فتتعلّق بالأثر الظّاهر للشّيء، لا بحقيقة الشّيء، ومن هذه المادّة: عُرْفُ الدّيك: وهو عُضوُه الظّاهرُ المعروف البارز في رأسه، ولذا فأصل المعرفة: تمييزٌ يقوم على ملامحَ ظاهرةٍ للأشياء، أخذًا من استعمال التّركيب في الملامح الظّاهرة التي تميّز الشّيء عن غيره، ولذا تعلّقت المعرفة في أصل معناها بالمفردات لا بالكليّات، ويسبقُها جهل، وأمّا العلم فيتعلّق بهما[2].

ويظهر الفرق الدّقيقُ بينهما: في أنّ اللّه سبحانه لا يوصف بالمعرفة، فلا يُقال: اللّه عارفٌ بكذا؛ لأنّ المعرفة تُستعمل في العلم القاصر الظّاهر الذي يُتوصَّل إليه بالتّفكّر والتّدبّر[3]، والتّفكّر والتّدبّر يستلزمان جهلًا سابقًا عليهما، ويستلزمان عُسْرًا في الإدراك ومحاولةً في التّصوّر، فضلًا عن كون المعرفة تبحث في الأثر الظّاهر لتنفُذ إلى ما وراءه، واللّه تعالى منزّه عن ذلك سبحانه! والفرق الثّاني بينهما يظهر في أنّ الإنسان لا يقال عنه: فلانٌ عَلِمَ اللّهَ، بل يقال: فلانٌ عرف اللّه، ومنه: العارف باللّه؛ لأنّ معرفة البشر باللّه هي حاصلةٌ بتدبّر آثاره في خلقه، دون إدراك ذاته[4]، فكانت معرفةً، لا عِلْمًا، وقال في الآية: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾؛ لأنّه قولٌ صادرٌ عن الملائكة في حقّ لوطٍ عليه السلام وقومِه، وقد جاءوا لإنفاذ أمر اللّه فيهما بإنجاء لوط، وإهلاكِ قومه، فلا بدّ أن يكون ذلك على عِلمٍ منهم بحقيقة هؤلاء وعلى كشْفٍ تامٍّ بأحوالهم جميعِها، ولذا عبّروا بالعِلم؛ لأنّهم أرادوا عِلمَ الحقائق، لا عِلمَ الظّواهر، وهو الثّابتُ القطعيّ بوحي اللّه لهم وإعلامِه إيّاهم، وليس مستنبَطًا أو متوسَّلًا إليه بالاجتهاد والتّفكّر.

الغابرُ والهالكُ:

الغابِرُ: وصفٌ يُلْحَظ فيه ثلاثة أمور: البقاء، والمُضيّ، ولونُ الاغبرار، فالغابِر هو الباقي في المكان بعد فواتِ من كانوا معه، وهو الماضي في المكان بالنّسبة لمن كانوا معه، وبالنّسبة له بعدهم، فهو متروكٌ منهم فيه، فمَضَى عنهم ومَضَوا عنه، وهو أيضًا المُتغيّر لونُه بسبب انفضاضِ الغُبار عليه، ولمّا كان الهالكُ باقيًا بعد النّاجين، ماضيًا عنهم وسابِقًا إلى موضِع

(1) الرّاغب، المفردات: (عرف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عرف).
(3) الرّاغب، المفردات: (عرف).
(4) الرّاغب، المفردات: (عرف).

بين الغابر والهالك عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ

هَلَكَتِه، وكان لا بُدّ - بسبب طول مُكثِه وبسببِ بقائه في محلّ الفناء والهلاك - أنْ تلحقه الغَبَرة، ويتغيّر لونُه وجِلده بِغبار الأرض الذي أصابه في معتَرَك الهلاك - قيل له - أي: الهالِك - لأجل هذه العِلل: غابِرًا، وهو من المُبالغات في تصوير تحقّقه بالهلكة، ويكأنّ تسميتَه بالغابِر تنبيهٌ على كونه استوفى صفاتِ الهالكين وآثارَ الإهلاك، ولذا عبّر هنا عن الهالكين بالغابرين؛ ليجمعَ إلى الإخبار بهلاكهم الإخبارَ بأنّهم من المقبوحين الذين تعتّقوا في غَبَرة الهلاك، وغابوا في الغَبْراء من طولِ مُكثِهم وامتدادِ الزّمان عليهم(1).

وأمّا الهالِك فهو الذي أصابه الهلاك أو شيءٌ من أسبابه، وأصلُ (هلك) يدلّ على كسْرٍ وسقوط، والهلاك: السّقوط، والموت، والفناء، والنّفاذ.

وحقيقةُ الهلاك: زوالُ جوهرِ الشّيء وخلوُّه من حقيقته، وقد يُطلق الهلاك على العذاب والخوف والفقر؛ لأنّها أسبابُه، فهو من تسمية الشّيء بسببه - مجازٌ مرسلٌ، فالهالك هو الموصوف بملابسة حالٍ من أحوال الهلاك السّابقة، وعليه: فالهالك أعمُّ من الغابر؛ لأنّ الغابر متّصفٌ بنوعٍ من الهلاك مخصوصٍ وهو المصاحِب لمعانٍ خارجةٍ عن نفْس الهلاك، وأيضًا ليس شرطًا أن يقع وصفُ الغابر للهالك، فقد يقال له: غابر، لا عن هلاك، بل عن مُضيٍّ أو بقاء، أو تغيّر لونِه بالغَبَرة، كما يقال: فلانٌ الغابِر في مَنصِبِه، أي: الباقي الذي مضى عليه زمن طويلٌ وهو فيه، وأنت تقول ذلك، وهو حيٌّ يعيش، وليس ميّتًا أو هالكا، وبهذا الاعتبار الأخير، فالغابر أعمُّ من الهالك؛ لوقوع الوصف به عن الهلاك وغيره، ومن مجموع الاعتبارات السّابقة، فبين الغابر والهالك عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ(2).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هلك).

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾ [العنكبوت: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

موقفُ رُسلِ الله واحدٌ من نزول الهلاك بالأقوام

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة قدومَ الملائكة على إبراهيم عليه السلام وحديثَه معهم بشأن إهلاك قوم لوطٍ عليه السلام، ناسب ذكرُ مجيئهم إلى لوطٍ وبيان موقفِه من نزول العذاب بعد بيان موقفِ إبراهيم عليهما السلام؛ لبيان اشتراك رُسلِ الله برحمة العباد.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِيٓءَ﴾: (سوأ) السّوء: نعتٌ لكلّ شيءٍ رديء، يقال: ساء، ويسوء: على اللّزوم والتّعدّي، والسّوء: اسمٌ جامعٌ للآفات والدّاء[1]، وكلّ ما يغمُّ الإنسانَ من الأمور الدّنيويّة، والأخرويّة، ومن الأحوال النّفسيّة، والبدنيّة، والخارجة، من فواتِ مالٍ، وجاه، وفقْدِ حميم فهو السّوء[2]، والمراد بقوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾: أي: غَشاهُ السّوء بسبب مجيء الرّسل إليه؛ خشيةً عليهم من تحرّش قومِه بهم، ولم يكن يعلم لوطٌ بعدُ أنّهم كانوا رسُلًا من الملائكة.

2) ﴿وَضَاقَ﴾: (ضيق) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى خِلافِ السَّعَةِ[3]، والضَّيّق والضّيق - بالفتح والكسر - ضدّ السّعة، وغلب استعمالُ الضَّيِّقَة في الفقر والبخل والغمّ ونحو ذلك[4]، والمكان الضّيّق: ضدّ الواسع، وضاق الصّدر: انقبض وخلا من فُسحة السّرور، والأوّل

(1) الخليل، العين: (سوأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيق).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضيق).

ضيقٌ ماديّ، والثّاني ضيقٌ معنويّ، والمراد بقوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ﴾، أي: انقبض صدره ووقع فيه التّشاؤمُ من قومه خوفًا على ضيوفه منهم.

3) ﴿ذَرْعًا﴾: (ذرع) أصلٌ يدلّ على امتدادٍ وتحرّكٍ إلى قُدّام، ثمّ ترجعُ الفروع إلى هذا الأصل، فالذّراع ذِراعُ الإنسان، معروفة، والذَّرْع: مصدر ذَرَعتُ الثّوبَ والحائطَ وغيرَه، إذا قِسْته بالذِّراع، ثم يقال: ضاق بهذا الأمرِ ذَرْعًا، إذا تكلّف أكثرَ مما يُطيق، فعَجَزَ[1]، فأصل الذّرْع: بسطُ اليدِ[2] مُمْتَدَّةً إلى قُدّام، ومعنى: ضاق ذرعًا بكذا، أي: لم يَجِدْ وُسْعًا لِمَدِّ يده وبَسْطِها إلى غرَضِه، ولذلك قيل: ضاقَ؛ لانتفاء الوسع، ثمّ استُعمِل في كلِّ ما لا طاقة للإنسان بتحصيله من الأغراض، المعنويّة والحسّيّة، وكُنّيَ به في الآية عن انقطاع الحيلة وثبوتِ الحَرجِ لعدم قُدرةِ لوطٍ عليه السلام على مُدافَعَةِ قومه فيما يتوقّعُه منهم من سوء تصرُّفِهم مع أضيافه، ولذلك قال مُعبّرًا عن هذا العجز ومُسْتَنْصِرًا: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: 80].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المَساءةُ في قلوبِ المؤمنين سببُها خوفٌ على شرعٍ أو حــزنٌ على مكروه

لمّا أن رأى لوطٌ عليه السلام الرّسلَ ضاق بهم قلبُه؛ لأنّه لم يعلم أنّهم ملائكةٌ، فخاف عليهم من فساد قومِه وتفحّشِهم؛ لا سيّما وقد جاؤوه بصورةٍ حسنة وهيئةٍ من الوسامة، فكان ضيقُ قلبه لأجْلِ اللّه سبحانه، فأخبروه بأنّهم ملائكة، وأنَّ قومه لن يَصِلوا إليهم، فلا يخافُ على أضيافه، ولا يحزنُ على نفسه، فعند ذلك سَكَنَ قلبُه، وزال ضيقُ صدرِه[3]، ثمّ أفصحوا له عن مهمّتهم، وقالوا: إنّا منجوك وأهلَك المؤمنين من العذاب الذي نُنزلُه بقومك، إلّا امرأتَه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ذرع).
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 96.

فسيُدركها العذابُ مع قومك، وستهلك مع الهالكين بسبب تواطئِها معهم[1]، ورضاها بأفعالهم القبيحة.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو وبلاغةُ استعمالها دون الفاء:

مُتابعةُ المُهمّات بلا توقّفٍ أو فُتورٍ من سِمات رُسلِ الله

تحتمل الواوُ في جملة: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ﴾ أن تكون للاستئناف النَّحويّ؛ على اعتبار أنّ الجملة شروعٌ في مضمونٍ جديدٍ وهو خطابُ الملائكة للوطٍ عليه السلام، أو أن تكون للعطفِ إمّا على جملة مجيء الرُّسل لإبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، وهو من عطف القصّة على القصّة، أو أن تكون الواو عاطفةً مدخولَها على ما تقديرُه مفهومٌ من قصّة مجيئهم لإبراهيم عليه السلام، أي: ثمّ فارق الرّسلُ إبراهيمَ، ومَضَوا إلى القرية التي فيها لوطٌ عليه السلام، ثمّ عطف خبَر وصولهم إلى لوطٍ عليه، فقال: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾، ولم يعطف بالفاء، كأن يقول: (فلمّا أنْ جاءت)؛ لإفهامِ أنّ بين المكانين مسافةً مقطوعةً، أي: بين مكان إبراهيم، ومكانِ لوط، فلم يعطف بالفاء لعدم إيهامِ التّلاصق بين المحلَّيْن[2].

فائدةُ تَكرارِ لفظ (لمّا):

يُكرّر النّظيرُ بتَكرار سببه

تكرَّر لفظُ (لمّا) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾، بعد قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾؛ لإقامة كلِّ مجيءٍ إقامةً مستقلّةً عن الآخر؛ فإنَّ وقت مجيئِهم إبراهيمَ عليه السلام يختلف عن وقت مجيئهم لوطًا عليه السلام، ومقصدُ كلِّ مجيءٍ يختلف عنِ الآخر؛ فلِلَحْظ هذه الاختلافات في الوقت والمقصد كان تَكرارُ (لمّا).

براعةُ استعمالِ حرف ﴿أَن﴾:

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾ أفاد تحقيق

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 52، وطنطاوي، الوسيط: 11/ 34.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 432.

سرعةُ المَساءة من توقّع صنيع الفاسدين فطنةُ الحكمة وحكمة الكرامة

الرّبط بين مضمون جملتي الشّرط والجزاء بعد (لمّا)، فهي لتحقيق الرّبط بين جملة مجيء الرّسل وترتُّب مساءة لوطٍ عليها، ومعنى تحقيقه في الآية؛ فهي أكدت وجود الفعلين مترتبًا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما، كأنّهما وجدا في جزءٍ واحدٍ من الزّمان، كأنّه قيل: كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث[1]، وذلك لِما يَعلَمه من عادةِ معاملة قومه مع الوافدين على قريتهم من قلّة الاحتشام وعدم مراعاة الحرمات مع الضّيوف، فلم يكن لوط عالمًا بأنَّهم ملائكة؛ لأنّهم جاؤوا في صورة رجال، فأريد هنا التّنبيه على أنَّ ما حدث به من المساءة وضيق الذّرع كان قبل أن يعلم بأنَّهم ملائكة جاؤوا لإهلاك أهل القرية، وقبل أن يقولوا: ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾[2].

توجيهُ المتشابِهِ اللّفظيّ:

سرعةُ الانتباه من شرِّ المعصية ليست كسرعة التّنبيه على وقوعِ الإهلاك

خلا قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ من ذكر (أن)، بخلاف الآية اللّاحقة فقد جاءت فيها ﴿أَن﴾؛ وذلك لأنّه لم يتّصل المقولُ بأوّل المجيء، بل كان قبله فاصِلٌ بالسّلام والضّيافة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾ [هود: 69][3]، ولم تقع (أنْ) المؤكِّدةُ في آية سورة هود؛ لأنّ في تلك السّورة تفصيلًا لسبب مساءتِه وضيّق ذرعه، وهو قوله سبحانه: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: 78] فكان التّعرّضُ لسبب المَساءة في سورة هود مُغنيًا عن تأكيد ترتُّبها على مجيئهم إليه، وعدمُ الإفصاح عن السّبب هنا في العنكبوت ناسَبَهُ تأكيدُ النِّسبة بين جملتَيِ الشّرط والجزاء بعد (لمّا) الحينيّة[4].

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 453.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 432، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 244.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 429.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 245.

فائدةُ تَكرار لفظ الرُّسل:

آثر النَّظمُ الكريم تَكرارَ مجيء لفظ الرُّسلِ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾؛ لأنَّ الرُّسُلَ جاؤوا برسالتَين، واحدةٌ لإبراهيم عليه السلام بالبشرى، والثّانيةُ للوطٍ عليه السلام بإنجائه وأهلِه وإهلاكِ قومه، فكان تَكرارُ لفظِ الرُّسل بمثابة التّنبيه على اختلاف مضمونِ الرّسالة والوظيفة التي كُلِّفوها.

ضيوفُ النّاسِ من جنس الإنسانِ، وضيوفُ الرُّسلِ ملائكةُ الرّحمن

نكتةُ استعمالِ مفردة المجيء:

جاء استعمالُ مفردةِ المجيء دون الإتيان في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا﴾؛ تحقيقًا لحضورهم عنده، فإنّ المجيء إتيانٌ مُحقَّقٌ، يُنبِئ بالعزم والقصدِ والعمدِ في إنفاذه[1].

فائدةُ إضافةِ الرُّسل إلى ضمير العظمة:

أُضيف لفظُ الرُّسل إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿رُسُلُنَا﴾ تعظيمًا لشأن الرّسل من الملائكة، فعظمتُهم من عظمةِ من أضيفوا إلى ضمير جلاله وهو المولى سبحانه، وفي الإضافة إلى ضمير العظمة إشارةٌ بديعةٌ إلى تشريف لوطٍ عليه السلام؛ لأنّ ذلك الوفدَ المُعظّم المُرسَل من الله العظيم جاء لأجله.

تعظيمُ الملائكةِ تشريفٌ لمن أُرسلوا إليه

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿سِيٓءَ﴾:

جاء استعمالُ لفظِ السّوء؛ للدّلالة على ما نزل بلوطٍ عليه السلام من المَساءة، أي: يَستقبحُه ويستشعرُ منه المهانةَ والحرجَ، فالتّعبير بمادّة المساءة؛ للإشارة إلى الفُحشِ الذي كان يتوجّسُه من قومه مع أضيافِه[2]، ولاستعمال السّوء في مضمار الفاحشة مكانٌ في القرآن، فقد وصف الله قومَ لوطٍ بذلك فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾ [الأنبياء: 74]، وفسّر سوءهم بعملِهم الخبائثَ فقال: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ

مِنِ استِكْثارات القرآن استعمالُ (السّوء) في مضمار الفاحشةِ

(1) الراغب، المفردات: (جاء).

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سوأ).

﴿مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء: 74]، وهي الفواحشُ التي تفضحُ صاحبَها وتُسيء إليه، ووصف العذابَ الحالَّ بهم بهذه المادّة فقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾ [النمل: 58]، فاجتمعت هذه المادّة في وصف انفعال لوطٍ بها خجلًا من قُبحِهم، وفي وصْفِهم ووصْفِ أعمالِهم، وفي وصف العذابِ النّازلِ عليهم، لتأكيد أنّ السّوء كان أظهرَ شيءٍ وأدلَّ شيءٍ عليهم فآذَوا به نبيَّهم حتّى استاء واغتمَّ، وأدمَنوا عليه - أي: السّوء - حتّى نُعِتوا به، واستحقّوه جزاءً عُذِّبوا به.

نكتةُ التّعبير بصيغةِ المبنيّ للمفعول:

توقعُ ظنِّ السّوء بسبب فعلِ الفاسدين

جاء التّعبير بصيغة ﴿سِيٓءَ﴾ مبنيًّا لِما لم يُسمّ فاعلُه؛ اهتمامًا بتصوير استيلاء الاستياءِ على لوطٍ عليه السلام، حتّى يتفرّغ السّامعُ لملاحظة مشاعره عليه السلام ليقف على كيفيّة الغمّ ومقدارِ السّوء الذي انتابه، هذا والفاعلُ المبهَمُ في التّركيب إمّا أن يكون قومَه المنحرفين، أو توقُّعَ حصولِ الانحراف من قومه تجاه الرُّسل، وهذا الظّنّ هو بسبب قومه، فيُرَدّ معنى الفاعل إليهم على طريقة إسناد الفعل إلى سببه الظّاهر، وهذا مندرجٌ في المجاز العقليّ، فمردُّ الظَّنِّ إلى القوم، فهم الفاعلُ على الحقيقة، والتّقديرُ: (ساء لوطًا عليه السلام قومُه الذين يصدر عنهم عملُ السّوء والفحش).

معنَى الباء ودلالتُها:

شتّانَ بين مَنْ يُساء بِكَ لِأجْلِك، ومَنْ يُساءُ بِكَ مِنْك!

الباء في قوله تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ سببيّةٌ[1]، أي: سيء لوطٌ عليه السلام بسبب حضور الأضياف، خوفًا من قومِه وخشيةً على الأضياف، فالضّمير للأضياف، والسّببيّة هنا موجَبَةُ المعنى، أي: سيء لصالحهم، وليس معناه أنّهم تسبّبوا في إلحاق المساءة به على معنى

(1) صافي، الجدول: 10/ 334.

أنّها صدرت منهم، بل هي صادرةٌ من قومه، فالمسيئون هم، وعليه: فمعنى ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي: استاء لأجلهم، لا منهم.

بلاغةُ الكناية في ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ﴾:

إذا نَفَدَتِ الحيَل لاحــتْ بــوادِرُ الأمَل

قوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ﴾ تركيبٌ جرى مجرى المَثَل السّائر في معنى العجز وعدمِ القدرة، وهو كنايةٌ عن فقْد الطّاقة في التّدبير ونفادِ الحيلة في إدارة الأمور، وأصله: ضاق ذراعُه عن أنْ يَطال به غرضَه، لِقِصَر يَدِه أو للحيلولة بينها وبين ما تتناوله.

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليَّة:

تشبيهُ حالِ العاجزِ بحالِ مَنْ قَصَّر عن بلوغِ مُبتغاه

في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ﴾ استعارةٌ تمثيليّة، حيث شبّه حالَ لوط ﵇ في عدم قدرته على تدبير شأن أضيافه وعدم ضمانه لهم في أن يعصمهم من اعتداء قومه عليهم؛ بحال من ضاق ذراعُه عن احتواء مُبتغاه، وضدّه: من رَحُبَ ذراعُه واتّسَع للإلمام بشؤونه وأغراضه[1].

دلالةُ تكرار الجارّ والمجرور:

العناية بالمعاني تستدعي الكشفَ بالمباني

كرّر الجارَّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ﴾ بعد أن قال: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾؛ ليدلّ على أنّ كلًّا من المَساءة والضّيق حصل لأجلهم على وجهٍ مخصوصٍ دون أن يكون أحدهما أشدَّ من الآخر، ولو قيل: (سيء بهم وضاق ذرعًا)؛ لتوهّم أنّه سيء بهم على وجه الخصوص، وضاق ذرعًا على وجه العموم، وهو قد سيء بهم وضاق بهم على وجه الخصوص في الأمرين.

بلاغةُ النّظم في التّمييز المحوّلِ عن الفاعل:

البيانُ بعد الإجمال تشخيصٌ للمعاني وتصويرٌ للأحوال

جاء نظمُ قوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ﴾ على ما جاء عليه دون أن يُقال: (ضاق ذرعه بمجيئهم)[2]، فانتقل الإسناد من الفاعل في

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 360.
(2) صافي، الجدول: 10/ 334.

المقدّر وهو (ذرعه) إلى الضمير المستتر العائد على لوطٍ عليه السلام، وحوِّل الفاعل إلى تمييز، أي: ضاق هو بهم ذرعًا، ونكتة التّمييز بالمحوّل عن الفاعل ﴿ذَرۡعٗاۖ﴾ الدّلالةُ على الاتّساع والشّمول والمبالغة، ففعل ﴿وَضَاقَ﴾ كان مُسندًا إلى الذّرع، فلمّا أُسند إلى لوطٍ عليه السلام شمل الضّيقُ شخصَه كلَّه على سبيل الإجمال، ثم جاء التّمييز ليُبيِّن أنَّ الضّيق كان لطاقته وذرعه وقوّته في منع وصول قومه من الأضياف، فهو من البيان والتّفصيل بعد الإجمال، وللبيان بعد الإجمال وقعٌ في النَّفس كبيرٌ، كالتّخصيص بعد العموم، بالإضافة إلى تصوير استحواذ الضّيق على ذرعه كلّه، فهو مملوءٌ ضيقًا وعجزًا، حتّى استغرق الضّيقُ الذَّرعَ كلّه(1).

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

مروءةُ الأنبياء تظهرُ في المواقفِ العصيبةِ والمشاهدِ الرّهيبة

قُدِّم الجارُّ والمجرور على التّمييز في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ﴾، فلم يقل: (وضاق ذرعًا بهم)؛ لمزيد الاعتناء بهم، وللإيذان بالحصر، وهو حصرٌ إضافيّ؛ لأنّ الضّيق باعتباره شعورًا وهيئةً نفسيّةً أوسعُ من أنْ تنضبط أسبابه بالحصر الحقيقيّ، وفيه بيانٌ لمروءة الأنبياء المُتعاظِمة وحرصِهم الشّديد على مراعاة الضّيف.

بلاغةُ العطفِ في تقدير المحذوف:

السّياقُ وتفسيرُ القرآن بالقرآن من موارد تقديرِ المحذوفات

جملة: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ معطوفةٌ على مُقدّر، أي: (قالوا إنّا رسل ربّك وقالوا لا تخف ولا تحزن)، وسياقُ الآيات وما جاء في سورة هود يُعين على هذا التّقدير، فقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: 81] هو في معنى المقدَّر آنفًا؛ لأنّ عبارة ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: 81] تطمينٌ عمليٌّ مُعلِّلٌ لِنهيهم له عن الخوف والحزن، كأنَّه قيل: (لا تخف ولا تحزن فهم لن يصلوا إليك)(2).

---

(1) فاضل السّامرائي، معاني النحو: 2/ 318.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 433.

بلاغةُ الجمعِ بين النَّهي عن الخوف والحزن:

أبلغُ النَّهي ما اقترن بتّعليلات تستوعب الواقعَ والمتُوقّعَ

جاء الجمع بين النّهي عن الخوف والنّهي عن الحزن في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ للجمْعِ بين المخاوف المظنونةِ والمَيْقونة، فالخوف يقع من المكروه المتوقّع، والحزن يقع من المكروه الواقع[1]، فأخبروه أنّه معصومٌ من الأخطار كلّها، وبلاغةُ النّهي كامنةٌ في كونه معلَّلًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: 81]؛ لأنَّ نهيهم له عن الخوف والحزن لا بدّ أنْ يترتّب عليه إجراءٌ في الواقع من قِبَلِهم بتأمينه وتحصينه، فكأنّهم بقولهم: ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ يقولون له: (أنت في مأمن وحصن فلا تبالِ الأخطار، ولا تَتَبَّع مخاوفَك وظنونك ولأنّنا رسل ربّك فلا تخف ولا تحزن.

فائدةُ حذفِ متعلّقات الأفعال:

نـفـيُ عـمـوم المـخـاوف والأحـزان مقيَّدةٌ بسياق الكلام

حُذِف معمول فعلِ الخوف والحزن في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ فلم يقولوا: (لا تخف من فجورهم ولا تحزن من فحشهم)؛ لإرادة العموم، فيتناول كلَّ ما من شأنه أن يُخيفه أو يُحزِنَه، فكأنّهم قالوا له: لا تخف على نفسك ولا تخف علينا، ولا تحزن على عجزك وما آل إليه أمرُك معهم، وأمرُك معنا من الحرج الذي أصابك بسببنا، ولا تخف من قومك فهم هالكون ونحن وأنت في عصمة منهم، ولا تحزن عليهم لا سيّما امرأتك، ولا تحزن عليهم، فهم مُستحقّون لِما سيصيبهم[2].

نكتةُ تقديم النَّهي عن الخوف على النَّهي عن الحزن:

نـفـيُ خـوفِ الـقـادم يدفعُ حزن الماضي

قُدّم النّهيُ عن الخوف على النَّهي عن الحزن في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾؛ لأنّ الخوف متعلّق بالمستقبل، وهو أكثرُ ما تُرجَى الكفايةُ منه، وإذا كُفي الإنسانُ سوءَ توقّعاته، تغلّب على

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 360.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 360.

حزنه الحاضر والماضي، فتوقّع الخير يُشفي الإنسانَ من حزنه، وانتظار الغنيمة يَجُبُّ أهوال الظلم ويمحو ذكرياته، ولذا بدأ بالمتوقّع، وثنّى بالواقع(1).

علّةُ فصلِ الجملة عن السّابقة:

جملة: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ تعليليّةٌ لجملة النّهي، وهي كقولهم له في موضع هود: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ [هود: 81]، كأنّهم قالوا: لا تخف ولا تحزن؛ لأنّنا منقذوك ومنجّوك(2).

براعةُ الاختلاف في صيغة مفردةِ الإنجاء:

زمنُ الإنجاء والمخاطَب به ملحوظٌ في صيَغ الكلام

وردت مفردةُ الإنجاء في خطاب الملائكة لإبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾، وفي خطابهم للوط عليه السلام قالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، والتركيبان مشتركان في التّوكيد، لتأكيد الأوّل بالقسم المقدّر واللّام الموطّئة والنّون الثّقيلة، وتأكيدِ الثّاني بقوله: ﴿إِنَّا﴾ والتّحقيق بصيغة اسم الفاعل، ويتباينان في مجيء الأوّل على الفعليّة والثّاني على الاسميّة، ونكتة ذلك أنَّ صيغة الفعل ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ جاءت للدّلالة على الاستقبال بما يلائم زمنَ الوعد، فلمّا جاؤوا لوطًا عليه السلام وأخبروه بإنجائه كان ذلك مسبوقًا بوعد وكان إخبارا للمرّة الثّانية، فاقتضى أن يعبّروا بالاسميّة ﴿مُنَجُّوكَ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذا الوعد السّابق نافذٌ لا محالة، ومفروغ منه(3).

توجيهُ القراءات القرآنيّة:

توكيد المعاني تتعدَّد ألفاظُه وتتنوّعُ قراءاتُه

في قوله تعالى: ﴿مُنَجُّوكَ﴾ قراءتان؛ فقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بفتح النّون وتضعيف الجيم؛ للدّلالة على مبالغتهم في إنجائه، ففيه زيادة تطمينٍ له، وقرأ الباقون ﴿مُنجُوكَ﴾

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 360.

(2) صافي، الجدول: 10/ 335.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 53.

بسكون النّون وتخفيف الجيم[1]، على الأصل بالدّلالة على الإنجاء، اعتمادًا على التّوكيد في صدر الكلام في قولهم: ﴿إِنَّا﴾ فهو إنجاء مؤكّد أيضًا، إلّا أنّ قراءة التّشديد يكتنفُها التّوكيد من جهتين: التّأكيدُ في الضمير المتصل: ﴿إِنَّا﴾، والتّأكيد المستفادُ من التّضعيف[2].

فائدةُ التّعبير بضمير جمع المتكلمين:

الإشعارُ بالإيناسِ من عوامل تهدئة النّفوس وتطمين القلوب

صُدِّر المقولُ بضمير جمع المتكلّمين المؤكّدِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾؛ لإيناسه بذواتهم، فإنّ المرء إذا وجد من يَعِدُه بالنّجاة والتّطمين، ثمّ رآه حاضرًا معه بشخصه زاد يقينُه بموعودِه، وقوي أُنْسُه، فكأنّهم حين قالوا له: ﴿إِنَّا﴾ أي: سنباشر بأنفسنا إنجاءَك فأنت معنا وفي صحبتنا.

دلالةُ عطف الاسم على الضّمير:

إظهارُ علَّة الإنجاءِ في أهليَّة المؤمنين للوطٍ عليه السلام

الكاف في قوله تعالى: ﴿مُنَجُّوكَ﴾، مضاف إليه مجرور لفظًا منصوب محلًّا؛ لأنّه في معنى المفعول، وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ منصوب بعامل مقدّر معطوف على العامل في الضّمير ﴿مُنَجُّوكَ﴾، أي: منجّوك ومنجّون أهلَك، وعِلّة العطف: الجمع بينه وبين أهله المؤمنين في الإنجاء[3]، ولم يقل: (إنا منجّوك وإياهم) لإظهار علّة الإنجاء وهي الأهليَّة، فهم أهلٌ له، وما داموا كذلك فهم أهلٌ للإنجاء.

عِلّةُ تَكرار الاستثناء:

اختلافُ جهات الخطابِ من دواعي تَكرار المعاني

تكرَّر الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾؛ لبيان اختلاف الخبرين؛ فالاستثناءُ في الموضع الأوّل خطابٌ لإبراهيم عليه السلام، والاستثناء في الموضع الثّاني خطابٌ للوط عليه السلام، فلِانفكاك الجهتين اقتضى تَكرار

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 259.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 433، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 360.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194.

الخطاب معهما، لتستقل كلٌّ منهما بتوجيه الخطاب، ولذا كان الاستثناء في الموضع الأوّل بالإضافة إلى هاء الغيب، والاستثناء في الموضع الثّاني بالإضافة إلى كاف الخطاب.

فائدةُ إضافةِ المرأة إلى كاف المخاطب:

أُضيف لفظُ (امرأة) إلى ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ لتعريفِ المرأة، وتعيين ذاتها، وأمّا استثناؤها من أهله، فهو استثناء الخاصّ من أفراد العامّ.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من الوعيد المجمل إلى الوعيد المفُصّل

لمّا أخبرت الآيةُ السّابقة ما أُخبر به لوطٌ عليه السلام بإنجائه وأهلِه من المؤمنين، واستثْنَوا امرأته من هذا الإنجاء، وأنّها باقيةٌ في الغابرين الماضين إلى حتْفِهم، وكان هذا الاستثناء بمثابة الإجمال في إخباره بإهلاكهم، ناسب أن يُعقب هذا الإجمالَ بتفصيل كيفيّة إهلاكهم، وتحديدِ جهته، وبيانِ سببه، فقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِجْزًا﴾: (رجز) أصلٌ يدلّ على اضطِرابٍ، من ذلك الرَّجَز: وهو داءٌ يصيب الإبل في أعجازها، فإذا ثارتِ النّاقةُ ارتعشتْ فخذاها[2]، والرِّجْزُ: العذابُ المُزلْزِل المُزْعِج[3]، فهو مخصوصٌ بالعذاب الفظيع، وسُمّيَ ذلك النّوعُ من العذاب بالرِّجْز؛ لكونه ينزل بالاضطراب، فتضطرب له الأرضُ، وتضطرب له أبدانُ النّازلِ عليهم ونفوسُهُم، فالرِّجزُ في قوله تعالى: ﴿مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، هو ما حصل لهم من الحجارة والاقتلاع والزّلزلة، كما في قوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: 74].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تفصيلُ كيفيّةِ العذابِ تهويلٌ لأمْره، وإيذانٌ بحتميّةِ إنفاذه

بعد أن أخبر الملائكةُ لوطًا بإنجائه، واستثنائِهم امرأتَه من

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 53.
(2) ابن فارس، المقاييس: (رجز).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رجز).

ذلك، أخبروه بما سينزل بقومه من العقاب جزاءَ تحدّيهم له، واستهزائهم بعذاب اللّه، فقالوا: إنّا منزلون بأمر اللّه وإرادته، على أهل هذه القرية - وهي قرية سَدوم التي كان يسكنها قوم لوط - عذابًا شديدًا، صدر القضاءُ به من السّماءِ مِن لَدُنّا، فلا يملكون دَفْعه، ولا النّجاةَ منه، وهو عذابٌ يرتجِزون له (يضطربون)؛ فتنخلع له قلوبُهم؛ لأنّ الفسق قد تغلغل في أفئدتهم، فتمكّن منهم حتّى تشبّعوا به وصار دَيْدَنَهم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

أوجهُ موقع الجملة ممّا قبلها:

إنـجـاءُ المتّقين مـقدّمـة إهـلاك الظّالمين ومحْقِ الفاسدين

جملة ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا﴾ تثنيةٌ بالإهلاك بعد ذِكر الإنجاء في قوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، وكلا الجملتين ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ و﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ وقعتا بيانًا لمضمون جملة النّهي: ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾، وعليه فجملة: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ داخلةٌ مع جملة ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ في حيّز التّعليل لجملة النّهي، ولذلك فُصِلَتْ هنا كما فُصلتْ نظيرتُها في: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾.

ويصحّ أن تكون جملة: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ تعليليّةً لجملة التّنجية مستأنفةً لتقرير بيانها وتكميل مضمونها، فإنّ إهلاكهم تكميلٌ لتنجيته بتطهيره من الذين كفروا! وهي من ذكر الملزوم بعد لازمه؛ لأنّ حصول الإنجاء يستلزم هلاكًا واقعًا حتّى تكون النّجاةُ منه، كأنّه قيل: (إنّا منجّوك؛ لِأنّا مُهلِكوهم).

ويصحّ أنْ تكون جملة: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا﴾ بيانًا لمضمون الإهلاك المفهوم من الجملة قبله في قوله: ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، وتعيينًا لنوعه، كأنّه قيل: كانت من الهالكين بنوعٍ من الهلاك نازلٍ عليهم من السّماء وهو الرّجز[2].

---

(1) المراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 138، والمكيّ النّاصريّ، التّيسير في أحاديث التّفسير: 4/ 582، وطنطاويّ، الوسيط: 11/ 34.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 434، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 360، وصافي، الجدول: 10/ 335.

علّةُ تقديمِ خبر الإهلاك وتأخيره:

عِلَلُ التّقديم والتّأخير باعتبار المخاطَب ومقصدِ الخطاب

قُدّم ذكرُ الإنجاء على الإهلاك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، على خلاف ما جاء في خطابِ إبراهيم عليه السلام، حيث عُكِس الأمر؛ فقُدِّم ذكر الإهلاك: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾، على الإنجاء: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾؛ وذلك أنّ الملائكة بدأت الخطابَ مع إبراهيم عليه السلام بالإخبار عن إهلاك القرية باعتبار الخبر المجمل؛ فلمّا سأل عن لوطٍ عليه السلام جاء الجواب بالإنجاء، أمّا في خطابهم للوطٍ عليه السلام، فكانت طمأنتُه على نفسه أحقَّ بالتّقديم، لا سيّما وقد أصابته المساءة والضّيقُ، فواجهوه بما يدفعهما ويستجلب له المسرّةَ والبشرى؛ فذكروا الإنجاء أوّلًا.

فائدةُ حذفِ فعل القول:

الإيجازُ هو الأصلُ والمقدَّمُ في الاستعمال الفصيح

حُذف فعلُ القول في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ فلم يقل: (قالوا إنّا منزلون)؛ لعدم الفصل بين البيان والمُبيَّن، والتّعليل والمُعلّل، ولأنّ جملة الإهلاك هذه في حيّز جملة التّنجية، فاستقلالها بقولٍ خرقٌ لهذا الحيّز، وهي مع ما سبقها مندرجةٌ في حيّز القول في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾، فما دام لا توجد نكتةٌ لإعادة ذكر فعل القول، فالإيجاز هو الأصل وهو المقدّمُ في الاستعمال الفصيح.

فائدةُ تشابهِ صدر الجُمل بالتّوكيد:

إقامةُ كلِّ جملة بانفرادٍ مقاصديٍّ وإن تشابهت في الأسلوب

صُدّرت جملة الإهلاك بالتّوكيد: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾، كما صُدّرت به جملةُ الإنجاء: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، لاتّحاد الجملتين في حيّز البيان، ولغرض تحقيق المضمون بالتّوكيد، والمبالغة في إيقاع الوعد والوعيد من غير رجعةٍ، ولا اندفاعٍ بشفاعةٍ محتملة من لوطٍ عليه السلام، كعادة الأنبياء بالشّفاعة لأقوامهم إشفاقًا عليهم، لا سيّما وأنّ امراته فيهم.

نكتةُ التَّعبير بالاسميّة:

جاء التّعبير بالاسميّة في الوعد: ﴿مُنَجُّوكَ﴾، وفي الوعيد: ﴿مُنزِلُونَ﴾؛ ليقع الإنجاء والإهلاك على درجة واحدةٍ من التّوكيد والمبالغة وعدمِ إمكان الخُلْف فيهما[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإنزال:

السّماء منها تنزلُ البركاتُ بتطهير الأرض من النّجاسات

جاء استعمالُ مفردةِ الإنزال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لكون العذاب منحطًّا عليهم من جهة السّماء، وجهةُ السّماء جهةُ علوٍّ، الوارِدُ منها واقعٌ بالنّزول، وللإشارة البديعة إلى أنّ أمر إهلاكهم هو شأنٌ علويٌّ فلا بدّ أن يُنفّذ، ولا سبيل لتعطيله أو ردّه، ولا سبيل لهم إلى مجابهته أو القدرة عليه، ففي التّعبير بالإنزال من السّماء إشعارٌ بأنّه عذابُ الاستئصال الماحِق الحالِق.

توجيه القراءات في ﴿مُنزِلُونَ﴾ وبلاغتها:

زيادة المبنى يقابلها زيادة في المعنى

قرأ ابن عامر بِتَشْديدِ الزّاي: ﴿مُنَزِّلُونَ﴾، وقرأ الباقون بِتَخْفيفِها: ﴿مُنزِلُونَ﴾[2]، فالحجة لمن شدد أنه: أخذه من نزَّل فهو منزِّل، والحجة لمن خفّف: أنه أخذه من: أنزل فهو منزل، إلّا أن التشديد لتكرير الفعل ومداومته[3].

دلالةُ استعمالِ حرف الاستعلاء:

عُدّي فعلُ الإنزال بحرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾؛ لتصوير تمكّن العذاب النّازل منهم وإطباقِه عليهم، فلا أحدَ يفوت منه، ولا أحدَ يَبقى بعده.

فائدةُ إضافةِ لفظ ﴿أَهْلِ﴾ إلى اسم الإشارة:

أُضيف لفظ ﴿أَهْلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ لتعريف

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 434.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 343.
(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 113.

الأهل وتعيينِهم، وإخراجهم من حيّز الجنس إلى حيّز العهد، وهم أهل قرية لوطٍ عليه السلام[1].

بلاغةُ استعمالِ اسم الإشارة:

شرفُ الأماكن وعظمتُها بشرف الطّاعة والإيمان

استُعمل اسمُ الإشارة للقريب في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾؛ لأنّهم يخاطبون لوطًا عليه السلام، والقريةُ مسكنُه، فهي أقرب شيءٍ منه؛ ففيه تصويرٌ للمشهد للقريب، أو للذي هم واقفون فيه، وفيه إفادةٌ بأنَّ المشارَ إليه وإن كان قريبًا فلا اعتبار له إذا كان بمعزلٍ عن طاعة اللّه تعالى، فإنَّ الأماكن إنّما يعظم شأنُها ويشرف حالُها في طاعة اللّه تعالى والاقترابِ منه، وينزل فيها العذاب بقدر معصية اللّه تعالى والابتعادِ عنه.

سرُّ التّعبير بالقرية دون المدينة:

إذا توافقتِ الطّباع اتّحدتِ النّتائج

استعمل النَّظمُ الكريم مفردةَ القرية في قوله تعالى: ﴿مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا﴾؛ للدّلالة على تجمّع أهلها واتّصالِهم فيما بينهم حتّى إذا نزل العذابُ عليهم عمّهم وأصابَهم جميعًا لا يفارقُ أحدًا منهم، فأهلُ القرى بينهم توافقٌ في الصّفات والأخلاق والشّيم والسّلوك.

سرُّ تقديمِ شبه الجملة على المفعول:

عذابُ الظّالمين المنذَرين يُصيبُهم العذابُ دون غيرِهم

قُدّم الجارُّ والمجرور على المفعول في قوله تعالى: ﴿مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا﴾ اعتناءً بالمقدّم؛ لأنّهم المقصودون بإيقاع الرّجز، ولإفادة الحصر؛ فلا يتوهّمُ أنّ العذاب لكونه نازلًا من السّماء سيتّسع نزولُه بما يتجاوز القريةَ، فيُظلمُ بسببهم أناسٌ آخرون، كما هو شأن الحروب التي يشنُّها النّاس بعضُهم على بعض، فيكثرُ الظّلمُ، وينتشر العذابُ بين الأبرياء، فالتّقديم أفاد قصرَه عليهم، فلا يتجاوزهم.

---

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 123.

نكتةُ استعمالِ مفردةِ (الرجز) دون (الرجس):

ملحوظٌ في الرّجز الاضطرابُ الشّديدُ الذي قلب القرية رأسًا على عَقِب

الرّجس مستعملٌ في القرآن فيما هو نجسٌ أو مستقذَر، والرّجز مستعملٌ في العذاب، والفرقُ الدّقيقُ بينهما: أنّ الرّجْس في الأنجاس والأقذار التي تكون سببًا لنزول الرّجز والعذاب، فجاء استعمال الرّجز في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأنّه أراد العذابَ، وسُمِّي بذلك لأنّه يُقلق المعذَّبَ ويقلقلُه، من قولهم: ارتجز، إذا اضطرب، فهو عذابٌ من شدّته يضطرب منه من أصابه كائنًا من كان[1]، ومن هنا كان الرّجز النّازلُ من السَّماء شديدًا على أهل القرية، فأوقع فيها الاضطرابَ الذي هو عبارةٌ عن زلزلةٍ قلبتْها رأسًا على عقب.

فائدةُ تقييدِ المفعول به:

قُيِّد العذابُ بكونه من السّماء في قوله تعالى: ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للدّلالة على تناهيه في الشّدّة والبلاء، فهو عظيمٌ وقْعُه، شديدٌ صدعُه[2].

نوعُ الباء ودلالتُها:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ سببيّةٌ، فدلَّت على أنَّ الله تعالى إنَّما أنزل عليهم الرّجز بسبب فسقهم الذي استمرّوا عليه، وعُرِفوا به[3].

فائدةُ استعمالِ (ما):

شرُّ النّاسِ من يجمعُ إلى كُفْرِه فِسقًا وانفلاتًا

لفظُ (ما) أفادتِ العمومَ والإبهامَ؛ للدّلالة على اتّساعهم في خصال الفسق وموارِدِ المنكر، وأنّهم جمعوا إلى الكفر خصالَ الفسق والانفلات في المحرّمات والخبائث.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 434.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 434.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 39.

فائدةُ استعمالِ فعل الكون الماضي:

بأسُ الله ينزل بعد التّطاول في الفسق والتّجاسُرِ في الفحش

استُعمل فعلُ ﴿كَانُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ لتحقيق نسبة الفسق إليهم، والإشارةِ إلى تمكّنهم من الفسق وتصميمهم عليه[1]، وأنّه ديدنُهم، فاللّٰه سبحانه وتعالى لم يُنزل بهم بأسَه إلّا بعد تطاولهم في الفسق، وتجاسُرِهم على الفحش.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الفسق مادّةً وصيغةً:

لفظُ الفسق دالٌّ على التّوسّع في المنكرات واستباحتِها

استُعملت مفردةُ ﴿يَفۡسُقُونَ﴾ للدّلالة على أنَّ ديدنَهم في الانفلات والخروج عن حدود الفطرة وحدودِ الدّين والوحي، وحدودِ العقل والحياء[2]؛ فإنَّ الفسق دالٌّ على الخروج، وجاءت بصيغة المضارع لاستحضار صورتهم وهم يُزاوِلون الحدث، وحكايةِ هيئتهم وهم يمارسون أفعال الرّذيلة والخَبَث، استجلابًا لاستقباحهم والنّفورِ من فِعلتهم، لدفع أسباب التّعاطف معهم فيما تُبديه وساوسُ شياطين الإنس والجن، من تسويغ أفعالِ السّوء والمنكر والفاحشة.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 434.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 434.

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ [العنكبوت: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ما أوقع العِبَرَ بعد سردِ الخبر!

لمّا بيّن الله سبحانه عاقبةَ الرّسل وأتباعِهم بالإنجاء والعصمة، وعاقبةَ المُستكبرين عليهم بالإهلاك والإفناء، ناسب أن يختَمَ ببيان المغزى من تلك القصّة، وهو اعتبار المخاطَبين ووقاية أنفسِهم من مِثْل هذه القبائح التي تجترّ عاقبةَ السّوء والبوار؛ فأنفعُ القصص ما ذُيِّل بالعبر صراحةً أو ضمنًا لينتفع بها المخاطَبون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَّرَكۡنَا﴾: (ترك) أَصْلُ التَّركِ: الكفُّ والإعراضُ، يُقالُ: ترَكْتُ الشَّيَء: إذا كَفَفْتُ وأعرَضْتُ عنه، ويأْتي بمعنَى التَّخلّي عن الشيء[1]، ويُطلَقُ على الإسقاطِ، يُقالُ: تَرَكَ حَقَّهُ، أي: أسقَطَهُ، وهو أيضًا: الجَعْلُ، يُقالُ: تَرَكَهُ يَفعَلُ كذا، أي: جَعَلَهُ يَفْعَلُهُ[2]، ومن معانيه: المفارَقةُ، والهَجْرُ، والإهمالُ، والرَّفْضُ، والمقصودُ بالتَّرك في الآية: إبقاءُ آية بيّنة في المكان، وتخليةُ كلِّ ما عداها عنه، أي: جعلنا القريةَ كأن لم تكن، فأخليناها من العَمار، وخلّينا فيها آيةً واضحةً للاعتبار.

المَعْنَى الإجْماليُّ:

من كان ذا عقلٍ أبصرَ واعتبرَ ومن كان ذا عمًى أدبرَ واستكبرَ

تُؤكِّد الآية الكريمةُ على بيان سُنَّتِه سبحانه وتعالى بعد إنجاء لوطٍ عليه السلام، وإهلاك أعدائه من المجرمين؛ بأنَّه قد ترك من هذه القرية بعد تدميرها، علامةً بيّنة، وعِظَةً زاجرة، وآيةً واضحة، تدلّ على هلاك أهلها، حتى تكون عِبْرةً لقومٍ يستعملون عقولَهم في التّدبّر والتفكّر[3].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ترك).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ترك).
(3) المراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 138، وطنطاوي، الوسيط: 11/ 35.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

تقريرُ المعنى الإجماليّ بعد التّفصيل الإخباريّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ﴾ إمّا أن تكون للاستئناف النّحويّ المقرّر لمقصود القصّة السّابقة في حقّ المخاطبين، ببيان وجْه انتفاعِهم منها، وغرضِ قَصِّها عليهم، كأنّه قال: (قصصناها عليكم وجعلنا لكم بعد بيانها آيةً وعبرة تستفيدونها منها)، والكلام للّه العظيم سبحانه، وإمّا أن تكون الجملة معترضةً في آخر القصة، على سبيل التّذييل الاعتراضيّ، وإمّا أن تكون لعطف بيانٍ على بيان، أي: عطفِ بيان الإخبار بكون القصة ﴿ءَايَةَۢ﴾ على الإخبار بمضمون القصّة[1].

فائدةُ التّوكيد:

مَنْ يغلبُ عليه السَّهو يُساق الخطابُ معه مؤكَّدًا

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ﴾ لام القسم، وهي لتوكيد مدخولها وتحقيق مضمونه، واقترانها بقد التّحقيقيّة[2]، توكيدٌ بعد توكيد، ويكأنّ المخاطبين نُزِّلوا منزلةَ المنكر أوِ المتردّد أوِ المرتاب فأُكِّد لهم الخبر، أو لأنّ عادة الإنسان النِّسيانُ، فاستُرعيَ بقوّة التَّوكيد لتجديد الاعتبار وتحرّي الموعظةِ واستدامةِ النّظر والبصر.

نكتةُ استعمالِ مفردة الترك مادة وصيغة:

كلُّ فسادٍ ذاهبٌ ولا يبقى إلّا الأثرُ النّافعُ

جاء استعمالُ مفردةِ التّرك في قوله تعالى: ﴿تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ﴾؛ للدّلالة على تخلية القرية التّامّ من كلّ عُمْرانٍ بالإهلاك والإفناء إلّا من الآية التي هي موطنُ العبرة، فالتّعبير بالتّرك أبلغُ في الدّلالة على الاجتثاث التّامّ والاستئصال المُبير، وانفصالِ أثر الشّيء بزوال الشّيء، حيث أُخذت القريةُ كلُّها وتُرك منها ما يكون عبرةً لأولي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 434، وابن عاشور، التّحرير، والتّنوير: 20/ 246.

(2) الخطيب، التفصيل في الإعراب: 20/ 259.

العقل العقول والنُّهى، وعبَّر بصيغة الماضي في: ﴿تَّرَكۡنَا﴾ لتحقيق الآية في الوجود والظّهور[1].

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة:

قُدّم ﴿مِنۡهَآ﴾ وهو في الأصل صفةٌ على المفعول ﴿ءَايَةَۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ﴾ للاعتناء والاهتمام، وصار حالًا من ﴿ءَايَةَۢ﴾[2]، أي: جعلنا القرية آيةً لمن يعتبرُ.

نوعُ (من) ودلالتُها:

تحتملُ (من) ابتداءَ الغاية والتّبعيض

حرفُ (مِن) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ﴾ يحتمل أن يكون لابتداء الغاية، أي: تركنا آيةً صادرة من آثارها ومعروفةً من خبرها، ويحتمل أن يكون للتّبعيض، على معنى: ما ترك من بقايا تلك القرية ومنظرِها إلّا آية هي جزءٌ من سائرِها، كأنّه قال: جعلناها بَعضَيْن: بَعضًا أفنيناه، وبعضًا تركناه آية[3].

تعيينُ مرْجع الضَّمير:

ما القصَّةُ إلا قصَّة قريةِ الفجور

الضّمير المجرور في قوله: ﴿مِنۡهَآ﴾ يحتمل أن يعود على القرية وإمّا على القصّة، فالآية في القرية أثرٌ مشهود، وفي القصّة خبَرٌ متواترٌ مسموع، والمعنى على المرجع الأوّل: تركنا ما بقي من أثرها، والمعنى على المرجع الثّاني: تركنا من خبرها آيةً[4]، والتّحقيق أنَّ الضّمير صادقٌ في عودتِه على القرية والقصّة، وما القصّةُ إلا قصّة قرية الفجور.

دلالةُ استعمالِ مفردة ﴿ءَايَةَۢ﴾:

تسميةُ الأثر بالآية إلفاتٌ إليه وتعظيمٌ لشأنه

الآية: هي العلامةُ الدّالّة على الشّيء، فعبّر بها في قوله تعالى:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ترك).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 246.

(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 316، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 246.

(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 316.

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ﴾؛ لبيان موضعِ العبرة، وعلامةِ القدرة، ومزدجرِ النّفوس عن الوقوع في سخط اللّه تعالى[1]، والتّعبير بترْك الآيةِ بعد هلاك القرية؛ فيه إيماءٌ بتوجيه هِمَم المُخاطبين إلى قَصْر أنظارِهم على تلك الآيةِ البيّنة، كأنّه قال: تلك أمّةٌ قد خلتْ، فلا تقفوا معها إلّا موقفَ العِبرة والعظة.

نكتةُ جعْلِ موطن العبرة لقوم يعقلون:

العقلُ السّليم يحجزُ صاحبَه عن الوقوع في مستنقع الفُحش

آثر النّظمُ الكريم جعْلَ موطن العبرة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ دون أن يذكر أنَّها للعالمين كما قال سبحانه في قصة نوح: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: 15]، ذلك أنّ آية قصّة قومِ لوطٍ عليه السلام فيها عبرةٌ للعقلاء من النّاس، ومن ضعف عقلُه وفاته حسنُ التّفكر، ارتكبَ حماقةَ التّساهل في تجاوز الفُحش الذي مصيره عاقبةٌ وخيمةٌ، بخلاف قصّةِ نوح عليه السلام، فإنَّ قصّته آيةٌ للعالمين لأنَّ فيها نجاةَ العالمين.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 316، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 246.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾ [العنكبوت: 36 - 37]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

على قدْرِ تكذيبِ الكافرين يقعُ النّصرُ والنّجاةُ للمؤمنين

بعد ذكر قصَّة لوطٍ عليه السلام في شأنِ إهلاك قومِه بسبب فاحشتهم، ناسب الانتقالُ إلى ذكر قصّة شعيبٍ عليه السلام مع قومه، ذلك أنّ مدينَ كان من أبناء إبراهيم، وأنّ اللّه أنجاه من العذاب كما أنجى لوطًا، فبعث اللّهُ شعيبًا إلى ذريّته المنسوبةِ قبيلتُهم إليه، فكذّبوه، كما كُذِّبَ الرّسل قبلَه(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَدۡيَنَ﴾: اسمٌ من أسماء أولاد إبراهيم عليه السلام، وسمّيت باسمه القبيلةُ؛ لأنّهم كانوا عادةً ما يسمّون القومَ باسم أبرز أشخاصها، فانتقل الاسم من الشّخص إلى القبيلة، ثم إلى المكان، بدليل قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 23] فصارت مدينُ علمًا على البقعة، وقالوا: هذه البُقعة من الطّور إلى الفُرات، والمراد به في الآية: قبيلةُ مَدْيَنَ الذين هم من نسل مدين بن إبراهيم عليه السلام(2).

2) ﴿جَٰثِمِينَ﴾: (جثم) أصلٌ يدلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيء(3)، ومنه الجُثوم: وهو أن يكون الإنسانُ مُنْكَبًّا على وجهِه، رُكْبَتاه في الأرض(4)، والمراد به في الآية: واقعين على صدورهم، لازمين مكانًا واحدًا، لا يقدرون على حركة أصلًا، لأنّه لا أرواحَ لهم(5).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 247.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/ 231، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/ 1151.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جثم).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جثم).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 449.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

دأبُ الكافرين الإعراضُ والعِناد، ودأبُ المرسلين البلاغُ والجهاد

عطفتِ الآية الكريمة قصّة إرسال شعيب ﷺ إلى مدين على قصة إرسال نوح ﷺ إلى قومه، وإبراهيمَ إلى قومه، ومدينُ هي القبيلة التي تُنْسَبُ إلى مَديَن بن إبراهيم ﷺ، فقال لهم: يا قوم اعبدوا اللّه وحده، وأخلصوا له العبادة، ما لكم من إله غيره، وارجوا بعبادتكم جزاءَ اليوم الآخر، ولا تكثروا في الأرض الفسادَ والمعاصيَ، ولا تقيموا عليها، ولكن توبوا إلى اللّه منها وأنيبوا[1]، فأخبرتِ الآية التّاليةُ عن فِعالِ أهل مدينَ مع شعيبٍ ﷺ، وأنّهم قابلوا نُصحه لهم بالتّكذيب الذي يرجع إلى الإخبارات الضّمنيّة، كأنّه قال لهم: اللّه واحد فاعبدوه، والحشرُ كائنٌ فارجوه، والفسادُ محرّم فلا تقربوه، فلمّا كان ذلك كذلك، أهلكهم بزلزلة عظيمةٍ ارتجفت لها القلوبُ، واضطربت بها الأفئدةُ، فأصبحوا في دارهم ميّتين لا حِراك بهم[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

العـطـف على مـذكـورٍ نـظيرَ المحذوف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ للعطف، والجارُّ والمجرور متعلّقٌ بفعلٍ مضمرٍ تقديرُه: (أرسلنا إلى مدين) وهو معطوف على فعل الإرسال المذكور في قصّة نوح ﷺ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ [العنكبوت: 14]، أي: وأرسلنا إلى مدين شعيبًا[3].

علَّةُ تقديمِ شبه الجملة على المفعول:

مـراعـاةُ المعنى والمبنى من عِلل تقديم الألفاظ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ على المفعول ﴿أَخَاهُمۡ﴾؛ لأنّ النّظم جاء على إضمار العامل (أرسلنا)، ولأجل الإضمار كان لا بدّ من تأخير المعمول ﴿أَخَاهُمۡ﴾، إذ تقديمُ المعمول لا يتأتّى إلا بإظهار

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 10/ 191، والمراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 139.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 39.

العامل، ولا يُقال: (أرسلنا أخاهم شعيبًا إلى مدين)؛ لئلّا يعود الضّميرُ في ﴿أَخَاهُمْ﴾ على متأخّر لفظًا ورتبةً[1].

نكتةُ استعمالِ لفظ ﴿أَخَاهُمْ﴾:

وُصِف شعيب عليه السلام بأنّه أخو مدين؛ لكونه من نسبِهم وبلدِهم، كما يُقال: يا أخا العرب، أي: يا عربيّ[2]، والمقصودُ بيانُ شدَّة الصِّلة بين المرسَل والمرسَل إليه.

فائدةُ تقديمِ ﴿أَخَاهُمْ﴾ على ﴿شُعَيْبًا﴾:

وصفُ شعيبٍ عليه السلام بأنّه أخوهم تشريفٌ لهم يستدعي زيادة توبيخِهم

آثر النّظمُ الكريم تقديمَ ﴿أَخَاهُمْ﴾ على جعله مفعولًا لفعل الإرسال المحذوف، وتأخيرَ ﴿شُعَيْبًا﴾ على جعله عطفَ بيانٍ له، فلم يقل: (وإلى مدين شعيبًا أخاهم)؛ لأنّه أراد تعريف شعيبٍ بالنّسب، ولو قال: (شعيبا أخاهم) لكان فيه تعريفُ النّسَب بشعيب، وهذا خلافُ المقصود، وكذلك لو قال: (شعيبًا أخاهم) لم يَنْفِ أن يكون لهم أخٌ غيرُ شعيب؛ لأنّه بيّن الخاصّ بالعامّ، أمّا قوله: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ففيه تبيين العامّ بالخاصّ؛ كأنّه لا أخ لهم على الحقيقة إلّا شعيب[3]، فكأنّه أراد بتقديم النّسب على الاسم أن يُذكّرهم بحقيقة الأخوّة في النّسب، وأنّ الأخ الحقيقيَّ هو من يحرص على تجنيب أخيه المتاعبَ والمهالكَ بتبليغه موردَ الأمن ودلالتِه على أسبابه، ولا أحد متّصفٌ بهذا المعنى معهم على الحقيقة إلّا أخوهم شعيب، فكأنّه لا أخ لهم إلّا هو، ففي قوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ دون (شعيبا أخاهم) مدحٌ لشعيب عليه السلام، وتذكيرٌ لهم بأنّ الأخوّة بينهم وبينه أخوّةٌ فريدةٌ لا نظيرَ لها، وهي أنهضُ لهم وأعونُ على طاعتهم وامتثالِهم.

نوعُ الفاء ومعناها:

الفاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ عاطفةٌ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 247.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 435، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 94.
(3) ابن الخبّاز، توجيه اللمع: 1/ 107.

مدخولَها على الفعل المقدّر، ومعناها التّسبيبُ والتّعقيبُ، أي: أرسلناه فتسبّب عن إرساله وتَعقَّبَه أن قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

توجيهُ المتشابِه اللّفظيّ:

سياقُ السّورة عاملٌ في انتقاء الحروف

خُصّ هذا الموضع باقتران الفاء بفعل القول ﴿فَقَالَ﴾ دون موضعَي [الأعراف: 85]، و[هود: 84]؛ وذلك لأنّ مقصود السّورة هنا الأمرُ بالمعروف والنّهيُ عن المنكر من غير فتْرة، فعبّر بالفاء للدّلالة على إسراعه في البيان والبلاغ[1]، دون الاكتفاء بذكر الحدث.

فائدةُ ذكرِ فعل القول:

ربَّ قولٍ يعدلُ أفعالَ أمَّة

ذكر النّظمُ الكريم فعْلَ القول في دعوة شعيبٍ عليه السلام قومَه في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأنّ القول هو آلةُ البلاغ والبيان، والبلاغُ هو منتهى مهمّة الرّسول، لا يُكلّف إلّا به، كما قال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [المائدة: 99]، وكما قال: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: 48]، وقال: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ [النساء: 84]؛ فلا يُستهان بقولِ الحقِّ، فيُقال: هؤلاء لا يُحسنون إلّا القول؛ فربَّ قولٍ يعدلُ أفعالَ أمَّة.

دلالةُ اقترانِ الأمر بالعبادة ورجاء الآخرة:

الإيمانُ بالآخرة علَّةُ العبادات ومهوِّنُ المشقّات

اقترانُ الأمر بعبادة اللّه ورجاء اليوم الآخر هو كاقتران العمل بعاقبته، فأصلُ الأعمال عبادةُ اللّه، وعاقبة الأعمال كلّها حاصلةٌ في اليوم الآخر، ففيه إشارة إلى تصحيح الحال بالعبادة أوّلًا، وتصحيحِ المآل باعتقاد المصير إلى اللّه آخرًا، ولأنّ الإيمان بالمصير يُهوّن مشاقَّ العبادات والتّكاليف، ولأنَّه علَّةُ العبادة، فمن لم يؤمن باليوم الآخر فلن يعبدَ اللّه تعالى، بل لا تصحُّ له عبادة[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 463، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 247.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 316.

القاعدةُ هي عبادةُ الله تعالى وما بعدها فروعٌ مُثمرةٌ

مناسبةُ عطفِ النّهي على الأمر:

بعد الأمر بالعبادة والإيمان باليوم الآخر جاءت جملة النّهي: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، وهو دليلٌ على أنّ الشّرع أفعالٌ وتروك(1)، وقد بدأ بالأمر؛ لأنّه الأصلُ الذي ينبني على أساسه الوازعُ المُعين على اجتناب المحرّمات، فلا معنى للنّهي عن المحارم من غير عبوديّة اللّه والإيمانِ بالبعث.

رجاءُ الشّيء قدْرٌ زائدٌ على مجرّد الإيمان به

بلاغةُ المجاز بالحذف:

حُذف المضافُ في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ على المجاز بالحذف، والتّقدير: (وارجوا ثوابَ اليوم الآخر)، واكتفى بذكر السّبب وهو الرّجاء عن مسبَّبه وهو الثّواب، ويمكن إجراءُ التّركيب من غير تقدير مضاف محذوف، من باب إطلاق الظّرف على ما يقع فيه، فسمّى الجزاءَ باسم زمانه، وهو اليوم الآخر، ويكون إسنادُ الرّجاء إلى المفعول من باب المجاز العقليِّ(2).

رجاءُ الآخرة دليلُ الإيمان الصّادق والإسلامِ المطابق

نكتةُ استعمالِ مفردة الرجاء:

آثر النَّظمُ الكريم الإتيانَ بمفردة الرّجاء دون الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾، والرّجاء هو توقّعُ المُجازاة على سبيل الطّمع فيما يسرُّ والحذرِ ممّا يضرّ على وجهٍ مخصوص من الإيمان واليقين، فالتّعبير بالرّجاء يقتضي الإيمانَ وزيادةً، وهو درجةٌ أعلى من مجرّد الإيمان؛ لكونه دليلَ الإيمان وهو من أمارات كمالِه، ولذا فمن النّاس من يؤمن باليوم الآخر، لكنّه لا يرجوه فوق رجاء الدّنيا، فالرّجاءُ هنا كنايةٌ عن لازمِه من كمال الإيمان والتّحقّقِ به(3).

تحتمل الفاءُ أن تكون تفريعيّةً أو فصيحةً

نوعُ الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على جملة

(1) تفسير ابن عثيمين، سورة العنكبوت، ص: 185.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 361.

(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 316.

﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ﴾، فهي لتفريع موقفِهم على بلاغه لهم، وجاء الوصل بالفاء؛ لإثبات التّسبّب والتّرتّب، أي: تسبّب عن هذا البلاغ وترتّب عليه تكذيبُهم له، ويصحّ أن تكون الفاء فصيحة عاطفةً مدخولَها على محذوف مقدّر ناشئٍ عمّا قبله، والتّقدير: (قال لهم: اعبدوا اللّه وآمِنوا بالبعث، فلمّا عقلوا عنه بلاغَه واستوفَوا منه البيانَ كذّبوه)[1].

دلالةُ التّضعيف في فعل التكذيب:

المبالغةُ تُستفاد من الصّيغة والمفردة والسّياق

جاء فعلُ التّكذيب بالتّضعيف في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ وذلك للمبالغة في نِسبةِ الكذب إليه ﷺ، وتضعيفُ فعل التّكذيب من أمارات التّعدية إلى المفعول، وأنّه رمِيٌّ بالكذِب، فالمفعول هو المتّصف به، وليس الفاعل[2]، وهو يومئ إلى المبالغة في التّكذيب، بالصّيغة والمادّة والسّياق، أمّا الصّيغةُ فواضح، وأمّا المادّةُ فإنَّ تكذيب الصّادق عظيمٌ فكيف بتكذيب رسول اللّه، وأمّا السّياق فلمّا أمرَ بعبادة اللّه الموافقة لفطرتهم، جاء التّكذيب بشعًا شنعًا، وهذا من أشدِّ صور المبالغة.

بلاغةُ عطفِ المسبَّب على السّبب:

فعلُ الأخذِ في جملة ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ معطوف على فعل ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وهو من عطفِ المُسبَّب على سببه، فالتّكذيبُ سببٌ، والأخذُ مُسبَّبٌ عنه، والفاء للتّعقيب والتّفريع[3].

بلاغةُ المجاز العقليّ:

إسنادُ الأخذِ للرّجفة إسنادٌ إلى سببٍ صوري

أُسند فعلُ الأخذ للرّجفة في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ وهو إسنادٌ لغير الفاعل الحقيقيّ؛ فالرّجفةُ لا إرادةَ لها لتفعل، بل هي آلةُ الفاعل في فِعله، والفاعلُ الحقيقيّ بالتّأثير والتّسيير هو اللّه سبحانه، ففي الإسناد مجازٌ عقليٌّ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 436.
(2) الرّاغب، المفردات: (كذب).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 436.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الأخذ:

بيانُ سرعةِ الإهلاك النّازل بالقومِ

الأَخْذُ هو تناول الشّيء وتحصيلُه بقوّة وقهر، فهو إزالةٌ للشّيء من حِرزه الأوّل إلى حرز مُتناوِله، والمراد به في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الإهلاكُ والإعدام، فشبّه الإعدامَ بالأخذ، بجامع الإزالة في كُلٍّ[1]، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾:

تصويرُ الرّجفةِ بشخصٍ آخذٍ قاصدٍ إهلاكَ المجرمين

الرّجفة في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ استعارةٌ مكنيّة، حيث نُزِّلَتْ منزلةَ المُريد القادر من الذّوات العاقلة التي لها قصدٌ وإرادة في الأخذ والإهلاك لخصومها، وفيه تصويرٌ ذو بالٍ للرّجفة وهي تترصّدُهم كأنّهم لها خصوم! حتّى تتمكّن منهم فتأخذَهم، ففي النّظم تشخيصٌ لها، ولا يخفى ما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ من تصوير إقبالها عليهم إقبالَ المتمكّن بقوّةٍ ممّا يأخذه، مع ما فيه من تصوير ضعفهم وهوانِهم الشّديد وانتفاءِ حولِهم وقوّتهم أمام الرّجفة كأنّهم شيءٌ حقير أَخَذَتْه في مَهابِّها.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ لتفريع إصباحِهم على أخذ الرّجفة لهم، والعطف في الجملتين كالعطف بين السّبب ونتيجتِه، أي: بسبب ملابسة الرّجفة لهم أصبحوا جاثمين[2].

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإصباح مادّةً وصيغةً:

إصباحُهم هو منتهى رَجْفَتِهِم؛ لأنّه وقتُ نهايتهم المؤذِنُ بانقضاء الزّلزلة

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ فعلِ الإصباح في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ للنّصِّ على وقت العذاب، وهو وقت الصَّباح، ومعنى (أصبح): دخل في وقت الصّبح، وتحديدُ الوقت فيه إشارةٌ إلى عدم إمكان التّدارك أو التّوبة، لفوات وقتهما بتعيّن وقت الإهلاك؛

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 247.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 436.

لأنّ القولَ حقَّ عليهم، والحكمَ نَفَذَ فيهم، بدلالة مجيء الفعل على صيغة الماضي، ويصحّ أن يكون ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ بمعنى الصّيرورة، أي: صاروا، وتحوّلوا من التمكّن إلى العجز، ومن رفْعِ الصّوت على نبيّهم بالجدال والاعتراض إلى الانكتام التّامّ والجثوم الخالص.

غرضُ تقديمِ شبه الجملة على الخبر:

إذا نزل العذابُ بساحةِ قومٍ كانت هلاكَهم

قُدّم ذكرُ الجارِّ والمجرور وهو متعلّق الخبر على الخبر في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ فلم يقل: (فأصبحوا جاثمين في دارهم) اهتمامًا بموضع هلاكهم، ولإفادة الحصر، أي: إنّهم لم يكونوا جاثمين هالكين إلّا في مساكنهم أو في بلدهم، فعلى الأوّل، فهم لم يغادروا بيوتهم وباغتَهم العذابُ وهم بائتون فيها فأصبحوا هلْكى، وعلى الثّاني، فلا أحدَ فيهم رحل عن البلد، ولا أحدَ منهم أفْلَتَ من الاستئصال.

غرضُ إفراد الدّار ودلالتُه:

إفـرادُ الـدّار يُراد به كلُّ دارٍ منفردة وتنزيلُ جميع الدّور منـزلةَ الدّار الواحدة

إفرادُ لفظ الدّار في قوله تعالى: ﴿دَارِهِمۡ﴾ إمّا لأنّ معناها مفرد، والمراد: أرضهم أو بلدهم، كما يقال: دار الهجرة، ودار الحرب، فيُراد بذلك ديارُ البلدِ جميعًا، فيكون أدلَّ على الإحاطة بهم، أو معناها الجمع والمراد: دار كلّ واحدٍ منهم خاصّة، أي: مسكنه، وأقيم فيه الواحد مقامَ الجمع لأمن اللبس؛ لأنّهم لا يكونون في دارٍ واحدة، فدلّ لفظ المفرد على إحاطة العذاب بهم؛ لأنّ العذاب توزّع عليهم، فكأنّ كلّ دارٍ فيهم أصابها حظُّها المقدورُ من العذاب، أو الإفراد في: ﴿دَارِهِمۡ﴾ على إرادة الجنس، فيستغرقُ جميع الدّور، كأنّه جعل ديارهم المتعدّدةَ كالدّار الواحدة في حكم التّدمير الذي أصابهم، ويكأنّ الرّجفة التي زلزلَتْ مواضعهم أخذت ديارهم كما تأخذ الشّيءَ الواحدَ أخذةً واحدة، فديارهم في قانون التّدمير شيءٌ واحد غيرُ متعدّد لشدّة الرّجفة وهولها، وفي صيغة الإفراد إشارةٌ

إلى أنّ الرّجفة خرّبت مساكنَهم وهدمت ما بينها من الجدران فصارت كمسكنٍ واحد[1].

توجيهُ المتشابِه اللّفظيّ في الجمع والإفراد:

الصّيحة أوسعُ مدىً من الرّجفة

حيث ذكرتِ الرّجفةُ جاءت الدّار بلفظ الإفراد، كما هنا في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، وحيث ذكرتِ الصّيحةُ جاءت بلفظ الجمع، كما في موضعَيّ سورة هود؛ لأنّ الصّيحة كانت من السّماء، فهي أوسع في عمومها وانتشارها وأبلغُ من الزّلزلة التي هي الرّجفة، فيناسبُها الجمعُ لفظًا ومعنًى، والرّجفة أرضيّة سفليّة فهي أشدّ تحيّزًا في المكان من الصّيحة، وأقلُّ انبساطًا وامتدادًا منها، فقُرِنَ كلٌّ منهما بما هو ألْيَقُ به[2].

كما أنَّ جمْعَ الدّيارِ مع الصّيحة يدلُّ على شدّتها، وإفرادَ الدّار مع الرّجفة يدلّ على قوّتها، فكلّ واحدةٍ منهما يدلّ على شدّتها في موضعها؛ لأنّ الصّيحة من شأنها الانتشارُ، فإذا عمّتِ الأماكنَ المتنائيةَ والمساكنَ المتباعدة أطبقتْ على عُمرانِهم كُلّه، فلا تغادر موضعًا أتتْ عليه في قريتهم إلّا دمّرته، والجمع يناسب هذا الشّمولَ الواسعَ في التّأثير والتّدمير، وأمّا الرّجفة والزّلزلة فكلّما كانت في شيء واحد كانت أمْكَنَ وأعنفَ، فناسبها الإفراد[3].

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الجُثوم:

الجُثوم وصفٌ يوحي بتهوينهم وتحقيرِ أمرهم

استعمل النّظمُ الكريم مفردةَ: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ومعناها: (ميّتين)، مِن جَثَمَ الطّائرُ إذا ألصق بطنه بالأرض، ولذا خُصّ الجثمان بشخص الإنسان قاعدًا، ثمّ توسّعوا، فاستعملوا الجُثومَ بمعنى الإقامة، ثم استعير وصفُ الجاثِم للميّت؛ لأنّه لا يبرح مكانه، ففي

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/ 303، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 362.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 403.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 449.

إطلاق الجُثوم عليهم حال موتهم صرعى استعارةٌ تصريحيّة؛ لأنّه شبّه الميّت بالجاثِم، أو استعارةٌ تمثيليّة في التّركيب، حيث شبّه حالهم وهم صرعى هالكون لا حركة لهم ولا صوت بحال الجاثم البارِك في مَرقدِه لا يبرحُه ولا ينفكُّ عنه[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجُثوم والجثوّ:

الـجـثـوّ هيـئةُ مَذلّةٍ مع حياة، والـجثـوم هيئةُ مَذلّةٍ مع موت

الجُثوم والجثوّ حالتان من الجلوس على هيئة البُروك، إلّا أنّ الجثوم أصله في الطّائر والحيوان، كجثوم الأرنب إذا تلبّد في الأرض، ولم يبرح مكانَه، أمّا الجثوّ: فهو الجلوس على الرُّكَب، طلبًا للخصومة، أو لكربٍ نزل به، واستُعمل الجثومُ في القرآن في سياق حساب الدّنيا، فيُذكَر في مقام إهلاك الأمم بالصّيحة والرّجفة، كما في قوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أي: هامدين ميّتين لا حياة لهم، فصاروا كالحيوان الجاثم المتصلّب في مكانه لا يبرحُه، وأمّا الجُثوّ والجِثيّ فاستعمل في القرآن في سياق الآخرة، فيُراد به البروك على الرّكَب للحساب والمحاجة؛ لأجل الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾ [الجاثية: 28]، كما يُراد بالجِثيّ هيئةُ أهل النّار بعد حسابهم وقبل اقتحامها وهم متحلّقون حولها جاثين على الرّكب؛ إذلالًا لهم قبل دفعهم فيها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ٦٨﴾ [مريم: 68]، وهي هيئتهم بعد اقتحامهم فيها: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ [مريم: 72]، وعليه: فالجثوم أخفّ من الجثوّ؛ لاقتران الأوّل بعذاب الدّنيا، واقتران الثّاني بالحساب وعذاب الآخرة، ويتّفق كلاهما في كونهما حاصلَين في عذاب، فلم يُستعملِ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 316، والآلوسي، روح المعانيّ: 6/ 323.

الجثوم في القرآن إلّا في إهلاك الأمم بعذاب الاستئصال، ولم يُستعملِ الجثوّ إلّا في مقام يوم القيامة، وفي مقامٍ غيرِ مستساغٍ على هيئةٍ غير مستساغة، ويشترك معه الجثومُ في ذلك، فكلاهما في استعمال القرآن هيئةُ سوءٍ وإذلالٍ وتعذيبٍ وإهانة[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (جثم)، وابن منظور، لسان العرب: (جثا)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جثو)، ومحمد ياس خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 295.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾

[العنكبوت: 38]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

معـادنُ البَشَر تتكرّر، والتّاريخُ يُعيد نفسَه

لمّا ختَمتِ الآيتان السّابقتان قصّةَ مدين بإهلاكهم بالرّجفة، ناسب أن يُخبر في هذه الآية عن أمثالهم من الأمم وأتباعهم في نَسَقِ التّكذيب، فأخبر عن إهلاك عادٍ وثمودٍ وقد أخِذوا بالرَّجفة كذلك، فتشابهوا معهم في العمل والجزاء[1].

۞ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَزَيَّنَ﴾: (زين) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيءِ وتَحْسينِه[2]، الزَّيْنُ نَقيضُ الشَّيْنِ، وزانَهُ وزَيَّنَهُ بمعنًى، وهو تصيير الشَّيء زَينًا، أي: حَسَنًا[3]، فهوَ تَحْسينُ الشَّيْءِ المُحْتاجِ إلَى التَّحْسينِ، وإزالَةُ ما يَعْتَريهِ مِنَ القُبْحِ أوِ التَّشْويهِ؛ ولِذَلِكَ سُمّيَ الحَلّاقُ مُزَيِّنًا[4]، والزّينة: جامعٌ لكُلِّ ما يتزيّن به النّاسُ، وما يَحْسُنُ في أنْظارِهِم مِنْ طَرائِفِ الدُّنْيا، كالحُليِّ والجَواهِر[5]، والمقصود بالتَّزيين في الآية: تَحسينُ ما لَيْسَ بِحَسَنٍ بَعْضُهُ أوْ كُلُّه، والمُرادُ: زَيَّنَ لَهم الشَّيطانُ أعمالَهم الشَّنيعةَ فأوهَمَهُم بوَسوَسته أنَّها حَسَنَةٌ.

2) ﴿مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾: (بصر) أصلٌ يدلّ على العلِم بالشّيء[6]

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 436.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (زين).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 179.
(5) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (زين).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).

والبَصَرُ يقال للجارحة النّاظِرة[1]، والبصيرة: للإدراك الذي في القلب[2]، والبصيرة: البرهان، وأصلُ ذلك كلِّه وضوحُ الشّيء[3]، و﴿مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ جمع مُستبصِر، اسم فاعل من السّداسيّ استبصر، وزنه مُستفعِل بضمّ الميم وكسر العين[4]، والسّينُ والتّاءُ فيه للطّلب[5]، أي: طالبين الإبصارَ والاستبانةَ للعذاب، على معنى أنّهم أتوا ما أتوه من الكفر وهم مستشرِفون للعذاب كأنّهم يطلبون إبصاره وشهودَه، ويؤيّده قولُه تعالى: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: 70]، وقولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: 29]، ووصْفُهم بالاستبصار على هذا المعنى من الطّلب تهكّمٌ بهم، ويصحُّ أن يُستعار الاسْتِبْصارُ للإبْصار، نحو استعارة الاستجابة للإجابة[6]، فالسّين والتّاء للتّأكيد[7]، ومعناه: كانوا متمكّنين من النّظر والاستبصار ولكنّهم لم يفعلوا، أو كانوا مستبصرين متبيِّنين أنّ العذاب لاحِقٌ بهم بإخبار الرُّسل لهم ولكنّهم لَجّوا حتى هلكوا[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

من ضلّ بعد استبصار الحُجّةِ كان حقًّا على الله أن يُعذِّبه

أخبرتِ الآيةُ عن مصير هؤلاء الأمم المكذّبة للرّسل، كيف أبادهم وتنوّع عذابُهم، فأخذهم بالانتقام منهم، فعادٌ قومُ هود، كانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبةٌ من حضرموت بلادِ اليمن، وثمودُ قومُ صالح، كانوا يسكنون الحِجْر قريبًا من وادي القُرى، وكانت العرب تعرف مساكنهم جيّدا، وتمرّ عليها كثيرًا[9]، وترى ما

(1) الرّاغب، المفردات: (بصر).
(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (بصر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(4) صافي، الجدول: 10/ 338.
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بصر).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بصر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 249.
(8) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194.
(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 278.

حلّ بهم، وسببُ ما جرى عليهم إلّا أنْ زيّن لهم الشّيطانُ أعمالهم من عبادة غير اللّه، وصدَّهم عن الطّريق السّويّ الذي يوصلهم إلى النّجاة، وقد كانوا متمكّنين من النّظر والاستبصار، فلم يكن لهم عذرٌ في الغفلة، وعدمِ التدبّر في العواقب[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها:

عطفُ القصَّة على القصَّة توكيدٌ لمواطن العبرة

جملة: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾ معطوفةٌ على ما قبلها من عطف القصّة على القصّة، فقوله: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾ داخلٌ في نسق القصص المتعاقبة في السّورة من قصّة نوحٍ وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام[2].

بلاغةُ تقديرِ المحذوف:

القصصُ ذِكرى للحاضر، والعنايةُ بالحيّ الحاضر أوجبُ

انتصبَ لفظُ ﴿وَعَادٗا﴾ بعاملٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: (وأهلكنا عادا، أو واذكر عادا)، أو العامل المضمر معطوف على مفعول ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، أي: (فأخذتهم الرجفة وأخذَتْ عادا وثمودا)، ويتأيّد هذا التّقدير بقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ [العنكبوت: 40]؛ لأنّ (كُلًّا) اسمٌ يعمّ المذكورين، فلما جاء منتصبا بـ﴿أَخَذۡنَا﴾ [العنكبوت: 40] تعيّن أنّ ما قبله منصوبٌ بمثله، وتنوينُ العوض الذي لحق (كُلًّا) هو الرّابط، ويكون تقدير الكلام: (وعادا وثمودا وقارون وفرعون إلخ، كلّهم أخذنا بذنبه)[3]، والذي يظهر أنّه يحسُن تقديرُ: (واذكروا عادا)، ولَعلّه أولى من تقدير (الإهلاك) و(الأخذ)؛ لِوضوح أنّ الذّكر هو ذكرُ إهلاكهم، ولوضوح الإهلاك والأخذ من فاعل التّبيّن المضمر في: ﴿تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾، مع ما في تقدير فِعل الذّكر من العناية بالحيّ الحاضر على الهالك

(1) المراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 140.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 248.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 248.

الغائب، والقصصُ ذِكرى للحاضر المخاطَب، فيحسُنُ تقديرُ الفعل لأجّله؛ لينتفِع ويتذكّر.

نوعُ الواو وفائدتُها:

أهلُ مكّةَ كان على خُبْرٍ قديمٍ بأحوال عادٍ وثمود فاحتجّ القرآنُ بقصصِهم عليهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ حاليّةٌ، فالواو واو الحال، جيء بها للاهتمام بمضمون الجملة، ولدلالتها على الوقت، إذا قُدّر العامل (واذكر) في: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾، أي: واذكر عادا وثمودا حين تبيّن لكم إهلاكُهم من مساكنهم، فإنّ الذّكرى أنفعُ ما تكون في وقت الظّهور والتّبيّن، وتفيد الواو كذلك أنّ ما بعدها مستقِرٌّ قبل الحدث المصاحِب لها، وذلك على تقدير (واذكر)، فإنّ ما بعد الواو وهو تبيّنُ الإهلاك من مساكنهم مستقرٌّ وثابتٌ قبل ذِكْر الذّاكِر، وهذا يدلّ على أنّ بعد الواو الحاليّة مُجامِعًا لما قبلها في المعنى، فالتّبيّنُ مجامِعٌ للذّكرى التي دلّ عليها العامل المضمر ومواتٍ له في: (واذكر عادا وثمودا)، كأنّه قيل: اذكرهم والعِبرة لائحةٌ لك من آثارهم، كما تدلّ تلك الواو على استقلال مدخولها في إخبار السّامع بها.

وفي الواو معنى الاستئناف الإخباريِّ ممّا قبلها، وعليه فيصحّ لك أن تُخبر بها المخاطَبَ استقلالًا، فتخبره أوّلا بجملة: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾، ثمّ أنت تخبره بجملة: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ كأنّك تقول: أهلكنا عادا وثمودا ثمّ تريد للمخاطب أن يعلم خبرًا آخَر من أخبارهم، وهو أنّ مساكنهم تدلُّ على هلاكهم، وليس معنى الاستقلال الانفصالَ في المعنى عن التي قبلها، بلِ الاستقلالُ في قصد الإخبار بها[1].

ويصحّ أن تكون الجملة اعتراضيّةً بين قوله: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾

(1) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 2/ 297، 306.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ لتسجيل الموعظةِ والاحتجاج على المُخاطَب؛ لأنّه المقصود بالاعتبار والتّذكرة، أو معطوفةً على الفعل المضمر في: ﴿وَعَادًا﴾، وفاعل التّبيّن ضمير مستتر يعود على ذلك الفعل المضمر، أي: تبيّن لكم إهلاكُهم أو أَخْذنا إيّاهم، وحُذف فاعلُ التّبيّن استغناءً بظهوره في المعنى(1).

فائدةُ التّحقيقِ بأداة (قد):

الكافرُ أحوجُ إلى تحقيق الخطاب له؛ لانحجابه عن الذِّكرى بالكفر

تصديرُ جملة ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ بأداة (قد) التّحقيقيّة؛ لتقرير الإنذار للمخاطَبين أن يتّقوا مصيرهم، وألّا يُعاندوا نبيَّهم، وليستقيموا على دربه وشرعه حذرًا من أن يصيروا عِبْرةً ومثَلًا كعادٍ وثمود، ولتأكيد هذا التّقرير حقّق المضمونَ بقد، تنبيهًا على أهميّة النّظر والاعتبار.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿تَّبَيَّنَ﴾:

البيانُ يَخلقُ فجْوَةً بين الوضوحِ وضِدّه

استعمِل الفِعلُ ﴿تَّبَيَّنَ﴾ دون مرادفاته، ليدلّ على البَوْنِ الفاصل بين الغموض والانكشاف، وليدلّ على أنّه ليس مجرّدَ انكشافٍ ووضوح أو ظهورٍ، بل هو وضوحٌ مقترنٌ بِبَيْنونَةٍ حاصلَةٍ بين طرفين، طرفِ الغفلة وعدم الإدراك، وطرفِ المحجّة البيضاء في بؤرة العيْن وصميم القلب؛ لأنّ التّبيّن في أصله يدلّ على "امتدادٍ بين طرفينِ أو جانبينِ مع فصلٍ كبيرٍ أوِ اتّساعٍ، ومن ذلك الفصلِ والتّمييزِ جاء معنى الوضوح والظّهور؛ لأنّ المفصول المتميّز عن غيره يَلفِت النّظرَ"(2).

بلاغةُ التّعبير بصيغة (تفعَّل):

الدّلالةُ على التّدرّج والصّيرورة والتّكلّف

جاء الفعل ﴿تَّبَيَّنَ﴾ على وزن (تَفعّل)، دون أن يُقال: (بان لكم)؛ للدّلالة على معانٍ عدّة: الأوّل: (التدرّج): فالعِبرةُ من التّاريخ تبينُ

(1) الواحديّ، البسيط: 17/ 524، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 362، وصافي، الجدول: 10/ 337، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 249، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 434.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بين).

شيئًا فشيئًا بتظاهر الأدلّة وتكرار التّذكير بها، الثّاني: (التّكلّف) وهو أحدُ الدّلالات الأصيلة لصيغة (تفعّل)، ومعنى التّكلّف هنا: أنّ إظهارَ العِبرة بالذّكرى يحتاج إلى معاناة في انعتاقِها وانفصالها عن الالتباسِ، وتصفيتِها من منازع الأهواء، فأسند التّبيّنَ إلى فاعله، أي: تبيّن الذِّكرُ والعِبرةُ لكم من إهلاك مساكنهم؛ ليدلّ على تَخلّص الذّكرى المستفادةِ وأنّها خُلاصةٌ مُصفّاةٌ ومُصطَفاة؛ لأنّها السّبيلُ لاعتناق الحقّ، الثّالث: (الصيرورة) فمعنى ﴿تَّبَيَّنَ﴾ أنّه حتى يظهر انتقلَ من طَورٍ إلى طور، فصار واضحًا جليًّا بعد أن كان مُشكِلا خفيًّا[1].

دلالةُ التّعبير بالماضي:

تأصيلُ اليّقين ودحضُ الاحتمال الكاذب

صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿تَّبَيَّنَ﴾، للدّلالة على تشبّع الفاعل المُضمَر من الذّكرى أو الإهلاك بصفة التّجلّي والبيان، وتحقُّقِ ذلك فيه تحقّقَ الأزمان الماضية التي لا ريبَ في تحقّقِها وتمامِها.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة:

قيمُ الهدايةِ تُشعشعُ في ثنايا النَّظم

آثر النّظمُ الكريم تقديمَ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ دون أن يقول: (وقد تبيّن من مساكنهم لكم)؛ للاعتناء بشأن المخاطبين؛ لأنّهم المقصودون بالانتفاع من هذه القصّة؛ مع ما فيه من الحضّ على طلب البيان الصّادق، والاستنارةِ بنور الوحي الحقّ، وهي قيمة هدائيّة تُربّي الدّعاة على الاعتناء بالمدعوين.

بلاغةُ اختيارِ مفردة المساكن دون البيوت:

المساكنُ تصفُ حالَ الرّاحة والسّكون، والبيوتُ تصف حال المَبيت

جاء استعمالُ لفظِ المساكن في قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ دون أن يقول: (بيوتهم)؛ لأنّه أَمْكَنُ في سياق الزّجر والتّوبيخ للمخاطبين على عدم اتّعاظهم، كما قال: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾ [إبراهيم:

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 71، 4/ 73، وابن مالك، شرح التّسهيل: 3/ 452.

45]، ووجْهُ ذلك: أنّ المساكن تشير إلى حالة الرّاحة والاستقرار والأمْن ومفارقةِ المتاعب والأعباء التي كان فيه هؤلاء، فأصله من (سكن) وهو خلاف الحركة، ومنه السُّكْنَى: التّبوّء والاستيطانُ والقرارُ والثّبات، ولذلك سُمّيت منازلُ الجنّة مساكنَ، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾ [الصف: 12]؛ لأنّهم بدخولها تَسْكُنُ جميعُ متاعبِهم وجراحاتهم التي لاقَوْها في الدّنيا، كأن لم تكن أبدًا[1].

نوعُ ﴿مِّن﴾ ومعناها:

يحتمـلُ حـرفُ (مـن) الابـتـداءَ والتبعيض

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ لابتداء الغاية، كأنّه قيل: حصل لكم التّبيّن المذكور من جهة مساكنهم، ويصحُّ أن تكون للتّبعيض، أي: وتبيّن لكم بعضُ مساكنهم، فحرف ﴿مِّن﴾ على هذا اسمٌ بمعنى (بعض) وهي في موقع الفاعل للتّبيّن، أي: ظهر لكم - عن طريق المُشاهدة - بعضُ مساكنهم بالعبرةِ واتّضاحِ أثر الإهلاك[2].

فائدةُ الإضافة:

أُضيف لفظُ (مساكن) إلى ضمير الغائبين في قوله تعالى: ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾؛ لتعريف المساكن وتعيينِها، أي: مساكن قومِ عادٍ وثمود.

نوعُ الواو ووظيفتُها:

تزيينُ الشّيطان دالٌّ على أحوالٍ وخـطـواتٍ متتابعة

جملة ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾، أي: واذكروا عادا وثمود، وهؤلاء زيّن لهم الشّيطان أعمالهم، وهو من عطف الأخبار والجُمَل بعضِها على بعض، ويصحّ أنْ تكون الواو حاليّةً، أي: وقد زيّن لهم الشّيطانُ أعمالهم، أي: ليكن ذِكرُكم لهم فيما يخصّ هذه الحالَ من أحوالهم؛ لأنّ حال التّزيين هذه هي المنوطةُ باتّقائها والتّحوّطِ منها، دون سائر أحوالِهم[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 234.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194.
(3) صافي، الجدول: 10/ 337.

التّزيينُ ترويجٌ لفِكْرةٍ واهِمة وقلْبٌ لحقيقةٍ مُستقرّةٍ

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ التّزيين:

استعمالُ مفردةِ التّزيين فعلًا وإسنادُه إلى الشّيطان في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فيه تنبيهٌ على أصل الفطرة، وأنّ الإنسان حتّى يُخالفها أوّلَ مرّة بالانحراف عنها، لا بدّ له من مُحبِّبٍ يُزيّنُها له حتى يستسيغ قُبْحَ الأعمال المحرّمة، وإلّا لما احتاج إلى تزيينٍ، والذي هو تحسينُ ما ليس بحسنٍ، والإيهامُ بأنّ ما ليس جميلًا جميلٌ! وفي التّركيب تنبيهٌ على أنّه لا يُزيَّنُ إلّا للغافل؛ لأنّ اليَقِظَ المُنْتَبِه لا يرى القبيحَ حسَنًا، فلا ينخدعُ بتزيينه.

النّاسُ فرائسُ الشّيطان يَصطادُهم بحيَلِه

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة:

قُدِّم الجارُّ والمجرور على الفاعل والمفعول في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ دون أن يقول: (وزيّن الشّيطان أعمالهم لهم)، لئلّا يتوهّمَ أنّ المراد بتزيين الشّيطان هو عمومُ عملِه بالتّزيين، بل خصوصُ تزيينه الكائن لهم، وللتّنبيه بتقديم: ﴿لَهُمُ﴾ على أنّهم اتّبعوه في تزيينه، وللتّنبيه على أنّ الشّيطان حين يزيّن للنّاس شيئًا فإنّما يقصدُهم بذواتهم ويتسلّطُ على أبدانهم وخواطرهم، ولا يكتفي بتزيين الباطل، بل يَؤُزّ أنفسَ النّاس إليه.

لفظُ الشّيطانِ يومِئُ إلى الاستيحاش منه وتخوينِه في تزيينه

بلاغةُ إظهارِ الفعل:

أظهر النّظمُ الفاعلَ وهو الشّيطان في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فلم يقل: (وزُيِّن لهم أعمالهم) بإضمار الفاعل وبنائه للمفعول؛ وذلك لأنّ لفظ الشّيطان يومِئُ إلى ضرورة الاستيحاش منه والنّفورِ من تزيينه، فاللفظُ نفسُه منبوذٌ ومشتملٌ على معنى الغرابة والنّفور، كأنّه قيل: الشّيطان البعيدُ من الرّحمة، المحترقُ باللعنة[1] يُزيِّن لكم أعمال الفحش والسّوء، فاسمُ الشّيطان المذكور يستلزم التّحذيرَ من تزيينه؛ لأنّ الشّيطان قبيحٌ في اسمه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 437.

ومسمّاه، فحلاوةُ التّزيين التي تصدر عنه، هي حلاوةٌ ظاهرةٌ فقط، وهي قُبْحٌ وسوءٌ في حقيقتها طُليَتْ بالتّلبيس والزّيف.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ الأعمال دون الأفعال:

الأعمالُ مقصودةٌ، والأفعال قد تجري عن غير قصدٍ

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ الأعمال دون الأفعال في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، لأنّ العمل أخصُّ من الفِعل، فالفِعلُ عامٌّ في الأحداثِ بقصدٍ أو من غير قَصْدٍ، والعمَل هو فِعلٌ مقصود، فدلَّ التّعبير بالأعمال، على أنّهم فعلوها عن قصدٍ واختيارٍ تامّين، ولا يخفى ما فيه من إقامة الحجّة عليهم بأقصرِ بيان[1]، ففيه إقامةُ الحجّة على الذين يتَّبعون خطواتِ الشّيطان وتزيينَه، بأنَّهم قصدوا ما قاموا به من أعمال.

نوعُ الفاء ووظيفتُها:

الشّيطانُ يصدّ النّاسَ باختيارهم، لا جبْرًا لهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ تفريعٌ على جملة التّزيين في قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، أي: تفرّع عن هذا التّزيين وترتّب عليه صدودُهم عن السّبيل، فجعلت الصّدَّ عن السّبيل نتيجةً مُسبَّبةً عن التّزيين، ويصحّ أن تكون الفاء فصيحةً عاطفةً مدخولَها على محذوفٍ مقدّر ناشئٍ من الجملة قبلها، أي: وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم، فأطاعوه في تزيينه، فحصل بذلك الصّدُّ عن السّبيل[2].

علَّةُ حذفِ الفاعل:

التّزيينُ من وساوس الشّيطان المُضِلّة

حُذف الفاعلُ في قوله تعالى: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ لأنّه مقتضى الظّاهر والحال، والفاعل هو الشّيطان، إذ هو مقتضى العطف، أو أن يكون المصدرَ المفهومَ من الفعل، أي: (فصدّهم التزيينُ الحاصل من الشيطان)[3]، والمعنى في المآل واحد.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 134، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عمل - صنع).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 41/ 437، وصافي، الجدول: 10/ 338.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 186.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الصدّ:

التّعبير بالصّدّ يوحي بالإعراض التّامّ

جاء استعمالُ مفردةِ الصّدّ في قوله تعالى: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ ليدلّ على كمال إعراضهم، وتمامِ انصرافهم، وقوّة حيَل الشيطان في منْعِهم وتحويلهم عن السّبيل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: 175]، أي: يخوّف أولياءه المنافقين من التّوبة والاستقامة كراهيةَ أن يُحرَموا تحرّرَ الهوى ولذائذَ الفسوق والانفلات[1].

معنى ﴿عَنِ﴾ ودلالتُها:

من تنحّى عن سبيل الله نحّاه الله وأقصاه

عُدّي فعلُ الصّدّ بحرف المجاوَزة في قوله تعالى: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ ليدلّ على مجاوزتهم لسبيل الحقّ رغم وضوحه، كأنْ لم يَرَوْه، فتنحّوا عنه تنحّيَ المُفارِقِ إلى ناحيةٍ أخرى، ولأجل هذه المُفارَقَة قال بعدها: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ لئلّا يتوهّم واهمٌ أنّهم عمَوا عن السّبيل بالكليّة فيعتذرَ عنهم بانحجاب المعرفة والعِلم عنهم.

معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾:

من حاد عن السبيل هَوي إلى المكان السّحيق

(أل) في لفظ السّبيل في قوله تعالى: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ إما أن تكون للعهد، أي: سبيل اللّهِ الحقّ والنّجاة الذي يعمّر الدّيارَ ويعصمُ من الإهلاك في الدّنيا والآخرة، أو أن تكون عوضًا عن المضاف إليه، أي: سبيل النّجاة، وحُذف المضاف إليه لزيادة مدح السّبيل، كأنّه لِكمالِه وظهور معناه لا حاجة لتعيينِه بالإضافة؛ لأنّه متعيّنٌ متفرّد، كأنّه لا سبيل إلّا هو، أو هو الحريّ بأن يُقال له السّبيل[2].

بلاغةُ الاستعارة:

الشّيطانُ قاطعُ طريقِ الحقّ عن سالكيه بالتّزيين والصّدّ

في جملة ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ استعارةٌ تمثيليّة شبّه حالَ الشّيطان في إغوائه لهم بحال قاطعِ طريقٍ يقف على رأسه، ليمنع

---

(1) الماوردي، النّكت والعيون: 1/ 438، والرّاغب، المفردات: (صدد).

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 362.

النّاسَ من سلوكه، أو شبّه الشّيطانَ في صدّه بقاطع الطّريق، وشبّه سبيلَ الحقّ في وضوحه وانفراد وانفرادِه بطريقٍ عامرٍ مُنير وسطَ الظّلمات والخرابات، وهو من تشبيه المعقولات بالمحسوسات.

دلالةُ واو الحال وبلاغتُها:

ضلالُ أتباعِ الشّيطان عن عِلمٍ وبيّنة

الواو في جملة: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ حاليّة، أي: وقع لهم التّزيينُ والصّدّ في الوقت الذي كانوا فيه متمكّنين من النّظر والاستبصار، فالجملة الحاليّة أفادت مُزامنةَ استبصارهم مع التّزيين والصّدّ الحاصل من الشّيطان لهم، كما أفادت ثبوتَ تبصّرهم قبل أن يقع لهم التّزيينُ والصّدُّ لهم، فدلّتِ الجملة الحالية بذلك على أمرين: **الأوّل:** أنّهم كانوا متأهّلين للنّظر والاستدلال وقتما وقعوا في التّزيين والصّدّ، وعاقِلين لخطاب الرُّسل لهم بالنّذير والوعيد، ومع ذلك جادلوا ولم يَنتهوا، **الثّاني**: أنّهم قبل التّزيين والصّدّ وكانوا على الفطرة الأولى من استبصار الخير وإباء الشّرّ ولكنّهم طمسوها بطاعة الشّيطان[1].

نكتةُ ذكرِ ﴿وَكَانُواْ﴾:

ثبوتُ الاستبصار كنايةٌ عن انقطاع الأعذار وتحقّقِ الجناية

التّعبير بالكون الماضي في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ أفاد ثبوتَ نسبة اسم ﴿وَكَانُواْ﴾ لخبرها، أي: تحقيق نسبةِ الاستبصار إليهم، كأنّ الإخبار عنهم بالاستبصار هو حكمٌ ثابتٌ في أصل خِلْقتهم، وهو كذلك؛ لأنّ الاستبصار موجود فيهم بقوّة الفِطرة وسلامةِ المَلَكة وخلوِّهم من عوارض النّظر والفهم، وقد كان ذلك ديدنَهم في معرفة الحق وتجاوزه.

فائدةُ السّين والتّاء:

أفاد دخولُ السّين والتّاء في قوله تعالى: ﴿مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ التّأكيدَ[2]، فهم على استبصارٍ متأكّد المعاني، جليِّ الحقائق.

(1) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 2/ 297، 306، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 434.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 249.

نكتةُ التّعبير باسم الفاعل:

ما أعظمَ الجناية عند البصيرة

جاء التّعبير باسم الفاعل ﴿مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾؛ لتحقيق تمكّنهم من هذه الصّفة وتحقّقِهم بها، ليقع نفيُ العذر عنهم من كلّ الوجوه؛ ليتأكّد المُرتابُ ويطمئنّ إلى كونهم لم يُظْلَموا طرفةَ عينٍ، ويتقرّرَ له من هذا التّركيب المُحكَم أنّهم همُ الظّالمون(1).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المساكِنُ والدّورُ:

بعضُ الدّور قُبورٌ، فليس كلُّ دارٍ تصلح مَسْكنًا

المساكِن مِنْ (سكن)، وهو أصل يدلّ على ضِدّ الحركة والاضطراب(2)، والسّكون: ثبوتُ الشّيء بعد تحرّكٍ، ويُستعملُ في الاستيطان نحو: سَكَنَ فلان مكانَ كذا، أي: استوطنه، واسمُ المكان مَسْكَنٌ، والجمع مَساكِنُ(3)، وسمّيتِ البيوت مساكِنَ؛ لأنّها تُسَكِّن أصحابَها بالرّاحة والدّعَة والوقار؛ ولأنّ حركتهم واضطرابَهم في السّعي والمَعاش يَتوقّف عندها، ويَسْكُنُ فيها.

وأمّا الدّار: فأصلُ (دور) يدلّ على إحداق الشّيء بالشّيء مِنْ حَواليه(4)، والدّار: المنزل اعتبارا بدورانها الذي لها بالحائط، وقيل: دارة، وجمعها ديار، ثم تسمّى البلدة دارًا، والصَّقْع دارًا، وسمّيت الدّنيا دارًا والآخرة دارًا؛ لإحاطتهما بأهليهما، في النّشأة الأولى، والنّشأة الأخرى(5).

وعليه: فكلٌّ من الدّار والمسكن، يُلحَظ فيه معنًى ليس في الآخر، فالدّار باعتبار الإحاطة والحماية، فحيطانُها تدور حول القاطنين فيها، والمسكن يُلحظ فيه معنى السّكون وانقطاع التّعب وتحصيل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 437.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(3) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دور).
(5) الراغب، المفردات: (دار).

الرّاحة ومفارقة العناء، ولذا قال: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ أي: جعلنا إهلاكهم وعناءَهم من حيث أرادوا الرّاحة والسّكونَ، فما شيّدوه لراحاتهم صار موضعًا لجراحاتهم، ومكانًا للاعتبار بهم، فاعتبروا وتذكّروا، ولم يقل: (وقد تبيّن لكم من ديارهم)؛ لأنّ كلّ المساكن دورٌ، وليس كلّ دارٍ مسكنا، فأراد أن يُخبر أنّ ديارهم كانت أُنْسًا لهم ومصدرَ راحةٍ وسكينة، فعبّر عنها بالمساكن؛ ليؤكّد هذا المعنى، والذي يؤيّد ذلك أنّه عبّر بالدّيار في الآية قبلها في مقامِ التّدمير والإزالة، فقال: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، ولم يقل: (في مساكنهم جاثمين)؛ إذ كيف تكون مساكنَ ومحاضِنَ، وهم فيها جاثمون هالكون، فأين السّكَنُ مع الرّجفة والزّلزلة والاضطراب، فلفظُ المساكن يتناقض مع هذه الأوصاف، ولذا عبّر بلفظ ﴿دَارِهِمۡ﴾ ممّا يشيرُ إلى أنّ المساكن أخصُّ من الدّور، وأنّه ليس كلُّ دارٍ تصلحُ مَسّكَنًا.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾ [العنكبوت: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شِبْهُ الشّيءِ مُنجَذِبٌ إليهِ!

لَمّا ذكر اللّه سبحانه في الآية السّابقة عادًا وثمودَ المتجبّرين في الأرض بغير الحقّ، القائلين: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]، والّذين لم ينفعْهم استبصارهم، فاستحبّوا العَمى على الهدى، ذكر هنا في هذه الآية أشباهًا لهم على سَنَنِهم من الّذين استكبروا في الأرض بغير الحقّ، وجحدوا أيضًا بعدَ استبصارٍ واسْتيقان، وكانت مقولاتُهم أشبهَ بمَقولِ عادٍ وثمودَ وفِعالِهم، فقارونُ قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78]، وفرعون قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 24]، وهامانُ كان ذِراعَه وأداتَه ووزيْرَه، فافتخروا كما افتخرت عادٌ وثمودُ، واستكبروا في الأرض بغير الحقّ مِثْلَهُم، ورأوا آياتِ اللّه فاستبصروها، ثمّ جَحَدوها ظُلْمًا وعُلُوًّا، كما فعلت عادٌ وثمودُ من قبل كذلك.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: (كبر) أصلٌ صحيح يدلُّ على خِلاف الصِّغَر، يقال: هو كَبيرٌ، وكُبار، وكُبّار[1]، وأكْبَرَ الشّيءَ استعظمه، والتّكبيرُ التّعظيم والتّكَبُّر والاسْتكْبارُ التَّعظُّم[2]، والاستِكْبارُ على وجْهيْن: أحدهما: أنْ يَتَحَرَّى الإنْسانُ ويَطْلبَ أن يكونَ كبيرًا، وذلك متى كان على ما يَجِبُ، وفي المَكان الّذي يَجِب، وفي الوقْت الّذي يَجِب، فهو محمود؛ والثّاني: أن يَتَشَبَّع فيُظْهِرَ من نَفْسِه ما ليس له، فهذا هو المَذْموم، وعليه ورَدَ القرآنُ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(2) الرّازيّ، مختار الصحاح: (كبر).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كبر).

2) ﴿سَٰبِقِينَ﴾: (سبق) أصلٌ صحيح يدلّ على التّقديم[1]، والسَّبْقُ: التّقدُّم في السّير، ثمّ يُتَجَوّز به في غيره من التّقدّم، ويُستعار السَّبْقُ لإحراز الفضل والتّبريز، كما في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10][2]، كما يُستعار لِلحيلَةِ النّافذة في الإفلاتِ والفَوتِ، وهي المنفيّة هنا في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾؛ أي: لم يكونوا كما حَسِبوا بأنّ لهم القدرةَ على التّقدُّم بين يدَي حُكْمِ اللّهِ عليهم بالإهلاك، وأنّهم في موضع السّابق المتقدّم على ما أُريد بهم من عقاب فلا يدركهم ذلك.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مــواكــبُ الــرّســالات تَـتْرا، ومصارعُ المكذّبين في الثّرَى

ما زالتِ الآياتُ تحدّثنا عن مواكبِ الرّسالات[3]، وتحكي لنا مَصارعَ المُكذِّبين لها، والمُعاندينَ لأصحابها الرّسلِ الكرام صلوات اللّه عليهم وسلامُه، فبعدما ذكر البيان الإلهيّ عاقبة عادٍ وثمودَ المُكذِّبين أتى على ذكر أمثالهم فبَيَّنَ كيف أهلك اللّه قارونَ صاحبَ الأموالِ الطّائلة والكنوزِ الكثيرة، وفرعونَ مَلِكَ الملوك في عصرِه ومِصرِه، ووزيرَه هامان، ولقد جاءهم موسى بآياتٍ بيّناتٍ تدلُّ على صدقِ رسالته، فاستكبروا في الأرض، وأبَوا أن يُصدِّقوه وأنْ يُؤمنوا به، وما كانوا فائتين من عقاب اللّه، ولا هاربينَ من قدرته، ولا سابقينَ إلى النّجاةِ عنه؛ لأنّه قادرٌ عليهم وآخِذُهم أخْذَ عزيزٍ مقْتَدِرٍ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ﴾ ممّا قبلها:

يـؤولُ أمرُ الأمم الـلّاحـقـةِ مع الأمـم السّابقةِ إلى المصيرِ نفسِه

قوله: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ في محلّ نصب بالعامل المُضمر،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبق).
(2) الرّاغب، المفردات: (سبق).
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11164.
(4) المَراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 140.

وهذا العاملُ المضمرُ معطوفٌ على العامل المُضمَر في قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ [العنكبوت: 38]، والتّقدير: (واذكُرْ عادًا وثمودَ، واذكُرْ قارونَ)، أَوْ: وأهلكنا عادًا وثمودَ وأهلكنا قارونَ، أَوْ: أخذنا عادًا وثمودَ وأخذنا قارونَ وفرعونَ وهامانَ، أَوْ معطوفٌ على الضَّمير المنصوب في قوله: ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ [العنكبوت: 38] في الآية قبلَه، والتّقدير: (فصدّهم وقارون وفرعون)، أي: وصدّ قارونَ وفرعونَ، والخلاصةُ: أنّ الجملة في موضع العطف على جملة: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ [العنكبوت: 38]، أَوْ على الضّمير في جملة: ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ [العنكبوت: 38]، والفرقُ بينهما: أنّ الأوّل: فيه إشراكُ قارون وفرعون وهامان في حكم العاملِ المضمر قبلَ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ [العنكبوت: 38]، والثّاني: إشراكُهم في حُكم الصَّدّ(1).

علّةُ التّرتيب بينَ الأسماء الثّلاثة:

ليس كلّ تقديمٍ في الدنيا محمودًا

تقديمُ قارونَ على فرعونَ وآلِه في قوله: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ﴾؛ لِشَرَفِ نَسَبِه، وكونِه من قَراباتِ موسى ﷺ، أَوْ لِشَرفِه في العِلمِ الّذي اعتقد أنّه من عِندِه، بقوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78]، أَوْ لإيمانه الظّاهر وعِلْمِه بالتّوراة، فصار أشبَهَ بحال عادٍ وثمودَ في الاستبصار بقوّة العِلم، كما استبصروا بقوّة المادّة والبُنيانِ، وذلك في قوله عنهم: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾ [العنكبوت: 38]، فلم يُفدهم كونُهم مستبصرينَ شيئًا، أَوْ لأنّ إهلاكَه كان قبلَ إهلاكِ فرعونَ وهامان، فتقديمه عليهم بحسب الوجود والواقع، أَوْ لأنّه لمّا كان المقصود تسليةَ النّبيّ ﷺ، فيما لقيَ من قومه؛ لِحسدهم له، وقارونُ كان من قوم موسى ﷺ وقد لَقي منه ما لَقي، فبدأ به لِشَبهِ حالِ قومِ النّبيّ مع النّبيّ، بحالِ قارونَ معَ موسى ﷺ، فبدأ بما هو أعونُ على العزاء والتّجلّد وعدم الحَزَن، فإنّ الإنسان يتخفّف من

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 9/ 21.

حَرَجِ ما ألمّ به، باشتراكِ غيرِه معَه في الإصابة به[1]، وثنّى بفرعون؛ لِفُشوِّ شَرِّه، وخطَرِ نفوذِه في الإفساد والعِناد، وثَلَّثَ بعدَه بهامانَ؛ لموقعه الرُّتَبِيّ من فرعون، فهو وزيرُهُ؛ ولذلك لحِقَ به، وجاءَ بعدَه.

دلالة الواو في قوله ﴿وَلَقَدۡ﴾:

اسـتـحـقـاق المكذّبين الهلاكَ بشهادة رسلِهم

جملة ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ مستأنفةٌ؛ لتقرير حُجَّةِ الإهلاك، بعدَ تقرير الإهلاك، كأنّه قيل: أهلكناهم بعدما جاءَهم بالبيّنات موسى، وكَأنّ مجيءَ موسى بالبيّنات كانَ شاهدًا على استحقاقِهمُ الهلاكَ، ويصحّ أن تكون الجملةُ معطوفةً على قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًا﴾ [العنكبوت: 36] عَطَفَ الجملةَ على الجملة، والقصّةَ على القصّة[2].

دلالة اللّام في: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

تـنـبـيـه الـنّـاس الـذيـن اعـتـادوا عـدمَ أخْـذِ كثيرٍ مـن الأمـور على محمل الجدّ

(اللّام) في قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ لامُ القسم وهي الموطِّئة، أوْ هي لامُ الابتداءِ المؤكِّدة، وحينئذٍ لا قسَم، وأيًّا ما كان فـ(اللّام) لتوكيد مدخولها وتحقيق مضمونها، وإنَّ اقترانَها بـ(قد التّحقيقيّة) توكيدٌ بعدَ توكيد، وكَأنّ المخاطبين نُزِّلوا منزلةَ المُنْكِرِ أوِ المتردِّد أوِ المُرْتاب فاحتاجوا لتوكيدِ الخبر، أوْ لأنّ عادةَ نوعٍ من النّاس عدمَ أخذ كثيرٍ من الأمور على محمل الجِدّ، فاستُرعِيَ شأنُهم بقوّة التّوكيد لتجديد الاعتبار، وتحرّي الموعظةِ، واستدامةِ النّظر والبصَر.

غرضُ التّعبير بالمجيءِ دونَ الإتيانِ مع الآيات:

المجيءُ يُلمَحُ فيه الـعـزمُ وسبقُ الإصرارِ، وليس ذلك في الإتيان

عبّر بالمجيءِ دون الإتيانِ في مقام البيّنات، في قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ للدّلالة على تحقّق حصولِ النّبوّةِ بينهم بموسى عليه السلام، وتحقّق حصولِ البيّنات لهم، فإنّ المجيءَ أبلغُ على التّحقيق والتّوكيدِ من الإتيان؛ لما فيه من زيادة في بذل الجهد والمشقة في التّبليغ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 363.
(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 20/ 266.

معنى الباء في قوله ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

مصاحبة المؤيِّداتِ للمؤيَّد قوّةٌ له

(الباءُ) في قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ للمصاحبة، أي: مصاحبًا بالبيّنات، وفيه إشارةٌ إلى معنى التّأييد بها، كأنّه قيل: جاءهم موسى مؤيَّدًا بالبيّنات والمعجزات؛ فإنّ الصّاحبَ يأخذُ من قوّة صاحِبه، ولا قوّةَ أحكمُ وأمْتَنُ من قوّةِ بيّناتِ الوحي وآياته الّتي لا عِصمةَ إلّا باتّباعها واتّباع المؤيَّدِ بها.

معنى (أل) في ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

استغراق جنس البيّنات وهي منظورةٌ مسطورةٌ

(أل) في البيّنات؛ للدّلالة على حقيقةِ الجنس وماهيّتِه؛ وذلك مبنيٌّ على أنّ البيّناتِ الّتي جاءَ بها كلّ رسول - وإنِ اختلفتْ في أفرادها - لا تختلفُ في حقيقتها وجنسِها، فهي الكلامُ الذّاتيّ للّهِ سبحانَه القويّ، أوْ هي خوارقُ العاداتِ المُعجزةُ، وألواحُ التّوراة المكتوبُ فيها من كلّ شيءٍ موعظةً وتفصيلًا لكلّ شيء، وبهذا الاعتبار، فـ(أل) للعَهْد، و(البيّنات) صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ تقديرُه (الآياتُ أوِ المعجزات)، وإسنادُ التَّبيينِ إليها مجازٌ عَقليٌّ للمبالغة؛ كأنَّها لفرطِ قوَّتِها وإحكامِها مُبَيِّنةٌ عن نفسها.

معنى الفاء في قوله ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

دلالة على تضييع فرصة الاستصلاح، وعلامةٌ على الخِذلان

(الفاءُ) في قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ تفريعيّة، لها معنى التّسبيب، وتسبيبُ الاستكبار عن مجيءِ البيّنات كنايةٌ عن التّسجيل عليهم، والتّعريضِ بهم بارتكابِهم ما لا ينبغي انتزاعًا له ممّا ينبغي ويجبُ عليهم ضِدُّه، إذ مجيءُ البيّناتِ يَستوجِبُ القَبولَ لها والانكسار، لا الإعراض عنها والاستكبار، ففرّعَ الشّيءَ على ضدّه؛ للتنبيه على مَدى انتكاستِهم، وتحوّلِ فِطَرِهم وتبدّلها، فاستخرجوا ممّا يوجب الهدايةَ والإخبات، أحوالَ الإعراض والانفلات، وهذا هو معنى الكناية في التّفريع.

نكتة دخول (السّين والتّاء) على فعلِ الاستكبار:

الـدَّلالـةُ على الطَّلـب، لكنْ شرُّ النّاس مَن كان الكِبْرُ مَطْلَبَه

(السّينُ والتّاء) في قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ للطّلب، وهو جارٍ على معنى بديع، وهو أسلوبُ التّجريد[1]، كأنّهم جرّدوا من أنفسهم أشخاصًا يُخاطبونهم يطلبونَ منهم التّكبّر، مبالغةً في تحقُّق تكبُّرهم وتصميمِهم عليه، وجَعْلُ الفِعلِ مطلوبًا منهم، كنايةٌ عنِ المبالغة في الاتّصاف به، كأنّهم يُحاولونه ويجتهدونَ في تحصيله، فيلزمُ عنه الاتّصافُ به على جهة التّأكيد والمبالغة، كأنّ المستكبرَ طالبٌ من نفْسِه الكِبْرَ وحاملُها عليه[2]، فاستلزمَ معنى الطّلب إفادةَ التّأكيد والمبالغة، وفي قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، حيثُ جعلَ المتكبّرَ على الحقّ في إعراضِه وتعنُّته؛ بمنزلةِ مَن جرّدَ من نفسِه شخصًا يطلبُ منه ذلك، فالتّمثيلُ حاصلٌ بتشبيه حال المتكبِّر في محاولةِ التّنصُّل من القبول والإذعان، بحالِ مَن يحرصُ على شيءٍ صعبٍ، فيطلبُه من غيره؛ ليُنْفِذَه له، بجامع الحِرص في كُلٍّ[3].

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

ظرفيّةٌ حقيقيّةٌ دالّــــةٌ عـلى الإفــســادِ في الـوعـاء الّـذي يـحـويـهـم (الأرض)

﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للظرفيّةِ الحقيقيّة، وليس معناه أنّهم في داخلِ تلافيفِ الأرض، فهذا غيرُ واقع، بل معنى الحقيقة في الظّرفيّة، أنّ الأرضَ وعاءٌ يَضمُّهم وهم مظروفونَ في داخل هذا الكوكبِ الكرويّ، فهم بادونَ داخلَ هذا الوعاء بالنّسبة لوضع الأرض المرئيّ من خارجِها من الفضاءِ الّتي تسبحُ فيه، أوِ التّعبيرُ بحرف الظّرفيّة للإشارةِ إلى أنّ ما يترتّبُ على استكبارِهم من الإفسادِ يُصيب الأرض نفسَها ويغيّر في تكوينها.

فائدة تعليق الظّرفيّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالاستكبار:

لا خيرَ في رياسَة تَعقُبُها تَعاسَة

تعليقُ قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ باستكبارِهم في قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي

(1) عبد الرّحمن، البلاغة العربيّة: 2/ 434.
(2) الزّمَخْشَريّ، الكشّاف: 3/ 237.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البَيْضاويّ: 13/ 343.

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للإشعار بأنّ استكبارَ كلٍّ منهم كانَ في جميع البلادِ الّتي هو منها، فيومِئ إلى أنّ كلّ واحدٍ من هؤلاء كان سيّدًا مُطاعًا في الأرض[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

بسط النُّفوذ على الأرض فيه إغراء بالإفساد لِمَنْ لا يشكرُ ولا يُبْصِر

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ من قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهد، على معنى إرادةِ أنْ يكون المعهودُ أرضَ كلٍّ منهم، الّتي يبسطُ نفوذَه عليها، كما يقالُ: هذه أرضُ فلان، أي: مِنْطَقَتُه التي يحكمُها، أوْ أنْ يكونَ المعهودُ الكرةَ الأرضيّةَ بكاملها، مبالغةً في انتشار استكبارِ كلٍّ منهم في البلاد، حتى كأنّه يعمّ الدنيا كلّها، فالعهد الأوّل على التّقييد، ويصحّ معه أن تُعْقَبَ (أل) بالضّمير أي: فاستكبروا، كلٌّ في أرضه، والعهدُ الثّاني على الإطلاق[2]، ولا يبعدُ أنْ تكون (أل) للاستغراقِ العرفيِّ، فيكونُ الاستكبارُ في جميع أمكنةِ الأرضِ عمومًا عرفيًّا مبالغةً.

معنى الواو في قوله ﴿وَمَا كَانُواْ﴾:

تناقُض مَن جمعوا بين الاستكبارِ والعجزِ

جملةُ: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ حاليّةٌ من ضميرِ الجمع الفاعل في: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، أي: استكبروا والحالُ أنّهم ما كانوا سابقينَ عقوبةَ اللّه بالإفلاتِ والفوات منها، فلا يسبقونَها، وفائدةُ الواو الحاليّة: إفادةُ أنَّ عدمَ سَبْقِهم ثابتٌ ومتحقّقٌ قبل استكبارهم، فهم غيرُ سابقين حتمًا سواءٌ استكبروا أمْ لا، وأيضًا: إفادةُ أنّ نفيَ سَبْقِهم مُزامنٌ لوقتِ استكبارِهم، كأنّه قيل: استكبروا في الوقتِ الّذي لا سبْقَ لهم فيه، أي: حصلَ استكبارُهم في الوقتِ الّذي لا حولَ لهم ولا قوّة على الإفلاتِ والفوات[3]، ويصحُّ أنْ تكون جملةُ: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ معطوفةً على جملة: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾[4]، والمراد: أنّهم جمعوا

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 250.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 250.
(3) فاضل السّامُرّائيّ، معاني النَّحو: 2/ 297، 306، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 250.
(4) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 20/ 267.

بين الاستكبارِ والعجزِ عن الإفلات، فجمَعوا بذلك بينَ الشّيءِ ونقيضِه، وهذه عادةُ الكافر، أنّه متورِّطٌ في التّناقض.

الكناية عن فِعْل اللهِ:

قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ كنايةٌ عن لازمه، مِنْ أنّ استكبارَهم جاءَ على غير طائلٍ، أي: استكبروا في حالٍ لا فائدةَ لاستكبارِهم، وكنايةٌ عن فِعْلِ اللّهِ فيهم بالغَلَبَةِ والقهْر[1].

معنى (ما) وغرضُ دخولها على فِعْل الكون:

تأكيد عجزهم عن استباقِ ما قدّرَهُ الله

(ما) في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ تدلّ على نفي الماضي البعيد، وفعلُ الكونِ الماضي؛ يفيد تحقيقَ نسبةِ اسم (كان) معَ خبرها، وتأكيدَ عراقتهم في نفي هذا الحُكم عنهم، ومعناه: أنّهم مجبولونَ على عدم الفوْتِ ممّا أراده اللّه، فهذا في طبيعتِهم لا ينفكّ عنهم، فأنّى لهمْ أنْ يُفْلِتوا، وقد تَظاهرَ على تقريرِ هذا المعنى مجيءُ الوصفِ على وزان اسم الفاعل: ﴿سَٰبِقِينَ﴾[2].

نكتةُ حذفِ المتعلَّق:

لا مَفَرّ من مُلاقاةِ ما أرادَه الله بهم

حذفُ متعلّق: ﴿سَٰبِقِينَ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾؛ للتعميم، ليتّسِعَ تقديرُ المتعلّق بحسبِ كلّ عقْلٍ في تصوّرِه وطاقتِه منَ الوعي، فيصحّ تقدير: (وما كانوا سابقينَ عقابَنا وأخْذَنا) جريًا على المضمونِ السّابق بتقدير الإهلاك، أوْ (وما كانوا سابقينَ غيرَهم في الكفر وعاقبتِه منَ الإهلاك، فقد سبقَهم للكفْر قرونٌ كثيرة فأهلكناهم)، أوْ (وما كانوا سابقين أولياءَنا في استحقاقِ العاقبة والفوْز)[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الاستكبار والبَطَر:

الاستكبارُ نابِتَةُ البَطَر

البَطَر: دَهَشٌ يعتري الإنسانَ من سوءِ احتمالِ النّعمةِ وقلّةِ القيام

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 20/ 250.
(2) فاضل السّامُرّائيّ، معاني النَّحْو: 4/ 192.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 317، والقُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 344.

بحقّها، وصَرْفِها إلى غيرِ وجْهِها[1]، فالبَطَر طغيانٌ بالنّعمة، يؤدّي إلى كراهةِ الحقّ والتّكبّرِ عنهُ برفضِهِ وعدمِ قبوله، فكأنّه استغنى بالنّعمةِ، فتكبّرَ على الحقّ بها؛ لعدمِ حاجتِهِ إليه بظنِّه[2]، والبطَر: الحيرةُ، ومعناه: أنْ يَتحيّرَ عندَ الحق فلا يراهُ حقًّا[3]، فالبطرُ - في ضوءِ ما سبقَ - فسادُ النّفس إزاءَ تلقّي النّعمة، ببَخْسِ قيمتها، أَوْ بالإفسادِ بها فتُهْدَر، بل تكونُ وبالًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَاۖ﴾ [القصص: 58]، أي: استعملتْها في الفساد، فأهدَرَتْها، وكما قال ﷺ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ»[4]، أي: (رفضُهُ تَعَظُّما أَوْ أَنَفَةً، ممّا يعني عدمَ تقديرِ قيمته أوِ اعتدادَه بلا قيمةٍ)[5]، والحديثُ الشّريفُ من باب تعريفِ الشَّيءِ بسببِهِ، فالبَطَر هو سببُ الكِبْرِ والتّرفّعِ على الحقّ.

وأمّا الكِبْرُ والتّكبّرُ والاستكبارُ فهو التّلبّسُ بصفة الكِبَر بحقٍّ أَوْ بغيرِ حقّ، طابقَ الواقعَ أَوْ خالفَه، والكِبَر خلافُ الصِّغَر، وأصلُه في تعاظُم الأجرام المحسوسة وتكاثُرِها في الحجم والمقدار، ويستعارُ للكيفيّة النّفسيّة الّتي تُشْعِرُ الإنسانَ بتعاظُم الحالِ وكِبَرِ الشَّأن، سواءٌ أحسّ ذلك في نفسه، فيرى نفْسَه أكبرَ من غيره، أَوْ أحسّه في غيره، فيرى غيرَه أكبرَ، والتّكبّرُ قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا، فالأوّل: أنْ تكون الأفعالُ الحسنةُ كثيرةً في الحقيقة وزائدةً على محاسنِ غيره، وعلى هذا وصَفُ اللّه تعالى بالتّكبّر، قال تعالى عن نفسه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر: 23]، والثّاني: أنْ يكونَ متكلّفًا لذلك متشبِّعًا، وذلك في وصْفِ عامّة الناس، نحوُ قوله: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾ [الزمر: 72]، ويدلّ على أنّه قد يصحّ أنْ يوصفَ الإنسانُ بذلك ولا يكونَ مذمومًا، قولُه: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 146] فجعلَ متكبّرينَ بغيرِ الحقّ، ومفهومُه: وقوع التّكبّر بالحقّ[6].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (دهش).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (بطر).

(3) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (بطر).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه باب تحريم الكبر وبيانه، الحديث رقم: (91)، ولفظ الحديث عن عبد الله بن مسعود عن النّبيّ ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة قال إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط النّاس»، وأخرجه الترمذي، سنن الترمذي، كتاب البر والصّلة، الحديث رقم: (1999)، وأخرجه أبو داود في سننه، الحديث رقم: (4092).

(5) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بطر).

(6) الرّاغب، المفردات: (كبر).

وعليه: فالفرقُ الدّقيق بين الكِبْر والبَطَر: أنّ البَطَر لا يكون إلا مذمومًا، ولذلك لا يوصفُ به المولى سبحانه وتعالى، وأمّا الكِبْرُ فقد يقع محمودًا ومذمومًا؛ ولذلك لم يقع الاستكبارُ في القرآن إلا مذمومًا به الإنسان؛ لأنّ (السّين والتّاء) تدلّان على الطّلب، والطّلبُ في ذاته يدلّ على عدم الاتّصاف، أوْ تكلّفِ الاتّصاف، فيكونُ مذمومًا، والبطَرُ هو مُسبِّبُ الاستكبارِ في الإنسان، لأنّ النّعمةَ تُطغي والغِنَى يُنْسي، فيَتوهّمُ المستكبِرُ عدمَ حاجته إلى الإذعان للحقّ، فيَستعلي عليه وعلى أهله بالرّفض والازدراء.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾

[العنكبوت: 40]

يحصدُ الإنسانُ ما زرعَه من الشّرّ، ويعفو اللهُ عن كثير

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكرَ في الآياتِ السّابقة جناياتِ القوم وجرائمَهم مع أنبيائهم، ذكر هنا مصارعَهم المُستحقَّةَ بسببِ ما جَنَوا به على أنفسهم، فحصَدوا ما زرعوا وما عمَدوا وأصرّوا.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿حَاصِبًا﴾: أصل (حصب) جِنْسٌ مِنْ أَجْزاءِ الْأَرْضِ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ، وهوَ الحَصباءُ، وذَلِكَ جِنسٌ مِنَ الحَصَى، ويُقالُ حَصَبْتُ الرَّجُلَ بِالْحَصباءِ، وريحٌ حاصِبٌ، إذا أتَتْ بِالْغُبارِ[1]، وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ هي الرّيحُ القويّةُ الّتي تقلعُ الحَصْباءَ، وهي صغارُ الحصى وكبارُها[2].

2) ﴿خَسَفْنَا﴾: (خسف) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى غُموضٍ وغُؤورٍ، وإِلَيْهِ يَرْجِعُ فُروعُ الْبابِ، فالْخَسْفُ والْخَسَفُ: غُموضُ ظاهِرِ الْأَرْضِ[3]، ويقال: انْخَسَفَتْ، وخَسَفَها اللّهُ، وخَسَفَ اللّهُ بِهِ الأرضَ خَسْفًا، أي: غابَ بِهِ فيها؛ ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81]، وخَسَفَ هوَ في الأرض وخُسِفَ بِهِ[4]، وقوله: ﴿خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: خرقْنا الأرضَ به، وجعلناها به مخروقةً، كما تُخرَق بالوتَد[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حصب).
(2) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (حصب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسف).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خسف).
(5) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (خسف).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

سُنّة اللهِ في مُؤاخذة الظّالمين لا تَتَخلّف

ختمَ البيان القرآنيُّ الحديثَ عن هؤلاء المكذّبين، ببيانِ سنّةٍ من سُنَنِه الّتي لا تتخلّف، فقال: فكُلًّا من هؤلاء المذكورينَ كقوم نوح وإبراهيمَ ولوطٍ وشُعَيبٍ وهودٍ وصالح، وكقارونَ وفرعونَ وهامانَ وأمثالِهم من الظّالمين أخذناهُ وأهلكناهُ بسبب ذنوبِه الّتي أصرّ عليها دونَ أنْ يرجعَ عنها[1]، فمنهمُ الّذين أرسلنا عليهم ريحًا شديدةً تَرميهم بحجارةٍ من طينٍ مُتتابع، وهم قومُ لوط، ومنهم مَن أخذَتْه الصّيحة، وهم قومُ صالحٍ وقومُ شُعَيب، ومنهم مَن خسفْنا به الأرضَ كقارونَ، ومنهم مَن أغرقْناهم، وهم قومُ نوحٍ، وكذا فرعونُ وقومُه، ولم يكنِ اللّهُ ليُهلكَ هؤلاءِ بذنوب غيرهم، فيظلمَهم بإهلاكه إيّاهم بغير استحقاق، ولكنهَّم كانوا أنفسَهم يظلمونَ بتنعُّمِهم في نِعَم ربِّهم وعبادتِهم غيرَه[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء):

تفريعُ المؤاخذةِ على سببها من الجناية

جملة: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، تفسيرٌ لما يُنبئ عنه عدمُ سبقِهم بطريقِ الإجمال، أي: فكلّ واحدٍ من المذكورين[3]، ويصحّ أنْ تكون الجملة فذْلَكَةً بعد الإهلاكِ المقدّر في جملة: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾، أوْ إهلاكِ الجميع، كما في: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ [العنكبوت: 38] أي: فذَلِكَ الإهلاكُ المذكور لهؤلاءِ الأشخاص والأقوام، كان أخْذًا منّا لكلِّ واحدٍ منهم بذنبِه، والفَذْلَكَةُ: هي تقريرُ ما سبَقَ بالتّعقيب عليه بِخلاصتِه المُناسِبة، وهي منحوتةٌ كـ(البَسْمَلة)، وأصلُها من عبارة: (فَذلِكَ كذا)[4]، والفاءُ في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا﴾ تفريعيّةٌ؛ لترتيب

(1) طنطاويّ، الوسيط: 11/ 38.

(2) نخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميسَّر، مَجْمَع الملك فهد، ص: 401.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 40.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 363.

مضمونِ مدخولِها على إهلاكهم والإخبارِ عن عدم سَبْقِهم، أي: فتسبّبَ عن تكذيبهم وعصيانهم أنّ كلًّا منهم أخذناهُ بذَنْبِه[1].

الموقع النّحويّ والبيانيّ لقوله: ﴿فَكُلًّا﴾:

التقديم أفاد الأهمية والتنبيه وتأكيد الحصر

قوله: ﴿فَكُلًّا﴾ مفعولٌ مقدّمٌ منصوبٌ بـ﴿أَخَذْنَا﴾، وأصلُ الكلام: أخذنا كلَّ واحدٍ منهم بذنبه، فالتَّنوينُ عِوضٌ عن المضاف إليه المحذوف، وتقديمُ المفعول؛ للاهتمام بأمرِ الاستيعابِ والاستغراق الَّذي أفادَه لفظُ: (كُلًّا)، فقُدّمَ إسراعًا في التَّنبيه وتأكيدًا على الاهتمام بما قُدِّم، وللدَّلالة على الشُّمول الاستغراقيِّ، ولأنّ المفعولَ هو المأخوذ، فكان التَّوجُّهُ إليه بالقصد أوْلى، وهل التَّقديمُ يفيدُ الحصر؟ الظّاهرُ أنّ الحصرَ مستفادٌ من لفظ (كُلًّا) حتّى لو تأخَّرَتْ؛ لكونها نصًّا في العموم، تفيدُ الاستغراقَ بنفسها، وقيل: تقديمُها أفاد الحصرَ، على معنى: (كلّ واحدٍ من المذكورينَ عاقبناهُ بجنايتِهِ، لا بعضًا دون بعض)، ولو أخرّ (كُلًّا) فلا يُفهَم منها عدمُ إلحاق البعض، وإنّما يفهم منها بواسطة التّقديم[2]، والظّاهرُ أنّ التّقديم أفادَ تأكيدَ الحصر وتحقيقَه بحيثُ جعلَه مقطوعًا به، لا يطرأُ عليه احتمالٌ يُتوهَّم معَه عدمُ دخولِ البعض، وأمّا التَّأخيرُ فهو وإنْ أفادَ الحصرَ بسبب المعنى الوضعيِّ للفظ (كُلًّا) إلّا أنّه لا يمنعُ إمكانَ إرادةِ البعض واحتمالَه بسببِ عدم إمكانِ تقدير: (لا بعضًا دون بعض).

بلاغةُ الاستعارة:

العذاب كطارقِ الفَجأة حينَ يُسَلَّطُ ويُستأجَر فيُلبّي ويَستَوْلي

التّعبير بـ(الأخذ) في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا﴾ يُقصَد به تناولُ الشَّيء وتحصيلُه بقوّة وقهْر، فهو إزالةٌ للشّيءِ من حِرْزِه الأوّل إلى حِرزٍ مُتناوِله، والمرادُ به في قوله: ﴿أَخَذْنَا﴾ الإهلاكَ والإعدام، فشبّه الإعدامَ بالأخذ، بجامعِ الإزالة في كُلٍّ، على سبيل الاستعارة

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 439.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 363.

التّصريحيّة التّبعيّة[1]، والغرضُ من الاستعارة تجسيدُ الإعدام والإهلاكِ بثياب الحسيّات، مع سهولةِ عمليَّة الإهلاك، فصوِّر العذابُ بقادرٍ على الأَخْذ؛ لأنّه كطارقِ الفَجأة حينَ يُسَلَّطُ ويُستأجَر فيُلبّي ويَستَوْلي.

نكتةُ إسنادِ الأخذ إلى ضمير العظمة:

إسنادُ الأخذ إلى ضمير العظمة والجلال في قوله: ﴿أَخَذْنَا﴾؛ للإشعار بأنّ إيقاع العذاب لا يتأتّى إلّا بعظمةِ القويّ الجبّار، فالأخذُ بالعقوبة لازمٌ عنها.

معنى الباء:

الظّالمُ جانٍ على نفسِه

(الباء) في قوله: ﴿بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ سببيّة، أي: بسبب ذنوبهم أخذناهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى استحقاقهم، وفي تعليلِ الانتقام والإهلاك تسويغٌ لهما؛ وإشارةٌ إلى أنَّ للعبد مَدخلًا فيما يواجهُهُ من عقوبات.

نكتةُ إضافة الذّنب إلى الضّمير، وعودِ الضّمير:

المؤاخذةُ وقعَتْ بِقَدْرِ الذَّنْبِ وبحقِّه، ولا يظلِمُ ربُّكَ أحدًا

الضّميرُ (الهاء) في قوله تعالى: ﴿بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ عائدٌ على المضاف المقدّر المنوبِ عنه بالتّنوين في قوله: ﴿فَكُلًّا﴾، أي: (كلّ أحدٍ من المُستكبِرين المذكورين)، وإضافةُ الذَّنب إلى الضَّمير في: ﴿بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ للتّعريف وإفادةِ العهد، وهو ذنبُ الكُفر المعهود من كلِّ طائفةٍ بعينها، فقومُ لوطٍ لهم ذنبُ الفاحشة، وقومُ شعيب لهم ذنبُ تطفيف الكيل والميزان ...، وهكذا، وغرضُ الإضافة: الدّلالةُ على أنّ المؤاخذةَ وقعتْ بقَدْرِ الذَّنْبِ المُرتَكَب وبحقِّه، مع ما في ذلك من حَمْلِ المُخاطَب على استحضارِ العقوبةِ مقترِنةً بسببها من الجناية، ولا يخفى ما فيه مِنْ كمال التّرهيب، وقصْدِ التّنفير من الجرائم والموبِقات.

نكتةُ التّعبير بالذّنب دونَ غيره:

لفظُ الذّنب دالٌّ على العقوبةِ المقترنةِ به

عبّر بالذّنب في قوله: ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾؛ ليدلّ به على العاقبة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 247.

والمؤاخَذةِ اللّاحِقة به، فالذّنْبُ هو العملُ السّيّءُ الّذي تُستَوْخَم وتُستَثْقَلُ عاقبتُه، وهذا المعنى مأخوذٌ مِنَ (الذَّنَب)، الّذي هو مُؤَخَّرُ الشّيء، فيُلاحَظُ في الذَّنْبِ تَبِعَتُه من العقوبةِ الّتي تَلحقُه وتواليْه موالاةَ مُؤَخَّرِ الشّيء لأوّلِه ومُقَدَّمِه، ولا يخفى وجْهُ اصطفائه هنا؛ لاقترانِه بالعقوبة والتَّبِعَة في: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾[1].

معنى الفاء:

التّفصيلُ، حيث العِبْرةُ تكمنُ فيه

(الفاء) في ﴿فَمِنْهُم﴾ في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ تفريعيّةٌ؛ لتفصيلِ الإجمال في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، فهي تفصيلٌ للأَخْذِ وتفسيرٌ له وبيانٌ لكيفيّاته[2].

معنى (من):

(مِنْ) في قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ للتّبعيض، أي: فبعضُهم أرسلنا عليه كذا، وبعضُهم أرسلنا عليه كذا.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة:

الاهتمام بذِكْر الجاني في مقام إيراد العقوبة ضرورةٌ؛ لكونه المقصودَ بها

تقديمُ شبهِ الجملة في قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ للاهتمام واستحضارِ العنايةِ بالمأخوذِ المُعاقَب؛ لكونه محلَّ العِبرةِ والمَثَل في الاتّعاظ به، والتّحوّطِ من التّورّط في مِثْلِ مَسْلَكِهِ ومصيرِه.

دلالة ﴿مَّنْ﴾:

إنّ المُهلَكين بأنواع العذاب أعمّ ممّا قصّه القرآن

﴿مَّنْ﴾ في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا﴾ إمّا موصولةٌ بمعنى (الّذي)، وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ صلةُ الموصول، أوْ نكرةٌ موصوفة، وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ صفتُها، والتّقدير: (فمنهم فريقٌ أرسلْنا عليه ....، أوْ بعضٌ أرسلْنا عليه)، والموصوليّة هنا تفيد العهديّةَ والتّعيين، أي: تعيينَ المأخوذينَ بمضمونِ الصّلة، وهم قومُ عاد، وأفادَتْ ﴿مَّنْ﴾ على الموصوليّة عمومَ المُهلَكين رجالًا ونساءً، أمّا على كونها نكرةٌ موصوفةٌ؛ فالمعنى

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (ذنب).

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 40.

هو الإبهامُ وعدمُ التّعيين، وإنْ كان بعضُ أفراد هذا المبهَم معلومينَ للمخاطَب كقوم عاد، إلّا أنّ الإبهامَ مقصودٌ من عموم ﴿مَّنْ﴾ معَ تخصيصِها بالوصف؛ لتقليلِ الاشتراك، فلا يدخلُ جميعُ المعذَّبين، فيُقتصر منهم على المعذّبين بإرسالِ الحاصب فقط، ومعنى قصدِ الإبهام: إرادةُ أنَّ المُهلكينَ بإرسالِ الحاصب أعمّ من قوم عاد، فلم يَقصُصْهمُ اللّه علينا، فالعِلْم بهم عندَ اللّه[1].

نكتةُ إسنادِ الإرسال إلى ضميرِ العظَمة:

إسنادُ الإرسالِ إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾؛ للدّلالة على اقتدارِ اللّه العظيم في تصريفِ أفعاله وإنفاذِها[2].

غرضُ تعديةِ الإرسال بـ(على):

الاستعلاء للتّفريقِ بينَ إرسالِ العذاب وإرسالِ الخطاب

تعديةُ الإرسال بحرف الاستعلاء في قوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾، ولم يقل: (أرسلنا إليه)؛ لأنّ الإرسال هنا إرسالُ عذاب، فهو عالٍ عليهم، وليسَ إرسالَ خطاب، حتّى تكونَ غايتُه إيصالَه إليهم، فهو إرسالُ عذاب، لا خِطاب[3].

فائدةُ تقديم شبه الجملة:

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ شبهَ الجملة ﴿عَلَيۡهِ﴾ في قوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾، ولم يقلْ في السّياق الكريم: (أرسلنا حاصبًا عليه)، للاعتناءِ والحصْر.

نكتةُ تنكيرِ ﴿حَاصِبٗا﴾:

تنكيرُ قوله ﴿حَاصِبٗا﴾ في قوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾؛ جاء لتهويل العذاب وتعظيمه تربيةً بالتّرهيب والتّخويف لصرف العصاة والكافرين عن العصيان والكفر.

---

(1) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 20/ 267، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 435، وصافي، الجدول: 10/ 339، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 3/ 152، 153.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 251.

(3) ابن عُثَيمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 201.

فائدةُ العطف:

العطف في ﴿وَمِنۡهُم﴾: في قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ للجمْع بين مستحقّي العذاب في الأصل، وإنِ اختلفوا في نَوعِه.

بلاغةُ المجاز في إسناد الأخذِ إلى الصّيحة:

إشهادُ السّامع على مصارعِ القوم بالسّبب الّذي أهلكَهم

إسنادُ (الأخذ) إلى ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ في قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ مجازٌ عقليّ، حيث أُسْنِدَ الفعلُ إلى غير فاعلِه الحقيقيِّ؛ لِعلّة السَّببيّة والآليّة، إذْ لمّا كانت الصّيحةُ آلةَ الأخْذ وسببَه، أُسندَ الفعل إليها، إشهادًا للسّامع على مصارعِ القوم بالسّبب الذي أهلكَهم، وهي الصَّيحة.

بلاغةُ العدولِ عن إسناد الأخذِ إلى ضميرِ العظمة:

العـدولُ في الإسناد؛ لتقريرِ الكمال، ودفعِ إيهامِ النّقْص

في قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ تم العدول عن إسناد الأخذ إلى ضمير العظمة، فلم يقل: (ومنهم من صِحْنا به) كما كان في السّياق الكريم عندما أسندَ أفعالَ العقوبة إليه سبحانه، في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ﴿خَسَفۡنَا﴾، ﴿أَغۡرَقۡنَا﴾، بخلاف (الأخذ)، إذ أسندَه إلى الصَّيحة في قوله: ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ لأنّه لو أسندَ الفعل من لفظ الصَّيحة إلى نفسه؛ لَأَوْهَمَ النَّقصَ، والتّشبيهَ بالحوادث، فلا يُقال: (صِحْنا به)؛ فلا يُنسب إلى اللّه أنّه صائحٌ بهم[1]؛ لأنّ الصّيحةَ هي الصّوتُ الشّديد، إمّا من مَلَك، وإمّا من رَعْدٍ، وإمّا من ريح، وإمّا من غير ذلك[2]، فهي صوتٌ مخلوقٌ في مخلوق، فكما لا يقالُ عن اللّه صائتٌ، لا يقال عنه: (صاح بهم)، حتى لو أسْنَدَ فِعْلَ الأخذِ إليه، بأنْ يُقال: (أخذناه بالصَّيحة)، لَأَوْهَمَ ذلك أيضًا، لاحتمالِ أنْ يكون المعنى: (أخذناه بصياحِنا فيهم).

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 439.
(2) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (صيح).

معنى الباء في قوله: ﴿خَسَفۡنَا بِهِ﴾:

(الباءُ) في قوله: ﴿خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ على بابها من التّعدية، لضرورةِ تعديةِ الخسف إلى المخسوف، و(الباءُ) لا يفارقُها معنى الإلصاق، فتدلّ عليه، أي: خسَفْنا الأرضَ خسْفًا مُلتصِقًا بالمخسوف.

نكتةُ تقديم شبهِ الجملة:

تقديمُ شبه الجملة ﴿بِهِ﴾ في قوله: ﴿خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ للاعتناء والحصر، فلمّا كان المخسوفُ به هو مدارَ القصد من الخبر، قدّمه، والتّقديمُ أعانَ هنا على التّعيين والتّحديد، وهو أنّ المقصود قارونُ.

بلاغةُ اللّفِّ والنّشر في الآية:

شَحْذُ ذهنِ السّامعِ بردّ النّشر على اللّفّ

في توالي العقوبات في الآية لفٌّ ونشْرٌ، وهو من المحسّنات البديعيّة المعنويّة الّتي تشحذُ عقلَ السّامع في إرجاع هذه المتواليات المذكورة إلى ما هي له من أصحابها المتقدّمين في النّظم، فقوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ يرجع إلى قوم (عاد)، وقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ يرجع إلى (ثمودَ)، وقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يرجع إلى (قارون)، وقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾ يرجعُ إلى (فرعون وهامان)[1].

معنى (الواو):

أجزيةُ الدّنيا قد يَشوبُها في تضاعيفِها ظلْمٌ أوْ مُجاوزة الحدّ

(الواو) في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾: عاطفة عطفت جملة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ على جملة ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾[2] مُؤكِّدةً لها ومُقرِّرةً لمضمونها من كون إلحاقِ العقوبة بهم بسببِ استحقاقِهم على ذنوبهم، لا بظلم لهم ولا تَجَنٍّ عليهم، وفائدةُ التّذييل بها رغمَ تقدّم ما يوافِق مضمونَها، التّنبيهُ على أنّ أَخْذَهُم بذنوبهم ليس على غِرار أجزيةِ الدنيا، الّتي قد يَشوبُها في تضاعيفِها ظلْمٌ أوْ مُجاوزة الحدّ.

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 439، 440، والقونَويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 56، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 251.
(2) الخطيب، التَّفصيل في إعراب التّنزيل: 20/ 269.

دلالةُ الكون المنفيّ:

قِدَمُ انتفاءِ الظّلم عن الله كَقِدَمِ ذاتِه سبحانه

التّعبيرُ بالكون الماضي في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ لإفادة أنّ عادة اللّهِ مع خلقه هي عدمُ الظّلم، أي: إنّ الكينونةَ تدلّ على أنّ انتفاء الظّلم عن اللّه قديمٌ قدمَ ذاته سبحانه، فلا يوجَد الظّلمُ أصلًا منه، كأنّه قيل: (ماهيّة اللّهِ سبحانه وحقيقةُ كونِه ووجودِه أنّه ما يصحّ له وما ينبغي وما يستقيمُ أنْ يظلمَهم).

دلالةُ لامِ الجحود:

تركيبُ الكون المنفيِّ مع لام الجحود يفيدُ نفيَ القصد إلى الفعل

(لام الجحود) في قوله: ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ الواقعةُ في حيّز الكون المنفيِّ، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ تدلّ على تحقيقِ النَّفْي وزيادةِ تقويتِه وتأكيده، وتركيبُ الكون المنفيِّ مع لام الجحود يفيدُ نفيَ القصد إلى الفعل، ونفيُ القصد والإرادة أبلغُ من نفيِ الوجود والوقوع، والتّقدير: أي: ما كان اللّه قاصدًا أنْ يظلمهم، أي: ما ينبغي له ذلك ولا يجوز عليه[1]؛ وذلك كما لو قيل: (ما كنت أضربُك) بغير لام، فيصحّ أن يكون الضّربُ ممّا يجوز كونُه وحصولُه، فإذا قيل: (ما كنت لأضربَك) فاللّامُ جَعَلَتْهُ بمنزلة ما لا يكونُ أصلًا[2].

دلالةُ التّعبير بالمضارع:

نفي الوقوع سابقًا والتّوقع حالًا

جاء قوله: ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ مضارعًا، وقد وقعَ خبرًا للكون المنفيِّ، أوْ مُتعلّقًا بالخبر المحذوف على تقدير: مريدًا أوْ قاصدًا لِظُلْمِهم - على الخلاف المشهور في ذلك - لأنّ إثباتَ هذا النَّفيِ: (كان سيظلمُهم) فجاء النفيُ للمضارعةِ كذلك على نفْس الزّمن في قوله: ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ لنفيِ التّوقّعِ في الحال، ونفيِ صورةِ الوقوع المتجدّدةِ في الماضي، أي: نفيُ توقّعِ الحدوث في الماضي، ولا يخفى امتناعُ دخول اللّام على الماضي[3].

(1) فاضل السّامُرّائيّ، معاني النَّحْو: 1/ 225، والخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 20/ 269.
(2) الزَّرْكَشِيّ، البرهان: 3/ 87.
(3) فاضل السّامُرّائيّ، معاني النَّحْو: 1/ 225، 1/ 212.

معنى الواو في ﴿وَلَٰكِن﴾ :

عطفٌ لإثبات كلّ كمالٍ لله بمقابل إثبات النّقص فيما سواه

(الواو) في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾ عطفت جملةَ (لكن كانوا أنفسهم يظلمون) على جملة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ ليجمعَ بين إثبات الكمال للّه بعدمِ ظلمِه لهم، وإثبات النّقص لهم بصدورِ الظُّلم منهم.

فائدةُ الاستدراك:

الاستدراكُ مُنْصَبٌّ على إيهامٍ يُحْتَمَلُ ورودُه على ذهنِ السّامع

في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾ في عبارة ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أتى بجمع الجملتين المتعاطفتين السابق ذكرُهما بطريق الاستدراك؛ للتَّسجيلِ عليهم، ولتبكيتِهم؛ ولئلّا يُتوهَّم أنّ نفيَ الظّلم عن اللّه في مؤاخذتِهم ناشِئٌ مِن انْعدام موجِب المؤاخذة، وهو كونُهم غيرَ ظالمين أصلًا، فجاء الاستدراكُ لنفيِ هذا التّوهُّم[1].

بلاغة استعمال فعل الكون الماضي:

دلالة على كون الظُّلم عادةً لهم يتحرَّون فِعلَه

وقوعُ خبر (كان) مضارعًا في قوله: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾؛ للدّلالة على أن فعلهم كان مستمرًّا في الماضي، وكان عادة متجدِّدةً عبر ما مضى من زمن، أي: إنّ ظلمَهم لأنفسهم كانوا يفعلونَه على جهة العادة المتجدّدة، فيدلّ المضارعُ الواقعُ خبرًا لـ(كان) على الماضي المعتاد[2].

نكتة تقديم المفعول:

تقديمُ المعمول للاختصاص والإشفاق

قوله: ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ في عبارة: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ قدّمَ المعمولَ على العامل إسراعًا لاستحضار (أنفسِهم) مِهادًا مُهيَّئًا لإيقاعِ ظُلمهم عليها، وفي ذلك تعجيلٌ بإيقاع الإشفاق على هذه الأنفس؛ لأنّ النَّفس أوْلى الأشياء برأفةِ صاحبها بها وتفكيرِه في أسبابِ خيرها، ومع ذلك ضيّعوها وغَبَنوها[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 252.
(2) فاضل السّامُرّائيّ، معاني النَّحو: 1/ 212.
(3) ابن عاشور التَّحرير والتَّنوير: 20/ 252.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾

[العنكبوت: 41]

مماثلةٌ بين من لا ينفع ولا يضرّ، إذ التّعلّقُ به وهَنٌ كوهَنِ العنكبوت بالعنكبوت

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكر البيان القرآنيّ في الآيات السّابقة أحوالَ المستكبرين وعاقبةَ أمْرِهم، وكان استكبارُهم وما حاقَ بهم من العذاب، بسببِ استغنائهم عن اللّه بأولياءَ لهم تعلّقوا بهم من دونه، ولم ينفعوهم بشيء لَمّا أُخِذوا بالعذاب ولم يُنقذوهم ولم يَنصروهم من دون اللّه، فوَهَنوا عنهم، مثَّلَ لهم ذلك الضَّعفَ وذلك الوهنَ بوهَنِ العنكبوتِ بالعنكبوت، فضربَ اللّه المثلَ هنا بذلك؛ لتقرير ذلك الخسران.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: (ولي) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، ومِنْ ذَلِكَ الوَلْيُ (بسكون اللّام): القُرْبُ، يقال: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ: قُرْبٍ[1]، والوَليُّ والمَوْلى يُستعملانِ في معنى الفاعل، أي: الموالي، وفي معنى المفعول، أي: الموالَى، فالوليّ يقال: للمالكِ السَّيِّد، ويقال: للعابِد الخادم[2]، والمرادُ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾، أي: متعلَّقاتٍ ومعبوداتٍ يُؤمِّلون ولايتَها عليهم بالنّصر والإعزاز، ويتولّونَها بنَصْرِهم لها ودفاعِهم عنها.

المَعنى الإجماليُّ:

حالُ هؤلاء المشركين الّذين اتّخذوا من دون اللّه تعالى أصنامًا يعبدونها، ويرجونَ نفعَها وشفاعتها، كحال العنكبوت في اتّخاذها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(2) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ولي).

ضَربُ المثَلِ بالعنكبوت تهوينٌ من شأنهم إذْ قاسَهم على حالِ ما هو ضئيلٌ هيّن

بيتًا ضعيفًا مُهلهلًا، لا ينفعُها لا في الحرّ، ولا في القرّ، ولا يدفعُ عنها شيئًا من الأذى(1)، فكذلك هؤلاءِ المشركون لم يُغنِ عنهم أولياؤُهم الّذين اتّخذوهم من دون اللّه شيئًا، ولم يدفعوا عنهم ما حلّ بهم من سوءِ العذاب بكُفْرِهم به وعِبادتهم سواه، ثمّ ذكرَ جهلَهم وسوءَ تقديرهم لِما صنعوا، فقال: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لو كان هؤلاءِ الّذين اتّخذوا من دون اللّه أولياءَ، يعلمونَ أنّ أولياءَهم لا يُجْدونَهم فتيلًا ولا قطميرًا، كما لا يُجدي بيتُ العنكبوت عنها شيئًا ما فعلوا ذلك؛ لكنّهم قد بلغ بهم الجهلُ وسوءُ التّقدير حدًّا لا يستطيعونَ معه العلمَ بعواقبِ ما يفعلون، ومن ثَمّ فهُم يحسبونَ أنَّهم ينفعونَهم ويقرّبونهَم إلى اللّه زلفى(2)، فالمقصودُ من المثل تجهيلُ المشركين وتقريعُهم، حيثُ عبدوا من دون اللّه تعالى آلهةً، هي في ضعفها ووهَنِها تشبهُ بيتَ العنكبوت، وأنهم لو كانوا من ذَوي العلْم لما عبدوا تلك الآلهة(3).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

بلاغة المثَل في دقّةِ تطابُقِ مَضْرِبِه مع مَورِده

جملة: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ استئنافٌ مسوقٌ بعد تفصيل عقوباتِ المُكذِّبين؛ لتقرير قُبْح حالِهم في الظُّلم والتّكذيب، بجعْلِهم محلًّا للتمثيل، وموضوعًا تُضْرَبُ عليه الأمثال(4).

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

التّعبيرُ بفعلِ الاتّخاذ يدلّ على تعَبِهم ونَصَبِهم في الباطل

التّعبير بالصّلة الّتي هي المضاف إليه في جملة ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ جاء لتعظيم قباحة مضمونها، والتّشنيع به على الموصوفين بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾،

(1) طنطاويّ، الوسيط: 11/ 40.
(2) المَراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 143.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 11/ 40.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 364.

والتّعبيرُ بالاسم الموصول الخاصّ نَصٌّ في تمييز المشركين أكملَ تمييز، وذمٌّ لهم أوضحَ تمييز، وإشارةٌ إلى كونهم معلومينَ معروفينَ بمضمون الصّلة عند المُخاطَب، فلا يَخْفَوْن، ولا يَلتبِسُ حالهم على أولي الألباب؛ لأنّ الغرضَ من الصِّلة تعريفُ المذكورينَ بما يعلمُه المخاطبُ من حال الموصول؛ ليصحّ الإخبارُ عنه بعد ذلك[1].

عَوْدُ الضّمير (الواو):

عَـــوْدٌ خـــاصٌّ لمشركي مكّة، وعـامٌّ لكلِّ مَن تولّى غير الله في حاجته

(الواو) في قوله ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ ضميرُ جماعةِ الفاعلين، ومَرْجِعُ هذا الضّمير يعودُ إلى مشركي قريش، فيكونُ على ذلك المرادُ من الموصول في: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ مُعَيَّنًا، ويصحّ أن يكون مرجعُ الضّمير عامًّا، فيعودُ على جميع مَن اتّخذ وليًّا مِن دون اللّه سبحانه في الاعتماد والاتّكال والتّعلُّق، ولو لم يكن على جهة العبادة، وعلى هذا فالمرادُ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تعريفُ الجنس، والمرادُ من صِلَتِه العموم، فليس المقصود بذلك فئةً معلومة، بل المقصودُ الجنس، فيكون هنا الاسمُ الموصول كـ(أل الجنسيّة)، إلا أنَّ (أل) تدخل على المفردات، وهذا يدخلُ على الجمل[2].

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾:

وَضاعَةُ ودونيّة مَن تولّى غير الله

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ ابتدائيّة، أي: ابتدأوا اتّخاذ الأولياء من جهةٍ سِوى اللّه، و﴿مِن﴾ الابتدائيّة هنا أخصّ في المعنى مِنْ أن يقول: (اتّخذوا دون اللّه)، لأنّ المعنى الأخصّ يُعيّن مبدأ الاتّخاذ، وتعيينُ المبدأ يفيدُ القُربَ وعدمَ الفاصل، أي: اتّخاذٌ ناشئٌ من الجهة القريبة الدّانية الّتي تلي اللّهَ في الرّتبة والمقام، فـ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يدلّ على اعتقادِهم ومسلَكِهم، في أنّهم كانوا يتّخذون هذه المعبوداتِ لِتقرّبهم إلى اللّه زُلفى، فهم يتَّخذونها

(1) فاضل السّامُرّائيّ، معاني النَّحو: 1/ 122.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 364، وفاضل السّامُرّائيّ، معاني النَّحو: 1/ 122.

من دونه، أي: بعدَه مُباشرةً، أوْ تدلّ على القُرب الرُّتْبيِّ بمعنى أنّهم جعلوها في منزلةٍ قريبةٍ من اللّه في استحقاق العبادة، ولكنْ مع ذلك هي دونه في الحقيقة ولا تساويهِ أبدًا، ولو قال: (اتّخذوا دون اللّه) لاحْتملَ الاتّساعَ وعدمَ القُربِ الرُّتْبيِّ، وهذا القربُ الرُّتْبيُّ هو كما بينَ الوسائل والغايات، فالوسيلةُ دونَ الغاية؛ لكنّها تقترب منها وتنشأ قبل رُتبتِها، ولو تمّ إسقاط الجارّ ﴿مِن﴾؛ لكان ذلك لتقليل عدد الرُّتَب تحت رُتبته سبحانه وتعالى، إلا أن وجود الجارّ ﴿مِن﴾؛ جاء ليدلّ على ما يصلحُ من تلك الرُّتَب للاتّخاذ المذكور بحسب اعتقادهم، وأمّا ما تحتَ ذلك، فهو ممّا لا يُؤبَه له؛ لحقارتِه[1].

نكتة التّعبير بالدّونيّة:

وَضاعَةِ مكانَةِ أولياء المشركين، وأنَّ العِزّةَ في جنب الله وحدَه

التّعبيرُ بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ للدّلالة على دونيَّة المكانةِ لأوليائهم، وتفاوتِ الحال بينهم وبين اللّه، وهو يُشعِرُ بنفي التّساوي بين معبوداتهم الباطلة وبينَ اللّه سبحانه، فـ﴿دُونِ﴾ هنا اسمٌ بمعنى (غير) يدلّ على أدنى مكانٍ من الشَّيء، وتفيدُ التّقصيرَ عن الغاية المكانيّة الحسيّة والمعنويّة[2]، فأُتيَ به هنا للدّلالة على نزولِ ما عَبَدوهُ في الرُّتبةِ والمقام عن مقام العليّ الكبير، وأمّا (غير) فهي هنا غيرُ مُناسبةٍ للسّياق، لإبهام مفهومها المرادِ منها، فهي لا تتعرّف بالإضافة، والمفهومُ المراد هنا متعيِّنٌ غيرُ مبهم، وهي المعبودات الباطلة، أوْ أولياءُ مُحدَّدون، بخلاف قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 3]، وقوله: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ [الأنعام: 14]، ولم يقل: (من دون)، لأنّ المرادَ بحُكم الغيريّة - في آيتي الأنعام وفاطر - مطلقُ ما سوى اللّه تعالى، فهو غيرُ مُتعيّن، فيشملُ أيَّ وليٍّ مهما كان، وأيَّ خالقٍ سواه سبحانه على جهة الافتراضِ والتَّحدّي[3].

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 441.

(2) إبراهيم الشّمسان، أحكام (دون) ودلالاتها السّياقيّة، مجلّة الحركات، العدد الثّاني: 18/ 223.

(3) الرّاغب، المفردات: (دون)، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 205، 9/ 674.

التَّعلّق بالله وحده علامة الإخلاص

فائدة تقديم الجارّ والمجرور:

قدّم السّياقُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرور ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، على كلمة ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ ولم يقل: (اتخذوا أولياء من دون الله)؛ لتحريمِ أصلِ الاتّخاذ من دون الله، فلا ينبغي أنْ يقعَ اتّخاذٌ دونَه في أيِّ شيء، لا في الأولياءِ ولا في غيرهم.

تحريم كلِّ أنواع الأولياء عدا الخالق سبحانه

دلالة تنكير ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

تنكيرُ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾، للتعميم في الأنواع، فـ(الأولياء) ليسوا نوعًا واحدًا، أي: أولياءُ في العبادة، أوْ في الاستعانة، أوْ في التّعلّق، فالتّعميمُ يدخلُ فيه الشّرك الأكبرُ دخولًا أوّليًّا، ويلتحِقُ به الشّرك الخفيّ في التّعلّق والرّياء والتّعويلِ على النّاس في حصول الخير ودفْع الشّرّ، والانشغالِ بهم حتّى تَنْحَجِب النّفْسُ عن مُلاحظةِ كمال الخالق سبحانه في انفراده بالنَّفْع والضُّرِّ.

لفظُ الولاية أعمّ وأدلّ على كلّ علاقةٍ تتجاوزُ معاملةَ الله

نكتةُ العدول عن (آلهة) إلى ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

عدلَ النَّظم الكريم عن (آلهة) إلى ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في السّياق القرآنيّ، تقريرًا للتَّعميم والاتّساع في المعنى، في وصف الولاية؛ فالأولياءُ أعمّ من الآلهة، فقد يُتّخذُ المخلوق وليًّا من دون الله، دونَ أنْ تُعتَقدَ أُلوهيّتُه؛ وليكونَ لفظ (الولاية) إشارةً إلى إبطال الشّرك الخفيّ الأصغر[1].

العبد إذا تولّى ما لا يُغني عنه نفعًا أو ضرًّا خسر الدُّنيا والآخرة

نكتةُ التّعبير بـ(الولاية):

عبّر بوصفِ (الولاية) في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾؛ لأنّ مُتَّخِذي هذه المعبودات - أوْ هذه الوسائط عمومًا - يَرجون نفعَها، ويَطلبون النّصرَ منها، كالوليّ الّذي يَنفَعُ بالنُّصرَة، والدِّفاع، وجلْبِ الخير، وما أشبه ذلك، وأيضًا سُمّوا ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ لأنّ المنحرفين

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 58، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 364.

في عقائدهم ينصرونَ تلك الوسائطَ ويُنافحون عنها؛ ولهذا قال قوم إبراهيم: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾ [الأنبياء: 68]، فهم يَنصرونَها، ويرجونَ النّصرَ منها، ولهذا سُمّيَتْ بالأولياء[1].

دلالةُ التّعبير بالمثَل:

تضربُ الأمثالِ لإظهارِ عجائب الأحوال

التّعبيرُ بـ(المثل) في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ يدلّ على إفراد ما في حَيّزه من مضمون؛ لأنّ المراد: صِفةُ هؤلاء كذا، لكنّ المَثَل لا يُقالُ في أيّةِ صفة، بل في الصّفةِ المشتملة على غرابةٍ تستدعي عجَبًا[2]، والمرادُ: صفةُ حالهم العجيبةِ الشّأن في الضّلال.

إجراءُ النّظم على التّشبيه التّمثيليّ المركّب:

تشبيه حال المشركين بحال العنكبوت

إجراءُ طريقة التّشبيه المركّب، هي الأقربُ مأْخَذًا؛ لسلامتها من التّكلّف، فالتّشبيه هنا تمثيليٌّ مركّب مِن عدّة أوجهٍ؛ من مُشَبَّهٍ، ومشَبَّهٍ به متَعَدِّدٍ، وأوْجُه شَبَهٍ متعدِّدةٍ أيضًا، ويسمّى هذا التّشبيه تشبيهًا تمثيليًّا؛ لأنَّه مركَّبٌ من قِصَّة متكامِلَة؛ مما يعني أنه لا يُقصَد في هذ التّشبيه أنْ يُشَبَّه عابدو غير اللّه بالعنكبوت وحدَها، ولا المعبودون ببيت العنكبوت وحدَه، بل قُصِد أنْ تُشَبَّهَ الصّورة المرسومة بهذا التّعبير الإلهيّ كاملةً بصورة كاملَةٍ مماثلةٍ حتى يتَّضِح المعنى والمغزى من كلّ ذلك أمامَ المخاطَب[3]، فقد شبّه حالَ الَّذين اتّخذوا من دون اللّه أولياء، فيما اتَّخذوه معتمَدًا ومُتَّكَلًا في دينهم، وتولَّوه من دون اللّه تعالى، بحالِ العنكبوت فيما نسجَتْه واتَّخذتْه بيتًا، والغرضُ تقريرُ وهَنِ أمرِ دينهم، وأنّه بلغَ الغاية الّتي لا غايةَ بعدها من الضَّعف والسُّخْف، ومدارُ قُطبِ التّشبيه أنَّ أولياءهم بمنزلة منسوجِ العنكبوت؛ في ضعفِ الحال، وعدمِ صلوح الاعتمادِ

(1) ابن عُثَيمين، سورة العنكبوت، ص: 214.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 13/ 364.

(3) ابن عُثَيمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 212.

عليه، وعلى هذا يكونُ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ﴾ تذييلًا يقرّرُ الغرض من التّشبيه[1]، أَوْ: مَثَلُ المشرك الّذي يعبدُ الوثنَ بالقياس إلى المؤمن الّذي يعبد الله، مَثَلُ عنكبوتٍ يتّخذ بيتًا، بالإضافة إلى رجلٍ يبني بيتًا بآجرّ وجصّ، أَوْ ينحتُه من صخر، وكما أنَّ أوهنَ البيوت إذا اسْتَقْرَيْتَها بيتًا بيتًا بيتُ العنكبوت، كذلك أضعفُ الأديان - إذا اسْتَقْرَيْتَهَا دينًا دينًا - عبادةُ الأوثان لو كانوا يعلمون[2]، أَوْ: شبَّه الله تعالى الكفارَ في عبادتهم الأصنامَ، وبنائِهم أمورَهم عليها بالعنكبوتِ الّتي تبني وتجتهدُ، وأمرُها كلُّه ضعفٌ ووَهَنٌ؛ فكذلك أمرُ أولئك، وسعيُهم مضمحلٌّ، لا قوّة له ولا مُعتمَد[3].

إجراءُ النَّظم على التَّشبيه المفرد:

غُرور المشركين بِشِركِهم مثيلًا لغرور العنكبوت ببيتِهِ الواهِنِ

الطّريقة الثّانية: طريقةُ التّشبيه المفصّل المفرد المفرّق، فالمشركُ كالعنكبوت، واتخاذُه الصّنمَ معبودًا وملجأً كاتّخاذ العنكبوت لما يَنسجُه بيتًا فإنّه يصيرُ سببًا لهلاكه، كعابدِ الوثن يقعُ في النّار بسببِ عبادته[4]، فالمشركون أشبهوا العنكبوتَ في الغرور بما أعدّوه، وأولياؤُهم أشبهوا بيتَ العنكبوت في عدم الغَناء عمّن اتّخذوها وقت الحاجة إليها، وتزولُ بأقلّ تحريك، وأقصى ما ينتفعونَ به منها نفعٌ ضعيف، وهو السُّكنى فيها، وتوهّمُهم بأنْ تدفع عنهم هو كتوهّم المشركين بالانتفاع من أصنامهم، وهو تمثيلٌ بديعٌ من مبتكرات القرآن[5].

موقعُ جملة: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ﴾ ممّا قبلها:

الغرضُ من التّشبيه تقريرُ وهَن دينهم

جملةُ: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ﴾ حاليّةٌ من ضمير ﴿ٱتَّخَذَتۡ﴾، فالجملة من تَتِمّة الوصف واستيفاءِ التّشبيه؛ لتقريرِ الغرض منه، أي:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 148، وصافي، الجدول: 20/ 341.
(2) الزَّمَخشَريّ، الكشّاف: 3/ 454، والبَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 195، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 40، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 437.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 357.
(4) النِّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 385.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 252.

(اتّخذت بيتًا، والحالُ أنّه أوهنُ البيوت)، فأظهرَ في مقام الإضمار، وقال: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ﴾؛ لإجراءِ إضافةِ البيت إلى العنكبوت، ولم يقل: (وإنّ أوهن البيوتِ لَبيتُها) بالضّمير العائد على العنكبوت؛ وذلك لتعميم الوهَن في بيوتات العنكبوت كلّها، فتعُمُّ الجنسَ كلَّه، ولإجراءِ التّركيب مجرى المَثَل السّائرِ المستقِلّ، فأخلاه من الضَّمير حتّى يستقلّ في التّقرير[1].

ويصحّ أنْ تكون الجملةُ استئنافيّة؛ لتعليل المَثَلِ بوجْه الشّبهِ منه، كأنّه قيل: (تمثيلُ حالِ المشركين مع شركائهم بحالِ العنكبوت الّتي اتّخذتْ بيتًا، فذلك التّمثيلُ؛ لِتقرير وجهِ المشابهة، وهو أنّ أوهنَ البيوت لبيتُ العنكبوت، فكذلك هؤلاء، إذْ هم في اتّخاذهم الّذي اتّخذوه أوهنُ ما يكون).

ويصحّ أن تكون الجملةُ اعتراضيّةً بين طرفَي المَثَل؛ لتسجيل وجه الشّبه، كأنّه قيل: (مَثَلُ الّذين اتّخذوا من دون اللّه أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتًا لو كانوا يعلمون) ثمّ اعترضَ بجملة: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ﴾[2].

بلاغةُ الإشارة في المؤكِّدات:

أمثالُ القرآن حقائقُ، لا مُبالَغاتٌ، فلا يجوزُ مقاطعتُها بالمعارضة والمزايدة

تومئُ المؤكِّداتُ المحشودةُ في جملة: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ﴾ إلى أنّه لا يجوزُ تعدّي أمثلةِ القرآن بالتّجاوز والزّيادة؛ فلهذا لا يقالُ عن (بيتٍ): (إنّه أوهى من بيتِ العنكبوت)، فأيّ معنًى أبلغُ مِن معنى أكّده اللّه بستّة أوجه؛ حيث قال: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ﴾، فأدخلَ (إنّ)، وبنى أفعلَ التّفضيل، وبناه مِن مادّةِ الوهَن، وأضافَه إلى الجمع، وعرّف الجمع باللّام، وأتى في خبر (إنّ) بلامِ التّأكيدِ المزحلَقة[3]، لكن يجوزُ أن يقال: (حجّةُ هذا

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 442، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 364.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 253.
(3) الزَّرْكَشيّ، البرهان: 1/ 484.

الرّجل أوْهى من بيت العنكبوت)؛ لأنّ الحجّة ليست بيتًا حقيقيًا، فليس فيه منازعةٌ لظاهر القرآن(1).

بلاغةُ الاستعارة التّمثيليّة في: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾:

مَن لم يَستقْوِ بالله تورّطَ في فِخاخ الضّعف والعجز

يصحّ إجراءُ قوله: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾ على الاستعارة التّمثيليّة، والتّمثيلُ قبلَها توطئةٌ لها، فشبّه اتّخاذَهم وليًّا في غاية الضَّعف، بحال العنكبوتِ اتّخذتْ أوهنَ البيوت(2).

بلاغةُ الكناية في جملةِ الفاصلة:

نفيُ عِلْمِهم تعلّقَ بمضمون المَثَل المضروب، لا بأنّ أوهن البيوت بيتُ العنكبوت

جملة الفاصلة: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ كنايةٌ عن نَفْي عِلْمِهم بسببِ دخولِ أداة الشّرط ﴿لَوۡ﴾، الّتي تفيد الامتناع للامتناع، أي الّتي تستلزمُ انتفاءَ مضمونِ جوابها لانتفاء مضمونِ شرطِها، والمعنى: أنّ اتّخاذَهم أولياءَ من دونه، كالعنكبوت اتّخذتْ بيتًا، فلو علِموا ذلك لَما فعلوه، ولكنّهم لم يعلموا وظنّوا أنّ اتّخاذهم الأولياءَ من دونه يُفيدُهم عزًّا وقُدرةً، فكان الأمرُ بخلاف ما ظنّوه؛ ولذلك ذُيِّلَت الفاصلةُ بصفة العِلم الدّالّةِ على اليقين، تسجيلًا عليهم بأنّهم تائهونَ في دُروب الظّنّ، وإنّ الظّنّ لا يغني من الحقّ شيئًا(3).

موقعُ جملة: ﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾ ممّا قبلها:

جملة ﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنّ سؤالًا نشأ عن تمثيل حالهم بالعنكبوت، فقيل: في أيّ شيءٍ منه؟ فأجيبَ: ﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾، أي: في حالها تلك(4).

دلالة الفعل بوزن (افتعل):

تكلّفٌ وعناءٌ يكابده كلُّ من لا تكون ولايته لله وبالله

في قوله: ﴿ٱتَّخَذَتۡ﴾: صيغةُ (افتعل) في قوله: ﴿ٱتَّخَذَتۡ﴾؛ للدّلالة على التّكلّف والعناء الحاصلِ من العنكبوت في نسْج بيتها، وفيه ملمحٌ

(1) تفسير العُثَيمين، سورة العنكبوت، ص: 215.
(2) صافي، الجدول: 10/ 341.
(3) ابن القيّم، أعلام الموقّعين: 1/ 316، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 22.
(4) صافي، الجدول: 10/ 341.

بديعٌ يعودُ على المُشَبّه، وهو أنّ الإنسان حين يتولّى غيرَ ربّه ﷻ الودود الكريم؛ فإنّه يتكلّفُ خلافَ فطرته الّتي طبَعَه اللّه عليها، ويتجشّمُ خلافَ ما خُلِقَ له، فيُعاني وهو يتولّى المخلوق، ويتولّى عن الخالِق، ويكأنّ كلَّ مُعاملةٍ لا تكون للّهِ وباللّه، يَتَعنّى صاحبُها في العاجلة أوِ العاقبة أوْ في كليهما، فكذلك هؤلاء المشركونَ تكلّفوا اصطناعَ أربابهم ليَنفعوهم، ويَحفظوهم بزَعْمهم ويَرفعوهم، فكان ذلك كالبيتِ المنسوج من العنكبوت معَ تكلّفها في أمره، وتعبِها الشَّديد في شأنه، ولكنّه كانَ رغم ذلك كلّه في غايةِ الوهن[1].

نكتةُ تأنيث الفعل:

معنى الضّعفِ في المَثَل يُناسبُه تأنيثُ العنكبوت

قوله: ﴿ٱتَّخَذَتۡ﴾ بتاءِ التّأنيث للعنكبوت، و﴿ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ اسمُ جنس يقال للواحد والجمع، والمذكّر والمؤنّث، واختير التّأنيث - هنا مع أنها يُعبّر عنها بالتّذكير - توكيدًا لِضَعفِها في اتّخاذها بيتًا؛ لأنّ السّياق واردٌ لتقرير وهَنِ ما تَبْنيه وتَنْسِجُه من بيتها وضَعْفِه، والتّأنيث يُناسِبُ الوهَنَ[2].

نكتةُ التّشبيه بالعنكبوت خاصّة:

إيضاحٌ لما يظنّه المشركونَ من فائدةِ اعتمادِ أولياءَ لا طائلَ لهم من ولايتهم على الحقيقة

شبّهَ اتّخاذَهم الأولياءَ، باتّخاذ العنكبوت بيتًا؛ لتقرير الوهَنِ في بيت العنكبوت، وتنزيلِهم في ركونِهم إلى أوليائهم منزلةَ العنكبوت الآوي إلى أوهنِ البيوت، وهو تقريرٌ لما يظنّونه من نفعٍ قد يأتيهم بولاية ما سوى اللّه، فإذ هو ما لا يُعِزّ ولا يرفع، ولا يفيد ولا يشفع، فيستمسِكونَ بما لا يعصِم ولا يمنع، وحالهم هذا كحال العنكبوت الّتي تظنّ أنّ اعتمادها على بيتها الّذي نسجته يأتيها بفائدة بيد أنه لا يكفيها الرّدى، ولا يَحجب عنها الأذى، ولا يقيها حرًّا ولا بردًا.

---

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 442.

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 442، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 40.

نكتة التّنكير:

مما يومئ إليه التّنكير حقارةُ الشّيء المنكّر وتقليل شأنه

تنكير ﴿بَيۡتٗاۖ﴾ في قوله: ﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾؛ للإبهام والتّعميم والإطلاق تحقيرًا وتوهينًا، أي: أيَّ بيتٍ من بيوتها المُتَّخَذَة، ويصحّ أنْ يكون للتّقليل والتضئيلِ، أي: بيتًا ضئيلًا لا شأنَ له ولا يُعبأ به.

معنى (أل) التّعريف:

(أل) التّعريف في ﴿ٱلۡبُيُوتِ﴾ وفي ﴿ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾؛ لاستغراقِ الجنس، فكأنّه قيل: (إنّ أوهن كلِّ البيوت وأضعفَها بيتُها، كما أنّ أوهن كلِّ الأولياء وأضعفَها أولياؤُهم)، وكذلك (إنّ كلّ عنكبوتٍ لا ينسِج إلّا بيتًا واهنًا)[1].

معنى ﴿لَوۡ﴾:

دلالةٌ على امتناع العلم الّذي أدّى إلى امتناع الإيمان

﴿لَوۡ﴾ في قوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ شرطيّة امتناعيّة - امتناعُ وقوع الجواب؛ لامتناعِ الشّرط، فلما امتنع علمهم امتنع إيمانهم أي (عدمُ شِركِهم)، والتّقدير (لو كانوا يعلمون ما أشركوا)[2]، وأفادت ﴿لَوۡ﴾ بتعليقها تعليلَ اتّخاذهم آلهةً من دون اللّه تعالى بعدمِ عِلْمهم بمَن يستحقُّ العبادة، وعدمِ نظرهم في الأدلّة الواضحة على أنَّ تلك المعبوداتِ الباطلةَ ضعيفةٌ عاجزةٌ لا تحميها ولا تنصُرُها.

نكتةُ التّعبير بـ﴿لَوۡ﴾، دون (إنْ):

(لو) استبعاديّة للشّرط في حَيِّزها

لم يقلْ في السّياق: (إنْ كانوا يعلمون)؛ للدّلالة على البُعد في وقوع الشَّرط، فشرطُ ﴿لَوۡ﴾ أبعدُ في الوقوع من شرط (إنْ)، وهي تفيد التّقليلَ أيضا، كأنّه يقول: بعيدٌ أنْ يعلموا، وقليلٌ منهم مَن يعلم ذلك، فينتهي[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 364.
(2) فاضل السّامُرّائيّ، معاني النَّحو: 4/ 89.
(3) فاضل السّامُرّائيّ، معاني النَّحو: 4/ 90، 91.

نكتةُ دخول (كان) على فعل الشّرط:

تحقيقُ النّسبة بين المسند والمسند إليه

دخلتْ (كان) قبل الفعلِ المضارع في جملة الشّرط: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، ولم تكن العبارة: (لو علموا)؛ لتحقيق الشّرط، كأنّه قيل: لو تحقّقت نِسبةُ العِلم إليهم في تلك القضيّة لما أشركوا، وفعل الكونِ الماضي قبلَ الفعل المضارع يدلّ على العادة الماضيّة، أي: إنّ عادتَهم وشأنَهم وديدنَهم عدمُ العلْم بمضمون ذلك المَثَل[1].

غرضُ حذفِ جوابِ الشّرط:

إيجازٌ لدلالة السّياق عليه، ولأنّ ما يُلحظ لا يُلفظ

جوابُ الشّرط في قوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ محذوفٌ؛ للإيجاز؛ لدلالةِ ما قبلَه عليه، ولأنَّ كلَّ مُتحدِّثٍ بالعربية سليم الذّائقة، مستقيم اللِّسان يَلحظ هذا المحذوفَ من خلال السّياق فلا يَحسُنُ أن يُلفظ في أُذنَيهِ ما يُلحظ لديهِ، وعلى كل حال فإنّ التّقدير الّذي هو مقتضى المثلِ المضروب: (لو كانوا يعلمونَ أنّ اتّخاذَهم أولياءَ من دون اللّه في غاية الهوان، كهوان بيت العنكبوت، ما اتّخذوهم أولياءَ، ولكنّهم لا يعلمونَ)، والخلاصة: (لو كانوا يعلمونَ ذلك المَثَل ما اتّخذوهم أولياء).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوهَن والضّعف:

كلّ واهنٍ ضعيفٌ، وليس كلُّ ضعيفٍ واهِنًا

الوهَنُ والضَّعفُ متقاربانِ، فكلاهما يدلّ على انتفاء القوّة من النّفْس أوْ من البدَن أوْ منَ الحال، في الخَلْق أوْ في الخُلُق[2]؛ لكنّ الوهَنَ يُلحظُ فيه ضعفٌ مخصوص، فالوهَن أخصّ والضّعفُ أعمّ، وحاصلُ الفرق الدّقيق بينهما: أنّ الوَهَنَ ضعفٌ يُفَوِّت المقصودَ والغرضَ من الشّيء، أمّا الضَّعفُ فقد يُفوّتُ وقد لا يُفوّت، ودليلُ ذلك من كتاب اللّه سبحانه وهو قولُه تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾

(1) فاضل السّامُرّائيّ، معاني النَّحو: 1/ 212.
(2) الرّاغب، المفردات: (ضعف، وهن).

[النساء: 28]، أي: الضّعفُ مركوزٌ في أصل جِبِلَّتِهِ، ولم يقل: واهنًا؛ لعدمِ فواتِ الغرض منه؛ لأنّه معَ ضعفهِ يقاومُ الشّهواتِ ويكابِدُ المشاقّ، فلم يَفُتِ القصدُ منه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النّساء: 76]، فهو معَ ضَعْفِه يحقّق قصدَه في الوسوسة والإغواء، وقوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الرّوم: 54]، فلا يُقال: إنّ ضعفَ الرّضيع والطّفل يفوّتُ الغرضَ والوظيفة! لأنّه ليس كذلك؛ لكونه ضعفًا زائلًا ومُنقَضيًا بزوال مرحلته، إلى مرحلةِ القوّة، فلا يَفوتُ معه الغرضُ، وأمّا في سياق فواتِ المقصود أوِ اليأسِ من عدم استدراكِه، فقد استُعمِلَ الوهَنُ، وذلك كما جاء في كتاب اللّه على لسان زكريّا: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ [مريم: 4] أي: ضَعُفَ ضعفًا لا يُرجَى بُرؤه؛ لفواتِ وظيفتِه والغرضِ منه، وكذا قال سبحانه وتعالى عن حمل الأمّ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: 14] أي: ضعفًا مركّبًا لا يُداوَى إلّا بوضعِ الحمْل وزوال صِفَتِه بالكليّة، وقال سبحانه هنا: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾؛ وذلك لكون بيتِ العنكبوت يخلو من مقاصدِ عامّة البيوت، وهي الوقايةُ من الحرّ، والحمايةُ من البرد، فلمّا كان ضعيفًا إلى درجةٍ يَفوتُ معه الغرضُ الّذي تُبنى البيوتُ لأجله، وصِفَ بصفةِ الوهَن، واللّه أعلم وأجلّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤٢﴾ [العنكبوت: 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ضَرَبَ في الآيةِ السّابقة على أوليائهم المَثَلَ في العَجْز والقصور والنّقْص والوهَن، أثبت هنا لذاته العليّة الجليلة كمالها في الإحاطة بأحوالِهم وأحوالِ أوليائهم، بما يومئ إلى مُجازاتهم والوعيدِ لهم.

من عاداتِ القرآن إثباتُ الكمال لله إزاءَ ثبوتِ نقصِ الأدْعياء والأولياء دونَه

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: أصل (دون) يدلّ على المُداناةِ والمُقارَبَة، يُقالُ هَذا دونَ ذاكَ، أي هوَ أقرَبُ منهُ[1]، ودون: نقيضُ فوقَ، وهوَ تَقْصيرٌ عَنِ الْغايَةِ، ويَكونُ ظَرْفًا، والدّونُ: الْحَقيرُ الْخَسيسُ[2]، وقيل: هو مقلوب من الدّنوّ[3]؛ والحقّ أنّ (دون) ظرفُ مكانٍ ويعبّر به عن المنزلة الدّنيّة، فيقال: فلانٌ دونَ فلان، أي: تحتَهُ في المنزلة[4]؛ ذلك أنّ الدّنوَّ بمعنى القُرب، والدّناءة بمعنى الانحطاط والضّعَة يتلازمانِ، فإذا قيل: فلانٌ دونَ فلان، فمعناه أنّه في منزلةٍ دانيةٍ منه، فيلزمُ أن تكون منزلتُه أحطَّ وأدْوَنَ ممّن ارتفعَ عليه بها، وقوله هنا في الآية: ﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ﴾ يُلمحُ فيه معنى الدّناوة والانحطاط والدّنوّ والقُرب، فكلُّ ما سِوى اللّهِ من المعبوداتِ الباطلةِ وأولياءِ الباطل وأئمّته هم في رُتبةٍ وضيعةٍ دنيئةٍ بإزاء جانبِ الألوهيّة الحقّة، وهم بحسبِ اعتقاد عابديهم من المشركينَ في منزلةٍ قريبةٍ دانيةٍ من منزلة الرّحمن ﷻ، بدليلِ قولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دون).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دون).
(3) الرّاغب، المفردات: (دون).
(4) السمين عُمدة الحفّاظ: (دون).

﴿إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزّمر: 3]، فالمشرِكُ لو لم يعتقد قُربَ وليّه المُبْطِل من منزلةِ الإله والرّبّ ما اتّخذه وما فضّله بالتّوجُّه والتّعلّق.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ما يَدْعونَهُ مِن دون الله هو بعضٌ من كلّ

إنّ اللّه تعالى يعلمُ علمًا تامًّا الّذي يعبدهُ هؤلاءِ المشركون من دونِه، سواءٌ أكان ما يعبدونَه من الجنِّ، أم من الإنس، أم من الجمادات، أم من غيرِ ذلك[1]، وأنّها ليست بشيءٍ في الحقيقة، بل هي مجرّدُ أسماءٍ سَمَّوها، لا تنفعُ ولا تضرّ، ذلك أنّه سبحانه هو العزيزُ في انتقامه ممّن كفرَ به، الحكيمُ في تدبيره وصُنْعه[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع عبارة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾:

لا يَفوتُه سبحانه عِلْمُ شيءٍ ممّا تولّوا وأشرَكوا

جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ﴾ استئنافيّةٌ - تأكيدٌ للمثَل، وتعليلٌ له، كأنّه قيل: اصطفى لأحوالهم ذلك المَثَل المذكور؛ لِعلْمِه الكاملِ المحيطِ بأوليائهم، الَّذين يدعونَهم، على جهة التّفصيل والتّعيين، فلا يَفوتُه سبحانه عِلْمُ شيءٍ ممّا تولَّوا وأشرَكوا[3].

نكتةُ التّعقيبِ بجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ بعد الفاصلة:

إثباتٌ لكمالِ علْم الله، مع إثبات النّقص والجهل فيما سواه

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ بعد قوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ إثباتٌ لكمالِ علْم اللّه بأحوالِهم وأحوالِ معبوديهم، بعدَ تجهيلهم واستبعادِ أنْ يعلموا ويتعلّموا[4]، وبينَ الفاصلة وما بعدها طباقُ السَّلب؛ والغرضُ منه تفنيدُ ما هم عليه من ضلال بإثباتِ إحاطة علم اللّه بكلِّ شيء وإثباتِ النّقصِ في علْمهم.

(1) طنطاويّ، الوسيط: 11/ 41.
(2) نخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميسَّر، مَجْمَع الملك فهد، ص: 401.
(3) صافي، الجدول: 10/ 342، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 41.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 41.

نكتةُ تصدير الجملة مؤكَّدَةً:

تصديرُ الجملة التّعليليّة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ بحرفِ التّوكيد؛ لتحقيقِ مضمونها، والعنايةِ به، ولإغنائِها عن الرّابط، وحرفِ التّعليل.

معنى ﴿مَا﴾ في: ﴿مَا يَدۡعُونَ﴾:

نفيُ الشَّيئيّة هو نفيٌ للوجود يُكنّى به عن الازدراء والتّحقيرِ والعجز التّامّ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ موصولةٌ، أي: يعلمُ الَّذين يدعونَهم من دونه من جميعِ الأشياء[1]، والغرضُ من إثباتِ علْمه تعالى بما يدعونه إحاطتُه بها ومعرفتُه بقصورها وعَجْزها، وأنّها لا تصلح لأنْ تُعبدَ؛ لأنها معلومةٌ محاطٌ بها، والإلهُ الحقيقيّ لا يجوزُ أنْ يحاطَ به علْمًا، ويحتملُ أنْ تكون ﴿مَا﴾ نافيةً، أي: ما يدعون من دونه من شيءٍ له بالٌ ولا قَدْرٌ، فيصلُح أنْ يُسَمّى شيئًا، على سبيل تحقيرِ معبوداتهم ووسائطِهم، ويصحّ أن تكونَ ﴿مَا﴾ استفهاميّة، أي: يعلمُ أيّ شيءٍ يدعونَ من دونه؟ على سبيلِ التّوبيخ لهم، والتّهكّم بهم[2].

بلاغةُ الكناية على كون ﴿مَا﴾ موصولة:

وعيدٌ بجزاء من يدعو غير الله

﴿مَا﴾ على معنى الموصوليّة من قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ فيها كنايةٌ عن الوعيد لهم؛ لأنّ العِلْم بدعوتهم وعبادتهم لأوليائهم، عبارةٌ عن مُجازاتهم عليها، وكذا العِلمُ بما يَدّعونه، عبارةٌ عن مجازاتهم على دعائِهم إيّاه[3].

بلاغةُ الكناية على كون ﴿مَا﴾ نافية:

إبطالٌ لألوهيّة الأصنام

﴿مَا﴾ على معنى النَّفْي، أي باعتبارها نافيةً في قوله: ﴿مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ﴾، فيها كنايةٌ عن إبطال ألوهيّة الأصنام، وكأنّها كالعَدَم[4]، وكأنّه قيل: لا شيءَ ممّا يدعونه

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 358.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 358.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 366.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 254.

من دون اللّهِ شيءٌ، فهم في دعائهم لهم ليسوا على شيءٍ؛ لأنّ أولياءَهم من دون اللّه ليسوا بشيءٍ.

بلاغةُ الكناية على كون ﴿مَا﴾ استفهاميّة:

جـهـلٌ يُـحـرِجُ أصـحـابَـه بتناقضاتِهم لاعتقادهم الباطل

﴿مَا﴾ على معنى الاستفهام، أي باعتبارها استفهاميّة في قوله: ﴿مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ﴾؟ فيها كنايةٌ عن جهلهم الجوابَ لمن سأل هذا السّؤال، سواء أكان السّؤال منهم لأنفسهم أم من غيرهم لهم، ففي ذلك تعريضٌ بأنّ المشركينَ لا يعلمونَ جوابَ سؤال السّائل: (هل تدعون من دون اللّه شيئًا ينفع؟)، أي: قد علِمَ اللّه أنّه لا ينفع، ومِنْ عِلْمه بذلك، أنّه ضربَ لهم المثَلَ بالعنكبوت اتخذّتْ بيتًا، وللمعبوداتِ مثلًا ببيتِ العنكبوت، وأنتم لو سُئلتم: ما تدعونَ من دون اللّه؟ تلعثَمْتُم، وحِرْتُم جوابًا؛ فإنّ شأنَ العقائد الباطلةِ والأفهام السّقيمة أنْ لّا يستطيعَ صاحبُها بيانَها بالقول أو شرحَها؛ لأنّها لمّا كانت تتألّف من تصديقاتٍ غير متلائمةٍ لا يستطيع صاحبُها تقريرَها، فلا يلبثُ قليلًا حتّى يَفتضِح فاسِدُ الاعتقاد؛ من تعذّر إفصاحِه عمّا يعتقده[1].

الاستعارة التّمثيليّة باعتبار ﴿مَا﴾ نافية:

مَنِ انتفتْ عنه الإفـادةُ والتّأثير فـهـو كـالـعـدمِ الّذي لا وجودَ له

على اعتبار ﴿مَا﴾ نافيةً في قوله: ﴿مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ﴾ يكون قد نزّل أولياءَهم منزلةَ العدَم، فشبّه حالهم في دُعائهم أولياءَهم من دون اللّه، بحالِ مَن يدعو شيئًا معدومًا غيرَ موجود، بجامعِ انتفاءِ الفائدة وعدمِ المنفعةِ في كلٍّ[2].

اشتراكُ النّفي معَ الاستفهامِ في تقريرِ الكناية:

الاسـتـفـهـامُ الإنكاريُّ غرضُه التّجهيل

في حَمْل التّركيبِ في قوله: ﴿مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ﴾ على معنى الاستفهامِ أوِ النَّفي تجهيلٌ لهم؛ لِما فيه - أي: النّفي - من نفي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 254.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 254.

الشّيئيّة عمّا اتّخذوه وليًّا، كأنّ ما يدعونَه من دونِه ﷻ لمزيد حقارتِه لا يصلحُ أنْ يُسمّى شيئًا، ويشتركُ الاستفهامُ مع النّفي في تقرير التّجهيل كذلك، لكونِ الاستفهام في معنى النّفي؛ لأنّه إنكاريٌّ، فالمقصودُ منه المجازُ المرسَل لعلاقةِ الإطلاق والتّقييد، فهو استفهام إنكاريٌّ، لازِمُه التّجهيل، ويلزم عن النّفي والاستفهام كذلك تأكيدٌ لِلمَثَل المضروبِ ببيت العنكبوت؛ لِأنّ كونَ معبوداتهم الّتي اتّخذوها أولياءَ ليست بشيءٍ ولا قيمةَ لها هو تأكيدٌ وتحقيقٌ لمضمون المَثَل[1].

معنى ﴿مِن﴾ في: ﴿مِن شَيۡءٍۚ﴾:

إحاطة الخالق التّامّة بالكليّات والجزئيّات

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن شَيۡءٍۚ﴾ بيانيّة، للموصول أوِ الاستفهام، على وجْهَي الوصل والاستفهام في: ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿مَا يَدۡعُونَ﴾؛ فهي بيانٌ لِما في الموصول أوِ الاستفهام من الإبهام، أوْ هي تأكيدٌ لعموم الموصول والاستفهام، ويصحّ أنْ تكون ﴿مِن﴾ للتّبعيض على وجه الموصوليّة في: ﴿مَا﴾ على معنى أنّ الّذي يَدْعونه من دون اللّه هو بعضٌ من الأشياء، لا كلّ الأشياء، و﴿مِن﴾ صِلةٌ زيدتْ لتأكيد النَّفي باعتبار أنّ ﴿مَا﴾ نافيةٌ في قوله: ﴿مَا يَدۡعُونَ﴾[2].

بلاغة العطف:

إلمـــاحٌ إلى أنّ الأولياءَ من دونه سبحانه لا عزّةَ لهم ولا حِكْمة

بلاغة العطف في جملة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الّتي عُطِفَتْ على جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾؛ ظاهرٌ في تقرير اقتران عِلمِه سبحانه بعزّته وحكمته، ويصحّ أن تكون استئنافيّةً تعليليّة[3]، على معنَيي النَّفي والاستفهام في قوله: ﴿مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ﴾، أي: هل يدعونَ من شيءٍ ينفعُهم أصلًا؟ على معنى الإنكار والتّقبيحِ لهم، أوْ ليسوا على شيء لأنّهم لا يَدْعون شيئًا ينفعُ أوْ يضرُّ فهو كالعدمِ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 41، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 366.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 366، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 254.
(3) الخطيب، التَّفصيل في إعراب التّنزيل: 20/ 274.

وتوجيهُ التّعليل: كأنّه قيل: ذلك الإنكارُ المفهومُ في الاستفهام والتّجهيل المراد من نفيِ الشّيئيّة عن أوليائهم، عِلّتُه أنّ اللّه عزيزٌ حكيمٌ، حيث عبدوا ما ليس بشيء؛ لأنّه جمادٌ لا يصحّ منه العلم والقدرة أصلًا، وتركوا عبادةَ القادر القاهر الحكيم، الّذي لا يفعلُ شيئًا إلا لحكمة[1]؛ ويصحّ أن تكون الجملةُ حاليّة، وفيها معنى التّعليلِ على المعنيين أيضًا[2].

نكتةُ اصطفاء ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في الفاصلة:

إشعار بالوعد والوعيد والتّرغيب والتّرهيب

ختْمُ الفاصلةِ بصفتي العِزّة والحكمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ للإشعارِ بالوعيدِ والمجازاة لهم على اتّخاذِهم أولياءَ من دونه سبحانه، ولذلك أتى بصفة (العِزّة) ولم يأت بصفةِ (العِلْم)؛ للدّلالة على أنّه سبحانه غالبُهم وغالِبُ أوليائهم الّذين اتّخذوهم ظنًّا منهم أنّهم يمنعونهم ويُعزّونهم، فعاقبهم اللّه بخلاف مقصودِهم، ووصفُ العزيز هنا في هذا المقام مُتَّسِقٌ مع سياقاتِ القرآن الأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١﴾ [مريم: 81]، فنفى في هذه الآية تلك العِزّةَ بإثبات عِزّته الكاملةِ التّامّة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾، ولمّا كان يُظَنّ أنّ العِزّة الكاملةَ قد تحملُ صاحبَها على الاستيلاءِ والقهرِ غيرِ المحسوبين، قرنَها بصفة ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ ليدلّ على أنّه سبحانه يَعزّ ويمنعُ ويغلِبُ على أساسِ الحِكْمَةِ والحُكْم، فيمنعُ بحسابٍ، ويَعزّ بحسابٍ، ويُدبّر أفعالَه بوضْعِها في موضعِها اللّائق بها من غير شَطَطٍ ولا ظُلمٍ ولا تجاوُزٍ ولا مُلاحظةٍ للمصالح والمفاسد.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 358.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 367.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِلْم والمعرفة:

يـوصـفُ الـلـه بالعِلم، ويُنَزّه عن المعرفة

العِلْم: هو إدراكُ الشّيءِ بحقيقته ودليله، مِنَ العلامة: وهي السِّمَة الّتي تُمَيِّز الشّيءَ، أَوْ مِنَ العَلَم: وهو الدّليل(1)، والمعرفة: هي إدراكُ الشّيءِ بتفكّرٍ وتدبّرٍ لأَثَره(2). فالعِلم إدراكٌ لذاتِ الشّيءِ وإدراكٌ لأثره الّذي هو دليلٌ عليه، ولذا فهو إحاطةٌ بالجوهر والعرَض معًا، وأمّا المعرفة فتتعلّق بالأثرِ الظّاهر للشّيء، لا بحقيقةِ الشّيء وذاتِه، وبناءً على هذا الفرقِ القائم على اعتبار المتعلَّق فالعلاقةُ بينهما العمومُ والخصوص المطلق؛ إذ كلُّ علم معرفةٌ من غير عكسٍ كليٍّ، ومن هذه المادّة: عُرْفُ الدِّيك وهو عُضْوُه الظّاهرُ المعروفُ البارزُ في رأسه، ولذا فأصلُ المعرفة: تمييزٌ يقومُ على ملامحَ ظاهرةٍ للأشياء، أخذًا من استعمالِ التّركيب في الملامحِ الظّاهرة الّتي تُميّز الشّيءَ من غيره، ولذا تعلّقتِ المعرفة في أصل معناها بالمفردات والجزئيّات لا بالكليّات، ويَسبِقُها جهلٌ، وأمّا العِلْم فيتعلّق بهما(3)، وبناءً على هذا الاعتبار فالعلاقةُ بينهما العمومُ والخصوص المطلقُ أيضًا.

ويظهرُ الفرقُ الدّقيق بينهما: في أنّ اللّه سبحانه لا يوصفُ بالمعرفة، فلا يُقال: اللّه عارفٌ بكذا؛ لأنّ المعرفةَ تستعملُ في العلْم القاصِر الظّاهر الَّذي يُتوصَّل إليه بالتّفكّر والتّدبّر(4)، والتّفكّرُ والتّدبّرُ يستلزمانِ جهلًا سابقًا عليهما، ويستلزمانِ عُسْرًا في الإدراكِ ومحاولةً في التّصوّر، فضلًا عن كون (المعرفة) تبحثُ في الأثر الظّاهرِ لتنفُذَ إلى ما وراءَه، واللّه تعالى منزّهٌ عن ذلك سبحانه! وبناءً على هذا الاعتبار الاستلزاميِّ فالعلاقةُ بينهما

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (علم).
(2) الرّاغب، المفردات: (عرف).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عرف).
(4) الرّاغب، المفردات: (عرف).

التّباينُ، والفرق الثّاني بينهما يظهرُ في أنّ الإنسانَ لا يقال عنه: فلانٌ عَلِمَ اللّهَ، بل يقالُ: فلانٌ عَرَفَ اللّهَ، ومنه: العارف باللّه؛ لأنّ معرفةَ البشر باللّه هي حاصلةٌ بتدبّرِ آثاره في خلقِه، دونَ إدراك ذاته[1]، فكانت معرفةً، لا عِلْمًا، ولذا أُسند (العلْمُ) إلى اللّه في الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾؛ ولم تُسْنَدِ المعرفةُ إليه سبحانه لأنَّها توهِمُ نقصًا، واللّه سبحانه كامِلٌ، لا يوصَف إلا بما يقتضي الكمالَ القطعيّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (عرف).

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾

[العنكبوت: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأمثالُ مضروبةٌ للنّاس، لا ينتفعُ بها إلا صفوتُهم

لمّا أفرد السّياقَ السّابق وخصّه بضربِ المثَلِ العنكبوتيّ، بيّن هنا في هذه الآية أنّ ضربَ الأمثال هو عادةُ القرآن، ومن عموميّات خطابِه لجميعِ النّاس؛ فمن عَلِمَ منهم انتفعَ وعقلَ، ومَن ركِب الجهلَ والهوى، أبْعَدَ نفسَه عن مقصودِ تلك الأمثال ومنفعتِها له بالهداية والاستقامة وتقريرِ الحقيقة، فجانَبَه ذلك وباعَدَ عنه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾: (مثل) أصلٌ يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ، وهَذا مِثْلُ هَذا، أيْ: نَظيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ في مَعْنًى واحِدٍ، ورُبَّما قالوا: مَثيلٌ كَشَبيهٍ[1]، والمراد هنا: النَّظائر المتشابهةُ في أحوالها العجيبةِ ووقائعِها الغريبة، وهي الأمثالُ المضروبةُ في القرآن الّتي منها هذا المثلُ بالعنكبوت[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمثالُ تقريبٌ للمعقولِ بالقياسِ على المحسوس

هذا المثَلُ ونظائرُه من الأمثال الّتي اشتملَ عليها الكتابُ العزيز - نجعلها للناس ونورِدُها عليهم - تقريبًا لِما بَعُد من أفهامهم، وإيضاحًا لما أشكلَ عليهم أمرُه، واستعصى عليهم حُكمُه، وما يَفهَمُ مغزاها، ويعرفُ تأثيرَها، واستتباعَها لكثيرٍ من الفوائدِ إلا الرّاسخون في العِلم، المتدبّرونَ في عواقبِ الأمور ومقاصدِها[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 256.
(3) المَراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 144.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف:

تقريرُ الاتّساع والتّعميم في إقامة الحجّة على عموم الخلْق

جملةُ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾[1]، فجمَع بالعطف بـ(الواو) بين الخاصِّ والعامِّ، فمَثَل العنكبوت - خاصٌّ، وقوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا﴾ - عامٌّ، وذلك كما يقول القائلُ: زرتُ شيخَ القرّاء، ثمّ يقولُ: ولي زياراتٌ لطائفةٍ من علماء القراءة الآخرين كذلك، فخصّصَ ثمّ عمَّم؛ لكونِ العامّ يُقرِّر فائدةً زائدةً على ما في الخاصّ، والفائدةُ هنا: تقريرُ الاتّساع في إقامةِ الحجّة على عمومِ الخلْق، بعدَ إقامتها بالمَثَل العنكبوتيّ على خصوصِ المشركين.

نكتةُ الإشارة بالبعيد، وعلاقتُه بجمع ﴿ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾:

مضامينُ الكتاب العزيز وإنْ كانت متناثرةً متباعدةً إلا أنّها دانيةُ المأْخَذ

(تلك) في قوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا﴾ اسمُ إشارةٍ للبعيد؛ لأنّه قصدَ نظائرَ هذا المثَلِ العنكبوتيّ البعيدةَ عنه في مواقعِ التّلاوة، فالمرادُ بـ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ أي: عمومُ الأمثالِ المضروبةِ في كتاب اللّه سبحانه، ويدخلُ فيها هذا المَثَلُ العنكبوتيّ ويندرجُ فيها، ولذلك جمعَ لفظَ ﴿ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ لأنّه أراد العمومَ مع الدّلالةِ على الكثرةِ والتّعدّد، فإنْ قيل: هذا المثلُ في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾ قريبٌ وليس بعيدًا، فكيف يدخلُ مع البعيد؟ والجواب: أنّه داخلٌ فيها من وجهين؛ **الوجه الأوّل:** بطريق تغليبِ سائر الأمثال عليه، فلمّا كان سائرُ الأمثال بعيدًا عن سياق هذا المثل في مواقع التّلاوة، وكانت كثيرةً متعدّدة، غَلَبَ حكمُ الكثير على الفرْد القليل، فاندرجَ فيه، فكان التّعبير جاريًا على حكْم الكثير، **الوجه الثّاني:** أنّه حُقَّ لهذا المثل، ولغيره من سائر الأمثال أنْ يُشارَ إليه وإليها بالبعيد؛ لِبُعدِها ولِعُلوّها في المنزلة والرّتبة، فتكونُ

(1) الخطيب، التَّفصيل في إعراب التّنزيل: 20/ 276.

الإشارة بالبعيد إلى المَثَل العنكبوتيّ إشارةً إلى بُعدِه وعلوّه في القَدْرِ والقيمة؛ ولذلك جعلَ تلك الأمثالَ عزيزةً في إدْراكِها، فلا يُحرِزُها إلّا العالِمون، وعليه: فالبُعد في المُشار إليه مجازيّ، ويؤيّدُه أنّه أشار لعمومِ الكتاب بالبعيد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 2][1].

معنى (أل) في كلمة ﴿ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ في قوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا﴾، للعهد الحضوريِّ بعدَ اسم الإشارة، أي: تلك الأمثالُ الحاضرةُ بنزولها في الكتاب وقتَ الخطاب بهذه الآية: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾[2].

موقعُ جملة: ﴿نَضۡرِبُهَا﴾ ممّا قبلَها:

تقريب المخاطبين من الهدى وتقريبه إليهم

جملةُ: ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾ إمّا خبرٌ عن اسم الإشارة، فلا يوقَفُ على جملة ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ دونَها، وإمّا أن تكون جملة: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ تامّةً؛ لتعظيم الأمثال، ثمَّ استأنف بقوله: ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾، أي: نجعلُها لهم؛ لِنقَرِّبهم بها من الهدى، ونقرّب بها الهدى إليهم، وعلى هذا تكونُ جملة: ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾ استئنافًا بيانيًّا، كأنّه لمّا قال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ لها ما لها من العظمة والمكانة - سألَ سائلٌ: لأيّةِ غايةٍ كانت؟ فأجيبَ: ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾[3]، فالفصلُ بينهما لشبهِ كمالِ الاتصال.

نكتةُ الالتفات من ضمائر الغَيبة إلى التّكلّم:

ممّا تقتضيه بلاغة البيان تغييرٌ في أسلوب التّعبير

الالتفاتُ من ضمائر الغَيبة في قوله: ﴿يَعۡلَمُ﴾، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ إلى ضمير العظمةِ المتكلّم في قوله: ﴿نَضۡرِبُهَا﴾؛ لانتقالِ السّياق من الإخبار عن خصوص المشركين، إلى عمومِ النّاس، والعمومُ في النّاس مع جمعِ الأمثال يقتضي سَوْقَ الضّمير

(1) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 103.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 256.

(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 444، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 256.

على جهة التّعظيم في: ﴿نَضۡرِبُهَا﴾؛ والتّعظيمُ لا يتأتّى إلا بضمير التّكلّم، ولذلك التفتَ إليه.

بلاغةُ المجاز في ضَرْبِ الأمثال:

الأمثالُ جوامعُ من الكَلِم تقرَعُ المسامِعَ لحلاوتها وفرادتِها

في التّعبير عن الأمثال بالضّرب في قوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا﴾ استعارةٌ تصريحيّة تَبَعيّة، حيثُ شبّه إيرادَ الأمثالِ في قَرْعِها لِمَسامِعِهم وطَرْقِها لأذهانهم، باليد الضّاربةِ على الشّيء أوْ البدن، بجامعِ الوقْع والمساسِ في كلٍّ، وهو من تشبيه المعقولِ بالمحسوس، وتنزيلِه منزِلَتَه، وهو يشيرُ إلى نكتةِ التّعبير بـ(الضّرْب)؛ تقريرًا لمكانةِ الأمثال في قَرْعِها وقوّتها وصلاحيّتها للتّمكّن من العقولِ والنّفوس.

معنى اللّام الجارَّة في: ﴿لِلنَّاسِۖ﴾:

(اللّام الجارّة) في قوله: ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾ للتّخصيصِ والأجْل، أي: لأجْل النّاس، والكلامُ على حذف مضافٍ، أي: لأجلِ هداية النّاس ونفعهم.

معنى (أل) المُعرِّفة:

المعنيّون بالخطاب هُمُ المُستوفون لأهليّة إدراكِه

(أل) المُعرِّفة في قوله: ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾؛ للاستغراق، أي: نضربُها لكلّ النّاس، والاستغراق إمّا عامٌّ شاملٌ لكلِّ مَن يسمعُ الخطابَ، أوْ عرفيّ؛ لأنّه يريدُ المكلّفينَ من النّاس، أوْ مَن هم أهلٌ لتمييز الخطاب وإدراكه، ويرشّح إرادةَ الاستغراق التّخصيصُ الآتي بقوله: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ فيكونُ تخصيصًا بعدَ تعميم، ويحتملُ أنْ تكون (أل) للجنس، أي: نضربها لمَنْ يصدقُ عليهم أنَّهم ناسٌ وعقلاءُ يفهمونَ قيمةَ المثل ويدركونَه، وأما مَن ليس متّصفًا بهذه الحقيقة فهو وإنْ كان إنسانًا لكنه غيرُ مقصودٍ لعدم انتفاعه بمضمونِ المثل وفكرته ومغزاه، ويرشّحُه أيضًا قولُه: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ فيكون تقريرًا له وتثبيتًا.

معنى (الواو) في قوله ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ﴾:

جملة ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾، من باب عطف الخاصّ على العامّ؛ لبيانِ الفئة المخصوصةِ في النّاس بالاستفادةِ والانتفاعِ من تلك الأمثال، فقوله: ﴿ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ اصطفاءٌ مخصوصٌ من العموم في قوله: ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾ على إرادةِ الاستغراق، أوْ تقريرٌ وتأكيدٌ له على إرادة الجنسِ كما تقدم.

التّعقّلُ لازمةٌ إنسانيّةٌ تنمو وتتجدّدُ وتتطوّر

دلالةُ النَّفي بـ(ما):

النَّفيُ بـ(ما) في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾؛ للاستمرار، أي: يستمرّ حدوثُ تعقّلِ الأمثال ما صادفتْ أهلَ الرّسوخ في العِلم[1].

بلاغةُ الاستثناء المفرّغ:

الاستثناءُ مَع النّفي في قوله: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ استثناءٌ مفرّغٌ، فيفيدُ الاختصاصَ والحصر، أي: ما يَعقِلُ الأمثالَ أحدٌ من النّاس إلا أولو العِلم، وقيمةُ هذا الاستثناء ظاهرةٌ في إفادة الاستغراق والشّمول في ثبوتِ الحكم، فقوله: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ نَفَى العقلَ كلّه، واستثنى عقلَ العالمين، كأنّه لا عقلَ إلّا لأهل العلم، والتّركيبُ أفادَ قصرَ الصّفةِ على الموصوف، أي صفة العقل والإدراك على الموصوفينَ بالعِلم، ونكتةُ مجيءِ القصرِ من طريق النفي والاستثناء؛ هو توقّعُ إنكارِ ذلك الحكم والتّردّدِ فيه من المخاطبين، أوْ لتنزيلِ المخاطبينَ منزلةَ المنكِر الذي قد يَنسى أوْ يَقْبَلُ التّشكيكَ في ثبوت ذلك[2].

إفــادةُ الاخــتـصـاص والحصر ودلالةٌ علـى العـمـومِ والـشّـمـول والتّأكيد

معنى (أل) المعرِّفة:

(أل) في: ﴿ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ هي الموصولةُ الدّالّةُ على الكمال في

العِلمُ صفةُ كمال، والتّحقّقُ بـه كـمـالٌ في الصِّفَة

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 192.
(2) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 249، 250.

الصّفة، كأنّه قيل: لا يعقِل الأمثالَ إلّا الَّذين يعلمونَ العلمَ الرّاسخ، وهو عِلمُ الهُدى واليقين[1]، والتّعبيرُ باسم الفاعل: ﴿ٱلْعَٰلِمُونَ﴾؛ للدّلالة على تجذّر صفةِ العِلم في ذواتهم وتحقّقِهم بها، وفيه إشارةٌ إلى مدحِهم بالعِلم، ويلزمُ عنه أمران: الأوّل فضلُ العِلم والتّنويهِ بمنزلته، والثّاني التّعريضُ بالجاهلينَ، والتّنويهُ إلى عدم انتفاعِهم وعدمِ أهليّتهم للفهْم عن اللّه في خطابِه بالأمثال[2].

نكتةُ قَصْرِ العَقل على أولي العلْم دونَ العكس:

كلّ عالمٍ عاقلٌ، وليس كلّ عاقلٍ عالماً

لم يقلْ في السّياق الكريم: (وما يعلمُها إلّا العاقلون)، بقصْر العلْم على المّتصفينَ بالعقل، بل قصرَ العقلَ على المّتصفين بالعِلم، فقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾؛ لأنّ العلمَ أخصّ من العقل، فكلّ عالم عاقلٌ، وليس كلّ عاقلٍ عالمًا، وأرادَ تخصيصَ الأمثال بمخصوصيّةِ المُدركين لها والمنتفعينَ بها، ولا يخفى ما فيه من تعظيمِ شأنِ الأمثال، وأنّها لأجْل كونها قليلةً عزيزةً في الكلام، اصطفى لها القليلينَ العزيزينَ في النّاس، ونلحظُ أنّ تخصيصَ إدراكِ حِكمة الأمثال بالعالمينَ دونَ المؤمنين؛ إذ لا يلزمُ من العلْم بالأمثالِ ومَغزاها الإيمانُ، فقد يُدْرِكُ حكمةَ المثلِ وأبعادَه أهلُ العلم لكنّهم لا يوفّقونَ للإيمان.

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 445.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 256.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٤﴾ [العنكبوت: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إيقاظ للعقول للنّظر إلى حقارة ما يُعبَد من دون الله مقارنةً بعظمة مَنْ خَلَقَ الخَلْقَ العظيم كالسّماوات والأرضِ

لمّا ضربَ المَثَل بالعنكبوت، وأشارَ بعدَ ذلك إلى قيمة الأمثال، وبيّنَ أنّه تعالى يعلمُ ما يَدْعونَ من دونه من شيءٍ، لأنّها معبوداتٌ متوهَّمَةٌ لا تملكُ من الأمر شيئًا ذكرَ في هذه الآية خَلْقَ السّماوات والأرض؛ تنبيهًا على أمْرٍ يوقِفُ الأذهانَ عَلى صِغَرِ قَدْرِ الأوثانِ وكُلِّ مَعْبودٍ مِن دونِ اللّهِ تَعالى[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾: (حقّ) أصلٌ يدلّ على إحكام الشّيء وصحِّته، فالحقُّ نقيضُ الباطل، ثمَّ يرجعُ كلُّ فرعٍ إليه بجودةِ الاستخراج وحُسْنِ التّلفيق، ويقالُ حقَّ الشّيء: وجبَ[2]، فمادّةُ الحقّ تدور على معنى الموافَقة والمطابَقة للثّابت المقرَّر والواجب المُقدَّر، وهو هنا في الآية يقال: للموجَد بحسب مقتضى الحِكمة، ولهذا يقالُ: فعلُ اللّه تعالى كلُّه حقّ؛ لصدوره جميعًا من الحقّ سبحانه على وفْقِ العلْم والحِكمة والتّقدير الأزليّ الثّابت، والمرادُ بقوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: أَوْجدَهما على مُقتضى الحِكمة الملابِسة للحقّ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أولياءُ المشركين لم يَخلُقوا ذرّةً، فكيف بخلْق السّموات والأرض!

خلقَ اللّه السّمواتِ والأرضَ بالحقّ والإحكام، وإنَّ في خَلْقه ذلك

(1) ابن عطيّة المحرّر الوجيز: 4/ 319.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(3) الرّاغب، المفردات: (حق).

دلالةً عظيمةً على قدرته، وتفرُّدِه بالألُوهيَّة، وخَصَّ المؤمنين بالذِّكْر؛ لأنّهم الّذين ينتفعونَ بذلك(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾:

الأمثـالُ آيـاتٌ مـسـطـورةٌ والمخلوقاتُ آياتٌ منظورة

جملةُ ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ استئنافيّةٌ انتُقل بها من تقرير الأمثال المسطورةِ في الكتاب، وبيانِ المنتفعينَ بها من العالمِين، إلى تقريرِ الآيات المنظورةِ في الكون، وبيانِ المنتفعينَ بها من المؤمنين.

معنى (أل) التعريف في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

العهد الذّكريّ فيهما، وهما من أعظم ما خَلَقَ الله

(أل) في: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ للعهد، أي: الطّبقاتُ العُليا المعهودةُ فوقَ الأرضِ الّتي نعيشُ عليها بأبعادِها المتراميةِ، وحدودِها المديدةِ المنبسِطة، وأفادَ الجمعُ أنّها سماواتٌ متعدّدةٌ معهودةٌ عهْدًا ذِكريًا، كما أفادَ إفرادُ الأرض أنّها واحدةٌ، وهي الأرضُ الّتي نعيشُ عليها وأهبطَ إليها آدمَ عليه السلام، وإنْ كانتْ مثلَ السّماواتِ عددًا كما جاء في آية أخرى.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

لمّا كان الله هو الحقَّ كان كلُّ فعله في الوجود قائمًا بالحقّ

(الباء) في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للملابسة، أي: خلقنا السّماواتِ والأرضَ خلقًا مُتَلبِّسًا بالحقّ، أي: خلْقًا قائمًا بالحقّ مُلازِمًا مُصاحِبًا له مُمتَزِجًا به لا ينفكُّ عنه، ويؤيّدُ معنى الملابسةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: 27]، أي: لم يُزامِنْ خلْقَهُما باطلًا قطّ، ويصحّ أن تكونَ (الباء) للسّببيّة، أي: خلقَها للسّبب الحقّ(2).

دلالة (أل) في كلمة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

(أل) في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ هي (أل) التّعريف الجنسيّة الدّالّة على

(1) نخبة من علماء التّفسير، التّفسير الميسّر، مَجْمَع الملك فهد، ص: 401.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 257، 25/ 356.

الحقيقةِ والماهيّة، فيفيدُ أنّ الخلقَ للسماوات والأرض كانَ ممزوجًا بحقيقةِ الحقِّ، ليس فيه شيءٌ من العَبَث أوِ البُطلان.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾:

لا يقعُ في الوجودِ شيءٌ عبثًا أبدًا

جملةُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إمّا تعليليّةٌ للجملةِ قبلها، أي: خلقَ السّماواتِ والأرضَ بالحقّ؛ ليكونَ ذلك الخلقُ آيةً تنفعُ المؤمنينَ وتَزيدُ في إيمانهم، وفُصِلَتْ لإغناءِ حرفِ التّوكيد عن الرَّبط بالعاطف، أوْ هي استئنافٌ بيانيٌّ، وقعَ جوابًا لسؤالٍ مقدّرٍ، كأنّه قيل: ومَنْ يستفيدُ مِن خلقِهما بالحقّ؟ فأجيبَ ببيان المستفيدينَ منها، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

بلاغةُ المؤكّدات في جملةِ الفاصلة:

مسألةُ الوجود والخلق شأنٌ يغلَطُ الإنسانُ في قراءاته، ولذلك يَحتَفُّ بالمؤكّدات

حُشِدَتْ جملةُ الفاصلة في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بجملةٍ من المؤكّدات، هي: اسميّةُ الجملة، والتّصديرُ بحرف التّوكيد؛ عنايةً بتقرير مضمونِ الجملة، واهتمامًا بتحقيقِ معناها واسترعاءً لذهنِ المخاطَب أنْ يتنبّه ويلتفت، ثمَّ تقديمُ الجارِّ والمجرور على اسم ﴿إِنَّ﴾ المؤخَّر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ لإفادةِ الاختصاص والاعتناء، أي: في ذلك الشّأن خاصّةً آيةٌ عظيمة، ثمّ تأكيدُ اسم إنّ بـ(لام) الابتداءِ المزحلَقة للمبتدأ المؤخّر؛ تأكيدًا له، وعنايةً بتقريره، كما اعتنى بالخبرِ قبلَه بتقديمه في: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، مع تنكيرِ لفظ ﴿لَآيَةً﴾ الدّالّ على التّعظيم والتّفخيم، فاحتشدتْ بالمؤكّدات اللّفظيّة، والقرائنِ المعنويّة الّتي يستفادُ منها تَضاعُفُ تأكيدِ المعنى والتّرسيخُ له[2].

نكتةُ التّعبير بالظّرفيّة:

إحكامُ اللفظ لئلّا يكونَ لأحدٍ عذرٌ في الغلط والتّوهُّم والنّسيان

التّعبيرُ بحرفِ الوعاء في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾؛ لإفادة الظّرفيّة المجازيّة الدّالّة على أنّ شأن الخلقِ المشارِ إليه باسم

(1) صافي، الجدول: 10/ 343.
(2) الخطيب، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 20/ 276.

الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مشمولٌ على الإعجاز والبرهان الظّاهر، والعلامةِ الحاسمة على ألوهيّة الرّحمن، فهذا الشّأنُ المشارُ إليه وعاءٌ لاستقرار الآيةِ الّتي تُزيد في الإيمان واليقين، وغرضُ الظّرفيّة: التّنويهُ على أنّ الآية باقيةٌ في هذا الشّأن المذكور لا تنفكُّ عنه، كأنّها رُكِّبَتْ فيه، فهي مضمونةٌ أنْ يُلاحظها كلُّ أحدٍ إذا اهتدى وآمَن.

غرضُ التّعبير باسم الإشارة البعيد:

عظمة المخلوقات تستدعي عظمة الخالق

التّعبيرُ باسم الإشارة للبعيد العائدِ على شأن الخلْق المفهوم من قوله ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: في ذلك الخلْق المذكور لآيةً، وأشار إليه بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ لبُعدِه في المنزلةِ والعِظَم، فخلْقُ السّماوات والأرضِ حقيقٌ بأنْ يُشارَ إليه بما يدلّ على بُعدِه؛ للتنبيه على أنّه بعيدٌ عن إمكانِ غير اللّه، عزيزٌ في الأدلّة والبرهان.

معنى اللّام في قوله: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

(اللّام) في ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هي لامُ الأجْل والتّخصيص، أي: آيةٌ لأجْلِ المؤمنين خاصّة؛ لأنّهم المنتفعونَ بها دونَ غيرهم؛ وللتنويهِ بشأنِ الإيمان.

معنى (أل) في: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

استغراق جنس المؤمنين المتحقّقين بالإيمان

(أل) في قوله: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لاستغراقِ جنس المؤمنين عددًا وحقيقةً، و(أل) الدّاخلةُ على الوصف المشتقّ: (المؤمنين) تفيدُ الكمال، أي: المتحقّقونَ بالإيمان.

نكتةُ اختيار (المؤمنين):

واختارَ (المؤمنين) دون غيرهم في: ﴿لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فلم يقل: (للمتّقين أو الصّالحين، أو غيره من الأوصاف)؛ لأنّ المقامَ مقامُ مقابلةٍ مع غيرِ المُنتفعين بالآيات والأمثال وهُمُ المشركون ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾، فاقتضى التّعبيرُ بصفةِ الإيمان؛

للدّلالةِ على أنّ الإيمانَ هو مِفتاحُ الانتفاعِ بالأمثال المسطورةِ والآيات المنظورة، وفي اختتامِ هذه الآية بـ(المؤمنين)، والآيةِ الّتي سبقَتْها بـ(العالمين) تناسبٌ واضح؛ إذ ضربُ الأمثال يحتاجُ إلى عقلٍ يعلمُها، وإيجادُ السّموات والأرض من العدمِ برهانٌ للباحثينَ عن الإيمان المفتشينَ عن الأسباب.

الإيمانُ هو الأصلُ الذي دارتْ عليه ومن أجلِه جميعُ خطابات القرآن

﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ [العنكبوت: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الخطابُ من المحلّ الأعلى الشّريف، تشريفٌ للمخاطَب وإيناسٌ له ورفعٌ لدرجاته

لّما صنَّف الله النّاسَ في الآياتِ السّابقة إلى عقلاءَ عالِمين، وآخَرينَ في الجهل والضّلالِ المبين، توجّهَ بالخطاب إلى خُلاصةِ النّاس وسيّدِهم وإمامِهم؛ ليكونَ خِطابُه له بعدَ بيانِه لشتاتِ أصنافهم وأحوالِهم، بمثابة المقياسِ الذي يؤولُ إليه النّاسُ فيما اختلفوا فيه، فهو أَجْمَعُ لِشَتاتِهم، وأَنْقَذُ لهم من توزّعِ السُّبُل والدّروب.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتۡلُ﴾: (تلو) أصلٌ واحد، وهو الاتِّباع، ومنه: تلاوةُ القُرآن، لأنّه يُتْبِع آيةً بعد آية[1]، يقال: تَلا يَتْلو تِلاوةً يعني قَرأ قِراءة، وتَلاَ إذا تَبِع فهو تالٍ أي تابعٌ[2].

2) ﴿أُوحِيَ﴾: (وحي) أصلٌ يدلُّ على إلقاء عِلْم في إخفاء أو غيره إلى غيرك[3]، والوحي الإشارةُ، والكِتابَةُ، والمَكْتوبُ، والرِّسالَةُ، والإِلْهامُ، والكَلامُ الخفيُّ، وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِك، والصَّوْتُ يَكونُ في النّاسِ وغَيْرِهِم، كالوَحَى والوَحاةِ[4].

3) ﴿تَصۡنَعُونَ﴾: (صنع) أصلٌ صحيح واحد، وهو عملُ الشّيء صُنْعًا، وامرأةٌ صَناعٌ، ورجلٌ صَنَعٌ إذا كانا حاذقَين فيما يصنعانه[5]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(2) الأزهري تهذيب اللغة: (تلو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحي).
(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (وحي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنع).

ويدلّ على عمَلِ الشّيء بحَذْقٍ وإتقانٍ وإجادة، فهو عمَلٌ مخصوصٌ بالإجادةِ والإتقان[1]، والمرادُ به هنا: يعلم اللّه ما يعملُ هؤلاء من تلك التّكاليفِ الواردةِ في هذه الآية، الّتي تحتاج إلى مثابرةٍ وإجادةٍ وثباتٍ عليها، فلا تتأتّى بغير الإتقان كي يتحقّق شرطُها في النّهي عن الفحشاءِ والمنكر[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

خطابُ اللّه بالتّكاليف لعباده رفْعٌ لمقامِهم وترقيةٌ لِرُتَبِهم

جاء الخطاب الإلهيّ للرّسول ﷺ مُسَلّيًا له بأنْ: أدِمْ تلاوةَ الكتاب تقرُّبًا إلى اللّه بتلاوته، وتذكُّرًا بما في تضاعيفِه من الأسرارِ والفوائد، وتذكيرًا للنّاس، وحملًا لهم على العمل بما فيه من أحكامٍ وآدابٍ ومكارمِ أخلاق، وأدِّ الصّلاة على الوجهِ القيّم مريدًا بذلك وجهَ اللّه والإنابةَ إليه مع الخشوع والخضوع له، فإنّها إنْ كانت كذلك نهَتْك عن الفحشاء والمنكر؛ لِما تحويهِ من صنوف العبادات من التّكبير والتّسبيح، والوقوفِ بين يدَي اللّه ﷻ، والرّكوعِ والسّجود بغايةِ الخضوع والتّعظيم، ففي أقوالها وأفعالها ما يحمِلُ ويُعينُ على ترك الفحشاء والمنكر[3]، ولَذكرُ اللّه في الصّلاة وغيرها أعظمُ وأكبرُ وأفضلُ من كلِّ شيء، واللّه يعلمُ ما تصنعونَ من خيرٍ وشرٍّ، فيُجازيكم على ذلك أكملَ الجزاء وأوْفاه[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

خطاب من رفيعِ الدّرجات إلى صاحبِ المقام الشّريفِ

جملةُ: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، هو بمثابة التّفرّغ إلى خطابِ رأسِ الأمر وعمودِه رسولِ اللّه ﷺ، بعد بيانِ حالِ النّاس

(1) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 449.
(3) المَراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 145.
(4) نخبة من علماء التّفسير، التّفسير الميسّر، مَجْمَع الملك فهد، ص: 401.

جميعًا وانقاسمِهم إلى مشركينَ ومؤمنين، وعالِمينَ وجاهلين، فهذا الخطابُ خُلوصٌ بالعناية إلى صاحبِ المقام الشّريفِ بما هو أوْلى به وأحقّ من التّنصيب والتّكليف.

دلالةُ الأمر: ﴿ٱتۡلُ﴾:

التّـــلاوةُ هي مُتابعةُ القراءةِ والتّعهّدُ المستمرّ

صيغةُ الأمر في قوله: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ للوجوب؛ لكونها صيغةً مجرّدةً عن القرائنِ الصّارفةِ لها عن إرادةِ غير الوجوب؛ لا سيّما وأنّ تحصيلَ التّنزيلِ بإدراكِ خطاباتِه ومُعطياتِه أمرٌ واجبٌ لايتأتّى إلّا بتلاوتِه ومتابعةِ تعهُّدِه بالنّظر والتّعقّل، وما لا يتمّ الواجِبُ إلّا به فهو واجب.

المخاطبُ بقوله ﴿ٱتۡلُ﴾:

المخاطَبُ في قوله: ﴿ٱتۡلُ﴾ رسولُ اللّه ﷺ، ويندرجُ معَه في الخطابِ أُمَّتُهُ؛ لكونهم تَبَعًا له فيما لا اختصاصَ له دونهم.

دلالةُ تعريفِ المفعولِ بالصّلة في: ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾:

استغراقُ جنسِ المأمور به الموحَى إلــيـه بـه على التّوزيع

مجيءُ مفعولِ التّلاوة من الموصول وصلته في قوله: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ الوحيِ والتّنزيل، وهو مضمونُ الصّلة، وفيه إرادةُ عموم الجنس، أي: جنسِ ما أوحي إليك من الكتاب، من غير تعيينِ شيءٍ منه؛ لتستغرقَ التّلاوةُ جميعَ الموحَى على التّوزيعِ[1].

نكتةُ حذفِ متعلّق التّلاوة:

تعميمٌ يشمل كلَّ أنواعِ التّلاوة الّتي هي القراءةُ والإقراء

فِعْلُ ﴿ٱتۡلُ﴾ من الأفعال القابلة للّزوم والتّعدّي، وعلى هذا ففيه احتمالان، الأوّل أنْ يكونَ على نيّة اللّزوم وعدمِ التّعدّي، كأنّه قيل: (اتلُ على نفسِك تعبّدًا استحفاظًا واستظهارًا منك له)، والاحتمال الثّاني أن يكون على نيّة التّعدّي، وعندئذ يكون المتعلّق (المفعول به) محذوفًا للتّعميم، فيشمل التّلاوةَ على المسلمين، وعلى غير المسلمين[2].

(1) فاضل السّامُرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 120، 122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 258.

دلالة المتعلّق: ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بيانٌ لتوضيحِ المبهم في الموصول

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، بيانيّةٌ؛ لتوضيحِ الإبهامِ في الموصول، و(أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: للعهد، أي: القرآن، وفي جعلِ القرآنِ بيانًا للمتلوّ تخصيصٌ واقتصار؛ لأنَّ السّكوتَ في معرض البيان يفيدُ الحصرَ، وفي ذلك تنويهٌ بشأنِ الكتاب، وأنّه الّذي يستحقُّ أنْ يُتلى دونَ غيره؛ لأنَّه المتحقّق فيه وصفُ الكتابِ على المبالغة، وكأنَّ ما عداه ليس بكتابٍ أصلًا.

نكتةُ التّعبير عن القرآن بالكتاب:

الدّلالة على الثّبوتيّة والموثوقيّة والحفظ

التّعبيرُ عن القرآن بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ للدّلالةِ على ثبوتِه واستحفاظِه في السّطور بالكتابة؛ ولم يقل: (اتل القرآن)؛ تناظُرًا معَ السّياقِ بعدَه في قوله: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: 46]؛ تسجيلًا عليهم بأنّ القرآنَ كتابٌ منزّلٌ ككتابِهم المنسوبينِ إليه، فلا معنى لكُفْرِهم بكتابٍ وإيمانِهم بكتابٍ آخرَ وهما من نفسِ المشكاةِ والمصدر.

موقعُ جملة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ ممّا قبلها:

للدّلالة على أنّ الصّلاةَ والقرآنَ قرينانِ مُتلازمان

جملةُ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ ليدلّ بهذا الجمعِ بين الجملتينِ على أنّ تعهّدَ القرآن وإقامةَ الصّلاة هما أعظمُ مقصودٍ وأكبرُ آيةٍ على تحقّق المؤمنين بالإيمان، وعلى ثبوتِ أنّ خلقَ السّمواتِ والأرضِ كان لهم فيه آيةً!.

نكتةُ توجيهِ الخطابِ للمتّصِف به:

توجّهُ الخطابِ إلى المتّصِف بمضمونه؛ لتثبيتِه وزيادةِ تحقّقه به

الخطابُ أصالةً في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ متوجّهٌ إلى النّبيّ ﷺ، وهو ﷺ متّصفٌ بإقامةِ الصّلاة وتحقيقِها على الدّوام من قَبْلِ توجيهِ الخطابِ إليه، فهو خطابٌ لِمتّصِفٍ به بالفعل، وإذا ورد الخطابُ على متحقّقٍ به قبلَ ورودِه عليه، فليس المرادُ التّأسيسَ

والإنشاءَ لمضمون الخطاب؛ لأنّه سيكون تحصيلًا لحاصل، بل المرادُ الاستزادةُ والثّباتُ والاستمرارُ على مضمونِ الخطابِ ومُقتضاه[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾:

استغراق جنس الصّلاة من الفرائضِ والنّوافل

(أل) في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ لتعريفِ الجنس؛ ولذلك أفْرَدَها، فلم يَقُلْ: (الصّلوات)، لأنّه أرادَ الجنسَ الّذي يدلّ على الحقيقةِ والماهيَّة، فيشملُ أنواعَ الصّلاةِ جميعًا من فريضةٍ ونافلةٍ وغير ذلك، ليدلّ على أنّ إقامتَهم للصَّلاةِ لا تختصّ بها صلاةٌ دونَ صلاة، بل هم مقيمونَ لكلّ ما يتحقّقُ فيه معنى الصَّلاة.

موقع جملة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾:

الصّلاة جُنّةٌ وعِصمة

جملةُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، أَوْ تعليليّة من الجملة قبلَها في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾، والوجهانِ يقتضيانِ الفصلَ وعدمَ العطف، وهما متقاربانِ، فعلى الاستئناف البياني: كأنّ سائلًا سأل عن عِلّة الأمرِ في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾، فأجيبَ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾، وعلى اعتبارها تعليلًا للأمر، فالتّقديرُ: (وأقم الصّلاة؛ لِأنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر)، فكلا الوجهين يؤدّيانِ إلى تقريرِ العِلّة أوِ الغرضِ أوِ الغايةِ من الأمرِ والتّكليفِ بالصَّلاة، وهو أنّ الصَّلاة حمايةٌ من الفحشاء والمنكر.

نكتةُ الاقتصارِ على تعليل الأمر بإقامةِ الصّلاة:

الصّلاة أجمعُ من مجرَّد التّلاوة، ففيها القرآنُ وسائرُ الأركان

موقع ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ موقعُ فاءِ التّعليل، فعلّلَ الأمرَ بإقامة الصَّلاة بالنّهي عن الفحشاء والمنكر، كأنّه قيل: (أقم الصّلاة فإنّها ناهيةٌ عن الفحشاء والمنكر)؛ ولكنّه جعلَ التّعليل في جانب الأمرِ بإقامة الصَّلاة، ولم يجعلْه

(1) ابن عُثَيمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 235.

في جانبِ الأمر بتلاوة القرآن في قوله: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فلم يقل: (إنّ التّلاوة تنهى عن كذا أو تفعل كذا)؛ للدّلالة على أنّ الصّلاةَ أجمعُ من مجرّد التّلاوة؛ إذِ تلاوةُ القرآن جزءٌ من أركان الصَّلاة يضاف إليها سائرِ الأركان والهيئات، فجعلَ التّعليلَ في الجانب الأعمّ الأجمَع.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الثّانية:

تكرارٌ بعدَ نظيرٍ سابقٍ له لإفادة العهد الذِّكْريّ

(أل) في الموضع الثّاني لكلمة ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾، للعهدِ الذّكري؛ لتقدُّمِها في الذّكر في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾، والغرضُ من إظهارِها في موضعِ الإضمار، فلم يقل: (إنّها تنهَى)؛ لكمالِ العناية بها، وتحقيقِ فضلِها.

نكتة إسناد الفعلِ إلى ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

مجازٌ عقليٌّ علاقتُه السّببيّة فالنّاهي عن المحرّمات حقيقةً هو الله سبحانه

إسنادُ فعلِ النّهي إلى الصَّلاة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ مجازٌ عقليٌّ علاقته السّببيّة، بإسنادِ الفعل إلى غيرِ فاعله الحقيقيِّ؛ لكونه سببَهُ، فالصَّلاة هي سببُ نشوءِ الوازعِ النّاهي، أَوْ أنّ الله سبحانه هو النّاهي على الحقيقةِ، وجعلَ الصَّلاةَ سببًا في ذلك، ويحتملُ الكلام أنْ يكونَ استعارةً مكنيّةً بتشبيهِ الصَّلاة بشخصٍ واعظٍ ناهٍ عن الفحشاء والمنكر، ثمَّ حذفَه وأبقى من خواصِّه ولوازمه النهيَ، وأسندَه إلى ضمير الصَّلاة تخييلًا، فتتحوّلُ الصَّلاةُ إلى واعظٍ يصيحُ بالإنسان ناهيًا عن كلِّ فحشاء أَوْ منكر.

نكتةُ التّعبير بالفعل ﴿تَنۡهَىٰ﴾ دونَ (تمنع):

النّهي لا يلزمُ عنه الانتهاء

التّعبير بالنّهي دونَ (المنع) في قوله: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾؛ للدّلالة على أنّها تَخلُق في النّفس وازِعَ نهيٍ عن الفحشاء والمنكر، فمن شاءَ امتثلَ للنّهي ومَن شاءَ لم يمتثِل، فالتّعبيرُ بالنّهي، يدلّ على اختياريّةِ المصلّي في تحقيقِ النّهي من عدمِه، كأنّه قيل: (إنَّ الصّلاة تنهى المصلّي عن ملابسةِ الفحشاء والمنكر، فهناك مَن

يستجيب، فينصرفُ عنهما، وهناك مَن لا يستجيبُ فلا ينصرفُ، ولو قال: (تمنع)؛ لكان فيه مخالفةٌ للواقع، وهو أنّك تجدُ مُصلّين لا ينصرفونَ عن ملابسةِ المنكرات، فالتّعبيرُ بالمنع يستلزم أنّ المصلّيَ مصروفٌ عن الفحشاء والمنكر بمجرّد صلاته، لأنَّها تمنعُه بالفعل، وهذا خلافُ الواقع، فلم يعبّر به، وعليه: فالمنعُ هو نتيجةُ النّهي والغايةُ منه، فعبّر بالنّهي؛ ليدلّ على أنّ المانِع قد يوجدُ وقد لا يوجد[1].

دلالةُ الفعل المضارع في: ﴿تَنۡهَىٰ﴾:

أنْ يُقام في كلّ صلاةٍ واعظٌ بالخير، وزاجرٌ عن الشّرّ

التّعبيرُ بالفعل المضارع في قوله: ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ يدلّ على أنّ النّهي عن المآثم وظيفةٌ متجدّدة ومستمرّةٌ من وظائفِ الصّلاة، فكلما أحدثَ العبدُ صلاةً، أحدثَتِ الصَّلاةُ له نَهْيًا عن الفحشاء والمنكر.

نكتةُ الجمع بينَ ﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾:

الفحشاءُ أعمّ من المنكَر

الجمعُ بين ﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ في متعلّق النهي في قوله: ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾، كالجمع بين العامِّ والخاصِّ؛ وذلك لقصدِ التّنبيهِ على كلٍّ منهما استقلالًا، وللإشارةِ إلى إيغال الصّلاة في وقايتها ونَجاعتِها مع آفاتِ السّوء والمُستقبَحات كافّة، فالفحشاءُ أعمّ وأعظمُ من المنكر، فكلّ فحشاءَ مُنكَرٌ، وليس كلُّ مُنكَرٍ فحشاءَ[2].

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾:

النّهي عن الفحشاء والمنكر مهما تعددت أنواعهما

(أل) في قوله: ﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ لبيانِ حقيقة الجنس، أي: تنهى عن كلّ ما شأنُه أنْ تتحقّق فيه صفةُ الفُحش والنّكارة[3]، إذ النّهي عن أصلِ الشّيء نهيٌ عن سائرِ أفراده، وفي ذلك تعظيمٌ لقدْر الصّلاة وأهمّيّتها في أعمالِ المكلّفين؛ إذ تقومُ على تهذيبهم

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 367، وابن عُثَيمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 237.

(2) ابن عُثَيمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 237.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 260.

وتنقيتهم من أيّةِ صورةٍ من صورِ الفُحش، وربمّا كان هذا سرًّا من أسرارِ تكرُّرها في اليوم واللّيلة خمسَ مرّات.

موقعُ جملة: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾:

ذِكــرُ الـلـه هو المقصودُ الأعظمُ من كلّ تكليف

جملةُ ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ معطوفةٌ على الجملة التّعليليّةِ قبلَها في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾، وهو من بابِ عطفِ عِلّةِ العِلّةِ على العِلّة، كأنّه أشارَ بذلك إلى تعليلِ نهيِ الصّلاة عن الفحشاء والمنكر؛ لأنّ ذِكْرَ الله فيها هو الّذي يَنهي عن الفحشاءِ والمنكر، وعليه: فقوله: ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ هو سببُ الأمرِ بإقامةِ الصّلاة، وقولُه: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ هو سببُ كونها ناهيةً عن ذلك، فهو سببُ السّببِ[1].

المجازُ المرسَلُ في: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ﴾:

تسميةُ الصلاة بالجزء الأهمِّ الّذي هو ذكر الله

وهذا الوجهُ جارٍ على أنّ المرادَ من الذّكر في قوله: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ الصّلاةُ، وذلك بتسميةِ الصّلاةِ باسمِ أكبرِ وأعظم جزءٍ فيها وهو ذكرُ الله، على طريقةِ المجازِ المرسَل، بعلاقة الجزئيّة، فأطلقَ الجزءَ وأرادَ الكلّ، ويكون المعنى على ذلك: (وللصّلاةُ أكبرُ من سائر الطّاعات)، وعبّر عنها بالذّكر؛ للتعليل بأنّ اشتمالها على ذِكْره هو العُمدةُ في كونها مفضّلةً على الحسناتِ ناهيةً عن السَّيِّئات[2].

دلالة وضعُ المظهر موضعَ المضمَر من غير لفظِه السّابق:

الصّلاة ذِكْرٌ وفِكْرٌ، وعنايةٌ ورعايةٌ، وعلاجٌ ووقاية

وأعادَ (الصّلاة) بلفظ (الذّكر)، ولم يقل: (وللصّلاة أكبر)، فوَضَعَ المُظْهرَ موضعَ المُضْمَر من غير لفظه السّابق، بأنْ سمّاها ذِكْرًا، فقال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ ليستقلّ بالتّعليل، كأنّه قال: (وللصّلاةُ أكبر، لأنّها ذكر الله)، تنويهًا بشأنِ الذّكر فيها استقلالًا[3]، إذِ

(1) صافي، الجدول: 10/ 344.

(2) أنوار التّنزيل، البَيضاويّ: 4/ 196.

(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 179.

الصَّلاةُ وإنْ كانت حركاتٍ وسكناتٍ مطلوبةً شرْعًا، لكنَّ المقصودَ الأعظم فيها هو ذكرُ اللّه تعالى، واستذكارُ عظمتِه، وتذكُّرُ قدرتِه.

دلالة أفعل التفضيل:

تقرير الأفضلية بين الصلاة والذكر في النهي عن الفحشاء والمنكر

يصحّ أنْ يُراد بالذّكر في قوله ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ العمومُ، والجملةُ مستأنفةٌ؛ لتقرير المفاضلةِ في النّهي عن الفحشاء والمنكر بين الذّكر الخاصِّ الّذي هو الصَّلاة، والذّكر العام، أي: ولذكرُ اللّه أكبرُ على الإطلاق، أي: هو أوسعُ من الصّلاة في النّهي عن الفحشاءِ والمنكر، فالجزءُ الّذي منه في الصَّلاة يفعلُ ذلك، وكذلك يفعلُ في غير الصَّلاة؛ لأنّ الانتهاءَ لا يكونُ إلا من ذاكرٍ مُراقِبٍ للّه سُبحانه[1]؛ فالذّكر واقعٌ على الدّوامِ في الأوقات والأحوال، وأمّا الصّلاةُ ففي بعض الأوقات على الخصوصِ في الأحوال؛ ولذلك كانَ الذّكرُ أكبر[2]، وبناءً على هذا التّوجيهِ يكونُ (الذكر) مستعملًا في معناه الحقيقيّ، ومؤشرًا على أنَّ الغاية من الصَّلاة أنْ تشتملَ على الذكر القلبيِّ واللِّسانيّ معًا؛ لأنَّ الذكرَ أعظمُ العبادات، فينبغي للمصلّي أنْ يستحضرَ عبادةَ الذكرِ في صلاتِه بالشّكل اللّائق، ولا يَبْعُدُ أن يكونَ قوله ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ عائدًا إلى المفاضلةِ بين عبادتي (التّلاوة والصّلاة) المتقدّمتين في الآية، والجوابُ عن ذلك بأنَّ الأفضلية كامنةٌ في ذكر اللّه تعالى وتذكُّر قدرتِه وعظمتِه بالخشوعِ والخضوع، سواءٌ كانت العبادةُ تلاوةً أم صلاةً، فليستِ الصّلاةُ ناهيةً وحدَها والتّلاوةُ غيرَ ناهية، بل ما تضمَّنَ من العبادتين ذكرَ اللّه تعالى بالخوفِ والرّجاء منه فإنَّه النّاهي عن الفُحش والمنكر.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 320.

(2) ابن جُزَيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 127.

معنى اللّام في: ﴿وَلَذِكْرُ﴾:

تأكيدُ الجزء متناسبٌ مع تأكيدِ الكلّ

استعمل (لام) الابتداءِ الموضوعةَ للدلالةِ على التّوكيدِ[1] في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ دونَ أن يقول: (وذِكْرُ اللّه)؛ لمناسبةِ توكيدِ نظيرتها الدّاخلةِ معها في حيّز المفاضلة، وهي قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾، ليقعَ التّوكيدُ في النّظيرين المتعاطفينِ ردًّا على مَن يتوهّمُ خلافَ ذلك، وتقريرًا للحكم، وتثبيًا للمعنى في ذهن المخاطبين.

هل أفْعَلُ التّفضيلِ في: ﴿أَكْبَرُۗ﴾ على بابه؟:

قد يقع التّفضيلُ مسلوبَ المفاضلَة؛ لغرضِ تقويةِ الوصف وتوكيدِه

التّفضيلُ في: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ على معنى أنّ الذّكر هو الصّلاة، فاسمُ التّفضيل مسلوبُ المفاضلة، وليس على بابه كما يقول النّحويّون، بل يكون المرادُ منه قوّةُ الوصف وتأكيدُه، كأنّه قيل: (الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ لأنها الذكر للّه، والذكرُ له بالصّلاة أمرٌ كبير)، وعلى المعنى الثّاني: أنّ ذكر اللّه أدومُ؛ لتكرّره أكثرَ من الصّلاة، فهو أكبرُ من الصّلاة في النّهي عن الفحشاء والمنكر؛ فالتّفضيلُ على بابه، من إثباتِ المفاضلة بين الذّكر والصّلاة، مع اشتراكهما في أصلِ الوصف، وهو النّهيُ عن الفحشاء والمنكر، إلّا أنّ أحدهما أكثرُ زيادةً من الآخر، فالصّلاة فاضلةٌ، لكنّ الذِّكرَ أكثرُ زيادةً في الفضل[2].

موقع جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾:

مُجازاة المحسن والمسيء تستلزم حسن المراقبة لله في كل حال

جملةُ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ استئنافيّةٌ في موقع التّذييلِ على الأوامرِ السّابقة بالتّلاوة، وإقامةِ الصّلاة، وذِكر اللّه؛ لتقريرِ الوعد والوعيد على المخاطبينَ بتلك التّكاليف، فجملةُ الفاصلة

---

(1) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 20/ 277.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 179، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 42، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 261.

إلماحٌ إلى المُجازاة المستلزمةِ لحُسْن المُراقبة وتوقّي الضّرر، كأنّه قيل: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ من الخيرِ والشّرِّ، فيُجازيكم بحسَبِه إمّا إحسانًا وإمّا إساءةً[1].

غرضُ تقديمِ المسندِ إليه على المسندِ الفعليّ:

الله سبحانه وحده المحيط بالتّفاصيل

تقديمُ المسند إليه - لفظ الجلالة (اللّه) - على المسندِ الفعليّ ﴿يَعۡلَمُ﴾ في قوله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾، ولم يقلْ في السّياق الكريم: (ويعلم اللّه)، للدّلالةِ على الاختصاصِ والحصر، فاللّه وحدَه، لا غيرُه، مختصٌّ بِعلمِ ما يصنعُ الخلْقُ، وفيه من الجمْع بينَ الرَّهبةِ منه سبحانه والرّغبةِ فيه ما لا يخفى.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع: ﴿يَعۡلَمُ﴾، ﴿تَصۡنَعُونَ﴾:

إرادة الإتقان على الدّوام لدوام علم الله بكلّ ذلك

التّعبيرُ بالمضارعَينِ في قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ أفادَ أنّ صنائعَهم من الخير أوِ الشّرّ في موضع التّرصّدِ المستمرّ، فكلُّ صنيعةٍ منهم يُقابِلها عِلمٌ من اللّه بهذا الصُّنْع خاصّةً، فأفعالُهم معلومةٌ بتفصيلها وجزئيّاتها وآحادِها، والتّعبيرُ بالمضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ إشارةٌ إلى تمام علْم اللّه بالجزئيّات كما يعلمُ الكليّات، فهو دليلٌ على استمرار عِلم اللّهِ بأفعالهم، وأنّه سبحانه ما يزالُ يَشملُهم بعلمِه فلا يفوتُ عِلمَهُ شيءٌ من أحوالهم، وجاءَ التّعبير بالعِلم بصيغةِ الفعل ﴿يَعۡلَمُ﴾، لِمناسبةِ اقترانه بأعمالهم في قوله: ﴿تَصۡنَعُونَ﴾، وصنائعُهم زمانيّةٌ حادِثة، فقال ﴿يَعۡلَمُ﴾ دونَ (عليم)؛ ليدلّ على أنّ كلّ عملٍ يُحدِثونَه يَصحبُه عِلمٌ خاصٌّ به في زمَنِه، فالتّعبيرُ بالفعل المضارع يُشْعِر بأنّه ما من عملٍ يعملونه إلا وله نَسَقٌ من عِلم اللّهِ يقترنُ به، أوْ عبّر بالفعل المضارع، لأنّ تعلّقَ العِلم هنا بما يصنعونَه كنايةٌ عن المجازاةِ والمُحاسبة، لأنّ الغرضَ من الإخبار أنّهم واقعونَ تحتَ عِلم اللّه في كلّ حال: هو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 369، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 261.

أنّهم مجزيّون مُحاسَبونَ بذلك، فلمّا كان الغرضُ من ذلك اعتبارَ الجزاء الذي يَنتظرهم والاهتمامَ به بسببِ إحاطةِ عِلم اللّه بهم؛ عبّر بصيغةِ المضارعة في العلْم؛ لأنّ المُجازاة استقباليّةٌ حادثة، فكأنّه قيل: كلّما أحدثوا عملًا وصُنْعًا أحدثْنا لهم جزاءً عليه بما لنا من عِلْمٍ ما يزالُ موجودًا كاشفًا محيطًا.

دلالةُ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا تَصۡنَعُونَ﴾:

موصوليّة تفيدُ الإبهامَ والعموم، أو مصدريّة تفيد الجمع بين معنى المصدر ومعنى الفِعل

﴿مَا﴾ في قوله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ إما أن تكون اسمًا موصولًا بمعنى الّذي، وهي هنا مستعمَلَةٌ في صفات العقلاء، وتفيدُ الإبهامَ والعموم، فتقعُ على كلّ شيء تحصلُ صِناعتُه منهم، وإما أن تكونَ مصدريّةً، فتُؤَوَّل مع الفعلِ بعدَها بمصدر، أي: يعلم صناعتكم إنْ خيرًا وإنْ شرًّا، ودلالتُها على اعتبار المصدريّة: الجمعُ بين معنى المصدر ومعنى الفِعل في مَوْرِدٍ واحد[1].

نكتةُ التّعبير بـ﴿تَصۡنَعُونَ﴾:

الدلالة على إجادة المصنوع وإتقانه

آثرَ البيان القرآني التّعبيرَ بلفظ (الصَّنْعَة) في قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾؛ ليدلّ به على إجادةِ الفعل، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلّ فعلٍ صُنْعًا[2]، إذ اللّفظُ دالٌّ على مُلازمة العمل وتَحرّيه وسبْقِ الإصرار عليه والجاهزيّة له، وإنّما أتى بـ﴿تَصۡنَعُونَ﴾ هنا في هذا المقام، دونَ (تعملون) أوَ (تفعلون)؛ لأنّ التّكاليفَ الواردةَ بتلاوة القرآن وإقامةِ الصَّلاة وتحقيقِ الذِّكر هي أحوالٌ تقتضي جاهزيّةً، واستعدادًا، ونيّةً صحيحةً، ومُثابرةً وصبْرًا، واستمرارًا وعزْمًا وتجلّدًا عليها، تنبيهًا على أنّ إنجازَها يحتاجُ إلى تمرّنٍ عليها وتدرُّب، حتى يصير طبْعًا صحيحًا، ومقصودًا صريحًا، فهي شؤونٌ وأحوالٌ لا تستقيم إلّا بالإجادة والإتقان، فهي صنائعُ مخصوصةٌ لها مزيّتها في باب

(1) سِيبَوَيْه، الكتاب: 2/ 309، وفاضل السّامُرّائِيّ، معاني النَّحْو: 1/ 131.

(2) الرّاغب، المفردات: (صنع).

الأعمال والأفعال[1]، أي: إنّ كلًّا من (تلاوة القرآن وإقامة الصّلاة) يحتاجانِ إلى ضبطٍ وإتقانٍ في الأداء والإنجاز، ولا يمكنُ ضبطُهما بمجَّرد مراعاة الجوانب الظّاهرية، بل لا بدَّ من اقترانِ أعمالِ القلب بأعمالِ الجوارح؛ ليتحقّقَ الذِّكر للّه تعالى بالشَّكل الصَّحيح، ولذا عبّر عن إنجاز هذه التّكاليف بالصّنعة، الّتي تحتاجُ إلى إتقانٍ وحُسنِ أداءٍ وخشوعِ قلبٍ وخضوعِ روح.

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 449.

الجُزْءُ
الحَادِي وَالعِشْرُونَ

﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تهيئةٌ حكيمةٌ لمُجادَلَةِ أهلِ الكِتابِ بغيرِ أسلوبِ محاجةِ الوثنيّين

في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: 45]؛ أمر الله تعالى نبيّه بالاشتغال بتلاوة القرآن وتعليمه، وبمتاركة المشركين والكفّ عن محاجتهم ومجادلتهم لِما أظهروه من جهلٍ وتعطيلٍ لعقولهم كما قال تعالى عنهم: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: 43]، وكان ذلك إبّان نزول أواخِر هذه السّورة في مكّة، وكانوا على وشْك الهجرة إلى بلد فيه أهل كتاب، لذا بدأ سبحانه بتهيئتهم لمعاشرة أولئك النّاس في تلك البيئة الجديدة، فجاء قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ الآية، عطفًا على ما سبق وتوطئةً لما سيحدث من الدعوة في المدينة بعد هجرة النّبي ﷺ إليها[1].

ومن مناسبات الآية لما قبلها أنّه "لَمّا انتهى الكلام إلى روح الدّين وسرّ اليقين مما لا يعلمه حقَّ علمه إلا العلماء بالكتب السّماويّة والأخبار الإلهيّة، وكان العالِم يقدر على إيراد الشّكوك وترويج الشُّبَه، فربّما أضلّ بالشّبهة الواحدة النّيام من النّاس، بما له عندهم من القَبول، وبما للنّفوس من النّزوع إلى الأباطيل، وبما للشّيطان في ذلك من التّزيين، وكان الجدال يورث الإحَنَ، ويفتح أبواب المِحَن، فيَحْمِلُ على الضّلال، قال تعالى عاطفًا على ﴿ٱتۡلُ﴾ [العنكبوت: 45] مخاطبًا مَنْ خَتَمَ الآيةَ بخطابهم تنزيهًا لمقامه ﷺ عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 5.

المواجهة بمثل ذلك تنبيهًا على أنّه لا يُصَوِّبُ همّتَه الشّريفةَ إلى مثل ذلك، لأنّه ليس في طبعه المجادَلة، والمماراة والمغالبة: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾"[1]، وكان قبل ذلك قد بيّن طريقة إرشاد المشركين ونَفَعَ مَن انْتفعَ وحصل اليأس ممّن امتنع فبيَّن هنا طريقة إرشاد أهل الكتاب بعدم المجادلة إلّا بالّتي هيَ أَحْسَنُ[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُجَٰدِلُوٓاْ﴾: (جدل) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ مِنْ بابِ اسْتِحْكامِ الشَّيْءِ في اسْتِرْسالٍ يَكونُ فيهِ، وامْتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجَعَةِ الكَلامِ[3]، ورجل جَدِلٌ؛ أي خصمٌ، وأكثر ما يقال: جدّلته تجديلًا؛ أي: صرعته[4]، فالجدال: فتْلُ الخصم عن مذهبه؛ بطريق الحِجاجِ فيه، وأصله: شدّة الفتْل، جَدَلْتُه أَجْدِلُه جَدْلًا؛ إذا فتَلْتُه فتْلًا شديدًا، ومنه الأجدل للصّقر لشدّة فتْلِ بدنه"[5]، والمعنى المُراد: مناقشة أهل الكتاب وتقديم الأدلّة الدّامغة لهم على وحدانيّة اللّه؛ وصِدْقِ نُبوّة محمّد ﷺ.

2) ﴿ظَلَمُواْ﴾: (ظلم) أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما خِلافُ الضِّياءِ والنّورِ، والآخَرُ وضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا[6]، والتّعدّي يكون بوضعِ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه المُختَصِّ به، إمّا بنُقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بعُدولٍ عن وقتِه أو مَكانِه[7]، أو التّعدّي عن الحقِّ إلى الباطل وهو الجَوْر[8]، والأصل اللّغوي الّذي ينطبق على ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في الآية هو النّوع الثّاني من الظّلم، فالّذين ظلموا منهم؛ قد ظلموا أنفسَهم عندما شابهوا المشركين عبّادَ الأوثان بأن جعلوا اللّه ثالث ثلاثة، أو أنهم نسبوا الولد للّه، تعالى اللّه عن ذلك، ولا شكَّ أنّ الشّركَ ظلمٌ عظيمٌ[9].

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 449 - 450.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 63.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدل).
(4) الخليل، العين: (جدل).
(5) ابن فورَك، تفسير ابن فورَك: 1/ 399.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم): 3/ 468، والفيّوميّ، المصباح المنير، ص: 146.
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 537.
(8) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 186.
(9) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 63.

3) ﴿مُسْلِمُونَ﴾: (سلم) مُعْظَمُ بابِهِ مِنَ الصِّحَّةِ والْعافيَةِ، فالسَّلامَةُ: أنْ يَسْلَمَ الْإنْسانُ مِنَ الْعاهَةِ والْأذى، واللّهُ هوَ السَّلامُ لِسَلامَتِهِ مِمّا يَلْحَقُ الْمَخْلوقينَ مِنَ الْعَيْبِ والنَّقْصِ والْفَناءِ، ودارُ السَّلام جَنَّتُهُ الّتي لا يَشوبُها ولا يَشوبُ مَنْ دَخَلَها نَقْصٌ ولا يَفْتَقِدُ أَهْلُها حاجةً ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ﴾ [الفرقان: 16] والْإسْلامُ، وهوَ الانْقيادُ؛ لِأنَّهُ يَسْلَمُ مِنْ تَبِعاتِ الْإباءِ والامْتِناعِ[1]، وكذا الاسْتِسْلامُ لأمْرِ اللّهِ والانْقيادُ لطاعَتِه، والمُسْلِمُ: المُخْلِصُ للّهِ عِبادَتَه[2]، وأسْلَمَ أمرَه إلى اللّه، أي سَلَّمَ، وأسْلَمَ، أي دخل في السَلْم، وهو الاستسلام، وأسْلَمَ من الإسلام، وأسْلَمَهُ، أي خذله[3]، ومسلمون في الآية تعني المطيعين[4]، وهي جمع مسلم، وهو من انقاد للّه في جميع أوامره ونواهيه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان للأسلوب الأمثل في دعوة أهل الكتاب، اللطيف باللطف، والعنيف بالعنف

بيّنت الآية طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ أي بالخصلة الّتي هي أحسن، وبالدّعوة إلى اللّه بآياته، والتّنبيه على حُجَجِه، إلّا مَنْ أبى أنْ يُقِرَّ بالجزية ونَصَبَ الحرب، فجادلوا هؤلاء بالسّيف حتى يُسلِموا أو يُعطوا الجزية[5]، وهؤلاء هم الّذين قال فيهم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾؛ أي بالاعتداء، بأنْ أفْحَشوا في المقال وأوْغَلوا في الجدال، أو أنّهم ظلَموا أنْ أشركوا باللّه، فلا حرج في مقابلتهم بالعُنف، لتَنَكُّبِهم عن جادّة اللُّطف[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/ 90.
(2) الصاحب بن عبّاد، المحيط في اللّغة: 2/ 256.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: 5/ 1952.
(4) السّيوطيّ والمحلّيّ، تفسير الجلالين، ص: 412.
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 422.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 557.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مَعنَى الواو في مطلع الآية:

تَحَوُّلٌ هادِئ، وتعاملٌ هادِئ، وتخطيطٌ هادِف، مع أهل الكتاب

عطف قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ على جملة: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: 45]، باعتبار ما تستلزمه من متارَكة المشركين والكفّ عن مجادلتهم بعد قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: 43][1]، والتّحوّل في التّعامل مع أهل الكتاب؛ بمجادلتهم بالّتي هي أحسن إلا إن أبَوْا، وفائدة العطف الجمع بين الأمرين: التّلاوة، وحسن المجادلة بوصف القرآن هو السّبيل لإلقاء الحجّة بما تضمّن من البراهين، والحُكْم المبين، ويجوز أن يكون كلامًا مستأنفًا مسوقًا للشّروع في بيان إرشاد أهل الكتاب وكيفيّة مجادلتهم[2].

دلالة النّهي في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾:

توجيهٌ وإرشادٌ في هداية العباد

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ يمكن أن يقال: خرج النّهي هنا عن بابه في الاستعمال إلى معنى الأمر والتّوجيه والإرشاد، وهذا يكون في حال أنّ الامتثال للمطلوب بهذا الأسلوب يحقّق النّفع ويعود بالفائدة إلى المخاطَب وإلى دعوته، والمُخاطَب هم جماعة المسلمين الّذين في تماسّ مباشر مع أهل الكتاب، وهم الّذين يعلمون طبيعة أهل الكتاب الّذين معهم؛ إنْ كانوا من الظّالمين أم لا؛ لاختيار أسلوب الجدال معهم إن كان بالحسنى أم لا.

نُكتَةُ الخِطاب بالنّهي:

التّحوُّل إلى الجدال بالأحسَن

جاء الخطاب هُنا بالنّهي لأنّه قد وقع جدالٌ بينهم وبين أهل الكتاب؛ لِما وجَدَهُ المؤمنون في القرآن واستنبطوه وفهموه من آياته الّتي تقتضي المُفاصَلَةَ والمُقاطَعَةَ بينهم وبين المُشركين وأهل الكتاب،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 5.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 441.

فجاءت الآية لفائدة إيقاف هذا الأسلوب والتّحوّل إلى عدم الجدال معهم إلّا بالّتي هي أحسن.

فائدة النّهي بصيغة الجمع:

تعميم الخطاب للنّبيّ ﷺ وللمؤمنين

جيء في النّهي بصيغة الجمع ليشمل النّبيّ ﷺ أوّلًا فالمسلمين؛ إذ قد تُعرض للمسلمين مجادلات مع أهل الكتاب في غير حضرة النّبيّ ﷺ أو قبل قدومه المدينة[1].

دلالة التّعبير بالمجادَلة مادّةً وصيغةً:

نَبْذُ المشاحنات وقيامُ الدّعوة بالحكمةِ عملًا وبالأحسَنِ أسلوبًا

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ تقدّم أنّ الجدال: فتْلُ الخصم عن مذهبه بطريق الحِجاجِ فيه، وأصله شِدَّةُ الفتل[2]؛ وهو كذلك أن يَرومَ كلُّ واحد من الخصمين قهْرَ صاحبه وصَرْعَهُ على الجدالَة وهي الأرض، وعلى أيّة حال فهو إقامةُ الدَّليل على رأيٍّ اختلف فيه صاحبه مع غيره، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [النّساء: 107][3]، وفي قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾؛ الخطاب للمسلمين جميعًا، ودلّت صيغة المُضارَعة على تجدُّد ذلك الفعل مستمرًّا مع الزّمن؛ فنُهوا عن ذلك، لما يُحدثه من المُشاحنات التي تُبعد النّاس عن الإيمان برسالة محمّد ﷺ.

نكتة التّعبير بـ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دون غيرها:

المقصود بأهل الكتاب عمومُ اليهودِ والنّصارى

أهل الكتاب: هم أتباعُ الأنبياء السّابقين الّذين أُنْزِلَ عليهم كتابٌ مقدَّسٌ كاليهود والنَّصارى، وقد تعدَّدَتِ الآراء في ضابط تحديدهم، والمقصود هُنا اليهود والنّصارى؛ أمّا اليهود فلأنّهم هم الّذين كانوا يكثر وجودُهم في المدينة والقُرى حولَها، وأمّا النّصارى فمثالهم نصارى نجران الّذين عَرَضَتْ مجادلتُهم عندما أتوا إلى النّبيّ ﷺ، وكثر جدالهم في عيسى عليه السلام، حتى دعاهم النّبيّ ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 4.
(2) ابن فورَك، تفسير ابن فورَك: 1/ 399.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 4.

إلى المباهلة فامتنعوا خوفًا[1]، وممن جمع بين اليهود والنّصارى في معنى أهل الكتاب في هذه الآية الطّبريُّ في جامعه[2]، وعليه فقوله: ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أراد به عمومَ اليهودِ والنّصارى، أمّا (الذين أوتوا الكتاب) فهم الخاصّة منهم، ممَّن يعرفون أحكام التّوراة والإنجيل، من عُلمائهم ورُؤسائهم.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

عهديَّةٌ، تشير إلى أيّ واحد من الكتب السّماويّة المعلومة في الذّهن

التّعريف بـ(أل) في قوله: ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للعهد، وفائدته الإشارة إلى أيّ واحد من الكتب السّماوية ممّا عُرِفتْ حقيقتُه في الذّهن من دون قصد إلى التّعيين، فقوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هنا دلّ على واحدٍ من الكتب السّماويّة أو رسالات الأنبياء، وهو التّوراة؛ فاليهود هُنا هم المقصودون بهذا الخطاب، وكذلك الإنجيل باعتبار تعميم الخطاب وشمول النّصارى.

دلالة الاستثناء في ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

منهج الإسلام اختيار السبيل الأحسن في المجادلة

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ مفرّغٌ؛ لكون الكلام غيرَ إيجابٍ؛ لِسَبْقِهِ بلا النّاهية، ويكون المعنى: نفيَ كلِّ مجادلةٍ واختصاصَها في حال واحدة دون غيرها، أي: جادلوهم بالأسلوب الألطف والأرفق، وهو جميل القول والدّعاء إلى اللّه والبيّنة على آياتِ اللّه وحججه[3]، وبالخَصْلة التي هي أحسن: وهي مقابَلَة الخشونة باللّين، والغضب بالكَظْم، والسَّوْرة بالأناة، كما قال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: 96][4]؛ أي: الموافقة فيما حدَّثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 6.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 46.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 284.
(4) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف: 3/ 461.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 320.

الاكتفاء بالمذكور اقتصادٌ بالكلام وبلاغةٌ تنأى عن السَّآم

دلالة الاستثناء على المحذوف:

قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ استثناءٌ من محذوف دلَّ عليه المستثنى، وتقدير الكلام: ولا تجادلوهم بجدالٍ إلا بجدالٍ بالّتي هي أحسَنُ، وفائدة الاكتفاءِ بالمذكورِ الإيجازُ، تجنّبًا لتكرار كلمة (الجدال).

صفة جدال أهل الكتاب

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلَّتِي﴾:

الباء عمومًا للإلصاق والمُصاحبة، والإلصاق هو المعنى الرئيس لها، وما ذُكر لها من معانٍ أُخَرَ تحمل هذا المعنى، فدلّ الكلام في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ على أنّه ينبغي أن يكون الحُسْنُ أسلوبًا عند جدال أهل الكتب وصفةً مصاحبة له وملتصقة به، وتوجيهُ وُرودِها أنَّ ما قبل ﴿إِلَّا﴾ وهو ﴿تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ يتطلّب مجرورًا بالباء؛ فجُرَّ بها ما بَعْدَ إلّا وهو (الّتي)، وتقدير المستثنى منه: (ولا تجادلوا أهل الكتاب بشيء إلا بالّتي هي أحسن).

غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

الحُسنُ في التّعامل مِنْ أجْدَى أساليبِ الإسلامِ في الدّعوة

(الّتي) للمفردة المؤنّثة سواءٌ أكانت شخصًا عاقلًا أو غير ذلك، ومعنى ورودها في قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، أي: ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالكلمة التي هي أحسن، والتّعبير بالصّلة ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾ لبيان عظيم شأن هذا الأسلوب في التّعامل مع أهل الكتاب؛ لأنّهم يعلمون جانبًا من الحقّ ويؤمنون بكتابهم، وفي هذه الصّلة تعريضٌ أيضًا بالّذين ظلموا منهم.

نكتة التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

توحيد طريقة التّعامل مع أهل الكتاب

قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ دلّت الجملة الاسميّة على الثّبات، فيكون ذلك أمرًا ثابتًا في طريقة مجادلة أهل الكتاب بالحُسنى، فهي طريقة واحدة في التّعامل مع المحسنين منهم، إلّا الّذين ظلموا منهم بأفعالهم وأقوالهم.

المتَشابِه اللّفظيّ في: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

بَيْنَ قولِه تعالى ههنا: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وقوله سبحانه في موضع آخر: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: 96] و[فُصِّلَت: 34][1]، وجْهُ تشابهٍ في تَمَثُّل خَصْلة الحُسْنِ في التّعامل في قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ إذ تناولت آية العنكبوت أسلوب التّعامل مع أهل الكتاب بالخَصْلة الّتي هي أحسن كمقابلة الخشونة باللّين، والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنّصح، واستثنى الّذين ظلموا من هذا التّعامل، أمّا في سورة المؤمنون فقد قدّمت الآية قاعدة عامّة مع أفراد المجتمع جميعًا بُغْيَةَ القضاء على العداوات وإشاعة الحبِّ والرّاحة النّفسيّة، فأتمّها بقوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصّلت: 34].

حُسْنُ الخصال من أهمّ أخلاقيّات التّعامل في الإسلام

نُكتَةُ دخول ﴿هِيَ﴾ ودَلالتُها على القَصْر:

قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ أي بالخَصلة التي هي أحسنُ على وجهٍ لا يدلُّ على الضَّعفِ ولا يُؤدّي إلى إعطاءِ الدَّنيّة[2]، فدلّ ضمير الفصل ﴿هِيَ﴾ على القَصْرِ على هذه الكلمة الحَسَنة، ودلّ كذلك على الاعتناء في اختيار الكلمة الحسنة، والأسلوب المناسب في التّعامل معهم.

انتقاء الأسلوب المُناسب في التّعامل مع أهل الكتاب

وجه الوصاية بالحُسنى في المجادلة:

وَجْهُ الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب أنّهم مؤمنون باللّٰه غيرُ مشركين به، فهم مُتَأَهِّلون لقبول الحجّة غيرُ مظنون بهم المكابرةَ؛ فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجّة دون إغلاظ؛ حَذَرًا من تنفيرهم، ورجاءَ اهتدائهم، فإنْ هُمْ قابَلوا الحسنى بضدّها انتقل الحكم إلى الاستثناء الّذي في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[3].

معاملتهم بالحسنى رجاء اهتدائهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 3.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 42.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 6 - 7.

الإسلام يدعو إلى انتقاء الأفضل من الأقوال والأفعال

دلالة التّعبير بـ﴿أَحۡسَنُ﴾ مادّةً وصيغةً:

الحُسْنُ ضدُّ القُبْح، والمحاسن من الإنسان وغيره: ضدّ المَساوِئ[1]، وصيغَةُ ﴿أَحۡسَنُ﴾ على وزن (أفْعَل)؛ اسم تفضيل لكنْ جاء على غير باب التّفضيل، أي: ليس المراد منه معنى التّفضيل بين شيئين، بل يُقصَد منه المبالغةُ في الصّفة المذكورة، وهي هنا (الحُسْن)، وعلى كلِّ حال فإنّ اختيار اسم التّفضيل للتّعبير به يُعَدُّ دعوةً قرآنيةً مهمةً إلى انتقاء الأفضل من الكلمات والأقوال والأفعال عند التّعامل مع أهل الكتاب عمومًا، باستثناء الّذين ظلموا منهم، فالأصل في المجادلة التّعامل بالأسلوب الأمثل المناسب لكلِّ موقف.

ويجوز أن تكون صيغة ﴿أَحۡسَنُ﴾ اسم تفضيل على بابِهِ، أي: على بابه في استعماله للتّفضيل بين شيئين كما هو الأصل، بحيث يُقَدَّرُ المُفَضَّل عليه ممّا دلّتْ عليه القرينة؛ أي: بالّتي هي أحسنُ من مجادلتكم المشركين، أو بالّتي هي أحسنُ من مجادلتهم إيّاكم كما تدلّ عليه صيغة المُفاعَلَة.

ويجوز أن يكون اسم التَّفضيل مسلوبَ المُفاضلة أصلًا لقصد المبالغة في الحُسن، ويكون التقدير: (إلا بالمُجادلة بالحُسنى)، كقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]، فالله جعل الخيار للنّبيّ ﷺ في مجادلة المشركين بَيْنَ أنْ يُجادلهم بالحُسنى؛ كما اقتضته آية سورة النَّحل، وبَيْنَ أنْ يجادلهم بالشِّدَّة كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾ [التّوبة: 73]، فإنَّ الإغلاظ شاملٌ لجميع المُعاملات، ومنها المجادلات، ولا يختصّ بخصوص الجهاد فإنَّ الجهاد كلَّه إغلاظٌ فلا يكونُ عَطْفُ الإغلاظ على الجهاد إلّا إغلاظًا غيرَ الجهاد[2]، فيكون أسلوب

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/ 57.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 6.

معاملة الرّسول للّذين كفروا ونافقوا بحسب ما اقتضته الضّرورة، والمعنى: جادلهم بأفضل ما يناسب أحوالهم وأفعالهم؛ فدلّ قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ على ما تراه مناسبًا لموقف من المواقف؛ أي بالأسلوب الأمثل المناسب لكلِّ موقف.

معنى الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

أعظم الظّلم هو الشّرك بالله

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ تبيّنٌ للمُراد بالمُستَثنَين، وهم الّذين أشركوا منهم وكان شركُهم بإثبات الولد لله، أو الّذين كان شركُهم بالقول بأنّه سبحانه ثالث ثلاثة تعالى الله عن ذلك؛ فإنّهم بهذا القول المنكر قد ضاهوا المشركين عبّادَ الأوثان بهذا الشّرك، فهم يجادَلون بالأخشن من القول لتهجين مقالتهم، وتَبْيين جهالتهم، لذا فهم ظالمون؛ والشّرك ظلمٌ عظيمٌ[1].

دلالة الاستثناء في ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

الأوْلَى بالظّالمين جدالُهم بالغلظة، أو تركُهم والتحوّلُ عنهم

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ استثناء متّصل من السّابق ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ على معنى إلّا الّذين ظلموا منهم، فلا تجادلوهم بالحُسنى بل بالغلظة، أو هو متّصل من قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على معنى لا تُجادلوهم البتَّةَ، بل حكِّموا فيهم السّيف لعِنادهم[2]، أو هو متّصل من أهل الكتاب على معنى لا تجادلوهم؛ بل جادلوا غيرهم، والأوّلُ أوْلَى بقرينةِ جملة الاستثناء الأوْلَى.

غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

تَـرْكٌ شاملٌ للمجادلة مع جميع ظالمي أهل الكتاب

الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يستعمل لجماعة الذّكور العقلاء، وأفاد في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ التّعريض بذكر الصّلة وهي الظّلم، ويفيد كذلك شمول عموم الظّالمين منهم، وعن مجاهد ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ قال: هم أهل الحرب من لا عهد له فتجادلوهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 63.

(2) العُكْبَريّ، إملاء ما منّ به الرّحمن: 2/ 183.

بالسّيف[1]، أو هم الّذين أفرطوا في الاعتداء، والعِناد، وإظهار العَداء للنّبيّ ﷺ والمسلمين، ولم يقبلوا النّصح ولم ينفع فيهم الرِّفق، فاستعمِلوا معهم الغلظة، أو الّذين أثبتوا الولد والشّريك، وكذلك الّذين وصفوا اللّه بالبخل والعياذ باللّه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة: 64]، أو نبذوا الذّمّة ومنعوا الجزية، فحُقَّ مجادلة أولئك كلِّهم بالسَّيف[2].

وجه التّعبير عن الظّلم بالماضي:

دليلُ تحقّقِه، ووقوعه فعلًا واقعًا منهم

الظّلم مجاوزة الحدّ، ويقال فيما يقِلّ ويكثر من التّجاوز، ومنه وضْعُ الشَّيء في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ وإمّا بعدولٍ عن وقته أو مكانه[3]، والتّعبير عنه بصيغة الماضي دليل تحقّقِه، ووقوعه منهم فعلًا واقعًا وباديًا منهم.

معنى (من) في قوله: ﴿مِنۡهُمۡۖ﴾:

ظهور الظّلم والعَداء كان من بعضهم

أفاد الحرف (مِنْ) في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ معنى التّبعيض؛ إذ دلّ على وقوع الظّلم من بعضهم، وهو الإشراك باللّه والإصرار على ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، أمّا الّذين يؤمنون بالإله الواحد فليسوا من هؤلاء الّذين ظلموا، وبعضهم من أظهر العَداء للنّبيِّ وللمؤمنين، ولم ينفع معهم النّصح.

معنى الواو في قوله: ﴿وَقُولُوٓاْ﴾:

عطفٌ تعليميٌّ ليكون مقدّمةً للمجادَلة بالّتي هي أحسن

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ عطفٌ لجملة إنشائيّة على مثلها، وبينهما مع الاتّصال اختلاف من حيث المعنى المدلول عليه بكلٍّ منهما، فقد ذكرت الجملة الثّانية قضيةً يعتقدها المسلمون، وإنّما المجادلة تكون فيما يعتقد أهل الكتاب، مما يخالف عقائد المسلمين، ولأجل أنَّ مضمون هذه الآية لا يدخل في حيّز المجادلة عُطِفَتْ على

---

(1) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 9/ 3069.

(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 461.

(3) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (ظلم).

ما قبلها، ولو كانت ممّا شمِلَتّه المجادلة لكان ذلك مُقْتضيًا فصلَها؛ لأنّها مثل بدل الاشتمال، والعطف في قوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ إلى آخر الآية تعليم لمقدّمة المجادَلة ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[1].

دلالة الأمر في قوله: ﴿وَقُولُوٓاْ﴾:

إرشادٌ بالتّصريح بالإيمان لأنّه من صور الإحسان

في قوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ خرج الأمر إلى معنى التّوجيه؛ لما فيه من الإرشاد إلى طريقة الجدال بالحسنى مع أهل الكتاب، وعُبِّر بلفظ القول جمعًا؛ لأن مادّته تشمل كلَّ أنواع التّعبير اللّفظيّ، سواء ما كان منها مباشِرًا أو غير مباشِر، ويناسب ذلك الدّعوة إلى التّصريح والمجاهرة بإيمانهم بما أنزله اللّه تعالى، وتسليمهم له مجتمعين على ذلك لا يَنِدُّ عن الجماعة واحدٌ.

دلالة التّعبير بالفعل الماضي ﴿ءَامَنَّا﴾:

إيضاحٌ بأن إيمان المسلمين بالتّوراة والإنجيل مضى تبعًا لإيمانهم بالقرآن الكريم

الفعل ﴿ءَامَنَّا﴾ في قوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾؛ ماضٍ مُطلق، وهو الزّمن الّذي مضى قبل زمن التّكلّم، قريبًا كان أو بعيدًا، قال ابن يعيش: "وذلك أنّك تقول: (قام) فيصلح لجميع ما تقدّمك من الأزمنة"[2]، والإيمان هنا مجملٌ معلّقٌ على شرط: هو أن يكون منزَّلًا، لا مبدَّلًا مُؤَوَّلًا، يعني: إذا أخبروا بما لا يُعلَم صِدّقه ولا كذبُه، فهذا لا يُكَذَّب؛ لأنه قد يكون حقًّا، ولا يُصدَّق، فلعلّه أن يكون باطلًا[3].

وروى البخاريّ عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التّوراة بالعبرانيّة ويفسّرونها بالعربيّة لأهل الإسلام، فقال رسول اللّه ﷺ: (لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم)، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: 136] الآيَةَ[4]؛ إذ إنّ إيمان المسلمين بالتّوراة والإنجيل تبعٌ لإيمانهم بالقرآن الكريم، غير معتمدين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 7.
(2) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 8/ 110.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 283.
(4) البخاريّ، صحيح البخاريّ، رقم الحديث: (4485).

على ما يقوله أهل الكتاب عن كُتُبهم، وهذا ما أفاده الماضي في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾.

نكتة تعدية الإيمان بالباء:

بيانُ أنّ القرآن الكريم هو مصدر الإيمان بالكتب الأخرى

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الإلصاق والاختلاط، ليدلّ على عظيم الإيمان بما أَنْزَلَ اللّه على رسوله محمّد ﷺ؛ وعلى تفاعل المسلمين بمحتواه والعمل بما جاء فيه من التَّشريع، وعلى أنّ إيماننا بما أُنْزِلَ إليكم آتٍ من إيماننا بما أُنْزِل إلينا وهو القرآن وجاء التّعبير عنه بهذه الصِّلَةِ للتَّنبيه على خطأ أهل الكتاب؛ إذ جحدوا أن يُنَزِّلَ اللّه كتابًا على غير أنبيائهم، ولذلك عَقَّبَ بقوله: ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾[1]، فالقرآن هو مصدر الإيمان بالكُتُب الأخرى.

سرُّ بناء الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يُسمّ فاعله:

الدلالة على أنّ الرّسالات السّماويّة قديمةٌ راسخةٌ

دلّ الفعل الماضي المبنيُّ للمفعول ﴿أُنزِلَ﴾ على الرّسوخ والقِدَم، ولم يُذكر الفاعل مراعاة لغرض السّامع، فالسّامع لا غرض له في ذكر الفاعل، إذ لا خلاف على من أَنْزَلَ الكتب السّماويّة وهو اللّه تعالى، ومن ثَمَّ فلا حاجة لذكره، ولكنّ الخلاف في الرّسالة نفسِها وفي نُبوَّة محمّد ﷺ عندهم.

نكتة تعدية فعل الإنزال بـ(إلى):

عُدِّيَ فعل الإنزال في قوله: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾؛ بـ(إلى)؛ والأصل أنّ (إلى) تكون لانتهاء الغاية، فدلّ ذلك على وصول الرّسالة ومعرفتها والعمل بمقتضاها.

فائدة عطف قوله تعالى: ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾:

الجمع بين إنزال الكُتب السّماويّة قدْرًا ومكانةً

فائدة العطف في قوله: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ الجمع بين الإنزالين، في المكانة عند اللّه؛ كون أنّ هذه الرّسالات هي من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 7.

مصدر واحد، ممّا اقتضى الإيمان بها جميعًا، دون أن يُفرَّق بينهما؛ فقال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: 285].

غرض التّقديم والتّأخير بين الإنزالَيْن:

بيانُ هَيمَنَة القرآن على ما سَبَقَه مِنْ إنزالٍ

في قوله: ﴿بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ قُدِّم الإنزالُ الأخير وهو (القرآن الكريم) خاتم الرّسالات، على الإنزال السّابق له (التّوراة والانجيل)، لبيان الاهتمام ووضوح الإيمان بالرّسالة الّتي لم يطأْها تحريف، ولفائدة بيان إيمان المتحدّث وسبب هدايته، وأنّ الرّسالة المحمّديّة هي المُهيمنة على ما سبقها من الرّسالات، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: 48].

معنى الواو في قوله: ﴿وَإِلَٰهُنَا﴾:

الجمع بين رُكنَي الإيمان سبيلٌ لتوحيد الله تعالى

فائدة العطف بالواو في ﴿وَإِلَٰهُنَا﴾ الجمع بين رُكْنَي الإيمان؛ الإيمان بالكُتب المنزّلة عليهم، والإيمان بالله، وبيان التّرقّي في ذكر رُكْنَيِ الإيمان، مبتَدِئًا من اختلاف الكتابَينِ ومنتهيًا بوحدانيّة الإله؛ ليكون الجامع بينهما هو التّوحيد لله تعالى.

نكتة إضافة الإله إلى ضمير المتكلّم:

الإلـه الواحد أحقّ بالألوهية والعبادة

لأنّ الإضافة في اللّغةِ نسبةٌ بين لفظتين؛ تُنسبُ الأولى إلى الثّانيةِ بغيةَ تعريفِها أو تخصيصِها؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُنَا﴾ أضيفت كلمة (إله) إلى ضمير المتكلّم (نا)، لأنّ المؤمنين إذ يَنْسِبون الإلهَ إلى أنفسهم؛ فذلك لبيان اعتقادهم الخالص بأحقيّته بالألوهيّه، وبإيمانهم به، وعبادتهم إيّاه سبحانه.

نكتة التعبير بـ﴿وَٰحِدٞ﴾ مادة وصيغة:

تفخيمٌ وتعظيم لله سبحانه وإخبار عن وحدانيّته في استحقاق العبادة

تنكير لفظة ﴿وَٰحِدٞ﴾ في قوله: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾؛ للتّفخيم والتّعظيم، وللدّلالة على أنّه إله عظيم لا يحدّه تعريف سبحانه، وهو واحدٌ لا ثاني له قيّوم السّموات والأرض وخالق كلّ شيء، ثُمَّ إنَّ موقع

هذه اللّفظة أنّها خبرُ المبتدأ ﴿وَإِلَٰهُنَا﴾، فعلاقة لفظة ﴿وَٰحِدٌ﴾ هي الخبريّة، فبها اكتملت جملة المبتدأ الّتي تضمّنَتِ الحديثَ عن الإله المُستحِقّ للعبادة، سواء كان الحديث من المُتكلّمين أو من المُخاطَبين جميعًا؛ فبَيَّنَ الخبرُ بأنّ الإله واحدٌ لا ثاني له سبحانه، فلا شريك له في الألوهيّة.

دلالة الوصل بالواو في: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾:

تّعريضٌ بأهل الكتاب لِاتّخاذهمُ الأحبارَ والرهبانَ أربابًا من دون الله

وُصِلَتْ جملةُ: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ بما قبلها؛ لما بينها وبين ما يسبقها من التّوسط بين كمال الانقطاع وكمال الاتّصال، وذلك لأمرين: **الأوّل**: أنّ بين هاتين الجملتين اتّصالًا أو اتّفاقًا يتمثّل في كونهما خبريّتين، وفي وجود الجهة الجامعة أو العلاقة الّتي تُسَوِّغُ عَطْفَ الثّانية منهما على الأولى، وهي هنا علاقة التَّضادّ باعتبار أنّنا جميعًا؛ نحن وأنتم؛ آمنّا بإله واحد، هذا معنى الجملة الأولى، أمّا الثّانية فدلّت على كوننا وحدَنا مسلمون للّه دونكم، **والأمر الثّاني**: أنّ بينهما - مع الاتّصال - اختلافًا من حيث المعنى المدلول عليه بكلّ منهما، فيكون في قوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾؛ تعريضٌ باتّخاذهم أحبارَهم ورهبانَهم أربابًا من دون اللّه(1)، لتكون هذه الجملة وما قبلها ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أصلًا في آداب المناظرة والجدل.

دلالة التّعبير بـ(نَحنُ):

عدمُ الإشراك بالله تسليمٌ له تعالى

يمكن أن يكون المراد بالضّمير المنفصل (نحن) في قوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ كلا الفريقين؛ فريقَ المتكلّمين، وفريقَ المُخاطَبين، فيشمل المسلمين وأهلَ الكتاب، وحينها يكون المرادُ بالوَصْفِ ﴿مُسۡلِمُونَ﴾ أحدَ إطلاقَيْهِ؛ وهو إسلام الوجه إلى اللّه؛

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 196، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 559.

أي: عدم الإشراكِ به سبحانه، أي: وكلانا مسلمون للّه تعالى لا نشرك معه غيره[1].

معنى اللّام في: ﴿لَهُۥ﴾:

اللّام في قوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ تفيد الاختصاص؛ أي بالمِلْكيّة، فقد ذكر سيبويه أنّ معناها المِلْك والاستحقاق[2]، وهذا هو الاستحقاق الّذي يؤدّيه العبد تجاه خالقه؛ وهو الايمان به، والعمل بما أنزل، والاستسلام لأمره سبحانه.

استحقاق الخالق لاختصاص مِلْكه بنا ولاستسلامنا لأوامره سبحانه

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿لَهُۥ﴾:

تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على موضع تعلّقِهِ ﴿مُسۡلِمُونَ﴾ في قوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾؛ جاء لإفادة الاختصاص؛ أي: مطيعون للّه خاصّة[3]، وفيه تعريضٌ بالمشركين وبالّذين ظلموا من أهل الكتاب؛ الّذين لم يفردوا اللّهَ بالألوهيّة، فإعلان الإسلام للّه سبحانه إشعارٌ لهم ببعدهم عمّا ينبغي أن يفعله كلّ إنسان تِجاهَ خالقه.

إعلان الإسلام لله تعالى إشعارٌ ببعد أهل الكتاب عنه

دلالة التّعبير بـ﴿مُسۡلِمُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

الإسلام هو الخضوع والإذعان، والانقياد التامّ لأوامر اللّه ونواهيه، وهو لفظ مشتقٌّ يراد به الاستسلامُ أو الطّاعة المُطلَقَة، ويُقال: (أَسْلَمَ) لمن دخل في دين الإسلام، وقوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾؛ أي خاضعون منقادون إلى تنفيذ أوامر اللّه سبحانه وأحكامه أتمّ انقياد، وصيغة ﴿مُسۡلِمُونَ﴾ دلّت على طلب تحقيق القبول عند اللّه من خلال الجدّ في الانقياد إلى ما أمر اللّه والانتهاء عن نواهيه تعالى.

الاجتهاد والانقياد إلى أوامر الله تعالى

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجدال والمُحاوَرَة:

الجدال من (جدل)، وهو من باب استحكام الشَّيء في استرسالٍ

المنهي عنه مع أهل الكتاب الكلام الّذي مُؤدّاه إلى الخصومة والمشاحنة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 8.
(2) سِيبَوَيْه، الكتاب: 2/ 304.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 4.

يكونُ فيه، وامتدادِ الخصومةِ ومراجعةِ الكلام[1]، وجدلَ الشَّيءَ: أحْكَمَ فتْلَه[2]، فدلّ الجدال على المشاحنة والخصومة في القول، أمّا المُحاوَرَة من (حور)؛ والْحَوْرُ: مَصْدَرُ حارَ حَوْرًا رَجَعَ، فيقال حار، إذا رجع، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ [الانشقاق: 14]، فمعنى الحوْر إذن الرُّجوعُ إلى الشَّيء، ومنه المُحاورة وهو إعادة الكلام بغية تحسين الحجّة، وهذا المعنى ليس المنهيّ عنه، وإنّما المنهيُّ عنه الجَدَل الّذي يؤدّي إلى المشاحنة والخصومة؛ ولذلك اختيرت هذه اللّفظة في معرض النّهي.

الظُّلمِ والجَوْرِ:

ظُلمُ المشرك لنفسه آتٍ مِن اختلالِ عَقْلِه، في تَنَقُّصِ ربِّه، بِوَضْعِ صفاتِ الخالقِ في خَلْقِه

أَصْلُ الظُّلْمُ وضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ[3] وأَصْلُ الجَوْرِ المَيْلُ عَنِ الطَّريقِ[4]، ومعنى الظُّلم نُقصانُ الحَقِّ، ومعنى الجَوْرِ العُدول عن الحَقِّ، والجَوْرُ خِلافُ الاستِقامةِ في الحُكم، وفي السّيرة السُّلطانيَّة، تَقولُ: جار الحاكِمُ في حُكمِه، والسُّلطانُ في سيرَتِه: إذا فارَقَ الاستِقامةَ في ذلك، والظُّلمُ ضَرَرٌ لا يُستَحَقُّ ولا يُعقِبُ عِوَضًا، سَواءٌ كان مِن سُلطانٍ أو حاكِمٍ أو غَيرِهما؛ ألا تَرى أنَّ خيانَةَ الدّانق والدِّرهَم تُسَمَّى ظُلمًا، ولا تُسَمَّى جَوْرًا، فإن أُخِذَ ذلك على وجهِ القَهرِ أو المَيلِ سُمّي جَوْرًا، وخولِفَ بَينَ النَّقيضَين، فقيل في نَقيضِ الظُّلم: الإنصافُ، وهو إعطاءُ الحَقِّ على التَّمام، وفي نَقيضِ الجَورِ العَدلُ، وهو العُدولُ بالفِعلِ إلى الحَقِّ[5].

والمشرك ظالم لنفسه لا لربِّه؛ فهو لا يضرُّ اللَّهَ شيئًا، وإنّما ظَلَمَ نفسَه؛ لأنَّه عَطَّل عقلَه، "فاعْتقدَ الأُلوهيَّةَ لغيرِ الإله الحقِّ، فصرفها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 433.
(2) ابن سِيْدَه، المحكم: 7/ 322.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/ 468، والفيّوميّ، المصباح المنير، ص: 146، والراغب، المفردات، ص: 537.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 493.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 385.

لغير مُستَحِقِّها"[1]، ووَضَعَ العبادةَ في غيرِ موضعِها، والظّالمون مِن أهل الكتاب في الآية ليسوا همُ الّذين لم يؤمنوا برسالة سيِّدنا محمّدٍ ﷺ، بل هم الّذين رَضوا بأنْ يجعلوا للّه شريكًا ابنًا، أو جعلوه ثالثَ ثلاثةٍ تعالى اللّه عن ذلك، فالشّرك ظُلمٌ لأنّه ضلالٌ مبينٌ، وافتراءٌ كبيرٌ، وسببٌ لاختلالِ التَّصوُّرِ الحقِّ، ولاستجلابِ الخُرافة، وهو تَنَقُّصٌ لربِّ العالمين، وتشبيهٌ للمخلوقِ بالخالقِ؛ في خصائص الأُلوهيّةِ من مُلْكِ الضُّرِّ والنَّفْعِ، والعطاء والمنع؛ واعتقادٌ بمَن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا أنّه خالق رازق قادر نافع ضارٌّ، ولأجل هذا كلِّه جاء التّعبير في الآية عن الّذين اتّصفوا بهذه الأوصاف من أهل الكتاب بأنّهم ظَلَموا، لذا تَمَّ استثناؤهم من الجدال بالّتي هي أحسن.

(1) القُرطبيّ، المُفهِم لِما أَشْكل من تلخيص كتاب مسلم: 1/ 334.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾ [العنكبوت: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

القرآن كتاب مُعجز لا يُنكر الإيمان به إلا جاحد جاهل

ذكر النظم الحكيم في الآية قبل السّابقة: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: 45]؛ وأشار هُنا إلى إنزال الكتاب؛ لأنّه في صدد الحديث عن أهل الكتاب؛ وكيفيّة مجادلتهم؛ وكان ينبغي أن يؤمنوا لِما عرفوا من الحقّ، فالآية معترضة بين محاجّة المشركين والعَوْدِ إليها في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ لإثبات أن القرآن منزَّلٌ من الله على رسوله ﷺ[1]، ووجّه البِقاعيُّ المناسبة بين الآية وما قبلها بأنّه "لمّا كان التَّقدير تعليلًا للأمر بهذا القول: إنا أنزلنا كتبهم إلى رسلهم، عطف عليه قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ مخاطبًا الرأسَ المسموعَ الأمرِ المُجابَ الدعاءِ تخصيصًا له لئلّا يَتَطَرّق لِمُتَعَنِّتٍ طَعْنُ عُموم، أو اتِّهامٌ في المُنَزَّل عليه ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: ومثل ذلك الإنزال الذي أنزلناه إلى أنبيائهم ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾، أي: هذا القرآن الّذي هو الكتاب في الحقيقة"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾: (كتب) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، مِنْ ذلِكَ الكِتابُ والكِتابَةُ، يُقالُ: كَتَبْتُ الكِتابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا، ومِنَ البابِ كَتائِبُ الْخَيْلِ، يُقالُ: تَكَتَّبوا[3]، وتُطْلَقُ الْكِتْبَةُ والْكِتابُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 4.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 451 - 452.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب).

عَلَى المَكتوبِ ويُطْلَقُ الكِتابُ عَلَى المُنَزَّلِ وعَلَى ما يَكْتُبُهُ الشَّخْصُ ويُرْسِلُهُ[1]، والْكَتْبُ: ضمّ الحروف بعضِها إلى بعضٍ بالخطّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضِه إلى بعض باللّفظ، فالأصل في الكِتابَةِ: النَّظْم بالخطّ لكن يستعار كلّ واحد للآخر، ولهذا سُمّي كلام الله - وإن لم يُكْتَبْ - كِتابًا، كقوله: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 1 - 2]، وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [مريم: 30]، والْكِتابُ في الأصل اسم للصّحيفة مع المكتوب فيها، وفي قوله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [النساء: 153] فإنّه يعني صحيفة فيها كِتابَةٌ، ولهذا قال: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾ [الأنعام: 7][2]، والكتاب هنا آخرها نُزولًا على خاتم المرسلين محمّد ﷺ وهو القرآن الكريم.

2) ﴿يَجۡحَدُ﴾: (جحد) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ الخَيْرِ، يُقالُ عامٌ جَحِدٌ قَليلُ المَطَرِ، ورَجُلٌ جَحِدٌ وجَحْدٌ فقيرٌ، وقَدْ جَحِدَ وأَجْحَدَ، قالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: والجَحْدُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ القِلَّةُ[3]، والجَحَدُ: من الضّيّق والشُّحِّ[4]، والجُحود: ضدُّ الإقرار، كما أنّ الإنكار ضِدُّ المعرفة[5]، والجُحود: نَفْيُ ما في القلب إثباتُه، وإثبات ما في القلب نفيُه، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: 14]، وقال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف: 51][6]، وهو المعنى هنا.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

من رحمة الله برسوله ﷺ تطمينه بإيمان النّاس برسالته

يخاطب الله تعالى رسوله ويبيّن له أنّه كما أنزل التّوراة على موسى فأصبح اليهود أهلَ كتابٍ، وأنزل الرّسالات على الرّسل من

(1) الفَيّوميّ، المصباح المنير: 2/ 524.
(2) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(4) الخليل، العين: (جحد).
(5) الخليل، العين: (جحد).
(6) الرّاغب، المفردات: (جحد).

قبله؛ فإنّه أنزل إليه الكتاب، وهذا فضل اللّه يؤتيه من يشاء؛ إذ أنزله مصدِّقًا لسائر الكتب السّماوية قبله، فمن آمن منهم بما أُنْزِل على موسى فإنّه يؤمن بما أُنْزِلَ عليه، فقَصَدَ: مؤمني أهل الكتاب[1]، وهم عبد اللّه بن سلام ومن آمن معه، وقوله: ﴿وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾؛ يعني: كفّارَ مكّة، ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾؛ فأسلم منهم جماعة، أو أراد بالّذين أوتوا الكتاب الّذين تقدَّموا عهد رسول اللّه ﷺ من أهل الكتاب، و﴿وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ ممَّن في عهده منهم[2]، وبعد المعرفة بأنّ هذا الكتاب من عند اللّه فإنّه لا يجحد به إلا الكافرون من اليهود، وذلك أنهم عرفوا أن محمّدًا نبيٌّ، والقرآنَ حقٌّ، فجحدوا وتنكّروا[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

ضمّ الرّسالات إلى بعضها أمارة وحدة المصدر

تقدّم في الآية الّتي قبل هذه ما يتضمّن نزولَ شرعٍ وكتابٍ من عند اللّه على أنبياءَ قبل محمّدٍ ﷺ فحَسُنَ لذلك عَطْفُ (كَذلِكَ أَنْزَلْنا) على ما في المضمر؛ أي وكما أنزلنا على مَنْ تقدَّمك أنزلنا إليك[4]، وفيه ضَمّ الرّسالات إلى بعضها؛ كونُها آيةً من مصدر واحد؛ وهو اللّه تعالى.

دلالة التّشبيه في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

إشارةٌ إلى عُلوِّ مَنزلةِ المُشار إليهِ وفَضْلِهِ

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أي مثل ذلك الإنزال الذي للكتب السّابقة، أنزلنا إليك الكتاب؛ أي القرآن[5]. "وفيه تجريد للخطاب لرسول اللّه ﷺ، وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه في الفضل والتّمثيل

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 423، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 559.
(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 462.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 423.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 321.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 361.

لإنزال الكتب من قبله؛ أي مثل ذلك الإنزال البديع الشأن الموافق لإنزال سائر الكتب أنزلنا إليك القرآن الّذي من جملته هذه الآية النّاطقة بما ذكر من المجادلة بالحسنى"[1]، أو أنّ الإشارة إلى ما تقدّم لذكر الكتاب وأهله؛ أي وكما أنزلنا الكتب إلى مَنْ قبلك أنزلنا إليك الكتاب[2]، وفيها لَفَتَ القرآنُ أنظار النّاس إلى هذه النّاحية من الإعجاز وأقام الدّليل على أنّه كلام الله ولا يمكن أن يكون كلامَ بشرٍ؛ إذ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الشورى: 52][3].

نكتة التّعبير باسم الإشارة (ذلك):

تعظيم شأن القرآن، والإيذان بِبُعْدِ منزلتِه في الفضل

الإشارة بـ(ذا) للقريب، وإذا لحقَتْها الكاف مع اللّام (ذلك) فيُشار بها للبعيد[4]؛ و(ذلك) هنا إشارةٌ إلى مصدرِ الفعل الّذي بعده، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببُعد منزلةِ المشار إليه (القرآن الكريم) في الفضلِ، أي: مثلَ ذلك الإنزالِ البديع الموافقِ لإنزالِ سائرِ الكتبِ أنزَلْنا إِلَيْكَ القُرآنَ[5]، وفي ذلك تعظيم له، وتشريفٌ للمُنزَّل عليه ﷺ.

نكتة التّعبير بالفعل ﴿أَنزَلۡنَآ﴾:

تحقيق الإنزال بقدرة الله وإحاطته

التّعبير بفعل الإنزال دليلٌ على سماويّة كتبه سبحانه، وعِظَمِ المُنزَّل بانتفاء بشريّة تأليفه، ودلّ الفعل الماضي في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ على وقوع الحدث في الزّمن الماضي؛ فدلّ على تحقّق الإنزال، وضمير العظمة (نا) أفاد القدرة والإحاطة؛ لأنّه كلام الله تعالى، فالله تعالى قد أحاطه بقدرته وحفاوته، ويُشار إلى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 42.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 42، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 4.
(3) الزُّرقانيّ، مناهل العرفان: 2/ 273.
(4) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 3/ 135.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 42.

أنّ ضمير التّعظيم يأتي في كلام الله، ولا يأتي في كلام الأنبياء حين يخبرون عن ربهم.

نكتة تعدية فعل الإنزال بـ(إلى):

الدّلالة على انتهاء غاية الإنزال وأنّ محمدًا ﷺ آخرُ المرسلين

أفادت تعدية فعل الإنزال بـ(إلى) في قوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الدّلالةَ على انتهاء الغاية، فيكون منتهى الرّسالة إلى رسول الله ﷺ ويُلمَحُ فيه معنى لطيفٌ مُفادُه أنّ: رسول الله ﷺ هو منتهى الرّسالات، وخاتم الأنبياء والمرسلين ولا إنزال أو إرسال بعده ﷺ، قال المبرّد: "وأمّا (إلى) فإنّما هي للمنتهى"(1).

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿إِلَيْكَ﴾:

اختصاص الرّسول ﷺ بكتاب مهيمن على ما سبقه

قَدَّم شبه الجملة ﴿إِلَيْكَ﴾ في قوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لفائدة الاهتمام بما أنزل على رسول الله ﷺ فهو الكتاب المهيمن على ما سبقه من الكُتب، وقد اختُصّ رسولُ الله ﷺ بخَتْمِ الرّسالات؛ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48].

معنى (أل) في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

تعيين القرآن من بين الكتب السّماويّة في علوّ المكانة والفضل

(أل) في قوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عهديَّةٌ، أي: إنّ القرآن شيء معهود في الذّهن ليس مما يستطيع أحدٌ أنْ يُنكِر معرفتَه، وخصوصًا أنّه في الحقيقة كتابٌ لا يوازيه أيُّ كتابٍ آخرَ من بين الكتب السّماويّة المُنزّلة على الرّسل من قبله ﷺ، في عُلوّ كماله، وفي نظمه ومقاله(2).

سرّ التّفريع بالفاء للوصف الذي بعدها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ فإنَّ إيمانَهم به مترتِّبٌ على إنزالِه على الوجهِ

(1) المُبَرِّد، المُقْتَضَب: 4/ 139.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 452.

المذكور[1]، فـ(الفاء) عاطفة تفريعيّة[2]، تسببيّة، وقد تفرّع على بداعة تنزيله الإخبارُ بأنَّ الّذين عَلَّمهمُ اللّٰه الكتابَ يؤمنون به؛ أي يُصدِّقون أنّه من عند اللّٰه؛ لأنّهم أدْرَى بأساليب الكتب المنزَّلة على الرّسل والأنبياء وأعْلَمُ بِسِماتِ الرّسل وشمائلهم[3]، وتسبَّبَ عن هذا الانزال على هذا المنهاج أنّ الّذين أوتوا الكتاب صاروا يعرفون الحقَّ من الباطل[4].

بيان علم أهل الكتاب بما أنزله اللّٰه عليهم مما استدعى إيمانهم وتمييزهم الحق من الباطل

ويمكن القول: إنّ الفاء في ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ "تفصيليّة، أي: مثلُ ذلك الْإنْزال العجيب الشأنِ الدّاعي إلى الإيمان بجميع الكتب المنزّلة وإلى توحيد الصّانع أنزلناه"[5].

غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾؛ وغرض التّعبير بالموصول (الَّذينَ) لفائدة التّعظيم؛ فيُذَكِّر بِصِلَتِهِ المُعظَّمة، فقال: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾، وهذا أعظم ما يحقّقه الإنسان في حياته، وهو الإيمان بالكتاب المُنزّل من عند اللّٰه، ودلّ الاسم الموصول على عموم أهل الكتاب، أو هو تخصيصهم بإيتاء الكتاب؛ للإيذان بأنّ ما بعدهم من معاصري رسول اللّٰه ﷺ قد نُزِعَ عنهم الكتاب بالنّسخ، وفي قولٍ آخر: هم معاصروه ﷺ العاملون بكتابهم مِنْ مِثْلِ عبدِ اللّٰه بنِ سلام وأضرابه، وتخصيصهم بإيتاء الكتاب لِما أنّهم هم المنتفعون به فكأنّ من عداهم لم يُؤْتَوْهُ[6].

إفادة تعظيم المؤمنين من أهل الكتاب وأهليّتهم للمدح

نكتة إسناد الإيتاء إلى ضمير العظمة:

في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أسند فِعْلُ إيتاء الكتاب إلى

مقامُ المُنْزَلِ من عظمةِ المُنزِل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 42، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 5.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 20/ 346.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 8.
(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 452.
(5) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 15/ 67.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 42، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 5.

ضمير العظمة (نا) ليُعْلَم عن شأن هذا الكتاب وعظيم ما فيه، "أي: إيتاءً يليق بعظمتنا"[1]؛ فهو كتاب الله تعالى الصّادر عنه سبحانه، وهو يُريد بالكتاب التّوراةَ والإنجيلَ؛ لِما فيهما من الأدلّة على صدقه ﷺ؛ وهذا يجدونه مكتوبًا عندهم في التّوراة والإنجيل.

نكتة العدول عن (أهل الكتاب):

التّصريح بالإيتاء تذكيرٌ بأمانة الكتاب العُظمى

عبّر تعالى بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دون القول: (فأهل الكتاب)؛ لأنّ في ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تذكيرًا لهم بما عليهم من الأمانة العظمى؛ إذ قدِ اسْتَأْمَنَهم الله على كتابه، كما قال تعالى: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 44][2]، وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من الطّائفتين اليهود والنّصارى على أنّ المراد بالكتاب جنسُه الشّاملُ للتّوراة والإنجيل، والكلامُ على ظاهره، وقيل: هو على حذف مضاف؛ أي: آتيناهم علم الكتاب[3].

الأنبياء هم الذين أوتوا الكتاب

أشار الفخر الرّازيّ إلى أنّ المراد بالّذين آتيناهم الكتاب هم الأنبياء و(أهل الكتاب) هم الّذين اتّبعوا موسى وعيسى وآمنوا بهما؛ لأنّ المعنيين بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في الحقيقة هم الأنبياء، فإن الله ما آتى الكتاب إلّا للأنبياء، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ [الأنعام: 89] وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ [الإسراء: 55]، وقال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [مريم: 30]، وإذا حملنا الكلام على هذا لا يدخله التّخصيص، لأنَّ كلَّ الأنبياء آمنوا بكلِّ الأنبياء[4].

توجيه إقامة الظّاهر مقام المضمر:

الإعجاز في كتاب الله ظاهرة ملازمة له

أقيم الظّاهر مقام الضّمير في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 452.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 9.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 5.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 63.

للتّنبيه على ظهور دلالة ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على ما فيه؛ وكونه من عند اللّه تعالى[1]، فمعجزاته ظاهرة بيّنة، حتى إنّها أصبحت صفة ملازمة في كلّ آياته.

سرُّ تكرار كلمة (الكتاب):

إطـــلاق لـفـظ (الـكـتـاب) على القرآن والتّوراة دليل على وحْدة ما فيه من الحقّ والصّدق

﴿ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ هو القرآن، أمّا في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فيريد التّوراة والإنجيل، أي فالّذين كانوا في عصر نزول القرآن وأوتوهُ حينئذ ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾؛ أي كانوا مصدِّقين بهذا الكتاب الّذي أنزلناه إليك[2]، وتوحيد لفظ (الكتاب) على القرآن والتّوراة دليل على وحْدَة ما فيه من الحقّ والصّدق؛ فمن آمن بكتاب موسى سيؤمن حتمًا بكتاب محمّدٍ ﷺ.

نكتة التعريف بـ(أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

بيان لواحد من جـنـس الـكـتـب السّماوية

فائدة (أل) التّعريف في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بيان واحدٍ من جنس الكتب السّماوية هو (التّوراة) أو التّوراة والإنجيل، ويمكن أن يكون من قبيل الإشارة إلى واحد ممّا عُرفت حقيقته في أذهان المُخاطبين وهو (التوراة والإنجيل)، فجعلهما كالواحد لاتّحاد حكم أهل الكتاب، وهم اليهود والنّصارى، ومشابهة موقفهم من القرآن والإيمان به.

الموقع النّحويّ لقوله: (الَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ):

إثـبـاتُ البـيّـنـة عند الذين أوتوا الكتاب

جملة: (الَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ) لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة، وجملة: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لا محلّ لها صلة الموصول (الذين)[3]، فيكون عموم الذين أوتوا الكتاب التّوراة يؤمنون بالقرآن، أو ينبغي أن يكونوا كذلك؛ لأنّ ما في كتابهم موافقٌ لما أُنْزِل إليك.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 5.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 321.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 20/ 346.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

إيمانُ النّاس بالكتاب متجدّدٌ لما فيه من المُعجزات

جيء بصيغة المضارع: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدّلالة على أنه سيقع في المستقبل؛ لأن إيمانهم بالنسبة إلى إعطاء الْكتاب مستقبل وإن كان ماضيًا في نفسه(1)، أو للدّلالة على تجدّد إيمان هذا الفريق به؛ أي: إيمان من آمن منهم مستمرّ يزداد عدد المؤمنين يومًا فيومًا(2)، لما فيه من المُعجزات الّتي تُحاكي تجدّد الزّمان.

معنى الباء في قوله ﴿بِهِۦۖ﴾:

الإيمان بالقرآن الكريم حقَّ الإيمان

الباء في قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ للإلصاق، بمعنى التصاق إيمانهم به، فهم مؤمنون حقّ الإيمان لِما عرفوا من الحقّ في كتابهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]، وقال: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة: 83] فهؤلاء الّذين آتاهم اللّه الكتاب يعلمون أنّ الرّسول ﷺ حقّ وأنّ القرآن حقّ فيكون إيمانُهم ملتصقًا به مصاحبًا له لتوافقه مع الحقّ الّذي في كتابهم.

دلالة عَوْدِ الضَّمير ﴿بِهِۦۖ﴾:

الإيمان بالرّسول وبكتابه المُنزّل عليه

الضَّمير في شبه الجملة ﴿بِهِۦۖ﴾ في قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ عائد على القرآن؛ أي: بالكتاب الّذي أُنْزِل إليك، وقيل: الضّمير له ﷺ(3)؛ لِما وجدوه من أوصافه ﷺ عندهم في التّوراة؛ فهم يؤمنون به رسولًا من عند اللّه، وهم يؤمنون بالكتاب الّذي أُنْزِل عليه وهو القرآن.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

عطفٌ لبيان حالاتِ إيمانٍ متنوّعةٍ في مجتمعِ مكّة

الواو في قوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ حرف عطف للجمع، أفاد جمع بعض حالات الايمان الصّادق في مجتمع مكّة الّذي كان يضمّ أهل

(1) القونوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 15/ 67.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 9.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 5.

الكتاب من اليهود، وأهل مكّة الّذين يغلب عليهم طابع الشّرك، فجَمَعَ الأبْعاضَ القِلَّةَ من أهل الكتاب وأهل مكَة.

معنى (وَمِنْ) الجارّة:

تبعيضيّة للدّلالة على أنّ الّذين آمنوا من أهل مكّة هم بعضهم

معنى (وَمِنْ) في قوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تبعيضيّةٌ واقعةٌ موقع المبتدأ[1]؛ إذ أشار إلى أهل مكّة، فبعضهم يؤمن به، وذلك لأنّ بعضهم على الحنيفيّة مثلَ ورقةَ بنِ نوفلٍ وغيرِه؛ وهم قلّة، فجاءت (مِن) للتّبعيض لبيان قلّتهم في مجتمع مكّة، ولأنّهم أوّل من آمن بمحمّد ﷺ من العرب، وأوّل من آمن من المشركين ومن غير أهل الكتاب.

دلالة التّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

تنزيل الغائب منزلة الحاضر:

الإشارة بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى أهل مكّة بتنزيلهم منزلة الحاضرين عند نزول الآية؛ لأنهم حاضرون في الذّهن بكثرة ممارسة أحوالهم وجدالهم، وهكذا اصطلاح القرآن؛ إذ يذكر ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدون سَبْق ما يصلح للإشارة إليه، والمعنى: إنّ مجموعةً من النّاس مِن مشركي مكّة مَن يؤمن به؛ أي: بأنّ القرآن مُنزّل من الله، وهؤلاء هم الّذين أسلموا والّذين يسلمون من بعد، ومنهم من يؤمن به في باطنه ولا يُظْهِر ذلك عِنادًا وكِبرًا مثل الوليد بن المغيرة[2].

نكتة تقديم شبه الجملة:

المخصوصون بالإيمان هم بعض أهل مكّة

قدّم شبه الجملة: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في قوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾، لفائدة التّخصيص؛ إذ أفرده بحكم خاصّ، فخصّ بعض هؤلاء المشار إليهم وهم أهل مكّة بالإيمان؛ أي: ومن العرب، أو من أهل مكة[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 5.

(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 321، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 9.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 5.

معنى الاسم الموصول ﴿مَن﴾:

آمن بالرّسالة أصناف مختلفة من النّاس

الاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ بمعنى (الّذي) وتختصّ بأولي العلم، وتقع على المفرد والمثنّى والجمع والمُذكّر والمؤنّث، فمن أهل مكّة ومِن العربِ مجموعة كانت تؤمن بالرّسالات السّماويّة، على الحنيفيّة السّمحاء، ولعلّ منهم الذّكور والإناث؛ صغارًا وكِبارًا، فشمل هُنا هذه الأصناف، وقد يكون المعنى: ممَّن في عصره ﷺ[1]، أي مِن هؤلاء الّذين هم بين ظَهْرانَيك اليومَ من يؤمن به، كعبد اللّه بن سلام[2]، أو على ما سيكون في المستقبل من إيمان أهل مكّة، وهذا من قبيل الإعجاز الغيبيّ للقرآن الكريم.

دلالة التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

من أهل الكتاب من كان يترقّب بعثه نبيّ آخر الزّمان ونزول كتابه

فائدة الاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾؛ هو عدم علم المُخاطَب بالأحوال المُختصّة بفئة من أهل مكّة الّذين عُرفوا بالشّرك وعبادة الأوثان، فبَيَّنَ هُنا أنّ منهم مَن كان يؤمن بما أنزل من الكتاب قبل نزوله، فقد كانوا يترقّبون النّبيّ الأمّيّ الّذي سيُبعث في ذلك الزّمان، ويترقّبون معه تَنَزُّلَ كتابِه عليه.

الموقع النّحويّ لقوله ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾:

تقديمٌ يُؤْذِنُ بالاهتمام بالكتاب، وتطمينٌ يَشي بإيمان بعض أهل مكّة

جملة: ﴿يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ لا محلّ لها صلة الموصول ﴿مَن﴾[3]، على أنّ المراد من تقديم ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾: الاهتمام بالكتاب الّذي أُنْزِلَ إليك[4]، وفيه تطمينٌ للرّسول أنّ مِنْ أهل مكّة مَنْ سيكون له ناصرًا ومعينًا لإيمانه بالقرآن.

دلالة التّعبير بالمضارع:

المراد بلفظ (الإيمان) في قوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 43.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 423، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 5.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 20/ 347.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 5.

تجدّد الإيمان بالكتاب وزيادته يكون بمرور الزّمن

الحقيقة، فضلًا عن المجاز بمعرفة الباطن بأنّ القرآن حقٌّ لِما أقامَهُ من البرهان على ذلك بعجزهم عن معارضته مع الكفر به[1]، وأفاد صَوْغُهُ مضارعًا التّجدّد مع الزّمن، فيزداد إيمان هؤلاء بما أُنْزِلَ إليك يا محمّد ﷺ من الآيات الكريمة، وتزداد أعدادهم مع الزّمن دلالةً على ما سيكون في المستقبل على سبيل المجاز العقلي باعتبار ما سيكون.

معنى الباء في: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾:

مصاحبةُ إيمانِهم للحقّ المتوافق مع الّذي عرفوه من كتبِهم الّتي أُنْزِلَتْ على أنبيائهم

الباء في قوله: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ للإلصاق والمصاحبة، وحرف الهاء يعود على القرآن، بمعنى أنّ إيمانهم سيكون ملتصقًا بالقرآن مصاحبًا له لا يفارقه، لِما عرفوا من الحقّ فيما تناقَلَتْه أخبار الأمم، ولِما عرفوه من تَدَيُّنِهم بالحنيفيّة ملّةِ إبراهيمَ عليه السلام، فيكون إيمانهم ملاصقًا لكتاب اللّه لا ينفكّ عنه، ومصاحبًا له لتوافقه مع الحقّ الّذي عرفوه وكانوا يترقّبون قدومَه.

معنى الواو في ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

بيان ماهيّة الجاحد

(الواو) اعتراضيّة أو حاليّة؛ فالواو الاعتراضيّة عند من يقول بها هي الواو الّتي تأتي متّصلة بالجملة المعترضة، وجملة: (ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إلّا الْكافِرونَ) لا محلّ لها اعتراضيّة، أو أنّ تكون الواو حاليّة فتكون الجملة في محلّ نصبٍ حال[2].

بلاغة القصر الإضافيّ:

بيان شناعة ما يفعله الكافرون بآيات اللّه المنكرون لها

قوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ قصر إضافيّ دلّ على أنّ الجاحدين للآيات هم الكافرون بالآيات البيّنات، وهو إضافيّ لأنّ الكفر أنواع، ولا يقتصر على جحود آيات اللّه، وغرض هذا القصر هُنا إظهار شناعة ما يفعله الكافرون بآيات اللّه تعالى، المُنكرون للرّسالة وللرّسول.

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 452.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 20/ 346.

دلالة التّعبير بـ﴿يَجۡحَدُ﴾ مادّة وصيغة:

تجدّدٌ واستمرارٌ متعمَّدٌ في الإنكار على القرآن والاعتراض عليه

الجحود ضِدُّ الإقرار، ولا يكون إلا مع علم الجاحد به أنّه صحيح، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: 14][1]، فالجَحْد: إنكار متعمَّدٌ؛ لأنَّ مِنَ الإنكار ما يكون عن جهل مثلًا، والجَحْد يأتي مِنْ أنَّ النِّسبة إمّا نَفْيٌ، وإمّا إثبات، فإنْ قال اللسانُ نسبةَ إيجاب، وفي القلب سَلْبٌ، أو قال سلب وفي القلب إيجاب، فهذا ما نُسمّيه الجحود"[2]، وصيغة الفعل المضارع ﴿يَجۡحَدُ﴾ دلّ على التّجدّد والاستمرار، فجحودهم بقصد الكفر والإعراض والعِناد.

معنى الباء في قوله ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

علامة الكافر بآيات الله جحودٌ حاضر، وتكذيبٌ دائم

دلالة الباء في قوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: الإلصاق المجازيّ، فالتصق جحود الكافرين بآيات اللّه، وهذا هو حال الكافرين، فكلّما تُليَتْ آيات اللّه عليهم، حضر جحودهم بالآيات وتكذيبهم بها.

علّة التّعبير عن الكتاب بالآيات:

إعجاز القرآن وتحدّيه دليل كونه منزّلًا من عند الله تعالى

المُرادُ بعبارة (بآياتنا) الآياتُ المنزَّلةُ في هذا الكتاب الكريم، أو هو بنفسه آيات اللّه الباهرة، وحجّته القاهرة[3]، وعبّر عن (الكتاب) بـ(الآيات)؛ للتَّنبيهِ على ظهورِ دلالتِها على معانيها، وعلى كونِها من عند اللّه تعالى، بسبب إعجازه وتحدّيه وعجز المعاندين عن الإتيان بسورة مثله[4]، وفائدةٌ أخرى هي أنّه عبّر بالجزء باعتبار أنّ القرآن الكريم هو جملة من تلك الآيات البيّنات، وأراد الكُلّ على سبيل المجاز المرسل، ومن ذلك الدّلالة عَلَى نُبوَّة الرَّسول ﷺ بكونه في الذِّروة العليا من البلاغة القصوى[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 425.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11217.
(3) القونوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 15/ 67.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 42، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 9.
(5) القونوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 15/ 67.

دلالة إضافة الآيات إلى ضمير العظمة:

أُضيفتِ الآياتُ في قوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ إلى نونِ العظمةِ لمزيدِ تفخيمِها، وغايةِ تشنيعِ مَنْ يجحدُ بها[1]، وحَوْزِها أقصى غايات العظمة حتى استحقَّتِ الإضافةَ إليه جلّ في علاه[2].

نكتة تقديم شبه الجملة:

إفادةُ تخصيصِ تـجـدُّدِ الجحد بآيات الله من قِبَلِ الكافرين على الدوام

قدّم البيان القرآنيّ شبه الجملة ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ لفائدة التّخصيص؛ إذ كان تكذيب هؤلاء للآيات بسبب أنها آيات الله تعالى، ولو كانت افتراءً من عند غير الله لَما وقفوا هذا الموقف منها.

نوع الاستثناء في ﴿إِلَّا﴾:

حصر اختصاص الجحود بآيات الله بالكافرين وحدهم

أداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ قوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ هي للاستثناءُ المُفرَّغ؛ إذ سُبِقَتْ بنفي وحُذِفَ المستثنى منه، وعليه فإنّ ﴿إِلَّا﴾ تكتسب معنى الحصر، وكلمة ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ تأخذ موقع الفاعل المرفوع بالواو؛ إذ إنّ أصل الكلام: يجحد بها الكافرون، ومعنى الاستثناء الحاصر: نَفْيَ كلِّ جاحد مع اختصاص هذا الحصر بفاعل واحد دون غيره، وهم الكافرون.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

شمول كل الكافرين المتوغّلين في الكُفر المُصمّمين عليه

فائدة التعريف بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ هو استغراق كلّ أفراد جنس الكافرين، فلا يَشِذّ واحدٌ من أفراد هذا الجنس عن هذا الجحود، فيكون الجحود علامة على الكفر، فمن جحد بآياتنا فهو من جنس الكافرين، فضلًا عمّا في التعريف بـ(أل) من الدّلالة على معنى الكمال في الوصف المعرِّف، أي: إلا المتوغلون في الكفر الراسخون فيه؛ المُصمّمون عليه، فإنّ ذلك يمنعهم من الإقرار بها والتّسليم لها،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 42.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 452.

ويصدُّهم عن الاعتناء بها، والالتفات إليها، والتَّأملِ فيما يُؤدّيهم إلى معرفةِ أحقّيتها، والمراد بهم من اتّصف بتلك الصفة من غير قصد إلى معين، وهم كعب بن الأشرف، وأصحابه [1]، ليظهر وجه الاختلاف بين ﴿وَمَا يَجۡحَدُ﴾ وبين ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ إذ لولا الدّلالة على معنى الكمال لصار معنى الكلام وما يجحد إلا الجاحدون[2].

سرّ إيثار لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ دون (المشركون):

شمول لفظ الكفر لأهل الكتاب الّذين سَيَتَأتّى منهم الإنكار والجحود بخلاف لفظ (المشركين)

آثر البيان القرآنيّ عبارة: ﴿إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، على عبارة: (إلّا المشركون)، لأنّ الخطاب يتوجّه ابتداءً إلى المشركين؛ لأنّ جحودهم موجودٌ في الواقع، لذا عدل عنه إلى ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ تهيئةً لتوجيه الخطاب إلى من يمكن أن يصدر من الجحود من أهل الكتاب، وذلك من دون أن يواجههم بأنّهم كافرون في الحال؛ لأنّه لم يقع منهم ذلك وقتَ الخطاب، فإنْ فعلوه فقد أوجبوا ذلك على أنفسهم[3]، ولو كانت العبارة (إلّا المشركون) لَما شَمِلَ المنكرين الجاحدين بعد ذلك من أهل الكتاب.

ليس للكافر يقظة وُجدان لكي يفطن إلى عاقبة الجحود

وخَصَّ الكافرين في مسألة الجحود؛ لأنّ الكافر في الأصل تعمّد ستر الحقيقة وتغطيتَها مع علمه بها، وهذا بخلاف غيره ممّن عنده يقظة وُجدانٍ، فلا يجرؤ على الجحود؛ لأنّه يعلم أنّ اللّه تعالى لا يأخذ النّاس بذنوبهم الآنَ، إنّما يُؤَجِّلها لهم ليوم الحساب، فهذه المسألة تحجزه عن الجحود"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّكذيب والجحود والكفر والشّرك:

الكذب قول غير الحقّ، والجحود تبنّي رأي باطل

الكذب هو عدم مطابقة الخبر للواقع، أو لاعتقاد المخبر لهما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 42، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 9.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11217.

على خلاف في ذلك[1]، والجُحود: ضدُّ الإقرار، كما أنّ الإنكار ضِدُّ المعرفة، والجَحدُ: من الضيِّق والشُّحِّ، ورجُلٌ جَحْدٌ: قليلُ الخير[2]، والكفر خصالٍ كثيرة والشّرك خصلة واحدة، إذ الكفْر يَقع على ضروب من الذُّنوب؛ منها الشّرك باللّه، ومِنْها الجَحْدُ للنّبوّة، ومنها استحلال ما حرم اللّه، وهوَ راجع إلى جَحْدِ النُّبوَّة، وأصلُه التّغطية، والكُفْر خِصالٌ كَثيرَةٌ وكلُّ خَصْلَةٍ منها تَضادُّ خَصْلَةً منَ الْإيمان، أمّا الشِّرك فخَصْلَةٌ واحِدَة؛ فهوَ اعتقاد آلِهَة مَعَ اللّه، أو دون اللّه، ونقيض الشّرك في الْحَقيقَة الْإخْلاص؛ ثمَّ اسْتُعْمِلَ في كلّ كُفرٍ صار الْإيمانُ نقيضَه، ولا يجوز أن يُطلق اسْم الكفْر إلّا على مَن كانَ بِمَنْزِلَة الجاحد لِنِعَم اللّه؛ وذَلِكَ لِعِظَم ما مَعَه من المَعْصيَة[3]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ولَمّا كان الحديث عن إنكار الكتب السّماويّة ناسب لفظ (الجحود).

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 449.

(2) الخليل، العين: 3/ 72.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 228، 230.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نفي حجج المُبطلين وردّها

لَمّا أشار تعالى إلى أنَّ المُنْكِرَ لأصلِ الوحي متوغِّلٌ في الكفر مُصمِّمٌ عليه، دُلَّ ذلك بحال المُنزَّلِ إليه ﷺ فقال مسلّيًا له: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ﴾[1]، ثمّ إنّه ذكرَ في الآية السّابقة إيمان النّاس بما أُنزِل على محمّد ﷺ؛ على اختلاف أحوالهم، فأهل الكتاب آمن منهم ناس لِما عرفوا من الحقّ، ومن أهل مكّة آمنوا كذلك اعتقادًا وتصديقًا بمحمّد ﷺ وبنبوّته، ولكنْ ثمّة أناسٌ لا يؤمنون مهما أوتوا من الآيات؛ فأولئك الجاحدون بحقّ اللّه وآياته ورسوله، وما جُحودهم إلا اصطناعٌ للحُجج، وترويجٌ للأكاذيب، فناسَبَ أنْ ينفي هنا أهمّ ما يمكن أن يروّج له هؤلاء المبطلون؛ هو أنّ الرّسول ﷺ قد درس على مَنْ قَبْلَه مِنَ الأحبار والرّهبان، وأنّه تَعلّم عندهم، فيكون قد كتب هذه الآيات اختلاقًا من عنده، ولكنّ اللّه قدّر للرّسول ﷺ ألّا يقرأ أو يكتب قبل نزول القرآن عليه؛ فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتْلُواْ﴾: (تلو) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الاتِّباعُ، يُقالُ: تَلَوْتُهُ إذا تَبِعْتَهُ، ومِنْهُ تِلاوَةُ القُرْآنِ، لِأَنَّهُ يُتْبِعُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ[2]، و(تَلاهُ): تبعه متابعة ليس بينهم ما ليس منها، وذلك يكون تارة بالجسم وتارة

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 453.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 351.

بالاقتداء في الحكم، ومصدره: تُلوٌّ وتُلُوٌّ، وتارة يكون بالقراءة وتدبُّرِ المعنى، ومصدره: تِلاوَة"[1]، ومعنى (تتلو) في الآية: القراءةُ وتَدَبُّرُ المعنى.

2) ﴿تَخُطُّهُۥ﴾: (خطّ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ أَثَرٌ يَمْتَدُّ امْتِدادًا، ومِنْ ذَلِكَ الْخَطُّ الَّذي يَخُطُّهُ الكاتِبُ، ومِنْهُ الْخَطُّ الَّذي يَخُطُّهُ الزّاجِرُ[2]، ويُعَبَّر عن الكتابة بالخطِّ؛ لأنّه ذو خطوطٍ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾[3]، أي: تكتبه بيدك، وخطَّ الشَّيْءَ بيَدِهِ يخطُّه خطًّا إذا خطَّه بقلم أو غَيره[4].

3) ﴿لَّٱرْتَابَ﴾: (ريب) أُصَيْلٌ يَدُلُّ عَلَى شَكٍّ، أَوْ شَكٍّ وخَوْفٍ، فالرَّيْبُ: الشَّكُّ، قالَ اللّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 1 - 2]، أَيْ لا شَكَّ، والرَّيْبُ: ما رابَكَ مِنْ أَمْرٍ، إذا أَدْخَلَ عَلَيْكَ شَكًّا وخَوْفًا، ورَيْبُ الدَّهْرِ: صُروفُهُ[5]، والرَّيْبُ: أن تتوهّم بالشّيء أمرًا ما، فينكشف عمّا تتوهّمه، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23]؛ تنبيهًا أَنْ لا ريب فيه[6]، وداعيه: قلقُ النّفس واضطرابها؛ لأنّ كونَ الأمر مشكوكًا فيه ممّا تَقْلَقُ له النُّفوس ولا تستقرُّه[7]؛ بوصفه أمرًا غير مُتبيّن الوجه، أو غير مسوَّغ، فيثيرها لتحارَ أحقٌّ هو أم باطل، ففي كلِّ ارتيابٍ شُبهةٌ حقيقية أو مفتعلة، وصَدْرُ الآية ههنا يُبيّن الشُبهة الّتي تُسَوِّغ الارتياب لو كانت متحقّقة؛ لأنّها تُلَبِّس، وهي تلاوة الكتاب من قبل أو خَطّه باليمين[8].

4) ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: (بطل) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ ذَهابُ الشَّيْءِ وقِلَّةُ مُكْثِهِ ولُبْثِه، يُقالُ: بَطَلَ الشَّيْءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وبُطولًا، والْبَطَلُ الشُّجاعُ، قالَ أَصْحابُ هَذا الْقِياسِ سُمِّيَ بِذَلِكَ لأَنَّهُ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْمَتالِفِ[9]، والباطِل: نقيض الحقّ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: 62] وقد يقال ذلك اعتبارًا بالمقال والفِعال، قال تعالى:

(1) الراغب، المفردات: 1/ 273.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/ 154.
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات: 1/ 273، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (خطط).
(4) ابن دريد، جَمْهَرَةُ اللّغة: (خطّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/ 463.
(6) الدّامغانيّ، قاموس القرآن، والراغب، المفردات: (ريب).
(7) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (ريب).
(8) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ريب).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 258.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف: 118]، وقال تعالى: ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: 71][1]، وسُمِّيَ الشَّيْطانُ الْباطِلَ لِأَنَّهُ لا حَقيقَةَ لِأَفْعاله[2]، ويأتي الباطل بمعنى الكذب، ومنه قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨﴾ [غافر: 78] يعني المكذِّبين وهم اليهود[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

بيان الحكمة من أمّيّته ﷺ

كان أهل الكتاب يقرؤون في كتبهم أنَّ محمّدًا ﷺ، لا يَخطُّ ولا يقرأ كتابًا، فنزلت الآية؛ أي من قبلِ نزوله عليك[4]، فالبيان القرآنيّ يصف النّبيّ ﷺ في هذه الآية بأنّه أمّيٌّ ما كان أحد يعرفه قطُّ بتلاوة كتاب ولا خطٍّ، ولو كان شيءٌ من ذلك؛ لارْتابَ الْمُبْطِلونَ من أهل الكتاب ولقالوا: إنّ الّذي نجده في كتبنا أمّيّ لا يكتب ولا يقرأ وليس به، أو لارْتابَ الْمُبْطِلونَ من مشركي مكّة، وقالوا: لعلّه تعلّمه أو كتبه بيده[5].

الآيـةُ استدلال على صفة أمّيّة الرّسول ﷺ

وفي هذه الآية دليل على أنه ﷺ كان أمّيًا لا يقرأ ولا يكتب، وفيها ردٌّ على من زعم أنّه كتب[6]، وهذه صفته في الكتب المتقدّمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]؛ إذ كان ﷺ لا يحسن الكتابة ولا يخطّ سطرًا ولا حرفًا بيده، بل كان له كُتّاب يكتبون بين يديه الوحيَ والرَّسائل إلى الأقاليم، وقد ورد الاستدلال بها في القرآن في مواضعَ كقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: 52][7].

---

(1) الراغب، المفردات: (بطل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(3) الدّامغانيّ، قاموس القرآن: (بطل).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 361.
(5) الزَّمَخْشريّ، الكشّاف: 3/ 462.
(6) السّيوطيّ، مُعْتَرَك الأقران: 2/ 401، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 559.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 285، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 559.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة عطف الآية بالواو:

الجمع بين أمّيّة الرّسول ﷺ وإنزال أعظم كتاب عليه

الواو في مطلع الآية عاطفة، عطفت جملة ﴿وَمَا كُنتَ﴾[1] أي نَفْيَ أنّ يكون الرّسول ﷺ قد أجاد القراءة - مع أنّه لم يقرأ قطّ، ولم يكتب قطُّ من قبل - على جملة إنزال الكتاب على الرّسول ﷺ، وهو أعظم كتاب على الإطلاق، فجمعت هذه الواو العاطفة بين النّقيضين، بين علم الرّسول بأعظم كتاب وحفظه وتلاوته، وبين عدم قراءته ﷺ من قبل لكتابٍ، أو كتابته لكتاب قطّ، وهذه من أعظم الآيات والمعجزات؛ إذ أصبح رسول اللّه ﷺ بها هو الآيةَ وهو المُعجزةَ.

نكتة إيثار حرف النّفي ﴿وَمَا﴾:

تأكيدُ نَفْيِ حَدَثِ تَعَلُّمِ الرّسول ﷺ للقراءة والكتابة

عُبِّر بـ(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ﴾؛ للدّلالة على النَّفي والعموم؛ إذ من خصائص (ما) نفي الجمل الاسمية والفعلية، وهي آكد في النّفي من (ليس)، وهي أوسع استعمالًا منها أيضًا؛ لأنّ (ليس) مختصّة بنفي الجمل الاسمية فحسب[2]، وتوكيد النّفي هنا أنسب لدفع احتمال الشكّ بعلمه ﷺ، وفائدة نفي فعل الكون هو لنفي الحدث فيما سبق من حياتك، فالآية دليلٌ على أنّ الرّسول ﷺ لم يكن يقرأ كتابًا سماويًا قبل القرآن، هذا الذي يقتضيه السّياق، ولو فعل ذلك لقالوا تعلّم من الكتب السّابقة، فالمنفيّ هو أن يكون متلوًّا قبل نزوله[3].

دلالة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ﴾:

بيانُ الحكمة من أمّيّته ﷺ وهي منع ارتياب المبطلين، وأنه موحى إليه من الله سبحانه

الخطاب في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ﴾؛ للرّسول ﷺ؛ فهو يعلم أنّه لم يكن يقرأ ولا يكتب، وأنّه لم يقرأ التّوراة ولا الإنجيل، وفائدة

---

(1) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 3/ 921، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 347.

(2) فاضل السّامُرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 191.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 12.

خطاب الله لنبيّه بهذا الخبر وهو نفيه القراءة لكتاب سابق أو كتابته له هو لبيان الحكمة من إرادة الله لنبيّه أن يكون كذلك، وهذه الحكمة هي منع ارتياب المبطلين. "وصفةُ الأمّيّة المعروفُ بها الرّسولُ ﷺ فيها دلالةٌ من أعظم الدّلالات على أنّه ﷺ موحى إليه من الله تعالى، وقد ورد الاستدلال بهذه الصّفة في القرآن في مواضعَ؛ منها قوله سبحانه: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: 52]، وقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ [يونس: 16]"(1).

دلالة التّعبير بالفعل ﴿تَتۡلُواْ﴾ مادّة وصيغة:

استمرار تلاوة العبد لكتاب الله وتجدُّد ذلك مع الزّمن دراسةً وتدبُّرًا

دلّ الفعل المضارع المسبوق بـ﴿كُنتَ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ﴾ على الزّمن الماضي؛ "أي: وما كنتَ من قبلِ إنزالنا إليك الكتابَ تقدر على أن تتلو"(2) فالسّياق أفاد حكاية الحال الماضية، فعبّر عن الحدث الماضي بما يدلّ على الحاضر استحضارًا لصورته في الذّهن كأنّه مُشاهد في وقت الإخبار به، والتّلاوة تفيد القراءة مع التّدبّر والنّظر والدّراسة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥﴾ [الأنعام: 105].

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾:

التأكيد على أمّيّة الرّسول ﷺ

جاءت ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ زائدةً للتّوكيد والاستغراق؛ ولنفي جِنس ما يقع بعدها؛ لأنّها في متعلّق النّفي، والمعنى: ما كنت تتلوا قبلَه، أو تكتب كتابًا قطّ، فهو يؤكد على أمّيّة الرّسول ﷺ ويُبرزها بوصفها واحدة من أهم معجزاته ﷺ حتى صار هو بها معجزةً وآيةً عظيمة.

دلالة عود الضّمير في ﴿قَبۡلِهِۦ﴾:

الضّمير في ﴿قَبۡلِهِۦ﴾ عائد على القرآن الكريم، والمعنى: قبل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 10.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/ 21.

تَنَزُّلِ القرآن عليك، فهو الكتاب الأوّل في حياتك؛ إذ إنّك لم تتعرّف على كتاب قبله؛ فيكون ذلك عذرًا لارتياب المبطلين، ومَظِنّةً للشّك في نبوّتك.

غرض تقديم الظّرفيّة ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾:

رسول الله ﷺ لم يقرأ أو يكتب من قبل القرآن شيئًا

تقديم قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ على قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾؛ كالصّريح في أنّه ﷺ لم يَكتُبْ مطلقًا، وإنّ قَيْدَ عدمِ التّلاوة أو خَطِّ الكتاب راجعٌ كذلك إلى ما بعده، أو هو لما قبله فقط، فيُفهم من ذلك أنّه ﷺ كان قادرًا على التّلاوة والخطّ بعد إنزال الكتاب[1]، ويبقى الرّأي الأرجح أنّه ﷺ لم يقرأ ولم يكتب قبله أو بعده.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن كِتَٰبٖ﴾:

نفي مطلق القراءة والكتابة

﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن كِتَٰبٖ﴾؛ زائدةٌ لتوكيد نَفْيِ قراءة أيّ كتابٍ أو خَطِّه بيده، ووقوعُ الكتاب نكرة جاء لاستغراق النّفي لجنس الكتب قبلَه، وفي ذلك نفيٌ لممارسة القراءة أو الكتابة على أيّ شكل من أشكالها.

نكتة تنكير ﴿كِتَٰبٖ﴾:

القرآنُ هو الكتاب المهيمن على ما سبق من الكتب السّماويّة

قوله ﴿مِن كِتَٰبٖ﴾؛ و﴿كِتَٰبٖ﴾ جاءت نكرة للدّلالة على استغراق جنس الكتاب، فرسول الله ﷺ لم يتعرّف على الكتاب ولا على جنسِ أيّ كتابٍ قبل القرآن الكريم؛ بل كان القرآنُ هو الكتابَ المهيمنَ على ما سبق من الكتب السّماويّة.

الموقع النّحويّ لقوله: ﴿مِن كِتَٰبٖ﴾:

عدم فاعليّة الرّسول تجاه القراءة والكتابة قبل رسالته

قوله: ﴿تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾؛ فقوله: ﴿مِن كِتَٰبٖ﴾ شبه جملة في محلّ نصبِ مفعولٌ به؛ والمفعوليّة أفادت نفي فاعليّة الرّسول تجاه تعلّم الكتب تقديرًا من الله تعالى لدفع ما سيُثار عنه مستقبلًا.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 6.

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾:

الجمع بين القراءة والكتابة دفعٌ لمأخذٍ قد يتّخذه المبطلون حجّةً

في قوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾؛ الواو حرف عطف للجمع؛ إذ جَمَعَ بين التّلاوة والكتابة، فيكون بذلك قد جمع بين عُنصريِ التّعامل مع الكتاب، فنفاهما قطعًا عن رسول الله ﷺ ليمتنع على المبطلين التّحجّج بذلك، وبانتفاء التّلاوة والخطّ يتحقّق وصفُ الأُمّيّة، إذ معنى ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾، أي: لا تكتب كتابًا مع كونك لا تتلوه، فالمقصود بالعطف نَفْيُ حالتيِ التّعلّم، وهما التّعلّم بالقراءة والتّعلّم بالكتابة؛ استقصاءً في تحقيق وصفِ الأمّيّة فإنّ الّذي يحفظ كتابًا ولا يعرف يكتب لا يُعَدُّ أُمّيًّا كالعلماء العُمْي، والّذي يستطيع أن يكتب ما يُلَقى إليه ولا يحفظ علمًا لا يُعَدُّ أُمّيًّا مثل النّساخ، فبانتفاء التّلاوة والخطّ يتحقّق وصفُ الأُمّيّة[1].

دلالة التّعبير بـ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ مادّة وصيغة:

نَفْيُ القدرة على الكتابة ماضيًا أو على استمرارها وتجدُّدِها حاضرًا

الخطّ كالمدّ، ويطلق على ما له طولٌ، ويُعبَّر عن الكتابة بالخَطِّ، كما ورد هُنا في قوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾[2]، ووُرود لفظِ ﴿تَخُطُّهُۥ﴾ في الآية فعلًا مضارعًا يدلّ على التّجدّد والاستمرار، لكنّه في سياق الآية دلّ على الماضي، لنَفْيِ القدرة على الكتابة ماضيًا، أو على استمرارها وتجدُّدِها حاضرًا.

معنى الباء في قوله: ﴿بِيَمِينِكَۖ﴾:

الاستعانة على الكتابةِ وخطِّ حروفِها اليدُ اليمنى لأنها الأنسبُ

الباء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ تفيد الاستعانة، لأنّها داخلة على المستعان به، أي: الواسطة التي حصل بها الفعل، فخطّ الحروف وكتابة الكلمات يكون باليد، ودلّ لفظ (اليمين) على اليد اليُمنى؛ أي ما كنت تخطّ الكتاب مستعينًا بيمينك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 10.
(2) الراغب، المفردات، ص: 286.

فائدة التقييد باليمين في قوله: ﴿بِيَمِينِكَۖ﴾:

التَّيامُن سنّة الرّسول ﷺ

المقصود باليمين في قوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾: الجارحة الّتي يُكتَب بها، وذِكْرُها زيادةُ تصويرٍ في نَفْي الكتابة عنه ﷺ، وتقييد ﴿تَخُطُّهُۥ﴾ بِقَيدِ ﴿بِيَمِينِكَۖ﴾ للتّأكيد، لترجُّح كونِ الخطِّ عادةً يكون باليمين، فهو كقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: 38][1]، وهو يصف له تنزّل القرآن عليه وهو أعظم كتاب سوف تعرفه البشريّة.

في الإطناب بذكر اليمين ترسيخُ معنى أمّيّة الرّسول ﷺ

وذِكرُ اليمين فيه زيادةُ تصويرٍ للمنفيِّ عنه ﷺ من الخطّ، ونفيٌ للتَّجوُّز في الإسناد، وما فيه من الإطناب المعنويّ لإفادة أنَّ الكتابة من أشرف الصِّناعات، فحقُّها أن تكون باليمين[2]، فذكر اليمين، وهي الجارحة التي يُزاوَل بها الخطُّ: زيادة تصوير لما نفي عنه من كونه كاتبًا، وهو من قبيل الإيغال، فلو قال: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ واكتفى دون ذكر اليمين؛ لَفُهِمَ المعنى، لكنّه أوغل، في ترسيخ المعنى المُراد فقال: ﴿بِيَمِينِكَۖ﴾ تحقيقًا للمراد وتوكيدًا له، حتى لا يبقى للمجاز مجال، وهذا يقال في كلِّ شيءٍ يعظُمُ منالُهُ، ويَعِزُّ الوصول إليه، وهو كثير في القرآن الكريم[3].

براعة التّرقّي في التّمثيل والمعجزة:

عينُ معجزة القرآن تبليغه ممّن لا يقرأ ولا يكتب

يُعدُّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ درجة أخرى بعد ما تقدّم على التّرتيب، فقد ذكر أولًا التّمثيل بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [العنكبوت: 47] ثم ذكر الجامع وهو المعجزة، فقال: ما عَلِمَ كونَ تلك الكتبِ مُنَزَّلةً إلّا بالمُعجزة، وهذا القرآن ممّا لم يُكتَب ولم يُقرَأ عينُ المُعجزة، فيُعرَف كونُه مُنَزَّلًا[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 11.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 101.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 5، وصافي، الجدول: 2/ 348.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 63.

دلالة التّلازم بين نفي التّلاوة والكتابة:

في نفي التّلاوة والكتابة دليلٌ على نبوّته ﷺ

في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ تناسبٌ بين نفي التّلاوة والكتابة، لما بينهما من الصّلة والتّلازم، فلا تكون الكتابة والخطّ باليمين إلا بعد معرفة القراءة، ولهذا فقد قدَّم القراءة على الكتابة، ويَجْمَعُ بينهما على هذا النَّحْوِ فنُّ التّرقّي، فجعل الله تعالى هذا دليلًا على نبوّته؛ لأنّه لا يكتب، ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكّة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الرّيبة والشّك بهذه الأشياء[1].

دلالة ﴿إِذٗا﴾ على الشّرط المقدَّر:

انتفاء الحرج في الدّين إبطالًا لحجج المعاندين الجاحدين

﴿إِذٗا﴾ جوابٌ وجزاءٌ لشرطٍ مُقدَّرٍ بـ(لو)؛ لأنّه مفروض دلّ عليه قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾، والتّقدير: لو كنت تتلو قبله كتابًا، أو تخطّه لارتاب المبطلون[2]، فإرادة الله ألّا يدع مجالًا لارتياب المُبطلين، وألّا يكون في هذا الدّين من حرج على رسوله وعلى المؤمنين، ويُستنبَط من هذه المسألة أنّ هذا الدّين قد بلغ من الكمال بما لم يدع الله تعالى للمعاندين حُجّةً وفرصة للارتياب، فمن قال بالارتياب فقد كذب وكفر وتقصّد الإنكار؛ فهو جاحد للبراهين والآيات البيّنات.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَّٱرۡتَابَ﴾:

انتفاء حجج المعارضين لهذا الدّين

مجيءُ جواب ﴿إِذٗا﴾ في قوله: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ مقترنًا باللّام الّتي يغلب اقتران جواب (لو) بها دليلٌ على أنّ المقدَّر شرطٌ بـ(لو)[3]، و(اللّام) رابطة لجواب الشّرط؛ وجملة: (ارْتابَ الْمُبْطِلونَ ...) لا محلّ لها، جوابُ الشّرط المقدَّر (لو)[4]، فالقرآن هُنا يقدّم

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 176.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 10.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 20/ 346.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 10.

حجّة دامغة على أنّ الله ما جعل في هذا الدّين من حرج على المسلمين، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: 78].

دلالة التّعبير بفعل الرّيب:

معاني ألفاظ القرآن محلّ تأمّل يقطع الحجّة على المرتاب

الارتياب في قوله: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾: حصول الرّيب في النّفس وهو الشّكّ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 2]؛ وإنما جَعَلَ ذلك موجبَ رَيبٍ دون أن يكون موجبَ جَزْمٍ بالتّكذيب؛ لأنّ نظم القرآن وبلاغته وما احتوى عليه من المعاني يبطل أن يكون من نوع ما سبق من الكتب والقصص والخطب والشِّعر، ولكنَّ ذلك لَمّا كان مُستدعيًا تأمُّلًا لم يمنع من حضور خاطر الارتياب على الإجمال قبل إتمام النَّظر والتَّأمل بحيث يكون دوام الارتياب بهتانًا ومكابرة[1].

وجه التَّلازم بين التِّلاوة والكتابة والرّيبة:

أمّيّة النّبيّ ﷺ صفة مكتوبة في التّوراة

وجه التَّلازم بين التِّلاوة والكتابة المتقدِّمتَين على نزول القرآن وبين حصول الرّيبة والشّك في نفوس المشركين؛ أنَّه لو كان ذلك واقعًا لاحْتملَ عندهم أن يكون القرآنُ من جنس ما كان يتلوه من قبلُ من كتبٍ سالفة، وأن يكون ممّا خطَّه من قبلُ من كلامٍ تلقّاه فقام اليوم ينشره ويدعو به[2]، وهذا يعني أنّ المُبطلين لا يمكنُ أن يرتابوا في صحَّة القرآن وصدق الرّسول لكنّهم مفترون كاذبون.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾:

من صفات المُبطلين الرّيبة وتفعيلها بين النّاس

في قوله: ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾؛ وفائدة التّعريف بـ(أل) هو للتّعميم؛ أو لشمول جنس المبطلين، فلا يخرج أحدٌ من جنسهم عن هذا الرّيب؛ لأنّ الإبطال هو حالة تأتي بعد حدوث الرّيب في النّفس؛ لذلك فإنّ قوله: ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾؛ هو من قبيل التّدلّي في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 11.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 11.

خصال المُعارضين للكتاب، ويجوز أن يكون التَّعريفَ في ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ للعَهْد، بوصفهم قومًا مَعْلومينَ، يعني: هؤلاء المُجادلونَ المُبْطِلون، فـ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ على تأويلِ مفهومِ اللَّقَبِ لا الصِّفةِ، كأنَّه قيل: هؤلاء الأشخاصُ الّذين حَصَل لهمُ الإبطالُ[1].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ مادّة وصيغة:

سبب حرصهم الشَّديد على بيان باطلهم هو إبطالُ حجّة الرّسول ﷺ في رسالته

عبّر النّظم الكريم بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾؛ لبيان تفاعلهم مع الإبطال وحرصهم الشَّديد على محاولة بيان وجهة نظرهم الباطلة الخاطئة وتجميلها للنّاس، وتزيينها؛ سعيًا إلى إبطال حجّة الرّسول ﷺ في رسالته، وسمّاهم بالمبطلين؛ لأنَّهم كفروا به، وهو أميّ بعيدٌ من الرَّيب، فكأنّه قال: هؤلاء المبطلون في كفرهم به؛ لو لم يكن أمّيًا لارتابوا أشدّ الرَّيب، أما وإنّه ليس بقارئ ولا كاتب فلا وجه لارتيابهم، ثمّ إنّ سائر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا أمّيّين، ووجب الإيمان بهم وبما جاؤوا به؛ لكونِهم مصدَّقينَ من جهة الحكيم بالمعجزات، فهَبْ أنّه قارئ كاتب فمالهم لم يؤمنوا به من الوجه الّذي آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام؟! على أنّ كتابيهما المنزَلَيْنِ عليهما لم يكونا بمعجزَيْنِ، وهذا المُنزَلُ على محمّد ﷺ مُعجِزٌ، فإذًا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أمّيّ، ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أمّيّ[2].

الموقع النّحويّ لقوله: ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾:

فاعليةٌ دالّة على دأب المُبطلين لمنع وصول الآيات إلى النّاس

جملة: (ارْتابَ المُبْطِلونَ ...) لا محلّ لها جواب الشّرط المقدّر (لو)، والموقع النَّحْوي لقوله: ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ الفاعليّة؛ التّي تدلّ على دأبهم في محاولة إبطال الآيات الكريمة ومنعِ وصولِها إلى النّاس خشية إيمانهم.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 182.
(2) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف: 3/ 462.

نكتة العدول من (الكافرون) إلى ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾:

ناسب جحْدُ الآيات لفظَ الكافرين، وناسب الارتيابُ لفظَ المُبطلين

المقصود بلفظ ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾: هم أهل الكتاب؛ وتسميتُهم (مُبطلينَ) في ارتيابِهم على التَّقديرِ المفروضِ لكونِهم (مُبطلينَ) في اتِّباعِهم للاحتمالِ المذكورِ مع ظهورِ نزاهتِه ﷺ عن ذلكَ[1]، وسُمّوا مبطلين؛ لأنّهم كفروا به، وهو أمّيٌّ بعيد من الرّيب، ولمّا لم يكن قارئًا ولا كاتبًا، كان ارتيابهم لا وجه له[2]، وفائدة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ هنا؛ والتّعبير بلفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ قبلها في قوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾: أنّهم قبل بيان المعجزة قيل لهم: إنّ لكم المزايا فلا تبطلوها بإنكار رسالة محمّد ﷺ فتكونوا كافرين، فلفظ (الكافر) هناك كان بليغًا، ثمّ بعد بيان المعجزة، وبيان أنّه ﷺ على وصفه في التّوراة كان أمّيًّا؛ فمن أنكر ذلك كان جاحدًا منكرًا للحقّ.

سرّ وصف المُكذِّبين بالمُبطلين:

إصرارهم على التّكذيب مع علمهم بانتفاء شُبهَة الكذب

وصف المكذّبين بالمبطلين في قوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾؛ منظورٌ فيه لحالهم في الواقع؛ لأنّهم كذّبوا مع انتفاء شُبهَة الكذب، فكان تكذيبهم الآن باطلًا، فهم مبطلون متوغّلون في الباطل[3]، ووَصْفُ مشركي مكّة بالإبطال باعتبار ارتيابهم وكفرهم وهو ﷺ أمّيّ فكأنّه قيل: إذن لارتاب هؤلاء المبطلون الآن، وكان لارتيابهم وجه، أو وصْفُهم بذلك باعتبار ارتيابهم، وهو ﷺ أُمّيّ؛ وباعتبار ارتيابهم وهو ﷺ ليس بأُمّيّ؛ أمّا باعتبار الحالة الأولى فظاهرٌ، وأما باعتبار الحالة الثّانية فلأنّ غاية ما يلزم من عدم أُمّيّته ﷺ انتفاءُ أحد وجوه الإعجاز، ويكفي الباقي في الغرض فيكون المرتاب مبطلًا كالمرتاب في نبوّة الأنبياء الّذين لم يكونوا أُمّيّين وصحّة ما جاؤوا به، والأوّل أظهر؛ أي لو كنت تتلو من قبلُ أو تخطّ؛ لارتاب أهل الكتاب؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 43.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 362.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 11.

لأنّ نعتَك في كتابهم أمّيّ، ووَصْفُهم بالإبطال هو باعتبار ارتيابهم وهو ﷺ أمّيّ كما هو الواقع، وإلا فهم ليسوا بمبطلين في ارتيابهم على فرض عدم كونه ﷺ أمّيًّا[1].

دلالة جملة الفاصلة:

لا يمكن لبشر أن يأتي بمثل القرآن حتى وإن كان كاتبًا عالمًا بفنون الصَّنعة

في قوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ معنًى لطيفٌ، وهو أنَّ النَّبيَّ إذا كان قارئًا كاتبًا ما كان يوجب أن يكون هذا الكلامُ كلامَه، فإنّ جميع كَتَبَةِ الأرض وقُرّائها لا يقدرون عليه؛ لأنّ القرآن جاء متحدّيًا للعرب وهم جهابذة اللّغة وأهل الفصاحة، لكنّ على ذلك التّقدير يكون للمبطل وجه ارتياب، وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه؛ فهو أدْخَلُ في الإبطال، وهذا كقوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: 23]؛ أي من مثل محمّد ﷺ وكقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2][2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّلاوة والقراءة:

التّلاوة قراءة؛ لكنّها مع تدبّرٍ ونظرٍ ودراسةٍ

التّلاوة: (تلو) التّاءُ واللّامُ والْواوُ أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الِاتِّباعُ، يُقالُ: تَلَوْتُهُ إذا تَبِعْتَهُ، ومِنْهُ تِلاوَةُ الْقُرْآنِ، لِأَنَّهُ يُتْبِعُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ[3].

أمّا القراءة فجذرُها (قرأ)، ومِنْهُ الْقُرْآنُ، كَأَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِجَمْعِهِ ما فيهِ مِنَ الْأَحْكامِ والْقِصَصِ وغَيْرِ ذَلِكَ[4].

ومصدر (تلا): تُلُوٌّ وتُلُوٌّ، وتارة يكون بالقراءة وتدبُّر المعنى، ومصدره: تِلاوَة"[5]، ومعنى (تتلو) في الآية: القراءةُ وتَدَبُّرُ المعنى، والتّلاوة تختص باتّباع كتب الله المنزّلة؛ تارة بالقراءة، وتارة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 5 - 6.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 64.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 351.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5/ 79.
(5) الرّاغب، المفردات: 1/ 273.

بالارتسام، لِما فيها من أمرٍ ونهي وترغيب وترهيب، وهي أخصّ من القراءة، فكلّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، إذْ ليس التّدبّر شرطًا في القراءة، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ [يونس: 15]، فهذا بالقراءة، وقوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121] المراد به الاتّباع له بالعلم والعمل، وإنَّما استعمَلَ لفظ (التّلاوة) في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: 102]؛ لِما كان يَزْعُمُ الشّياطينُ أنّ ما يتلونه هو من كُتُبِ اللّه[1].

والتّلاوة تفيد القراءة مع التّدبّر والنّظر والدّراسة ومن هنا فهي اللّفظة الأنسب لسياق وصف تلاوة النبيّ ﷺ للقرآن الكريم وإن كان في سياق النَّفي ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾.

الخطّ والكتابة:

الخطّ رسم الحرف، والكتابة رسم الجمل

(الخطّ): (خَطَطَ) الْخاءُ والطّاءُ أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ أَثَرٌ يَمْتَدُّ امْتِدادًا، ومِنْ ذَلِكَ الْخَطُّ الّذي يَخُطُّه الكاتِبُ، ومِنْهُ الْخَطُّ الَّذي يَخُطُّهُ الزّاجِرُ[2]، وخطَّ الشَّيْءَ بيَدِهِ يخطُّه خطًّا إذا خطَّه بقلمٍ أو غَيره[3]، الكتابة: (كَتَبَ) الكافُ والتّاءُ والباءُ أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، مِنْ ذلِكَ الكِتابُ والكِتابَةُ، يُقالُ: كَتَبْتُ الكِتابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا، ومِنَ البابِ كَتائِبُ الْخَيْلِ، يُقالُ: تَكَتَّبوا[4]، وتُطْلَقُ الْكِتْبَةُ والْكِتابُ عَلَى الْمَكْتوبِ ويُطْلَقُ الكِتابُ عَلَى الْمُنَزَّلِ وعَلَى ما يَكْتُبُهُ الشَّخْصُ ويُرْسِلُهُ[5]، والْكَتْبُ: ضمّ الحروف بعضِها إلى بعضٍ بالخطّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضِه إلى بعض باللّفظ، فالأصل في الكِتابَةِ: النَّظْم بالخطّ؛ لكن يستعار كلّ واحد للآخر،

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 140.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/ 154.
(3) ابن دريد، جَمْهَرَةُ اللّغة: (خطّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب).
(5) الفَيّوميّ، المصباح المنير: 2/ 524.

ولهذا سُمّي كلام الله - وإن لم يُكْتَبْ - كِتابًا، كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 1 - 2]، يعني القرآن وهو آخرها نُزولًا على خاتم المرسلين محمّدٍ ﷺ.

والخطّ المكتوب صناعةٌ شريفة فيها رسومٌ وأشكال حَرْفيّةٌ تدلُّ على الكلمات المسموعة الدّالة على ما في النّفس، وهو في الرّتبة الثّانية للدّلالة اللّغوية بعد الألفاظ، والكتابة من خواصّ الإنسان الّتي يَتَمَيَّزُ بها عن المخلوقات الأخرى، وهي وسيلة يُطَّلَع من خلالها على ما في الصّحف من علوم الأوّلين والآخِرين والآخَرين، وتفيد كلمة (الخطّ) الرّسمَ للحرف والكلمة، والعنايةَ بهما، أمّا الكتابة فهي أعمّ وأشمل، إذ تدلّ على كتابة الجُمل والنَّظم والتّأليف، ولَمّا كان السّياق يتطلّب الجمع بين نَفْي تلاوة كتابٍ قبل القرآن أو خطِّه بيمينه اصطفى لفظ الخطّ الدّال على صريح رسم الحرف.

الرَّيب والشكّ والظَّنّ:

شَـكُّ المنكرين بـالـرّسـالـة مـصـحـوبٌ بالاتّهام

الشَّكُّ: الشِّينُ والْكافُ أَصْلٌ واحِدٌ مُشْتَقٌّ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وهوَ يَدُلُّ عَلَى التَّداخُلِ، ومِنْ هَذا الباب الشَّكُّ، الَّذي هوَ خِلافُ الْيَقينِ، إنَّما سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الشّاكَّ كَأَنَّهُ شُكَّ لَهُ الْأَمْرانِ في مَشَكٍّ واحِدٍ، وهوَ لا يَتَيَقَّنُ واحِدًا مِنْهُما[1].

الرَّيْب: الرّاءُ والياءُ والباءُ أُصَيْلٌ يَدُلُّ عَلَى شَكٍّ، أَوْ شَكٍّ وخَوْفٍ، فالرَّيْبُ: الشَّكُّ والرَّيْبُ: ما رابَكَ مِنْ أَمْرٍ، تَقولُ: رابَني هَذا الْأَمْرُ، إذا أَدْخَلَ عَلَيْكَ شَكًّا وخَوْفًا.

والشكّ تردّد الذّهن بين أمرين على حدٍّ سواء، وأمّا الرّيب فهو شكّ مَعَ تُهَمَةٍ[2]، والشّاهِد أنَّك تقول: إنّي شاكٌّ الْيَوْم في الْمَطَر، ولا يجوز أن تَقول: إنّي مرتاب الْيَوْم بالمطر، وتقول: إنّي مرتاب

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/ 173.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 264.

بفلان إذا شَككت في أمره واتهمته[1]، أمّا الظّنّ فهو ضربٌ من أفعال الْقُلوب يحدث عِنْد بعض الأمارات وهوَ رُجْحان أحد طرفي التَّجَوُّز، أي يُطلق على ما كان راجحًا من الاحتمالين، ولمّا كان غاية الجاحدين المنكرين الشكّ في القرآن المصحوب باتّهام وضعه من لدن الرَّسول ﷺ ناسَبَ اصطفاء لفظ الارتياب.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ [العنكبوت: 49]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استدراك تزكية الرسول بتزكية المُرْسَل (القرآن) ردًّا على ما يفتريه الظّالمون

بعد أن ذكر في الآية السّابقة الردَّ على أهمّ حجج المبطلين في دعواهم بأنّ محمّدًا قد تعلّم الكتاب على يد مَن سبقه من الرّهبان، فأكّد أنّه لا يقرأ ولا يكتب، وبعد أن زكّى رسوله من افتراءات الظّالمين المُبطلين فقد ناسب هُنا أنْ يزكّي القرآن ممّا افتروه بقولهم سحر أو كذب، وهو آيات بيّنات واضحات، تستقرّ في صدور الّذين أوتوا العلم وهي أزكى مكان؛ لأنّ الّذين أوتوا العلم هم الأنبياء أو هم ورثتهم من العلماء.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صُدُورِ﴾: (صدر) أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الْوِرْدِ، والآخرُ صَدْرُ الْإِنْسانِ وغَيْرُهُ، وجَمْعُه: صُدورٌ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46][1]، وهو من الصَّدر: أَعْلى مقدَّم كلّ شَيْءٍ، فصَدْرُ القَناة: أَعْلاها، وصَدْرُ الْأَمر أَوّله، والصُّدْرةُ من الْإِنْسان: ما أَشرَفَ من أَعْلى صَدْرِه[2]، وهو بهذا المعنى: الجارحة المعروفة، قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾ [طه: 25][3]، فقوله: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾: يكون موضع الآيات في أعزّ مكان عند الإنسان، وهو موضع القلب، ومَكْمَنُ العلم والقوّة.

2) ﴿بَيِّنَٰتٞ﴾: (بان - بين) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/ 337.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 12/ 94.
(3) الراغب، المفردات: 2/ 513.

وبانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ[1]، و(البَيْنُ) في كَلامِ العَرَبِ جاءَ على وجْهَيْن: فيكونُ فُرْقَةً، ويكونُ وصْلًا، وهوَ من الأضْدادِ؛ وبانَ يَبينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، وبانَ بَيانًا: اتَّضَحَ، فهوَ بَيِّنٌ، والتَّبْيينُ: الإيضاحُ، وقوْلُه تعالَى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: 89]، أي: بُيِّنَ لكَ فيهِ كلُّ ما تَحْتاجُ إلَيْهِ أنْتَ وأُمَّتُك مِن أمْرِ الدِّيْن، وهَذا مِن اللَّفْظِ العامِّ الّذي أُريد بِهِ الخاصُّ[2]، والآيات البيّنات هي الواضحات الرّاسخات في صدور المؤمنين به[3] و﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ هما من خصائص القرآن: كونه آياتٍ بيِّناتٍ للإعجاز، وكونه محفوظًا في الصُّدور، بخلافِ سائر الكتُبِ السَّماويَّة؛ فإنَّها لم تكن معجزاتٍ في حدود أنفسِها، وما كانت تُقرأُ إلّا مِن المصاحفِ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

القرآن آيات بيِّنات في صُدورِ المؤمنين الّذين حملوا القرآن على عهد رسول اللّه ﷺ، وحملوه بعده[5]، وقال قتادة ومقاتل: بل يعني محمّدًا ﷺ، هو آيات بيّنات؛ أي: ذو آيات بيّنات في صدور أهل العلم من أهل الكتاب، لأنّهم يجدونه بِنَعْتِه وصِفَتِه، فهي آيات واضحات لا مجال لإنكارها، ومن أنكرها فقد جحد بها، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أراد كفّار اليهود[6]، خصوصًا، والمعنى عامٌّ شامل لكلِّ من يجحد بهذه الآيات البيّنات.

القرآن والرّسول ﷺ صِنوان في موارد الإعجاز

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿بَلۡ﴾:

قوله: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ أفادت ﴿بَلۡ﴾ الإضراب، وقد تمّ

توجيه النّظر إلى إعجاز القرآن ومعجزات الرّسول

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 327.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 34/ 293.
(3) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 48.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 103.
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 423.
(6) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 423.

الإضراب عن مقدّر من الكلام يقتضيه ما تقدّم كأنّه قال: (ليس الأمر كما حسبوا)[1]، فأفاد توجيه الكلام وفق رؤية جديدة محورها إعجاز القرآن، أو مُعجزات النّبيّ ﷺ، وقوله: ﴿بَلۡ هُوَ﴾؛ أي القرآن، وهذا إضراب عن ارتيابهم؛ أي ليس القرآن مما يُرتاب فيه لوضوح أمره؛ فقال: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ واضحات ثابتة راسخة[2]، فالقرآن محفوظ فِى صُدورِ العلماء به وحُفّاظِه، وهذا الحفظ من خصائص القرآن الكريم؛ كون آياته بيّنات الإعجاز، وأنّ اللّه قد تكفّل بحفظه، وكونه محفوظًا في الصدور، يتلوه كثير من الأمّة ظاهرًا بخلاف سائر الكتب، فإنّها لم تكن معجزات، وما كانت تُقرَأ إلّا من المصاحف[3].

بيان المُبطَل بـ﴿بَلۡ﴾:

القرآن منزّهٌ عن كلّ ريب، مبرَّأٌ من كلّ عيب

وعلى المعنى المتقرّر في الفائدة السابقة تكون ﴿بَلۡ﴾ إبطالًا لما اقتضاه الفرض من قوله: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾؛ أي بل القرآن لا ريب يتطرّقه في أنّه من عند اللّه، فهو كلّه آيات دالّة على صدق الرّسول ﷺ وأنّه من عند اللّه لِما اشتمل عليه من الإعجاز في لفظه ومعناه، ولِما أيّد ذلك الإعجازَ من كون الآتي به أُمّيًّا لم يكن يتلو من قبله كتابًا ولا يخطّ كتابةً؛ بل هو آيات في صدر النّبيّ ﷺ ليست ممّا كان يُتلى قبل نزوله[4].

عَوْدُ الضَّمير ﴿هُوَ﴾:

محمّد ﷺ في ذاته آياتٌ بيّناتٌ

الظّاهر في الضّمير ﴿هُوَ﴾ أنّه عائدٌ على القرآن، ويؤيّده أنّ في قراءة ابن مسعود (بل هي آيات)، وقال قتادة: الضّمير للنَّبيّ ﷺ وقرأ: (بل هو آية بيّنة) على الإفراد، ويحتمل أن يعود على أمر محمّد

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 375.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 7.

(3) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 463، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 362.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 12.

ﷺ في أنّه لم يتلُ ولا يخطّ، وبكل احتمال قالت فرقة، وكون هذا كلّه آياتٌ؛ أي علامات في صُدورِ العلماء من المؤمنين بمحمّد، يُراد به مع النّظر والاعتبار[1]، فكانت رسالة محمّد ﷺ كلّها مُعجزاتٍ بيّناتٍ، وكان كتابه آياتٍ بيّناتٍ، وحديثُه ﷺ آياتٍ بيّناتٍ، بل كان محمّد ﷺ في ذاته آياتٍ بيّناتٍ، ويتبيّن أنّ في اصطفاء الضّمير ﴿هُوَ﴾ دون التّصريح بِعَوْدِهِ سَعَةً في الدّلالة، وتعدُّدًا في المعاني، وهذا بعضٌ من خصوصيّة النّظم القرآنيّ المتفرّد العظيم.

نكتة تنكير ﴿ءَايَٰتٌ﴾ وجمعها:

آيـات الـقـرآن عظيمة الشّأن

أفاد تنكير ﴿ءَايَٰتٌ﴾ في قوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ﴾ التّعظيم والتّفخيم، اللّذَينِ اقتضاهما السّياق في قوله: ﴿بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، فبيّنَ عظيم شأن تلك الآيات أنّها أوّلًا بيّناتٌ، وثانيها أنّها مستقرّة في صدور أهل العلم، وهم أرفع النّاس قدرًا بعد الأنبياء؛ بل هم ورثتهم في ذلك، وفي جمع (الآيات) بيانٌ لكثرتها.

نكتة وصف الآيات بأنّها ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾:

مع وضوح آيات الـقـرآن فـإنّ البشر يعجز عن الإتيان بمثلها

قوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ﴾؛ فوَصْفُ آياتِ القرآن بأنّها آياتٌ بيّناتٌ، دلّ على وضوحها وكمالها، وأنّها ليست ممّا يَعْجِزُ العقل البشريّ عن فهمها واستيعابها، فهي مُيَسَّرة للفهم والحفظ، ولكنّها في الوقت نفسه معجزة للنّاس؛ إذ يَعْجِز العقل البشريّ عن الإتيان بمثلها.

دلالة التّعبير بـ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ مادّةً وصيغةً:

البيّنات: بُعد الشّيء وانكشافه، واتّضاحه[2]، وآيات القرآن كذلك: بيّنات واضحات مكشوفات المَقصِد، لا لَبْسَ فيها ولا غموض، فمن المجاز أنّها بيّنة واضحة تُرى من بعيد، كما يُرى كلُّ ما هو على مدّ البصر.

---

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 322، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 7.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 327.

معنى الظّرفيّة والاستعارة ﴿فِي صُدُورِ﴾:

أوعيةُ القرآن صدورُ أهلِ العلمِ والإيمان

دلّت ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ على الظّرفيّة والاحتواء، جاء في المقتضب: "وأمّا (في) فهي للوعاء"[1]، أي تفيد الظّرفيّة، فدلّ قوله: ﴿فِي صُدُورِ﴾ على أنّ صدور الّذين أوتوا العلم هي كالأوعية لها، وهي استعارة مكنيّة؛ فالصّدور كالأوعية لها؛ إذ حُذِفَ المشبَّهُ به وصرّح بالمشبّه وهي صدور الّذين أوتوا العلم، وهي إشارة إلى أنّه ليس من مخترعات الآدميّين؛ لأنّ من يكون له كلام مخترع يقول: هذا من صدري وقلبي وخاطري، وإذا حفظه من غيره يقول: إنّه في صدري وقلبي وخاطري، فإذا قال: في صدور الّذين أوتوا العلم لا يكون من صدر أحد منهم، بل في صدورهم، والجاهل يستحيل أن يكون منه؛ فظهوره من اللّه[2].

بلاغة الكناية في قوله: ﴿صُدُورِ﴾:

دلالةٌ على الإيمان العميق بآيات الله الّذي استحق معه المؤمنون أهليّة حَمْلِ القرآن

قوله: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ كناية عن الإيمان العميق بها، والقناعة التّامّة بما جاءت به من الأدلّة والأخبار والعلم، والعمل بمضامينها وبذلك استحقّوا أهليّة حمل القرآن، وكونَهم من أهله؛ فأهلُه أهل اللّه وخاصّته، وأَنْعِمْ به من فضل.

بلاغة المجاز في ﴿صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾:

ذكر ابن عاشور أنّ المراد من قوله: ﴿صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ صدر النّبيّ ﷺ وعبّر عنه بالجمع مجازًا تعظيمًا له[3].

غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

عموم العلماء من أهل الإيمان مشمولون بحوز الآيات في صدورهم

الغرض من التّعبير بالاسم الموصول من قوله: ﴿صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ التّعميم لفائدة شمول عموم العلماء من أهل الإيمان،

---

(1) المُبَرِّد، المُقْتَضَب: 4/ 139.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 63.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 12.

فهم جميعًا حازوا الإيمان بتلك الآيات العظيمة، فكانت صدورهم كالأوعية لها[1].

دلالة بناء الفعل ﴿أُوتُواْ﴾ للمفعول:

العلماء أعظم الخلق شأنًا بعد الأنبياء

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾؛ أُسْنِدَ الفعلُ إلى المفعول ليدلَّ على عظيم شأن العلماء وفخامة قدرهم، وإلى عظيم ما حازوه من العلم؛ إذ بذلوا الجهد المطلوب في التّفكّر والاستدلال، وتنوّعت مصادر استقائهم العلمَ، وتعدّدت مشاربه؛ فحازوا معرفة الآيات البيّنات، ونالوا الإيمان باللّه سبحانه، فهم أعظم الخلق شأنًا عند اللّه؛ لأنّهم ورثة الأنبياء، وما ذاك إلا بفضل اللّه تعالى عليهم، لأنّها آيات اللّه يؤتيها من يشاء من عباده سبحانه.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡعِلۡمَۚ﴾:

خيرُ العلوم العلمُ الّذي مصدره القرآن والرّسول ﷺ

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ للعهد، ودلّ على كمال العلم بتلك الآيات البيّنات، فهو العلم المعهود النّافع الذي يدلّ صاحبَه على الحقّ، ويدعوه إلى اتّباعه، فهؤلاء العلماء قد حازوا علمهم من مصدر القرآن والرّسول ﷺ؛ وهذان هما مصدرا الشَّريعة الأصيلَيْن، وهما خيرُ العلوم.

المُراد بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾:

تعبيرٌ عن المصدر الأوحد لتلقّي العلم الإلهيّ

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ تعدَّدَتِ الآراءُ بالمراد من ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ على النّحو التّالي: الأوّل أنّه النّبيُّ ﷺ[2]؛ وعبّر عنه بالجمع للدّلالة على انتقال العلم الإلهيّ من الرّسول ﷺ إلى صحابته؛ الّذين تلقَّوُا العلم عن رسول اللّه ﷺ، فهو المصدر الوحيد الأوحد له، ومنهم إلى عُلماء الأمّة في كلّ عصر ومصر، إذ توارث العلماء عنهم علوم الشّريعة، والثّاني أنّهم العلماء من أهل الكتاب،

(1) السّيوطيّ، مُعْتَرَك الأقران: 3/ 589.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 427.

فقد روى الطّبريّ بسنده إلى ابن عبّاس ﵄ قال: كان اللّهُ تعالى أنزَل شأنَ محمدٍ ﷺ في التوراةِ والإنجيلِ لأهلِ العلم وعلَّمه لهم وجعَله لهم آيةً، فقال لهم: إن آيةَ نبوَّته أن يَخرُجَ حينَ يَخرُجُ لا يَعلَمُ كتابًا ولا يَخُطُّه بيمينِه، وهي الآياتُ البيّناتُ[1]، والثّالث أنّهم المؤمنون، وقد روى ذلك أيضًا الطّبريّ بسنده إلى الحسن البصريّ قال: (القرآنُ آياتٌ بيّناتٌ في صدورِ الّذين أوتوا العلمَ، يعني: المؤمنين) ثم رجّح الطّبريّ من الأقوال ثانيَها وهو أنّهم علماءُ أهل الكتاب[2].

نكتة العدول عن لفظ (العلماء):

تلقّي العلم عن رسول الله ﷺ

عدل البيان الإلهيّ عن لفظ (العلماء) إلى ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾؛ لأنَّ كثيرًا من العلماء قد لا يهتدون إلى ما في هذه الآيات البيّنات من الحقِّ فيَضِلّوا ويُضِلّوا، فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾؛ دلّ على أنّهم أوتوا العلم الّذي يوصلهم إلى الغاية العُليا وهي الإيمان باللّه تعالى وبرسالاته، ومعنى العلم في قوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ هو العلم الّذي أوتيه النّبيّ ﷺ وهو النّبوّة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ [النمل: 15][3]، بمضامينها، وتنوّع مصاديقها.

توجيه معنى جملة: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾:

تَكَفُّلُ اللهِ تعالى بحفظِ القرآنِ الكريم أمارةُ استحالة تحريفه

حفظ الآيات في صُدورِ الّذينَ أوتوا الْعِلْمَ من غيرِ أنْ يُلتَقَطَ من كتابٍ سبيلٌ لانتفاء تحريفِه[4]، فاللّه تعالى قد تكفّل بحفظه في كلّ عصر؛ ولعلّ صدور الّذين أوتوا العلم هي أعظم أوعية الحفظ له، وهذا بخلاف غيره من الكتب، وجاء في وصف هذه الأمّة (صدورهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 426، وأَثَرُ ابنِ عبّاسٍ عزاه السّيوطيّ في الدّرّ المنثور: 5/ 148، إلى المصنّف الطّبريّ، وابنِ مردَوَيْهِ، والإسماعيلي، وابنِ أبي حاتم.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 427.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 12.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 43.

أناجيلهم)[1]، فمعنى الآية أنّ كونَه في صدر النّبيِّ ﷺ هو شأن كلّ ما ينزل من القرآن حين نزوله، فإذا أُنْزِلَ فإنّه يجوز أن يخطَّه الكاتبون، وقد كان النّبيُّ ﷺ اتخذ كُتّابًا للوَحْي فكانوا يكتبون الآية في حين نزولها، وكذلك يكون بعد نزوله متلوًّا[2]، وفي حفظ الآيات في الصّدور تتميمٌ للثّناء على القرآن، فيجوز أن يكون المراد بـ﴿صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ﴾ صدور أصحاب النّبيّ ﷺ وحفّاظ المسلمين، وهذا يقتضي أن يكون قولُه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ﴾ تتميمًا للثناء على القرآن، وأنَّ الغرض هو الإخبار عن القرآن بأنَّه آيات بيّنات[3].

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

بيان حال الظّالمين لجحودهم بآيات الله

(الواو) اعتراضيّة أو حاليّة، وجملة: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا محلّ لها اعتراضيّة - أو في محلّ نصبِ حالٌ[4]، وكونُ الجحودِ والظلمِ حالَهم فهو مِنْ أشَدِّ نُعوتِ ذمِّهم، والتّشنيع عليهم.

بلاغة القصر في جملة الفاصلة:

الجاحدون بالآيات ظالمون للرّسول ﷺ، ولأنفسهم

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ قصرٌ إضافيٌّ دلّ على أنّ الجاحدين للآيات هم ظالمون لرسول اللّه ﷺ لفرط تكذيبهم بالآيات البيّنات، وهم ظالمون لأنفسهم؛ فقد خسروا أن يكونوا مع الحقّ، وخسروا الإيمان باللّه وبالرّسول، وهو إضافيّ لأنّ الظّلم أنواع، ولا يقتصر على جحود آيات اللّه، وغرض هذا القصر هُنا إظهار شناعة ما يفعله المُكذّبون بآيات اللّه تعالى، المُنكرون للرّسالة وللرّسول.

توجيه اختلافِ تَعَلُّقِ الجحودَيْن:

الجحود إنكارٌ لما صدر عن الله أو عن رسوله ﷺ

الجحود الأوّل معلّق بالواحدنيّة، والثّاني معلّق بالنّبوّة، وخُتِمَتْ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 7.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 12.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 12.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 20/ 346 - 347.

تلك بالكافر؛ لأنّه قسيم المؤمنين في قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾، وخُتمتْ هذه بالظّالمين؛ لأنّه جحد بعد إقامة الدّليل على كونه الرَّسول الذي صدر منه القرآن منزَّلا عليه، وهو أمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فهم الظّالمون بعد ظهور المعجزة[1].

معنى الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

استصحاب الإصرار على الصّدّ عن آيات الله

قوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ الباء للإلصاق والمصاحبة، فيكون جحودهم ملاصقًا لآياتنا، يقصدون من ذلك الصّدّ عنها، وعن الإيمان بها، بتكذيبها، والكفر بها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾ [الزُّمر: 45].

دلالة إضافة الآيات إلى ضمير العظمة:

الإضافة إلى ضمير التّعظيم لمزيد التّفخيم

على كلا الرّأيَين الأوّلِ القائل بأنّ معنى الآيات في ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ هو الرّسول ﷺ، والثّاني القائل أنّ معنى الآيات هو القرآن الكريم فإنّ الإضافة إلى ضمير التّعظيم في كليهما جاءت لمزيد التّفخيم، ففيما ذُكِرَ غايةُ التّشنيع على مَن يجحد به[2]، لأنّ مصدر هذه الآيات في الحالين هو اللّه تعالى؛ وهذا من أعظم التّكريم للرّسول ﷺ ولكتابه الكريم المُنزّل عليه.

علّة التّعبير عن الكتاب بالآيات:

إيماءةٌ إلى ما في هذا القرآن من بيّنات ومعجزات متجدّدة عبر الأجيال

(الآيات) هو الكتاب نفسه الذي ذُكِر سابقًا، ومجموعها القرآن الكريم، وعُدِلَ عن لفظ الكتاب أو القرآن إلى لفظ الآيات مجموعةً؛ لإيمائه إلى معنى ما يَضمّه هذا الكتاب من الآيات البيّنات والمعجزات المتجدّدة التي لا حصر لها ولا عدّ، والقرآن يكشف من آياته للأجيال القادمة عن الجديد الذي لم يظهر للأجيال السّابقة.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 362.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 5.

نكتة تقديم شبه الجملة: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

تخصيصٌ ومزيدُ عنايةٍ واهتمام بما يحويه لفظ (بآياتنا) من معنى

تقديم شبه الجملة ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ دلّ على مزيد تفخيم واختصاصٍ وعناية بهذه الآيات؛ سواءٌ أكان المعنى آياتِ القرآن الكريم، أم الرّسولَ ﷺ نفسَه.

دلالة الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾:

لا يَتَأتّى الجحود بآيات القرآن والرّسول إلّا من الظّالمين

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ استثناءٌ مفرّغ؛ لأنّه مسبوق بالنّفي وبحذف المستثنى منه، مما يعطي حرف الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ معنى الحصر، ويكون الفاعل ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وأصل الكلام: يجحد الظالمون بها، والتّعبير بالاستثناء المفرّغ ههنا: نَفَى به كلَّ جاحدٍ بالآيات، وجعله مختصًّا بفاعل واحد دون غيره، وهم الظّالمون.

دلالة التّعبير باسم الفاعل المجموع:

تَقصُّدٌ وإصرارٌ ونشاطٌ دائبٌ لإغواء النّاس ولصدّهم عن آيات الله وعن الإيمان

إنّ وقوعَ لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فاعلًا في الآية، جاء للدّلالة على أنّ فعل الظّلم بجحود آيات الله تعالى يحصل منهم بِتَقَصُّدٍ وإصرارٍ على الباطل، وأنّ فاعليّتهم هذه في المجتمع نشاطٌ دائم دائب منهم لإغواء النّاس ولصدّهم عن آيات الله بقولهم عنه ﷺ وعن آيات الله ساحر وسحر، ومجنون وجنون، مع أنّ هذا الظّلم واقعٌ منهم على أنفسهم، لأنّ الذين ظلموا إنما ظلموا أنفسَهم بكفرِهم باللّهِ[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

استغراق جنس الظّالمين وقصر الجحود عليهم

يدلّ التّعريف بـ(أل) في: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على استغراق جنس الظّالمين، ولكونِه بعد أداة الحصر فإنه يدلّ على القصر حقيقةً، أو تَجَوُّزًا بقصد المبالغة، فإن كان على الحقيقة فالمعنى: كلّ ظالمٍ هو جاحد لآياتنا، ولا يُسمّى الظّالم ظالمًا إلّا إنْ كان جاحدًا بالآيات وهو

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 428.

القرآن الكريم، أو جاحدًا بالرّسول ﷺ باعتباره صاحبَ الرّسالة، وإن كان على التّجوّز فهي للمبالغة وهي الأقرب إلى المعنى المُراد، وهذا يعكس إصرار الظّالمين على جحود آيات القرآن وآيات الرّسول ﷺ، والظّالِمونَ في هذه الآية، والمُبْطِلونَ في الآية السّابقة، يَعُمُّ لفظُهما كلَّ مكذِّبٍ بمحمّد ﷺ، ولكنْ معظم الإشارة بهما إلى قريش لأنّهم الأهمّ، في هذا الخطاب، وهو قول مجاهد[1]، وعلى هذا تكون (أل) فيهما عهديّة لا لاستغراق الجنس.

بلاغة التّذييل بجملة الفاصلة:

أمارة الظّلم إنكار آيات الله مع ما فيها من الوضوح

جملة ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تذييلٌ يُؤْذِنُ بأنّ المشركين جحدوا آيات القرآن على ما هي عليه من وضوح الدَّلالة على أنّها من عند الله؛ لأنّهم ظالمون جحدوا الحقّ، ويحملهم على جَحْدِه هوى نفوسِهم للظّلم، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: 14]؛ فهم موغلون ظلمًا وعُلوًّا[2].

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 322.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 13.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠﴾ [العنكبوت: 50]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المطالبة بإنزال آيات كآيات موسى وعيسى عليهما السلام

لَمّا ذكر الجاحِدين للآية العظيمة الّتي هي القرآن ثلاث مرات، ووصفهم بالكافرين، والمبطلين، والظّالمين؛ انتقل الكلام هنا إلى مقالتهم النّاشئة عن جحودهم، وذلك أنّهم طلبوا أن يأتي النَّبيُّ ﷺ لهم بآيات مرئيّة خارقة للعادة تدلُّ على أنَّ اللّه خلقها تصديقًا للرّسول كما خلق ناقة صالح وعصا موسى[1]، فقالوا: إنّك تقول: إنّه أُنزل إليك كتابٌ كما أنزل إلى موسى وعيسى، وليس كذلك؛ لأنّ موسى أوتي تسعَ آيات، عُلِمَ بها كونُ الكتاب من عند اللّه وأنت ما أوتيتَ شيئًا منها[2]، فأنكروا إنزال القرآن الكريم؛ وفيه من عظيم الآيات البيّنات ما يجعل كل عاقل يُسَلِّم به ويؤمن بصدقه.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَذِيرٞ﴾: (نذر) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَخْوِيفٍ أَوْ تَخَوُّفٍ، مِنْهُ الْإِنْذارُ: الْإِبْلاغُ، ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخْويفِ، وتَناذَروا: خَوَّفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا[3]، والإنذار: إعلامٌ، وابلاغٌ بتخويف، يُقال: أَنْذَرْتُ القومَ مَسيرَ عدوّهم إلَيْهِم فنَذِروا، أي: أَعْلَمتُهم ذلك فنَذِروا، وتَحَرَّزوا[4]، والمنذِر: المعلِّم والمحذِّر والمخوِّف الّذي يُعَرِّفُ القومَ بما يكون قد دهَمَهم، من عدوّ، أو مكروه سيقع به معلّقًا أو غير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 13.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 65.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5/ 414.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجَوهَريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (نذر).

معلَّق، وبهذا المعنى جاء سائر ما وقع من التّركيب في القرآن بصيغ كثيرة[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

من جلادة المنكرين وتغييب عقولهم مطالبتُهم بالآيات المُشاهَدَة

بعد أن بدأ القرآن الكريم بالتّنزّل على رسول اللّه؛ علموا أنّه من عند اللّه، وما هو بقول مخلوق قطعًا؛ فقال كفّار مكّة: لولا أُنزِل على محمّد آيةٌ من ربِّه كما كانت الأنبياء يجيء بها إلى قومهم، وقُرِئَ آياتٌ على الجمع، ثُمَّ إنَّ اللّه تعالى أرشد نبيَّه إلى أجوبة هذه الشُّبهة منها قوله: ليبيّن لهم أنّ اللّه تعالى على كلّ شيءٍ قديرٌ، وأنّه يعلم ما هو الأصلح للنّاس، وإرسال الآيات من عدمها، وإذا شاء أرسلها، وإذا شاء منعها[2]، ثم ذكر أنّ أمر إنزال الآيات لا يتعلّق بي، فما أنا إلا نذير، وما الآيات إلا أفعال للّه تعالى[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾:

استئناف لوصف حال الجاحدين الّذين لا يؤمنون

(الواو) في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾ استئنافيّة؛ وما بعدها جملة لا علاقة لها بما قبلها معنًى وإعرابًا، فالكافرون من أهل الكتاب ومن أهل مكّة طالبوا الرّسول ﷺ بالآيات المادّيّة مثلما أوتي الأنبياء من قبله ﷺ كعصا موسى، وفَلْقِ البحر له، أو تلك الآيات المقترَحة من عند أنفسهم كقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هود: 12]، في حين أنّ الآيات البيّنات الّتي نزلتْ على قلب المصطفى ﷺ عظيمةٌ غاية العظمة، والقرآن أعظم شأنًا من جميع المعجزات المادّيّة؛ لأنّها معجزة عقليّة جاءت للنّاس كافّة، وهي خالدة خلود الدّهر، وهي مستقرّة في صدور الّذين أوتوا العلم، لكنّ الذين لا يؤمنون بها يجحدون بتلك الآيات البيّنات.

(1) ابن الأثير، النّهاية، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نذر).
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 423.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 65.

دلالة إيثار لفظ القول جمعًا:

الإصرار على المطالبة بإنزال الآيات دليلُ إنكارٍ جماعيٍّ أعمى

صَدَّر النّظم الحكيم الآية بالفعل ﴿وَقَالُواْ﴾ لشمول مادّة القول كلَّ أنواع التّعبير اللّفظي، سواءٌ ما كان منها مباشِرًا أو غير مباشِرٍ، ومن وجوه التّعبير اللّفظي المباشر التّصريح والمجاهرة ههنا بالمعارضة والجحود عن إصرارٍ وتعمُّدٍ بطلبِ آياتٍ مَرْئيّة، وهو دليلُ امتلاء قلوب جميع الكفّار بالإنكار، والرّغبة في سوق حُجَجِهم كأنَّها أمرٌ صحيحٌ تقبلُه العقول السّليمة.

عود الضّمير في: ﴿وَقَالُواْ﴾:

المعنيّون هم كُفّار أهل مكّة وبعض اليهود الّذين كانوا يُعَلِّمون قريشًا حُجَجَهُم

الضَّمير في ﴿وَقَالُواْ﴾ يعود على أهل مكّة من الّذين شهدوا التّنزيل، ولكنّهم جحدوا بآيات الله، وهم الّذين طالبوا بالآيات من الله تصديقًا لنبيّه؛ إذْ أرادوا الآياتِ الماديّةَ المقترَحة من عند أنفسِهم، كما يعود على بعض اليهود؛ لأنّ هؤلاء هم الّذين كانوا يُعَلِّمون قريشًا مثلَ هذه الحُجَج بقولهم: لِمَ لا يأتيكم بمثل ما جاء به موسى من العصا وغيرها[1].

معنى ﴿لَوۡلَآ﴾:

تحضيضٌ من الكفرة على الإتيان بآيات معجزات، مع تناسيهم الآيات المنزّلات المقنعات

﴿لَوۡلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾ حرف تحضيض، بمعنى لو كان قد أُنزِل عليه آيات من ربه لصدّقناه وآمنّا به، أرادوا بذلك المعجزات الحسيّة، وهم بذلك القول كافرون كاذبون؛ لأنّ الآياتِ الّتي أُنزِلَت عليه ﷺ كفيلةٌ بإقناع النّاس أنّ محمّدًا ﷺ هو رسول الله.

نكتة بناء ﴿أُنزِلَ﴾ للمفعول:

تعظيم شأن المُنزِّل للكتاب سبحانه

بناء الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يُسمّ فاعلُه في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ دلّ على عظيم شأن المُنزِّل وهو الله تعالى، إذ هو معروف من غير تصريح باسمه تعالى، فأفاد معرفة الجهة التي

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 322.

تتنزّل منها الآيات؛ وهو اللّه سبحانه وتعالى، فهو معروفٌ لديهم، ممّا عرفوه من نبأ أهل الكتاب الّذين يعيشون بينهم.

نكتة تعدية فعل الإنزال بـ(على):

تنزل المُعجزات المـاديّـة من السماء

عُدّيَ فعلُ الإنزال في قوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٌ﴾ بـ(على) الدّالة هُنا على الاستعلاء المجازي؛ لأنّ الإنزال يكون من الأعلى، من جهة السّماء، وقصدوا من ذلك الإنزال المُعجزات الحسّيّة، وذلك كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [المائدة: 112].

عود الضّمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾:

الـرّسـول هو مـحـور قـضـيّة الرّسالة والآيات

الضّمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٌ﴾؛ أي على الرّسول ﷺ؛ فهو محور القضيّة كلّها، لأنه هو الّذي أتى بالرّسالة من عند اللّه، ودعاهم إلى التّوحيد وتَرْكِ الشِّرك والْتِزامِ أوامِرِ اللّه تعالى.

غرض تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَيۡهِ﴾:

تـخـصـيـصٌ لطلبهم جريان الآيـات على يد الرّسول

قدّم النّظم الحكيم شبه الجملة: ﴿عَلَيۡهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾؛ لغرض التّخصيص، فهم يريدون أنْ تجري على يديه الآيات المُقتَرَحَة المحسوسة، كما فعل موسى في إلقاء العصا، إذْ صارت حيّةً تسعى، ذلك أنّ مآلَ طلبِهم ليس للتّحقّق، بل لبيان عدم صدق الرّسول - حاشاه - بحسب زعمهم، ولاتِّخاذ ذلك سبيلًا إلى إنكار رسالته.

نكتة جمع ﴿ءَايَٰتٌ﴾ وتنكيرها:

مـرادُهـم آيـاتٌ مـن أيّ نـوع لـكنّ المـهـمّ أن تـكـون مـاديّـة محسوسة

جمع الآيات في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ لفائدة طلبهم؛ مثلَ آيات الأنبياء التي علموا بها كناقةِ صالحٍ وعَصا موسى ومائدةُ عيسى عليه السلام[1]، أمّا عن نكتة تنكيرها فهي لإرادة عموم

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 463.

الآيات، فأيّ آية ماديّة تشبه ما أنزل على الأنبياء من قبل ستكون مقبولة لديهم.

نكتة العدول عن ذكر القرآن إلى ﴿ءَايَٰتٌ﴾:

مطالبهم شمول جميع آيات الرّسل ومنها القرآن الكريم

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾؛ جاء الحديث شاملًا لجميع ما يخطر على البال من آيات الأنبياء ومنها القرآن الكريم، ولكنَّ اللّه يُنَزِّلها حسبَما يشاءُ من غيرِ دخلٍ لأحدٍ في ذلكَ قطعًا[1]، ولا سيّما منها المحسوسةُ المشاهَدَةُ، وكذلك الآيات الّتي تظهر فيها الخوارقُ والمعجزات، وليس للنّذير المُبين أنْ يتخيّر من الآيات إلّا ما أُعطي له؛ فلا يُقْبَل أنْ يقول: أَنْزِلْ عليَّ آية كذا دون آية كذا، مع علمي أنّ الغرض من الآية ثبوت الدَّلالة، والآيات كلُّها في حكم آية واحدة في ذلك[2].

توجيه القراءات القرآنيّة في ﴿ءَايَٰتٌ﴾:

تنوّعَتْ مطالبُ المعارضين بين الآية والآيات

تنوّعَتِ القراءاتُ بين الْجمع والإفراد في كلمة ﴿ءَايَٰتٌ﴾ من قَوْلِه تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾؛ فقرَأ نافِع وأبو عَمْرو وابْن عامر وحَفْص عَن عاصِم وأبو جعفر ويعقوب: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالجمع وحجّتهم أنّها جاءَت في الجواب في ما بعْدها جمعًا أيضًا، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وحجّتهم الأُخرى أنّها مَكْتوبَةٌ في المَصاحِف بالتّاءِ، أي المفتوحة، أما باقي القرّاء فقد قرؤوها ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالإفراد بدلًا من ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالجمع[3]، ويستندون في حُجّتِهم هذه إلى ورودها في المصحف عشرات المرّات مفردة، ومنها قَوْلُه تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥﴾ [الأنبياء: 5]؛ وقَوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ﴾ [الأنعام: 37][4]،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 43.
(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 463.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 343.
(4) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 501، وأبو زُرعة، حجّة القراءات، ص: 552.

وفي قراءة الإفراد (آية) دليلُ على أنّ طلبَهم كان آيةً واحدة ممّا آتى اللّه رسلَه من قبل؛ فتكون مِثْلَها مُطابِقَةً لَها أو مشابهة لها، أمّا في قراءة الجمع ﴿ءَايَٰتٌ﴾ فقد أرادوا الآيات الكثيرة المُنَوّعة، وذلك مثل ما أوتي موسى عليه السلام عددًا من الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ [الإسراء: 101]، فلا يكتفون بآية واحدة.

الموقع النّحويّ لقوله: ﴿ءَايَٰتٌ﴾:

الآيـات البيّنات تفرض وجودها بقوّة وصدق

لفظ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ في قوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٌ﴾ نائب عن الفاعل، دلّ موقعها النّحوي على أنّ ما طَلَبَه المنكرون إنّما هو آياتٌ تفرضُ وجودَها وقوَّتها وقدرتها على إقناع النّاس بالإيمان بأنّه رسولُ اللّه ﷺ.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ لابتداء الغاية؛ فهي - بحسب زعمهم - آياتٌ عظيمة مؤثّرة مبتدؤها من الرّب الّذي يدّعي الرّسول ﷺ أُلوهيَّتَه.

غرض الإضافة في ﴿رَّبِّهِۦ﴾:

مـدح المـضـاف إليه (الرّسول) وتـزكـيـتـه والتّـنـويه على مربّيه العظيم سبحانه

في لفظ ﴿رَّبِّهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ إضافة من نوع خاص، فقد جاءت بلفظ الرّبوبيّة مضافًا إلى ضميره ﷺ، وذلك لغرض مدح المضاف إليه (الرسول) وتزكيته ورفعة شأنه، ولتفويت فرصة تحجّج المشركين عليه بقولهم: ما دام اللّه ربُّه وهو قادر على كلّ شيءٍ، فليأتنا بآية كما أُرسِل الأوّلون.

وجاء بلفظ الرّبوبيّة؛ لأنّ الرّبّ هو المُربّي وهو الحريص على خلقه وعباده، وهو يعلم مصلحة العباد بإرسال المعجزات من عدم إرسالها؛ فإنْ كان عبدُهُ هو رسولَه فمن باب أولى أن يؤيّده بالآيات البيّنات المحسوسات.

دلالة الأمر في الفعل ﴿قُلۡ﴾:

طلب الآيات لا يكون إلا بأمر الله تعالى

أمر اللّه تعالى نبيّه في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ حتى يعلمَ أنّ هذا الأمر بيد اللّه تعالى؛ ولا يَستنزِلُه الاقتراحُ، ولا التّمنّي، ولا الطلبُ، وأنّه بُعِث نذيرًا، ولم يُؤمر بغير ذلك، وقد خرج الأمر إلى معنى التّصريح بالتّوجيه للرّسول محاجِجًا القائلين بأنّ نزول الآية أو الآيات لا يتمّ إلّا بأمره تعالى، ومن ذلك القرآن الّذي هو أعظم الآيات ومعجز الجنّ والإنس لذا قال: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ثمّ قرّر ما فيه من (الرّحمة والذّكرى) للمؤمنين، فقولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾، جوابٌ لمن قال: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾[1].

بلاغة القصر في ﴿إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾:

تنزيلُ الآيات بحكمته، وتقديرُها بمشيئته

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: يُنَزِّلها حسبما يشاء من غير دخل لأحد في ذلك قطعًا؛ وأنّ لكلِّ آية حكمةً، وأنّ اللّه تعالى يعلم كلّ قوم وما يناسبهم من الآيات ليؤمنوا؛ فتكون الآيات خيرًا لهم، لا نقمةً عليهم؛ وليس من شأن الرّسول ﷺ إلّا الإنذار بما أوتي من الآيات لا الإتيان بما اقترحتموه فالقَصْرُ قَصْرُ قَلْبٍ[2].

معنى العنديّة والإضافة في ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

المعجزات دلائل مشيئته وقدرته، وهي منه وعنده

﴿عِندَ﴾ ظرف منصوب متعلّق بمحذوفٍ خبرٌ للآيات، و(الواو) عاطفة؛ ومعنى ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أنّها من عمل القدرة الّذي يجري على وفْقَ إرادته تعالى، فلكونها منوطةً بإرادته شُبِّهَتْ بالشَّيء المحفوظ عند مالكِه[3]، والعنديّة هنا مجازيّة مستعملة في تحقيق الإقرار بالتّمكين، والمشيئة، ووجه دلالة ﴿عِندَ﴾ في نحو هذا أنّها دالّةٌ على المكان فإذا أُطلقتْ في غير ما مِنْ شأنه أن يَحِلّ في مكان كانت مستعملَة في لازمِ المكان، وهو وجود ما مِنْ شأنه أن يكون في مكان،

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 322.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 7.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 13.

على أنّ إضافة ﴿عِندَ﴾ لاسمه الأعظم تعالى ممّا يَزيد الأمر تحقُّقًا فضلًا عن الدَّلالة على القُدرة المُطلقة[1].

الآياتُ من عندِ الله تعالى، والتبليغُ مهمّة الرّسول ﷺ

سرّ الوصل في جملة الفاصلة:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تمّ عَطْفُ جملة: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على جملة: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهو عطفٌ فيه ارتقاءٌ في المجادلة، بالجمع بين خبرين؛ إذ الآيات تأتيكم من عند الله، أما النُّذُر فتأتيكم من عندي بأمر الله؛ لأنّ مهمّتي هو إنذاركم، فمن شاء آمن ومن شاء كفر، وسرُّ الوصل بين الجملتين هو التّوسّط بين الكمالين؛ كمال الانقطاع وكمال الاتّصال؛ إذ إنّ بين هاتين الجملتين اتّصالًا واتّفاقًا يتمثّل في كونهما خبريّتين، وفي وجود الجهة الجامعة الّتي تبرّر عطف الثّانية على الأولى وهي علاقة التّضادّ، وأنّ بينهما اختلافًا من حيث المعنى المدلول عليه بكلّ منهما.

ليس على الرّسول إلّا البلاغ والإنذار

بلاغة القصر في جملة الفاصلة:

أفادَتْ ﴿وَإِنَّمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قَصْرَ النَّبيِّ ﷺ عَلَى صِفَةِ النِّذارَة، أي الرِّسالَةِ لا يَتَجاوَزُها إلَى خَلْقِ الآياتِ أوِ اقْتِراحِها على رَبِّه، فهوَ قَصْرُ إفْرادٍ رَدًّا عَلَى زَعْمِهِمْ أنَّ مِنْ حَقِّ المَوْصوفِ بِالرِّسالَةِ أنْ يَأْتيَ بِالخَوارِقِ المُشاهَدَة، والمَعْنَى: أنَّهُ لا يُسَلَّمُ أنَّ التَّبْليغَ يَحْتاجُ إلى الإتْيانِ بِالخَوارِقِ على حَسَبِ رَغْبَةِ النّاسِ واقْتِراحِهِمْ حَتَّى يَكونوا مَعْذورينَ في عَدَمِ تَصْديقِ الرَّسولِ إذا لَمْ يَأْتِهِمْ بِآيَةٍ حَسَبَ اقْتِراحِهِمْ، وخُصَّ بِالذِّكْرِ مِنْ أحْوالِ الرِّسالَةِ وصْفُ النَّذيرِ تَعْريضًا بِالمُشْرِكينَ بِأنَّ حالَهُمْ يَقْتَضي الإنْذارَ وهوَ تَوَقُّعُ الشَّرِّ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 540.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 13.

توجيه تكرار (إنّما):

تكرّرت لفظة (إنَّما) مرّتين في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، وأفاد هذا التّكرار في أسلوب القَصْر توكيدَ المعنى العامّ في السّياق، وهو أنّ الآيات لا تَتَنَزَّلُ بإرادة النَّبيّ ﷺ؛ وإنّما هي فعلٌ للّه تعالى يفعله متى شاء؛ فإن شاء أنزل آية وإن شاء لم ينزلها.

تكرارٌ في أُسلوبِ القَصْرِ أفاد توكيد المعنى السّياقيّ العامّ

نكتة تنكير ﴿نَذِيرٞ﴾:

تنكير ﴿نَذِيرٞ﴾ في قوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾؛ لنكتة التّعظيم لشأن الرّسول ﷺ ومن سار على نهج الرّسول في إنذار النّاس، ودعوتهم إلى الإيمان.

تعظيم شأن الإنذار والدّعوة إلى الإيمان

سرّ التّخصيص بوصف النّذير:

خُصَّ وصْفُ النّذير بالذّكْرِ من أحوال الرّسالة تعريضًا بالمشركين؛ بأنّ حالهم يقتضي الإنذار وهو التّخويف وتوقُّع الشّرّ[1]، ثمّ إنّهم يُنكرون على الرّسول إنذارَه لهم، ممّا اقتضى التّعريض بهم، وبما يقترحون من أفكارٍ خاطئة لا يسعى إليها إلا ظالمٌ معاند.

التّعريض بالمشركين لإنكارهم النِّذارة

توجيه الفرق بين ﴿نَذِيرٞ﴾ و﴿مُنذِرٞ﴾:

لفظُ ﴿مُنذِرٞ﴾ [الرّعد: 7] اسمُ فاعلٍ من الفعل الرّباعي (أنذر) ويدلّ على التّحذير؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ﴾ [الرّعد: 7]، والخطاب للرّسول ﷺ لبيان مَهَمَّتِه أنّه يُنذِر ويُنبّه ويُحذّر، أمّا كلمة (النّذير) وإن كانت تأتي مصدرًا من الفعل (أنذر) إلا أنّها هنا بنفس الصيغة تُعَدُّ مبالغةَ اسم فاعل أو صفةً مشبّهةً باسم الفاعل، وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ هذا اللّفظ يفيد معنى الدَّلالة أو الإشارة على وقوع مكروه أو شرّ، فاحتاج الأمر إلى نذير ليدفع ذلك الشَّرَّ، قال تعالى: ﴿إِنَّآ

المنذر والنّذير يدلّان على التّحذير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 14.

﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ [البقرة: 119]؛ فيكون المُنذِر قائمًا بفعل الإنذار، أمّا النَّذير فوجودُه دلالةٌ وعلامةٌ.

تجانسُ لفظيَّ بين الآيات البيّنات والنّذير المبين

فائدة التّعبير بـ﴿مُّبِينٌ﴾ مادّةً وصيغةً:

المبين: الموضِّح للإنذار بالدّلائل العقليّة الدّالة على صدق ما يُخْبَر به[1]، و﴿مُّبِينٌ﴾ ههنا نعت لنذير، والبَيِّنَة: الدّلالة الواضحة عقليةً كانت أو محسوسةً، والبَيان: الكشف عن الشَّيء، وسُمّي الكلام بيانًا لكشفه عن المعنى المقصود إظهارُه[2]، وصوغُه على هيئة اسم الفاعل فيه دلالة الثُّبوت والدَّوام والاستمرار في معنى بيان الدّين؛ فهذه الصّفة ثابتةٌ فيه، متجدّدة مستمرّة حتى بعد وفاته ﷺ في سُنّته: أقوالًا، وأفعالًا، وتقريراتٍ.

توجيه المُتشابه اللَّفظي مع آية الأنعام:

قال تعالى هنا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، وقال تعالى في الأنعام: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ [الأنعام: 37]، والجمع قراءة نافع وأبي عمرو وحفص ولم يُخْتَلَفْ في إفراد لفظ آية في الأنعام، والمقصود واحد.

ووجه ذلك والله أعلم أنَّ (لولا) في الآيتين تحضيض؛ وإنّما يجري في كلامهم عندما يراه المتكلِّم به أولى، أو أهمَّ في مقصودٍ ما، أو أتمَّ في مطلب ما، إلى أشباه هذا ممّا يستدعي التّحضيض، ولمّا تقدّم قبل آية الأنعام ذِكْرُ دلائلَ من خَلْقِ السّماوات والأرض وجَعْلِ الظّلمات والنّور بحال مَنْ كذَّبَ وعاند؛ إلى ما تبع ذلك من الآيات الّتي يحتاج فيها إلى النّظر وإعمال الفكر والاعتبار، وكان مَظِنّةً لتغبيط الجاحد، فطلبوا آيةً تُبهر، ولا يحتاج معها إلى كبير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 14.
(2) الراغب، المفردات: (بين).

نظر؛ كناقة صالح عليه السلام، أو شبه ذلك، فافتَتَحوا فيما ذكره سبحانه عنهم بأداة (لولا) التّحضيضية؛ حرصًا على ما طلبوه، وأتَوا بالفعل مضعّفًا لِما أرادوه من التّأكيد؛ فقالوا: ﴿نُزِّلَ﴾ [الأنعام: 37]، وأفردوا كلمة ﴿ءَايَةٌ﴾ [الأنعام: 37]؛ لِما قصدوه من أنّه عليه السلام جاءهم بآية واحدة من الضّرب الّذي طلبوه، وهذا مناسب، وقد صرّحوا بما طلبوه من هذا الضّرب بالّذي ذكرنا في قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۝٩١﴾ [الاسراء: 90 - 91]، وفي قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: 21] إلى ما أشبه هذا فقال تعالى: قل لهم يا محمّد: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٧﴾ [الأنعام: 37]؛ أي لا يعلمون ما كان يَعْقُبهم ذلك لو وقع على وفْقِ اقتراحهم من تعجيل أخذِهم وهلاكِهم كما جرى لغيرهم من الأمم كقوم صالح عليه السلام وغيرهم.

أما آية العنكبوت فقد تقدم قبلها قولُه تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وتأخّر بعدها قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلم يكن ليناسب بعد اكتناف هذه الجموع إفراد آية، ثمّ إنّ هذه الآية لم يتقدّمها من التّهديد وشديد الوعيد ما تقدّم آية الأنعام؛ فناسب ذلك ورود الفعل غير مضعَّفٍ، وجاء ذلك كلُّه على ما يجب، ولم يكن عكس الوارد ليناسب(1).

(1) الغِرناطيّ، مِلاك التّأويل، ص: 159.

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [العنكبوت: 51]

معجزة القرآن عقليّة لا حسّيّة، خالدة خلود الدّهر

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أنْ ذكر في الآية السّابقة سفاهة الجاحدين، ووقاحتهم، وما قالوه، وما طالبوا به الرّسول أنْ يأتيهم به من آيات كآيات موسى، فأنكر عليهم في هذه الآية بقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ فكتاب الله القرآن أعظم من جميع آيات الأنبياء السّابقة؛ لأنّه معجزة عقليّة لا حسّيّة؛ وجاءت لكلِّ من له عقل، فهي خالدةٌ خلود الدّهر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡفِهِمۡ﴾: (كفا) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى الحَسْبِ الَّذي لا مُسْتَزادَ فيهِ، يُقالُ: كَفاكَ الشَّيْءُ يَكْفيك، وقَدْ كَفَى كِفايَةً، إذا قامَ بِالْأَمْرِ، والْكُفْيَةُ: الْقوتُ الْكافي، والْجَمْعُ كُفًى[1]، فالكِفايَةُ: ما فيه سدّ الخَلّة وبلوغ المراد في الأمر، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ [النّساء: 79] أي: اكْتَفِ بالله شهيدًا[2]، وكل ما في القرآن من هذا التّركيب فهو بمعنى الإغناء وعدم الاحتياج[3]، وكذلك قوله تعالى في الآية: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ والمعنى يكفي شهادةً وصدقًا أنّ الله أنزل الكتاب عليك، فسدَّ خُلّتهم وقضى مرادهم بإنزاله الكتابَ على رسوله المبعوث إليهم رحمةً مهداة.

2) ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾: (ذكر) أَصْلانِ، عَنْهُما يَتَفَرَّعُ كَلِمُ الْبابِ، فمن الأوّل: المُذْكِرُ، وهي الّتي ولَدَتْ ذَكَرًا، ومن الثّاني: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفا).
(2) الراغب، المفردات: (كفى).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كفى).

خِلافُ نَسيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ بِاللِّسانِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ عَلَى ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ، أيْ لا تَنْسَهُ[1]، والذِّكْرُ: جَرْيُ الشّيءِ على لسانك، والذِّكْرُ: الكتاب الّذي فيه تفصيل الدّين، وكلّ كتاب للأنبياء ذِكْرٌ، والذِّكْرُ: الصّلاة، والدّعاء، والثّناء، والأنبياء إذا حزبهم أمرٌ فزِعوا إلى ذكر الله، أي: الصّلاة[2]، وتكون الذِّكْرَى بِمَعْنى الذِّكْر، كما في آية العنكبوت في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وتكون بِمَعْنى التّذكير كما في قَوْله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦﴾ [ص: 45 - 46][3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إعلام بأنّ القرآن فيه من الآيات للنّاس جميعًا

الآية رَدٌّ من القرآن عن سؤالهم الرّسولَ ﷺ أن يُنَزِّل عليهم آياتٍ مثلَ آيات موسى وعيسى وسائر الأنبياء؛ فرَدَّ الله عليهم فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أولم يكفهم منَ الآيات ما أنزلنا من القرآن؛ يُتلى عليهم، فيه خبرُ ما بعدهم وما قبلهم، وفي إنزال الكتاب عليك رحمةٌ لمن آمن وعمل به، وذِكْرى وتذكيرٌ وموعظةٌ، لقوم يؤمنون[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

الاستئناف ردًّا على اقتراحِهم، وبيانًا لبُطلانِ رأيهم

الآية ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ﴾ فُصِلتِ عمّا قبلها للاستئناف؛ فالكلام واردٌ من جهتِه تعالى ردًّا على اقتراحِهم، وبيانًا لبُطلانِه، والهمزةُ للإنكارِ والنَّفي،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(2) الخليل، العين: (ذكر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذكر).
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 423.

والواوُ للعطفِ على مُقدَّرٍ يقتضيه المقامُ؛ أي: أَقَصُرَ ولم يكفِهم آيةٌ مُغْنِيَةٌ عن سائرِ الآياتِ؛ إذْ إنَّنا أنزَلْنا عَلَيْكَ الكتاب النّاطقَ بالحقِّ المصدِّق لِما بين يديهِ من الكتبِ السَّماويَّةِ وأنتَ بمَعْزِلٍ عن مدارستِها وممارستِها؛ وهو يُتلى عَلَيْهِمْ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ فلا يزالُ معهم آيةٌ ثابتةٌ لا تزولُ ولا تضمحلُّ؛ كما تزولُ كلُّ آيةٍ بعدَ كونِها، وتكونُ في مكانٍ دونَ مكانٍ، أو يُتلى على اليهودِ بتحقيقِ ما في أيديهم من نعتِك ونعتِ دينِكَ[1].

نوع الاستفهام وغرضه:

تَعَجُّبيٌّ لإنكار نفيهم معجزةَ القرآن

قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾؛ كلام مستأنف وارد من جهته تعالى؛ ردًّا على اقتراحهم وبيانًا لبطلانه، والهمزة للإنكار والنّفي، والواو للعطف على مقدّر يقتضيه المقام[2]، والاستفهام تَعَجُّبيّ إنكاريّ؛ لإنكار النّفي وإثبات المنفي، والمعنى: هلّا يكفيهم من الآيات آيات القرآن؟ فإنَّ كلَّ مقدار من مقادير إعجازه آيةٌ على صدق الرَّسول ﷺ، ويرى ابن عاشور في إحصاءٍ مُيسّر أورده في تفسيره؛ أنّ آيات القرآن وهي زهاءُ ستة آلاف آية، ومقدارُ كلِّ ثلاث آيات مقدارٌ مُعْجِزٌ، فيحصل من القرآن مقدارُ أَلْفَيْ معجزةٍ وذلك لم يحصل لأحدٍ من رسل اللّه[3].

فائدة الاستفهام في ردّ مقالتهم:

الاسـتـدلال على جواز تتبّع التّوراة ونحوها أو منعه

الظّاهر كون ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾ جوابًا لقولهم في الآية: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وعليه تكون الآية دليلًا لمن منع تتبّع التّوراة ونحوِها، وهذا المنع قالت به عائشة رضي الله عنها، ولعلّ المنع من ذلك هو عند خوف الفساد في الدّين؛ وذلك ممّا لا شبهة فيه في صدر الإسلام[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 43.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 7.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 14.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 8.

نكتة التّعبير بالمضارع ﴿يَكۡفِهِمۡ﴾:

معجزات القرآن متجدّدة مع الزّمان

أفاد التّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾ بيان ما سيكون من القرآن من معجزات مستقبليّة، إذ إنّ إعجاز القرآن متجدّد مع الزمن، مستمرٌّ عطاؤه إلى قيام السّاعة، لقوله تعالى بعدها: ﴿أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ فتلاوته عليهم دلّت على تجدّد عطائه للنّاس جميعًا؛ فحُقَّ أنْ لا تَفْنى عجائبُه، ولا تنقضي بدائعُه ما دام يُتلى وتُتَدبَّر آياتُه.

عود الضّمير في ﴿يَكۡفِهِمۡ﴾:

خطاب الإغناء عامّ للنّاس كافّة

قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾؛ أي: أهل الكتاب بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك، وله وجهٌ إن كان ضميرُ ﴿وَقَالُواْ﴾ فيما تقدّم يعود على أهل الكتاب، ووجه آخر أنّه يعود على كفّار قريش[1]، وعلى هذا يكون خطابًا خاصًّا بأولئك المعاصرين للرّسالة والتّنزيل، وهو عامّ للنّاس كافة على مدى العصور والدّهور.

وجوه الإعجاز في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾:

فُضِّل القرآنُ على سائر الكتب السّماوية، وعلى سائر معجزات الأنبياء السّابقين

معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: أنّ إنزال الآية إنّ كان شرطًا فقد أُنزلت الآية وهي القرآن؛ فإنه معجزة ظاهرة باقية، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾ عبارة تُنبئ عن كون القرآن آيةً فوق الكفاية، ويذكر الفخر الرّازي في تفسيره وجوه معجزة القرآن، وكونها أتمّ ممّا سبقه من الكتب لوجوه: أحدها: أنّ تلك المعجزات وُجِدَتْ ومادامت فإنّ قَلْبَ العصا ثعبانًا، وإحياء الميّت، لم يبقَ لنا منه أثر، فلو أنّ واحدًا لم يكن يؤمن بكتب اللّه، ويكذّب بوجود هذه الأشياء فلا يمكن وقتئذٍ إثباتُها معه بدون الكتاب، وأمّا القرآن فهو باقٍ؛ لو أنكره واحد فنقول له: فأتِ بآيةٍ من مثله، الثّاني:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 7.

هو أن قَلْبَ العصا ثعبانًا كان في مكان واحد، ولم يره من لم يكن في ذلك المكان، وأمّا القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب، وسمعه كلّ أحد، وها هنا لطيفةٌ وهي أنّ آيات النّبيّ ﷺ كانت أشياءَ لا تختصّ بمكان دون مكان؛ لأنّ من جملتها انشقاق القمر، وهذا الانشقاق يعمّ الأرض؛ لأنّ الخسوف إذا وقع عمّ، وذلك لأنّ نبوّته كانت عامّة لا تختصّ بقُطر دون قُطر، وغاضت بحيرة ساوة في قُطر، وسقط إيوان كسرى في قُطر، وانهدَّت الكنيسة بالرّوم في قُطر آخر؛ إعلامًا بأنَّه يكون أمرٌ عامٌّ[1].

سرّ التّعبير بالضمير ﴿أَنَّآ﴾:

إنــزال الكتاب مخصوصٌ بالله تعالى

التّعبير بضمير العظمة (نا) مؤكّدًا بـ(أنَّ)، دون التّعبير به مضافًا إليه (أولم يكفهم إنزالنا) يدلّ على توكيد تخصيص الإنزال به تعالى، وقصرِه عليه سبحانه، أي: أنزلنا عليك الكتاب بما لنا من العظمة الّتي تتقاصر دونها كلُّ عَظَمَةٍ[2]، وفيه مع التّشريف للمُنزَّل، دفعٌ لأدنى شكٍّ بعدم إنزاله منه تعالى.

نكتة التّعبير بالماضي مع إسناده إلى ضمير العظمة:

تعظيم شأن إنــزال الكتاب على رسول الله ﷺ

دلّ الفعل الماضي (أَنْزَل) في قوله تعالى: ﴿أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على وقوع الحدث في الزّمن الماضي، فضلًا عمّا فيه من تأكيد حقيقة إنزال الكتاب عليه ﷺ، وتحقّق وقوعه، ودلّ ضمير العظمة (نا) في الفعل ﴿أَنزَلۡنَا﴾ على القدرة والإحاطة؛ لأنّه كلام اللّه تعالى؛ إذ أسند إنزال الكتاب إلى ضمير العظمة (نا) ليُعلم شأن هذا الكتاب، وعظيم ما فيه، ومن أسرار هذا المعنى، أنَّ ضمير العظمة يأتي في كلام اللّه، ولا يأتي في كلام الأنبياء حين يخبرون عن ربهم.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 65.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 387.

نكتة استعمال ﴿عَلَيۡكَ﴾ لا (إليك):

مناسبة الاستعلاء للفعل المبني للفاعل، بخلاف الفعل المبني للمفعول

قال تعالى: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾ وقال فيما سبق: ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ ومناسبة ذلك أنّه مع البناء للفاعل المعلوم في ﴿أَنزَلۡنَا﴾ فإنّ الكلام لمن هو في استعلاءٍ تامٍّ على خلقه، وهو اللّه ﷻ، فناسب تعدية فعل الإنزال بحرف الاستعلاء (على)؛ فقال: ﴿عَلَيۡكَ﴾، أمّا مع البناء للمفعول غير الصّريح وغير الظّاهر فقال ﴿إِلَيۡكَ﴾، تناسبًا مع عدم التّصريح باسم الفاعل.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيۡكَ﴾:

الرّسول ﷺ هو محور قضيّة الجدال

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيۡكَ﴾ في قوله: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لفائدة الاهتمام بما أُنزِل على رسول اللّه ﷺ، فالرّسول هو محور المعجزة؛ والمعجزة هي الكتاب المهيمن على ما سبقه من الكُتب، وهذا التَّقديم للمجرور لفائدة الاختصاص والتَّعريض بالمشركين الّذين اقترحوا الآيات وطالبوا بها.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

القرآن هو الكتاب وهو المُعجزة

(أل) في قوله: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للعهد، وهو القرآن من بين الكتب السّماويّة المُنزّلة على الرُّسُل من قبله ﷺ، فهو الكتاب وهو المُعجزة معًا، الجامع لسعادة الدّارين بحيث صار خُلُقًا لك غالبًا على حركاتك وسكناتك[1].

نكتة العدول عن (الآيات)، و(القرآن) إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

القرآن هو الكتاب المُشتهر بالتلاوة من بين كتب الأنبياء

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: هو الآيات نفسها التي ذُكرت سابقًا، ومجموعها القرآن الكريم، وعُدل عن لفظ الآيات، أو القرآن الّذي هو كالعَلَم عليه إلى لفظ الكتاب المعهود؛ لإيمائه إلى معنى تعظيمه بأنَّه المشتهر من بين كتب الأنبياء[2]، ولكونه ممّا يُتلى؛ فدلّ على حفظه

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 457.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 14.

على مرّ العصور، لاستمرار تلاوته مع تغيّر الأزمنة والعصور، وهو أعلى شأنًا من معجزات الأنبياء، لأنَّ إدراك المتلوّ إدراك عقليّ فكريّ، وهو أعلى من المدركات الحسيَّة فكانت معجزةُ القرآن خالدة خلود الدّهر، وهي أليق بما يُستقبَل من عصور العلم الّتي تهيّأت إليها الإنسانيّة[1].

دلالة الاستئناف في: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

إنــزال الكتاب إشـعـارٌ بمبتدأ تلاوته

قوله: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ جملة مستأنَفَةٌ، لكمال الاتّصال بين الجملتين؛ جملة إنزال الكتاب وجملة تلاوته، فكان إنزال الكتاب عليهم مبتدأ تلاوته عليهم، والمُخاطبون هم أهل مكّة ومَن أتى بعدهم إلى قيام السّاعة.

غرض بناء الفعل ﴿يُتۡلَىٰ﴾ للمفعول:

تــلاوة الـكـتـاب آية ومعجزة من معجزاته

قوله: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، أي: يُقْرَأ عليهم[2]، فحصل من مادَّة ﴿يُتۡلَىٰ﴾ ومن صيغة المضارع دلالةٌ على عموم الأمكنة والأزمنة، وقد أشار قوله: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وما بعده إلى مزايا معجزة القرآن على غيره من المعجزات، منها: ما أشار إليه قوله: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ من انتشار إعجازه وعمومه في المجامع والآفاق والأزمان المختلفة بحيث لا يختصّ بإدراك إعجازه فريق خاصٌّ في زمن خاصٍّ شأنَ المعجزات المشهودة؛ مثلِ عصا موسى، وناقة صالح، وإبراء الأكمه، فهو يُتْلَى، ومن ضمن تلاوته الآياتُ الّتي تَحَدَّتِ النّاسَ بمعارضته، وسجَّلَتْ عليهم عجزهم عن المعارضة من قَبْلِ محاولتهم إيّاها؛ فكان الأمر كما قال هذا الكتاب الّذي يُتْلَى، فهو معجزة باقية خالدة إلى قيام السّاعة، والمعجزات الأخرى معجزات زائلة[3]، وقوله: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾

(1) أبو عُبَيدة، مجاز القرآن: 2/ 108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.

دليل على أنّ القرآن من كبار آيات النّبيّ ﷺ[1]، وهي معجزة عقليّة لا حسيّة؛ لذلك فإنّها تُحاجِجُ كلَّ ذي عقل؛ وهي للنّاس كافّة.

دلالة المضارع ﴿يُتۡلَىٰ﴾:

تلاوة القرآن مستمرةٌ على مدى العصور والأزمان

اختير المضارع في قوله تعالى: ﴿يُتۡلَىٰ﴾ دون الوصف بأنْ يُقال: (متلوًّا) عليهم، لِما يُؤْذِنُ به المضارع من الاستمرار، ودلالة الصّيغة هنا دوام تلاوته في كلِّ زمانٍ ومكانٍ من كل تالٍ مصدقًا لِما في الكتب القديمة من نعته ﷺ وغيره من الآيات الدّالة على صدقه؛ فلا يزالُ معهم آيةٌ ثابتة لا تزولُ ولا تضمحلُّ كما تزولُ كلُّ آيةٍ بعدَ كونِها، وتكونُ في مكانٍ دونَ مكانٍ[2]، وأنَّ كون القرآن كتابًا متلوًّا مستطاعًا إدراكُ خصائصه لكلّ عربيّ، ولكلّ من حَذِقَ العربيّة؛ يُبعده عن مشابهة نفثات السَّحرة والطَّلاسم[3]، وتكون مُعجزته في تلاوته وتيسيره للذّاكرين، فهو رحمة وذكرى للمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ [القمر: 22].

بلاغة التتميم في قوله: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

يُتلى القرآنُ؛ لأنّه كتابٌ ومعجزةٌ عقليّة

قوله تعالى: ﴿أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ أي أنّنا أنزلنا القرآن ليُتلى عليهم، وفي التَّعليل تتميم لما اقتضاه التَّعبير بالكتاب وبـ ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[4]، فهو كتابٌ يُتلى إلى قيام السّاعة، محفوظ بقدرة اللّه من التّحريف؛ فتكمن فيه المُعجزات.

نكتة تعدية التّلاوة بحرف الاستعلاء:

أثر القرآن على النّفوس والقُلوب

عُدّي لفظُ التّلاوة في قوله: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ بحرف الاستعلاء (على)؛ للدّلالة على عُلوِّ هذا الكتاب وسماويَّتِه، وفي ذلك بيانٌ لعظيم شأن القرآن، وكبير أثره على النّفوس والقُلوب، وهم علموا

(1) القصّاب، النُّكت الدّالّة على البيان: 3/ 593.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 457، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 43، والقونَويّ وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاويّ: 15/ 74.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 14 - 16.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.

أنّه الحقُّ من ربّهم؛ لِما أحدثه في نفوسهم من الأثر الكبير، فأخبر أن الكتاب آية من آياته، كافٍ في الدّلالة، قائم مقام معجزات غيره، وآيات مَنْ سواه مِنَ الأنبياء[1]، فعلموا أنّه ليس بقول شاعر ولا كاهن، وأنّه ليس من عند بشر قطعًا.

نكتة فصل قوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ﴾:

الانـفـصـال اللّفظي يُغطّيه الاتصال المعنويّ في الدّلالة على أنّ القرآن رحمة للمؤمنين

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ﴾؛ جملةٌ فُصِلَتْ عن سابقتها الّتي تناولت الحديث عن القرآن الّذي يُتلى عليهم، لِما بين الجملتين من شِبْه كمال الاتّصال؛ لاتّفاقهما من حيث الخبريّة؛ فالقرآن يُتلى عليهم، وهو رحمة للمؤمنين منهم، والقرآن فيه المعجزات الّتي لها الأثر الأكبر على قُلوب المؤمنين؛ فتزيدهم إيمانًا وراحةً وانسجامًا في الحياة، وجملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ﴾ واردةٌ موردَ التَّعليل للتَّعجيب من عدم اكتفائهم بالكتاب[2]؛ فالجملة الثّانية تعليل لِما سبقها.

غرض توالي المؤكّدات في فاصلة الآية:

القـرآن هو الرّحمة المهداة لأمة محمّد ﷺ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ﴾ توالت المؤكّداتُ ﴿إِنَّ﴾، و(اسم الإشارة)، و(اللّام) وهي دليلٌ على ما في القرآن من رحمة للمؤمنين، وذكرى دائمة لهم، وليكون ذلك خطابًا بيّنًا للّذين لا يؤمنون؛ ممّن أنكروا القرآن وآياته؛ فتأتي المؤكّدات لفائدة إزالة الشّكّ من صدق الرّسالة الّتي جاء بها خاتم المرسلين.

توجيه الظّرفيّة المجازيّة بـ﴿فِي﴾:

الكتاب رحمة للنّاس بشرط الإيمان

جاءت ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ للظّرفيّة المجازيّة، وأصل مجيئها لاحتواء الشّيء فكأنّه في وعائه، فيكون المعنى: إنّ في آيات الله الّتي تُتلى عليهم احتواءً للرحمة والذّكرى لقوم يؤمنون بالله وبرسالته وكتابه، ولا تكون تلك الرّحمة إلا بتحقيق شرط الإيمان.

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 4/ 4.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.

نكتة التّعبير باسم الإشارة البعيد:

الـقـرآن حجّة بيّنة، رفيعٌ عالي المنزلة

معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: الكتاب العظيم الشّأن الباقي، وقيل: الّذي هو حجّة بيّنة[1]، فالإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ ليستحضر صفاته كلّها، وللتّنويه به بما تقتضيه الإشارة من التّعظيم[2]، وفي هذه الإشارة دلالةٌ على رفعة شأن هذا القرآن بجعله بعيدًا في المنزلة.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

الاهتمام بما تمّ تقديمه لتعظيم الرّحمة الّتي تكتنفها آيات القرآن

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ قدَّم البيان الإلهيُّ شبه الجملة الجارَّ والمجرور: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ المتعلّقان بخبر مقدَّم؛ على اسم ﴿إِنَّ﴾: ﴿لَرَحْمَةً﴾؛ وذلك لفائدة الاهتمام بما تمّ تقديمه وتعظيمه، وتخصيص الإشارة به إلى الرّحمة الّتي يَكْتَنِفُها تَنَزُّلُ آيات القرآن وتلاوتُها عليهم.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَرَحْمَةً﴾:

تأكيد حصول الرّحمة بِتَنَزُّلِ آياتِ القرآن

(اللّام) في قوله: ﴿لَرَحْمَةً﴾؛ للتّأكيد، فأكّد حصول الرّحمة للمؤمنين بِتَنَزُّلِ آياتِ القرآن الكريم على رسول اللّه ﷺ وتلاوتِه على المؤمنين، لِما سيكون لتلك التّلاوة من شأن عظيم في نفوس المؤمنين على مدى الدّهر إلى قيام السّاعة.

نكتة تنكير ﴿لَرَحْمَةً﴾:

كونُ القرآن معجزةً؛ جَعَلَتْهُ للعبادِ رحمةً؛ يَعظُمُ أثَرُها، ولا يُقادَرُ قدرُها

تنكير كلمة ﴿لَرَحْمَةً﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾؛ للتَّعظيم؛ أي: لا يُقادَرُ قَدْرُها، فالكتاب المَتْلُوُّ مشتملٌ على ما هو رحمةٌ لهم؛ اشتمالَ الظَّرفِ على المظروف؛ فالقرآن مع كونه معجزةً دالّةً على صدق الرَّسول ﷺ ومرشدةً إلى تصديقه؛ فهو أيضًا مثلُ غيره من المعجزات، يُعَدُّ وسيلةَ عِلْمٍ وتشريعٍ وآدابٍ لِلْمَتْلُوِّ عليهم، ويتجدّد

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 7.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.

شأنُ معجزتِه مع الزّمن إلى قيام السّاعة، وبذلك فضُلَ غيرَه من المعجزات الّتي لا تفيد إلّا تصديق الرَّسول الآتي بها[1].

ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿لَرَحۡمَةٗ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنّا جعلنا القرآن معجزةً رحمةً منّا على العباد؛ ليَعلَموا بها الصّادق المأمون من الكاذب المدّعي، وهذا لأنّا بيّنا أنّ إظهارَ المعجزة على يد الصّادق رحمةٌ من اللّه، وكان له ألّا يُظْهِرَها فيبقى الخَلْقُ في ورطةِ تكذيبِ الصّادق أو تصديق الكاذب؛ لأنَّ أيَّ نَبيٍّ لا يتميّز من مُدَّعي النّبوّة المُتَنَبّي لولا المعجزة، لكنّ اللّهَ له ذلك، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد[2].

غرض عطف ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾:

بقاء معجزة القرآن ما بقي الزّمان

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يؤكّد أنّه يُتلى في عصره ﷺ وفي العصور الّتي تأتي بعده؛ وقوله: ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ إشارة إلى أنّه معجزة باقية يتذكّر بها كلُّ من يكون ما بقي الزَّمان[3]، فإنَّ القرآن مشتملٌ على مواعظَ ونُذُرٍ، وتعريفٍ بعواقب الأعمال، وإعدادٍ إلى الحياة الثّانية، ونحو ذلك ممّا هو تذكيرٌ نافعٌ، ويكون في تَذَكُّرِه خيرُ الدّارين[4].

دلالة التّعبير بـ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ مادّة وصيغة:

نزول القرآن شرفٌ عظيمٌ لأهل مكّة والمدينة

قوله: ﴿لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾؛ معنى ذِكرى؛ ذكرتُ الشَّيء، بخلاف نسيتُه، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكر باللّسان، والذِّكر أيضًا: العَلاء والشّرف، وهو قياس الأصل[5]، ومن هنا فقد كان في نزول القرآن الكريم شرفٌ عظيمٌ للّذين آمنوا من أهل مكّة، وشرفٌ عظيمٌ للّذين آمنوا من أهل المدينة قبل هجرة الرّسول ﷺ إليها أو بعدها، وتكون الذِّكرَى بِمَعْنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 65.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 65.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/ 358 - 359.

الذِّكر بخلاف النّسيان، كما في الآية هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ وتكون بِمَعْنى التَّذكير كما في قَوْله تعالى في سورة ص: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦﴾ [ص: 45 - 46][1].

غرض تقديم الرّحمة على الذّكرى:

عموميّة الرّحمة وخصوصيّة الذِّكرى

في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾ قدّم البيان الإلهيّ الرّحمة على الذّكرى لأنّ الرّحمة تعمّ جميع المؤمنين، فمن قرأ شيئًا من القرآن أو استمع للتّلاوة أصابته رحمة اللّه، أمّا الذّكرى فتكون للمتدبّرين للتّلاوة المستمعين للآيات، فهي تختصّ بمن تَدَبّر عند التّلاوة والسّماع، فقدّم العامّ على الخاصّ.

معنى اللّام في قوله: ﴿لِقَوۡمٖ﴾:

تخصيص مجتمع المؤمنين بالرّحمة

اللّام في قوله: ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ حرف جرٍّ بمعنى الاختصاص؛ إذْ قد خصّ البيان الإلهيّ القوم المؤمنين بهاتين الميْزتين وهما الرّحمة والذّكرى؛ فالرّحمة أقرب للمجتمعات من الأفراد؛ وذلك لما في المجتمع من القدرة على المحافظة والدَّيمومة لقضيّة الإيمان، أمّا التّذكير ففي ما بين أفراده.

نكتة تنكير ﴿لِقَوۡمٖ﴾:

بالمجتمع المؤمن يصونُ المؤمنون دينهم، وأنفسهم

في قوله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أفاد التّنكير في كلمة ﴿لِقَوۡمٖ﴾ إرادةَ عموم جماعة المؤمنين، وإظهارَ فائدة أنْ يعيش المؤمن في مجتمع مؤمن، يصون فيه دينه ونفسه، ويكون مثل أقرانه المؤمنين، أو إنّ التّنكير أفاد مدح جماعة المؤمنين، أي إنّ كلّ مجتمع مؤمن، يحيا بالإيمان ويموت على الإيمان.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذكر).

القوم الباحثون عن دلائل الإيمان

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

الفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قد يُراد به الزّمن المستقبلُ، ويجوز أن يراد به الحال بالنظر إلى كون ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾ ممّا تنازعا التعلّق في الجارّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾[1]، وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دون (للمؤمنين) لِما في لفظ قوم من الإيماء إلى أنّهم قومٌ شعارُهم أن يؤمنوا؛ لاهتماهم بالنّظر والإنصاف، فهم يبحثون عن الحقيقة، فإذا قامت لهم دلائل الإيمان آمنوا ولم يكابروا ظلمًا وعلوًّا، فالفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يرادُ به الحال القريبة من الاستقبال، كما أنّ فيه تعريضًا بالّذين لم يكتفوا بمعجزته، واقترحوا آياتٍ أخرى لا نسبة بينه وبينها[2].

الرّحمة مختصّةٌ بالمؤمنين

توجيه قوله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أنّ هذه الرَّحمة المؤكّدة، والّتي جرى الاهتمام بها بإشارةٍ مقدَّمةٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾؛ لَهِيَ مختصّة بالمؤمنين؛ لا تَتَعَدّاهم، لأنّ المعجزة كانت غضبًا على الكافرين؛ لأنَّها قَطَعَتْ أعذارَهم، وعَطَّلَتْ إنْكارَهم[3].

عظمة أثر الرّحمة والذِّكرى في الحثّ على الإيمان

مزايا القرآن الكريم التي ذكرتها الآية:

قوله تعالى في أوّل الآية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ تعبيرٌ عن آية القرآن العظيمة الّتي هي مُغْنِيَةٌ عن سائر الآيات؛ إن كانوا طالبين للحقّ، غير متعنّتين، لأنّ هذا القرآن الّذي تدوم تلاوته عليهم في كلّ مكان وزمان؛ آيةٌ ثابتة لا تزول ولا تَبْلى، وإنّ في مثل هذه الآية الموجودة في كلّ مكان وزمان إلى آخر الدّهر؛ لنعمةً عظيمة لا يَبْلُغُ أحدٌ شُكْرَها، وتذكرةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4]؛ إذْ عُلِّقَ بالرَّحمة والذِّكرى قوله: ﴿لِقَوْمٍ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 7.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 16.
(3) الأعظميّ، أسماء القرآن، ص: 78.
(4) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 463.

يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ تلك منافعُ من القرآن زائدةٌ على ما في المعجزات الأخرى من المنفعة الّتي هي منفعة الإيمان، وهو أعظم ما يمكن أنْ يحقّقه الإنسان في هذا الوجود، فهذه مزايا عظيمةٌ لمعجزة القرآن، حاصلةٌ في حضرة الرّسول ﷺ وغَيْبَتِه[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 16.

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾ [العنكبوت: 52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاكتفاء بالقرآن آيـة عـلى صـدق الرّسول

بعد أن أتى البيان الإلهيُّ على الاستفهام الاستنكاريِّ في الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ منكرًا على الّذين يجحدون بآيات اللّه، أَرْدَفَ ذلك الاستفهام الاستنكاريَّ بالإجابة المناسبة بقوله: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾؛ فهو سبحانه الّذي يعلم غيب السّموات والأرض، وهو الشّهيد على آيات القرآن الّتي نزلت بحفظه سبحانه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]، ثم لأنّه من المعلوم أنّهم سيقولون: نحن لا نصدّق أنّ هذا الكتاب من عند اللّه فضلًا عن أن نكتفي به، أمره تعالى بالجواب عمّا قد يقولونه من نحو هذا بقوله: ﴿قُلۡ﴾[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهِيدٗاۖ﴾: (شهد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حُضورٍ وعِلْمٍ وإِعْلامٍ، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْ فُروعِهِ عَنِ الّذي ذَكَرْناهُ، مِنْ ذَلِكَ الشَّهادَةُ، يَجْمَعُ الْأُصولَ الّتي ذَكَرْناها مِنَ الْحُضورِ، والْعِلْمِ، والْإِعْلامِ، يُقالُ شَهِدَ يَشْهَدُ شَهادَةً[2]، والمَشْهَدُ: مَجْمَعُ النّاسِ، وقولُه تعالى: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣﴾ [البروج: 3]؛ الشّاهد هو النّبيّ ﷺ، والمشهودُ هو يومُ القيامة[3]، وقوله تعالى هنا: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾؛ فهو سبحانه الشّاهد الأوحد على النّاس جميعًا العالم بدواخلهم وما

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 461.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(3) الخليل، العين: (شهد).

تُخفي نفوسهم؛ فهذه أكفأُ وأعظم شهادة على الإطلاق، والشَّهيد في أسمائِهِ تَعالَى هو الّذي لا يَغيبُ عَن عِلْمه شَيْءٌ[1].

2) ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: (خسر) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ[2]، والخاسِرُ: الّذي وضع في تجارته، وكِلْتُهُ ووزَنْتُهُ فأخْسَرْتُهُ، أي: أَنْقَصْتُه، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ۝٩﴾ [الطلاق: 9]؛ أي: نَقْصًا، و﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾ [النازعات: 12]؛ أي: غير مربحة[3]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: 3]، قال الزَّجّاج؛ أي: يُنْقِصون في الكيل والوزن، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ [العصر: 1 - 2]، أي: لفي عقوبة بذنوبه، وأنْ يَخسَرَ أهلَهُ ومنزلَهُ في الجنّة[4]، والْخاسِرُ: الّذي نَقَصَ نَفْسَهُ حَظَّها مِنَ الْفَلاحِ والْفَوْزِ، والْخُسْرانُ: النُّقْصانُ كانَ في ميزانٍ أَوْ غَيْرِهِ، وقيلَ لِلْهالِكِ: خاسِرٌ، لِأَنَّهُ خَسِرَ نَفْسَهُ وأَهْلَهُ يَوْمَ الْقيامَةِ ومُنِعَ مَنْزِلَهُ مِنَ الجَنَّةِ[5].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الآية ردٌّ على من كذّب من أهل الكتاب وأهل مكّة بالقرآن الّذي هو البيِّنات والهُدى، فنزل قوله: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾؛ أي: باللّٰه شاهدًا بيّنًا أنّي رسوله، وكفى هو شاهدًا، ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ وشهادة اللّٰه له إثبات المعجزة له بإنزال الكتاب عليه، وعلمُه بما في السّموات والأرض بمعنى علمُهُ بالمخلوقات كلِّها؛ القيّوم عليها، وهذا دليل علمه بالسّرائر وخبايا النّفوس[6].

الآية من قبيل المجادلة بالّتي هي أحسن؛ وهي في عمومها وعد ووعيد

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (شهد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسر).
(3) الخليل، العين، والصّاحب بن عباد، المحيط في اللّغة: (خسر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خسر).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 248.
(6) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 423.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل الآية عن سابقتها:

التّلازم بين قضيّتي الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين

فُصِلَت هذه الآية عن سابقتها لكمال الانقطاع بين الآيتين؛ إذ لّما أوْضَحَ البيانُ القرآنيُّ رحمةَ اللهِ بالمؤمنين؛ بأنْ أنزل آياته تتلى عليهم، بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ الْتَفَتَ بعدها إلى حِجاجِ المُنكرين في هذه الآية بقوله: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾، ويمكن أن تكون جوابًا للسؤال السّابق في مطلع الآية السّابقة بقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

دلالة الأمر في قوله: ﴿قُلۡ﴾:

الاستشهاد بعلم الله سبحانه مناطُ الرجوع إلى النّفس والتّأمّل

خرج الأمر ﴿قُلۡ﴾ في قوله: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾ إلى معنى الإرشاد في حِجاجِ الكافرين والمعاندين، بأسلوب جديد لم تكن تَعْلَمُه تلك المجتمعات من قبل، وهو الاستشهاد بعلم اللّه سبحانه، وما يمكن أن يُحدِثَه ذلك من رجوع إلى النّفس والتّأمّل، فهم إن تَأمَّلوا في إيمانهم باللّه حقَّ التّأمّل وجدوا أنفسهم غير مؤمنين بألوهيَّتِه سبحانه؛ لأنّهم أشركوا معه ما ليس حقيقًا بالأُلوهيّة، فعلموا أنّهم كفروا باللّه، فتعيَّن أنَّهم آمنوا بالباطل، فالكلام موَجَّهٌ كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: 24][1].

بلاغة التّضمين في ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

حال المُنكرين لآيات الله مَثار التّعجيب

دخول الباء في قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ لتُضَمَّن ﴿كَفَىٰ﴾ معنى (اكْتَفِ)، وهو من الحُسنِ بمكان، قال الزّجّاج: "ودخلتْ لتُضَمَّنَ (كفى) معنى (اكْتَفِ)"[2]، وأكثر ما يكون ذلك للدّلالة على

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 18.

(2) ابن هشام، المُغني: 1/ 106.

التّعجّب[1]، ويكون التّعجّب من حال أولئك الّذين لا يشعرون بعظيم شأن اللّه بينهم، فهو الشّهيد على كلّ شيء سبحانه، و﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ بمعنى هو كافٍ لي في إظهار الحقّ.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

زيادة الباء للتّوكيد والتّعجيب

الباء في قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ زائدة، وزيادتها في فاعل كفى للتّوكيد، أي زيدت في العبارة لتوكيد مضمون الكلام فيها، وحروف الجرّ الزّائدة هي حروفٌ لا تحمل معنى حرف الجرّ العادي، كالباء مثلًا في قولنا: (لستُ بخاسر)، إذ الأصل: (لست خاسرًا)، لكنّ زيادة الباء في خبر ليس يفيد توكيد المعنى.

معنى الظّرفيّة في قوله: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾:

النّزاع بين الإيمان والكفر قائم على مرّ الزّمان

الشّهيد: هو الشّاهد، ولمّا ضُمِّنَ معنى الحاكم عُدّيَ بظرف ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾، قال الشّاعر الحارثُ بنُ حِلِّزَةَ اليَشْكُريُّ في عَمرِو بنِ هندٍ الملكِ:

وهوَ الرَبُّ والشَهيدُ عَلى يَو *** مِ الحَيارَينِ والبَلاءُ بَلاءُ[2]

ودلّ معنى الظّرفيّة على أنَّ النّزاع المستقبليّ لعموم أهل الأرض لن يخرج عمّا بيني وبينكم، فيكون في كلّ زمان دعاةٌ يدعون إلى الإيمان ومنكرون يُنكرونه فاللّه تعالى يكون شهيدًا بين هؤلاء وهؤلاء، ثمّ يكون بيننا يوم القيامة حاكمًا وشهيدًا سبحانه.

توجيه المتشابه اللّفظيّ في تقديم ﴿شَهِيدٗاۖ﴾:

اللّه تعالى هو الشّهيد العالم بما في السّموات والأرض

قال تعالى في سورة الرعد: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾ [الرّعد: 43]، وقال هنا في سورة العنكبوت: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ وذلك أنّه في العنكبوت لمّا وصف ﴿شَهِيدٗاۖ﴾ بقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ﴾

(1) السّامُرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 24.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 18، وينظر: ديوان الحارث بن حِلِّزَةَ الْيَشْكُرِيّ، ص: 70، 100.

ناسبَ تأخيرَه؛ لِتَتْبَعَ الصّفةُ الموصوفَ، ولا يطول الكلام بسبب الحائل فيمتنع حكمًا، وليس في سورة الرعد ولا في أمثالها صفة لشهيد، فجاء على القياس في غير ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الرعد: 43] ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾ [النساء: 81][1].

نكتة تنكير ﴿شَهِيدًاۢ﴾:

تعظيمُ شهادةِ ربِّ العِزَّةِ سبحانَه وتفخيمُها

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًاۖ﴾ نكّر ﴿شَهِيدًاۖ﴾ تعظيمًا وتفخيمًا لشأن شهادة الله سبحانه، فهو الشَّهيد الحقّ؛ لأنّه خالق السّموات والأرض وما فيهنّ، وخالق الحياة سبحانه، وهو عالم الغيب والشَّهادة، وهي أكبر وأعظم شهادة، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ [الأنعام: 19].

الموقع النّحويّ لقوله: ﴿شَهِيدًاۖ﴾:

حسبُ العبادِ شهادةُ الله

كلمة ﴿شَهِيدًاۖ﴾ في قوله تعالى ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًاۖ﴾ تُعرَب تمييزًا منصوبًا، والتّمييز في أصل الوَضْع الاصطلاحيّ اللّغويّ فرْزُ الشَّيء المقصود من بين كثيرٍ من المحتمَلات المبهمَةِ وعزلُها وإزالتُها عنه، وهنا في الآية تمَّ فرزُ كلمة ﴿شَهِيدًاۖ﴾ عن غيرها من المحتمَلات ثم أُزيلَتْ تلك المحتمَلاتُ الّتي سبَّبَتِ الإبهامَ فاتَّضَحَ المقصود وتبيّنَ المعنى، ويمكن معرفة الإبهام في الجملة من خلال قراءتها بعد حذف كلمة ﴿شَهِيدًاۖ﴾: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، وهذا يجعل العلاقة بين عناصر الجملة ناقصةً غيرَ واضحة؛ فيأتي التّمييز لتَوْضيحها وتَبْيينها وتَفْسيرها، ولولاه لظلَّتِ الجملة ناقصةً، ولَظلَّ المتلقّي حائرًا يقول: (كفى بالله ماذا؟)، وها هنا لَمّا دخلَتْ كلمةُ ﴿شَهِيدًاۖ﴾ على قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ ميّزت في الجملة أنّ شهادة الله هي المقصودة كونُها كافيةً بيننا، وأظهرَتْ نوعَ هذا الاكتفاء في قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾.

(1) الكَرْمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 167، وابن جَماعَة، كشف المعاني، ص: 236، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 295.

نكتة فصل قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾:

عظيم شأن الله تعالى وكمال علمه وقدرته مدعاةٌ للتّفكّر في عظيم شهادته

الفصل بين قوله: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾، وقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ لكمال الانقطاع بين الجملتين؛ إذ إنّهما قد اختلفتا في الخبريّة والإنشائيّة، واختلفتا في المعنى كذلك، وفائدة ورود الجملة الثّانية بعد الجملة الأولى هو لبيان شأن اللّه تعالى وعظيم علمه، ممّا يستدعي التّفكّر كذلك في عظيم شهادته سبحانه.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾:

علم الله بالمخلوقات مُطلق

دلّ قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ على علمه المطلق سبحانه، بالماضي والحاضر والمستقبل؛ لأنّه هو الخالق، وهو القيّوم على هذا الخلق، وجملة: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مُقَرِّرةٌ لمعنى الاكتفاء به شهيدًا، فهي تتنزّل منها منزلة التّوكيد[1]، وهو سبحانه العالم بكلّ ذرّة في هذا الوجود؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 16].

دلالة التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

وجود ما لا يُحصى من المخلوقات

الاسمُ الموصول ﴿مَا﴾ يُستعمل في الأغلب لغير العاقل، وعُبِّر به في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ للدّلالة على ما لا يُحصى من المخلوقات الموجودة في السّموات والأرض، وهو لبيان عظيم ما خلق اللّه في هذا الكون، وأنّ القيّوم على هذه المخلوقات كفى به شهيدًا على النّاس، قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57].

فائدة الظّرفيّة في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾:

السّموات هي الكون كلّه، وهي واقعة في علم الله

أفادت الظّرفيّةُ في قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 18.

الدّلالةَ على أنّ السّموات هي الكون كلّه وهي تضمّ المخلوقاتِ كلَّها؛ فهو سبحانه لا يخفى عليه شيء ممّا خَلَقَ، وأنّ الأرض جزء من هذه السّموات، فذِكْرُها بعد السّموات على سبيل ذِكْرِ الخاصّ بعد العامّ؛ لأنّ الإنسان هو الخليفة في الأرض؛ قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وهو المُخاطَبُ بهذا الكتاب المبين، فالأرض بمخلوقاتها واقعة في وعاء السّماء، ثمّ هي جميعًا في علم اللّه تعالى.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:

إحاطة علم الله بجميع ما خلق سبحانه

فائدة التّعريف بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استغراقُ كلِّ أفرادِ جنس السّموات والأرضين، والدّلالة على الشّمول والكمال وإحاطة علم اللّه بالسّموات والأرض جميعها، وبجميع مَنْ فيها مِنَ الكائنات والمخلوقات الحيّة وغيرها، أو هي من قبيل إيضاح ما لم يكن واضحًا للمخاطَب، فالسّموات السّبع لا زالت مجهولةً لعلماء الفلك إلى يومنا هذا، وهذا ما يقتضي دراستها والتّفكّر فيها، ولا زالت كذلك الأرض بمجاهلها وما تضمّه في باطنها خفيّةً على العلماء؛ مما يستدعي التّفكّر والتّدبّر أيضًا.

نكتة جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:

جمع السموات يدل دارسيها على عظمة الخالق من عظمة المخلوق، وإفراد الأرض يدل ساكنيها على حقارة الدنيا مقابل الآخرة

في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جُمعت السّموات وأُفرِدَتِ الأرض؛ ونكتة ذلك أنّ المخاطَب يعيش على الأرض، وهي أرض واحدة، وقد أخبر القرآن أنّ في هذا الكون سبعَ سمواتٍ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [تبارك: 3]، فذِكْرُ السّموات بالجمع، والأرضَ بالإفراد آتٍ من حيث أنّ سَعَةَ الأرض بالنّسبة إلى السّموات كحصاة في صحراء وذلك تحقيرًا لها في عيون ساكنيها، وأنّ خَلْقَ السّموات أعظمُ من خَلْقِ الأرض في عيون دارسيها، لأنّها

أعلى وأوسع، وأعظم وأرفع، وجمعها يدلُّ على عظمة خالقِها ومبدعِها سبحانَه[1].

بلاغة الطّباق بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

الجمع بين السّماوات والأرض دليل على سعة علمه جلّ في عُلاه

المطابقة بين السّموات والأرض واضحة في أمور عديدة، منها أنّ السّموات هي الجهة العليا للمخاطَبين، وأنّ الأرض هي الجهة الدّنيا، وأنّ السَّمواتِ جمعٌ، وأنّ الأرضَ مفردٌ، وأنّ السَّموات لا تنمو فيها الحياة، وذلك بخلاف الأرض؛ إذ جعلها اللّه تعالى مرتعًا للحياة وللمخلوقات الحيّة من النّبات والحيوان والإنسان، والجمعُ بينهما على ما يَضُمّانِه من مخلوقاتٍ دليلٌ على سَعَةِ علمه جلّ في عُلاه.

معنى الواو في: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

الإيمان بالباطل من عمل الجاهل والكفران مصيرُه الخسران

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: استئنافيّة؛ تفصل بين ما قبلَها وما بعدَها نحويًّا ومعنويًّا؛ فبعد أنْ ذَكَرَ اللّهُ قدرتَه وعظمةَ علمِه سبحانَه وإحاطتَه بكلِّ شيء، أَرْدَفَها هُنا بِبَيان مصيرِ غيرِ المؤمنين باللّه؛ وهم المؤمنون بالباطل جهلًا أو عِنادًا، فذَكَرَ أنّهم في خُسران وخَيبة، وضياع وحَيرة.

غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

الإيمان بالباطل عِلّة خُسران الجاهل

التّعبير بالاسم الموصول (الّذين) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ دالٌّ على عموم الّذين آمنوا بالباطل وكفروا باللّه، ومهما اختلفت أساليبهم ومناهجهم فإنّهم خاسرون حتمًا، وفي التّعبير بالموصول وصلته تشويقٌ لما يَرِدُ بعدَه من الحكم المناسب للصّلة، وهو الخسران، وإيماءٌ إلى علّته، أي: لأجل إيمانهم بالباطل.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ دلّ على الإلصاق والمصاحبة.

---

(1) منّاع القطّان، مباحث في علوم القرآن بتصرّف، ص: 205.

فهم يؤمنون بالباطل، ملتصقون به؛ لأنّه مُعارِضٌ للحقِّ ولقضية الإيمان والتّوحيد.

معنى (أل) في ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

الباطل كلُّ ما عُبِد من دون الله ومُنافاته للإيمان ظاهرة للعيان

(أل) التَّعريف في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ لاستغراق الجنس، ودلّت على عموم ما هو معارِضٌ لكتاب اللّه، وآياته البيّنات؛ ليشمل كلَّ معبوداتِهم من دون اللّه؛ لأنّ كلّ معبودٍ ما سوى اللّهِ باطلٌ، فالباطلُ كلُّ ما هو منافٍ للإيمان باللّه وبرسوله.

دلالة لفظ الباطل على المحذوف:

التّوسّع في شمول أنواع المعبودين من غير الله

قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ فيه دلالة على الموصوف المحذوف والتقدير: آمنوا بمعبودهم الباطل، وهو كلّ ما عُبد من غير اللّه تعالى، ودلّ الباطل على أصناف تلك المعبودات الّتي قد تكون عينيّةً، فتكون حجارةً تُعبَد أو حيوانًا يُتَّخَذ بركةً ويُعتقَد منه النّماء، أو غيرَ عينيّةٍ كمن اتّخذ إلهه هواه، والاكتفاء بالمذكور دون ذِكرِ المعبود توسّعٌ في الدّلالة دالٌّ على الشّمول.

معنى العطف بالواو في: ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾:

عطفٌ يَكِرُّ على المعطوف عليه؛ بِبَيانِ قُبحِ ما هو عليه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ للعطف، وهذا العطف جاء لفائدةٍ غيرِ التّأكيد، بل لبيان قبح الإيمان بالباطل، فإذا كان الإيمان بما سوى اللّه تعالى كفرًا به، فإنَّ كلّ من آمن بالباطل فقد كفر باللّه تعالى، فذِكْر الثّاني معطوفًا على الأول إنما هو لبيان قبح ذاك الأوّل، كقولنا لأحدهم: أتقول بالباطل وتترك الحقّ؛ وذلك لبيان أنّ قوله بالباطل قبيح مرذول[1].

فائدة المقابلة بين الإيمان والكفر:

تقريرٌ لقاعدةٍ تجعل الإيمانَ بالباطل كفرًا بالله

في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ بلاغةُ المقابَلة بين (الإيمان بالباطل) و(الكفر باللّه) في ذات الجملة؛ وذلك

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 66.

لتقرير قاعدةٍ مفادُها أنّ أيّ إيمانٍ بغير اللّه هو إيمانٌ بالباطل، وأنّ مَن آمن بالباطل فقد كفر باللّه؛ حتّى وإنِ ادّعى عدم إيمانه بأيِّ خالقٍ؛ كالملحدين ومن سار على شاكلتهم، فهم يؤمنون بباطلٍ يُسَمّونه الطّبيعة.

بلاغة الإطناب في إتْباع (الإيمان بالباطل) بـ(الكفر بالله):

كفرهم بالله لإشراكهم مع الله في الأُلوهيّة

في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾، تَمَّ ذِكْرُ الكفر باللّه بعد الإيمان بالباطل، مع أنّ الإيمان بالباطل هو كفرٌ باللّه؛ وذلك نوعٌ من الإطناب فائدتُه أنّ كفرَهم باللّه لإشراكِهم مع اللّه في الأُلوهيّة، فكفروا بأعظم صفاته جلّ وعزّ، وهي الوحدانيّة، فكانوا مشركين غير موحّدين.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

تَقَصُّدُ الكفرِ بالله وبما أتى منه سبحانه

الباء في ﴿بِٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ للإلصاق، وفائدتها أنّ هؤلاء القوم يُلصقون كلَّ أفكار الكفر باللّه، أو بما أتى من اللّه تعالى من الكتاب والرّسالات والرّسل، فيَقْصِدون الكفر باللّه تعالى، ويُعْرِضون عن الآيات البيّنات الّتي أتت منه تعالى.

بلاغة الطّباق بين ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَكَفَرُواْ﴾:

إيمانٌ يُنبَذ، وكُفْرٌ يُؤْخَذ

قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ من لم يَعُدَّه من قبيل المُقابلة، فقد جعل الجمع بين ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَكَفَرُواْ﴾ طباقًا كونه محسّنًا بلاغيًّا أيضًا، والباطل: ضِدُّ الحقِّ؛ أي ما ليس بحقيقٍ أنْ يؤمن به؛ أي ما ليس بإلهٍ حق؛ ولكنهم يدَّعون له الألوهيّة؛ وذلك لإيمانهم بألوهيّة الأصنام، وأمّا كفرهم باللّه فلأنّهم أشركوا معه في الألوهيّة فكفروا بأعظم صفاته وهي الوحدانيّة[1].

نكتة فصل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:

الخسران عاقبة الكفران

الفصل بين الجملتين لكمال الاتّصال بينهما؛ فالجملتان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 18.

خبريّتان، ومتّفقتان في المعنى؛ إذ أتت الجملة الثّانية مُبيّنة وموضّحة للأولى، بوصفها وصفًا مستحقًّا للإيمان بالباطل والكفر باللّه.

دلالة التّعبير باسم الإشارة البعيد:

المشار إليهم الخسران حريٌّ بهم

واسم الإشارة يفيد التّنبيه على أنّ المشار إليهم حَريّون بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة لأجل الأوصاف الّتي ذُكِرَتْ لهم قبل اسم الإشارة مثل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5][1]، فضلا عمّا فيه من دلالة البعد عن كلّ خير.

بلاغة الحصر في جملة الفاصلة:

الإيمانُ بالباطلِ والكفر بالله جِلْدٌ من طَرفَينِ، وزَيْفٌ من وجْهَينِ

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ يقتضي الحصر؛ أي مَنْ تلبَّس بالباطل إيمانًا، وبالخالق كفرًا فهو الهالك خُسرًا، والظنّ بأنّ مَن يأتي بأحدهما دون الآخر ينبغي ألّا يكون خاسرًا؛ يجاب بأنّ عملَه جِلْدٌ من طرفين، وزَيْفٌ من وجهين؛ إذ يستحيل أن يكون الآتي بأحدهما لا يكون آتيًا بالآخر[2].

بلاغة القصر بالتّعريف:

كلّ خُسران في جانب خُسران الله تعالى كالعدم

القَصرُ المُستَفادُ من تَعريفِ جُزْأيْ جُملةِ ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ قَصْرٌ ادّعائيٌّ لِلمُبالغةِ في اتِّصافِهم بِالخُسرانِ العظيم بحيث إنَّ كُلَّ خُسرانٍ في جانِبِ خُسرانهم كالعدَم، فكأنّهمُ انْفردوا بالخسران؛ فأُطلِقَ عليهمُ المُرَكَّبُ المُفيدُ قَصْرَ الخُسرانِ عليهم وذلك لأنَّهم حَقَّتْ عليهمُ الشَّقاوَةُ العُظمى الأبديَّةُ، واستُعيرَ الخُسرانُ لانْعكاسِ المأمولِ مِنَ العملِ المُكِدِّ تَشبيهًا بِحالِ مَنْ كَدَّ في التِّجارةِ لِيَنالَ مالًا فأَفْنَى رَأْسَ مالِهِ[3].

بلاغة التّوكيد في جملة الفاصلة:

لا ربح لمن لا يؤمن بالله الواحد الأحد

أكّد سبحانه وتعالى الخسران في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 18.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 65.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 17 - 18.

﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، بمؤكّداتٍ ثلاثةٍ أوّلُها: التّعبير بالجملة الاسميّة، ففي التّعبير بها تعبير بأكمل القول الدّالّ على الاستمرار، وثانيها: التّأكيد بكلمة ﴿هُمُ﴾، وهي تدلّ على انفرادهم بالخسارة دون المؤمنين بوصفهم الرّابحون دائمًا، وثالثها: تعريف المسند والمسند إليه الدّالّ على القصر؛ أي إنّهم مقصورون على الخسارة، فلا يربحون أبدًا ما داموا قد آمنوا بالباطل وكفروا بالإله الحقّ، والمعبود الواحد الأحد.

دلالة التّعبير بـ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ مادّة وصيغة:

اكتمال خسران المعاندين الضّالّين

الخُسْران هو النّقص فيما شأنه النّماء وعبّر بالخسران؛ لأنّ الفوز والنّجاة لا يكون إلا بالإيمان باللّه، فلمّا نقضوه بإهمال العقلِ عن النّظر واقتناصِ ما يفيدُهمُ الحياةَ الأبديةَ واستبدالِ الإنكار والطّعنِ في الآيات بالإيمان بها والتّأملِ في حقائقها والاقتباسِ من أنوارها حَبِطَ عملُهم[1]، والتّعبير عنه باسم الفاعل دلالةٌ على كمالهم في الوصف وعراقتهم فيه لأنّهم اشتروا الكفر بالإيمان.

بلاغة الاستعارة في ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:

استعارة الخسران لانعكاس المأمول

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ يعني: المغبونون في صَفْقَتِهم حيث اشْتَرَوُا الكفرَ بالإيمان فاستوجبوا العقاب يوم الحساب، وفي الكلام استعارة مكنية شبه استبدال الكفر بالإيمان المستلزم للعقاب باشتراء مستلزم للخسران[2]، فاستعير الخسران لانعكاس المأمول من عمله[3]، وفي الخسران استعارة تخيّليّة هي قرينَتُها؛ لأنّ الخسران مُتَعارَفٌ في التّجارات، وهذا الكلام ورَدَ مَوْرِدَ الإنصاف حيث لم يصرّح بأنّهم المؤمنون بالباطل الكافرون باللّه تعالى؛ بل أبرزه في معرض العموم، ليهجم به التّأمل على

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 1/ 76، 211.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 18.

المطلوب؛ فهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: 24][1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخُسران والوَضيعَة:

كمالُ الخسران وتمامه عبادة غير الله

الوضيعة: (وَضَعَ) الواوُ والضّادُ والعَيْنُ: أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الخَفْضِ لِلشَّيءِ وحَطِّه، ووضَعْتُهُ بالأرضِ وضْعًا، ووضَعَتِ المَرأةُ ولَدَها[2]، والمعنى المحوريُّ الهويُّ بالشَّيءِ إلى مَقَرٍّ مُنْخفضٍ يَثْبُت فيه عن حيّز عالٍ كان فيه، ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [الغاشية: 14]، وضَعَ الشَّيءَ من يدِه: ألْقاه، ووضَع الشَّيءَ: ضِدُّ رَفَعه، ووَضَعَ الشَّيءَ في المكان: أثْبته فيه[3].

الخسران: (خَسِرَ) الخاءُ والسِّينُ والرّاءُ أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ[4]، وكِلْتُه ووزَنْتُه فأخْسَرْتُهُ، أي: أنْقَصْتُه، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق: 9]؛ أي: نَقْصًا[5].

والوضيعة ذهابُ بعض رأس المال، ولا يقال لمن ذهب رأسُ مالِه كلُّه قد وضَعَه، أما الخسران فذهاب رأس المال كلّه، ثمّ كثر حتّى سُمّي ذهابُ بعض رأس المال خُسرانًا، وقال اللّه تعالى ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: 12]؛ لأنَّهم عُدِموا الانتفاع بها، فكأنَّها هلكت وذهبت أصلًا، فلم يقدر منها على شيء[6]، وقوله في الآية: ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي بأتمّ وجوه الخسران، وهذا لأنّ من يخسر رأس المال ولا تركبه ديونٌ يطالَب بها؛ دون مَن يخسر رأس المال وتركبه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 9.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وضع).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وضع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، (خسر).
(5) الخليل، العين، والصّاحب بن عباد، المحيط في اللّغة: (خسر).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 574.

تلك الدّيون، والكافرون لمّا عبدوا غير الله تعالى أَفْنَوُا العُمُرَ ولم يحصل لهم في مقابلته شيءٌ ما أصلًا من المنافع، واجتمع عليهم ديون تَرْكِ الواجبات يطالَبون بها حيث لا طاقة لهم بها[1]، فهذا هو الْخاسِرُ الّذي نَقَصَ نَفْسَهُ حَظَّها مِنَ الْفَلاحِ والْفَوْزِ، فقد خَسِرَ نَفْسَهُ وأَهْلَهُ يَوْمَ الْقيامَةِ ومُنِعَ مَنْزِلَهُ مِنَ الجَنَّةِ[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 66.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 248.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ
وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ
وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٥﴾ [العنكبوت: 53 - 55]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

مجادلة الكافر للصدِّ عن الحقِّ لا للوصول إليه

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة مجادلة الكافرين في آيات الكتاب، وطلَبَهم الإتيانَ بمعجزاتٍ مادّيَّةٍ كفرًا وعنادًا، وحُكِم عليهم بالخسارة، ناسب الانتقال إلى صورة أخرى من صور كفرهم بعد ذكر جدالهم، ألا وهو استهزاؤهم، المترجَم عنه باستعجال العذاب، فهو انتقال من ذكر جدالهم في طلب المعجزات، إلى ذكر استهزائهم بنزول العذاب، وقد بيَّنتِ المناسبة أنَّهم يُجادلون للصدِّ عن الحقِّ لا للوصول إليه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾: (عجل) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِسْراعِ[1]، والعَجَلُ والعَجَلَة: السُّرْعة خِلافُ البُطْء، والاسْتِعْجال والإِعْجال والتَّعَجُّل: بِمَعْنَى الاسْتِحْثاث وطَلَبِ العَجَلة، وأَعْجَلَه وعَجَّلَه تَعْجيلًا إذا اسْتَحَثَّه، وقَدْ عَجِلَ عَجَلًا وعَجَّلَ وتَعَجَّلَ، واسْتَعْجَلَ الرجلَ: حَثَّه وأمره أن يَعْجَل في الأمر[2]، والعَجَلَةُ: طلب الشيء وتحرّيه قبل أوانه، وهو من مقتضى الشّهوة، فلذلك صارت مذمومة في عامّة القرآن، قال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾ [الأنبياء: 37][3]، ومعناه في الآية الكريمة: يطلبون تعجيلك[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عجل).
(3) الراغب، المفردات: (عجل).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 462.

2) ﴿أَجَلٌ﴾: (أجل) أصلُ الأجَلِ: غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيرِه، أجِلَ هذا الشَّيءُ وهو يأْجَلُ، والاِسمُ الآجِلُ نَقيضُ العاجِلِ، والأجيلُ المُرْجَأُ، أي: المُؤَخَّرُ إلى وقْتٍ، والآجِلَةُ: الآخِرَةُ[1]، يُقالُ: دَيْنُهُ مُؤَجَّلٌ، وقد أجَّلْتُهُ: جعلتُ لَه أجَلًا، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبة لحياة الإنسان: أجَلٌ، فيُقال: دنا أجلُه، عِبارة عن دنوِّ الموت[2]، والمقصود بالأجل في الآية: يوم القيامة، وقيل: يوم بدر، وقيل: أعمارهم[3].

3) ﴿مُّسَمًّى﴾ (سما) المُسَمَّى: مَأخوذٌ مِنَ الاسم، وهو: ما يُعرَفُ به ذاتُ الشَّيءِ، وأصلُهُ مِنَ السُّموِّ، وهو: العُلوُّ والارتِفاعُ، يُقال: سَما، يَسمو، سُموًّا: إذا ارتَفَعَ، وسَما به وأسماهُ: أعلاهُ، وإنَّما جُعِلَ الاسمُ تَنويهًا على الدّلالَةِ على المعنى؛ لأنَّ المَعنى تَحتَ الاسمِ[4]، والمقصود بالمُسَمَّى: المُعَيَّنُ؛ لأنَّ التَّسميَةَ تعيينُ الشَّيءِ[5].

4) ﴿بَغْتَةً﴾: (بغت) أصْلٌ غير مقيس، مِنْهُ الْبَغْتُ، وهوَ أنْ يَفْجَأ الشَّيْءُ[6]، البَغْتُ والبَغْتَةُ: الفَجْأة، وفي التَّنْزيلِ الْعَزيز: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأةً، وقَدْ بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بَغْتًا: فجِئَه، وباغَتَه مُباغتةً وبِغاتًا: فاجأه[7]، وهو يدلّ على مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب، قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: 187][8]، فالمراد الفجأة.

5) ﴿لَمُحِيطَةٌۢ﴾: (حوط - حيط) أصلٌ وهوَ الشَّيْءُ يُطيفُ بالشَّيْءِ، فالْحَوْطُ مِنْ حاطَهُ حَوْطًا، وحَوَّطْتُ حائِطًا، والْحَوْطُ: شَيْءٌ مُسْتَديرٌ تُعَلِّقُهُ الْمَرْأَةُ عَلَى جَبينِها مِنْ فِضَّة[9]، الحائِطُ: واحد الحيطانِ، وحَوَّطَ كَرْمَةُ تَحْويطًا: بنى حوله حائِطًا، فهو كَرْمٌ مُحَوَّطٌ، وقد حاطَهُ يَحوطُهُ حَوْطًا وحيطَةً، أي كَلَأَه ورعاه[10]، والحائط: الجدار الذي يَحوط بالمكان، والإحاطة تقال على وجهين: أحدهما: في الأجسام نحو: أَحَطْتُ بمكان كذا، أو تستعمل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(2) الراغب، المفردات: (أجل).
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 411.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سما).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 191.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغت).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (بغت).
(8) الراغب، المفردات: (بغت).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوط).
(10) الجوهري، الصحاح: (حوط).

في الحفظ نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت: 54]، أي: حافظ له من جميع جهاته[1]، والمقصود في الآية أنّ النّار جامعة لهم[2].

6) ﴿يَغۡشَىٰهُمُ﴾: (غشى) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، يُقالُ غَشَّيْتُ الشَّيْءَ أُغَشّيه، والْغِشاءُ: الْغِطاءُ[3]، غَشيَهُ غِشاوَةً وغِشاءً: أتاه إتيان ما قد غَشيَهُ، أي: سَتَره، والْغِشاوَةُ: ما يُغَطّى به الشيء، قال: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ [الجاثية: 23]، وغَشَيْتُ موضع كذا: أتيته، وكنّي بذلك عن الجماع، يقال: غَشّاها وتَغَشّاها. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ﴾ [الأعراف: 189]، وكذا الْغِشْيانُ، والْغاشِيَةُ: كلّ ما يغطّي الشيء كَغاشيَةِ السّرج، وقوله: ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ﴾ [يوسف: 107] أي: نائبة تَغْشاهُمْ وتُجَلِّلُهم[4]، وقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾ [الغاشية: 1] كناية عن القيامة لأنها تغشى الناس، أي تحيط بهم وتشملهم، فلا يفلت منها أحد منهم، والمعنى أنه يغشاهم هولها[5]، والمراد به في الآية الكريمة: يغطّيهم العذاب من كلّ جهة من جهاتهم[6].

7) ﴿ذُوقُواْ﴾: (ذوق) أَصْلٌ يدلّ على اخْتِبارِ الشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّم، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ مَجازًا فيُقالُ: ذُقْتُ الْمَأْكولَ أذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عِنْدَ فُلانٍ: اخْتَبَرْتُهُ، وكُلُّ ما نَزَلَ بِإِنْسانٍ مِنْ مَكْروهٍ فقَدْ ذاقَهُ[7]، الذَّوْقُ: مَصْدَرُ ذاقَ الشيءَ يذوقه ذَوقًا وذَواقًا ومَذاقًا، فالذَّواق والمَذاق يَكونانِ مَصْدَرَيْنِ ويَكونانِ طَعْمًا، كَما تَقولُ ذَواقُه ومذاقُه طَيِّبٌ؛ والمَذاق: طَعْمُ الشَّيْءِ، والذَّواقُ: هوَ المأكول والمَشْروبُ[8]، والذّوق: وجود الطَّعْم بالفم، وأصله فيما يَقِلّ تناوله دون ما يَكْثُر، فإنّ ما يكثر منه يُقال له: الأكل، واختير في القرآن لفظ الذَّوق في العذاب؛ لأنّ ذلك - وإن كان في التّعارُف للقليل - فهو مُسْتَصْلَحٌ للكثير، فخصَّهُ بالذّكر ليَعُمَّ الأمرين، وكَثُر استعماله في العذاب[9].

(1) الراغب، المفردات: (حيط).
(2) ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ص: 288.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشى).
(4) الراغب، المفردات: (غشي).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (غشي).
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 323.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(9) الراغب، المفردات: (ذوق).

المَعنى الإجْماليُّ:

مقابلة الاستهزاءِ القائم على الباطل باستهزاء قائم على الحقِّ؛ عدلٌ وتأديب

تُبيِّن الآيات الكريمة حال المشركين إذ قالوا للنّبيّ ﷺ على سبيل التّهكّم والاستهزاء: إن كان هذا حقًّا فأتنا به، فأجابهم بأنّه لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجّل باستعجالكم؛ لأنّ اللّه تعالى قد أجّله إلى موعد يأتي في وقته وذلك لحكمة، ولولا ذلك الأجلُ المسمَّى، الذي اقتَضَتْه حكمتُه تعالى، لعجّله لكم ولأوقَعَهُ بكم، وإنّه سيأتيكم فجأةً وأنتم لا تشعرون به، ثم بَيَّن أنّ ذلك يثير العجب، فكيف يطلبون التّعجيل بالعذاب وهو سيُحيط بهم من كلّ نواحيهم، ويقال لهم على طريق الإهانة والتوبيخ: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون؛ فأخبر بذلك عن جهلهم وحماقتهم، ثم وصف تعالى كيفيَّةَ إحاطة العذاب بقوله: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: يوم يَعُمُّهُم العذاب ويُغَطّيهم من كل الجوانب، ويقال لهم في ذلك اليوم تقريعًا وتوبيخًا: ذوقوا جزاءَ ما كنتم تعملون في الدنيا من كفرٍ ومعاصي[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها الارتباطيّة:

تَحْتَمِلُ الواو العطفَ للاستقصاء أو الاستئناف للتعجب

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ إمّا أن تكون من عطف الجملة على الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ [العنكبوت: 50]، لغرض الاستقصاء في الرّدّ على شبهات المشركين، وإبطال أعذارهم عن إعراضهم، فإعراضهم كائن عن مكابرة لا عن عدم وضوح الحُجَج[2]، وإمّا أن تكون استئنافيّة، فتكون الجملة استئنافًا ابتدائيًّا مسوقًا للتّعجيب منهم، أو الاستهزاء بهم[3].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 21/ 12.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 18.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 453.

غرض التّعبير بصيغة المضارع:

الاستعجالُ المتجدِّد عنادٌ على الكفر وإصرارٌ على الباطل

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة الفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ لما في المضارع من دلالة على التّجدّد، أي إنّهم دائمون على طلب التّعجيل، فيطلبون من النّبيّ ﷺ تعجيل العذاب بكلّ وقت[1]، ودلَّت صيغة المضارع على عنادِهم في كفرهم، فاستعجالهم الدّائم الذي لا يفترون عنه، هو لونٌ من ألوان العناد والإصرار على الشرك، ولذا آثر النَّظم الكريم صيغةَ المضارع على الماضي، ليكون بيانًا في سبب عذابهم، لا إخبارًا عمّا صدر عنهم فحسب، وتحتمل صيغة المضارع أن تكون لاستحضار حال استعجالهم لإفادة التعجيب منها[2].

نوع الباء ومعناها:

استعمل النّظم الجليل حرف (الباء) في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ وهو مستعمل للتّعدية؛ أي: يطلبون منك تعجيل العذاب، فيكون التّعجيل واقعًا على العذاب.

معنى تعريف لفظ ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾:

تعيين نوع اللام عائدٌ إلى تفسير الألفاظ

عُرِّف (العذاب) بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ والتّعريف هنا تعريف الجنس[3]، أي جنس العذاب، فيشمل أي عذاب ممكن أن ينزله الله تعالى فيهم، وهذا يُظْهِر مدى سُخْفِهم واستهزائهم، ويَحْتَمِل أن يكون للعهد إذا جعلنا استعجالهم لعذابٍ مخصوصٍ كعذاب القيامة الذي يُنكرونه؛ فهم يستعجلونه مع إنكاره فيكون من باب التَّهكم والاستهزاء.

نوع الواو ودلالتها السّياقيّة:

عطف النّظم الجليل جملة: ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 462.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 18.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 18.

على استعجالهم العذاب؛ فبعد أن ذكر استعجالهم نزول العذاب، بيّن حكمته في تأخير عذابه عنهم بأنّ اللّه تعالى لم يجعله وفْقَ طلبهم، ولكن بأجَلٍ يعلمه هو[1]، فقد أبطل ما قصدوه من الاستعجال بقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ وذلك أنَّ حلولَ العذاب ليس بيد الرسول ﷺ، ولا جاريًا على طلبهم واستبطائهم، فإنَّ اللّه هو المقدّر لوقت حلوله بهم في أجل قدَّره بعلمِه[2].

إبطال الاستعجال بوجود الأجل المسمّى المبني على حكمته سبحانه

فائدةُ استعمال (لولا) الشّرطيّة:

استعمل النّظم الجليل حرفَ الشّرط (لولا) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ وهو دالّ على امتناع لوجود[3]، أي امتنع الفعل الكائن في الجواب ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ لوجود الشّرط ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾، أي: لم يأتهم العذاب بسبب وجود الأجل المسمّى، وهذا ردٌّ عليهم إذ إنّ طَلَبَهمُ التّعجيلَ بالعذاب ليس منوطًا بالنّبيّ ﷺ، بل بتقدير اللّه تعالى، وفائدة الشّرط أنّه عَلَّقَ عدم نزول العذاب بعلّة وجود الأجل، وهذا يُفْصِح عن أنّ العذاب لا ينزل وفق سؤالهم، بل بما قدّره اللّه تعالى.

منعُ نزولِ العذاب منوطٌ بعلّة وجود الأجل

نكتة تنكير لفظ ﴿أَجَلٞ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿أَجَلٞ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ تفخيمًا لشأن هذا الأجل، فإنَّ الاستهانة به لا تصدر إلّا عن غافلٍ لا يَرْقُبُ الحقيقة الواقعة، ولا يبحث عن الحقِّ الآتي، وهو واقع في الجملة موقع المسند إليه[4]، فالجملة الواقعة شرطًا جملة اسميّة، والتّقدير: (أجلٌ مسمّى موجودٌ).

فخامةُ الأجل المسمّى لا يستهين بها إلّا غافل

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 50.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 18.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 453.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 453.

نكتة التّعبير باسم المفعول:

اتّحاد الفاعل في تعيين السبب المانع من العذاب دليل القدرة على إنزاله

جاء التَّعبير بصيغة اسم المفعول في قوله جلّ شأنه: ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ دون أن يقول: (أجل سمّاه اللّه تعالى)؛ للعلم بأنَّ الذي سمّاه هو اللّه تعالى، وللإيماء إلى أنَّ الذي سمّاه هو الذي سيُنزل العذاب بهم، فاتّحاد الفاعل في تعيين السَّبب المانع من إنزال العذاب، دليل القدرة على أنَّ العذاب في مقدوره سبحانه وتعالى، لا في مقدورِ غيره، ولبيانِ أنَّ المانع إنَّما يكون لحكمةٍ قدَّرها اللّه تعالى.

بلاغة الاستعارة في لفظي ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾:

اجتماع التّصريحيَّة والمكنيّة في تركيبٍ وصفيٍّ من بديع الاستعارات

لفظ ﴿مُّسَمًّى﴾ في قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ كناية للمعيّن المضبوط من باب ضبط الأمور غير المشخّصة بعددٍ معيَّن، أو وقت محسوب، والمقصود بالتّسميةِ تعيينُ وقتِ مجيء الأجل، فيكون الأجلُ كشخص له اسمٌ مسمّى ليميزه عمّا شابهه[1]، وبعبارة أخرى فقد شبَّه الأجل بالشخص الذي يتعيّن له اسم، على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية، فيكون لفظ ﴿أَجَلٌ﴾ استعارة مكنيّة لكونه حذف المشبّه به وهو الشخص، وأبقى لازمة من لوازمه وهي التسمية.

نوعُ اللّام ومعناها الارتباطي:

امتناعُ مجيء العذاب مرتبط بوجودِ الأجل المسمّى

اللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ رابطة لجواب لولا[2]، وإنّما أحوج الرّبط لاستقلال الجملة بذاتها وعدم افتقارها لما قبلها، فجيء باللّام لبيان أنّ هذه الجملة مرتبطة بالشّرط السّابق لها، وإنّما ربط باللّام دون الفاء كما في غيره من أدوات الشّرط لتأكيد وقوع النّسبة المعلّقة بين الشّرط والجواب، فإنّ القدرة تامّة والعلم محيط[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 199.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 9.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 462.

بلاغة المجاز في جملة ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾:

تشخيصُ حضورِ العذابِ أوضحُ في الإبانةِ وأرسخُ في البيانِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ مجازٌ عقليٌّ واستعارة، ففي إسناد المجيء إلى العذاب مجاز عقليّ، إذ العذابُ لا يجيء بنفسِه، والمجيء يدلّ على الانتقال من موضع إلى موضع آخر يستقر فيه، والمعنى لجاءهم الله بالعذاب ليُهلكهم.

وفي لفظ ﴿ٱلۡعَذَابُۚ﴾ استعارةٌ مكنيَّة، إذ شبّه العذاب بشخص يجيء، وحذف الشّخص وأبقى المجيء الدّالّ عليه، والجامع بينهما الحضور والحلول، والمراد تشخيص العذاب وتأكيد مجيئه وحلوله، فهو واقع مشاهَد كمجيء الشّخص الذي يُرى.

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلۡعَذَابُۚ﴾:

عرّف النّظم الجليل العذاب بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ والتّعريف هنا تعريف العهد الذِّكريّ، أي العذاب الذي استعجلوه المذكور آنفًا.

نوعُ الواو ودلالتها:

الاحـــتراسُ من أوهـامِ الأفـهـامِ بتأكيدِ الإتيانِ

افتتح النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً﴾ بالواو وهي إمّا أن تكون عاطفة[1] أو استئنافيّة مبينة للجملة السّابقة من مجيء العذاب، عند حلول الأجل المسمّى، والقسم محذوف، أي: وباللّه ليأتينَّهم العذابُ الذي عُيِّن لهم عند حُلولِ الأجلِ[2]، والغرضُ من الاستئناف بجملة القسم تأكيدُ نزول العذاب، بهم، واحتراسًا عن الفهم المُعْوَجِّ عن الحقيقة في عدم إتيان العذاب.

نكتة تتابع التّأكيد:

عـنـد مـجـيء الإنـكـار تتكاثر المؤكِّدات

اجتمعتِ المؤكّداتُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً﴾ من مثل القسم ولام القسم، ونون التّوكيد: تقويةً للخبر، وردًّا على إنكارهم

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 453.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 44.

عدمَ نزول العذاب واستعجالهم به، فإنَّ إنكارهم مجيءَ العذابِ يُناسبه التَّوكيد بأكثر من أداة.

دلالة صيغة المضارع:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع المقترن بلام القسم في قوله تعالى: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ﴾ للدّلالة على أنّه كائن في المستقبل، ولتصوير حالة إتيانه.

نكتة العدول عن لفظ المجيء إلى الإتيان:

صعوبة الوقوع في المهالك ليست كسهولةِ تصورها

عدل النّظم الجليل عن لفظ المجيء المذكور في قوله تعالى: ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ إلى لفظ الإتيان المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ لبيان الفرق بين مجيء العذاب المتصوَّر وقوعُهُ وما ينشأ عنه من إهلاك عام، وبين إتيانه في المستقبل الذي ينكره المشركون، للإيماءِ إلى سهولته فهو ليس بممتنعٍ عنهم، وللإشارة إلى سرعته ومباغتته من حيث لا يشعرون.

بلاغة استعمال مفردة ﴿بَغۡتَةٗ﴾:

مباغتةُ العذاب عذاب معنويٌّ ممزوجٌ بالحسيّ

عبّر النّظم الجليل بلفظ ﴿بَغۡتَةٗ﴾ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ﴾ عن كيفيّة مجيء العذاب، فهو وصف لكيفيَّة مجيء العذاب وحلوله بأنّه يأتي مباغتًا للإنسان فيَبْهَتُه من حيث لا يحتسب[1]؛ وهذا عذابٌ معنويٌّ ممزوجٌ بالحسيّ، وفائدة الإخبار بمجيء العذاب بهذه الحال لنَفْيِ الاتّكال، فلو كان وقت العذاب معلومًا للنّاس لاتّكلوا على بُعده، فباشروا المعاصي في الوقت قبل وقت نزوله، فيعمّ الفسوق والفجور بالاعتماد على إيقاع التّوبة قبل حلول العذاب المعلوم[2].

غرض تنكير لفظِ ﴿بَغۡتَةٗ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿بَغۡتَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ﴾ تهويلًا

(1) الراغب، المفردات: (بغت).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 68.

لشأنها[1]، ومعنى الفخامة هنا أنّ تغييب موعد العذاب يدفع النّاس للتّعجيل بالإيمان، فكانت عظيمة الفائدة والأثر.

فائدةُ واو الحال:

مباغتةُ العذاب مقصودةٌ في الوقوع

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ واو الحال[2]، والجملة حاليّة مفيدة لتأكيد معنى المباغتة، فالعذاب لا يأتيهم بطريق التّعجيل، بل مفاجئًا مباغتًا من حيث لا يشعرون[3].

بلاغةُ التعبير بصيغة المضارع المنفي:

الرّاسخون في الغفلة لا يحيدون عنها بسبب ران القلوب

وسّط النّظم الجليل حرف النّفي بين المسند إليه والمسند الفعليّ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ للدّلالة على ثبوت النّفي وتجدُّدِه، فالجملة الاسميّة دالّة على ثبوت المعنى وتأكيده، ثمّ دخول النّفي على الفعل المضارع يدلّ على تجدّد النّفي واستمراره، فكانت دلالةُ الجملة الدّوامَ والثّباتَ والتّجدّدَ، فانتفاءُ شعورهم بحلول العذاب وجَهْلُهم بأجله؛ دائمٌ مستمرٌّ، وذلك تأكيد لتحقيقِ مفهوم المباغتة في نزول العذاب.

نكتة فصل الجملة:

تأكيد المعاني الكليّة المغفول عنها بمثيلاتها إيقاظٌ للغافلين

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لأنّها مستأنَفَةٌ سيقَتْ لبيانِ جهلهم، وتأكيدِ انحرافهم عن الطّريق السّليم، ببيان استعجالهم عذابَ الآخرة، مع أنَّ العذابَ محيطٌ بهم لا مفرَّ لهم عنه[4]، فهي لتأكيد الجملة السّابقة، وبيان مضمونها.

فائدة تكرار جملة الاستعجال:

استعجال العذاب دالٌّ على الغفلةِ الرّاسخة

كرّر النّظم الجليل لفظ الاستعجال في قوله جلّ شأنه: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ تقبيحًا للعذابِ[5]، مع ما فيه من التَّعجيب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 463.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 9.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 44.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 44.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 323.

من فعلهم، وتهديدهم بأنّ عاقبتهم نارٌ محيطة بهم لا فرارَ منها، كما أنّ تَكْرار الفعل يدلّ على أنّهم كانوا يكثرون من طلبهم تعجيل العذاب، وبتكرار استعجالهم ناسب تكرار تهديدهم.

نكتةُ التّعبير بصيغة المضارع:

الغافل العنيد تتجدّد غفلتُه بتجدُّدِ عناده

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة الفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ للدّلالة على تجدّد طلبهم ذلك، وبيانًا لاستمرارهم على الاستهزاء والصّدّ عن آيات اللّه تعالى، وفيه دلالة على تصوير حالتهم بتكرار طلب التّعجيل تعجيبًا من عُتوِّهم.

نوع الباء ودلالتُها:

استعمل النّظم الجليل حرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ لتّعدية فعل الاستعجال؛ أي يطلبون منك العذاب.

معنى تعريف لفظ ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾:

العذاب يحقّق المراد بأي نوع كان

جاء لفظ ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾ معرَّفًا بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ والمراد به تعريف الجنس[1]، فيكون شاملًا لكلّ أنواع العذاب، ويشير ذلك إلى جرأتهم وشدّة تمسّكهم بباطلهم.

نوعُ الواو ودلالتها:

كيفَ يتعجّلون العذاب وقد أُحيط بهم

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إمّا أن تكون للحال، أي إنّهم يستعجلونك بالعذابِ والحال أنَّ العذابَ محيطٌ بهم[2]، وفائدة الحال التّعجيب من شأنهم فهم يطلبون باستهزاء ما هو مؤكّد الحصول ظنًّا منهم باستحالته، وتَحْتَمِلُ أن تكون الواو للعطف على جملة: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ﴾ فهُما عذابان كما هو مقتضى ظاهر العطف[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 18.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 44.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 19.

غرض تتابع المؤكّدات:

مقابلةُ الإنكارِ بتأكيد الإثبات

أكّد النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بعدّةِ مؤكّدات: بكونها اسْميَّةً، وتصديرها بحرف التّأكيد (إنّ)، واللّام المزحلقة؛ والغرضُ من توالي التّأكيدات الدّلالةُ على تحقُّقِ الإحاطة واستمرارها[1]، وردًّا على إنكارهم الآخرةَ.

نكتة تنكير لفظ (محيطة):

الإحاطة مُحْكَمَةٌ لا نفاذَ عن طَوْقِها

آثر النّظم الكريم التّعبير عن إحاطة النّار بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ﴾؛ تفخيمًا لشأن إحاطتها، فهيَ إحاطة محكمة بحيث لا نفاذ منها ولا فرار، كما أنّ التّنكير يدلّ على العموم، فتكون شاملة لكلّ الجهات[2].

دلالة التّعبير بصيغة اسم الفاعل:

الدّلالة على المستقبل يتضمّن إثباتَ البعثِ

آثر النّظم الكريم التعبير بصيغة اسم الفاعل عن الإحاطة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وذلك للدّلالة على أنّ تلك الإحاطة كائنة في المستقبل، أي إنّها ستحيط بهم[3]، فهو وعيدٌ متضمِّنٌ إثباتَ البعث.

بلاغة الكناية:

ورود جهنّم للكافرين مقضيٌّ، والخروج منها مُحالٌ قطعيٌّ

كنّى النّظم الكريم بإحاطة النّار في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ عن معنى عدم الإفلات منها[4]، فالإحاطة تدلّ على التّمكّن من الشّيء، فلمّا أحاطت النّار بالكافرين عُلِم أنَّ الإفلات منها بات محالًا، فوُرودها حتمٌ مقضيٌّ، والخروج منها محالٌ قطعيٌّ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 45.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11237.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 44.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 19.

نوعُ الباء ومعناها:

استعمل النّظم الجليل حرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ للدّلالة على الإلصاق، أي: النّار ملتصقة بهم في إحاطتها، ويدلّ على التّمكّن منهم.

معنى تعريف لفظ (الكافرين):

كيف يستعجل الكافر النّار وقد أحاطت به

عرّف النّظم الكريم لفظ (الكافرين) بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهي هنا مُحْتَمِلة أن تكون للجنس، أي هي محيطة بكلّ كافر، فالإحاطة كائنة على هذا النّوع من النّاس، وهذا معنى حتميٌّ، وتَحْتَمِل أن تكون للعهد؛ أي للمخاطَبين الذين عُهِدَ الكفرُ منهم[1]، فيكون من باب الوعيد الخاص، الذي يُشَمُّ منه رائحة التّهكّم بهم، فكما استعجلوا النّار فإنّها محيطةٌ بهم؛ فلا داعي للاستعجال.

بلاغة إظهار ما حقُّه الإضمار:

التّصريح بعلّة الاستحقاق وتعميم الحكم

وضع النّظم الجليل الاسم الظّاهر موضع المضمر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلم يقل: (لمحيطة بهم)؛ وذلك للتّنبيه على علّة الحكم، فإنّهم استحقّوا العذاب بسبب كفرهم، كما أنّه يدلّ على أنّ الحكم عامّ لكلّ من اتّصف بالكفر[2].

بلاغةُ استعمال صفة الكفر دون الاستعجال:

إظهارُ الأسباب الحقيقيَّة أولى من المظاهر الطّارئة

عبّر النّظم الجليل عن الكافرين بصفة الكفر دون الاستعجال في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلم يقل: (لمحيطة بالمستعجلين)؛ لأنّ إحاطة النّار بهم ليست بسبب الاستعجال، بل بسبب الكفر المُفضي إلى الاستعجال، فصفة الاستعجال عمومًا لا توجب النّار، وإنّما دافع الاستعجال هو الموجب للنّار.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 45.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 463.

بلاغة التقييد بالظَّرف:

الإحاطةُ واقعةٌ وقتَ غشيان العذاب

أخبر النّظم الجليل في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ عن وقت إحاطة النّار بالكافرين، وهي يوم القيامة(1)، فهو بيانٌ لكيفيّة الإحاطة بهم وزمان تلك الإحاطة، وتعلَّق الظّرف بقوله: ﴿لَمُحِيطَةُۢ﴾ أي: هي محيطةٌ بهم يوم أن يغشاهم العذاب.

نكتة إضافة الظرف إلى الجملة:

يوم غشيان العذاب شديدُ الأهوال عظيمُ الأحوال

أضاف النّظم الجليل لفظ ﴿يَوۡمَ﴾ إلى جملة ﴿يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ للدّلالة على تهويل ذلك اليوم الموعود، فهو اليوم الذي ستكون فيه إحاطة النّار بالكافرين بأن يغشاهم العذاب الذي يستعجلونه، ففي ذلك اليوم من الأحوال والأهوال ما لا يفي به المقال(2)، فكأنَّه قيل: يوم غشيان العذاب، فهو كالتَّعريف به لشدّة أهواله وعظيم أحواله.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿يَغۡشَىٰهُمُ﴾ مادّة وصيغة:

غشيان العذاب لا ينقطع وآلامه لا تنقشع

عبّر النّظم الجليل بلفظ التّغشية في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ للدّلالة على علوّ العذاب عليهم وتمكّنه منهم، وقد آثَرَ التّعبيرَ بالفعل المضارع لما فيه من الدّلالة على التّجدّد، فهو دائم الغشية لهم لا يزول عنهم ولا يرتفع، ولتصوير أهوال ذلك اليوم عند غشيان العذاب.

بلاغة تكرار لفظ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾:

الإكثار من المحذور تهويل لشأنه، وتقريع بذكره

كُرِّر لفظُ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ بعد أن قال: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾، وقوله: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ وذلك للإطناب بذكر ما استعجلوه ترهيبًا لهم وتشنيعًا عليهم؛ فإنّ العاقل لا يطلب العذاب فضلًا عن تعجيله! وفي التَّكرار

---

(1) الواحدي، البسيط: 17/ 545.

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 485.

معنى التَّهديد الضِّمنيِّ، فإنَّهم لمّا استعجلوه أعاد عليهم لفظ العذاب مرارًا ليرسِّخَ في أذهانهم سَطْوَتَه، وليعلموا أنَّهم استعجلوا ما لا يُستعجل، فعند تكرار سماع العذاب، يتكرّر معها الشُّعور بالوعيد الشّديد، والغضب الأكيد.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

الابتداء لبيانِ معنى الإحاطة لا للإخبار بالجهة

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ للدّلالة على أنّ غشية العذاب تبدأ من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فهو ليس فوقهم على جهة الإطلاق، فنبّه على عدم استغراقه جهة الفوقيّة[1]، وهذا يتناسب مع معنى الإلصاق في الباء في قوله: ﴿لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ويتناسب مع مضمون لفظ الإحاطة.

غرض التّقييد بلفظ: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾:

الفوقيّة دليل التّمكّن وانتفاء المفرّ

عبّر النّظم الجليل بشبه الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ لتأكيد معنى الغشيان، ولرفع معنى المجاز، فشِبْهُ الجملة حالٌ مؤكّدة للغشيان، كما أنّها تبيّن غشيان العذاب وتصوّره، والغرضُ من ذلك تفظيعُ حاله بمجيئه من جهة العلوّ[2].

دلالةُ العطف بالواو:

الإحاطةّ بالنّار واقعة من جميع الجهات

عَطَف النّظم الجليل شبهَ الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ على شبه الجملة: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ للدّلالة على أنّ حالة غشيان العذاب من فوق معطوفة على حالة ظهور العذاب من تحتهم[3]؛ وفي ذلك تصوير لإحاطة النّار بهم.

بلاغةُ التَّقييدِ بالاحتراس:

غشيان العذاب لا يقتصر على الفوقيّة

قيّد النّظم الجليل غشيان العذاب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 463 - 464.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 20.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 20.

﴿تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ وذلك للاحتراس عن توهّم أنّ الغشيان مقتصر على الفوقيّة، لأنّ الغشيان يدلّ على العلوّ الذي هو مناسب للفوقيّة، فدلَّ الاحتراس على إحاطة العذاب بجميع الجوانب[1].

براعة اختلاف التَّعبير في التقسيم:

زيادةُ التَّرهيب بكون العذاب آتيًا من كلِّ جهةٍ فوقيَّة وحصره في جهةٍ تحتيّة

جاءت إضافة الظرف إلى لفظ الاسم الظّاهر وهو الأرجل في قوله تعالى: ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ دون أن يُضاف إلى الضمير كما في قَسيمِه المتقدم: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾؛ فلم يقل: (ومن تحتهم)، كما لم يقل في المتقدم: (من فوق رؤوسهم)؛ وذلك زيادة في التّرهيب والوعيد؛ فإنَّ غشيان العذاب من فوقهم أشمل من تحديده بكونه من فوق رؤوسهم فحسب، فلو قال: (من فوق رؤوسهم)؛ لتوُهِّمَ أنَّ الغشيان يأتيهم من جهة واحدة ضيقة، فلمّا قال: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ عُلم أنَّ المقصود هو الشُّمول، إذ الفوقيَّة شاملة للجهات المحيطة جميعها، بخلاف ذكر الأرجل؛ فإنَّ شدَّة العذاب تكون تحديدًا من تحت الأرجل، بخلاف ما لو قال: (من تحتهم) فإنَّ شمول العذاب التّحتاني يخفِّف من هوله، ومن تصوَّر مجيء العذاب من كلِّ جهة من فوق، وحصره من تحت الأرجل؛ عَلِمَ شدَّة الأمرِ وهولَه.

غرضُ الكناية:

الفوقيّة والتحتيّة كناية عن الإحاطة

عبّر النّظم الجليل بالظّرفين في قوله جلّ شأنه: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ كناية عن الإحاطة، وتصويرًا لها؛ والغرض من الكناية التّعبير عن كون العذاب محيطًا بهم، واكتفى بجهتين؛ لأنّ ذلك كافٍ في بيان الغرض من الكناية، وطلبًا للإيجاز المناسب لمقام التّهديد والوعيد[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 464.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 20.

فَقْدُ الأمل في النَّجاة أشدُّ من العذابِ نفسِه

براعة الواو العاطفة في بيان المعاني:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للعطف، حيث عطفت الجملة على قوله جلّ شأنه: ﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾[1]، فكلا الجملتين تعبّر عن حدث سيقع يوم القيامة، فبعد أن يغشاهم العذاب، يُقال لهم: ذوقوا العذاب؛ لمزيد التّنكيل بهم وترهيبهم، فجَمَعَ عليهم العذاب الحسّيَّ والمعنويَّ في سياقٍ واحد، فإنَّ الغشيان وحدَه عذابٌ أليم، فإذا ما قيل لهم: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ازداد عذابُهم عذابًا؛ لفقد أمل النَّجاة.

قـراءةُ التكلم أبانت عن عظمة الأمـر والـغَـيْـبَـة عن هَوْله

توجيه القراءات القرآنيّة في ﴿وَيَقُولُ﴾:

اختلف القرّاء في قراءة قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَقُولُ﴾، فقرأ نافع والكوفيون بالياء ﴿وَيَقُولُ﴾، وقرأ البقيَّة بالنّون ﴿وَنَقُولُ﴾[2]: فمن قرأ بالياء التحتيَّة فالضمير عائد إلى معلوم من المقام، والتقدير: (ويقول الله)، وعَدَلَ عن ضمير التكلم على خلاف مقتضى الظاهر على طريقة الالتفات على رأي كثير من أئمة البلاغة، أو يقدر: ويقول الملك الموكل بجهنم، أو التقدير: ويقول العذاب، بأن يجعل الله للنار أصواتًا كأنَّها قول القائل: ذوقوا، ومن قرأ بالنون وهي نون العظمة[3]، جعله تعظيمًا لذلك القول وترويعًا للكافرين[4]، فقراءةُ التَّكلُّمِ أبانت عن عظمة الأمر، وقراءة الغَيْبَةِ أبانت عن هَوْلِ القول.

تعذيب الأرواح نظير تعذيب الأبدان

غرضُ الأمر وبلاغته:

جاء التعبير بصيغة فعل الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عن توبيخهم وإهانتهم[5]، وتوجيه الأمر إليهم وهم في دار

---

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 10.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 343.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 20.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 464.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 323.

العذاب مبالغة في التّعذيب النّفسي قبل البدني، فلمّا "بيّن عذاب أجسامهم بيّن عذاب أرواحهم، وهو أن يُقال لهم على سبيل التّنكيل والإهانة: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾"[1].

بلاغة الاستعارة وتنوعُها:

جزاءُ التَّهكُّمِ بمجيءِ العذابِ التّهكُّمُ بالمتعجّل عند وقوع العذاب

استعار النّظم الجليل لفظ الذّوق في قوله جلّ شأنه: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عن مسّ العذاب لهم، فشَبَّهَ وصول الألم إلى المعذّبين بوصول الذّوق إلى الذّائق[2]، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة، وذلك تعبيرًا عن تحقّق العذاب ووقوع الإيلام به، وبيان أنّ قليله يفي بإيقاع المطلوب فما بال كثيره؟! والذّوق حقيقته وجود الطّعم بالفم، وأصله أنّه يقع بقليل من الطّعام، فإذا كثر يُقال له: الأكل، واختير في القرآن لفظ الذَّوْقِ للعذاب؛ لأنّه وإن كان في العرف يقع بالقليل فهو صالح للكثير، فخصَّهُ بالذّكر ليُعْلَم أنّ العذاب يقع بالقليل والكثير[3].

أو أنَّه على سبيل الاستعارة التَّهكُّميَّة، فالعذاب لا يُذاق، فنزَّل ما لا يُذاق منزلة ما يُذاق ويُستطاب من باب التّهكّم بهم، فإنَّ الذَّوق يُطلق لما يُستطاب من الطّيِّبات، وهذا من العدل في الجزاء، فلمّا تهكّم المتعجِّلون العذاب، جاءهم التَّهكُّمَ عند وقوعه.

غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

جاء استعمال الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما فيه من الدّلالة على العموم، فيشمل كلّ أعمالهم الباطلة التي قادتهم إلى العذاب.

(1) الخطيب، السراج المنير: 3/ 148.
(2) الواحدي، البسيط: 17/ 546.
(3) اسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 485.

جزاء المعاندين بسبب الإصرار على التكذيب لا بمجرّد عمل عابر

نكتة ذكر فعل ﴿كُنتُمۡ﴾:

جاء ذكر فعل ﴿كُنتُمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ للدّلالة على رسوخ تلك الأعمال فيهم، فهم يعملون المعاصي رغبة فيها وذلك لأنّهم يُصِرّون عليها، فلولا كونُهم راغبين فيها لما داموا عليها دوامًا مستمرًّا، والتي من ضمنها الاستعجال بالعذاب والاستهزاء به[1]، فإنَّ فعل ﴿كُنتُمۡ﴾ دالٌّ على أنَّ دَيْدَنهم هو تلك الأعمال التي استحقّوا بها العذاب الأليم، وذكره يومئ بأنَّ تعذيب الله سبحانه وتعالى لأولئك المنكرين المستهزئين، لم يكن بمجرَّد عملٍ عابر، بل بعمل دائم صادر عن عنادٍ وإصرار.

دلالة التّعبير بصيغة المضارع:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ للدّلالة على أنّ العذاب وقع بسبب أعمالهم الدائمة، ولتصوير تلك الأعمال لزيادة الحسرة.

زرع قيمِ الهداية في نفوس الكافرين مزيّة القرآنِ في الحرص على العباد

بلاغة المجاز في ذكر السبب وإرادة المسبَّب:

آثر النّظم الكريم ذكر العمل دون النّار في قوله جلّ شأنه: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، ومقتضى الظّاهر أن يُقال: (ذوقوا النّار)، أو (جزاء ما كنتم تعملون)؛ فذكر السّبب وأراد المسبَّب، إذِ العمل هو السّبب في دخول النّار، فذكر العمل لتذكير أهل النّار بمعاصيهم وباطلهم، وللحضِّ غير المباشر لترك ما هم عليه من الأعمال الباطلة، فإنَّ الإنسان العاقل إذا علم أنَّ عمله سيُدخله النّار، فإنَّه سيُسارع إلى تركه، فغرضُ ذكر السبب وإرادة المسبَّب ما فيه من القيمة الهدائيّة، وعنصر التَّرهيب والوعيد.

نكتة حذف متعلّق ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

حُذف متعلِّق الفعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 45.

فَسَدوا حتّى غدَتْ كلّ أعمالهم سيّئةً

مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ إمّا لتنزيله منزلة الفعل اللازم؛ فيكون المقصود سلوكَهم الناشئَ عن اعتقادهم، وإمّا للعموم، فيدخل في ذلك جميع الأعمال المنكرة الصادرة عن الجحود والكفر والتكذيب، وكلاهما مقبول ومتسق مع المقام.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

العمل والفعل والصّنع:

العمل أعمّ من الصُّنع وأخصّ من الفعل؛ فالصّنع فيه إجادة والفعل بلا قصد

الفعل: هو التّأثير من جهة مؤثّر، وهو عامّ لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولِما كان بعِلْم أو غير علم، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات[1]، أمّا العمل: فهو كلّ فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخصّ من الفعل؛ لأنّ الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلّما ينسب إلى ذلك، ولم يستعمل العَمَلُ في الحيوانات إلّا في قولهم: البقر العَوامِلُ، والعَمَلُ يستعمل في الأعْمالِ الصالحة والسّيّئة[2]، أمّا الصّنع فهو ترتيب العمل وإحكامه، وتقدّم العلم به وبما يوصل إلى المراد منه ولذلك قيل للنّجّار: صانع، ولا يُقال للتّاجر: صانع؛ لأنَّ النّجّار قد سبق علمه بما يريد عمله من سرير أو باب، ويعلم الأسباب التي توصل إلى ذلك، والتّاجر لا يعلم إذا اتّجر أنّه يصل إلى ما يريده من الرّبح، فالعمل لا يقتضي العلم بما يعمل له، والصّنع يدلّ على الجودة[3]، فهو أخصّ من العمل، فلا يقال إلّا لما كان من الإنسان بقصد واختيار، وبعد فكر وتحرٍّ وإجادة، وقد عبّر في الآية الكريمة بالعمل لأنّ العمل يشمل أعمال القلوب وغيرها، ولا يشترط في العمل الصّالح الجودة، بل مطلق العمل.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (كسب).

(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).

(3) العسكري، الفروق اللغوية: ص: 135 - 136.

الإتيان مجيء بسهولة لامتناع العوائق دونه

المجيء والإتيان:

الإتيان يدلُّ على مجيء بسهولة وإزالة موانع ومعيقات، وأمّا المجيء ففيه شدّة وصعوبة، والإتيان يعني المجيء بسهولة، فهو مجيء مخصوص[1]، فعبّر عن العذاب بالإتيان للدّلالة على أنّه يأتيهم بلا صارف ولا مانع يعوق بلوغه لهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جاء) و(أتى).

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧﴾ [العنكبوت: 56 - 57]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

افتتان الكافرين بأنفسهم وكبرهم وابتلاء المؤمنين بنار المشركين

لمّا ذكر تعالى أحوال المشركين، وأنذرهم بالخسران، وهدّدهم بالعذاب، وبيَّن حال المستعجلينَ العذابَ يوم القيامة، ناسب بعد ذلك ذِكْرُ حال المؤمنين في الدنيا، وأنَّ اللّه سبحانه وتعالى يُرشدهم إلى ترك أرض الشرك والكفر، والبحث عن مكانٍ يعبدون اللّه فيه؛ ويذكِّرهم بأنَّ الموت آتٍ لجميع النّاس مؤمنِهم وكافِرِهم، وأنَّ العبرة في النَّجاة من سطوة الكفر وأهله، فهو انتقالٌ من بيانِ افتتان الكافرين بما هم عليه من الاستهزاء والتّعجُّل بالعذاب، إلى بيان ابتلاء المؤمنين في الأرض التي يعيشون فيها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٰسِعَةٞ﴾: (وسع) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الضّيقِ والْعُسْرِ، يُقالُ: وسُعَ الشَّيْءُ واتَّسَعَ، والوُسْعُ: الْغِنَى، واللَّهُ الْوَاسِعُ أي الغَنِيُّ[1]، والسَّعَةُ تقال في الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل كالقدرة والجود ونحو ذلك، ففي المكان نحو قوله: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾، وفي الحال قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ﴾ [الطلاق: 7][2]، والْواسِعُ مِنْ أسماءِ اللَّهِ الحُسنى، ومعناه الكثيرُ العطاءِ الَّذي يَسَعُ لِما يُسْأَلُ، والسّعَةُ: نَقيضُ الضّيق، وقَدْ وسِعَه يَسَعُه سَعَةً، وإنما ذُكِرَتْ سَعةُ الأرض هاهنا لِمَنْ كانَ مَعَ مَنْ يَعْبُدُ الأصنام فأُمِرَ بِالْهِجْرَةِ عَنِ البلَدِ الَّذي يُكره فيهِ عَلَى عِبادَتِها، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(2) الراغب، المفردات: (وسع).

وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ [النساء: 97][1]، فهو أمر لمؤمني مكة؛ قيل لهم: إنّ المدينة واسعة، فلا تجاوروا الظّلمة[2].

2) ﴿نَفۡسٍ﴾: (نفس) أصلٌ يَدُلُّ على خُروجِ النَّسيم مِنْ ريحٍ أَوْ غَيْرِها، التَّنَفُّسُ: خُروجُ النَّسيم مِنَ الجَوْفِ[3]، والنَّفْسُ في كلام العرب على وجهين: أحدهما قولك: خرَجتْ نفسُ فلانٍ، أي روحه، والثّاني: أن معنى النَّفْسِ حقيقة الشَّيء وجملَتُه، يُقالُ: قتَلَ فلانٌ نفسَه[4]، ويُطْلَقُ النَّفْسُ على الدَّم؛ لأَنَّهُ أساسُ الحَياةِ، أو لأَنَّ الرُّوحَ تَخْرُجُ بِخُروجِه، يُقالُ: سالَتْ نَفْسُهُ، أَيْ: دَمُهُ[5]، والمقصود بالنَّفس في الآية: الفرد والشَّخْصُ.

3) ﴿ذَآئِقَةُ﴾: (ذوق) أَصْلٌ يدلّ على اخْتِبارِ الشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّم، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ مَجازًا فيُقالُ: ذُقْتُ المَأْكولَ أذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عِنْدَ فُلانٍ: اخْتَبَرْتُه، وكُلُّ ما نَزَلَ بِإِنْسانٍ مِنْ مَكْروهٍ فقَدْ ذاقَهُ[6]، والمَذاق: طَعْمُ الشَّيْءِ، والذَّواقُ: هوَ المأْكول والمَشْروبُ[7]، والذّوق: وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر، فإنّ ما يكثر منه يقال له: الأكل[8]، والمقصود أنّه لابدّ من الموت؛ فكلّ أحدٍ ميّت أينما كان[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

عند تعذر إقامة الشرع فالهجرة واجبة لحفظ الدين

تُخبر الآية الكريمة عن تحريضِ الله تعالى المؤمنين الذين كانوا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وسع).
(2) ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ص: 288.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(4) الراغب، المفردات: (نفس).
(5) ابن منظور، اللسان: (نفس).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(8) الراغب، المفردات: (ذوق).
(9) الواحدي، البسيط: 17/ 548.

بمكّة على الهجرة، بخطابهم: أيّها العباد المؤمنون إنّ أرضي واسعة غير ضيّقة، متاحة لكم أن تقيموا في أيّ مكان منها، فإذا تعذرت عليكم العبادة وإقامة شعائر الدين بمنع الكفار وأذاهم، فهاجروا إلى المكان الذي تتمكنون فيه من إقامة دينكم، ثمّ حقّر أمر الدّنيا ومخاوفها، أي أنتم لا محالة مَيِّتون ومحشورون إلينا، فالبِدارَ إلى طاعة اللّه ﷻ والهجرة إليه، والخلاصة: أن ما تحذرونه وتكرهونه لا بدَّ من وقوعه، فعلى المؤمنين أن يستسهلوا تَرْكَ الأوطان ومفارقة الإخوان في سبيل الدّين[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتها:

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ مفصولٌ عمّا قبله لأنّه استئنافٌ ابتدائيٌّ، وفيه ترغيبٌ بالهجرة والأمرُ بها.

غرض النّداء بأداة (يا):

نداء الكريم بالبعيد تشريف وتكريم

عبّر النّظم الكريم بأداة النّداء (يا) التي للبعيد في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ تنبيهًا للعباد على أهميّة مضمون الخطاب، وتهيئةً لأنفسهم لاستقبال الأمر، وتنزيلًا للعبادِ منزلة الشرف والكرامة، لا سيَّما مع إضافتهم إلى ياء المتكلِّم.

نكتةُ إيثار لفظ العباد على لفظِ المؤمنين:

من عَلِمَ وصفَ الله له بالخير لَزِمَه

آثر النّظم الكريم خطاب المؤمنين بلفظ العباد في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دون لفظ المؤمنين؛ لتشريفِهم برتبة العبوديّة التي هي أشرف منازل المكلَّفين[2]، وحَضِّهم على أن يكونوا أهلًا لهذا المقام، فإنَّ من عَلِم وصفه لَزِمَه، ففي اختيار هذا اللفظ تحضيضٌ على الهجرة لتحقيق العبوديّة الحقَّة.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 324.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 69.

العباد دخول في الطّاعة اختيارًا، والعبيد طاعة بالقهر

نكتةُ إيثار صيغة جمع العباد على العبيد:

العباد لفظ يشمل الناس كلّهم، بل الأشياء كلّها كذلك، فكلّهم عباد اللّه، لكن بعضها بالتّسخير وبعضها بالاختيار، وجمع العَبْدِ الذي هو مُسترَقٌّ: عَبيدٌ، وجمع العَبْدِ الذي هو العابدُ: عِبادٌ، فالعَبيدُ إذا أضيف إلى اللّه أعمّ من العِبادِ، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾ [ق: 29]، فنَبَّه أنه لا يَظْلِمُ من يَختصُّ بِعِبادَتِهِ ومَنِ انتسب إلى غيره[1]، وفي القرآن الكريم دأب على استعمال لفظ العباد للتّكريم ولبيان الصّلة باللّه تعالى، فيُضاف إلى اللّه تعالى، بينما لفظ العبيد فهو يشمل البَرَّ والفاجرَ، ففي لفظ عباد قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: 63]، وعند استخدام لفظ عبيد قال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46]، فالعباد كلمة تضاف إلى لفظ الجلالة، تشريفًا لهم، أمّا العبيد فهي تطلق على عبيد الناس وعبيد اللّه معًا، وعادةً تُضاف إلى الناس، وتشمل المحسن منهم، والمسيء. "وعليه، فالمؤمن والكافر سواء في العبودية للّه، لكن الفرْق في العبادية حيث جاء المؤمن مختارًا راضيًا بمراد اللّه، وفَرْق بين عبدٍ يُطيعك وأنت تجرُّه في سلسلة، وعبدٍ يخدِمُك وهو طليقٌ حُرٌّ، وهكذا المؤمن جاء إلى الإيمان باللّه مختارًا مع إمكانية أنْ يكفر، وهذه هي العبودية والعبادية معًا"[2].

غرضُ الإضافة:

أضاف النّظم الحكيم لفظ العباد إلى الضّمير العائد على المتكلّم وهو اللّه ﷻ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ تشريفًا لهم[3].

---

(1) الراغب، المفردات: (عبد).

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11239.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 465.

نكتةُ الوصف بالاسم الموصول:

الإيمانُ أصل الكرامات ومنبع الهدايات

جاء وصْفُ العباد بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وذلك "لما في الموصول من الدلالة على أنهم آمنوا باللّه حقًّا، ولكنهم فُتِنوا إلى حَدِّ الإكراه على إظهار الكفر"(1)، كما أنّه يُشير إلى علّة اتّصافهم بكونهم عبادًا، فتشريفُهم بصفة العبوديّة أوْقَعُ لأنّهم تحقّقوا بالإيمان واتّصفوا به.

نكتة فصل الجملة:

نداء المؤمنين توطئة لما بعده من الأمر المبين

فُصِلت جملة: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ باعتبارها جوابَ النِّداء، فإنَّ المخاطَب إذا نودي انتظر ما سيُقال له عند النِّداء، فهي تنبيهٌ على ما فيها من خبرٍ قُصِد به الأمر، ولو عَطَف لكانت الجملة تابعة لمحذوفٍ، وهي شروعٌ في دعوة المؤمنين إلى الهجرة، أي (إن كنتم في ضيق في مكّة من إظهار الإيمان، وفي مكايدة للكفار؛ فاخرجوا منها لتتيسّر لكم عبادتي وحدي، وتتسهّل عليكم)(2).

فائدة تأكيد جملة جواب النداء:

في الأرض سَعَةٌ للحياة وإعلانِ العبادة والعقيدة

أكّد النّظم الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ بكونها اسميَّةً، وبالحرف المؤكّد ﴿إِنَّ﴾؛ وذلك لتأكيد أنّ سَعَةَ الأرض تُقَرِّرُ صلاحَ الهجرة وكَوْنَها مُتاحَةً، وفيها تنبيه على "أنّ حالَ من ترك الهجرة حالُ مَنْ يظنّ أنّ الأرض ضيّقة"(3)، فالتوكيد ردٌّ على من يشكُّ في ضيق الدُّنيا النّاشئ عن ضعف الثقة باللّه تعالى، وتمسُّكِهِ في الأرض التي يعيش فيها، وحَضٌّ على المسارعة في الهجرة.

نكتة إضافة لفظ الأرض إلى الضمير:

إذا اطْمَأنَّتِ القلوبُ انْقادَتِ الجوارحُ

أضاف النّظم الجليل لفظ الأرض إلى ضمير المتكلّم العائد على اللّه تعالى في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 22.
(2) القنوجي، فتح البيان: 10/ 210.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 465.

لتوريث الطُّمأنينة في قلوب العباد، فإنَّ الأرض الواسعة هي أرض المتكلِّم سبحانه وتعالى، وهو المُتَصَرِّفُ في شؤونها، وهو الذي يُهيِّئ لعبادِه الخير حيث كان، مع الإيماء إلى أنّ الإله الذي يَكْلؤُكم وأنتم في مكّة سوف يرزقكم في سائر البلاد؛ وذلك لأنّ الأرضَ أرضُه، فأنتم لا تخرجون من دائرة ملكه وسلطانه وحفظه لكم - فإضافة الأرض إلى اللّه تعالى تحثّ المؤمنين على الهجرة.

نكتة تنكير المُسْنَدِ ﴿وَٰسِعَةٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿وَٰسِعَةٌ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ تنبيهًا على عظم سعة الأرض، وإيماءً إلى انتفاء الأعذار عن الامتناع عن الهجرة.

غرضُ الإخبار بسعة الأرض:

الأمر بالمسارعة في الهجرة لحفظ الدين وتمكين المؤمنين

جاء التعبير بالجملة الاسميَّة: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ وهو كلام مستعمل مجازًا مركَّبًا؛ في التذكير بأنَّ في الأرض بلادًا يستطيع المسلم أن يَقْطُنها آمنًا[1]، مع الإيماء إلى سَعَةِ الرّزق فيها، وإمكانِ الهجرة إلى سائر بلادها[2]، بحيث يُعلِنون إيمانهم بلا ضيق عليهم، فليس المقصود بذكر السَّعة مجرَّدَ الإخبار، بل لازمه، وهو المسارعةُ إلى الهجرة، وتَرْكُ التّعذّر بأعذارٍ واهية.

نوع الفاء ودلالتها:

تَحْتَمِل الفاء أن تكون تفريعيَّةً أو فصيحةً

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ﴾: إما أن تكون للتّفريع، فلمّا أخبر عن سعة الأرض فرَّعَ عليه الأمر بالعبادة على وجه التّوحيد، ليخرج مُستَضْعَفو المؤمنين ممّا كانوا يُفتنون عليه بالإكراه على عبادة الأوثان[3]، فبَنَى الأمرَ بالعبادة والهجرة على الإخبار بسعة الأرض،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 21.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 324.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 21.

والفائدةُ بيانُ أن لا عُذْرَ على ترك الهجرة، فالأمر بالهجرة مترتّب على سعة الأرض، وإما أن تكون فصيحة، أي: إن ضاق بكم موضع فإياي فاعبدوا[1].

نكتة تقديم المفعول به على الفعل:

قدّم النّظم الجليل المفعول به على الفعل في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فلم يقل: (فاعبدوني)؛ وذلك لتخصيص العبادة به سبحانه وتعالى، أي: اعبدوني وحدي[2].

نوع الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾:

سَبْقُ التّدبير يوجب الهجرة لإعلان التّوحيد

جاء استعمال الفاء الثّانية في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ للدّلالة على التَّرتيب والتّسبيب تأكيدًا للتّفريع الأوّل، أي: بسبب ما دبّرت لكم من المصالح الكائنة في سعة الأرض، عليكم التّوجُّهُ إليّ بالعبادة خالصة بلا شريك - فتكون الفاء مؤكّدة للتّفريع الأوّل، وفائدة ذلك الدّلالة على تحقيق التّفريع في الفعل وفي معموله، فدلّ ذلك أنّ العلّة بالأمر بالهجرة هي التّمكين من العبادة بعيدًا عن إكراه المشركين[3].

وإما أن تكون الفاء مُؤْذِنَةً بمحذوفٍ هو ناصب ضمير المتكلم تأكيدًا للعبادة، والتقدير: (وإياي اعبدوا فاعبدون)، وهو أنسب بدلالة التقديم على الاختصاص لأنه لما أفاد الأمر بتخصيصه بالعبادة؛ كان ذكر الفاء علامة تقدير على تقدير فعل محذوف قُصِدَ من تقديرِه التأكيدُ[4].

غرضُ الأمر ودلالته:

إيجاب العبادة تشريفٌ للعبادِ وتطهير للبلاد

جاء التعبير بصيغة الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 454.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 45.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 465، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 22.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 22.

لبيانِ وجوب العبادة للّه تعالى على وجه التّوحيد والإخلاص، فهو أمر وجوب، كما أنّ فيه تشريفًا للمأمورين؛ وذلك بدعوتهم إلى أشرف أعمال البشر التي خُلقوا لأجلها، مع ما يُشعر به الأمر في السياق الوارد فيه من وجوب المسارعة إلى العبادةِ.

علّة فصل الآية عن سابقتها:

العاقل المتأمل يُسارع إلى النجاة لأنَّ الموت قريب مباغت

فَصَل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ لأنّها مستأنَفَةٌ، حيث سيقت للحثّ على الهجرة، فلمّا أورد الأمر بها صَعُب عليهم ترك الأوطان، فبيّن لهم أنّ ما تكرهون لا بدّ من وقوعه؛ فإنّ كلّ نفسٍ ذائقة الموت، والموت مفرّق الأحباب، فكان من الأولى أن يكون الفراق في سبيل اللّه تعالى[1]، وفي الاستئناف معنى التَّعليل، أي: سارعوا إلى البحث عن مكان تعبدون فيه اللّه تعالى؛ لأنَّ الموت قريب، وكلُّ نفسٍ ستموت.

غرضُ استعمال لفظ العموم:

التذكير بالموت وعظٌ تحفيزيٌّ للمسارعة إلى الهجرة

افتتح النّظم الجليل الجملة باللّفظ الدّالّ على العموم في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾؛ للدّلالة على عموم الحكم الذي جيء به للحثّ على المسارعة بامتثال الأمر بالهجرة، فمضمون الجملة حقيقة لا يمكن إنكارها، والمعنى "لابدّ من الموت، وكلّ أحدٍ ميّت أينما كان، فلا تقيموا بدار الشّرك خوفًا من الموت"[2]، فالحقيقة المعبّر عنها تشمل كلّ نفس شمولًا استغراقيًّا، فجيء بـ﴿كُلُّ﴾ في مُفتَتَح الجملة لتأكيد شمول الحكم الدّالّ على انتفاء مانع الهجرة، وغرض الشمول الاستغراقيِّ وعْظُ النفوس بضرورة المسارعة إلى الهجرة، بحثًا عن تحقيق الحقِّ في أرض الحق.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 70.
(2) الواحدي، البسيط: 17/ 548.

نكتة تنكير النّفس:

نُكِّر لفظ ﴿نَفۡسٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ﴾ للدَّلالة على الشمول والعموم، فيَصْدُق بالتنكير صِدْقُ الحكم على كلِّ نفسٍ استقلالًا، كما هو صادق عليها بالجملة.

بلاغة المجاز ودلالته:

الموت يبلغ الإنسان كبلوغ الطّعم للّسان

عبّر النّظم الجليل عن ورود الموت لكلّ نفس بالذّوق في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾؛ حيث شبَّه قبض الأرواح عند خروجها من الأبدان بالذَّوق، فهو تشبيهُ أمرٍ حسيّ غيبيّ بالنسبة للأحياء، بأمرٍ حسيٍّ مُشاهَدٍ، على سبيل الاستعارة التصريحية؛ لبيانِ أثره في النفوس كلِّها، فالموت له ذوقٌ خاصٌّ، وطعمٌ فريدٌ لا يعرفه الإنسان إلا عند لحظة مغادرة الروح، وهو تعبيرٌ عن تحقّق الموت كتحقّق الطّعم في اللّسان، أو أن يكون أُطلق الذَّوق وحقيقتُه إدراكُ الطعوم على الإحساس بالعذاب، فهو مجاز مرسل وعلاقته الإطلاق، وقد استُعمل الذَّوق في معنى الإحساس بالخير والشر[1].

دلالة التّعبير باسم الفاعل:

الموتُ حتميٌّ لكلِّ نفسٍ شريفةٍ ودنيَّة

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، دون صيغة الفعل المضارع المفيد للاستقبال، فلم يقل: (كل نفس ستذوق الموت)، والموت أمرٌ مستقبَليٌّ لكلِّ حيٍّ، وذلك لبيان أنَّ وقوعه أمرٌ ثابت مستقرٌّ حتميٌّ لا جدال فيه، وأنّ الموت متحقّقٌ لكلِّ نفس؛ فكما أنّ كلّ نفس حيّةٌ، فإنّه محكومٌ عليها بالموت.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمَوۡتِۖ﴾:

عَرَّفَ النّظمُ الجليل الموتَ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 184.

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾؛ للدّلالة على الموت المعهود في الأذهان، فهو تعريف بالعهد الذّهني.

فائدة لازم الخبر:

ذكر الموت يقظة النائم وتنبيه الغافل وتحريك الساكن

أخبر النّظم الجليل بقوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، والخبر معلومٌ للمخاطَب؛ للتّحذير والتّنبيه والوعيد، وتحقير شأن الدّنيا، وتحقير ما يخافه النّاس فيها، فإنَّ النَّفس مهما تطاولت في الأرض التي ترغب الحياة فيها، وتناءت عن الأرض التي يُعبد اللّه فيها؛ فإنّها ذائقةٌ من بعد ذلك الموتَ، والمراد تهوين ما يَلْحقُ المهاجرين عاقبة خروجهم من أوطانهم، أي أنّ الموت لا محالة واقع في كلّ حال، فالأولى المبادرة في الطّاعة وإنفاذ الهجرة إلى اللّه تعالى[1].

نوع حرف التراخي ودلالته:

رتبة الموت توطئة بين يدي الجزاء

آثر النّظم الكريم استعمال حرف التراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾، والمقصود به الجزاء يوم القيامة، فيَحْتَمِل حرف ﴿ثُمَّ﴾ التراخي الرُّتْبيَّ، والتراخي الزَّماني، والأليق بالمقام أن يكون رتبيًّا، فإنَّ المقصود هو بيان ترتب الجزاء على الموت، وأنَّه حاصلٌ بعده، لمزيد التَّحذير والتنبيه الذي أفادته الجملة الخبريَّة: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾.

نكتة تقديم شبه الجملة:

الهجرة لتحقيق العبوديّة أصلٌ في القبول عند الرّجوع إليه

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة من الجارّ والمجرور على الفعل في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾، دون أن يقول: (ثم ترجعون إلينا)؛ وذلك للدّلالة على أنّ الرّجوع بعد الموت كائنٌ إلى اللّه تعالى لا إلى أحد سواه[2]، فهو رجوع إلى اللّه تعالى على وجه الخصوص، وهذا باعثٌ على طمأنة المؤمنين لتحقيق الهجرة، فلمّا بيّن أنّ الموت

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 324.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 466.

حقيقةٌ سيذوقها كلُّ أحدٍ من الخلائق، بيّن أنّ بعد الموت سيكون الرّجوع إلى اللّه العظيم، وهو لن يضيِّعَ أجر المهاجرين يوم القيامة، مع ما فيه من التنبيه والتحذير لمن فرَّط في المسارعة إلى البحث عن أرضٍ يعبد اللّه تعالى فيها.

دلالة استعمال مفردة الرجوع:

رجوع العباد إلى الله تعالى دليلٌ على أنَّهم عادوا إلى المصدر الذي أتوا منه

استعمل النظم الكريم مفردة الرجوع في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ دون لفظ الإتيان أو المجيء أو القدوم، والرجوع إنَّما يكون عودة للمكان الذي جيء منه، فدَلَّ على أنَّ العباد إنَّما أتوا من عند اللّه تعالى، وسيرجعون إليه، وهذا على الاعتبار الحقيقيِّ، أو على اعتبار أنَّ قدوم المخلوق على خالقه هو رجوعٌ إليه باعتبار المصدر، ولهذا قال الراغب في بيان معنى الرُّجوع: "هو العَوْدُ إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، فالرُّجوعُ: العَوْدُ"[1].

نكتةُ التّعبير بصيغة المضارع:

تصوير المشهد الغيبيِّ تقريبٌ للأذهان وتنبيهٌ للإنسان

عبّر النّظم الجليل بصيغة المضارع للفظ الرّجوع في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ للدّلالة على العودة إلى الحياة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، فالرّجوع إلى اللّه تعالى إخبار للحثّ على طاعة الأمر بالهجرة[2]، وجاء التعبير بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على وقوعه مستقبلًا، ولاستحضار الصّورة واستجلاب المشهد.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرجوع والأوب:

الأَوْبُ: ضرب من الرجوع، وذلك أنّ الأوب لا يقال إلا في الحيوان

(1) الراغب، المفردات: (رجع).
(2) الواحدي، البسيط: 17/ 549.

الإياب أخصّ من الرّجوع، فهو رجوع إلى النّهاية، والرّجوع العود مطلقًا

الذي له إرادة، والرجوع يقال فيه وفي غيره، يقال: آب أَوْبًا وإيابًا ومَآبًا[1]، فالإياب مختصّ بالرُّجوع إِلَى مُنْتهى الْمَقْصد، وأمّا الرُّجوع فهو أعمُّ، فيكون لذَلِك ولغيره؛ فيقال: رَجَعَ إِلَى بعض الطَّريق، ولا يصحّ أن يقال: آب إِلَى بعض الطَّريق، ولِهَذا قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥﴾ [الغاشية: 25] كَأنّ الْقيامَة مُنْتَهى قصدهم؛ لأنّهم لا منزلَة بعْدها[2]، وفي قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرعد: 36]؛ يدلّ على أنّ كون النّهاية إليه ﷻ، أمّا الرُّجوعُ: فهو العَوْدُ إلى ما كان منه البَدْءُ، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، فالرُّجوعُ: العَوْدُ[3]، فعبّر بالرّجوع لأنّه أراد معنى مطلق العودة إليه ﷻ.

---

(1) الراغب، المفردات: (أوب).

(2) العسكري، الفروق: ص: 303.

(3) الراغب، المفردات: (رجع).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾ [العنكبوت: 58 - 59]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

قشقشةُ الباطل بذكر الحقِّ وصفاته

لمّا بيَّنت الآيات السّابقة حال الذين آمنوا بالباطل وذكرت صفاتهم التي بسببها استحقّوا العذاب الأليم، ناسب الانتقال إلى بيان حال الصنف المقابل لهم وهم المؤمنون بالحقِّ، وذكرت صفاتهم التي أعانتهم على دخول الجنة؛ لاستكمال التَّقابل بين أصناف الناس وجزائهم.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾: (بوأ) أَصْلٌ يدلُّ على الرُّجوعِ إِلَى الشَّيْءِ، الْبَاءَةُ والْمَبَاءَةُ، وهيَ مَنْزِلَةُ الْقَوْمِ، حَيْثُ يَتَبَوَّؤونَ في قُبُلِ وادٍ، أو سَنَدِ جَبَلٍ، ويُقالُ قَدْ تَبَوَّؤوا، وبَوَّأَهُمُ اللَّهُ تَعالَى مَنْزِلَ صِدْقٍ[1]، والمَباءَةُ: منزلُ القوم في كلّ موضع، وتبوَّأْتُ منزلًا: أي نزلتُه، وهيَّأته ومكَّنت له فيه، وهو ببيئة سوء: أي بحالة سوء، وإنه لَحسنُ البيئة، والباءَة لغة في المباءة، ومنه سُمّي النكاح: باءً وباءةً، لأنّ الرّجل يتبوّأ من أهله، أي يَسْتَمْكِن منها، كما يتبوّأ من داره[2]، والمُبَوَّأ: المنزلُ الذي يَلزَمُه نازِلُه، فأصْلُه من البَواء وهو اللزوم[3]، ثُمَّ قيلَ لِعَقْدِ التَّزْويج: باءةٌ؛ لأنَّ مَن تزوَّج امرأةً بَوَّأها مَنْزِلًا[4]، والمراد به في الآية: إنزالُهم وتمكينُهم من الجنّة ليدوموا فيها[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بوأ).
(2) الجوهري، الصحاح: (بوأ).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (بوأ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بوأ).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 324.

2) ﴿نِعْمَ﴾: (نعم) أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ[1]، والنَّعيمُ والنُّعْمَى والنَّعْماء والنِّعْمَة، كُلُّهُ: الخَفْض والدَّعةُ والمالُ، وهوَ ضِدُّ البَأْساء والبُؤْسى، ونِعْمَ: ضدُّ بِئْسَ، دالٌّ عَلَى مَعْنَى الْجِنْسِ؛ فإذا قُلْتَ: نِعْمَ الرجلُ زيدٌ أَوْ نِعْمَ رَجُلًا زيدٌ، فقَدْ قلتَ: اسْتَحَقَّ زيدٌ المدحَ الَّذي يَكونُ في سائِرِ جِنْسِهِ[2]، ونعم وبئس: فعلان ماضيان لا يتصرَّفان تصرُّف سائر الأفعال، لأنَّهما استُعْمِلا للحال بمعنى الماضي[3]، فنِعْمَ: كلمةٌ تُسْتَعْمَلُ في المَدْحِ بإزاءِ (بِئْسَ) في الذَّمّ[4].

3) ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: (وكل) أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى اعْتِمادِ غَيْرِكَ في أَمْرِكَ، والتَّوَكُّلُ مِنْهُ، وهوَ إظْهارُ الْعَجْزِ في الْأَمْرِ والاعْتِمادُ عَلَى غَيْرِكَ[5]، وكِلَ بِاللَّهِ وتَوَكَّلَ عَلَيْهِ واتَّكَلَ استَسْلم إليه[6]، فالتَّوْكيلُ: أن تعتمدَ على غيرك وتجعلَهُ نائبًا عنك، والوَكيلُ فعيلٌ بمعنى المفعول، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ [النساء: 81]، أي: اكْتَفِ به أن يتولّى أمرك، ويَتَوَكَّلَ لك، والتَّوَكُّلُ يقال على وجهين، يقال: تَوَكَّلْتُ لفلان بمعنى: تولّيتُ له، ويقال: وكَّلْتُهُ فتَوَكَّلَ لي، وتَوَكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدتُه[7]، والمراد في الآيةِ هو: الاعتماد والالتجاء إلى الله تعالى في الأمور كلّها.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الجزاء الأحسن لـذوي الصّفات الحسنة

بيّنتِ الآيتان الكريمتان ما أعدّه سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين الصادقين من جزاءٍ طيّب، فيُقْسِمُ اللّه تعالى أنّه سينزلهم من الجنّة غرفًا عالية، ومن صفات هذه الغرف أنّ الأنهار تجري من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نعم).
(3) الجوهري، الصحاح: (نعم).
(4) الراغب، المفردات: (نعم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (وكل).
(7) الراغب، المفردات: (وكل).

تحتها، وذلك لزيادة إكرام أصحابها، ومع ذلك الجزاء العظيم قد تفضّل عليهم بأن جعلهم خالِدينَ فيها خلودًا أبديًّا، ومن صفات المؤمنين ومناقبهم الجليلة أنّهم يصبرون على طاعة اللّه، وعلى كل ما يَحْسُنُ معه الصّبر، وأنّهم يفوّضون أمورهم إلى اللّه تعالى متوكّلين عليه لا على غيره[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو وغرضها:

جـزاء المؤمنين يُظهِرُ فداحة خسران المشركين

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ للعطفِ على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾ [العنكبوت: 52][2]، وجيءَ العطف بالواو لعَرْضِ جزاء كلّ فريق من أهل الإيمان وأهل الكفر والخسران.

غرض التّعبير بالاسم الموصول:

بيانُ أسبابِ الجزاءِ مُعينٌ على العمل واجتناب الخلل

آثر النّظم الكريم التّعبير عن المؤمنين في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ بالاسم الموصول؛ وذلك للإشارة إلى علّة التّكريم الكائنة في حيّز الصّلة، أي: نالوا ذلك الجزاء بسبب إيمانهم وأعمالهم الصّالحة، ولِتَحْسُنَ المقابلةُ اللفظيَّة بين أهل الباطل وأهل الإيمان، واستحقاق كلِّ فريقٍ منهم ما استحقّوه من الجزاء في دار الخُلْد.

نكتة حذف متعلّق فعل الإيمان:

الإيمان المطلق هو المقبول عند الله تعالى

لم يتقيَّد فعل الإيمان في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بقيدٍ مخصِّصٍ؛ فلم يقل: (آمنوا باللّه ورسوله)، وذلك لأنَّ المراد هو مطلق الإيمان فيشمل كلّ ما يجب أن يُؤمَن به، ولمحاشاة المقابلة بين لفظ الجلالة والباطل؛ فإنَّه لمّا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 52 - 53.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 23.

﴿ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾ [العنكبوت: 52] كان إطلاق الإيمان في حقِّ المؤمنين هو الأنسب.

نكتة عطف عمل الصّالحات على الإيمان:

الإيمان ما قَرَّ في القلب وصَدَّقَه العمل

عطف النّظم الجليل العمل الصّالح على الإيمان في قوله جلّ شأنه: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّ العمل يصدّق الإيمان[1]، كما أنّه يشير إلى أنّ الجزاء مشروط بالعمل بعد الإيمان، وأنَّ الإيمان دعوى دليلُها الإيمان.

غرض التّعبير بصيغة الماضي:

الإشــــارةُ إلى رسوخ الإيمان واستــقرار الأعــمــال الصالحة

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة الفعل الماضي عن الإيمان والعمل في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وذلك لأنّ السّياق جيء به للحديث عن بيان الجزاء يوم القيامة، فهو جزاء للأعمال السّابقة التي مضت وانقطعت، كما أنّه يُشير إلى أنّ إيمانهم وعملهم الصّالح كان راسخًا فيهم قد مضى عليه الزّمان حتّى قرّ ورسخ فيهم.

نوع (أل) في لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الأعمال المقبولة هي المشروعة المَرْضِيَّة

عرّف لفظ الصّالحات بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للدّلالة على الجنس، أي: عملوا الأعمال التي نوعها صالح مما شرعه الإسلام أو أقرَّه وارتبط بنيَّة خالصة، أو للعهد، والمراد الأعمال المشروعة.

نكتة جمع ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الصّالحات بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للدّلالة على كثرة الأعمال الصالحة وتنوعها.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 467.

نكتة حذف الموصوف:

حذف النّظم الجليل الموصوف وأبقى صفته في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلم يقل: (وعملوا الأعمال الصّالحات)، مبالغة في صلاح عملهم، فهم كأنّهم عملوا الصّالح ذاته.

نوع اللام ومعناها:

تأكيدُ الجزاء الأحسن ردٌّ على المشكّكين ومدحٌ للمؤمنين

أدخل النّظم الجليل اللّام على الفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ وهي اللّام الموطّئة للقسم، والقسم مقدّر، أي: واللّه لنسكننّهم[1]، وفائدة ذلك تأكيد مضمون الخطاب، فلمّا أنكر المشركون البعث وما يقع فيه؛ ردّ عليهم إنكارَهُم بتأكيد الجزاء الحاصل يوم القيامة، وفيه مدحٌ للمؤمنين بأنَّ جزاءهم مؤكَّدٌ، لا يشكُّ فيه مؤمنٌ مستوثقٌ ما عند اللّه تعالى.

نكتة استعمال مفردة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ مادّة وصيغة:

نازلُ الجنّة ملازمٌ لها ثابتٌ فيها

آثر النّظم الكريم التّعبير بالتّبوّء في قوله جلّ شأنه: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ للدّلالة على أنّ النُّزلَ في الجنّة متّصف بأنّه مكان من الحسْن والطّيب جديرٌ بأن يرجع إليه ساكنه ولا يفارقه، فهو نُزُلٌ على وجه الدّوام[2]، وذلك أنَّ المَبَاءَةَ هي الرجوع واللزوم، فهم راجعون إلى ديارهم التي آمنوا بها، وثابتون فيها ملازمون لها.

دلالة التّأكيد وفائدته:

زرع الطُّمأنينة في القلوب الخصبة ثمرته إيمانٌ وعمل صالح

أكّد النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ بالقسم والنّون الثّقيلة للدّلالة على تحقّق حصوله، وللرّدّ على منكري البعث من المشركين، ومَنْ ظَنَّ خسرانَ من يهاجر ويفارق وطنه، ولزَرْعِ الطُّمأنينة والسرور في نفوس المؤمنين الذين يرجون ثواب اللّه تعالى.

---

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 12.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 324، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 467.

تقريبُ المعاني الغيبيَّة لا يعني تحقيقها على وجه اليقين

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

استعمل النّظم الجليل حرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ دون الحرف (في)؛ للدّلالة على أنّ هذه الغرف هي جزء من الجنّة كائنة من مادّتها وجنسها، وهذا تفخيم لشأن الغرف وتعظيم لها، وعلى هذا تكون للتبعيض، أو أن تكون ابتدائيّة فالغرف ابتداؤها الجنة، فهي كناية عن دخول الجنَّة والاستقرار فيها، ومعنى هذا الحرف لا يستبين على وجه التحقيق إذ هو غيبٌ مَحْضٌ، وإنَّما هي معانٍ تقريبيَّة.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾:

الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ للعهد، فهي الجنة التي دأب التّرغيب بها في القرآن الكريم.

عظُمت الغرف لأنّها من الجنّة

فائدةُ تقديم شبه الجملة:

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة من الجارّ والمجرور على المفعول به في قوله جلّ شأنه: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ اعتناءً بالمقدَّم، وتسريعًا للمسرَّة، وتفخيمًا لشأن الغرف بأنَّها جزء من الجنّة، كما أنّ التّأخير فيه تشويق للمؤخّر.

نكتة تنكير ﴿غُرَفًا﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الغرف بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾؛ تفخيمًا لشأن الغرف وتهويلًا لعظمتها، فهي غرف يُجهل عِظَمُ حُسْنِها.

بديع الوصف التّعليلي وشريف النعت الجمالي

بلاغة الوصف بالجملة الفعلية:

جاء وصف الغرف بالجملة الفعليَّة: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فلمّا بيّن أنها غرف، والغرف متّصفة بكونها عالية، وصفها بصفة أخرى مبنيّة على علوّها، فبيّن ما يوجد تحتها، وهو جريان الأنهار؛

فكأنَّه قيل: هي عاليةٌ لأنَّ الأنهار تجري من تحتها، وهذا من بديع الوصف التعليليّ، وشريف النعت الجماليّ، وآثر وصفها بالجملة الفعليَّة لما فيها من تصوير الجريان، واستحضارِ بَهائِهِ وجمالِه.

فائدة التّعبير بصيغة الفعل المضارع:

دوام جريان أنهار الجنَّةِ تعريضٌ بأنهار الدُّنيا

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة الفعل المضارع عن جري الأنهار في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ للدّلالة على استمرار جريانها ودوامه، ففيه تعريضٌ بأنهار الدُّنيا التي هي عرضة للانقطاع والتّغير.

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

مكان جري الماء بادِئٌ من تحت الغرف

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وذلك للدّلالة على ابتداء مكان جري الماء، أي أنّ بدايةَ جري الأنهار كائنةٌ من تحتها، أي ليس مطلق جهة التّحت، بل هو بعضها ملاصق لها فدلّ على قربه، وجَعَلَه الإمام البِقاعيُّ من التّبعيض، فقال: "ولمّا كان عموم الماء لجهة التّحت بالعذاب أشبه، بعّضه فقال: ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾"(1).

دلالة تقييد جري الأنهار بشبه الجملة:

من صفات جمال غرفِ الجنَّة علوُّها وإشرافُها

قيّد النّظم الجليل جري الأنهار بشبه الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ وذلك للدّلالة على جهة جري الماء بالنّسبة للغرف، فلمّا كانت الغرف عالية؛ بيَّنَ أن الماء يجري من تحتها، ففيه تأكيدٌ لعلوِّ تلك الغرف، كما أنّه يعبّر عن تمكّن أهل تلك الغرف من هذه الأنهار إذ هم يشرفون عليها من علوّ.

نكتة تقديم شبه الجملة:

تعيين موضع الجريان تأكيدٌ لعلوِّ الغرف

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة من الجارّ والمجرور على الفاعل في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وذلك للاهتمام بجهة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 467.

جري الأنهار، فهي موضع التّكريم، وهو الوصف المرادُ تأكيدُه بعد ذكر الغرف العالية، ودلّ على التّخصيص، أي تجري من الجهة التي هي تحت الغرف وحسب، كما أنّ في تأخير الأنهار تشويقًا للأسماع بانتظار ذِكْرِها، فهي أنهارٌ لا ينابيع وسيول.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

عرّف النّظم الجليل الأنهار بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ للدّلالة على النّوع، فأنهار الجنة نوعٌ خاصٌّ لا نعلم عنه إلّا ما جاء به الخبر.

بلاغة المقابلة بين الفريقين:

فوقيّة الفريقين وتحتيهم متباين في الجزاء المبين

من لطائف البيان القرآني المقابلة بين حال المؤمنين وحال الكافرين في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ فالكافرون يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، والمؤمنون يغشاهم النّعيم من فوقهم بالغرف ومن تحتهم بالأنهار[1]، كما أنّه بيّن أنّ كلّ قبيل منهم نال جزاء عمله، فقال في حال المؤمنين: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾، في مقابلة ما خاطب الكفّار: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[2].

بلاغة التّعبير بالحال ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

نعيم الجنّة باقٍ خالدٌ وبه تكتمل السعادة

عبّر النّظم الجليل بالحال ﴿خَٰلِدِينَ﴾[3] في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ للدّلالة على حالهم في تلك الغرف، أي إنّهم في حالة خالية من التّنغيص والنّكد، فلا يضطرّون لهجرها ومغادرتها لحظة ما[4]، فهم لا يبغون عنها حِوَلًا ولا تحويلًا، والخلود هو تمام السَّعادة؛ فإنَّ سعادةَ الدُّنيا لا تُستكمل مهما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 24، وينظر: الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 70.
(2) القنوجي، فتح البيان: 10/ 212.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 455.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 467.

بلغت بأصحابها؛ لأنَّها سعادةٌ منقطعةٌ عن البقاء، مقطوعةٌ عن الاستمرار، بخلاف سعادة الآخرة فهي باقية مستمرةٌ متجدِّدة.

نكتة فصل جملة المدح:

كـلُّ مـمـدوحٍ في القـرآنِ فهو شريف عظيم

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ لإنشاء المدح والثّناء والتّعجيب على الأجر الذي أُعطوه من الغرف، والإنشاء بعد الإخبار يقتضي الفصل، والمراد منه تعظيم شأن الغرف، وبيان علوّ قدرها[1]، وهو كناية عن مدح العاملين، فإنَّ مدحَ أجر العامل يستوجبُ مدحَه ضرورةً.

معنى ﴿نِعۡمَ﴾ وبيان فاعلها:

مدحُ الأجر كناية عن مدح العامل

عبّر النّظم الجليل بالفعل الماضي ﴿نِعۡمَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾، وهو فعل جامد يستعمل لإنشاء المدح، وهي بإزاءِ بِئْسَ في الذَّمّ[2]، وقوله تعالى: ﴿أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ هو الفاعل الذي أُسْنِد إليه فعلُ المدح والثّناء، وهو دالٌّ على المخصوص بالمدحِ[3].

نكتة حذف المخصوص بالمدح:

حُذِف المخصوص بالمدح في قوله جلّ شأنه: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾، والتّقدير: نعم أجر العاملين الغرفُ، أو الجنّة، أو أجرُهم؛ للإيجاز واكتفاء بدلالة ما قبله عليه[4].

معنى تعريف لفظ: ﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾:

عرّف لفظ ﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ لاستغراق جميع أفراد العاملين الأعمال الصّالحة بدليل ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وليس المراد جنس العاملين.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ مادّة وصيغة:

الأعمال نيّة ما لم تنضج بنيَّة

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ العاملين في قوله جلّ شأنه:

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 467، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 23.

(2) الراغب، المفردات: (نعم)، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 455.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 455.

(4) الواحدي، البسيط: 17/ 553، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 45.

﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ دون الفاعلين؛ لأنّ العمل أخصّ من الفعل، وهو ما كان بقصد[1]، فهم عملوا الصالحات عن قصد ونيَّة صادقة، ولم يعملوها رغبة في الدنيا وكسب الجاه، ففيه بيان أنَّ الأعمال بالنيّات، وأنَّ الأعمال المقبولة التي ينال عليها العامل أجره يوم القيامة ما كانت عن نيَّة صحيحة في الاعتقاد والتَّوَجُّه، وقد جاء التّعبير بصيغة اسم الفاعل للدّلالة على أنّ الثّناء كائن لرسوخ صفة العمل الصّالح فيهم.

نكتة الوصف بالاسم الموصول:

الصَّبر أصلُ الوصول إلى الفوز العظيم ونَيلِ الأجر الكريم

وُصف ﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ دون أن يقول: (الصابرين) لبيان صفة هؤلاء العاملين الذين استَحَقُّوا تلك الجَنّات، فالصبر علَّة الوصول إلى الفوز العظيم ونَيْلِ الأجر الكريم، فهو تعريفٌ للعاملين بأنَّهم الذين صبروا، فصبرُهم عنوانُ الوصول إلى رضا ربِّ العالمين، مع ما فيه من رائحة الاختصاص، إذِ الصَّبر الحقيقيُّ المُعْتَبَر هو صبرُ المؤمنين العاملين.

دلالة عطف التوكل على الصبر:

الصَّبر على الهجرة والغربة يقتضي التّوكّل على الله وحده

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ بالواو، وذلك لأنّ الجمع بين صفتي الصّبر والتّوكّل مطلوبتان في أمر الهجرة ومفارقة الأهل وترك البلاد والجهاد، وهاتان الصِّفتان هما أصلٌ جامع في النَّجاح في الدّارين، فالصَّبر: اعتمادُ المؤمن على ترك رغباته، وحَبْسُ النَّفس عن شهواتها، والتوكل: هو الالتجاءُ إلى اللّه تعالى في قضاء الحاجات، والقيامُ بالواجبات.

فائدة اختيار عنوان الرّبوبيّة:

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الرّبوبيّة في قوله جلّ شأنه:

(1) الراغب، المفردات: (عمل).

مقامات العناية والرعاية يغلب معها عنوان الربوبية

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ للدّلالة على أنّهم إنّما توكّلوا عليه لمعرفتهم بسابق إحسانه لهم، وكونه القائم على صلاح حياتهم، وأضاف لفظ الربوبيَّة إلى الضَّمير العائد على المؤمنين للدّلالة على استشعارهم عطفه عليهم، واستحضارِهم صفةَ الرّبوبيّة حال توكّلهم عليه، فإنَّ المقام هو مقام رعاية وعناية بالعباد، في إقامة العبوديّة في الأرض التي يهاجرون إليها.

نكتة تقديم شبه الجملة على الفعل:

مقتضى التوكل الحقّ أن لا يكون إلّا للإله الحقّ

قُدّم الجارّ والمجرور على الفعل في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ للدّلالة على حصر توكّلهم على اللّه تعالى، أي لا يتوكّلون على غيره[1]، وهو ثناء عليهم بإخلاصهم وإظهار توحيدهم؛ فإنَّ مقتضى التوكل الحقّ أن لا يكون إلّا للإله الحقّ.

بلاغة استعمال مفردة التوكل مادّة وصيغة:

حسنُ التَّوكُّل وديمومتُه طاقةُ المؤمن وغذاءُ المحسن

جاء استعمال مفردة التوكل بصيغة الفعل المضارع في فاصلة الآية في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ للدّلالة على تفويض شؤونهم إليه، واعتمادهم عليه، فجعلوا اللّه تعالى وكيلًا لأعمالهم؛ ثقةً به وعبادةً له، وعبّر عن ذلك بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على أنّهم يتوكّلون عليه باستمرار متجدّد، فكلمّا عَرَضَ لهم شيء في أرزاقهم وحياتهم بعد الهجرة إليه والجهاد في سبيله؛ فإنّهم يُهرعون إليه بتفويض الأمر[2] كلِّه إليه وحدَه.

نكتة ترتيب الصِّفات المذكورة:

الإيمان أصلٌ والعمل ثمرته والصبر مادته والتوكل نجاحه

رتّب النّظم الجليل صفتي الصّبر والتّوكّل في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وقد سبقتها الصّفتان: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فتحصّل أربع صفات: الإيمان، والعمل

---

(1) الإيجي، جامع البيان: 3/ 287.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 468.

الصّالح، والصّبر، والتّوكّل، وقد رتّبها ترتيبًا وجوديًّا: فأوّل عمل هو الإيمان، ثمّ يتبعه العمل الصّالح وهو نتيجة الإيمان، ومن تلك الأعمال الهجرة وهي تقتضي الصّبر على ما يصاحبها من مفارقة الأهل والغربة، ثمّ ما يلزم المهاجر من التّوكّل على الله تعالى.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّبوؤ والإنزال:

الإنـــزال عـامّ والـتّـبـوّؤ إنـزال بتمكّن ودوام

التّبوّؤ: يقال بوَّأتُ للرجل منزلًا وبوّأته منزلًا: هيَّأته ومكَّنت له فيه، وسُمّي النكاح: باءً وباءةً؛ لأنّ الرّجل يتبوّأ من أهله، أي: يَسْتَمْكِن منها، كما يتبوّأ من داره[1]، والمُبَوَّأ: المنزل الذي يلزمه نازله، فأصله من البَواءِ وهو اللزوم[2]، أمّا النُّزولُ فهو في الأصل انحطاطٌ من عُلَوّ، يقال: نَزَلَ عن دابَّته، ونَزَلَ في مكان كذا: حَطَّ رَحْلَهُ فيه[3]، فالنّزول في المكان يدلّ على حطّ الرّحل فيه، أمّا التّبوّؤ فيدلّ على لزوم المنزل واللّبث فيه والتّمكّن منه، فهو نزول يتبعه البقاء، فهو أدلّ على المُكْث في المكان واللُّبْثِ فيه من مجرّد النّزول، فعبّر النّظم الجليل بالتّبوّؤ في بشارة المؤمنين في إنزالهم الجنّة لمزيد الإكرام، ولأنّ السّكن في الجنّة واقع على وجه الخلود والمكث، لذلك قال ابن عطيّة في تفسيره في بيان معنى قوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾: "لنُنَزِلنَّهم، ولنُمَكِّنَنَّهم، ليدوموا فيها"[4]، فالمراد إنزالُهم في تلك الغرف وتمكينُهم منها ليدوموا فيها.

---

(1) الجوهري، الصحاح: (بوأ).

(2) السمين، عمدة الحفاظ: (بوأ).

(3) الراغب، المفردات: (نزل).

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 324.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ [العنكبوت: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من ذمِّ الكافرين ومدح المؤمنين إلى بيان قانون الرزق

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة المقابلةَ بين المؤمنين بالباطل والمؤمنين بالحقِّ، وصِفَةَ كلِّ فريقٍ منهم، ناسب أن يُذكر حال الرزق في الدُّنيا، وأنَّه على اللّه تعالى وحده، لبيان أنَّ الرزق ليس بممنوع عن أحد، وأنَّه لا يأخذه مؤمن دون كافر، كما قال تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20]، فالمناسبةُ هي الانتقالُ من ذكر فريقَيِ الإيمان والكفر، إلى ذكر عموم الرزق لهم جميعًا.

مع ما فيه من الإعانة على التّوكّل، والحثّ على الهجرة، فعَرَّفَهُم بأنّه الكافي في أمر الرّزق، فبَيَّنَ حال الدّوابّ التي لا تَدَّخِرُ شيئًا لغدٍ، ومع ذلك يأتيها رزقها في كلّ حين(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَآبَّةٍ﴾: (دبّ) أَصلٌ وهوَ حَرَكَةٌ عَلَى الْأَرْضِ أَخَفُّ مِنَ المَشْيِ؛ تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكُلُّ ما مَشَى عَلَى الْأَرْضِ فهوَ دابَّةٌ(2)، دَبَّ النَّمْلُ وغَيْرُهُ مِنَ الحَيَوانِ عَلَى الأرضِ، يَدِبُّ دَبًّا ودَبيبًا: مَشَى عَلَى هينَتِه، ودَبَّ الشَّرابُ في الجِسْمِ والإناءِ والإنْسانِ، يَدِبُّ دَبيبًا: سَرى؛ ودَبَّ السُّقْمُ في الجِسْمِ، والبِلى في الثَّوْبِ(3)، فالدَّبُّ والدَّبيبُ: مَشْيٌ خفيفٌ، ويُستعمل في كلّ حيوان، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 72، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 468.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دبب).

مَّآءٍۖ﴾ [النور: 45]، والدّابّة جمعٌ لكلّ شيء يَدِبُّ، نحو: خائنة جمع خائن، فإنّها عامّ في جميع الحيوانات[1].

2) ﴿لَّا تَحۡمِلُ﴾: (حمل) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِقْلالِ الشَّيْءِ[2]، يقال: حَمَلْتُ الشّيء على ظهري أَحْمِلُه حَمْلًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠﴾ [طه: 100][3]، والحَمْلُ معنى واحد اعتُبِر في أشياء كثيرة، فسوّيَ بين لفظه في: فعَلَ، وفُرِّقَ بين كثير منها في مصادرها: فقيل في الأثقال المحمولة في الظّاهر كالشّيء المحمول على الظّهر: حِمْل، وفي الأثقال المحمولة في الباطن: حَمْل، كالولد في البطن، والماء في السّحاب، والثّمرة في الشّجرة تشبيهًا بحمل المرأة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٌ﴾ [فاطر: 18][4]، وقوله ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ معناه: وكَمْ مِنْ دابَّةٍ لا تَدَّخِر رِزْقَها إنما تُصْبِحُ فيَرْزُقُها اللّه[5]، أي: لا تَقْدِر على رزقها، ولا تَرْفَعُ رزقَها معها[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ عمَّ رزقُه كلَّ دابة لن يتركك عند التضحية لأجل دينه

تُبيِّن الآية الكريمة أنّ اللّه تعالى يرزق كلّ الدّوابّ جميعًا من الحيوانات التي لا تستطيع ادِّخارَ الرِّزقِ وحَمْلَه من مكانٍ إلى مكانٍ كالإنسان، وذلك لتحريض المؤمنين على الهجرة، فلمّا خشي بعض المؤمنين الفقر والجوع الذي قد يَلحَقُهم في الهجرة، أخبرهم أنّ الدّوابّ تأكل طعامها كلّ يوم وهي لا تدّخر رزقها ولا تحمله[7]، فرِزْقُ اللّه يأتيكم في كلّ مكان، فلا يَختصُّ ببقعة دون أخرى، بل رزقه تعالى عامٌّ لكلِّ خلائقِهِ في كلّ زمان وكلّ مكان؛ "فكم من دابَّةٍ لا

(1) الراغب، المفردات: (دب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).
(3) الجوهري، الصحاح: (حمل).
(4) الراغب، المفردات: (حمل).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حمل).
(6) الواحدي، البسيط: 17/ 553.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 324.

تُطيقُ حَمْلَ رزقها لضَعْفِها، ولا تستطيع جَمْعَهُ وتحصيلَهُ ولا تدّخر شيئًا لغدٍ؛ اللّه يقيّض لها رزقها على ضعفها، وييسّرُه لها، فيبعث إلى كلِّ مخلوق من الرزق ما يصلحه ويكفيه، سواء كان في باطن الأرض، أو طيرًا في الهواء، أو حوتًا في الماء، واللّه هو السميع لأقوال عباده، العليم بضمائرهم وأسرارهم وما في قلوبهم".

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

تهوينُ أمر الموتِ والرزق في قلوب الخائفين مقدِّمة الهجرة لخدمة الدين

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ إمّا للعطف على الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، فلمّا هَوَّنَ أمرَ الموت عنهم، أتْبَعَهُ بتهوين أمر الرّزق لحَثِّهم على الهجرة[1]؛ فالجملتان تعبّران عمّا يُعتذَر به للامتناع عن الهجرة، فأبطلهما اللّه تعالى، فلا عذرَ عن الامتناع عن الهجرة إلى اللّه تعالى، وإمّا للاستئناف، فالكلام مستأنَفٌ مَسوقٌ لتقرير التوكُّلِ على اللّه تعالى وعدم الجزع[2].

بلاغةُ معنى التَّكثير في لفظ (كأيّن):

استغراقُ الدّوابّ التي لا تدّخر رزقها يورِّث طمأنينة الرزق

آثر النّظم الكريم استعمال (كأيّن) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾ وهي كلمة موضوعة لبيان كثرة التّمييز الواقع بعدها[3]، وجيءَ بها هنا للتّعبير عن كثرة الدّوابّ التي لا تحمل رزقها بنفسها، واللّه تعالى هو من يرزقها، وفائدةُ التّكثير في هذا السياق العمومُ الشموليُّ؛ فإنَّ مقتضى العموم طمأنةُ النّاس بأنَّ رزقهم على اللّه تعالى، ومَنْ هاجر طالبًا رضوانَه فإنَّ اللّه رازقُه كما يرزق جميعَ مخلوقاته.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 24.

(2) درويش، إعراب القرآن: 7/ 457.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 117.

التّكثير بـ(كأيّن) أبلغ وأوسع من (كم)

نكتة استعمال (كأيّن) دون (كم):

كم وكأيّن الخبريّتان يدلّان على التّكثير، وقد وردت (كم) في القرآن الكريم (21) مرة: كانت خبريّة في (17) منها، وورد (كأيّن) (7) مرّات خبريّة؛ والفرق بينهما: أنّ (كم) بسيطة، وكأيّن اختلفوا فيها، فجعلوها بسيطة أوّ مركبّة، وكأيّن يكون تمييزها مجرورًا بـ(من) غالبًا، وقد جاءت هكذا في كلّ مواضعها في القرآن، وهي لا تكون إلّا للتّكثير، فلا تستعمل للاستفهام كما تستعمل (كم)[1].

والفرقُ الدّلاليُّ بينهما يظهر من بنيتها؛ فلمّا كانت أكثَرَ حروفًا في البناء، وفيها تضعيفٌ يُضْفي عليها ثِقلًا في اللّفظ؛ فيكون التّكثير فيها أبلَغَ وأشدَّ، ولذا هي لا تستعمل إلّا للتّكثير.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

الدّوابُّ لا تحمل همًّا ولا غمًّا في شأن رزق الغد

جاء استعمال حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ للتّوكيد، وهي داخلة على تمييز (كأيّن)، وتمييزُها مجرور لفظًا، منصوب محلًّا[2]، وجيء بها هنا للدّلالة على تأكيد الاستغراق الشموليّ لكلِّ الدّوابّ، أي: كلُّ دابَّةٍ لا تحمل رزقها فاللّه رازقُها.

نكتة تنكير ﴿دَآبَّةٍ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿دَآبَّةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ للدّلالة على عموم الحكم وتكثيره؛ فيشمل كلّ ما يقال له: دابّة، ويستقصيها حتّى يعمَّ كلَّ ما دبَّ على الأرض.

بلاغةُ الوصف بالجملة المنفيَّة:

الاحتراسُ عن دخول بعض الدَّوابِّ التي تَدَّخِر طعامَها

عبّر النّظم الجليل بالجملة الفعليّة المنفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ وصفًا للفظ ﴿دَآبَّةٍ﴾[3]، فتلك الدّوابّ

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 13.
(2) الدّعاس، إعراب القرآن: 3/ 6.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 13.

الكثيرة موصوفةٌ بأنّها غير حاملة لرزقها، وغير قادرة على تأمين رزقها لأيّامِها القادمة، وهذه الصِّفةُ أفادت التَّخصيصَ؛ فإنَّ بعض الحيوانات تحتفظ بطعامها وتَخْزُنه في الأرض وفي بيوتها؛ كالنمل والنحل، وبعضها تصيد فرائسها وتدفنها ثم تستخرجها، وما يراه معظم النّاس هو الدَّوابُّ التي لا تحمل رزقها؛ فكان التخصيصُ احتراسًا عن الشمول الكليِّ، فيكون العموم الشمولي منسحبًا على الدّابَّة المتّصفة بأنَّها لا تحمل رزقها، ويُستثنى من ذلك ما نفاه النَّظم الكريم.

بلاغةُ الجمعِ بين دلالة الحقيقة والمجاز:

اجتماعُ المعاني الحقيقيَّة والمجازيّة في تركيب واحد أولى من إهمال بعضها

أجاز أئمّة التّفسير في قوله جلّ شأنه: ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ أن يكون من باب الحقيقة ومن باب المجاز: فعلى الحقيقة يعني أنّها تسير غير حاملة رزقها، فهي ليست كالدّوابّ في القافلة التي تسير وعلفها فوق ظهورها، بل تسير تأكل من نبات الأرض الذي يرزقها اللّه إيّاه، وعلى المجاز يعني لا تقدر أن تتكلّف بأمور الرّزق وتعجز عنه[1]، فهي لا تدّخر كالإنسانِ، وبعض الحيوان، ولا تفكر في كيفيَّة جمع الأرزاق في قابل الأيام، فرِزْقُها يَحْضُر في ساعته، وإن جاعت فتتحمَّل حتى تُرزق، والمعنيان صحيحان، يشملان معظم الدَّوابِّ، وإن كان المعنى الحقيقيُّ هو الأظهر في هذا السّياق.

نكتة إضافة لفظ الرّزق إلى الضَّمير:

تمامُ العجزِ دليلٌ على لطف الرازق وتعهّده بخلقه

أضاف النّظم الجليل لفظ الرّزق إلى الضَّمير العائد على ﴿دَآبَّةٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ للدّلالة على أنّها لا تحمل رزقَ نفسها، لا رزق غيرها، وهذا أدّلّ على بيان العجز وانتفاء القدرة عنها وافتقارها للرزّق، فهي لا تقدر أن تحمل رزق نفسها؛ فكيف لها أن تحمل رزق غيرِها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 25.

بلاغةُ الاستئناف البياني:

فصل النّظم الجليل جملة: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ لأنّها مستأنَفَة استئنافًا بيانيًّا؛ فكأنّه قيل: فمن يرزقها؟ فقيل له جوابًا: اللّه تعالى هو يرزقها[1].

فائدةُ اختيارِ عنوان الألوهيّة:

تقرير العقائد والإرشاد للسُّلوكيات هو الأنسب للمقامِ

عبّر النّظم الجليل بلفظ الجلالة دون الرّبوبيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾؛ وذلك لتعظيم مضمون السّياق، أي اللّه تعالى المحيط علمه بكلّ شيء، ووَسِعَتْ قدرتُه كلّ شيء، المتّصف بكلّ كمال هو الذي يرزقها[2]؛ ففيه توريث المهابة والجلال، بالإضافة إلى أنَّ السّياق يُقرِّر العقائد، ويُرشد إلى السُّلوكيّات المتعلقة بها، فكان إيراد لفظ الألوهيّة هو الأنسب في هذا المقام.

دلالة التّعبير بصيغة المضارع:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع عن الرّزق في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ للدّلالة على تجدّد الرّزق واستمراره في المستقبل، وأنَّه وعدٌ غير مقطوع.

نكتة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

الرزق لله وحده وعلى العقلاء اعتقاد ذلك كما البهائم تستشعر ذلك

قدّم النّظم الجليل المسند إليه على المسند الفعليّ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ دون أن يقول: (يرزقها اللّه وإيّاكم)؛ لما في تقديم المسند إليه من دلالة على التّخصيص، أي أنّ اللّه تعالى وحده هو مَن يرزقها[3]، والتَّخصيص مستفادٌ من السّياقِ، ومن كون الرازق هو اللّه تعالى، فيما هو مستقرٌّ في أساسيات علم العقيدة ومقتضيات التوحيد، وهذه دعوة لنبذ خوفهم عن الشّروع بالهجرة.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 468.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 468.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 46.

بلاغة العطف وبراعَتُه في تقرير المعاني القياسيّة:

التّناسب بين المعطوفات لإرساء المعاني نهجٌ فريد لنظم القرآن

عطف النّظم الجليل لفظ (إياكم) على الضمير العائد على الدّوابّ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾؛ لبيانِ سَعَةِ رزقِهِ وقدرتِهِ، فهو كما أنّه تعالى يرزق الدّوابّ على ضَعْفِها؛ فهو يرزقكم على قوّتكم واجتهادكم، على أنّها لا تدّخر رزقها وأنتم تدّخرون[1]، فلا فرْقَ بين رزق تلك الدّوابّ ورزقكم، فاللّه تعالى قادر على رزقكم في حال إقامتكم وفي حال هجرتكم، فكما أنَّ الدّواب تَكْثُر فيها الهجرة فتُرزق، فتأمَّلوا حالكم فسَتُرْزَقون عند هجرتكم، فهو دفع للخوف والقلق ممّا يُشاهده النّاس.

نكتة تقديم ذكر رزق الدَّواب على رزق البشر:

تقديم الوسائل على الغايات بقصد البيان والإيضاح

قدّم النّظم الجليل ذكر رزق الدّوابّ على رزق المخاطبين في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ لأنّ ذكر السّياق للدّوابّ توطئةٌ لإرشاد العباد، فهو وسيلةٌ لبيان الغاية، وشأن الوسائل أن تتقدّم على غاياتها إن كان للإيضاح والبيان، فأراد السياق بيان أنَّ الدّوابَّ أضعف وأحوج، فمن كان رازقًا للضّعيف المحتاج فإنّه أقدر على رزق المُجِدِّ المجتهدِ السّاعي لرزقه، وفيه فائدةٌ في نفي القلق بشأن الرّزق، فيستشعر العباد بأنّ الأسباب الظاهرة هي بعض الأسباب لا جميعها، فاللّه تعالى لا يترك أحدًا بدون رزق، والغاية من ذلك إزالة الظّنّ بأنّ الهجرة للّه تعالى قد تَنْقُص الرّزقَ[2].

فائدة الخبر وغرضُه:

الخبر في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ لا لفائدة الإخبار المجرَّد، وإنّما جيء به للدّلالة على لازم معناه وهو ضمان رزق المتوكّلين[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 46.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 53.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 25.

السميع العليم هو الذي يرزق الضعيف العاجز

بلاغةُ العطفِ بالواو:

عطف النّظم الجليل صفة السّمع والعلم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ على صفة الرّزق في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾، فيكون المعنى أنّ اللّه تعالى يرزقكم وهو يسمع دعاءكم، ويعلم ما في نفوسكم من الإخلاص له في أعمالكم وتوكّلكم ورجائِكُم الرّزقَ منه[1].

السّمع الكامل والعلم التام لا يكون إلا لله تعالى

نوعُ القَصْر وبلاغتُه:

قَصَرَ النّظم الجليل صِفَتَي السّمع والعلم على اللّه تعالى في قوله جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بتعريف طرفي الإسناد؛ وليس المراد أنَّ هناك سميعًا عليمًا على وجه الحقيقة إلّا اللّه تعالى، فهو قصر إضافي؛ لأنّ صفة السّمع والعلم كائنة في غير اللّه تعالى، فالمرادُ من القَصْرِ هو قصرُ الكمال لا قصرَ الوجود، وهو قَصْرُ صفةٍ على موصوف، وأفاد ذلك تأكيد قوّة الصّفة في ذات اللّه ﷻ.

سمعُه محيطٌ بالأقوال وعلمه بالغٌ الأغوار

بلاغةُ اقتران الاسميْن الجليليْن:

ذَيَّلَ النّظم الجليل الآيةَ بقوله جلّ شأنه في الفاصلة: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تنبيهًا لهم بأنّه يسمع أقوالهم بما يتعلّق بخوفهم من انقطاع الرّزق عنهم عند مفارقتِهِمْ بلَدَهُم في الهجرة، وأنّه عليم بما في قلوبهم من الأسرار والنّوايا الكائنة في القلوب[2].

تقديم العلم بالمنطوق على العلم بالمسموع

نكتة تقديم صفة ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ على ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾:

قدّم النّظم الجليل صفة ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ على صفة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ لأنّ السّمع في معهود النّاس أظهرُ من العلم، والسمع هو دليل العلم، فلا يحكم أحدٌ على أحدٍ إلا بأقواله وألفاظه، فهو وسيلة من وسائله، فقدّم الأسبق وجودًا فيما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 25.

(2) الواحدي، البسيط: 17/ 554.

يظهر للنّاس، وأخّر العلم لأنّه الحاصل آخرًا، واللّه سبحانه وتعالى هو الذي يسمع ما يطلبه النّاس من رزق، ويعلم بحاجتهم إليه إذا سكتوا[1]، فقَدَّمَ العلمَ بالمنطوقِ على العلمِ بالمكتوم.

نكتة المبالغة في الصيغ:

المبالغة في الوصف تدلّ على تحقّقه، فسَمْعُه وعلْمُه لا يغيب عنهما شيء

عبّر النّظم الجليل عن صفتَيِ السّمع والعلم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بصيغة (فعيل) للمبالغة في بيان كمال السّمع والعلم[2]، وذلك للدّلالة على قوّة حدوث ما يتعلّق بهذا الوصف، فالمبالغة في سمعه تدلّ على أنّ كلّ قول يقوله النّاس وإن كان خافتًا فإنّه يعلمه، وأنّ كلّ خاطرة في أذهان النّاس وإن أسَرّوها فإنّه يعلمها.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 73.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 46.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾ [العنكبوت: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من تقرير خصوصِ أمر الرزق إلى عموم أمر الخلق

لمّا ذكَر في الآيات السّابقة حالَ المشركين وإعراضَهم واستهزاءهم، وأتْبَعَه بجزاء المؤمنين وحثِّهم على الهجرة وبيانِ تكفّله بشأن الرّزق، أتبعَ ذلك بتقرير كونِهِ الخالقَ الرّزاقَ الواحدَ، وأنّ المشركين أنفسهم لا يُكابرون في ذلك، بل يعترفون ويُقرّون، فتكون الآية مؤكّدةً على حثّ المؤمنين للهجرة، ومبيِّنةً حالَ الكافرين من التّناقض.

ومن المناسبة ما ذكره الفخر الرّازيّ: "لما بَيَّن اللّه الأمر للمشرك مخاطبًا معه ولم ينتفع به وأعرض عنه، وخاطب المؤمن بقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وأتمّ الكلام معه، ذكر معه ما يكون إرشادًا للمشرك بحيث يسمعه، وهذا طريق في غاية الحُسْنِ، فإنّ السّيد إذا كان له عبدان، أو الوالدَ إذا كان له ولدان وأحدُهما رشيدٌ والآخر مفسِدٌ، ينصح أوّلًا المفسد، فإنْ لم يسمع يقول مُعرِضًا عنه، ملتفتًا إلى الرّشيد: إنّ هذا لا يستحقّ الخطاب، فاسمَعْ أنت ولا تكن مثل هذا المفسد؛ فيتضمّن هذا الكلام نصيحةَ المصلح وزجْرَ المفسد"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَخَّرَ﴾: (سخر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى احْتِقارٍ واسْتِذْلالٍ؛ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُنا: سَخَّرَ اللّهُ ﷻ الشَّيْءَ، وذَلِكَ إذا ذَلَّلَهُ لِأَمْرِهِ وإرادَتِهِ[2]، والسُّخْرَةُ: ما تَسَخَّرَتْ مِنْ دابَّة أو خادِمٍ بِلا أجر ولا ثَمَنٍ، ويُقالُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 73، وينظر: المراغي، تفسير المراغي: 21/ 17.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).

سَخَرْتُه بِمَعْنَى سَخَّرْتُه، أي: قَهَرْتُه وذَلَّلْتُهُ، وسَخَّرَهُ تَسْخيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بِلا أُجرة، وسخَّره يُسَخِّرُه سِخْرِيًّا وسُخْرِيًّا وسَخَرَه: كَلَّفَهُ ما لا يُرِيدُ وقَهَرَهُ، وكُلُّ مَقْهورٍ مُدَبَّرٍ لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ما يُخَلِّصُهُ مِنَ الْقَهْرِ، فذَلِكَ مسخَّر[1]، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغرض المختصّ به قهْرًا، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 13]، فالْمُسَخَّرُ هو المقيّض للفعل[2]، وقوله تَعالَى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: ذَلَّلَهُما.

2) ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: (أفك) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى قَلْبِ الشَّيْءِ وصَرْفِهِ عَنْ جِهَتِهِ؛ يُقالُ: أُفِكَ الشَّيْءُ، وأفِكَ الرَّجُلُ: إذا كَذَبَ، والْإِفْكُ: الْكَذِبُ، وأَفَكْتُ الرَّجُلَ عَنِ الشَّيْءِ: إذا صَرَفْتَهُ عَنْهُ[3]، والأَفْكُ، بِالْفَتْحِ: مَصْدَرُ قَوْلِكَ أَفَكَهُ عَنِ الشَّيْءِ يَأْفِكُه أَفْكًا صَرَفَهُ عَنْهُ وقَلَبَهُ، قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: 9]؛ أي: يُصْرَفُ عَنِ الإيمان مَنْ صُرِف، كما قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: 22]، أي لِتَصْرِفَنا وتَصُدَّنا، والأَفّاك: الَّذي يَأْفِكُ النّاسَ أي يَصُدُّهُمْ عَنِ الْحَقِّ بباطِلِهِ[4]، والإفك: كلُّ مصروف عن وجهه الذي يَحقُّ أن يكون عليه، ومنه قيل للرّياح العادلة عن المهابّ: مُؤْتَفِكَة، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ [الحاقة: 9]، وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: 30] أي: يُصْرَفونَ عن الحقِّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصِّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[5]، والمقصود في الآية: أي كيف يُصرفون عن التّوحيد والأدلّة عليه قائمةٌ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

شرعتِ الآية الكريمة بالقَسَم، مخاطبةً سيِّدَ الخلقِ ﷺ: إنْ سألتَ المشركين عن الخالق الذي أوجد السّماوات وما فيها من الكواكب النّيّرات، وأبدع الأرض وما حوته من كنوز ومعادن، وذلّل الشّمس والقمر، فجعلهما يجريان لمصالح الخلق، فتعاقب اللّيل والنّهار، لو سألتهم عمّن فعل ذلك لأجابوا بأنّ الخالقَ الموجِدَ هو الله ﷻ، ولن يكون جوابهم إلّا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سخر).
(2) الراغب، المفردات: (سخر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(5) الراغب، المفردات: (أفك).
(6) الواحدي، البسيط: 17/ 554.

تناقضُ الاعتقادِ مع السُّلوك دليلُ الانصراف عن الحقِّ

الاعتراف والإقرار لعلمهم بأنّ اللّه تعالى وحده هو الفاعل لذلك؛ فكيف يُصرفون عن توحيد اللّه وإخلاص العبادة له؟! فمقتضى الاعتراف أن يمتنع المشركون عن عبادة غيره، وهكذا يظهر تناقض المشركين واضطرابهم في الجمع بين الاعتقاد والسُّلوك.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الكشف عن تناقض المشركين في اعتقادهم في الألوهيّة والخالقيّة

افتتح النّظم الجليل الآية بالواو الاستئنافية[1]، فالجملة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مستأنفة لبيان ما كان عليه مشركو العرب من التّناقض في أفكارهم ومعتقداتهم، فعجّب من تناقضهم ذلك؛ وذلك ببيان اعترافهم بأن خالق هذا الكون على جهة الانفراد هو اللّه مع أنّهم يشركون بعبادته[2]، أي: هم كفروا باللّه.

"وإن سألهم سائل عمّن خلق السماوات والأرض يعترفوا بأنَّ اللّه هو خالقُ ذلك، ولا يُثبتون لأصنامهم شيئًا من الخلق؛ فكيف يلتقي هذا مع ادِّعائهم الإلهيَّة لأصنامهم؟! ولذلك قال اللّه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يُصرفون عن توحيد اللّه، وعن إبطال إشراكهم به ما لا يخلق شيئًا"[3].

نوعُ اللّامِ ودلالتها:

القسمُ تأكيدٌ لما سيُقال لا لما قيل

اللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هي الموطِّئة للقَسَم، والتّقدير: (واللّه لئن سألتَهم ليقولنّ)، والمراد تأكيد كون جوابهم لا يكون بغير ذلك؛ لأنّهم حقيقة يقرّون بها في أنفسهم، فالقَسَمُ هو لما سيقوله أولئك المشركون لا ما قالوه فحسب!.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 457.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 54 - 55.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 26.

بلاغة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

عند وقْعِ السّؤال يُسارع الجواب بلا مدافعة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالجملة الشّرطيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وذلك لما في الجملة الشّرطيّة من تلازم بين الشّرط وجوابه، "وهذا الإلزام مبنيٌّ على أنهم لا يستطيعون إذا سُئلوا إلا الاعتراف؛ لأنه كذلك في الواقع، ولأن القرآن يُتلى عليهم كلَّما نزل منه شيء يتعلّق بهم ويتلوه المسلمون على مسامعهم، فلو استطاعوا إنكار ما نُسب إليهم لصَدَعوا به"[1].

نكتة استعمال أداة (إن):

احتمال الوقوع لا ينفي الوقوع

آثر النّظم الكريم استعمال أداة الشّرط (إن) دون (إذا) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لأنَّه ليس المقصود حتميَّة السّؤال، بل إيراده على وجه احتمال الوقوع، أي: إن حصل منك وسألتهم فهذا جوابهم، وهذا لا ينفي الوقوع كذلك، فالاحتمالان واردان.

تعيينُ مرجع الضَّمير:

توجيه السّؤال لإلزام المعاندين وإسماع المؤمنين

جاء التَّعبير باستعمال ضمير المخاطب والغائب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾، والمراد بالمخاطب النّبيّ ﷺ، والمراد بالضّمير الغائب المشركون؛ لأنّ سؤال المؤمنين عن ذلك وبيان معرفتهم بالجواب لا ينبني عليه شيء، أمّا سؤال المشركين وبيان جوابهم سيُظهِر تناقضَهُم بين الاعتقادِ والسُّلوك، هذا من حيث المعنى، ومن حيث السّياق فإن لحاق الآية جاء فيه قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ وهذا لا يكون إلا للمشركين.

دلالة الاستفهام بـ﴿مَّنۡ﴾:

جاء استعمال اسم الاستفهام ﴿مَّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 26.

﴿سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وذلك للسّؤال عن ذات الخالق، فالمراد به تعيين الخالق وتقرير الفاعل[1].

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

تقريرُ المُنكرِ بالسُّؤالِ أبلغُ من مجرَّدِ الإخبار

استعمل النّظم الجليل أسلوب الاستفهام: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ للتّقرير؛ وذلك لأنّ السّائل يعرف أنّ المسؤولين يعرفون الجواب، وأنّهم لا ينكرونه بحال، فجيء به تقريرًا لهم وإلزامًا لهم بالاعتراف على بطلان آلهتهم وأصنامهم؛ ليكون توطئةً إلى التّوحيد، والاعتراف بالحقِّ.

نكتة تقديم السّماوات على الأرض:

شأن خلق السّماوات أعلى رتبة من خلق الأرض

قدّم النّظم الجليل ذِكر السّماوات على الأرض في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ وذلك لأنّ خَلۡقَهُما أكثرُ إلزامًا في التّقرير من خلق الأرض، ولأنّ خلق الأرض متأخّر عن خلق السّماوات[2]، فالسّماوات يشاهدها المشركون بأعينهم، والأرض يعيشون عليها بذواتهم، فكلاهما يُلزِم الكافرين بالاعتراف بكون اللّهِ تعالى خالقَهُما.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

معرفةُ حقائق الأشياء يزيد من الإنكار على العارفِ حين جحوده

عرّف النّظم الجليل لفظَي السّماوات والأرض بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وهي دالّةٌ على العهد، والعهد ذهنيٌّ لحضور الأرض والسماوات في الذّهن عند ذكرهما، فهم يعلمون المسؤول عنه، ويستحضرون عظمته وكبير شأنه، وهو ممّا يزيد من الإنكار عليهم؛ فإنَّ العالم بالشّيءِ ليس كالجاهل به.

بلاغة العطف بين الأفعال:

عطف النّظم الجليل فعل التّسخير على الخلق في قوله جلّ

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 234.

(2) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 234.

الخلق أصل الأمر، والتّسخير المظهر الأكبر

شأنه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ وذلك لأنّ التّقرير يكون بما ذكر، فالسّماوات والأرض لا يُنكرها ناكر، وتسخير الشّمس والقمر ظاهر لكلّ باصر، فكان الجمع بينهنّ أبلغ في التّقرير، فبدأ بالخلق باعتباره الأصل والقاعدة، ثم ذكر التّسخير باعتباره المظهر الأعظم في حياة البشر، فعليه مدار الزمان والمكان، ومشاهدة عجيب الأكوان.

سرّ التّعبير بفعل التّسخير دون الخلق:

الحكمة في السّماء والأرض الإيجاد، وفي الشّمس والقمر التّسخير

آثر النّظم الكريم استعمال لفظ التّسخير دون الخَلْقِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ فلم يقل: (وخلق الشّمس والقمر)؛ كما ذكر فعل الخلق مع السّماوات والأرض؛ وذلك لأنّ الآية والحكمة حاصلة بخلق السّماوات والأرض وإيجادهما، أمّا الشّمس والقمر فلا تحصل حكمة بمجرّد خلقهما، فإنّهما لو كانا بحيث يلبثان في موضع واحد بلا حركة لما حصل اللّيل والنّهار، ولا الصّيف ولا الشّتاء، فالحكمة كائنة في تحريكهما وتسخيرهما[1]، فذكر مع كلِّ فعلٍ ما يناسبه من المخلوقات، فجمع بين الأصل الثابت، والمظهر المتحرك؛ لبيان وظيفةِ كلِّ مخلوقٍ، وأنَّ هذا الكون لم يكن خاليًا عن الحكمة والعظمة.

توجيه المخصوص بالذكر:

الخطاب البليغ ما جمع بين إقناع العقل وإشباع العاطفة

خصَّ النظم الكريم تسخير الشمس والقمر بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ من بين مظاهر خلق السماوات والأرض؛ لما في حركتهما من دلالة على عظيم القدرة، مع ما في ذلك من المِنَّةِ على الناس إذ ناط بحركتهما أوقات الليل والنهار وضبط الشهور والفصول[2]، فذِكْرُ المنَّةِ في سياق الاستدلال أَجْمَعُ لخطاب العقل وتحريك العاطفة.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 73.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 26.

تسخيرُ الشّمس والقمر إلجاءٌ لهما للعملِ بأمر الله تعالى

فعل التّسخير بين الحقيقة والمجاز:

استعمل النّظم الكريم فعل التّسخير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾، ويُستعمل التّسخير مجازًا في تصريف الشيء غير ذي الإرادة في عمل عجيب أو عظيم من شأنه أن يصعب استعماله فيه، بحيلةٍ أو إلهام تصريفًا يصيِّره من خصائصه وشؤونه، كتسخير الفُلْكِ للمَخْرِ في البحر بالريح، وتسخيرِ السحاب للأمطار، وتسخير النهار للعمل، والليل للسُّكون؛ ولذلك قال اللّه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: 13] باعتبار هذا المجاز على تفاوت في قوّة العلاقة، فقوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: 54] أطلق التسخير فيه مجازًا على جعلها خاضعةً للنظام الذي خلقها اللّه عليه بدون تغيير، مع أنَّ شأن عِظَمِها أن لا يستطيع غيرُه تعالى وضْعَها على نظام محدود منضبط[1].

وبعد أن قرَّر ابن عاشور هذا الكلام في آية الأعراف وأحال عليه في هذا الموضع الذي نحن فيه، مال هنا إلى جعل التَّسخير محمولًا على الحقيقة! فقال: "وتسخير الشيء: إلجاؤه لعمل شديد، وأحسب أنه حقيقة سواء كان المُسَخَّر - بالفتح - ذا إرادة أم كان جمادًا، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: 54] في سورة الأعراف"[2]، وما قرَّره في سورة الأعراف هو الأليقُ بكلام البيانيّين، وما ذَهَب إليه هنا هو الأليقُ بالألفاظ الدّالّة على الغيبيّات؛ فإنَّ تسخير الشمس والقمر على الحقيقةِ من الغيبيّات التي لا نعلم عن حقائقها إلّا ما جاء به الخبر، وأما مظاهر التَّسخير فهي من المشاهدات التي لا تغيب عن ذي بصر.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 168.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 26.

معنى تعريف ﴿ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾:

تعريف لفظَيِ الشّمس والقمر بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ للعهد، والعهد ذهنيٌّ لحضور الشّمس والقمر في الذّهن عند ذكرهما.

علَّة تقديم الشّمس على القمر:

الأصول مقدَّمة على الفروع

قدّم النّظم الجليل ذكر الشّمس على القمر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ وذلك لأنّها الأصل في الضَّوء والحرارة التي تبعث الحياة في الأرض، فهي أكثر فائدة للأرض وأظهر نفعًا، والقمر تابعٌ لها في النَّفع والانتفاع.

نوعُ اللّام ودلالتُها:

التّأكيد بالقسم لإثبات الأمر وتحقيقه

اللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ هي الواقعة في جواب القسم، دالّة على قَسَمٍ محذوف مقدَّرٍ، والتّقدير: واللّه ليقولنّ[1]، وفائدة ذلك الدّلالة على أنّ قولهم ذلك كائن لا محالة، حتّى إنّه ليُقسم عليه، والتَّأكيد بالقسم لإثبات الأمر وتحقيقه.

نكتة تتابع المؤكّدات:

الحقّ ظاهر معترَف به ولا سبيل إلى إنكاره

أكّد النّظم الجليل الجملة الفعليّة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ بالقسم وبنون التّأكيد للدّلالة على تحقّق قولهم، وأنّهم لا سبيل لهم إلى إنكار الجواب ولا إلى التّردّد فيه؛ لقوّته وظهوره[2].

الموقع النّحويّ لقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

ما أقسم عليه وأكّد وقوعه اعترافهم بوحدانية الخالق

عبّر النّظم الجليل بالجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ لبيان ما أقسم عليه، فالجملة جواب القسم[3]، ولهذه الجملة فائدة نحوية أخرى وهي الدّلالة على جواب الشّرط المحذوف، فاكتفى النّظم بجواب القسم واستغنى عن جواب الشّرط لظهور المراد.

---

(1) الدّعاس، إعراب القرآن: 3/ 6.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 46.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 14.

نوعُ الفاء ودلالتها:

الـفـاء إمـا تفريعيّة سببيّة أو فصيحة

افتتح النّظم الجليل الجملة الاستفهاميّة بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾، وهي دالّةٌ هنا: إمّا على التّفريع والسّببيّة، فالاستفهام الإنكاريّ متفرّع عن الكلام السّابق، ومسبَّبٌ عنه[1]، فانصرافهم عن التّوحيد - بعد الإقرار بكون الله تعالى هو الخالق - يدعو للإنكار.

وإمّا أنها فصيحة[2]، لأنَّها تُفْصِح عن جملة شرطيّة محذوفة، والتقدير: (إن صَرَفَهُم الهوى فأنّى يؤفكون)[3]، أو: إن كان قولهم اعترافًا بالحقِّ ثم يُصرّون على خلافه؛ فأنى يُصرَفون.

بلاغة الاستفهام بأداة (أنّى):

الانـصـراف عن التّوحيد أعجبُ فـعـل وأغـرب سلوك

عبّر النّظم الجليل باسم الاستفهام (أنّى) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾، وهي تستعمل للدّلالة على معنيين في الاستفهام، فتكون بمعنى كيف، ومعنى أين، وهي صالحة لكليهما هنا، والمراد بالاستفهام الإنكار والتّعجيب من حالهم، أي "فكيفَ يُصرفون عن الإقرارِ بتفرُّدِه تعالى في الإلهيَّة مع إقرارِهم بتفرُّدِه تعالى فيما ذكر من الخلق والتَّسخيرِ"[4].

دلالة التّعبير بمفردة ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾ مادّة وصيغة:

الانـصـرافُ عن مـوجـب الـحـقّ شيمةُ الباطل وسمةُ العاطل

عبّر النّظم الجليل بفعل الإفك في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ وذلك للدّلالة على أنهم ينصرفون عمّا ينبغي أن يكونوا عليه، فهو انصراف باطل، ويكون ذلك بالانصراف عن الحقّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[5]، وقد عبّر عن ذلك بصيغة المبنيّ للمفعول للدّلالة على أنّهم ينصرفون بفعل أي صارف يدعوهم لترك الحقِّ واتّباع

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 235.
(2) الدّعاس، إعراب القرآن: 3/ 6.
(3) صافي، الجدول: 21/ 14.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 46.
(5) الراغب، المفردات: (أفك).

الباطل[1]، تعبيرًا عن خفّتهم وانقطاعهم عن الأصول، والتّعبير بالفعل المضارع للإشارة إلى أنّهم يفعلون ذلك باستمرارٍ ودوام.

نكتةُ حذْفِ متعلّق فعل ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾:

بيانُ عموم الانصرافِ عن كلّ حقٍّ وصلاح

حذف النّظم الجليل متعلِّق الفعل في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ فلم يبيّن عن أيّ شيء يؤفكون؛ وذلك للدّلالة على عموم الصرف عن الخير، فهم يُصرفون عن الاعتقاد الحقّ إلى الباطل، وعن الصّدق في المقال إلى الكذب، وعن الجميل في الفعل إلى القبيح.

الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإفك والصرف:

الصّرف تحويل وردّ، والإفك عن الشّيءِ انصراف عمّا ينبغي أن يكون عليه

الصّرف: يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ، وهو: ردّ الشّيء من حالة إلى حالة[2]، يُقال: صَرَفْتُ القَوْمَ صَرْفًا وانْصَرَفوا، إذا رَجَعْتَهُمْ فرَجَعوا، يقال: صرفه عن كذا: إذا عَدَلَ به عنه ونحّاه[3]، أمّا يُؤفكون: فهو صرف الشّيء عن جهته[4]، قال تعالى: ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ٩﴾ [الذاريات: 9]؛ أي يُصْرَفُ عَنِ الإيمان مَنْ صُرِفَ[5]، والإفك: كلُّ مصروف عن وجهه الذي يحقّ أن يكون عليه، وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ [التوبة: 30] أي: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[6]، فالصَّرْفُ تحوّل عامّ، بمعنًى الرّدّ والإرجاع، يُستعمل للردّ العامّ ولا يتعلّق بالتّوجه، أمّا الإفك فهو صَرْفٌ عن الوجه الذي ينبغي أن يكونوا عليه، وعبّر في الآيةِ بالإفك؛ لأنّهم انصرفوا عن التّوحيد مع قيام الأدلّة عليه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 471.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (صرف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(6) الراغب، المفردات: (أفك).

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢﴾ [العنكبوت: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من السُّنَن الكونيَّة في التَّسخير إلى السُّنَن الكونيَّة في الرزق

لّما ذكرتِ الآياتُ السّابقة أمرَ الخلق، وأنَّ اللّه تعالى وحده هو خالق السّماوات والأرض، ومسخّر الشّمس والقمر، أتبعه ببيان الرّزق، فأمْر الخلقِ محوجٌ للرّزق؛ لأنّ "كمال الخلق ببقائه، وبقاء الخلق بالرّزق، واللّه تعالى هو المتفضّل بالرّزق على الخلق، فله الفضل والإحسان، والطَّول والامتنان"[1]، واستمرارُ الحياةِ وقيامُها على الرزق بعد الخلق، فإنَّ اللّه تعالى أوجد سننًا كونيَّة في بسط الرزق بعد السنن الكونيّة في تسخير الشمس والقمر.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡسُطُ﴾: (بسط) أَصْلٌ يدلُّ على امْتِدادِ الشَّيْءِ، في عِرَضٍ أَوْ غَيْرِ عِرَضٍ، والْبَسْطَةُ في كُلِّ شَيْءٍ: السَّعَةُ، وهوَ بَسيطُ الْجِسْمِ والْباعِ والْعِلْمِ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: 247][2]، ومن أسماء اللّهِ تَعالَى: الباسطُ، وهوَ الَّذي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ ويوَسِّعُهُ عَلَيْهِمْ بجوده ورَحْمَتِهِ، ويبسُط الأرواح في الأجساد عِنْدَ الْحَياةِ، والبَسْطُ: نَقيضُ القَبْضِ[3]، وبَسْطُ الشيء: نَشْرُه وتوسيعه، والمقصود في الآية: توسيع اللّه الرّزق على مَن يشاء من عباده[4].

2) ﴿وَيَقۡدِرُ﴾: (قدر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِهِ، فالْقَدْرُ: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق:

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 385، وينظر: الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 74.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسط).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بسط).
(4) تفسير السمعاني: 4/ 192.

فمَعْناهُ قُتِرَ، وقياسُهُ أنَّهُ أُعْطيَ ذَلِكَ بِقَدْرٍ يَسيرٍ[1]، واستُعمِل في معنى التّضييق من كون الشّيء على قَدْر الشيء دون زيادة[2]، وقُدِرَ على الإنسان رزقُهُ قَدْرًا، مثل قتر[3]، وقَدَرْتُ عليه الشيء: ضيّقته، قال تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الروم: 37][4]، والمراد به في الآية الكريمة تضييق الرّزق[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآية الكريمة أنّ الله تعالى وحده هو الذي يوسّع الرّزق على عباده، ويُضَيِّق على من يريد منهم؛ "فاللّه هو الخالق الرازق لعباده، يَقسم وحده الأرزاق على وفق الحكمة ومقتضى المصلحة؛ لأنَّ الله عليم بكل شيء من المفاسد والمصالح، ومقتضيات سعة الرزق وتضييقه، فيمنح ويمنع، بما هو الأصلح وما هو خير لعباده في الحالين، ويحصل التفاوت بين الناس في الأرزاق، ويكون هناك الغني والفقير، واللّه هو العليم بما يصلح كلًّا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر".

توسيع الرّزق وتضييقه تابع لحكمة الله تعالى وسننه في الكون

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل الآية عن سابقتها:

فُصِلت جملة: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾ لأنّها مستأنَفَةٌ[6]، سيقت لذِكْرِ وجْهٍ آخرَ من وجوه تناقض المشركين، فالآية تُبطِل شِرْكَهُم ببيان اعترافهم بأنّ الرّازق هو اللّه تعالى؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ

اعتراف المشركين بأنّ الرازق هو الله دليلٌ جليٌّ على إبطال شركهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قدر).
(3) الجوهري، الصحاح: (قدر).
(4) الراغب، المفردات: (قدر).
(5) الإيجي، جامع البيان: 3/ 287.
(6) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 15.

ﱡٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ﱠ [يونس: 31][1].

نكتة العدول عن الاستفهام إلى الخبر:

مَنْ أُلزم الجواب الحقّ في الخلق والتسخير، أُلزِمَهُ في بَسْط الرزق والتقتير

عدل النّظم الجليل عن أسلوب الاستفهام في الآية السّابقة إلى أسلوب الإخبار في قوله جلّ شأنه: ﱡٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓﱠ، فلم يقل: (ولئن سألتهم من يبسط الرّزق)؛ وذلك للتّفنّن في أساليب البيان، تنشيطًا للسّامع وتنبيهًا للغافل[2]، ولمناسبة كلِّ أسلوبٍ ما جاء فيه، فالخبر في أمر الرزق مبنيٌّ على الاستفهام التقريري في شأن الخلق والتسخير، فمن أُلزِمَ الجوابَ الحقَّ في الخلق والتسخير، أُلزِمَه في بَسْط الرزق والتقتير.

نكتة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

الـرّزق فعل مخصوص بالله تعالى

قدّم النّظم الجليل المسند إليه على مسنده الفعليّ في قوله جلّ شأنه: ﱡٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَﱠ دون أن يقال: (يبسط اللّه الرّزق)؛ وذلك للدّلالة على الاختصاص، فاللّه تعالى وحده هو الذي يبسط الرّزق لعباده، وهو وحده الذي يضيّقه عليهم[3].

بلاغةُ استعمال مفردة ﱡيَبۡسُطُﱠ مادّة وصيغة:

الإيماءُ إلى طلب الرِّزق في بساطِ الأرضِ وعدم الاقتصار على مكانٍ دون آخر

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة البسط في قوله جلّ شأنه: ﱡٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓﱠ للدّلالة على سعة رزقه وتوسيعه لعباده، وللإيماءِ إلى أنَّ توسيع الرزق مرتبطٌ بانبساط الأرض لا بضيقِها، فهي إشارة إلى الحضِّ على الهجرة وطلب الرزق في بساط الأرض الفسيح، وأنَّ أسباب الرزق مبسوطةٌ لا تتوقّف على مكانٍ دون آخر، وعلى العاقل أن يبحث عنها في هذه البسيطة،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 27.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 27.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 27.

وجيء به بصيغة المضارع للدّلالة على التّجدّد والاستمرار[1]، فشأن الرّزق الدّوام والتّجدّد.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلرِّزْقَ﴾:

الـرزقُ معهودٌ لـدى المخاطَبين حاضرٌ في أذهان المؤمنين

عُرّف الرزّق بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ للدّلالة على المعهود، لأنّ الآية تتمةٌ للذي جاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ﴾؛ لأنَّ الأولى في المَرْزوقِ وعُمومِه، وهذه في الرِّزقِ وبَسْطِه وقَتْرِه[2].

نوعُ اللام ودلالتُها:

استعمل النّظم الكريم حرف (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ للدّلالة على التّعليل، أي إنّه يبسط لأجله؛ فالرّزق كائن لمصلحة العباد وبركته عليهم.

دلالة التّعبير بالاسم الموصول:

رزق الله تعالى عـامّ في الخلقِ جميعًا المؤمن والكافر

عبّر النّظم الجليل بالاسم الموصول (مَن) في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ للدّلالة على العموم، فالله تعالى يبسط لمن يشاء من عموم النّاس، فإنّ شأن الرّزق ممّا كَفَلَه الله تعالى لجميع عباده، لا لفئة دون غيرها، ولا لجنس دون آخر، ولا لقوميَّة دون أخرى، ولا لحقٍّ دون باطل؛ كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20].

نكتة التّعبير بصيغة المضارع:

مشيئته تعالى دائـمـة بـدوام رزقه لعباده

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع عن مشيئته تعالى في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ للدّلالة على تجدّد المشيئة واستمرارها، وذلك لأنّ فعل الرّزق لا ينقطع، فمشيئة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 27.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 198.

التّوسيع فيه أو التّقدير مستمرّة كذلك، فهي دائمة بديمومةِ الحياةِ، وباقيةٌ ببقاء البشر.

نوعُ حرف ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُه:

مدارُ الرزقِ على العبادِ بسطًا وتقديرًا

جاء استعمال حرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وهي دالّة على البيان، أي أنّ الذين يشاء أن يوسّع لهم أو يقدر لهم هم عباده، فيكون المعنى أنّه يبسط لقبيل، ويقدر لقبيل آخر، ويجوز أن تكون دالّة على التّبعيض، فيكون المعنى: إنَّ اللّه يبسطُ رزقَ بعض عباده، ويَقْدِرُ رزْقَ بعضهم[1]، أو أن تكون ابتدائيَّة أي: أن بَسْطَ الرزق يكون ابتداءً من العباد وانتهاءً بغيرهم.

نكتة إضافة لفظ العباد إلى الضمير:

العباد مرزوقون بالخالقيّة لا بالعبوديّة

أضاف النّظم الجليل لفظ العباد إلى الضّمير العائد إلى اللّه تعالى في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ للدّلالة على أنّ العباد جميعًا للّه تعالى، مؤمنهم وكافرهم، وأنّ شأن الرّزق عامٌّ لهم، وهذا من عظيم رحمة اللّه تعالى أنّه يرزق الكفّار من عباده بسطًا وتقتيرًا، ولو جعل الرزق للعباد العابدين لذهب التّكليف ووقع الجبر والإلزام، واللّه سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يكونوا مختارين.

دلالة الواو العاطفة:

بسطُ الرّزق وتضييقه لله تعالى لا ينازعه أحدٌ فيهما

عطف النّظم الجليل تقدير الرّزق في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ على بسط الرّزق في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، وذلك للدّلالة على أنّ اللّه تعالى هو وحده يَقْدِرُ الرّزق على عباده، كما أنّه وحده تعالى يوسّع الرّزق عليهم[2]، فلا عذرَ لمن خاف أن يُضَيَّق عليه رزقُه بسبب الهجرة؛ فاللّه تعالى وحده القادر على ذلك.

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 198.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 55.

نكتة التّعبير بصيغة المضارع:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع عن قدْر الرّزق في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ وذلك للدّلالة على تجدّد تضييق الرّزق واستمراره لبعض العباد، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هذا التقدير ليس المراد منه الإبقاء على بعض العباد دون بعض، بل هو متنقِّلٌ بين النّاس، فما أصاب قومًا من فقرٍ وعَوَزٍ، أصابهم في غَدِهِ غنًى وكفاية.

بقاء الحال من المحال فلا فرح ولا اغتمام

بلاغةُ استعمالِ اللّامِ ودلالتُها:

استعمل النّظم الكريم حرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ للدّلالة على التّعليل، أي إنّ التّقدير واقع لحكمة ومصلحة للعباد، قد تغيب عن أفهام غالب النّاس، "ولما كان ذلك إنما هو لمصالح العباد وإن لم يظهر لهم وجه حكمته؛ قال: ﴿لَهُۥٓ﴾ أي لتظهر من ذلك قدرته وحكمته"[1]، فهي دعوةٌ للتَّفكُّر والتَّأمُّل فيما يُحيط بالنّاس من أمر رزقهم بسطًا وتقتيرًا، وقد يكون التَّضييق والتقتير هو النّافع، كما قال تعالى: ﴿۞وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥﴾ [المؤمنون: 75].

تضييق الرّزق مبنيّ على حكمة لصالح العباد

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ ذُكر فيها القيد ﴿لَهُۥٓ﴾، وحُذفت من مواضع أخرى كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرعد: 26]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الإسراء: 30]، فأطلق فعل (يقدر) دون تقييده بالجرِّ والمجرور، وذلك مرتبط ببيئة نزول الآية ووقتها، فقد جاء ذكر القيد تنبيهًا للمؤمنين وتبصيرًا لهم، حيث ابتُلوا في أموالهم باعتداء المشركين عليها، فبصّرهم بأنّ ذلك لهم لا عليهم؛ لما يعقبهم بسببه الثّواب الجزيل، ولهذا لم يُعَدّ الفعل

الإيماءُ إلى أنَّ بعض تقدير الرّزق يعقبه ثوابٌ جزيلٌ؛ فهو لهم لا عليهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 471.

(يقدر) بحرف الاستعلاء (على) وهو ما يقتضيه الظاهر؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطلاق: 7][1].

نكتة فصل جملة الفاصلة:

عِلّةُ تفاوت الرّزق بين العباد عِلْمُ الله تعالى بمصالحهم

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ لأنّها مستأنفة استئنافًا تعليليًّا، سيقت لتعليل التّفاوت في رزق العباد، فأخبرت بأنّ ذلك التّفاوت قائم على المصلحة التي يعلمها اللّه تعالى، فهو العالم بمصالح العباد، يعلم الذين يصلحُ لهم البسط، والذين يناسبهم القبض، فيعطيهم بحسب ذلك العلم[2].

بلاغة تتابع المؤكّدات:

تأكيد العلم بمصالح العبادِ ينقض التّعلّل بالأسباب

أكّد النّظم الجليل العبارة المساقة للتّذييل في فاصلة الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ تأكيدًا لصفة علمه تعالى، وهذا التّأكيد يُفصح عن أنّ ما سبق ذكره في صدر الآية جارٍ على العلم الإلهيّ الذي لا يشكّ به، وفائدة التّأكيد الرّدّ على من يعتقد أنّ التّقدير والتّوسيع كائن بسبب تقصير بعض العباد وتشمير بعضهم[3].

دلالةُ الباء الدّاخلة على لفظ العموم:

استعمل النّظم الكريم حرف (الباء) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ للدّلالةِ على بلوغِ علمه سبحانه كلَّ شيءٍ، أي: إنّ علم اللّه تعالى محقّق قائم وواقع بكلّ شيء.

نكتة استعمال (كلّ):

بَسْطُ الرِّزق وقَدْرُه قائمٌ على علم الله تعالى وبه وجب التّسليم

عبّر النّظم الجليل بلفظ العموم (كلّ) في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ لتأكيد علمِه تعالى وتعلّقِه بكلّ شيء، والمراد تأكيد علمه بما يصلح للعباد من سعة الرّزق وضيقه، والمقصود

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 27 - 28.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 21/ 18.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 472.

الإشارة إلى المؤمنين بأنّ الهجرة لا يحول دونها الاعتذار بأمر الرّزق، فوجب إنفاذها، وأنَّ الابتلاء واقعٌ وهو يعلمه سبحانه وتعالى، فبسطه وتقديره قائم على العلم، وما كان قائمًا على العلم فإنَّ التسليم له واجب الاعتقاد الصحيح، وركن التسليم الصريح.

نكتة تنكير لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾:

العمومُ مقصودٌ لاستيعاب المعلومات

نُكِّر لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ للدّلالة على شمول الأشياء وعمومها، أي هو عليمٌ بكلّ من حال المرزوقين، ومن شأن الأرزاق[1]، فعِلْمُه تعالى متعلّق بكلّ ما يصحُّ أن يقال له شيء، صغُر أم كبُر، وهذا موافق لما أُريدَ من العبارة وهو تأكيد شمول علمه تعالى.

غرض تقديم شبه الجملة على الخبر:

الإحاطة بالمعلومات قبل الإخبار بعلمها

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة من الجارّ والمجرور على خبر إنّ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، فلم يقل: (إنّ اللّٰه عليمٌ بكلّ شيء)؛ وذلك للاهتمام بدلالة العموم والشّمول والإحاطة بكلّ شيء قبل سَوق الحكم، فليس المراد الإخبار عن علم اللّٰه تعالى على وجه الإطلاق، بل بكونه متعلِّقًا بالعموم والشّمول، فقدّم المتعلّق للتّنبيه عليه، فيقع في النّفس أبلَغَ موقعٍ.

نكتة التّذييل بصفة العلم مادّة وصيغة:

اختلاف حال العباد بالرّزق جارٍ على حكمة اللّٰه تعالى وعلمه بما يصلحهم

ذيّل النّظم الجليل الآية بصفة العلم في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ للدّلالة على أنّ توسيع الرّزق وتقديره جارٍ على وفق ما يعلمه اللّٰه تعالى من مصالح عباده، فهو يعلم ما يصلحهم وما يفسدهم[2]، وقد آثر أن يأتي ذكر العلم بصيغة التّنكير لما فيه من مبالغة وتفخيم وتعظيم، وعبّر عن العلم بصيغة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 472.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 472، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 28.

المبالغة على وزن (فعيل) للدّلالة على قوّة الصّفة وتأكيد إحاطة علمه تعالى بكلّ شيء.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرزق والمال:

المال ما مُلِك من الأشياء والرّزق هو العطاء الجاري وهو أعمُّ

الرِّزْقُ: يقال للعطاء الجاري تارة، دنيويًّا كان أم أخرويًّا، وللنّصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذّى به، يقال: أعطى السّلطان رِزْقَ الجند، ورُزِقْتُ علمًا، قال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المنافقون: 10]، أي: من المال والجاه والعلم، ويقال للمطر، ومنه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: 22]، وعلى الطّعام: كقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: 19]، أي: بطعام يتغذّى به[1]، أمّا المال: فهو ما مَلَكْتَه مِنْ جَميع الأشياء[2]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ [الكهف: 46] المال: ما ملك من متاع الدّنيا وصحّ الانتفاع به، وغلب في النّقود والعروض المعدّة للتّجارة[3]، وفي الآية عبّر بالرّزق لأنّه أراد المطعوم، وهو رزق لا مال.

(1) الراغب، المفردات: (رزق).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مول).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (مول).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

[العنكبوت: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من ذِكْرِ عمومِ الرزق إلى أعظم أسبابه

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة أمْرَ الرّزق وبَسْطَه على العباد وتضييقَه، وقبل ذلك ذكر خلق السماوات والأرض، وتسخير الشّمس والقمر، أتْبَعَه هنا ببيان سبب ذلك الرّزق ومصدره، وهو الماء النّازل من السّماء، فلمّا سألهم عن الخلق وبيّن أمر رزق الخلائق؛ أتبع ذلك بالسّؤال عن الرّزق ليعترفوا به كما اعترفوا بالخلق[1]، فإنّ الاعتراف بسبب الرّزق وهو الماء النّازل من السّماء، يستلزم الاعتراف بالمسبِّب أيضًا وهو الله تعالى[2]، فهو انتقالٌ من ذكر عمومِ الرزق، إلى ذكر أعظم أسبابه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَوْتِهَا﴾: (موت) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ذَهابِ الْقُوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ، ومِنْهُ الْمَوْتُ: خِلافُ الْحَياةِ[3]، والمَواتُ: الأرض التي لا مالكَ لها من الآدميّين، ولا ينتفع بها أحد، والمَوَتان: خلاف الحيَوان، يُقال: اشترِ المَوَتانَ ولا تشترِ الحيوان، أي: اشترِ الأرضَ والدّورَ ولا تشترِ الرّقيقَ والدّوابَّ، والمَوَتانُ من الأرض: التي لم تُحْيَ بعد[4]، والموت أنواعٌ بحسب أنواع الحياة، ومنها: ما هو بإزاء القوّة النّامية الموجودة في الإنسان والحيوان والنّبات، نحو قوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾

(1) المراغي، تفسير المراغي: 21/ 18.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 472.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موت).
(4) الجوهري، الصحاح: (موت).

[ق: 11][1]، والمراد بموت الأرض في الآية الكريمة أنّها كانت يابسة لا حياة بها[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الاعتراف والإقرار بوحدانية منزّل الماء من السّماء

تُخبر الآية الكريمة عن حقيقة من الحقائق الثّابتة التي تُظهِر تناقض المشركين، فإنّك لو سألت المشركين عن الفاعل الذي نزّل من السّماء ماء طيّبًا مباركًا فأنبت به الأرض وأحياها بسببه بعد جفافها ويَبَسها، فإنّهم بلا تردّد سيقولون على سبيل الاعتراف والإقرار: اللّه وحده هو الذي نزَّل ذلك، فيأمر اللّه تعالى النّبيّ ﷺ بأن يعلن ثناءه على اللّه تعالى؛ لإظهار الحجّة عليهم وفضح تناقضهم، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعقلون هذا التّناقض الحاصل منهم، فهم يقولون بأنّ الخالق الموجد المحيي الرازق هو اللّه، ثمّ يقولون بألوهيّة غير اللّه، فيخالف فعلُهم أقوالَهم، ولو لم يكونوا جاهلين لما أشركوا مع اللّه غيره[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها الترابطية:

حشدُ الحُجَج لكشف شدّة ضلال المشركين

عطف النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ على الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ لجمع الأدلّة وربطها ببعض، وقد أعاد الرّبط بالأسلوب ذاته، فأعيد السّؤال والجواب لذلك، والغرض من ذلك إقامة الحجّة عليهم بمزيد من التّأكيد[4].

نوعُ اللّام ودلالتُها:

اللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾

---

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (موت).
(2) القنوجي، فتح البيان: 7/ 267.
(3) مجموعة من الباحثين، التفسير الميسر: 1/ 403.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 28.

هي اللّام الموطّئة للقَسَم، وهي الدّاخلة على (إن) الشرطيَّة، توطئةً لقسمٍ تأكيديٍّ على معنى يُراد تحقيقه.

بلاغة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

السّؤال عن الحقائق غير المُنْكَرة مُظهِرٌ تناقضَ المشركين

آثر النّظم الكريم التّعبير بالجملة الشّرطيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ وذلك لبيان تعلّق جوابهم بالسّؤال تعلّقًا متلازمًا، فيُفصِح عن أنّهم لا ينكرون أنّ اللّه تعالى هو منزل الماء من السّماء؛ إذ لا يصلح أن يكون الفاعل لهذه الأفعال الضّخام غير اللّه تعالى، فيخبر اللّه تعالى أنّ المشركين عند سؤالهم عن ذلك فإنّ جوابهم لن يكون إلّا الإقرار باللّه تعالى فاعلًا لها[1]، فلا يستطيعون الإنكار بوجه، فالتّعبير بالجملة الشّرطية يدلّ على أنّهم مقرّون بالرّبوبيّة للّه تعالى، فيقع التّعجيب من حالهم في تناقضهم فيما وراء ذلك.

نكتة استعمال أداة (إن):

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ(إن) الشّرطيّة دون (إذا) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وذلك لأنّ (إن) أنسب بما يَرِدُ على سبيل الافتراض.

تعيين مرجع الضّمائر:

توجيه النّبيّ ﷺ لإلزام الكافرين بما يقرّون

عبّر النّظم الجليل بضميرَي المخاطب والغائب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، والخطاب للنّبيّ ﷺ، والمراد بالضّمير الغائب المشركون، فهو إخبار من اللّه تعالى بأن يسأل النّبيّ ﷺ المشركين عمّن نزّل من السّماء ماء[2]، ليضطرّهم إلى التّقرير والإلزام.

دلالة الاستفهام باسم ﴿مَّن﴾:

عبّر النّظم الجليل باسم الاستفهام ﴿مَّن﴾ في قوله جلّ شأنه:

---

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 236.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 26.

إقامة الحجَّة عند إيراد السّؤال وإثبات البرهان عند صدور الجواب

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ وذلك للسّؤال عن الفاعل لهذه الأفعال الضّخام من إنزال الماء من السّماء، فالمراد من الاستفهام تقرير الفاعل[1]، وتعيين منزل الماء من السَّماء؛ لإقامة الحجّة عند إيراد السؤال، وإثبات البرهان عند صدور الجواب.

بلاغةُ الاستفهام وغرضُه:

السّؤال الموصل لمقصود السّائل استدلالٌ لا استفهام

عبّر النّظم الجليل بأسلوب الاستفهام لتقرير الكافرين بالفاعل في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، فالاستفهام دالٌّ على التّقرير؛ وذلك لأنّ المسؤولين لا يمكن لهم أن يجيبوا بخلاف ما يعرفون، والسّائل يعرف أنّهم لا يملكون مدافعة ذلك السّؤال إلّا بالجواب بما قَرَّ في أنفسهم، وفائدة ذلك إلزامهم بالاعتراف على بطلان معتقدهم؛ للوصول إلى الحقِّ المبين فيما يصدر عنهم من الأقاويل.

نكتة التّعبير بالفعل المضعّف:

آثر النّظم الكريم التّعبير بفعل ﴿نَّزَّلَ﴾ على وزن (فعّل) في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾؛ للدّلالة على تكثير إنزاله ذلك الماء من السَّماء.

دلالة تقييد فعل تنزيل الماء:

إنزالُ الماء من السّماء محضُ نعمةٍ لا يدّعيها المبطلون

قَيَّدَ النّظمُ الجليل تنزيلَ الماء بكونه آتيًا من جهة السّماء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾؛ وذلك لأنّ إنزال الماء من السّماء مختصّ بالله تعالى، لا يستطيع أحدٌ من الطّغاة أن يدّعيه لنفسه، و﴿مِنَ﴾ دالّة على الابتداء، أي ابتدأ إنزاله من جهة العلوّ[2]، كما أنّ تقييده بذلك يبيّن أنّه مَحْضُ إنعامٍ منه تعالى، فيكون أَلْزَمَ لهم بالاعتراف.

---

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 236.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 472.

نكتة تنكير ﴿مَآءً﴾:

نُكِّر لفظ الماء في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا له، فالماء النّازل من السّماء مصدرُ حياتهم، ومُنْبِتُ كلأهم.

نوع الفاء ومعناها:

إحياء الأرض بماء المطر متحقِّقٌ بعد نزوله

عطف النّظم البليغ إحياء الأرض على إنزال الماء من السّماء في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالفاء العاطفة[1]، وذلك للدّلالة على أنّ إحياء الأرض مترتّب على نزول الماء، وأنّه يقع بعده وشيكًا، وأنّه مسبَّبٌ عنه.

نوعُ الباء ودلالتُها:

الماء النّازل من السّماء سببُ إحياء الأرض

استعمل النّظم الجليل حرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ وهو دالّ هنا على السّببيّة، أي أنّ الأرض تكون حيّة بسبب هذا الماء النّازل من السّماء[2]، وجَعْلُ نزولِ الماء سببًا لإحياء الأرض يدلُّ على عظيم الإنعام بذلك الماء.

نكتة تقديم القيد على المفعول:

إحياءُ الأرض المَيْتَةِ غايةُ إنزال الماء من السّماء

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة من الجارّ والمجرور على المفعول به في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ دون أن يقول: (فأحيا الأرض به)؛ وذلك للدّلالة على التّخصيص بالتّغليب، فإنّ أكثر الأرض يُحيى بماء المطر بلا تدخّل النّاس بالسّقي[3]، فإنّ تلك الأراضي الكثيرة إنّما نبتت بماء المطر، فغلّبه على غيره فاستقام التّخصيص بتقديم الجارّ، والماء الذي يسقي به النّاس أراضيهم مصدره ماء السَّماء، فالمَرَدُّ واحد.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 15.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 473.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 473.

بدأ الإنبات بعد تحقّق موت الأرض وخلوّها عن النّبات

نوعُ ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُها:

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾ وهو هنا دالّ على الابتداء، وذلك للدّلالة على قرب زمان الإنبات من زمان الممات، فعادت الأرض خضراء بعد مماتها(1)، أي: وقع الإنبات والإحياء ابتداءً من بعد تحقُّق موتها، وهذا أبلغ في الامتنان؛ لتحقق موت الأرض، وهو ما يُعين على تثبيت دلائل البعث، بالإيماء والإشارة.

سياق التّقرير والاستدلال يقتضي زيادة التّأكيد

توجيه المتشابه اللفظي:

انفردت الآية بدخول حرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾ على الظّرف ﴿بَعۡدِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾، وقد جاءت الآيات الأخرى خالية منه، كما في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [البقرة: 164]، و[النحل: 65]، و[الجاثية: 5]، وكما في قوله تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: 24]، فزاد ﴿مِنۡ﴾ في آية سورة العنكبوت؛ لأنّ السّياق جاء في تقرير هذه النّعمة، فاقتضى المقام التّأكيد بزيادتها إلجاءً لهم إلى الإقرار بأنّ فاعل ذلك هو الله تعالى دون أصنامهم(2)؛ فهي سياق الاستدلال، وللاستدلال اعتبارات خاصّة، لا سيما إذا اقترن بالإشارة إلى أمر البعث.

نزول الماء آية وهي دليل تمثيليّ على البعث

بديعُ فنِّ الإدماج:

أدمج النّظم الجليل الاستدلال على إحيائه الأرض باستدلاله على انفراده بتنزيل الماء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾، فلمّا اعترفوا بأنّ سبب الإنبات هو المطر، وهو منزَّلٌ من عند الله؛ فإنّه يلزمهم أنّ الإنبات كذلك من الله تعالى، والغرض من هذا الإدماج الاستدلال على البعث من خلال تقريبه بصورة إحياء الأرض بالمطر(3).

(1) الخطيب، السراج المنير: 3/ 152.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 29.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 28.

بديعُ فنِّ الطّباق:

الإيماء إلى حياة القلوب بالوحي كما هي حياة الأرض بالماء

جمع النّظم الجليل بين لفظَي السّماء والأرض في قوله جلّ شأنه: ﴿نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ للطّباق بينهما، والطّباق إيجابيّ، والغرض منه: تبيينُ فخامةِ التّسخير وعِظَم الإنعام عليهم بما في الأرض والسّماء، ولبيانِ العلاقة بين السماء والأرض، فالماء نازل من السماء كما أنَّ الوحي كذلك نازل من السماء، والأرض تحيا بالماء؛ كما أنَّ النفوس تحيا بالوحي.

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة:

إنبات الأرض من بعد قَفْرِها كبعث البشريَّة من بعد مَوْتِها

استعار النّظم الجليل لفظ الإحياء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾ للإنبات، فشبّه إنبات الأرض بإحياء الميت يوم القيامة للبعث والحساب، على سبيل الاستعارة التصريحيّة التَّبعيَّة، بجامع الحركة والنّماء فيهما، وموت الأرض استعارة لخلوّها من النّبات، فشَبَّه خُلوَّ الأرض من النبّات بموت الأحياء، فالاستعارة تصريحيّة، والجامع بينهما انعدام النّفع بكلٍّ منهما[1].

بلاغة الاستعارة المكنية:

للاستعارة وظائف في تثبيت عقيدة البعث في نفوس المخاطبين

في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾ استعارة مَكْنيَّة أصليَّة، حيث شبَّه الأرض بالشخص الميت الذي يُحييه اللّه تعالى يوم القيامة، ثم ذكر لازمًا من لوازم ذلك وهو الإحياء بعد الموت، وهذا لا يكون للأرض، وغرض الاستعارة تقريب صورة البعث للمنكرين؛ فإنَّ من يُقرُّ بإنبات الأرض فعليه أن يُقِرَّ بإحياء الموتى، فلا فرْقَ في ذلك في قدرة الخالق المسخِّر سبحانه وتعالى.

نوعُ اللّام ودلالتُها:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ هي لام جوابِ القسم المحذوف، والتّقدير: (واللّه ليقولنّ)[2].

---

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 236 - 237.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 14.

نكتة توالي المؤكّدات:

عجيبُ شأنِ المُنْكِر عند إقراره بالحقائق المناقضة لإنكاره

أكّد النّظم الجليل الجملة الفعليَّة: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بالقسم واللّام ونون التّأكيد للدّلالة على تحقّق مضمون الخطاب، فإنّ قولهم لا شكّ في أنّه سيقع حال سؤالهم؛ فهم يعترفون بأنّه الموجِد لكلّ شيء، وقد أثارت هذه المؤكِّدات العجبَ من حالهم، فهم مع شديد اعترافهم بهذه الحقائق؛ يُسارعون إلى إنكار مقتضاها من التَّوحيد وإرساء العبوديّة الحقَّة في نفوسهم، واتباع سيِّد الخلق.

الوظيفة النّحويّة لجملة جواب القسم:

بلاغةُ القرآنِ في إيجازِه الدّالِّ على اكتنازه

جاءت الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ للدّلالة على ما وقع عليه القسم، وهو إقرارهم وقولهم بأنّ اللّه تعالى هو الفاعل، فالجملة جواب للقسم المقدّر، كما أنّ هذه الجملة لها وظيفة أخرى، وهي الإفصاح عن جواب الشّرط المحذوف، فاكتفى النّظم بجواب القسم، واستغنى عن جواب الشّرط لظهور المراد[1].

نكتة فصل الجملة:

بعد بيان الاستدلال يأتي ما يوجبه من الثناء والابتهال

فصل النّظم الجليل جملة: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ لأنّها مستأنفة، فلمّا بيّن بإقرارهم أنّه الخالق ومحيي الأرض بعد موتها، استأنف لبيان استحقاقه الحمد على ذلك الخلق وتلك النّعم، لا الكفر والجحود، فهو انتقالٌ من الاستدلال إلى ما يوجبه الاستدلال، بقصد بيان ما عليه أهل الأوثان، من نقيض الواجب، وما يستحقُّه الموجد سبحانه.

غرضُ الأمر ودلالتُه:

من مقتضيات الإعراض عن الباطل توجيه الثّناء للحقِّ

افتتح النّظم الجليل جملة: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ بفعل الأمر ﴿قُلِ﴾؛ للدّلالة على وجوب حمده تعالى، مع الإعراض عن المشركين؛ فإنَّ مقتضى العناد على الباطل، ترك المعاند وشأنه، والالتفات إلى الواجب الضروري، كما أنّ فعل القول يدلّ على أنّ المراد إعلان تلك

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 14.

المحامد والهتاف بها على المسامع تعليمًا وإرشادًا للمؤمنين، وتقريعًا وتوبيخًا للكافرين.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

كلّ المحامد مستحقّة لله تعالى دون سواه

عرّف النّظم الجليل لفظ الحمد بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وهي هنا دالّة على الجنس، أي إنّ جنس الحمد للّه، فيشمل جميع المحامد، فقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ محيط بأوصاف الكمال والثّناء كلّها[1].

نكتة التّعبير بالاسميّة:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالجملة الاسميّة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ دون الفعلية: (أحمَدُ اللّهَ)؛ للدّلالة على ثبوت الحكم وتأكيده، فجعل ذلك حقيقة ثابتة من شأنه أن يُخبَر عنها.

معنى اللّام في: ﴿لِلَّهِ﴾:

(اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ دالّة على التّخصيص والاستحقاق، فالحمد مختصّ باللّه تعالى، وهو استحقاق واجب له.

غرض تقديم المسند إليه:

التّعريضُ بمن يتوجّه للأصنام بالثناء الباطل والحمد الكاذب

قدّم النّظم الكريم المسند إليه في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على المسند للدّلالة على حصر الحمد وتخصيصه به تعالى[2]، فلفظ الحمد يشمل ويستغرق جميع المحامد، ثمّ يأتي الحكم بأنّ كلّ هذه المحامد هي للّه تعالى على وجه الاستحقاق والحصر، مع ما فيه من التّعريض بالمعبودات التي يتوجّه إليها المشركون، فيوجّهون لها الثناء الباطل والحمد الكاذب، فيلزم صنيعهم التشنيع الوافر، والتبشيع الحاضر.

نكتة حذف متعلّق الحمد:

حذف النّظم الحكيم متعلّق الحمد في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 473.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 29.

الحمدُ مستحقٌّ لله في الأمور كلِّها

﴿لِلَّهِۚ﴾ حيث لم يقل: (الحمد للّه على ذلك)[1]؛ وذلك طلبًا للإيجاز، ولظهور المعنى، ولتعميم متعلِّق الحمد، فالحمد متعيِّن للّه تعالى على كلّ شيء، فيدخل فيه المذكور في السياق وما سواه، فيكون الحذف للإطلاق والتّعميم.

نوعُ الإضراب وفائدتُه:

الانتقال من الحمد الواجب إلى الذَّم الثابت

آثر النّظم الكريم استعمال حرف الإضراب في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، وهو إضراب انتقاليّ، فانتقل من الحمد على وضوح الحُجَج وقيام الحقّ، إلى ذمّ المشركين بأنّهم لا يتفطّنون لتلك الحجج الواضحة، فصاروا كأنّهم لا عقل لهم؛ وذلك أنّ وضوح البراهين والإقرار بها يقتضي اتّباع نتائجها، فلمّا لم يفعلوا حكم عليهم بأنّهم لا عقول لهم[2]، فالغرض من الإضراب سلب العقول عن المشركين والحكم عليهم بالجهل.

نكتة استعمال مفردة بالأكثريَّة:

قيم الهداية مبثوثةٌ في الألفاظ المختارة والكلمات المنتقاة

أسند النّظم الكريم انتفاء العقل إلى أكثرهم دون لفظ (كلّهم) أو (جميعهم) في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ وذلك لأنّ فريقًا منهم قد وضحت لهم البراهين فآمنوا، ولكنّ أكثرهم أصرّوا على الكفر[3]، فجاء الخبر عن الأكثرية تعبيرًا عن الواقع، وهو إنصاف من القرآن الكريم قد دأب عليه، ما فيه من بناء قيم الهداية؛ فلو قال: (بل كلهم لا يعقلون)؛ لحكم عليهم بالضَّلال المبين، وهو ما يدعو إلى الإياس والتعجيز.

نكتة توسّط النّفي بين المسند إليه والمسند الفعليّ:

وسّط النّظم الجليل النّفي بين المسند إليه والمسند الفعليّ في قوله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 30.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 30.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 30.

ثبوت الجهل في المعاندين أصالةً واستمراره حال كفرهم

جلّ شأنه: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وذلك للجمع بين دلالتين: الثّبوت وهو مدلول افتتاح الجملة بالمسند إليه، وتجدّد النّفي واستمراره، وهو دلالة دخول النّفي على المسند الفعليّ، فدَلَّ على ثبوت المعنى وتجدُّده؛ فإنّ أكثر المشركين استمرّوا بمنافاة العقل واتّباع الهوى والإصرار على الكفر.

دلالة التّعبير بمفردة ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ مادّة وصيغة:

انتفاء الانتفاع بالعلم متجدّد في الغافلين

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ العقل في قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وذلك للدّلالة على انتفاء قدرتهم على تقبّل العلم، فالعَقْل يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عَقْلٌ[1]، فلمّا لم يتفطّنوا لتلك الحجج وهي واضحة، وكان العقل يقتضي التّفطّن لها من كلّ ذي عقل؛ حكم عليهم بانتفاء العقل[2]، وعبّر عن ذلك بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على استمرار انتفاء العقل عنهم وتجدّد جهلهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

العقل والفقه:

الفقه توصّل للعلم وإدراك دقيق له، والعقل قيدٌ للعلم للانتفاع به

الفِقْهُ: الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ والفهمُ لَهُ[3]، وهو التّوصُّل إلى علم غائبٍ بعلم شاهد، فهو أخصّ من العلم، قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النساء: 78][4]، وهو وصول إلى حقيقة باطن الشيء، كالعلم بالشيء وفهمه فهمًا عميقًا مستوعبًا، وقد فقه الشيءَ كأنّما غاص في داخله فأدرك دقائقه وخفاياه[5].

أمّا العقل: فأصله من الحَبْس، يقال: عقلتُ البعير أعْقِله عَقْلًا:

(1) الراغب، المفردات: (عقل).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 30.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).

(4) الراغب، المفردات: (فقه).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فقه).

قيَّدته بما يحبسه عن الانبعاث، وسُمّي عقل الإنسان عقلًا؛ لأنه يمنعه ويحبسه عن محذوراتٍ[1]، والعَقْل يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عَقْلٌ[2]، وقد عبّر النّظم الجليل بلفظ العقل في الآية للدّلالة على انتفاء قدرة الانتفاع بما علموا، فلم يتفطّنوا لما يقتضيه ذلك العلم والإقرار.

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (عقل).
(2) الراغب، المفردات: (عقل).

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من مظاهرِ غيابِ العقلِ تفضيلُ الدُّنيا على الآخرة

بعدَ أنْ ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ إقرارَ الكافرين بأنَّ الَّذي خلقَ السَّمواتِ والأرض، وسخّر الشّمسَ والقمرَ، وأنْزلَ من السَّماء ماءً فأحيا به الأرضَ من بعدِ موتِها؛ هو اللّه جلَّ في علاه، وأنَّ ما يفعلونَه مِن الإشراكِ به، وجحودِ نِعَمِه، ما هو إلّا دليلٌ على ذَهابِ عقول كثيرٍ منهم، جاءتْ هذه الآيةُ لتبيّنَ حقيقةَ الدّنيا التي يتنافسونَ فيها، ويتكالبونَ على متاعها، ببيان أنَّها لا تُساوي شيئًا بالنِّسبة للدّارِ الآخرةِ التي تُعَدُّ الحياةَ الحقيقة، التي يجبُ على الناس أنْ يعمَلوا لها، ويجتهدوا لإحسانِ العيش فيها، كما أنّ تفضيلَ الحياة الدنيا عليها يعدُّ مظهرًا من مظاهرِ ذَهابِ العقل، وغَيبوبةِ الفكرِ التي هي حالُ المشركينَ وديدنُهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَهۡوٞ﴾: (لهو) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى شُغْلٍ عَنْ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، وكُلُّ شَيْءٍ شَغَلَكَ عَنْ شَيْءٍ، فقَدْ أَلْهاكَ. "ولَهَوْتُ مِنَ اللَّهْوِ، ولَهِيتُ عَنِ الشَّيْءِ، إذا تَرَكْتَهُ لِغَيْرِهِ"[1]، واللَّهْوُ: ما شغَلَكَ من هوىً أَوْ طرَبٍ، لَها يَلهو، والتَهَى بامرأتِه فهيَ لَهْوَتُه[2]، وأَلْهَى وتَلهَّى واستَلْهى ولاَهى، وتقولُ: أَلْهاني فلانٌ عَن كَذا وكَذا، أي: شَغلَني وأنساني[3]، و"اللَّهْوُ: ما يَشْغَلُ الإنسانَ عمّا يَعنيه ويُهِمُّه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ [محمد: 36]، وقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾، ويُعبَّر عن كلِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهو).
(2) الخليل، العين: 4/ 87.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: 6/ 225.

ما به استمتاعٌ باللَّهوِ"[1]، والمرادُ به في الآية كلُّ ما يَشْغَلُ منَ الأمورِ الحقيرةِ عنِ الأمورِ العظيمة.

2) ﴿وَلَعِبٌۚ﴾: (لعب) "كَلِمَتانِ مِنْهُما يَتَفَرَّعُ كَلِماتٌ، إِحْداهُما: اللَّعِبُ مَعْروفٌ، والتِّلْعابَةُ: الكَثيرُ اللَّعِبِ، والمَلْعَبُ: مَكانُ اللَّعِبِ، واللِّعْبَةُ: اللَّوْنُ مِنَ اللَّعِبِ، واللَّعْبَةُ: المَرَّةُ مِنْها، والكَلِمَةُ الأُخْرَى اللُّعابُ: ما يَسيلُ مِنْ فمِ الصَّبيِّ"[2]، "ويقال: لَعَبَ يَلْعَبُ لَعْبًا: سالَ لُعابُهُ، ولَعِبَ فلان: إذا كان فعلُه غيرَ قاصدٍ به مَقصَدًا صحيحًا"[3]، واللَّعبُ في الآية معناه: ما يخرجُ منهُ المرءُ بلا طائلٍ ولا فائدةٍ.

3) ﴿ٱلْحَيَوَانُۚ﴾: (حيي) أَصْلانِ أَحَدُهُما خِلافُ المَوْتِ، والآخَرُ الِاسْتِحْياءُ الَّذي هوَ ضِدُّ الوَقاحَةِ، فأمّا الأَوَّلُ فالحَياةُ والحَيَوانُ، وهوَ ضِدُّ المَوْتِ والمَوَتانِ[4].

"والحَيَوانُ: مقرُّ الحياةِ، ويقالُ على ضربينِ؛ أحدهما: ما له الحاسّة، والثاني: ما له البقاء الأبديّ، وهو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾، وقد نبّهَ بقوله: ﴿لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أنّها الحيَوانُ الحقيقيُّ السّرمديُّ الَّذي لا يَفنى، لا ما يبقى مدّةً ثمَّ يَفنى"[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الـجـهـلُ بالحقائق يُؤدّي إلى الانشغالِ بالحياةِ الفانيةِ عـنِ الـحـيـاةِ الباقيةِ

قارنتْ هذه الآيةُ الكريمةُ بين الحياةِ الدُّنيا والدارِ الآخرة، فبيّنت أنّ الأولى فانيةٌ لا خلودَ فيها، زائلةٌ لا بقاءَ معها، حقيرةٌ لا قيمةَ لها، وأنّه لا يخرجُ شيءٌ منها عن اللَّهوِ واللّعب، اللَّذَيْن يتسلَّى بهما الصِّغارُ والصِّبيان، في حين أنّ الدارَ الآخرةَ هي الحياةُ الحقيقيّةُ،

(1) الراغب، مفردات القرآن: (لهى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لعب).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (لعب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيّ).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (حيي).

لأنّها الباقيةُ بقاءً سرمديًّا، لا فناءَ بعده، ولأنّ نعيمَها دائمٌ لا زوالَ له، ولا يُقارنُ به أيُّ نعيم سواه، وأنَّ كثيرًا من الناس لا يعلمونَ تلك الحقائقَ، أوْ يتجاهلونَها، إذ لو كانوا على علْمٍ بها أهمَلوا الحياةَ الفانية، وفضَّلوا عليها الحياةَ الباقيةَ.

فترشدُ الآيةُ الكريمة إلى بيانِ حقارةِ الدنيا وتفاهتها، وعظمةِ الآخرة وعلوِّ قيمتها؛ فلذا أحمقُ الناس وأشدُّهم سفاهةً مَن يَعْمى عن الآخرة ويكفرُ بها، ويُبصرُ الدُّنيا ويُؤمنُ بها، وإلى أنَّ مِن لوازم الحياة الكاملة أنْ تكون أبدانُ أهلِها في غاية القوَّة، وقواهم في غاية الشِّدَّة؛ لأنَّها أبدانٌ وقوى خُلقت للحياة، وأن يكون فيها كلُّ ما تكملُ به الحياة، وتتمُّ به اللّذّات، من مُفرحات القلوب، وشهَوات الأبدان، من المآكل، والمشارب، والمناكح، وغير ذلك[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في أول الآية:

التنبيهُ إلى عدمِ الانشغالِ بالحياةِ الفانية

الواوُ في جملة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ استئنافيّةٌ، وأوثر الاستئنافُ لما له من فائدةِ تنبيهِ المُخاطبين، ولفتِ أنظارِهم إلى مُغايرة ما بعدَه لما قبلَه، وأنَّه منفصلٌ عنه في الحُكم والمضمون، ما يعني ضرورةَ الاعتناء بالمعنى المُستأنَف، وأخذِه على محمَلِ الجدِّ والاهتمام، وجيء بـ(الواو) لتنبيهِ المخاطبينَ ولَفْتِ أنظارهم إلى حقيقةِ الحياةِ الدنيا، وأنّ عليهم أنْ يَعوا هذه الحقيقةَ ويعلَموها، ويعملوا لها؛ لأنّ الجهل بها يدفعُهم إلى السَّير على منهج السّابقين في الغفلةِ عن الحياة الحقيقيَّة، والاهتمامِ بالحياةِ الزّائفة.

دلالة النفي بـ: (ما):

تقرير معنى الحياةِ الدنيا

في جملة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ أوثر التعبيرُ بحرفِ النفي (ما)؛

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 635، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 152.

لأنه يدلُّ بمعناه وبنائِه المشتملِ على حرف المدِّ في آخره على بلوغِ النفي مدًى لا حدودَ له، ولا احتمالَ معَه لأنْ تكون حقيقةُ الحياةِ الدنيا على خلاف اللَّهوِ واللّعب، الذي جزمتْ به الآيةُ الكريمةُ.

الغرض من التعبير باسم الإشارة:

لا ينبغي إعطاءُ الحياة الدنيا أكبرَ من حجمها

في الإشارة إلى الحياة الدنيا باسمِ الإشارةِ الموضوعِ للقريبِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ تأكيدٌ لحقارتِها، وتقليلٌ من شأنها[1]، وتنبيهٌ إلى ضرورةِ إنزالها المنزلةَ المُستحقَّة، وعدمِ الاهتمام الزائدِ بها، أوْ إعطائِها حجمًا أكبرَ من حقيقتِها ومكانتها الحقيقيّة، تنزيلًا لدنوِّ منزلتِها وانحطاطِ مَرتبتها منزلةَ الشّيءِ القريبِ المطروحِ أمامَ الجميع لقلَّة قيمتِه، يُقوّيه وصفُها بالدنوِّ المُشعِرِ بالقُرب وقلّةِ الفَخامة، وقَصْرُها على اللّهْوِ واللّعِب، كما أنَّ اسمَ الإشارة يدلُّ على تعريفِ الشيءِ أكملَ تعريفٍ، بتمييزه عن غيره ليدلَّ ذلك التمييزُ للمشارِ إليه على حضورِهِ في الذِّهن أكملَ حضورٍ، فلا إبهامَ يَعتريهِ ولا غموضَ يَكتنفُه، ومن المعلومِ أنَّ المشارَ إليه وهو ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ الموصوفةُ بـ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾ أمرٌ معنويٌّ غيرُ محسوس، فيكون في استعمال الإشارة معه مجازٌ استعاريٌّ بتنزيلِ المعنويّات منزلةَ الحسيّات.

وفي الإشارةِ أيضًا نوعٌ من التخصيصِ غيرِ الاصطلاحيِّ، وبه يكون المعنى: إنَّ حقيقةَ هذه الحياةِ التي تَعيشونَها، وتتكالبونَ عليها، وينسى كثيرٌ منكم الدارَ الآخرة بسببها، ما هي إلا لَهْوٌ ولَعِبٌ؛ وذلك لئلّا تذهبَ عقولُ المرضى والتائهينَ من المخاطبينَ إلى شيءٍ آخرَ غيرِ ما يريدُ البيانُ تحديدَه وتخصيصَه.

سرُّ انفراد هذه السّورة باسم الإشارة:

وردَ الجمعُ بين (اللّعب واللّهو) في أكثرَ من سورةٍ في القرآن

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 463.

إذا سبق ذكرُ الدنيا عُبِّر بالإشارة، وإذا سبق ذكرُ الآخرة تُركَتْ

الكريم، ففي سورة (الأنعام) يقول تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: 32]، وفي سورة (محمد) ﷺ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: 36]، وفي سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: 20]، بجانب الآية التي معنا من سورة العنكبوت.

ومن الملحوظ أنّ آيةَ سورة العنكبوت انفردت مِنْ بين سور القرآن التي وردَ فيها هذا المعنى بالتعبير باسم الإشارة: ﴿هَٰذِهِ﴾، والسرُّ في ذلك أنَّ هذه السَّورةَ لم يتقدَّم فيها ذكرُ الدّنيا وما يقتضي تحقيرَها، فجيء باسم الإشارةِ لإفادة تحقيرها وتأكيدِه، أمّا آية سورة الأنعام فتقدَّم قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: 31]، فذكرَ لهم في تلك الآيةِ ما يظهرُ لهم إذا جاءتهم السّاعةُ من ذهابِ حياتِهم الدنيا سُدى[1]، وفي سورة محمد ﷺ لم يُذكر اسمُ الإشارة؛ لأنَّ الحديثَ موجَّهٌ للمؤمنينَ الَّذين يعرفونَ حقيقتها، ولا يحتاجونَ إلى ما يخصِّصُها، وكذلك السّياق في سورة الحديد، يقول الرازي: "قالَ اللَّه تَعالَى في سورَةِ الأنْعامِ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ [الأنعام: 32]، ولم يقل: (وما هذه الحياة)، وقال هاهنا: ﴿وَمَا هَٰذِهِ﴾، فنَقولُ: لِأنَّ المَذْكورَ مِنْ قَبْلُ هاهنا أمْرُ الدُّنْيا، حَيْثُ قالَ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: 63] فقالَ هَذِهِ، والمَذْكورُ قَبْلَها هُناكَ الآخِرَةُ: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: 31] فلَمْ تَكُنِ الدُّنْيا في خاطِرِهِمْ، فقالَ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ [الأنعام: 32]"[2].

نوع (ألْ) ودلالتُها:

(ألْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ هي لامُ العهد

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 31.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 75.

الحياة الدنيا مهما حَلَت فهي كاذبةٌ زائلةٌ

الحضوريّ التي تدلُّ على شيءٍ حاضرٍ عندَ المخاطَب وإن كانَ معقولَ المعنى غيرَ محسوسٍ، أي: إنّ الحياةَ التي يعهدُها النّاسُ على اختلافِ أحوالهم فيها ما هي إلا كما وصفَتْها الآيةُ الكريمة، وأنَّها إذا ازّينَتْ لأحدهم، أوْ حَلَتْ لبعضِهم، أوْ مالتْ لأكثرِهم، فهو ميلٌ زائفٌ، ونعيمٌ ذاهبٌ؛ لأنَّ حقيقتَها لن تخرجَ عمّا يَتلهّى به الصّبيانُ، ويلعبُ بِهِ الغِلْمانُ، وما الغرضُ من تعيينِها بالإشارةِ أوَّلًا وباللّام العهديَّة ثانيًا؛ إلّا لإكمالِ استحضارِها في ذهن المخاطَب وتحديدِها بكافّة مشخِّصاتها ليترتّبَ الحكمُ عليها أكملَ ترتُّبٍ بأعلى وقعٍ في النَّفس.

نكتةُ النّعت باسمِ التفضيل:

العـقـلاءُ ينصرفونَ عن كلِّ ما هو حقيرٌ

في وصف ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ بـ﴿ٱلدُّنۡيَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾ تأكيدٌ لحقارتها، وزيادةُ تنفيرٍ منها، وتقويةٌ لازدرائِها المفهومِ من الإشارة إليها بـ﴿هَٰذِهِ﴾، والمعنى: أنّ طبيعة هذه الحياة، التي من صفاتها أنّها دانيةٌ وأدنى من غيرها؛ إذِ ﴿ٱلدُّنۡيَآ﴾ اسمُ تفضيلٍ مؤنّثُ (أدنى)، وما كانَ أدنى من غيرِه كان حقيرًا بالنِّسبةِ إليه، فالواجبُ على العُقلاء عدمُ الاكتراثِ بها، وعدمُ التصارع عليها، والانصرافُ عنها إلى ما هو خيرٌ وأبقى، وأفضلُ وأعلى منها.

مزيّة الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾:

التشويق إلى معرفة حقيقة الحياة الدنيا لتثبت في نفوس المتلقّين

التعبيرُ بـ(ما) و﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾ يمنح الأسلوب مزايا كثيرة، منها: الإثارةُ والتشويقُ إلى الخبر الَّذي يأتي بعدَ ﴿إِلَّا﴾، والموضِّح حقيقةَ الدنيا، وأنّها لا تخرجُ عن اللّهو واللّعب، فإذا ورد بعدَ تطلُّعِ النّفوس إليه ثبتَ فيها، وتمكّن منها؛ لأنَّ المعنى إذا أُلقي على سبيل التشويق، تطلّعتِ النفسُ إلى معرفتِهِ على سبيل التصريح، فتتوجّهُ إلى ما يردُ بعد ذلك،

فإذا أُلقي تمكّنَ فيها فضلَ تمكُّنٍ، وكان شعورُها به أتمَّ[1]، وفي إيثارِ التعبير به دلالةٌ على أهميَّة المعنى المراد ترسيخُهُ.

نوع القَصْر وبلاغته:

تنزيلُ الأشياء في استحقاقاتِها كـمـالٌ عـقـليٌّ ونفسيٌّ

من مزايا قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾ أيضًا أنَّه قَصَر الحياةَ الدُّنيا على كونها لهوًا ولعبًا، قَصْرَ موصوفٍ على صفة، قصرًا حقيقيًا ادّعائيًا، بطريق النّفي والاستثناء؛ تقويةً للمعنى وزيادةً في تأكيده، من خلال نفي أيّةِ صفةٍ عن الحياة الدّنيا، ثمَّ إثباتِ صفتَي اللّهْوِ واللّعب لها، دون غيرِهما من الصِّفات.

وأوثرَ التعبيرُ عن ذلك بطريق النفي والاستثناء؛ لأنه يمتاز عن غيره من طرقِ القَصْرِ بكونِه يُستعملُ عندما يكونُ الكلام موجّهًا إلى مخاطَبٍ شديدِ التمسُّك بما هو عليه، شديدِ الرّفض لكلِّ ما عداه، ذلك أنَّ أفعالَ المخاطبين من الكافرين تُنْبِئُ عن شدّة اهتمامِهم بالدنيا، وواسعِ إهمالهم للدّار الآخرة، فكأنَّهم ينكرونَ هذا الحُكمَ ويُبالغونَ في نفيِه، فكان لا بدَّ من بيان حقيقةِ الأولى بأسلوبٍ قويّ التأكيد، شديدِ التأثير؛ عسى أنْ يُدركوا خطأ ما هم فيه، ويتراجعوا عمّا هم عليه.

دلالةُ التنكير في ﴿لَهۡوٞ﴾:

لا يـنـشـغـلُ بـالـدنـيـا عـن الآخرة إلّا صِبيانُ الـعـقـول وكـلُّ غافلٍ جَهولٍ

جاءَ البيان الكريم بالمقصور عليه: ﴿لَهۡوٞ﴾ نكرةً للتحقير من شأنِ الدنيا، والتقليلِ من أهمّيَّتها، والتنفيرِ من الإقبال عليها والانشغالِ بها؛ لدلالته على أنَّها تُلهي من ينشغلُ بها عمّا ينفعُهُ في حياته السَّرْمديَّة الباقية، وعُطِف عليه ﴿وَلَعِبٞۚ﴾ نكرةً أيضًا تأكيدًا لذلك وتقويةً، لأنّه يدلُّ على أنّ المنشغلينَ بها هم صبيانُ العقول، وكلُّ غافلٍ وجهول[2]، ما يكونُ أيضًا سببًا في نفور العُقلاء من الإقبال عليها، وتوجيهِ اهتمامهم إلى الحياة الحقيقيَّة الأبديَّة.

---

(1) الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 1/ 117.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 577.

يُقدَّم اللَّهوُ عند الحديث عن اللّاهين، ويُقدَّم اللَّعبُ لأنه أسبقُ في الوقوع

سرُّ تقديمِ اللَّهو هنا، وتقديم اللَّعب هنالك:

قَدَّم البيانُ القرآنيُّ اللَّهْوَ على اللّعب هنا، وفي سورة الأعْراف: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 51]، وقدَّم اللّعبَ على اللّهو في الأنعام: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: 32] وفي: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: 70]، وفي القتال: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: 36]، وفي الحديد: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: 20]، وإنَّما قدَّمَ اللعِبَ في الأكْثَر؛ لِأن اللّعب زَمانُه الصِّبا، واللَّهْوَ زَمانُه الشَّباب، وزمانُ الصِّبا مقدّمٌ على زمان الشَّباب ...، وقدَّمَ اللَّهْوَ في الأعْراف؛ لِأن ذَلِك في القيامَة، فذكرَ على تَرْتيب ما انْقَضى، وبَدَأ بِما بِهِ الإنْسان انْتَهى من الحالَتَيْن، وأما في العنكبوت، فالمُراد بذكرها زمانُ الدُّنْيا، وأنَّه سريعُ الِانْقِضاء قَليلُ البَقاء، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾، أي: الحَياة الَّتي لا أمدَ لَها ولا نِهايَة لأبدها، بَدَأ بِذكر اللَّهْو لِأنَّهُ في زمان الشَّباب، وهوَ أكثرُ من زمانِ اللّعب وهوَ زمان الصِّبا[1]، يضافُ إلى ذلك أنّ السياق الذي قُدّم فيه اللَّهوُ على اللّعِب في الأعراف والعنكبوت؛ يدلُّ على أنّ المتحدَّثَ عنهم لاهونَ ساهونَ مُنشغلونَ بلهوِ الحياة الدنيا ومتاعها، فاقتضى حالُهم تقديمَ اللّهو على اللّعب[2].

ويمكنُ أن يقال: إنَّ اللَّعِبَ فعلٌ للجوارح وحركةٌ يقومُ بها البدن، واللّهوَ فعلٌ يقومُ به القلبُ ويحلُّ في النفس المنشغلةِ عن الصّواب والنافعِ، فاللعبُ حركةٌ بدنيّةٌ واللهوُ انشغالٌ قلبيٌّ، ولا شك أنَّ اللّهوَ قد يقعُ عقيبَ اللّعبِ، فكان تقديمُ اللّعب على اللّهو من وجهين: أنّه من تقديم السَّبب على المسبَّب، وأنَّ فعلَ الجوارح أبرزُ دلالةً وأوضحُ

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 107، وما بعدها.
(2) المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 2/ 200.

وقوعًا، وأمّا تقديم اللّهوِ المعنويِّ على اللّعِب الحسيّ فلبيانِ أنَّ الانشغال القلبيَّ بالدنيا أقبحُ ذنبًا وأكثرُ إسرافًا من اللّعب فيها.

وجهُ التعبير بأسلوب القصر في وصف الحياة الدنيا:

تحدّث البيانُ الكريم عن وصف الحياة الدنيا، مُستعمِلًا القصرَ بالنَّفي والاستثناء في أربعة مواضع، هي: آل عمران: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185]، والأنعام: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ [الأنعام: 32]، والعنكبوت: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾، والحديد: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: 20]، حيث قصرها على متاع الغرور في اثنين منهما، وقصرها على اللَّهو واللَّعب في الموضعينِ الآخرينِ، ومن الملحوظ أنَّ قَصْرَها على متاع الغرور في آل عمران والحديد؛ يأتي في سياق الحديث عمّن غرَّتهم الدنيا بزخرُفها وغرَّهم الشيطانُ والأماني، في حين كانَ قصرُها على اللّهو واللّعب في الأنعام والعنكبوت؛ آتيًا في سياق بيان حقيقتها للّذين لا يعلمون ذلك ولا يعرفونه.

قصرها على اللهو واللعب عند جَهْل حقيقَتها، وعلى متاع الغرور عند مَن اغترَّ بها

نوعُ التشبيه وبلاغتُه في الآية:

في جملة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾ بالإضافة إلى ما سبق بيانُه تشبيهٌ بليغٌ، يُسهمُ في بيان حقيقةِ الدنيا وإيضاحِها لِمَنْ يجهلونها، أوْ لِمَنْ تدلُّ أفعالُهم على أنّهم يجهلونَها، حيث شُبِّهتِ الحياةُ الدنيا بما يلهو به الصِّبيانُ ويلعبون، من غير أداة؛ للدلالة على أنّه لا فرقَ بينها وبين اللَّهو واللَّعب، في "سرعة الزَّوال، وعدم النّتيجة غيرَ التَّعب"(1)، ما من شأنه أنْ يزيدَ التعريفَ بها، والتنفيرَ من الرُّكونِ إليها.

لا فرقَ بينَ الحياة الدنيا واللَّهو واللَّعِب في سُرعةِ الزَّوال وحُصولِ التَّعَب

معنى الوصل بالواو:

الواو في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ لعطفِ ما بعدَها على جملة:

(1) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 108.

عطف المتناقضات يساعدُ في تجليةِ الحقائق وإبرازها

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾؛ جريًا على منهج النَّظم الكريم في جمع الحَسَن والقبيح في قَرَنٍ واحد، ليظهَر للمخاطبين الفارقُ بينهما، ولتعملَ الصورةُ الجامعة لهما عملَها في نفوسهم، فتُقبِل طواعيةً على العمل للحياة الحقيقيَّة، وتُعطي الحياةَ الزائفة ما يناسبها، إذ الضدُّ لا يُظهِرُ حسنَه إلا الضِدُّ، فالجامعُ خياليٌّ بين المتعاطفين لتقارُنِ الضدَّين في الخيال وتداعيهما في المخيِّلة، ويمكن أنْ تكون الواوُ استئنافيّةً؛ جيءَ بها لتنبيهِ المخاطبينَ ولفتِ أنظارهم إلى الدّار الدائمةِ الخالدة، بعد بيانِ حقيقة الحياة الدنيا، وأنّها تُشبهُ اللّهوَ واللَّعبَ في سُرعةِ الانتهاء وانعدامِ الفائدة.

دلالاتُ توالي التأكيد:

حالُ أكثر الناس إهمالُ الحياة الحقيقيَّة، وإيثارُ حياةِ اللّهو واللّعب

جاءت جملة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ مؤكَّدةً بـ(إنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ واللّام الداخلة على جملةِ الخبر، المسمّاة باللّام المزحلقة، وضميرِ الفصل، تقويةً وتأكيدًا لمعنى أنّ الدار الآخرة هي الحياةُ الحقيقيّةُ الدائمةُ السَّرمديّة، التي يجبُ على الناس أنْ يستعدّوا لها، ويعملوا لإحسانِ الإقامةِ فيها، وأوثرَ التأكيد بهذه المؤكِّدات مناسبةً لحالِ أكثرِ المخاطبينَ، الّذين يُهملون الآخرة، ويؤثرون عليها حياةَ اللَّهو واللَّعب قولًا وفعلًا، فدَلَّ حالُهم على إنكارٍ وتكذيبٍ، وكان التأكيدُ المتكرِّر مُطابقًا لمُقتضى حالِهم، وفي عطفِ هذه الجملةِ المحفوفة بكلِّ هذه المؤكِّدات على الجملةِ المغلَّفة بأسلوب القصرِ الدالِّ على التأكيد أيضًا؛ تلاحمٌ عميق في نفي القيمةِ الكبيرة للحياة الدنيا مُقابلَ إثباتِ الجدارة للحياةِ الباقية، فتشكَّلَ من طرفي الآية تقابلٌ بين صورتينِ ضدّيَّتَينِ مؤكَّدتين وتناقضٌ عجيبٌ بين حياةٍ سريعةِ الانقضاء مع اهتمامٍ بحالها وحياةٍ باقيةٍ دائمةٍ مع انصرافٍ عنها.

معنى (أل) في ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ﴾:

آثرَ النظمُ الكريم إيرادَ (اللام) الدالّةِ على الجنس والحقيقة

عرّفتِ الدّارُ ليعرفها طالبها ويسعى إليها

في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ﴾، للإشارة إلى أنَّ الدار الآخرة هي الدارُ الحقيقيَّة؛ لأنها الدّائمةُ الباقية، وأنَّ الواجبَ على النّاس أنْ يعرفوا ذلك ويعملوا له، وأنْ يتركوا ما هم فيه من اكتراثٍ بحياةٍ قصيرةٍ فانيةٍ سريعةِ الزَّوال والانقضاء، ونلحظُ تباينًا لفظيًّا في الإشارة إلى الحياة الدنيا باسم الإشارة وذكر الدار الآخرة بـ(أل الجنسيّة)؛ إذ دلّتِ الإشارةُ على الضَّعْف والتَّحقير مِن شأنِها، ودَلَّت (أل) على العظمةِ والكمالِ فيها.

دلالة التعبير عن الآخرة بلفظ ﴿ٱلدَّارَ﴾:

على الإنسان أنْ يُنشِئَ له مكانًا في الدار الآخرة، لأنّها الدارُ التي لا ارتحالَ منها

عبّر النظمُ الكريم عن الحياة الآخرة بلفظ: ﴿ٱلدَّارَ﴾، لما يحمله هذا الاسمُ من دلالةٍ على الإقامة وعدم الارتحال[1]، ما يعني أنَّ الدارَ الآخرة هي المستقَرّ، وأنّ الإنسان مهما دارَ في حياته الدنيا فلابد أنْ يعودَ إليها، ليستقرَّ فيها، وفي ذلك ما يدفعُه إلى ضرورة أنْ يُهيّئَها للإقامة والسّكن، وألّا يتركها خرابًا بدون مأوى كريم له فيها ولا مكانٍ إلا النار، ونلحظُ أنَّه عندما تكلَّم النظمُ عن الدنيا سمّاها حياةً مُشيرًا لها بالإشارة التحقيريَّة، وعندما تكلَّم عن الباقيةِ عدلَ عن لفظ (الحياة) وعن الإشارةِ إلى التعريفِ بأل الجنسيّة الدالَّة على الكمال، وسمّاها (دارًا) للإشارة إلى أنَّها المقامُ الحقيقيُّ للإنسان، وكأنَّه في هذه الحياة يعيشُ بلا دارٍ؛ لأنّه مفارقٌ لها لا مُحالة.

نكتة وصف ﴿ٱلدَّارَ﴾ بـ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

في وصفِ ﴿ٱلدَّارَ﴾ بـ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ دلالةٌ على أنَّها مُؤَخَّرَةٌ عن الدنيا، وأنّها الدارُ التي لا دارَ بعدها، وفيه تأكيدٌ لزوال الدنيا وفنائها، وتقويةٌ لبقاء الآخرة وديمومتها.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دور).

عزَّتِ الدّار فتضافرتِ المؤكدات

دلالةُ الجملةِ الاسميَّة الصُّغرى:

في قوله: ﴿لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ جملةٌ اسميّةٌ صُغرى تكوّنتْ من ضميرِ الفصلِ الواقعِ مُبتدأ على رأيِ بعضِ النّحويّين وخبره، والمجموعُ في محلِّ رفعٍ خبرُ (إنّ) المؤكّد للجملةِ الاسميَّة الكبرى، والجملتانِ الصُّغرى والكبرى معرّفةُ الطَّرفينِ للدلالةِ على القَصْرِ والتأكيدِ للحكم، وأما اللّام في ﴿لَهِيَ﴾ فهي اللامُ المُزحلقة، التي تفيد التوكيد، ومن فوائدها في هذه الجملة الصُّغرى الدالّةِ باسميّتِها على الثبوتِ والدَّوام؛ زيادةُ تأكيدِ كونِ الدّارِ الآخرةِ هي دارَ الحياة التي لا فناءَ معها، ولا زوالَ لما فيها، ونلحظُ أنَّ التعبيرَ عن العاجلة كان بجملةٍ اسميّةٍ واحدةٍ، في حين اقتضى الحديثُ عن الدار الباقيةِ بجملتينِ اسميَّتَيْنِ؛ زيادةً في التفرقة بين الحياتينِ وإظهارًا لكمالِ التباينِ بينَهما.

الدارُ الآخرة تموجُ بالحركةِ والحياةِ التي لا سُكونَ فيها

سر التعبير بـ: ﴿ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ دون الحياة:

عبَّر النظمُ الكريم بمفردة: ﴿ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ دون (الحَياة) التي عبَّر بها عندَ حديثه عن حقيقةِ الدنيا، للمبالغةِ في معنى الحياة الموجودة في الآخرة، والمعنى: أنَّ الدار الآخرة هي دار الحياةِ المستمرّة الدائمة الخالدةِ التي لا موتَ فيها، وما سواها دارُ موتٍ لا حياةَ فيها، إذ "الحيوَان: مصدرُ حيّ، وقياسه: حَيَيان، فقلبت الياء الثانية واوًا ....، وبه سُمّي ما فيه حياةٌ: حيوانًا ....، وفي بناء ﴿ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ زيادةُ معنىً ليس في بناء (الحياة)، وهي ما في بناء (فعَلان) من معنى الحركةِ والاضطراب، كـ(النزَوان والنَّغَصان واللَّهَبان)، وما أشبه ذلك، والحياة: حركةٌ، كما أنّ الموتَ سكونٌ، فمجيئُهُ على بناءٍ دالٍّ على معنى الحركة، مبالغةٌ في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضي للمبالغة"[1]،

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 463.

وبذلك يتمُّ التقابلُ بين العاجلةِ والباقية، فتلك حياةٌ وهذه حيَوانٌ، ولا مقارنةَ بين حياةٍ زائلةٍ وحياةٍ حقيقيّةٍ باقيةٍ، كما تشعرُ الصّيغةُ الصرفيّة الدالةُ على المبالغة أنَّها دارٌ مستمرّة، فيكون مقابلًا موضوعيًّا للَّهو واللّعب المخبَر به عن تلك الحياة، الدالَّيْنِ على سُرعة الزَّوال وقِصَر المدّة، فكأنَّ النظمَ الجليلَ أزالَ وصفَ الدار عن الدنيا بأنَّها منطقةُ لهوٍ ولعبٍ وليست سُكنى، وأثبتَها للآخرة لأنها محطُّ الإقامة والدوام، وأزالَ البقاء عن الدنيا بأنها مجرّدُ حياةٍ فانية، وأثبتها للآخرة بأنها حيَوانٌ يموجُ بالحركة والسَّيرورة.

نوعُ القَصْر وبلاغتُه في الآية:

لا حياةَ حقيقيّةَ إلا الحياةُ الأخرويّةَ

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ قصرَ النظمُ الكريم صفةَ الحيوان على الدار الآخرة، بعد أنْ نفاها عن كلِّ موصوفٍ آخر، قَصْرَ صفةٍ على موصوف، قصرًا حقيقيًّا، طريقُه توسُّط ضميرِ الفصل بين المسنَد إليه والمسنَد؛ تأكيدًا لمعنى أنَّ الآخرة هي دارُ الحياة الحقيقية، وأنَّ ما سواها لهوٌ ولعبٌ، وترسيخًا له في نفوس المخاطبين، الَّذين شغلهم لهوُ الدنيا ولعبُها عن العمل للآخرة، والاستعدادِ لها.

بلاغة الجناس الناقص:

نقص المبنى دالٌّ على الفناء، وزيادته دالٌّ على البقاء

اشتملَ قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ على كلمتي: ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ و﴿ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ وبينَهما جناسٌ ناقصٌ، حيث تكرَّرت أغلبُ الحروف في الكلمتين بمعنيين مُختلفين، إذِ المقصود بالأولى: الحياة الدُّنيا، والمقصودُ بالثانية: الحياةُ الآخرة، وبجانب ما يفيده الجناس - من تشويق النَّفس وتنشيطِ الفكر، للوقوف على المرادِ من اللَّفظين المُتشابهين، ما يساعدُ في تثبيت المعنى في الذِّهن بعد معرفته - فإنَّ الجناس بين كلمتي: ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ و﴿ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ ينبئُ من خلال زيادةِ المبنى في

الكلمة الثانية، وقلّةِ عدد حروف الكلمة الأولى بالكمال والديمومة في الحياة الآخرة، وأنّ الأولى مهما طالت وامتدَّت لا يمكنُ أنْ يصلَ مداها إلى الدار الآخرة، لأنَّها حياةٌ أزليّةٌ سرمديّةٌ لا نهايةَ لها.

بلاغة المقابلة بين الجملتين:

الجمع بين المعاني المتقابلة يزيد الإقبال على الآخرة وينفّر من الدنيا

اعتمدَ النظمُ الكريم على مقابلةِ معنيين في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾، بمعنيين في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾؛ لما يمتازُ به هذا الفنُّ من عرضِ الأشياء المتناقضة في صورةٍ تجذبُ المتلقّي إليها، وتدفعُه نحو التفكيرِ المفضي إلى التمييزِ بينها، ما يترتّبُ عليه اقتناعُهُ بامتثالِ الحقِّ والعزوف عن الباطل، أوِ العزم على فعلِ الحسن الجميل، والبُعد عن القبيحِ المُشين.

ومن مزايا هذه المقابلة: أنَّها قابلت بين الحياة الدنيا في الطّرف الأوّل والدار الآخرةِ في الطَّرف الثاني، وبينَ اللّهو واللّعب في الطَّرف الأوَّل، والحيوان في الطَّرف الثاني؛ ليتضحَ من خلال جمعِ هذه المعاني في قَرَنٍ واحد، أيُّ الحياتين أبقى وأدوَمُ، وأكثرُ نفعًا، وأنعمُ عيشًا، فيعملُ ذلك عملَه في نفوس المتلقّين، فيحصل منهم الإقبالُ على العمل للدّار الآخرة؛ لما لها من منافعَ ومزايا ليست في الحياةِ الدنيا.

سرُّ فصلِ ختام الآية:

الجهلُ سببُ الإعراض عن الدار الآخرة

فُصلت جملةُ: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها بمنزلة التعليلِ لإعراضِ الناس عن الدّار الآخرة، وإقبالِهم على الحياة الدنيا، ومِنْ ثمّ فُصلت عنها كما يُفصَل الجوابُ عن السؤال، فيما يسمَّى: شبهَ كمالِ الاتِّصال.

معنى ﴿لَوۡ﴾ في ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾:

﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ حرفُ شرطٍ يفيدُ امتناعَ الجواب لامتناعِ الفعل[1]، والمعنى: لو كانوا يعلمونَ أنَّ هناك حياةً

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 45.

حقيقيةً بعد الموت، وأنَّ هناك نعيمًا سَرْمَديًّا لا يزولُ ولا ينتهي؛ لَمَا آثروا متاعَ الدنيا الفانية ولهوَها على خيراتِ الآخرة الباقية ونعيمها.

مرجعُ الضَّمير في: ﴿كَانُواْ﴾:

مَنْ لا يعقل لا يعلم

يُفهَمُ من السّياق أنّ مرجعَ الضَّمير المرفوع في الفعل: ﴿كَانُواْ﴾ يعودُ إلى مَن وصفهم البيانُ القرآنيُّ في الآية السّابقة بقوله: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾ [العنكبوت: 63]، وهم الذين أقرّوا بأنّ الَّذي خلقَ السَّموات والأرض وأنزلَ من السَّماء ماءً فأحيا به الأرضَ من بعد موتِها؛ هو اللّه جلَّ في علاه، ومع ذلك لم يُؤمنوا بالورودِ عليه، ولم يَستعدّوا للقائه، وظلّوا لاهينَ بمتاعِ الدنيا الفانية، لاعبينَ بنعيمِها الزّائل.

دلالة التعبير بفعل الكون الماضي:

المُعرضونَ عن الدار الآخرة أناسٌ تغلغلَ اللّهوُ في كيانهم

عبَّر النظمُ الكريم في جملة الشَّرط بفعل الكون الماضي في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ هؤلاءِ اللّاهين الَّذين يُفضِّلون الحياةَ الدنيا على الآخرة قد تربّوا على ذلك، وشبّوا عليه، وأنّ حبَّ الحياة الدنيا واللّهوَ بما فيها قد تغلغلَ في كيانهم، واختلطَ بدمائهم ولحمهم، حتى غدا سمةً من السِّمات التي لا يُمكنهم الانفكاكُ عنها، ولن يستطيعَ أحدٌ إقناعَهم بأنَّهم على خطأٍ فيها.

دلالة التعبير بالفعل المضارع:

اللّاهون يقاومونَ العلمَ المُفضي إلى القيام بما ينبغي من العملِ للآخرة

أوثر التعبير بالمضارع: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ خبرًا للفعل الناسخ دون نحو: (يعقلون) أو غيره؛ لأنَّ العلمَ هو العاصمُ من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاستهانة بأمرِ الحياة الحقيقيَّة الخالدة، والاهتمام بالحياة الزائفةِ الفانية، وجيءَ به مضارعًا لما يفيدُهُ من الدلالة على الحال والاستقبال، ما يعني أنَّهم يعيشونَ حالة الامتناع عن العلْم المفضي إلى فعل ما ينبغي في حاضِرِهم ومُستقبلهم، لأنّ تكوينهم يرفضُ ذلك ويقاومُه، كما سبق توضيحه، بالإضافة إلى ما يفيدُه المضارع من استحضار الصّورة الماضية كأنّها حاضرةٌ ماثلة، ونلحظُ في

سلب العلْم عنهم أنَّهم في جهالةٍ كبيرةٍ؛ إذ علِموا الخالق وعرفوه واستبعدوا البعثَ والنشور، وتمسَّكوا بالحياة الفانية وتركوا العملَ والاستعدادَ للآخرة.

نكتةُ حذفِ مفعول ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

حذفَ النّظمُ الكريمُ معمولَ: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ للدلالة على إعراضِهم عن جميعِ ما من شأنه أنْ يردَّهم إلى جادَّة الصَّواب، ويأخذَ بأيديهم نحو السَّير في الطَّريق الصَّحيح، والقيام بالأعمالِ الدالّة على تفضيلِ الدار الآخرة على الحياة الدنيا، كما يفعل العقلاءُ وأولو العلم الموفّقون، ويَحتمِلُ أنْ يُراد بالفعلِ المتعدّي اللزومُ؛ نفيًا لوجودِ العلم منهم وتحقُّقِه فيهم، وذلك أبلغُ في نفيِ العِلْم أصلًا.

اللّاهون اللّاعبون يُعرِضون عن جميع ما يردُّهم إلى طريق الآخرة

نكتةُ حذف جواب ﴿لَوۡ﴾:

جوابُ الشَّرط محذوف؛ لكونه مفهومًا من السّياق، والمعنى: لو كان لديهم شيءٌ من العلْم لما آثروا الحياةَ الزائفة الفانيةَ على الحياة الحقيقيّة الباقية، وفي حذفِه إلماح إلى أنّهم تخلَّوا عن البدهيّات المسلَّمات، وتجاوزوها إلى ما لا يصحُّ فعله، ولا ينبغي لهم القيامُ به.

في الحذف إلماح إلى هوان الحياة وسرعة فنائها

سياقاتُ التعبير القرآنيّ بالتركيب الشرطيّ:

وردَ قولُه تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ في سبعة مواضعَ من النظم القرآني، في سورة البقرة: الآيتين: 102، 103، وفي سورة النحل، الآية: 41، وفي سورة العنكبوت، الآية: 41، 64 - وفي سورة الزمر، الآية: 26، وفي سورة القلم، الآية: 33.

يأتي في سياق الحديث عن الآخرة، وسياق الحديث عن الغيب وأسرار الخلق

ومن الملحوظ أنَّ هذا التعبير يأتي أكثرُه في سياقِ الحديث عن الدّار الآخرة وما فيها من ثوابٍ وعقاب، ويأتي عددٌ قليلٌ منه في سياقِ الحديث عن أمورٍ غيبيّةٍ وأسرارٍ خفيّةٍ في كون اللّه الفسيح، لا يعلمُها أحدٌ غيرُ اللّه جلَّ في علاه، وفي نفيِ العلْم عنهم في تلك المواطنِ دلالةٌ على عدم تأمُّلهم في الأدلّة والبراهين، وتمسُّكِهم

بالأدنى وتركِهم للأعلى، وعدمِ الجري على موجب الدلائل الصَّريحة، التي لو تعقَّلوها لعلِموا ضلالَهم وإسرافَهم.

سرُّ مغايرةِ التعبير لما في الأنعام:

كونُ الآخرة أفضلَ يحتاجُ لعقل، وإثباتُ الحياة الحقّة يحتاجُ لعلمٍ

قالَ تعالى في سورةِ الأنْعام: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام: 32] وقال هنا: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، وذلِكَ لأَنَّ المُثْبَتَ هُناكَ: كَوْنُ الآخرَةِ خَيْرًا وأَنَّهُ ظاهِرٌ لا يَتَوَقَّفُ إلا على العقل، والمثبت هنا: أنْ لا حَياةَ إلّا حَياةُ الآخِرَةِ، وهَذا دقيقٌ لا يُعرفُ إلّا بعلْمٍ نافعٍ(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللّهو واللّعب والهزء:

اللَّـهو كلُّ ما به استمتاعٌ، واللّعب ما وُضِع في غير موضعِه، والهزء ما كان للسُّخرية

اللَّهْوَ هو: كل ما يَشْغل الإنسانَ عمّا يعنيه ويُهِمُّه ويكون فيه مصلحتُه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ [محمد: 36]، وقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾، ويعبّر به أيضًا: عن كلّ ما به استمتاعٌ وترويحٌ عن النّفس بما لا تقتضيهِ الحكمةُ، ويكونُ متَّصلًا بالنّفس والقلب، وأمّا اللّعبُ: فيُطلقُ على الأفعالِ التي لا يقصدُ بها الإنسانُ مقاصدَها الصَّحيحة مع الخلوّ من الحِكمة، وتأتي في المواضع التي لا ينبغي أنْ تكون فيها، ومتصلًا بأفعالِ الجوارح، قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا﴾ [الأنعام: 70]، وأمّا الهُزء: فيطلقُ على ما كان غرضُهُ السُّخريةَ والاستهزاءَ من الأقوال والأفعال(2)، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ [البقرة: 67].

الدّار والبَيْت والمنزِل والمسكَن:

(الدّارُ): تُطلقُ على المنزل اعتبارًا بدورانها الذي لها بالحائط، ودارُ الدّنيا ودارُ الآخرة، إشارةٌ إلى المقرّين في النّشأة الأولى،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 76.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هزأ).

الدار ما يدلُّ على الاستقرار وعدم الارتحال، والبيتُ والمنزلُ والمسكَنُ مؤقّتٌ

والنّشأة الأخرى[1]، ما يعني أنَّها تطلق على كلٍّ ما يحملُ معنى الاستقرارِ وعدمِ الارتحال، بخلافِ البيتِ والمنزلِ والمسكَن، أمّا البيت فيطلقُ على: مأوى الإنسان بالليل، لأنَّه يقال: باتَ: أقامَ بالليل... ثمَّ قد يقالُ للمسكن بيتٌ من غير اعتبارِ الليل فيه، ويطلقُ المسكَن على المكانِ الَّذي يكون فيه السُّكون، ثمّ يترك للعمل، والمنزلُ يطلقُ على المكان الذي ينزلُه ثمَّ يرتحلُ عنه.

العلم إدراكُ حقائق الأشياء، والفقهُ أخصُّ من العلم، والعقلُ قوةُ الإدراك

العلمِ والفقه والعقل:

العِلْمُ: نَقيضُ الجَهْلِ، ويعني: إدراكَ الشيء بحقيقته من خلال روافدَ وأسبابٍ تُعين عليه، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: 10][2]، والفِقْهُ: هو التّوصل إلى علْم غائب بعلْم شاهدٍ، فهو أخصّ من العلْم، قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨﴾ [النساء: 78][3]، والعَقْل: يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال: للعلم الذي يستفيده الإنسانُ بتلك القوّة، وكلُّ ما جاء في القرآن من تركيب هو من قوة الإدراك، نحو قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: 43][4].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (دار).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (علم).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (فقه).
(4) الراغب، مفردات القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عقل).

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من أدلَّة الجهل والجُحود الشركُ بالله بعد تفضّله بالإنجاء من الشدائد

بعد أنْ وضَّحتِ الآيةُ السّابقة أحوالَ المشركينَ الَّذين لا يعلمونَ تُجاهَ الدارِ الآخرة، وبيّنت أنّهم يُفضّلون عليها الحياة الزائفة الفانية، بسبب جهلهم وإعراضهم عن كل ما من شأنه أن يوضّح لهم الحقائق، ويأخذَ بأيديهم إلى طريق الهدى والنور، تأتي هذه الآية لتبيّن مدى جهلِهم وضعفِ إدراكِهم من خلال أقوالهم وأفعالِهم العجيبة، عندما يُحيط بهم البلاءُ في وسطِ البحر، وتصبحُ حياتُهم مهدَّدةً بالغرق، وكيف أنّهم يُقرّون بقدرة الله تعالى على إنجائِهم ممّا أحاط بهم، فيدعونه بتضرّعٍ وإخلاصٍ، ثم يعودون إلى الشِّرك به سبحانه بعد أنْ يُنجيَهم إلى البر !!! وما ذاك الجحودُ إلا دليلُ سلبِ العلْمِ عنهم، ومَن سُلِب العلمُ منه فإنَّه يتخبَّط في أعمالٍ غيرِ مُنسجمة.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: (فلك) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى اسْتِدارَةٍ في شَيْءٍ... وأمّا السَّفينَةُ فتُسَمَّى فُلْكًا... والواحِدُ والجَمْعُ في هَذا الِاسْمِ سَواءٌ، وتُسَمَّى فُلْكًا لِأَنَّها تُدارُ في الماءِ[1]، قال تعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [البقرة: 164]، وسُمّيَت (فُلكًا)؛ لأنّها تعودُ بعدَما تذهبُ في البحر، إذِ الذَّهاب في البحر مَظِنَّةُ عدمِ الرجوع، وربَّما نُظر إلى شكلِ السَّفينة مع التجاوُزِ عن تمامِ الاستدارة[2]، والمراد بـ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ في الآية: السُّفُنُ التي يركبونها وتتعرّض للمخاطر.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلك).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فلك).

2) ﴿مُخۡلِصِينَ﴾: (خلص) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَنْقيَةُ الشَّيْء وتَهْذيبُه، يَقولونَ: خَلَّصْتُهُ مِنْ كَذا وخَلَصَ هوَ، وخُلاصَةُ السَّمْنِ: ما أُلْقيَ فيهِ مِنْ تَمْرٍ أَوْ سَويقٍ ليَخْلُصَ بِهِ[1]، وحقيقةُ الإخلاص: التّبرّي عن كلّ ما دون اللّه[2]، قال تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ۝١٣٩﴾ [البقرة: 139]، ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: 24]، والمعنى هنا: مُتجرِّدونَ، لا يُشركونَ باللّه أحدًا.

3) ﴿ٱلدِّينَ﴾: (دين) أَصْلٌ واحِدٌ إِلَيْهِ يَرْجِعُ فُروعُهُ كُلُّها، وهوَ جِنْسٌ مِنَ الانْقيادِ والذُّلِّ، فالدّينُ: الطّاعَةُ، يُقالُ: دانَ لَهُ يَدينُ دينًا، إذا أَصْحَبَ وانْقادَ وطاعَ، وقَوْمٌ دينٌ، أَيْ مُطيعونَ مُنْقادونَ[3]، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: 125] أي: طاعةً، والمعنى هنا: مُنقّحينَ ومجرِّدينَ دينَهم للّه عمّا يشوبُهُ من شوائبِ الشّرك وآفاته.

المَعْنى الإجْماليُّ:

صـــورةٌ مـن الـجـحـود والـكـفـران دالّـةٌ على سلبِ العلْم عنهم

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنّ من صفات الكافرين الجاحدينَ، الَّذين لا يعقلونَ، ويفضّلون الحياةَ الدنيا الفانيةَ على الدار الآخرة الباقيةِ، أنّهم إذا ركبوا في السُّفُن، وجَرَتْ بهم بريحٍ طيّبة وفرحوا بها، ثمَّ جاءتْهم بعد ذلك ريحٌ عاصف، وظنّوا أنَّ الغرقَ قد اقتربَ منهم ودنَوا من الخطر؛ تضرّعوا إلى اللّه تعالى مُخلصين له الطّاعة والدّعاء، فلَمّا نَجّاهُمْ إلَى البَرِّ بفضله وكرمه، وأنقذهم من الغرق المحقَّق، إذا هُمْ يُشْرِكونَ مع اللّه تعالى غيرَه في العبادة والطاعة[4]، وتلك صورةٌ من الجحود والكفران التي لا نظيرَ لها ولا شبيهَ بها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (خلص).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 57.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى إلزامِ اللّه تعالى المشركينَ بإخلاصهم للّه تعالى، في حالة الشدّة، عند ركوب البحر بأنْ يُخْلِصوا للّه الدّعاء في حال الرَّخاء والشدة، واليُسر والعُسر، ليكونوا مؤمنينَ به حقًّا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾:

التـنـبـيـهُ إلى شكلٍ جديدٍ من أشكال الجُحود والكفران

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ يَحتملُ أنْ تكونَ عاطفةً للتعقيبِ والتفريع؛ "والْمُفَرَّعُ عَلَيْهِ مَحْذوفٌ، لَيْسَ هوَ واحِدًا مِنَ الْأَخْبارِ الْمُتَقَدِّمَةِ بِخُصوصِه، ولَكِنَّهُ مَجْموعُ ما تَدُلُّ عَلَيْهِ قوَّةُ الْحَديثِ عَنْهُمْ وما تَقْتَضيهِ الْفاءُ"[(1)]، تقديره: "هم مصروفونَ عن توحيدِ اللّه تعالى مع إقرارِهم بما يقتضيهِ، لاهونَ بما هو سريعُ الزَّوال، ذاهلونَ عن الحياة الأبديَّة، حتَّى إذا ركِبوا في الفلك، ولقوا الشَّدائد، دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدّينَ"[(2)]، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ استئنافيّةً، جاء بها النظمُ الكريم، لتنبيهِ المُتلقّين ولَفتِ أنظارِهم إلى شكلٍ جديدٍ من أشكالِ عنادِ الكافرين وجُحودِهم، بعدَ الأشكالِ التي كشفتْ عنها الآياتُ السّابقةُ.

دلالة التّعبير بأداة الشّرط:

التـعـجـيـبُ مـن جـحـود الـكـافـريـن، والـتـحـذيـرُ من الـسّـيـر عـلى منوالِهم

عبّر النظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ بـ(إذا) أداةً للشَّرط؛ لما تُفيده من تحقُّقِ دعاءِ الجاحدينَ وحصولِه بإخلاص وتجرّدٍ وإقرار بألوهيَّة اللّه تعالى وقدرتِه، عند ركوبِهم البحر واضطرابِ أمواجه واشتدادِ ريحه، وشعورِهم بأنَّ الخطر يُداهمُهم ويُحيط بهم، ما يعني: أنَّهم يفعلونَ ذلك من غير شكٍّ أوْ تردُّدٍ، وثوقًا في قدرة اللّه على إنجائِهم، وطمعًا في رحمته وكرمه، وهذا من شأنِه أن يزيدَ التعجيبَ من كُفرهم وجحودِهم، ويُحذّر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 32.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 14.

الآخرينَ من السَّير على منوالهم، وفيه أيضًا تهكُّمٌ بحالهم وبعلِمهم؛ إذ إنَّهم لا يفزعونَ إلى اللّه تعالى وحدَه إلا عندَ الحاجة.

دلالةُ التعبير بالفعلِ الماضي:

الجاحدونَ قبل الخطر غارقونَ في اللَّهو واللَّعب

أوثر التعبيرُ بالفعل الواردِ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ ماضيًا، لدلالته على تحقُّقِ الرّكوب، وحصولِ الخطر، ما يعني: أنَّهم قبلَ ذلك لا يتذكّرونَ اللّه، ولا يَدينونَ له بشيءٍ، فلا تراهم إلّا غارقينَ في اللَّهو، مُقبلينَ على اللَّعب، مُنشغلينَ بما هو على وشْكِ الزَّوال، ذاهلينَ عن الحياة الأبديَّة، مُعرضين عن رؤيةِ نعم اللّه، غيرَ مُنتبهين إلى تَفَضُّله عليهم بكثيرٍ من الخيرات التي لا تُحصى ولا تُعدّ، وفيه برهانٌ على سوءِ نيّتِهم، وخُبث طويّتِهم؛ لأنَّهم لا يذكرون اللّه تعالى إلا إذا نزلتْ بهم الشَّدائد، ونلمحُ في تحديد الركوبِ للبحر، وتسخيره لهم إشارةً إلى نعمةٍ جحدوا شكرَ المنعم الحقيقيّ فيها، وكان اللّائقُ بهم أنْ يعلموا أنَّ أصنامَهم لا تفعلُ ذلك ولا تقدرُ عليه، فهم قَصَروا إخلاصَهم على حالةِ الخوفِ من الغرق دونَ قَصْرِه على حالةِ التسخيرِ للنِّعَم المحيطةِ بهم، مع أنَّ الركوبَ المتحقِّق نعمةٌ عظيمةٌ تستحقُّ الشُّكر.

مرجع الضّمير:

الكافرونَ يُقرّون بالله ويَعبدونَ غيره

يُفهم من السّياق أنّ مرجعَ الضّمير المرفوعِ في الفعل الواردِ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ يعودُ إلى مَن وصفهم البيانُ القرآنيُّ فيما سبق بقوله: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾ [العنكبوت: 63]، "فلما ذَكَر تعالى أنَّهم مُقرّون باللّه إذا سُئلوا: مَنْ خَلق العالم؟ و﴿مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [العنكبوت: 63] ذكر هنا حالةً أخرى يرجعونَ فيها إلى اللّه وحدَه، ويُقرّونَ بأنه هو الفاعِلُ لما يريد، وذلك حين ركوبِ البحر واضطرابِ أمواجِه واختلافِ ريحِه"[1].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 138.

فائدةُ التعدية بـ﴿فِي﴾:

"عُدّي الفعل الوارد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ بـ: ﴿فِي﴾ جريًا على الفصيح، فإنّه يقال: ركِبَ الدابّةَ إذا علاها، وأمّا ركوبُ الفلك فيُعدى بـ(في)؛ لأنَّ إطلاقَ الركوبِ عليه مجازٌ، وإنّما هو جلوسٌ واستقرارٌ، فلا يقال: ركِب السَّفينةَ، فأُريد التفرقةُ بين الركوبِ الحقيقيّ والركوبِ المُشابهِ له، وهي تفرقةٌ حسنة"[1]، هذا من الناحية اللُّغويَّة، أمّا مِن ناحية المعنى: ففي تعديةِ فعل الركوب إلى ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ بالحرف المفيدِ للظرفيَّة، دلالةٌ على أنَّهم لا يدينونَ للّه، ولا يتضرَّعون إليه، ولا يتذكّرون ألوهيّتَه وقدرته إلا إذا أحاطتْ بهم الشدائد والمخاطر من كلِّ جانب، كما يحيط الظرفُ بالمظروف، وفي تشخيصِ ظرفِ الركوب إشارةٌ إلى علّةِ التجائِهم إلى اللّه تعالى وحدَه، وهو الخوفُ من الزَّوال والغرق، مع أنَّ الزوال محيطٌ بهم، سواءٌ كانوا في البرِّ أوْ في البحر؛ إذ الحياةُ الدنيا سريعةُ الانقضاء لكنَّهم لا يعلمون.

الجاحدونَ الجهلاءُ لا يَدينونَ لله وحده إلّا إذا أحاطتْ بهمُ الشّدائد

معنى التعريف بـ(ألْ) في ﴿ٱلْفُلْكِ﴾:

(ألْ) في ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ الواردِ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾: يُمكن أنْ تكونَ للعهد، والمقصودُ بها: الفلكُ التي يَصنعونها بأيديهم، ويَستعملونها للسَّفر والترحالِ ونقل الأمتعةِ والبضائع، ويمكنُ أن تكونَ للجنس، والمعنى: أنَّ هذا حالُهم دائمًا عند ركوب جنسِ الفلك وتعرُّضِهم للأخطار، ونلحظُ في هذا التعريف دلالةَ الامتنانِ عليهم بركوبِ البحرِ، وتسخير الماءِ ليكون حاملًا لتلك الفلكِ العظيمة مع أمتعتِهم وتجاراتهم، وكان اللّائقُ بحالهم شكرَ المنعِم وإخلاصَه بالدّعاءِ لتلك النّعمةِ العظيمة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 261.

بلاغةُ المجاز في ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾:

من نِعَم الله الموجِبةِ عبادَتَه وشُكرَه تسييرُ الفُلك وتسخيرُ البحر

في التعبيرِ بركوبِ الفلك دونَ الجلوس في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، شُبِّه فيها الجلوسُ على ظهر السَّفينة بركوبِ الدابّة، بجامع الاستعلاءِ والتمكُّن، ثمَّ استعيرَ الركوبُ للجلوس، التي تُبيّن عظيمَ فضل اللّه تعالى على خلقِه، بأنْ سخّر لهم الفلكَ والبحرَ الذي تسيرُ فيه؛ لتنقلَهم وتنقلَ أمتعتهم من مكانٍ إلى مكان، ما مِنْ شأنه أنْ يدفع الناسَ إلى التَّفَكُّر والتدبُّر المُفضي إلى عبادة المُنعِم وشُكرِه.

علّةُ الاقتصار على حالة الخوف في البحر دون البرّ:

مخاطر البحار لا يدفعها وفرةُ عَددٍ ولا قوةُ عُدد

خَصّ النظمُ الكريم حالَ خوفهم من هول البحر بالذكر في هذه الآية: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ وفي آياتٍ كثيرة، كما في سورة يونس، وسورة الإسراء؛ لأنّ أسفارهم في البرِّ لا يعتريهم فيها خوفٌ، ولأنّهم - غالبًا - كانوا يسافرون قوافلَ، معهم سلاحُهم، ويمرّون بسبُل يألفونَها، فلا يعترضُهم خوفٌ عامّ، أمّا سفرُهم في البحر فإنهم يَفْرَقون من هوله، لقلَّة إلْفِهم بركوبه، ولأنّ أهوالَه لا يدفعها عنهم وفرةُ عَدد ولا قوةُ عُدد...، فكانوا يضرعونَ إلى اللّه بطلب النَّجاة حينئذ، ولا يدّعونَ أصنامهم، ولا يطلبونَ منها شيئًا[1].

نكتةُ التعبير بالفعل الماضي ﴿دَعَوُاْ﴾:

ما أسرعَ لجوءَ الكافرين لله وحدَه عند شعورِهم بالخطر!

عبّر النظم الكريم في جواب الشرط بالفعل الماضي أيضًا في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ﴾؛ لدلالتِه على سُرعةِ توجُّهِهم إلى اللّه وحده، وحصولِ تضرُّعِهم إليه من غير تردُّدٍ أوْ تأخُّرٍ عندما يحيطُ بهم الخطر؛ لاقتناعهم بأنّ اللّه هو وحدَه القادرُ على أنْ يُنجيَهم ممّا هم فيه من أهوال، كما أفادَ إضمارُ ما يدلُّ على اضطرابِ البحر واقترابِهم من دوحة الخطر على أنَّ شدّةَ الخوف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 203.

كانت ظاهرةً عليهم، حتى إنَّهم دعَوا اللّه وحدَه بمجرَّد الركوب، وفي ذلك تصويرٌ لشدَّة الهلع من أدنى حركةٍ للبحر وللرّياح، فهم راكبونَ خائفينَ يُساورُهم القلقُ من مجرَّد الركوب، وإن لم يحدثْ للبحر هيجانٌ أصلًا، كما نلحظُ في إسناد فعلِ الدعاء إلى جميع الراكبين دلالةً على الخوف الجماعيِّ والاشتراكِ في الدعاء والتضرُّعِ بحيث لا يتخلّفُ واحدٌ منهم عن ذلك.

سرُّ تعدية فعل الدعاء إلى الاسمِ العلم:

إذا أحاط الخطر بالكافرين أقرّوا بعجز الآلهة التي يعبدونها

عُدّي فعلُ الدعاء إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، الذي يُعبَّر به في مقام التأليه والعبادة، تنبيهًا إلى أنّهم يدعونه في هذا المقام بوصفه الإله الذي يعبدونه، ويكفرونَ بكل ما يُعبد من دونه، لإقرارِهم بعجز الآلهة التي يعبدونها عن فعل أيّ شيء لهم في هذا الوقت أوْ في غيره، "قال عكرمة: كانوا إذا ركبوا في الفلك حمَلوا معهم الأصنام، فإذا اشتدّتْ بهم الريحُ ألقَوها في البحر، وقالوا: يا ربِّ يا ربّ"[1]، ما مِن شأنه أن يثير العجبَ والاندهاش من حالة الجحودِ والكُفران التي هم عليها، كما دلّتِ التَّعْديةُ على أنَّهم يعلمونَ باللّه مُنجيًا ومُخلّصًا لهم، لكنَّهم يُشركون به غيرَه عندَ الدُّعاء والعِبادة، وما ذلك إلا برهانٌ صريحٌ على ما تضمّنَه قولُه قبل: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

دلالةُ التّعبير بالحال ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾:

حال الكافرين عند الشدَّة يستدعي التعجُّب والتهكُّم

قوله تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ حالٌ من الضَّمير المرفوع في الماضي: ﴿دَعَوُاْ﴾، وفي التعبيرِ به دلالةٌ على أنّ الكافرينَ الجاحدينَ عند إحاطةِ الخطرِ بهم في البحر، يكونُ حالُهم حالَ مَن أخلصَ دينه وطاعته للّه من المؤمنين، حيثُ لا يذكرونَ إلّا اللّه، ولا يدعونَ أحدًا سواه؛ ليقينِهم بأنّه لا يكشفُ الشدائدَ إلّا هو ﷻ، وفي توصيفِهم بـ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ ضربٌ من التهكُّم بهم، سواءٌ أريد بـ﴿ٱلدِّينَ﴾: الملّة، أوِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 578.

الطّاعة، أمّا على الأوّل فظاهرٌ، وأمّا على الثاني فلأنّهم لا يستمرّونَ على هذه الحال، إذ هي قبيحةٌ باعتبار المآل[1]، ولا يخفى أنَّ محطَّ الحُكم في الآية كامنٌ في دلالة الحال؛ إذ مجرّدُ الدعاء للّه دون إخلاصِه له يُظهر مدى جهالتهم باللّجوء إلى اللّه وحده حالةَ الذُّعر من البحر، وعندَ نزولهم إلى البر يعودونَ إلى شركهم، فالحالُ يشكّلُ بؤرةَ الانتقادِ لهم على جهالتِهم وسوءِ فعلهم، مع أنَّ الأخطارَ التي تحفُّ الإنسانَ في البرِّ والبحر لا يقدرُ على دفعِها إلا اللّه وحدَه.

وجهُ إيثار التّعبير باسم الفاعل ﴿مُخۡلِصِينَ﴾:

الكافرون عند الخطر يكونونَ في إخلاص، يُتوقّع ألا يعودوا بعدَها لشركهم

أوثر التعبير في قوله تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ باسم الفاعل: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ المُشتقّ من الثلاثيِّ المزيد بحرف (أخلصَ)؛ للدلالة على أنَّهم يكونونَ عند تهديد الخطرِ لحياتهم في حالةٍ شديدةٍ من إخلاص العبادة والتوجُّه للّه تعالى، والتخلّي عن كل معبودٍ سواه، حتى يَظُنَّ مَنْ يراهم أنهم لن يعودوا إلى الإشراك باللّه أبدًا، مِنْ شدّة ما هم فيه مِنْ رغبةٍ ورهبةٍ ورجاء، كما دلَّ اسمُ الفاعل على حدوثِ الإخلاص لهم بعدَ أنْ كانوا يفتقدونه على البرِّ قبلَ الرّكوب.

دلالةُ التقييدِ بالجارِّ والمجرور في ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾:

الكافرونَ واثقونَ في قدرة اللّه ومع ذلك يُشركونَ به

في تقييدِ اسم الفاعل ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ بالضّمير المجرورِ بالحرفِ المفيدِ للاختصاصِ، العائدِ إلى اسم الجلالة العلَم في قوله: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بناءً على تعلُّقه به، تقويةٌ وتأكيدٌ لما سبقَ بيانُه من أنَّهم لا يلجؤونَ لأحدٍ في هذه الحالة سوى للّه تعالى، ولا يعبدون أحدًا سواه، ثقةً منهم في أنّه سبحانه القادرُ على إنجائهم ممّا أحاط بهم من شدائدَ، وإخراجِهم ممّا هم فيه من أهوالٍ.

نكتة تقديم شبه الجملة في ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُ﴾ الوارد في قوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 464، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 14.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ على المعمول ﴿ٱلدِّينَ﴾ بناءً على تعلُّقِه به فيكونُ قيدًا للدّين دونَ الإخلاص؛ للدلالةِ على أنّ اهتمامَ الكافرين في هذه الحالة منصبٌّ على التوجُّه لله، وإظهارِ الإخلاص له سبحانه، كما أنّه تعالى مُقدّمٌ على كلِّ شيء، ليقينهم أنَّ الإخلاصَ له هو السّبيلُ الوحيدُ لتحقيقِ أملهم بالنجاة، وسواءٌ كان الإخلاص لله وحدَه أوْ كان الدّينُ مُنحصرًا بالله تعالى؛ فإنَّ كلًا من الإخلاص والدّينِ ينبغي أنْ يَتوجَّها لله تعالى وحدَه، ومِن ثَمَّ أوقِع الجارُّ والمجرور بين لفظينِ يحتملُ أنْ يكونَ كلٌّ منهما مُتَعَلَّقًا له.

إبــرازُ اهــتــمــام الــكــافــريــن في المُــدْلَــهِــمّــات مــنــصــبٌّ عــلى التوجُّه لله

معنى التعريف في ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾:

(ألْ) الواردة في قوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هي للعهد، والمعنى: أنّ الكافرينَ في حال تعرُّضِهم للشَّدائد يُظهرونَ الإخلاصَ في كلِّ ما يتعلّقُ بأمورِ الدّين المعهودة، مِن عبادةٍ ونُسُكٍ ودعاءٍ وثقةٍ وإيمانٍ بالله الواحد الَّذي لا شريكَ له، التي كانوا يُنكرونها من قبلُ، ويتلهّون عنها بلَعِب الحياة الدنيا ولَهْوِها، وتَحتملُ إرادةَ الجنس، أي: يُخلصونَ له الدينَ الحقَّ بكلِّ حقيقتِه وكمالِه وصوابِه وصحّتِه، وحينئذٍ يحتملُ أن يكونَ المراد بـ﴿ٱلدِّينَ﴾: الملّةَ الحقّة أوِ الطّاعة الكاملةَ أوِ الدُّعاءَ الحقَّ الَّذي لا يشوبُهُ شركٌ ولا يُخالطُهُ جُحودٌ.

الـكـافـرونَ حال الـشـدّة يدينونَ بما كانوا ينكرونَ قبلُ

بلاغة الإيجاز بالحذف:

في الآية إيجازٌ بالحذف يُفهمُ من السّياق، ويؤذنُ باعتياد الكافرينَ الجحودَ والنُّكران، إذ التقدير: (فإذا ركِبوا في الفلك، وأبحرتْ بهم حتّى صارتْ في وسط البحر، ثمَّ هاجتِ الريحُ، وتلاطمتِ الأمواج، واضطربتْ الفلكُ من تحتهم، وظنّوا أنَّهم هالكونَ لا محالة، عند ذلك فعلوا ما يقومونَ به عادةً، فاعترفوا بالله تعالى معبودًا واحدًا، وكفروا بكلِّ ما كانوا يعبدونَ من دونه،

الـحـذفُ يُـؤذِنُ باعتياد الكافرين الــجــحــودَ والنُّكران

وتوجّهوا إليه سُبحانه بالدُّعاء والتضرُّع، راجينَ أنْ يُنقذَهم من هذه الشدَّة، عازمينَ على أنْ يظلّوا باقينَ على توحيدِه وعبادته، وألّا يعودوا إلى ما كانوا فيه مِن شركٍ أبدًا).

معنى الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾:

النّجاةُ مُسبَّبة عن استجابةِ دعائهم الخالصِ لله تعالى

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ هي التي تفصحُ عن كلامٍ محذوفٍ يُفهم من السّياق، والتقدير: (نجِّنا من الغرقِ ونعبدُك ولا نشركُ بك شيئًا، فلمّا أنعمَ عليهم بالنَّجاة من الأهوال والشّدائد التي كانوا فيها، ووصلوا إلى برّ الأمان، عادوا إلى ما كانوا عليه من الشِّرك ونسيانِ الآخرة)، ونلحظُ أنَّ التعبير بـ(الفاء) دلَّ على كلامٍ محذوفٍ يرتبطُ بما بعدَه بعلاقة السببيَّة؛ إذ النّجاةُ مُسبَّبة عن استجابةِ دعائهم الخالصِ للّه تعالى، ممّا يحملُ دلالةً على أنَّ النجاة من المهالك لا تكونُ إلا بالتوحيدِ الخالص والدُّعاء الخالصِ للّه تعالى.

معنى (لَمَّا) ودلالتُها:

صاحب الحاجة يكف عن انكساره إذا نال حاجته

(لَمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ﴾ حرفُ وجوبٍ لوجوب، أوْ حرفُ وجودٍ لوجود، ومذهبُ سيبويه: أنَّها حرفٌ دالٌّ على الشّرط بمنزلةِ إنِ الشّرطية في الدّلالة على تعليقِ حصولِ مضمونِ جوابِها عندَ حصولِ مضمونِ شرطِها، وقيل: إنَّها ظرفٌ متضمّنٌ معنى الشرط بمعنى: حين[1]، وعلى كليهما فالتعبيرُ به دلالةٌ على حصولِ إشراكِهم باللّه معلّقًا بإنجائهم أوْ عندَ إنجائهم إلى البرّ، واطمئنانِهم إلى السَّلامة، وكأنَّ النُّكوصَ والجحودَ من الأمور المعتادةِ عنهم، المُسلَّمِ بها لديهم.

دلالةُ التعبير بفعل التنجية ماضيًا مُسندًا إلى ضمير الجلالة:

عبّر النظمُ الكريمُ بفعل التنجية ماضيًا، مُسندًا إلى الضَّمير

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 594.

العائد إلى اسم الجلالة العلَم: ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾؛ للدلالةِ على تأكُّدِ حصول النّجاء بحولِ اللّه تعالى وقوّته، وأنّه سبحانه هو الَّذي تولّاه بنفسه، وأنّه ما كان يحصلُ لولا إرادتُه، ولولا تفضُّله باستجابةِ دعائهم، وتقديرِ إظهارهم الإخلاصَ، مع علمِه بما تنطوي عليه نفوسُهم، من ميلٍ إلى الدُّنيا وعزوفٍ عن الآخرة، وفي اختيارِ الفعلِ مضعَّفًا دلالةٌ على كمالِ النَّجاة الحاصلةِ لهم، وأنَّها نجاةٌ تامّةٌ، والأحرى بهم أنْ يستمرّوا على إظهار التوحيد وإعلانِ البراءة من الشرك؛ لتتحقّقَ الاستجابةُ لهم، والنجاةُ التامّةُ من عذابِ الآخرة.

يستجيبُ الله تعالى الدّعاءَ مع علمِه بما تنطوي عليه نفوسُ الدّاعين

علةُ تعديةِ فعلِ التنجية إلى الضَّمير المتّصل:

عُدّي فعلُ الإنجاء إلى الضَّمير المتّصل: ﴿نَجَّىٰهُمۡ﴾ العائدِ إلى الَّذين ركِبوا في الفلك، ودعَوُا اللّه مخلصينَ له الدين، والمعهودُ منهم تفضيلُ الدنيا على الآخرة؛ للدلالة على أنّ التنجيةَ حصلتْ لهم على الرَّغْم ممّا كانوا عليه من إدبارٍ عن الآخرة الباقية، وإقبالٍ على الدُّنيا الفانية، وعلى الرَّغْم من إشراكهم مع اللّه تعالى مَن لّا يقدرُ على شيءٍ، وفيه دلالةٌ على لطفِ اللّه بهم عندَ إخلاصِهم وتوحيدِهم، حيثُ تفضّلَ عليهم بالإنجاء على الرَّغْم من علمه باعتزامِهم العودةَ إلى ما كانوا عليه من شركٍ؛ ليُدركوا بهذه التنجيةِ مَدى جهلِهم باللّه تعالى عندَ الإشراكِ به مَن لا يقدرُ على شيءٍ من دونه.

مِنْ لُطْفِ الله بخلقِه أنْ يُنجيَ المشركينَ مِنَ الشّدائد ساعةَ الإخلاص

توجيهُ المتُشابهِ اللَّفظيّ:

وردَ هذا المعنى الَّذي في الآية الكريمة في أكثرَ من سورةٍ من سور القرآن الكريم، كما سبقَ توضيحُهُ، ومن اللّافت للنَّظر تفصيلُ البيانِ القرآنيّ دعاءَ الكافرينَ في سورةِ يونس: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ [يونس: 22]،

التفصيلُ مناسبٌ لغرضِ التحذير

وعَدَمُ ذِكْرِه في باقي المواضع، والسرُّ في ذلك ما سبقَ توضيحُه مِنْ أنّ المخاطبينَ في سورة يونس ليسوا هم الَّذين ركِبوا البحر، ولكنّهم قومٌ سيقت لهم القصّةُ بكلِّ تفاصيلها؛ ليتجنَّبوا الوقوع فيما وقعَ فيه أسلافُهم، والله أعلم.

وجهُ تعدية فعل النجاة:

التعديةُ بالهمز عنـدَ الإسـراع، وبالتضعيف عنـد التلبّث والإمهال

المتأمّلُ في آياتِ الذّكر الحكيم يلحظُ تعديةَ فعلِ (النّجاة) تارةً بالهمز، فيأتي: ﴿أَنجَىٰهُمْ﴾ [يونس: 23]، كما في سورة يونس، وتارةً بالتضعيف، فيأتي: ﴿نَجَّىٰهُمْ﴾، كما في سورتي العنكبوت ولقمان؛ وذلك جريًا على منهج البيانِ القرآني في التعبير بـ(نَجَّى) للدّلالة على التلبُّثِ والإمهالِ والتدرُّج في التنجية، مع الإشارةِ إلى شدّةِ الخطرِ المُحدِق الَّذي يُصوِّرُ للعبادِ على وفقِ ما يفهمون أنَّه يحتاجُ إلى مبالغةٍ وتكثير لتتحقّقَ النّجاة لهم، والتعبير بـ(أَنْجَى) للدلالة على حصولِها على وجهِ السُّرعة بلا مُهلةٍ ولا تدرُّج، فإنَّ الثانية أسرعُ من الأولى في الدلالة على التخليصِ من الشدَّة والكرب، والبناءُ اللغويُّ لكلتَيهما يدلُّ على ذلك بوضوح.

ففي سورة (يونس) كان الأمر شديدًا، لأنه ذكر أنّ ريحًا عاصفةً جاءَتْهم وهم في الفلك، وجاءَهم الموجُ من كلِّ مكان، وظنّوا أنّهم أُحيط بهم، وأنّهم عاهدوا اللّه لئنْ أنجاهم ليكونُنَّ من الشاكرين، فتطلّب ذلك الإسراعَ في إنجائِهم وعدمِ تركهم طويلًا فيما هم فيه، وعبَّر عنه بـ﴿أَنجَىٰهُمْ﴾ [يونس: 23] متناسبًا مع طلبهم له بقولهم: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ [يونس: 22]، أمّا في سورتي (العنكبوت ولقمان) فلم يذكر مفصّلًا أنَّهم أُصيبوا بمكروه، أَوْ مسّهم الضرُّ، وإنْ فُهِم ضمنًا من التوجُّه بالدعاء الخالص بالنّجاة ممّا يُحيط بهم من أسبابِ الهلاك، فجاء بالفعلِ المضعّف الدالِّ على حصول النَّجاة لهم تدرُّجًا لمشقَّة الأمر وصعوبته، كما يظنّه المخاطبونَ ويتوهَّمونه،

وإنْ كان هيِّنًا عند اللّه تعالى، كما أنَّ في سورة (يونس) لم يحدَّد محلُّ انتهاء الإنجاءِ، فناسبَ ذكرهُ بلفظِ (أنجى)، وفي السّورتين ذُكِر محلُّ التنجية وهو ﴿ٱلۡبَرِّ﴾ فناسبَ أن يكثّرَ في الفعل؛ إذ لا يلزمُ من الإنجاءِ الوصولُ إلى البرّ، بخلاف التَّنْجية التي تستلزمُ الوصولَ إلى البرّ؛ لكثرة الفعل وشدّة العناية، فتحديدُ محلِّ الانتهاء اقتضى التنجيةَ، وعدمُ ذكره استلزمَ الإنجاءَ فحسبُ.

نكتةُ التعدية بـ﴿إِلَى﴾:

البحرُ مظنّةُ الغرق، والبرُّ مظِنّةُ النَّجاة

في تعديةِ فعل التنجية إلى ﴿ٱلۡبَرِّ﴾ بحرف الانتهاء: ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ دلالةٌ على أنَّ البحر كان مكانَ شرّ لهم، فهم وإنْ ركِبوا في الفلك وهو مكانٌ آمنٌ لكنَّه محاطٌ بالماءِ والموج من كلِّ جانب، فيكونون في الحقيقة راكبينَ للبحر ومخاطِره، وعندما أدركَتْهم العناية الإلهية الكاملةُ بالتنجية بعد أنْ أخلصوا في الدّين والدعاء كانت التنجيةُ كاملةً، فلن تقدّم لهم النَّجاةَ من البحر والغرق فحسب، بل أوصلَتْهم إلى مكانِ السَّلامة وهو البرُّ، وفُهم من تحديد محلِّ انتهاء النجاة أنَّ التنجية كانت تامّةً ومتكاملةً، فالأحرى بهم أنْ يُخلصوا الدعاء في البرّ أيضًا لينجوا من شرِّه أيضًا؛ إذ البحرُ والبرُّ لا يُشكّلان مصدر أمنٍ للمُعاقبين، وهما مصدرُ أمانٍ للمخلصينَ الموقنينَ، كما أضمر إبتداءَ النجاة (من البحر) لفهمِه من سياق الكلام، ولأنَّ المقصود الأعظم تحديدُ محلِّ السّلامة، ولا يبعدُ أنْ يكونَ (البحر) رمْزًا لضلالاتِهم، و﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ رمزًا لعقولِهم المُجازفةِ باعتقادِ تلك الضَّلالات، و﴿ٱلۡبَرِّ﴾ رمزًا لهدايتهم، فإنْ هم أخلصوا في الدّعاء أنقذَهم اللّه من بحر الضلالاتِ إلى برِّ الأمان والهدايات.

معنى التعريف بـ(ألْ) في ﴿ٱلۡبَرِّ﴾:

حبُّ الدنيا ولهوُها أساسُ كلّ انحراف

(ألْ) في ﴿ٱلۡبَرِّ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ هي لامُ الجنس، الدّالّةُ على أنّهم لم ينتظروا العودةَ إلى ديارهم ومحلِّ

إقامتهم، ولكنَّهم انشغلوا بالدنيا، وجحَدوا نعمة الإنجاء التي كانوا يتضرّعون بها، ويخلصونَ الدعاء رغبةً في تحقيقها، بمجرد أنْ وطِئت أقدامُهم البَرَّ، حيث نسَوا الأخطار والأهوالَ وعادوا إلى لهو الدنيا ولعبها، وفيه "إشارَةٌ إلَى أنَّ المانِعَ مِنَ التَّوْحِيدِ هوَ الحَياةُ الدُّنْيا، وبَيانُ ذَلِكَ هوَ أنَّهُمْ إذا انْقَطَعَ رَجاؤُهُمْ عَنِ الدُّنْيا رَجَعوا إلَى الفِطْرَةِ الشّاهِدَةِ بِالتَّوْحِيد ووَحَّدوا وأخْلَصوا، فإذا أنْجاهُمْ وأرْجَأهُمْ عادوا إلَى ما كانوا عَلَيْهِ مِنْ حُبِّ الدُّنْيا وأشْرَكوا"[1].

دلالة التعبير بحرف المفاجأة:

يبادرُ الكافرون إلى فـعـلِ ما اعـتـادوا من الشّرك بمجرَّد زوال الخطر

جيءَ بِحَرْفِ المُفاجَأةِ: ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ لِلدَّلالَةِ عَلَى أنَّهُمُ ابْتَدَروا إلَى الإشْراكِ في حِينِ وُصولِهِمْ في البَرِّ، أيْ: أسْرَعوا إلَى ما اعْتادوهُ مِنْ زيارَةِ أصْنامِهِمْ والذَّبْحِ لَها[2]، وفعل كلّ مظاهر الشّرك التي درجوا عليها، بدايةً من وصولهم البرَّ، وبعدَ استقرارهم في الأرضِ التي يُقيمونَ عليها.

نكتةُ التّعبيرِ بالجُملة الاسميّة:

الـشِّـرك هـو عقيدةُ الكافرينَ التي لا تتبدّل بل تتجدّد

عبّر النظمُ الكريم بجملة: ﴿هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ الاسميّة الصّدر الفعليَّةِ العجُز؛ لما تمتاز به من الدلالةِ على ثُبوتهم على الشّرك وداومِهم عليه باعتبارِ ثبوتِ الخبرِ لها، وتجدُّدِ الشِّرك منهم كلَّما سنحتِ الفرصةُ لهم باعتبارِ خصوصِ الخبر المضارعيِّ فيها، وكأنَّ ما حصلَ منهم من دعاءٍ وإخلاصٍ عندَ تعرّضهم للخطر كان حالةً استثنائيَّةً عارضةً لا يُقاسُ عليها، ولا يمكنُ أنْ يوسَموا بالإيمان أثناءَها أوْ بسببها؛ لأنها حالةٌ فرضتْها عليهم الأهوالُ التي كانوا فيها، والأخطارُ التي تعرَّضوا لها، لكنَّ الشرك لديهم هو الأصلُ الّذي لا يتبدّل ولا يتغيَّر، بل يستمرُّ فيهم ويتجدّد، وفي تقديم المسند إليه: ﴿هُمۡ﴾ على الخبر الفعليِّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 76.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 33.

﴿يُشۡرِكُونَ﴾ تقويةٌ لمعنى شِركهم باللّه وجحودِهم نعمةَ الإنجاء، وتأكيدُ حصولِ ذلك منهم بدون شكٍّ أوِ افتراء.

دلالة التعبير بالمضارع:

استحضارُ الصّورة يساعدُ في إنكارها وإثارة العجبِ من حصولها

أوثر التعبير بالمسند: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ فعلًا مضارعًا لما يُفيدُهُ من استحضارِ الصّورة الماضيةِ كأنَّها حاضرةٌ ماثلةٌ، يبدو فيها هؤلاءِ المشركونَ وقد عادوا لجميعِ مظاهر الشّرك، وأسرعوا لكلّ أعمالِ الجحود، ونسوا ما كانوا عليه من فزعٍ وتضرُّع، وإلحاحٍ على اللّه تعالى بالإنجاء، ومنحِهم فرصةَ الحياة من جديد، وهي صورةٌ يقصدُ البيان إلى استدعائها واستحضارها؛ تعجيبًا من حالهم، وإنكارًا لفعلِهم.

فائدةُ التغاير بين أزمنة الأفعال:

المِحَنُ والشّدائدُ لا تُغيّر عقيدةَ المشركين

وردَ في الآية الكريمة أربعةُ أفعال، ثلاثةٌ منها بصيغة الماضي، وهي: ﴿رَكِبُواْ﴾ و﴿دَعَوُاْ﴾ و﴿نَجَّىٰهُمۡ﴾ الدالِّ على التحقُّق والحصول، وواحدٌ بصيغة المضارع الدالِّ على التجدُّد والاستمرار في الحال والاستقبال، وهو: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يُعَبَّر عن فعل الإشراكِ بصيغةِ الماضي أيضًا تناسبًا وانسجامًا بينَ المتحدَّث عنهم، فيقال: (فلمّا نجاهم إلى البرّ أشركوا)، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ عدلَ عن الماضي إلى المضارع، لما يفيدُه بجانبِ استحضار الصّورة من تجدُّد البقاء على الشّرك، ويفيدُ أيضًا كونَها خصلةً متجدّدةً في كلِّ مَن تعرّض لمحنة، سواءٌ كانت المحنةُ هي المتحدّثَ عنها أوْ غيرها؛ إذ الجملةُ الاسميّةُ بالخبرِ الفعليِّ بمثابةِ النتيجة، ومن شأنِها أن تكون كليّةً دالّةً على العموم، غيرَ منحصرةٍ بحالة ركوبِ السّفينة، بل تتعدَّى لكل محنةٍ يقع فيها هؤلاءِ المشركون، وهو ما يفوتُ ويُفهم جزئيّتُه وانحصارُه بالحالةِ المتحدَّث عنها، إذ عبّر النظمُ بالفعل الماضي: (أشركوا).

نكتةُ حذف المفعول والمتعلّق:

عمومُ صورِ الشّرك بَشعةٌ ممقوتةٌ

لم يذكر النظمُ الكريم معمولًا للفعلِ: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾، إذ لم يقل: (يشركون الأصنام باللّه) أوْ (يشركون الأصنامَ مع اللّه)؛ لأنَّ القصدَ هو تقبيحُ إصرارهم على الشّرك أيًا كانت صورتُهُ، فليس ثمّةَ صورةٌ من صوَرِ الشِّرك أقلَّ من غيرها، أوْ مقبولةً أكثر من غيرها، بل عمومُ صوَرِه بَشعةٌ ممقوته، تؤدّي بفاعلها إلى الجحودِ للمُنعِم الحقيقيّ والهلاكِ في الآخرة، ويَحْتَمِلُ أنْ يرادَ بالفعل المتعدّي اللُّزومُ، فيفيدُ تحقُّقَ الإشراكِ لهم على أنّه صفةٌ لازمةٌ ومتجذّرةٌ، وأنَّ التوحيدَ طارئ عليهم غيرُ متأصِّلٍ فيهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفُلْك والسَّفينَة:

الـفُـلـك عـامٌّ الإطـلاق بخلاف السّفينةُ

إنّ (الفُلْكَ) أكثرُ ورودًا في كتاب اللّه تعالى، إذ تمّ التعبير به في (ثلاثةٍ وعشرينَ موضعًا)، كما أنّه أعمّ وأشملُ إطلاقًا من (السفينة)، حيث يُطلق على السَّفينة التي تجري في الماء، كما في قوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الجاثية: 12]، ويُطلقُ على السَّفينة قيد التصنيع، كما في قوله: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: 38]، ويطلقُ كذلك على السُّفُن الكبيرة غير المعيّنة التي تمخُرُ في البحار والمحيطات، كما في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾ [فاطر: 12]، بالإضافةِ إلى أنّه يطلقُ على الواحد وعلى الجمع.

أمّا (السفينةُ) فقد وردت في البيان القرآنيِّ في أربعة مواضعَ فحسبُ، وتدل في أغلبها على السَّفينة الصَّغيرة، التي يستعملها الناس في حاجاتهم اليومية، كما في قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الكهف: 79]، أو الكبيرةِ المعيّنة كما في قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: 15].

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [العنكبوت: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نجاةٌ فكفرانٌ فتمتُّعٌ فتهديدٌ

بعد أنْ بيَّنت الآيةُ السّابقةُ أنّ المشركينَ قد جحدوا نعمةَ الإنجاءِ من أخطارِ البحارِ الَّتي كانوا يتضرَّعون بها إلى اللّه، ويبكونَ مُتوسِّلين من أجل حصولها، بأنْ عادوا إلى جميع مظاهرِ الشِّرك وكلّ أعمالِه، بعد أنْ وصلتْ سفنُهم إلى برِّ الأمان، ومُنحوا نعمةَ الحياة من جديد، تأتي هذه الآيةُ لتبيِّنَ أنّ السبب في: الكفرِ بنِعَم اللّه، والحِرصِ على الاستفادةِ من نعيم الحياةِ الدنيا ومُتَعِها الفانية، والإعراضِ عن الدارِ الآخرة، والنّفورِ من كلِّ ما يتّصلُ بها؛ إنّما هو الشّركُ، إذ كان الشّركُ سببًا متقدِّمًا في الوجود على الكُفران والتمتُّعِ بالمحرَّمات، وإنْ كان كلٌّ من الكفران والتمتُّع باعثًا للفاعل على فعل الإشراكِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ﴾: (متع) "أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَنْفَعَةٍ وامْتِدادِ مُدَّةٍ في خَيْرٍ، مِنْهُ اسْتَمْتَعْتُ بِالشَّيْءِ، والمُتْعَةُ والمَتاعُ: المَنْفَعَةُ، قال تَعالَى: ﴿بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: 29]، ومُتِّعَتِ المُطَلَّقَةُ بِالشَّيْءِ، لِأَنَّها تَنْتَفِعُ بِهِ، ويُقالُ: أَمْتَعْتُ بِمالي، بِمَعْنَى: تَمَتَّعْتُ"[1]. "والمَتاعُ: انتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يقال: مَتَّعَهُ اللّهُ بكذا، وأَمْتَعَه، وتَمتَّعَ به، قال تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98]، وقال: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ [لقمان: 24]، وكلُّ موضعٍ ذُكر فيه (تَمتّعوا) في الدّنيا فعلى طريقِ التّهديد"[2]، والمرادُ بالتمتُّع في الآيةِ: الانتفاعُ بنعمةِ الدنيا والالتذاذُ بمحرَّماتها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (متع).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

كـفـرانُ الـنّـعَـم جـزاؤُه العقابُ والنّدَمُ

تبيِّنُ الآيةُ الكريمة أنَّ الكافرينَ يجحدون نِعَمَ اللّهِ تعالى عليهم بصفةٍ عامّةٍ، ونعمةَ الإنجاءِ إلى البرِّ بصفةٍ خاصّةٍ؛ لأنَّ ديدنَهم الكفرُ بنِعَم ربِّهم، وجحودُ آلائه، ونكرانُ ما تفضّلَ به عليهم، وأنَّ دافعَهم إلى ذلك التمتُّعُ بمتع الدنيا الفانية، وزينتها الزّائلة، كما توضِّح الآية أنَّهم سيعلمون - حين لا ينفعُ العلْم - خطأَ ما كانوا عليه من الكُفر بنِعَم اللّه، وسيندمونَ - حين لا ينفعُ الندم - على تفريطهم فيما يتّصلُ بالدّار الآخرة، وحرصِهم على لَهْو الحياة الدنيا ومتاعِها.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (اللّام) في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾:

تعليلُ كفرهم، أوْ لـلأمـرِ على التهديد، أوْ على وجـه الـخِـذْلان والتخلية

(اللّامُ) في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ فيها وجْهان؛ أحَدُهُما: أنَّ تكون لامَ كَيْ، والمعنى: يُشْرِكونَ ليَكونَ إشْراكُهُمْ كُفْرًا بِنِعْمَةِ الإنْجاءِ، وليَتَمَتَّعوا بِسَبَبِ الشِّرْك، فسَوْفَ يَعْلَمونَ وبالَ عَمَلِهِمْ حينَ زَوالِ أمَلِهِمْ، والثّاني: أنْ تَكونَ اللّامُ لامَ الأمْرِ، ويَكونَ المَعْنَى: ليَكْفُروا عَلَى التَّهْديدِ مجازًا؛ كَما قالَ تَعالَى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فُصِّلَتْ: 40]، وكَما قال: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: 135]، أيْ: فساد ما تعملون، أوْ هي للأمرِ على وجه الخِذْلان والتخلية، كما تقول لمَنْ تنصحُهُ فلا يقبلُ نصحَك: اعملْ ما شئْتَ[1].

بلاغة الاستعارة:

بـيـانُ سـبـبِ جحودِ الكافرين نعمَ ربِّ العالمين

إذا كانت اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ للتَّعْليلِ، فهيَ مُتَعَلِّقَةٌ بالفِعْلِ: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾، والكُفْرُ هُنا لَيْسَ هوَ الشِّرْكَ، ولَكِنَّهُ كُفْرانُ النِّعْمَة، بِقَرينَةِ قَوْلِه: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾، إذ الإيتاءُ

(1) الرازي: مفاتيح الغيب: 25/ 76، وابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 129.

بِمَعْنَى: الإنْعام، وبِقَرِينَةِ تَفْرِيعِهِ عَلَى: ﴿يُشْرِكُونَ﴾، فالعِلَّةُ مُغايِرَةٌ لِلْمَعْلولِ، وكُفْرَانُ النِّعْمَةِ مُسَبَّبٌ عَنِ الإشْراك؛ لِأَنَّهُمْ لَمّا بادروا إلَى شؤون الإشْراكِ، فقَدْ أَخَذوا يَكْفُرونَ النِّعْمَةَ[1]، ما يعني أنّ في اللّام اسْتِعارَةً تَبَعِيَّةً، يقال في إجرائها: شُبّهَ المُسَبَّب، وهو كفرانُ النِّعمة وجحودُها بِالعِلَّةِ الباعِثَةِ، بجامع ترتُّبِ شيءٍ على شيءٍ، ثمَّ استُعيرت "اللّام" للعلَّة الباعثة عوضًا عن حرف (التفريع) على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة.

نكتة التّعبير بالمضارع:

جحود النعم صفةٌ مستمرةٌ في الكافرين

عبَّر النّظمُ الكريمُ عن الكُفران والجحود في قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ فعلًا مضارعًا مُشتمِلًا على (أنِ) المضمرة؛ للدّلالة على تجدُّدِ كُفرهم بنِعَم اللّه تعالى، واستمرارِهم في جحودِها في الحال والاستقبال، ما يعني: أنّ هذا الأمرَ ليس جديدًا عليهم، وأنّه سمةٌ متأصّلةٌ فيهم على سبيل الاستمرار، وصفةٌ من الصِّفات التي درَجوا عليها، وتمسَّكوا بها طَوالَ حياتهم، ولرُبَّما ورثوها عمّن كان قبلَهم.

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾:

الكافرونَ يَجحدون النِّعَمَ المحسوسةَ وغيرَ المحسوسة

(الباءُ) الدّاخلةُ على الاسم الموصول في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ حرفُ جرٍّ يفيدُ الإلصاق، وهو أصلُ معانيه[2]، وفيه دلالةٌ على أنّ جحود الكافرينَ لا يقتصرُ على النّعَم التي سمِعوا عنها، أوْ حُكيت لهم، وإنَّما يتّسعُ ليشملَ النِّعَمَ التي التصقتْ بها أيديهم، وأحسّوا بها إحساسًا مُباشرًا، وتذوّقوا حلاوةَ نعيمها، ومنها على سبيل المثال نعمةُ تسخيرِ البحر، ونعمةُ الإنجاء من المخاطرِ التي تُحيط بهم كلَّما ركِبوا في الفُلْك.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 33.
(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 36.

دلالة الموصول في قوله: ﴿بِمَآ﴾:

كلماتُ الشكر غيرُ واردة في قاموس الجاحدينَ اللّغويّ

(ما) في قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ﴾ اسمٌ موصولٌ عامٌّ، جيءَ به للدّلالة على أنَّ من عادتِهم أنْ يكفروا بكلّ ما أنعمَ اللّٰه به عليهم، وأنّ شكرَ أيّةِ نعمةٍ من نِعَمه غيرُ وارد في قاموس كلماتهم، ولا في طقوسِ أفعالهم، وأنّ هذا الجحودَ ليس خاصًّا بنعمةِ الإنجاء من مخاطرِ البحر الذي يأتي التعبيرُ في سياقه، بل هو عامٌّ يشملُ نعمةَ الإنجاء وغيرَها.

غرضُ التّعبير بالموصول وصلته:

الجاحدونَ يجمعونَ بين كفر العقيدة وكفر الأخلاق

كان من الممكن أنْ يقتصر البيانُ على التعبير بفعلِ الكفر، فيقال: (إذا هم يشركون ليكفروا وليتمتَّعوا...)، لكنَّ النّظم الكريم آثرَ المجيءَ بالاسم الموصول وصلته، فقال: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ للدلالة على أنّ الجاحدينَ لم يَقتصروا على كفرِ العقيدة، المتمثّل في الإشراكِ مع اللّٰه تعالى آلهةً لا تنفعُ ولا تضرّ، وإنّما أضافوا إليه الكفرَ الأخلاقيَّ المتمثِّل في جحود النِّعَم، وكفرانِ المِنَن، وهو نوعٌ من الكفر يُضاهي في شناعته وقبحِه كفرَ الألوهيَّة، وبه يجمعونَ بين كُفر العقيدة وكُفر الأخلاق، ويصلونَ في القبائح إلى الذّروة التي لم يصل إليها أحدٌ غيرُهم.

دلالةُ التعبيرِ بفعل الإيتاءِ:

نِعَمُ الله تعالى لا تضاهيها نعمٌ مهما كانت

عبَّر النّظمُ الكريم عن الإنعام على الكافرين بالفعل: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ دون (أعطيناهم)؛ لدلالتِه على عظمةِ ذلك العطاء؛ حيث دَرَج القرآنُ على استعماله مع الكثير والعظيم فقط، بخلاف الإعطاءِ الذي يُعبَّرُ به مع الكثير والقليل، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1] وقال: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النجم: 34][1]، ما يعني:

(1) سلام، السيد محمد، خصائص البيان بالإيتاء والإعطاء في القرآن الكريم، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد: 15.

أنَّهم جَحَدوا نِعَم الله تعالى عليهم، على الرغم مِن عظمتِها، وعدمِ قدرةِ أحدٍ على أنْ يؤتيَهم مثلَها أوْ ما هو قريبٌ منها.

علةُ إسناد فعل الإيتاء إلى ضمير العظمة:

العطيّةُ دائمًا تكونُ على قدر المُعطي

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ الإيتاء إلى ضميرِ الحقِّ سبحانه بصيغة التعظيم في الفعل: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ للدلالة على أنّ الله تعالى هو الَّذي باشرَ وصولَ النِّعَم إليهم بنفسه، وللإشارة إلى أنّها نِعَمٌ لا يُضاهيها في العظمة والكفاية أيّةُ نِعَمٍ أخرى، ولا يستطيع أحدٌ أنْ يجودَ بما هو قريبٌ منها، لأنَّ العطيّة دائمًا تكون على قَدْرِ المُعطي.

وجهُ تعديةِ فعل الإيتاء إلى الضّمير المتّصل:

نِعَمُ الله تعالى تصلُ إلى الجاحدين مباشرة

عُدّي فعلُ الإيتاء إلى الضمير المتّصل في قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ العائد إلى الضمير المرفوع في ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾؛ للدلالة على أنَّ الإيتاء كان مباشرًا، وأنَّ هذه النّعَمَ كانت واصلةً إليهم بكلِّ يُسرٍ وسهولة، وأنَّهم كفروا بالله تعالى على الرغم من إغداقِه عليهم، وعدمِ حرمانه لهم، فيحدث بذلك نوعٌ من التقابلِ المعنويِّ بين جحودهم وإكرام الله تعالى لهم؛ ليَستقبح المُتلقّي أفعالَهم، ويَستهجنَ الناسُ السَّيرَ على منوالهم، وبهذا عُلِمَ سرُّ العدول عن القول (ليكفروا بالله) مثلًا؛ إذ الغرضُ بيانُ شدَّةِ كُفرهم بعد المنّة عليهم بالإنجاء والنّعَم الكثيرة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾:

(الواو) في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ لعطفِ ما بعدَها على: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ عَطْفَ المصدر المُؤَوَّلِ على مثله، وبها يصير حرصُهم على التمتُّع بلَهْو الدنيا وزينتها، والنّفور ممّا يتّصلُ بالدار الآخرة ومتطلّباتها المسبَّبَ الثاني عن الشرك، والباعثَ عليه، ونلحظ أنَّ هنالك جمعًا بين مُسبَّبَيْن عن الشِّرك: الأوّلُ منهما يتناسبُ مع فعلِ الشِّرك نفسِه؛ إذ بمجرّد الوصول إلى البَرّ يتحقّقُ الكفران بما آتاهُم الله وحدَه من

نِعَم، وهو فعلٌ شِرْكيٌّ يتمثّلُ بشُكرِ غيرِ المُنجي من الغرَق، والثاني منهما يتناسبُ مع ولَعِهم بالحياة الدّنيا التي أُخبروا بأنَّها مجرّدُ لهوٍ ولعبٍ، واستمرّوا على تحصيلِهما وإفناءِ الأعمارِ بهما وبمتطلَّباتِهما، والتمتُّعُ عبارةٌ عن الانهماك في اللَّهو واللّعِب.

دلالة اللّام في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾:

العلّةُ الباعثة لشركهم حبُّ الدنيا

(اللّامُ) في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ يمكنُ أنْ تكون لامَ التعليل عند كسرها، التي توضح أنّ من البواعث على جحودِ الكافرين نعمَ اللّه تعالى عليهم؛ حرصَهم الشديد على أنْ يتمتّعوا بنعيم الدنيا الفانية، وإهمالِ الآخرةِ الباقية، والتلهّي عنها بالمتعِ والألعاب التي تَشغَلُ عقولَهم، وتُنسيهم الموتَ وما بعدَه، ويُمكن أنْ تكون اللّامُ للأمر - عند إسكانها - الدالِّ على التهديد مجازًا، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤﴾ [الروم: 34]، وقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [فصلت: 40][1].

توجيه القراءات في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾:

قراءة الكسر تفيدُ التعليل، وقراءة التسكين تفيدُ التهديد

(اللامُ) في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ تُقرأ بقراءتين؛ **أولاهما**: بالكسر، وهي قراءة الجمهور، على أنّها لامُ التعليل، والفعل بعدها منصوب بأن المضمرة، والتي توضّح المسبَّب الثاني عن الشرك والباعث عليه، من عطف المصدر على المصدر، **وثانيتهما**: بالسّكون ﴿وَلْيَتَمَتَّعُواْ﴾، وبها قرأ ابْنُ كَثيرٍ وحَمْزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ وقالونُ[2]، على أنّها لامُ الأمر، والفعل بعدَها مجزومٌ بحذفِ النون، والواوُ التي قبلَ اللام لعطفِ جملة التهديد على قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ إذا كانت لامُه للأمرِ أيضًا، عطف الإنشاء على الإنشاء، وهي بعد حرف العطف تُسَكَّنُ وتُكسَرُ، وعليه فالأمرُ مستعملٌ في التهديد نظيرُ قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: 40].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25/ 76.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 344.

نكتةُ الأمر باللّام في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾:

إذا قُرئ: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ بسكون اللام فذلك يعني أنَّها لامُ الأمر الجازمة، التي تُحيلُ التعبير من الخبر إلى الإنشاء، وتجعلُ المضارعَ مفيدًا للأمر، الذي يَقْصِد إلى تهديد الكافرين بأنْ يتمتعوا بما يريدون إلى أنْ يأتيَ وقتٌ يُحاسَبون فيه على ما اقترفوا وتمتّعوا، لعلَّ التهديدَ يُجدي في عدولهم عمّا هم فيه، يقول الزمخشري: "وهو مجازٌ عنِ الخِذْلان والتَّخْلية، وأنَّ ذلك الأمرَ مُتسخّط إلى غاية، ومثالُه: أنْ ترى الرجلَ قد عزمَ على أمر، وعندك أنّ ذلك الأمرَ خطأٌ، وأنَّه يؤدّي إلى ضررٍ عظيم، فتبالغُ في نصحِه واستنزاله عن رأيه، فإذا لم ترَ منه إلا الإباءَ والتصميم، حردتَ عليه وقلتَ: أنتَ وشأنُك وافعلْ ما شئت، فلا تريد بهذا حقيقةَ الأمر؛ وكيفَ والآمرُ بالشيء مريدٌ له، وأنتَ شديدُ الكراهة مُتحسّر؟! ولكنك كأنَّك تقول له: فإذ قد أبيتَ قبولَ النَّصيحة، فأنتَ أهلٌ ليُقالَ لك: افعلْ ما شئت... ليتبيَّنَ لك - إذا فعلتَ - صحّةَ رأيِ النّاصح، وفسادَ رأيِك"[1].

قد يُجدي التهديدُ في عدول الكافرين عمّا هم فيه

معنى الفاء ﴿فَسَوۡفَ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ هي فاءُ التفريع، الدالّةُ على أنّه مُفرَّعٌ عن التهديد[2] في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ فتُضفي على التهديد تهديدًا أقوى وأشدّ، والمعنى: فسَوۡفَ يَعۡلَمونَ عاقبةَ كفرِهم وتمتُّعِهم بالحياة الدنيا وإعراضِهم عن الحياة الآخرة حينَ يُعاقبون عليه.

لا عقابَ إلا بذنبٍ، ولا ذنبَ أعظمُ من إهمال الدّار الآخرة

دلالة (سَوۡفَ):

(سَوۡفَ) في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾: حرفُ استقبال وتنفيس، بمعنى أنّه يَنْقل الفِعْل عَن الزَّمن الضّيّق وهوَ الحال، إلَى الزَّمن الواسِع وهوَ الاِسْتِقْبال[3]، وفي التعبير به تقويةٌ وتأكيدٌ

الترهيبُ والوعيدُ أحدُ الأساليب الرّادعة

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 464.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 33.

(3) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 869.

للتهديد المفهومِ من الأمر في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ﴾، وترهيبٌ للمشركين من الاستمرارِ على ما هم فيه من إعراضٍ عن الآخرة، ووعيدٌ لهم؛ لدلالتِه على حصولِ العقاب في مستقبلِ الزّمان.

براعةُ التّعبير بالمضارع مادّةً وصيغةً:

العلمُ سببٌ في الشعور والإدراك والنَّدم

التعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ يدلُّ بمادّته وزمانه على أنّ الكافرين سيعلمون في مستقبلِ أيامهم - سواءٌ أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة - أنَهم كانوا على خطأٍ عظيم في إقبالهم على متاع الحياة الدنيا، وكانوا على خطأ عظيم في إعراضهم عن الحياةِ الآخرة، وكانوا على خطأٍ عظيم في كفرهم وجحودِهم نعمَ اللّه بصفةٍ عامّة، وجحودهم نعمةَ الإنجاء من مخاطر البحار بصفة خاصّة، وسوف يندمون على ذلك حينَ لا ينفعُ الندمُ، وأوثر التعبير بـ: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ دون: (يشعرون) أو غيره؛ لأنَّ العلم سببٌ في الشّعور والإدراك والنّدم دون العكس.

نكتةُ حذفِ المفعول:

عقوباتُ إهمالِ الدّار الآخرة حسّيّةٌ ونفسيّةٌ

حُذِف معمول قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾؛ ليعمَّ علمُهم كلّ ما من شأنه أنْ يحقِّق ندمَهم على ما كانوا يتمتّعونَ ويتلهّون به عن الدار الآخرة، فيبلغُ عقابُهم قمّتَه وذروتَه، لاشتماله على العقاب الحسيِّ المتمثِّل في العذاب، والعقاب النفسيِّ المتمثِّل في النَّدم، ويمكنُ أنْ يرادَ بالفعل المتعدّي دلالةُ اللّزوم، أي: إنَّهم الآنَ واهمونَ، وليس عندهم علمٌ بالمصير، لكنَّهم مستقبلًا يتحقّقُ عندهم اليقينُ بخطئِهم وسوءِ اختيارِهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

(آتَى) بالمدِّ تُستعمَلُ في الإعطاء[1]، وخُصّ دفعُ الصّدقة الواجبةِ والمستحبّة، وصداقِ المرأةِ في القرآن بـ(الإيتاء)، نحوُ قوله تعالى

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (آتى).

الإيتاء أعمُّ وهو في الفرض والكثير والعظيم، والإعطاءُ في القليل والكثير

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 277]، وقوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الأنبياء: 73]، وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: 229][1]، كما أنّه يُستعمَلُ في العظيم والكثير فقط، مثل قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾ [النساء: 54]، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ [القصص: 76]، بخلاف الإعطاء، فإنّه في الأصل يعني: المناولةَ، ومنه العطيّةُ، والجمع: عَطايا وأعطيَة[2]، ويُستعمَلُ في القليل والكثير، كما في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾ [النجم: 33 - 34]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (آتى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عطو).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ٦٧﴾ [العنكبوت: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنجاءٌ من مخاطرِ البحار وتأمينٌ في البراري والأمصار

بعدَ أنْ بيّنتِ الآيةُ السّابقةُ أسبابَ جُحودِ الكافرينَ نِعَمَ اللّه عليهم بصفةٍ عامّة، ونعمةَ الإنجاء من مخاطرِ البحار بصفةٍ خاصّة، ووضَّحت أنّهم سيعلمونَ عاقبةَ ذلك ويندمونَ عليه، تأتي هذه الآيةُ لتذكّرَهم بنعمةِ الأمنِ التي يَرفُلون فيها؛ بسبب الحرم الَّذي يَعيشونَ بجوارِه مُطمئنّين، في حين أنّ غيرَهم يُتخطَّفونَ من ديارهم، ويَقتُل بعضُهم بعضًا، ولا يأمنونَ على أنفسهم ولا على أموالهم، ومع هذا الإنعامِ العظيم ترى المشركينَ يعبدونَ الأصنام، ويكفرونَ بربِّ العالمين!.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرَمًا﴾: (حرم) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ المَنْعُ والتَّشْديدُ، فالحَرامُ: ضِدُّ الحَلالِ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ [الأنبياء: 95]...، والحَرَمانِ: مَكَّةُ والمَدينَةُ، سُمّيا بِذَلِكَ لِحُرْمَتِهِما، وأَنَّهُ حُرِّمَ أَنْ يُحْدَثَ فيهِما أَوْ يُؤْوَى مُحْدِثٌ[1]، والحَرَم: حَرَمُ مكة وما أحاطَ إلى قريبٍ من الحَرَم، قد ضُرِب على حدودِه بالمنارِ القديمةِ التي بيّن خليلُ اللّه ﵇ مشاعِرَها، وكانت قُريشٌ تعرفُها، ويعلمونَ أنَّ ما دونَ المنار إلى مكّة حَرَمٌ، لا يَحِلُّ صيدُهُ، ولا يُقطَعُ شجرُه، وما كانَ وراءَ المنار فهو من الحِلِّ، يحِلُّ صيدُهُ إذا لم يكن صائدُه مُحْرِمًا[2]، والمعنى في الآية: جعلَ اللّهُ مَكَّةَ بلدًا آمِنًا مَصونًا يحرمُ فيه القتالُ بل التعرُّضُ للمَصيد فيه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حرم).

2) ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ (خطف) أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، وهوَ اسْتِلابٌ في خِفَّةٍ، فالخَطْفُ الاسْتِلابُ، تَقولُ: خَطِفْتُه أَخْطَفُهُ، وخَطَفْتُهُ أَخْطِفُهُ، وبَرْقٌ خاطِفٌ لِنورِ الأَبْصارِ، قالَ تَعالَى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: 20][1]، والخَطْفُ والاختطاف: الاختلاس بالسّرعة، يقال: خَطِفَ يَخْطَفُ، وخَطَفَ يَخْطِفُ، وقُرِئَ بهما جميعًا، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: 10]، وذلك وصفٌ للشّياطين المُسترِقةِ للسَّمع، قال: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [الحج: 31]، ومعنى قوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: 67]، أي: يُقتَلون ويُسلَبون[2].

3) ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ (بطل) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ ذَهابُ الشَّيْءِ وقِلَّةُ مُكْثِه ولُبْثِه، يُقالُ: بَطَلَ الشَّيْءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وبُطولًا، وسُمّيَ الشَّيْطانُ الباطِلَ؛ لِأَنَّهُ لا حَقيقَةَ لِأَفْعالِه، وكُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ فلا مَرْجوعَ لَهُ ولا مُعَوَّلَ عَلَيْهِ[3]، والباطِلُ في العموم: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثباتَ له عندَ الفحصِ عنه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: 62]، وقد يقالُ ذلك في الاعتبار إلى المَقال والفِعال، يقال: بَطَلَ بُطولًا وبُطْلًا وبُطْلانًا، وأَبْطَلَهُ غيرُه، قال: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف: 118]، وقال أيضًا: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: 71][4]، ومعنى الباطِل هنا: هو الشِّرْكُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

نِعمةُ الأمْنِ تَستوجِبُ التوحيدَ والشّكرَ، لكنّها تُقابَل بالجحودِ والكُفر

في هذه الآية يتحدّث اللّهُ عن نعمةٍ من نعمِه تعالى على أهلِ مكة بصفةٍ خاصّة، وهي نعمةُ الأمنِ في الأنفُس والأموال والأولاد، التي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطف).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (خطف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطل).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (بطل).

يَرفُلون فيها ويَتمتّعون بها، بسبب مُجاورتهم لبيتِ اللّه الحرام، الذي اختصَّه اللّه واختصَّ المكانَ الَّذي يقع فيه بالأمن والتّحريم، في حين أنّ النّاس في غيرِ هذه البُقعة يُتخطَّفون مِنْ ديارهم، ولا يأمنونَ على أنفسِهم ولا على أموالهم، ويبيّن النظمُ أيضًا أنَّ مشركي مكّةَ قابلوا هذه النِّعمةَ بالجحود والإنكار وعبادة الأصنام، ما مِن شأنه أن يُثير العجبَ من أفعالهم، ويوجبَ الفضيحةَ والتشنيعَ بصنيعهم.

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى ذهاب عقولِ المشركين، وانسلاخِ أحلامهم؛ إذ آثروا الضَّلال على الهدى، والباطلَ على الحقّ، والشقاءَ على السَّعادة، وحيث كانوا أظلمَ الخلق، وإلى التعجُّب من تناقُضِ أحوالهم، وإلى إيقاظِ ضمائر المشركين بتنبيهِهم على نِعَمِ اللّه تعالى عليهم؛ لعلهم يشكرون[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾:

إقامةُ الحجّة على الكافرينَ بتحقيق الأمانِ الدائم بحرًا وبَرًّا

دلّت الواوُ في جملة: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا﴾ على الاستئناف، والغرضُ منه بيانُ أنَّ الإنقاذَ من الغرقِ حالَ ركوبِ البحر والإيصالَ إلى البرِّ؛ ليس داعيًا للإشراكِ والاعتقادِ بأنَّ الخطرَ قد زالَ وانكشفَ، بل الواجبُ ومُقتضى العقلِ الاستمرارُ على التوحيد والإخلاص، واللّهُ تعالى قد جعلَ من مكّةَ بَرًّا تُحيطُ به الأخطارُ وبحارُ القتلِ والسّلب والاعتداء، فقد خلّصَكم اللّه من بحرِ الفتن والأعداءِ ببَرِّ الأمان المتمثِّل بمكّة، وكما كان الأجدرُ بالراكبين في البحرِ المتعرِّضين لأهواله أنْ يوحّدوا اللّه عندَ إنجائهم؛ فالأجدرُ بكم يا معشرَ قريش أنْ تشكروا اللّهَ الّذي جعلَ لكم مكّةَ أمنًا من الأخطار، وأنْ تعودوا لرُشدكم، فقد بانَ بهذا الاستئناف ارتباطُ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 389، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 635، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 156.

الآية بما سبقَها من آية ركوبِ البحر، التي مهَّدتِ الكلامَ للحِجاجِ وإثارةِ السُّؤال والتعجُّب من شِركهم!.

كما تَحْتَمِلُ (الواو) أنْ تكون حرفَ عطف، وقُدِّمتْ عليه الهمزةُ لاختصاصِها بتمام الصَّدارة، والمعطوفُ عليه محذوفٌ، تقديره: أزاغَتْ أعينُهم وعَموا ولم يَرَوا[1]، أوْ أنَّ المعطوفَ عليه: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ لما اشتملتْ عليه تلك الجملُ من تقريعٍ على الكُفران[2].

بلاغةُ الاستفهام وغرضه:

إعـادةُ العقول الضالّة إلى جادّة الطريق

الهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ للاستفهام التقريري، الذي يَقصدُ إلى تنبيه مشركي مكّة وتقريرِهم بنعمةِ الأمن التي خصّهم اللّهُ تعالى بها دونَ غيرهم من الناس، بسبب جوارهم بيتَ اللّه الحرام؛ ليعملَ التنبيهُ والتقريرُ عملَهما في القلوب القاسيةِ، والعقولِ الضالّة، فيُعيداها إلى جادّة الطريق، وصواب السبيل، فهُم يَرَونَ ذلك ويَعلمونه، لكنَّهم لمّا استمرّوا في باطلهم كانوا كأنَّهم لا يرونَ ذلك ولا يَعلمونه، فسألَهم ليعترفوا بتلك النّعمة التي تناسَوها، وما حالُهم إلا كحالِ مَن نُجّيَ من البحر ووصل إلى البرّ فأشركَ، ويَحْتمِلُ أنْ يكون الاستفهام للإنكار[3]؛ إذ شأنُهم في الإشراك شأنُ مَن لا يشاهدُ ولا يعلمُ نعمةَ الأمن التي تحفُّهم، فينكرُ عليهم عدمَ المشاهدة والعلْم مع أنَّها ظاهرةٌ وواضحةٌ.

دلالة التّعبير بفعل الرّؤية:

الرّؤية مستعارة للعلم بتنزيل المعلومِ المعنويّ منزلةَ المشاهد المحسوس

الفعل: ﴿يَرَوْاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا﴾ يصحُّ أنْ يكون بمعنى الرّؤية البصريَّة، ويجوز أن يكونَ بمعنى: العِلْم، والمعنى: ألم يُشاهِدوا بأبصارهم، ويُدركوا بعقولهم تلك النِّعمةَ العظيمةَ،

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 22.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 33 - 34.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 34.

التي اختصّهم اللّه بها دونَ غيرهم ممَّن يَعيشونَ حولَهم، وتصلُ إليهم أخبارُهم؟! والذي يترجّحُ كونُ الرّؤيةِ مستعارةً للعلْم بتنزيلِ المعلومِ المعنويّ منزلةَ المشاهد المحسوس، كما أنَّ الغالب في الرؤية البصريّة تعديتُها إلى المفرداتِ دون الجمل وما ينزّلُ منزلتَها.

وجهُ التعبير بالفعل المضارع:

استحضارُ الصّورة يساعدُ على التفكير وحسن التصرُّف

عبَّر النظمُ الكريم بالفعل ﴿يَرَوۡاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا﴾ مضارعًا؛ لما يمتاز به المضارع من الدعوة إلى تجديدِ الرؤية وتَكرارها، بالإضافة إلى استحضار الصّورة المُتحدَّث عنها كأنها ماثلةٌ مُشاهَدَةٌ، تراها العيون، وتتفكّر فيها العقول، فتعملُ عملَها في نفوس المخاطبينَ، وتدفعُهم إلى التفكير المُفضي إلى شكر اللّه سبحانه بالإيمانِ به والاعترافِ بنعمِه.

بلاغة المجاز الاستعاريّ:

تنزيلُ الخبر المعلوم منزلةَ المرئيّ بالعين

إذا كان فعل الرؤية في قوله تعالى: ﴿يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا﴾ مستعارًا للعلم، ففي التعبير به استعارة تَصريحيَّةٌ تَبَعيَّة، استُعير فيها فعل الرؤية للعلم، تنزيلًا للخبر المعلوم منزلة الخبر المشاهَد بالعين؛ للدلالة على تأكُّد حصوله، وتحقُّقِ وقوعه، ما يعني: أن الأخبار التي تصلُهم عن اقتتال الناس من حولهم، وسَفْكِهم دماءَ بعضهم، وانعدام الأمن على الأرواح والممتلكات في ديارهم، أخبارٌ حقيقيةٌ، لا شكَّ في حصولها ولا ارتيابَ في وقوعها، ولا يعني عدمُ حصول مثلِها في البلد الحرام أنّها لا تحصل في غيره من القرى والبقاع، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الكلامُ استعارةً مكنيّةً بتشبيهِ الجعل المذكورِ بالأمرِ المُشاهَد؛ إذ عمليّةُ الجَعْل لا تُرى بل تُدركُ وتُعلمُ، ثمّ حذف وأُبقي من خواصّه الرؤية، "فقد جُعِلَتْ نِعْمَةُ أَمْنِ بَلَدِهِمْ كالشَّيْءِ الْمُشاهَدِ، فأنْكَرَ عَلَيْهِمْ عَدَمَ رُؤْيَتِهِ"[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 34.

مرجعُ الضَّمير المرفوع:

العربُ كانوا يقتدونَ بأهل مكّةَ ويفعلونَ مثلهم

واوُ الجماعة في الفعل: ﴿يَرَوۡاْ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا﴾ تعودُ إلى أهل مكّة، وهم الَّذين خصّهم اللّه بمجاورةِ بيته الحرام، وأنعمَ عليهم بنعم كثيرة، أعظمُها نعمةُ الأمن، وخُصّوا بالتذكير بهذه النعمة مِنۡ بَيۡنِ المُشۡركينَ مِنَ العَرَبِ لِأنَّهم قُدۡوَةٌ لِجَميع القَبائِلِ، ألا تَرَى أنَّ أكۡثَرَ قَبائِلِ العَرَبِ؛ كانوا يَنۡتَظِرونَ ماذا يَكونُ مِنۡ أَهۡلِ مَكَّةَ، فلَمّا أسۡلَمَ أهۡلُ مَكَّةَ يَوۡمَ الفَتۡحِ أقۡبَلَتۡ وُفودُ القَبائِلِ مُعۡلِنَةً إسۡلامَهُمۡ![1].

غرض التأكيد:

اللّه تعالى هو الذي تولَّى بنفسه جَعْلَ مكة حرَمًا آمنًا

جاءَ قوله ﷻ: ﴿أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ مؤكَّدا بـ: ﴿أَنَّا﴾ في أوّله، ثمَّ بإسنادِ فعل الجَعۡل إلى ضمير الحقّ بصيغة التعظيم: ﴿جَعَلۡنَا﴾؛ لتأكيد أنّ اللّه تعالى هو الذي تولَّى جَعۡلَ مكة حرمًا آمنًا، وهو الَّذي وجّه الملائكةَ لوضع قواعد البيت فيها، وهو الذي بيَّن لإبراهيمَ عليه السلام مكانَ البيت، وهيَّأه له وقد كان غيرَ معروف، ثمَّ أمرَهُ ببنائه على تقوى من اللّه وتوحيدِه مع ولده إسماعيل، وأنّه سبحانه هو الَّذي قذفَ في قلوب الناس تعظيمَه وتحريمَه، وتعظيمَ المكانِ الذي يقعُ فيه وتحريمَه، وأنّ ذلك ما كان ليحصلَ شيءٌ منه لولا إرادةُ اللّه ومشيئَتُه، ما من شأنه أنۡ يوجِبَ حمدَه وشُكرَه مخلصينَ له الدّين.

توجيه الاختلاف:

اختلافُ السّياقين وتناسُبُ التعبيرين

عبّر البيانُ القرآنيُّ هنا بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾، بينما عبَّر في سورة القصَص بقوله: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [القصص: 57]: والسرُّ في اختلاف تعبير سورة القصص أن النظم فيها يأتي جوابًا لكلام المشركين: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾ [القصص: 57]؛ ما يستدعي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 33.

الحديثَ المباشرَ عن التمكين من الحياة الآمنة، الَّذي يرونه ويراهُ غيرهم، إبطالًا لما يقولون ويتحدّثون، بخلاف السّياق في سورة العنكبوت الذي وقعَ عقيبَ الإشراكِ بعدَ النَّجاة من الغرَق؛ القاصدِ إلى تنبيهِ المشركين بتنعُّمِهم بالأمنِ والنَّجاة من الفتن المحيطةِ، في حين أنَّ غيرَهم من الناس خائفٌ مذعورٌ، وكأنَّهم لا يشاهدون هذا الإنجاءَ، ولا يعلمون به، فسياقُ (القصص) اقتضى إلقاءَ اللّائمة في على حالهم المؤدّي إلى المهالك، فنَبَّهَهُم إلى التمكين والإقرار والتثبيت والزعامة بلا مشاهدةٍ له، وسياقُ العنكبوت اقتضى عدمَ مشاهدةِ النجاة لهم بالبلد الحرام، فنَبَّهَهُم إلى ضرورة الرّؤيةِ والمشاهدة لتلك النعمة العظيمة وذلك التمكين والجَعل.

الموقعُ الإعرابيّ:

كمالُ المنّةِ في تهيئةِ النِّعمة

قوله: ﴿جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ جملةٌ فعليّةٌ في محلِّ رفعٍ خبرُ (أنّ)، وفيها أُسندَ الفعلُ: (جَعَل) إلى ضمير الحقِّ المعظّم نفسه (نَا)، وعُدّي فعلُ الجعل إلى مفعولين، أوّلُهما محذوفٌ لكونه مفهومًا من السّياق، تقديره: مكّةَ، والثاني: ﴿حَرَمًا﴾، وقوله: ﴿ءَامِنًا﴾ صفةٌ للمفعول الثاني، والمعنى: جعلنا مكةَ حرمًا آمنًا، وفي هذا التركيب الفعليِّ إشارةٌ إلى أنَّ هذه النّعمةَ القديمةَ المتحققةَ لا دخلَ لهم بها أوْ في تحصيلها، فهي محضُ تفضُّلٍ عليهم، فقد هُيِّئَت مكَّةُ لهم واختارتها العنايةُ الإلهية؛ لتكون مكانًا مكينًا محصَّنًا بحصنٍ معنويٍّ، وهو ما ألقاه اللّه في قلوب العربِ من تقديسٍ للمكان وتعظيمٍ له، من غير كسبٍ ولا بذلِ جهدٍ من المنعَّمين، وفي ذلك تمامُ النِّعمة وكمالُها.

نكتةُ الإسناد إلى ضمير العظمة:

جَعْلُ مكة حَرَمًا آمـنًا نعمةٌ تستوجب شكرَ المنْعِمِ وإفرادَهُ بالعبادة

في إسناد فعل الجَعْل إلى ضمير الحقّ سبحانه بصيغة التعظيم: ﴿جَعَلْنَا﴾: تقويةٌ وتأكيدٌ لما سبق ذكرُه مِنْ أنّ اللّه تعالى هو الذي تولّى تهيئةَ هذا المكان بعظمتِه، وتولّى جعلَه آمنًا بقدرته، وهو الذي

قذفَ في قلوب الناس تعظيمَه، وتعظيمَ الحرم الذي يقع فيه، وأنّ هذا ما كان ليتمّ لولا إرادة اللّه تعالى وتقديره، ما من شأنه أنْ يوجبَ على أهل مكة وغيرهم شُكرَه بالتوحيد والإخلاص[1].

نكتة التنكير والحذف:

الأمن في مكة يَعُمُّ جميع المخلوقات

في تنكير المفعول الثاني ﴿حَرَمًا﴾ تعظيمٌ لمكة ورفعةٌ لشأنها[2]، حيث اختصَّها اللّه تعالى بذلك دون غيرها، وفيه أيضًا دلالةٌ على أنَّ تحريمَ القتل والإيذاء لا يقتصرُ على البشر الَّذين يُقيمون فيها، وإنَّما يتّسعُ ليشملَ الإنسان والحيوان والطيور والدوابّ والأموال، وكلَّ من يعيش في هذا المكانِ أوْ يأوي إليه، وبذلك تعظُم في نفس المتلقّي نعمةُ الإنعام به، ويفهمُ وجوبَ شكر المُنعم على كونه حرَمًا آمنًا، كما أفادَ حذفُ المفعول الأول إيجازًا أنّها معلومةٌ للقاصي والداني، حتى صار الحرمُ شعارًا لها وعلَمًا عليها.

فائدة النعت:

الأمن في البلد الحرام لا يماثله أمنٌ في أيِّ مكانٍ في العالم

وَصْفُ المفعول: ﴿حَرَمًا﴾ بـ: ﴿ءَامِنًا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يعني: أنّه يحرمُ إيذاءُ مَن دخله وأوى إليه، أوْ تخويفُه[3]، وأوثرَ التعبير عنه بالاسم المشتمِل على حَرْفَي مدٍّ في أوّلِه وآخِره؛ للدلالةِ على بلوغِ الأمن فيه مدىً لا حدودَ له، ولا يماثله فيه أيُّ بلد آخرَ في العالم، ما يعني: أنَّه لا يحصل فيه أيُّ نوع من الأذى أو الخوف على النّفس والمال، كما أن النعت مسبّب عن المنعوت؛ إذ الحرمُ يدلُّ على المكانِ الّذي ينبغي تعظيمُه ولا يحلُّ انتهاكُه والإيذاءُ فيه، فيكونُ وصفُه بالآمن بيانًا للمكان ونتيجة للتحريم، فهو لا يحلُّ انتهاكه فصارَ آمنًا، ولذا عدلَ النّظم عن (مكانًا آمنا) إلى ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ ليفيدَ تسبُّب الحرَميّة في وصف الأمن واقتضائه، وفي ذكر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 479.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 238.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 1/ 616.

النّعت اسمَ فاعل دلالةٌ على حدوث الأمنِ له على سبيل الاستمرارِ والحدوث، وفيه إشارةٌ إلى أنّه قد يُنتهك من الظّالمين والمتكبّرين والملحدينَ على سبيل النُّدرة.

بلاغةُ المجازِ العقليّ:

الشعورُ بالأمن في البلد الحرام يتجاوزُ الإنسانَ إلى المكان

في وصف الحرم بالآمن في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا﴾ مجازٌ عقليٌّ علاقتُه المفعوليّة، إذ الحرمُ والمكانُ لا يكونانِ آمنَيْن؛ لأنّ الإحساسَ بالأمن من صفاتِ الأحياء، وإنّما الحرمُ مأمونٌ، وفي وصف المكانِ به دلالةٌ على أنّ نعمة الأمنِ تتجاوزُ الإنسان إلى كلِّ مَن يعيشُ في مكة، أوْ يأتي إليها من البشر أوْ غير البشر، حتى ليُخَيّل إلى المتلقّي أنّ المكان نفسَه يُشعر بها من فرط حصولِها فيه، ومن فرط تحقُّقها على مرّ الأعوامِ والسِّنين(1).

معنى الواو في: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾:

الحياةُ بدون أمنٍ تعيسةٌ مهما تَوافر فيها من النِّعَم والخيرات الأخرى

(الواو) في قوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ هي واوُ الحال، والجملةُ بعدَها حاليّةٌ، تدلُّ على أنَّ الناس الّذين يُقيمون خارجَ البلدِ الحرام، ويُحيطون به من كلِّ جانب، يعيشونَ في حالةٍ دائمةٍ الفزعَ والرُّعبَ والشعورَ بعدم الأمنِ على النَّفس أوِ المال وغيرهما، وهو شعورٌ يجعلُ الحياةَ تعيسةً، مهما توافر لأصحابِها من النِّعم والخيرات الأخرى، ونلحظُ في هذه الحال المبيّنة إظهارَ النّعمة في جعل البلدِ حرامًا؛ إذ اختصَّ الأمن بهم دونَ مَن سواهم، فلولا اقترانُ هذه الحال بما قبلَها لما كان للنِّعمة كبيرُ وقعٍ في نفوسِ المتلقّين.

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ مادة وصيغة:

النّاسُ في غير البلدِ الحرام يُتَخَطَّفون تَخَطُّفَ الطّير

اشتملَ قوله تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ على فعل مضارعٍ مبنيٍّ للمجهول، وهو يعني: القتلَ والسّلبَ كما سبق بيانُهُ،

(1) المليجي، صبحي إبراهيم، دعاء الخليل في الذكر الحكيم مقاصده وأسراره، ص: 8.

وأوثر التعبيرُ بهذه المادّة دون: (يُقتَل) أوَ (يُسلَب)؛ لما يدلُّ عليه من حصولِ القتل والسَّلب بسرعةٍ فائقة، وبطريقةٍ تُشبه تَخَطُّفَ الطَّير، ففي الفعلِ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ؛ إذ شبّه القتلَ بالأخذِ الشَّديد والسَّريع تجسيدًا لعمليَّة القتل وإظهارًا لشدَّة القتلِ والغيلةِ، وفي الخطفِ أيضًا دلالةٌ على كثرة القتلِ وسرعة الإغارةِ بحيثُ لا يشعرُ المقتولُ بالقاتل وحركتِه، كما أنّه يحصلُ للنّاس أجمعين، لا فرقَ فيهم بين الصَّغير والكبير، والذَّكر والأنثى، والمقاتلِ وغير المقاتل، ويحصلُ كذلك في جميع الأوقات والأحوال، سواءٌ في ذلك أوقاتُ الحرب وأوقاتُ السِّلم.

ووجهُ اقتصار البيان على ذكرِ (تخطّف الناس) دونَ غيره من ألوانِ الفزع وصنوفه، مثلُ السّرقات، وهَتْكِ الأعراض، وسَبْيِ النِّساء، وأسْرِ الرّجال والأطفال، وهدم المنازل والبيوت، وإتلافِ الزّروع، وحرقِ الثمار أنّه أفظعُها وأشدُّها، ولأنَّ حصولَه دالٌّ على حصولِ ما دونه من بابِ أوْلى.

التخطُّفُ مستمرُّ الحصول حتى لا يُعيَّنَ فاعلُه

أوثر التعبيرُ بصيغةِ المضارع: ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ لما يمتاز به من الدّلالة على تجدُّد حصول التّخطّف للنّاس الّذين يعيشونَ حول البلد الحرام وما بعدَه، ما يعني: أنَّه لا يهدأُ ولا ينقطعُ، ولا يحصلُ في وقتٍ دونَ وقت، ويحدثُ بسببٍ وبغيرِ سبب، ولما يمتازُ به المضارعُ أيضًا من استحضارِ الصّورة المُتحدَّث عنها كأنَّها ماثلةٌ حاضرة، يبرزُ فيها الناسُ مذعورينَ خائفين، يتوقَّعون القتلَ والتخطُّف في كلِّ مكان بينَ عشيَّةٍ وضُحاها.

وفي بناء الفعل: ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ لصيغة المجهول؛ دلالةٌ على أنّ القائمينَ به كثيرونَ مُتنوِّعون، ما يجعلُ الفزع من حصوله مُستمرًّا، لأنّه ربَّما يحصل من العَدوِّ، وربَّما يحصلُ من غيره، وربَّما يحصلُ ممّن يُشكُّ فيه، وربَّما يحصل ممّن لا يشكُّ فيه أو يُرتاب به، وهذا

المعنى لا يتحقّق لو قيل: (ويتخطّفُهم الأعداء مِن حولهم)، ويمكن أنْ يكون سرُّ بناء الفعلِ للمجهول هو أنّ قصدَ البيان موجّهٌ إلى ذِكْر الفعلِ نفسه، بغضِّ النظر عن حصولِهِ من فاعلٍ معيّنٍ[1].

معنى التعريف بـ(ألْ) في: ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

جنسُ البشر الّذين يعيشونَ خارج مكة يشعرونَ بالفزع وعدمِ الاطمئنان

(ألْ) في: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ هي التي للجنس، وتدلُّ على أنّ جميعَ مَن يُقيمونَ خارجَ البلد الحرام من النّاس يشعرونَ بالفزع وعدمِ الاطمئنان، سواءٌ منهم الأشرافُ وغيرهم، والرّجالُ والنِّساء، والأغنياءُ والفقراء، وهي حياةٌ بئيسةٌ مهما توافرَ فيها من نِعَمٍ.

معنى الجارّ في: ﴿مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾:

كلُّ ما عدا مكة غيرُ آمن

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ هي الابتدائية، الدالّة على أنَّ تَخطُّفَ الناس يحصلُ بدءًا بمَن حولَهم ليَمتدّ إلى كلّ الأماكن والقرى التي تقعُ حولَ البلد الحرام، وما بعدَ ذلك ممّن تصلُهم أخبارُهم وغيرهم، ولا يستثنى من ذلك بلدٌ من البلدان، أو مِصْرٌ مِن الأمصار، فقد "كانت العربُ حول مكّة يغزو بعضُهم بعضًا، ويتغاورونَ، ويتناهبون، وأهلُ مكّة قارّونَ آمِنون فيها، لا يُغْزَونَ ولا يُغار عليهم مع قلَّتِهم وكثرةِ العرب، فذكَّرهم اللّه هذه النعمة الخاصّةَ عليهم"[2].

الموقع الإعرابي للجارّ والمجرور:

اللهُ تعالى قادرٌ على تغيير الأوضاعِ والأحوال

في قوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ جارٌّ ومجرورٌ في محلّ نصبِ حالٌ من ﴿ٱلنَّاسُ﴾، وأوثر التعبيرُ به لما يفيدُه من مُشاهدةِ أهلِ مكّةَ ما يحدثُ للناس حولَهم واطّلاعَهم عليه، ورؤيتَهم له رؤيةَ العين؛ ليحدثَ عندهم نوعٌ من المقابلة بينَ ما هم فيه من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 479.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 464.

أمنٍ وطمأنينة، وبينَ ما عليه جيرانُهم من هَلع وفَزع، ولو خلا منه البيانُ لما حدث ذلك، ولَمّا كان للامتنان به عليهم وجهٌ، ولُمطالبتِهم بشكره اعتبارٌ، والمعنى المرادُ أنّ "الّذي خرق العادة في فعل ذلك حتى صارَ على هذا السَّنن قادرٌ على أنْ يعكسَ الحال، فيجعل مَنْ بالحرم مُتَخَطَّفًا ومَنْ حولَه آمنًا، أوْ يجعلَ الكلَّ في الخوف على منهاجٍ واحد"[1].

بلاغة المقابلة:

الضدُّ يُظهرُ حسنَه الضدُّ

في الآية مقابلةٌ بين أربعةِ معانٍ: اثنانِ منها في قوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾: المشتمل على المكان وهو الحرم والوصف وهو الأمان؛ فيدلُّ على أنّ الناس في حرم اللّه مكّةَ آمنون، واثنانِ في قوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾، المشتمل على المكان وهو ما حولهم من القرى والوصف وهو التخطّف، الدالّ على أنّ الناس فيما حولَها خائفونَ مذعورونَ، وهي مقابلةٌ تُبرزُ عظيمَ نعمةِ اللّه على أهلِ مكّة، وتبيّن مدى شعورهم بالأمان والاطمئنان، في حين أنَّ غيرهم لا يأمنونَ على شيء، ولا يتلذَّذون بشيء؛ لأنهم محرومونَ من أعظمِ النّعَم وأهمِّها، وتَبيَّنَ من التقابلِ أهميّةُ العدول عن مكة إلى الحرم، المشعرِ بالمكان الذي لا يجوزُ انتهاكه شرعًا وعُرفًا، وأهميّةُ العدول عن (القرى) إلى (ما حولها) المشعرِ بأنَّ جميع ما حولَها بدون استثناء خائفٌ ومذعور، كما آثرَ النظم التعبيرَ عن (الأمن) بالاسم الدالِّ على حدوث ذلك الأمنِ بفضل اللّه تعالى، والتعبيرَ عن انعدام الأمن بالفعل ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ المُشْعِرِ بشدّة القتل وعِظَمِ المصيبة لتجدُّده واستمرارِه حتى يصعُبَ تعيينُ فاعله.

نكتة الوصل في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾:

التّعجيب من صنيعهم والتّشنيع بهم

جاء قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوفًا بالفاءِ - الدالة على

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 479.

التسبّب - على الاستفهام السّابق الدالِّ على الإنكار أيضًا، فيكونُ من عطفِ الإنكار المُسبَّب على المنكَر السّبب؛ إذ عدمُ رؤيتهم نعمةَ الأمان كانت سببًا في تبجيلِ الباطل، ولو رأوه رؤيةً علميّةً حقيقيّةً أدركوا أنَّ هذا الإمانَ من صُنع اللّه تعالى دون أصنامِهم الباطلة، إذ كانت تلك الأصنامُ معبوداتٍ للعرب المتخطَّفينَ ولم تمنَعْهم من القتل، وتوالي الإنكارِ يؤدّي إلى التعجيبِ من حالهم بتوفير اللّه تعالى الأمنَ لهم إلا أنّهم يشركونَ به معبوداتٍ باطلةً، ويكفرون نعمةَ ربِّهم عليهم، ويَحْتَمِلُ أنّها عاطفةٌ ما بعدَها على محذوفٍ يُفهَم من السّياق، تقديره: أَبَعْدَ هذه النّعمة الظاهرةِ المكشوفةِ وغيرها ممّا لا يقدر عليه إلا اللّه تعالى؛ يؤمنونَ بالصّنم أوِ الشيطان، وبِنِعْمَةِ اللّهِ يَكْفُرونَ؟[1].

بلاغةُ الاستفهام وغرضُه في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾:

مَنْ يكفرُ نِعمَ اللهِ عليه يستحقُّ الإنكارَ والتوبيخ

الهمزة في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ للاستفهام الإنكاريّ، القاصدِ إلى تنبيهِ المتلقّين ولفتِ أنظارهم إلى المعنى الذي يريدُ البيانُ إيصالَه والتوجيهَ إليه، مع ما يفيدُه هنا من الإنكار على مشركي مكة وتوبيخِهم[2]؛ بسبب ما كانَ منهم من إيمانٍ بالباطل، وكفرانٍ بنِعَم اللّه التي لا حصرَ لها، بدلًا من حرصهم على توحيده سبحانه وشكرِها.

معنى الباء في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾:

أهلُ الباطل شديدو التمسُّكِ والتقليد لباطِلِهم

(الباء) في قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ حرفُ جرٍّ يفيدُ الإلصاقَ، وفي التعبيرِ به دلالةٌ على أنّ مشركي مكّةَ مُتمسِّكونَ بعبادة الأصنام، مُصرِّون على الإيمانِ بها، على الرَّغم من عَجْزها وعدمِ قدرتها على الإنعام بمثلِ شيءٍ من نعم اللّه تعالى، وهو أمرٌ في غاية الاستغرابِ والعجَب.

(1) البيضاوي: أنوار التنزيل: 4/ 200.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 464، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 479.

معنى التعريف في قوله: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

(ألْ) في (الباطِلِ) من قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ هي التي للجنس، وفيها دلالةٌ على أنّهم يؤمنونَ بكلِّ ما هو باطلٌ، ويهرعونَ إليه، ويكفرونَ بكلِّ ما هو حقّ، وينصرفونَ عنه وتفيد (أل) أنَّ ما هم عليه هو حقيقةُ الأمر الزّائل، الذي لا وجودَ ولا رصيدَ له من الحقيقة، فهم قد التصقوا بالوهم وعاشوا فيه واعتمدوه سندًا وحقيقةً، ويَحتملُ أنْ تكون للعهدِ، ويرادُ بالباطل الأصنامُ التي يشكرونَها من دون اللّه، ويعتقدونَ أنّها تنفع وتضرُّ من دون اللّه، وفي تسميةِ الصّنم (باطلًا) استعارةٌ تصريحيّةٌ، بجامعِ عدم الثبوتِ فيهما؛ إذ الصّنمُ لا ألوهيَّة له في نفس الأمر، كما أنَّ الباطلَ لا قيمةَ له في الواقعِ.

نكتةُ تقديمِ الجارّ والمجرور:

التشنيعُ بما فعلوا، وإبرازُ فظاعته وقُبحِه

قَدّم النظمُ الكريم الجارَّ والمجرور: (بالباطِلِ) على الفعل: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ وهو في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به مقدّمٌ، والأصلُ أنْ يقال: (أيؤمنونَ بالباطل)؟ لإظهارِ مدى اهتمامهم بالأصنام، وحرصِهم على التمسُّك بعبادتها، ويمكنُ أنْ يكون التقديم لبيانِ تخصيصِهم الأصنامَ بالعبادةِ والتأليهِ من دون اللّه تعالى، وأيًّا كان الغرضُ؛ ففي تقديم الجارِّ والمجرور على فعل الإيمان إظهارٌ لكمال شناعةِ ما فعلوا، وإبرازٌ لفظاعته وقُبحه[1]، وبهذا عُرف سرَّ الإنكار الشّديدِ عليهم بالاستفهام المُتوالي، لأنهم خصَّوا الباطلَ بالإيمان، فلم يَجمعوا في إيمانِهم بين باطلٍ وحقٍّ، بل اقتصروا على المعتقدِ الباطل وكرِهوا الحقَّ؛ إذ الجحدُ دليلُ الكراهيةِ والبغضاء، فكانَ تقديمُ الجارِّ والمجرور محطَّ الاستفهام الإنكاريّ والتوبيخيّ على ذلك الفعلِ الشّنيع؛ إذ الخالقُ الجليلُ يُنعِمُ، وغيرُه وحدَه يُعبَد.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 47.

دلالة التَّعبير بالمضارع مادّةً وصيغةً:

المشركون يُصرّون على فعلِ عكسِ ما تفرضُهُ الفطرةُ السّويّةُ

أوثِر التعبيرُ بصيغة الفعل المضارع: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ لدلالتِهِ على تجدُّد إيمانهم بالباطل، وشدّةِ إصرارهم على عبادة الأصنام، كلَّما تجدَّدت نِعَمُ اللّه عليهم، وكثُرتْ أفضالُه التي اختصّهم بها، وهو أمرٌ على العكس ممّا يجبُ أن يكون، وعلى الضدِّ ممّا تفرضه الفطرة السويّة، كما آثرَ النظمُ اختيارَ مادّة الأمن أيضًا لمقابلةِ جعلِ مكّة حرَمًا آمنًا، فقد أمَّنَهم اللّه ووقاهم شرَّ المعتدين، ومع ذلك لم يُؤمنوا به، بل آثروا في إيمانهم الباطلَ والضَّلال، فهو تعالى يُؤمِّنُهم وهم يُؤمنونَ بغيره، وذلك مُنتهى القبحِ والشَّناعة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾:

المشركون يُضيفون إلى الإيمان بالباطل الكُفرَ بنعمِ الله

(الواو) في قوله: ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ تعطفُ ما بعدَها على جملة: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾، ما يعني أنّها تقعُ في حيّز الاستفهام القاصدِ إلى الإنكار عليهم وتوبيخِهم؛ لأنَّهم لم يكتفوا بعبادة الأصنام من دون اللّه، وإنَّما أضافوا إليها جحودَ نِعَمِه، وعَدمَ شكرِه عليها، مع كثرتها وعظمتِها، وعَجْزِ آلهتهم عن الإنعام بمثلها، أوْ بما هو قريبٌ منها، وقد أفادَ العطفُ تصويرَ شدَّةِ الجُحود، فهم يُؤمنون بالباطل ويكفرونَ بنعمة اللّه، فقد عطفَ الضدَّ على الضدِّ للتوكيد، ولبيانِ أنَّهم لم يَخلطوا الإيمانَ بالباطل بالإيمانِ باللّهِ وشُكر نعمِه، بل جحَدوا تلك النِّعَم وكَفروا بها.

معنى الباء في قوله: ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾:

المشركون يَكفرونَ بالنِّعَم المباشِرة وغيرِ المباشِرة

(الباء) حرفُ جرّ يفيدُ الإلصاق، وفي التعبير به دلالةٌ على أنّ مُشركي مكّة وغيرَهم يكفرونَ بنِعَم اللّه على الرغم من التصاقِها بهم، وتمتُّعِهم بها بصورةٍ مباشرة، وأنَّهم حريصونَ على الكفر بالنِّعَم ملتصقٌ كفرُهم بها التصاقًا عميقًا، ويمكن أنْ تكونَ الباءُ

للتعدية، ما يعني أنَّهم لم يكتفوا بالباطل، وإنّما تجاوزوه إلى كُفران النّعَم وجحودِها، وهو أمرٌ في غاية الاستغرابِ والعجَب، وإنَّما التصقَ كفرُهم بالنِّعمة دون الله تعالى؛ لأنَّ السّياق يتحدّثُ عن نعمةِ (الأمن) التي التصقَتْ بهم دونَ مِن سواهم، فقابلوا تلك النِّعمة بالتصاقِ إيمانهم بالباطل والتصاقِ كُفرهم بالنِّعمة دونَ المُنعِم.

نكتةُ إفرادِ النّعمة:

كلُّ نعمةٍ من نِعَم الله تعالى تستحقُّ أنْ يُشكرَ عليها ويُحمَدَ لأجلها

جاءَ النظم الكريم بكلمة (نِعْمَةِ) مفردةً مصدرًا الصّادقَ بالواحدِ والجمع في قوله تعالى: ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾؛ للدلالةِ على أنَّ كلَّ نعمةٍ من نعم الله تعالى تستحقُّ أن يُشكر ويُحمَدَ لأجلها، لا أنْ يُجحَدَ ويُكفر، ما يعني أنَّ كلَّ نِعَمِه عظيمةٌ، وأنّ أقلَّ نعمةٍ منها لا يمكن لأحدٍ أنْ يأتيَ بمثلها، يقول ابن عاشور: "والمُرادُ بنعمة الله: الجِنْسُ الَّذي مِنْهُ إنْجاؤُهُمْ مِنَ الغَرَقِ، وما عَداهُ مِنَ النِّعَمِ المَحْسوسَةِ المَعْروفَةِ، ومِنَ النِّعَمِ الخفيَّةِ الَّتي لَوْ تَأمَّلوا لأَدْرَكوا عِظَمَها، ومِنْها نِعْمَةُ الرِّسالَةِ المُحَمَّديَّةِ"[1].

دلالة إضافة النّعمة إلى اسم الجلالة:

مَنْ يُنعم ويَجود يَستحقُّ العبادةَ والسُّجود

في إضافة (نِعْمَةِ) إلى اسم الجلالة العَلَم من قوله تعالى: ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ تعظيمٌ للنّعمة وتفخيمٌ لها، وأوثر التعبيرُ بالاسم الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ الذي يكثرُ التعبير به في مواضع التَّأليه والتَّعْظيم؛ للدلالة على أنّ مَنْ أنعمَ بالإنجاء من أخطار البحار، وأنعمَ بتحريم البراري والأمصار، وغيرها من النِّعَم التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، لَجَديرٌ بأن يكون الإلهَ المعبودَ، المخصوصَ بالتأليه والسُّجود، لأنه وحده صاحبُ الكرمِ والجود، ويمكنُ القولُ بأنَّ هذه الإضافة هي محطُّ الإنكار والتعجيب، فهم لم يكفُروا بمُطلَقِ النّعَم، بل خصّوا الكفرانَ بنعمةِ الله لكراهتهم للحقِّ وإذعانِهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 34.

بالباطل، وفي إضافةِ النّعمة إلى اللّه إضافةً عهديّةً ما يرجّح إرادةَ الإسلام بها، لأنّه نعمة اللّه العظيمة التي لا تُعادلُها أيّةُ نِعمة، فيكونُ في النِّعمة استعارةٌ تصريحيّةٌ حيثُ شبّه الإسلامَ بالنِّعمة بجامع حصولِ النّجاة والخير لَمَن حصل عليهما.

بلاغة المقابلة في الآية:

منتهى القبح الجمع بين الإيمان بالباطل والكفر بالإسلام

اشتملَ قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ على تقابلٍ بين (الباطل) المستعارِ للصنم و(نعمة اللّه) المستعارةِ للإسلام، وبين (الإيمان والتصديق) و(الكفر والجحود)،للدلالةِ على أنَّ ذلك منتهى القبحِ والشَّناعة، إذ لم يدخلِ الإيمان بالحقِّ في قلوبهم، بل ساروا في تكذيبِ الإسلام والردِّ عليه، فجمَعوا بين أعلى درجات الشَّقاء، وهما: افتراءُ الباطل على اللّه تعالى بجعلِ الأصنام آلهةً، وتكذيبِ الدّين الحقِّ لمّا جاءهم بجحدِ رسالةِ الإسلام والردِّ عليها.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

التشنيعُ بكُفران النِّعَم وتقبيحُ فعلِه

قَدّم النظمُ الجارَّ والمجرور على الفعل في قوله: ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ للاهتمام والقصر، إذ الأصلُ أنْ يقالَ: (يكفرونَ بنعمة اللّه)؟ لإظهارِ حرصِهم على كُفران نِعَم اللّه وعدمِ شُكرِها، ولإظهارِ كمالِ شناعةِ ما فعلوا، ولإبرازِ فظاعته وقُبْحِه، فمِن شدَّةِ جُحودهم أنَّهم قصروا إيمانَهم على الباطل، ولم يَخْلِطوا معَه شيئًا من الحقِّ كما سلف، وأنَّهم قصَروا أيضًا كُفرهم على نعمةِ اللّه تعالى دونَ غيرها، فلم يكفروا بأيّةِ نعمةٍ سوى نعمةِ اللّه؛ تصويرًا لشدّةِ كُفرهم وعظيم جحودهم.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَكۡفُرُونَ﴾:

أوثر التعبيرُ بصيغة المضارع: ﴿يَكۡفُرُونَ﴾؛ لدلالتِه على تجدُّد كُفرهم بنِعَم اللّه عليهم، وإصرارِهم على جحودها، كلّما تجدّدَ اختصاصُهم بها، ممّا يثيرُ العجبَ والدَّهشة، واختارَ مادّةَ الكفر؛

لأنَّها تشكّلُ (طباقًا) مع مادّةِ الإيمان في قوله ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، وبذلك يكونونَ قد جمعوا بينَ ضدَّينِ في العملِ المنافي للحقيقة: فإنَّهم آمنوا بالباطل مع أنَّه مجرّدُ وهم، وكفروا بالنِّعمة مع أنّها حقٌّ وثابتٌ، فهم قد جمعوا بين فعلينِ وضعوهما في غير موضِعِهما؛ إذ حقُّ الباطل أن يُجحَدَ وحقُّ الثابتِ أنْ يُعترَف به ويُشكر، ممّا يدلُّ على أنّهم غادروا الحكمةَ في أفعالهم، ووضعوها في غيرِ مواطنِها الصَّحيحة، ومن سُلِب الحكمةَ وحُسْنَ التصرّف فقد سُلِب خيرًا كثيرًا.

توجيهُ التشابه بين التعبير هنا وفي سورة النَّحل:

التعبيرُ عند كُفران النّعَم بأسلوب الغيبة مناسبٌ للجاحدين تمامَ المناسبة

عبَّر النظمُ عن إنكارِ مقابلةِ الكافرين نعمَ الله عليهم بالشّرك والجحود في سورة العنكبوت بقوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾، وفي سورة النَّحل بقوله: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ [النحل: 72]، والاختلافُ التعبيريّ بينهما يأتي في أمرين، هما - في سورة النحل -: كتابةُ كلمة (نِعْمَتِ) بالتاءِ المفتوحة، والتعبيرُ بضمير الغائب ﴿هُمۡ﴾ [النحل: 72].

أمّا **الأمرُ الأوّلُ**: فالسرُّ في كتابة كلمة (نِعْمَتِ) بالتاءِ المفتوحة في سورة النَّحل أنّ الكلمة تأتي في سياقِ الامتنان بنِعَم كثيرة، إذ يقولُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النحل: 72]، فناسبَ كتابتُها بالتاء المفتوحةِ؛ للدّلالة على تعدُّد النِّعَم وكثرتها، أما في سورة العنكبوت فالكلمة تأتي في سياقِ الحديث عن جحودِ الكافرينَ نعمةَ الأمن ما يستلزمُ كتابتَها بالتاءِ المربوطة؛ للدّلالة على اختصاصِهم بها دون غيرهم، والله أعلم.

وأمّا **الأمر الثاني**: فالسرُّ في التعبير بضمير الغائب أنَّ في سورة النّحل اتَّصل التعبير بالخطاب في قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم

﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النحل: 72]، ثمَّ عاد إلَى الغَيْبَة مُلتفِتًا فقالَ: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ [النحل: 72]، فلا بُدَّ من تَقْييده بهم؛ لِئَلّا تَلْتَبِس الغَيْبَة بِالخِطاب والتّاء بِالياء، وما في سورة العنكبوت اتَّصل بآياتٍ استمرَّتْ على الغَيْبَة فيها كلِّها فلم يحْتَج إلَى تَقْييدِه بالضمير[1]، يضافُ إلى ذلك أنّ الانتقالَ من حال الخطابِ عند الحديث عن التمتُّع بنعَمِ اللّه تعالى إلى حال الغَيْبةِ، الدالّ على الاستخفافِ بهم واحتقارِ شأنهم عند الحديث عن كُفرانها؛ مناسبٌ للجاحدين تمامَ المناسبة.

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 162.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مقابلةُ نِعَمِ اللهِ بالافتراء والتكذيبِ ظلمٌ جزاؤُه جهنّمُ

بعد أنْ ذَكَّرَتِ الآيةُ السّابقةُ مشركي مكّةَ بنعمةِ الحرم الآمِنِ التي اختصّهم اللّهُ تعالى بها دون غيرهم مِنَ النّاس، وبَيّنَتْ أنّهم قابلوا هذه النّعمة بالجحود وعبادة الأصنام؛ تأتي هذه الآيةُ لتبَيّن أنّه لا يوجدُ مَنْ هو أشدُّ ظلمًا مِمّن يقابلُ نِعَمَ اللّه تعالى بالافتراءِ عليه، ويُكَذِّب بما جاءَه مِنَ الحقّ والصّدقِ على لسان الرّسول ﷺ، وأنّ هؤلاءِ الظالمينَ ليس لهم مصيرٌ إلا النّارَ وبئسَ القرار، يقول ابن عاشور: "لَمّا أَوْفاهُمْ ما يَسْتَأْهِلونَهُ مِنْ تَشْنيعِ أَحْوالِهِمْ وسوءِ انتظام شؤونهم؛ جاءَ في عَقِبِهِ بِتَذْييلٍ يَجْمَعُها في أَنَّها افْتِراءٌ عَلَى اللَّه وتَكْذيبٌ بِالحَقِّ، ثُمَّ جَزاهُمُ الجَزاءَ الأَوْفَى اللّائِقَ بِحالِهِمْ وهوَ أَنَّ النّارَ مَثْواهُمْ"[(1)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: (فرى) "معظَمُ البابِ قَطْعُ الشَّيْءِ، ثُمَّ يُفَرَّعُ مِنْهُ ما يُقارِبُهُ: مِنْ ذَلِكَ: فَرَيْتُ الشَّيْءَ أَفْرِيهِ فرْيًا، وذَلِكَ قَطْعُكَهُ"[(2)]، و"الفَرْيُ: قطعُ الجلد للخَرْزِ والإصلاح، والإِفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثرُ، واستعملَه القرآنُ في الكِذْبِ والشّرك والظُّلم"[(3)]. "وكلُّ ما في القرآن من لفظ الافتراءِ فهو بمعنى اختلاقُ ما لا حقيقةَ له، وفُسِّر الفَريُّ في قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 34.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرى).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (فرى).

[مريم: 27] بالشيءِ العظيم المُفتَرى، وبالمُختَلَقِ المُفتعَل"[1]، والمرادُ به في الآية: الشّرك باللّه تعالى.

2) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: (حقّ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو يَدُلُّ عَلَى إِحْكام الشَّيْء وصِحَّتِه، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ[2]، والحقُّ يقالُ على أوجه..، منها: للفعل والقول بحسب ما يجبُ وبقدر ما يجبُ، وفي الوقت الذي يجبُ..، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 33]، وقال: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: 13]، وقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المؤمنون: 71][3]، ومعنى الحقِّ في الآية: الرَّسولُ أو الكِتاب.

3) ﴿مَثۡوًى﴾: (ثوي) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى الإقامَةِ، يُقالُ: ثَوَى يَثْوِي فهوَ ثاوٍ[4]، والثَّواء: الإقامةُ مع الاستقرار، يقال: ثَوَى يَثْوِي ثَواءً، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 45]، وقال أيضًا: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزمر: 60]، وقال: ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ [فصلت: 24][5]، ومعنى ﴿مَثۡوًى﴾ في الآية: مَكانٌ يَثْوونَ فيه، ويُقيمونَ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

أشدُّ الناس ظلمًا وأكثَرُهم استحقاقا للنار، المشركون بالله المكذِّبون بالوحي

تُبيّن الآيةُ الكريمةُ أنّه لا يوجدُ أحدٌ أشدُّ ظلمًا مِنَ الّذين يُقابلون نِعَمَ اللّه تعالى عليهم بالجُحود وافتراءِ الكذب عليه سُبحانه، ويجعلونَ له شركاءَ يعبدونَهم من دونه، وتُبيّن أيضًا أنّه لا يوجدُ من هو أشدُّ ظلمًا مِنَ الّذين يُكَذِّبون ما جاءَهم به الرّسول مِنَ الهدى والنّور، وانتهى إليهم وعرفوهُ فانصرفوا عنه مُؤثِرين دنياهم متّبعينَ لهواهم، وتؤكّد أنَّ مصيرَهم النارُ؛ جزاءَ كفرِهم وتكذيبِهم، ونلحظُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فرى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (حق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوى).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (ثوى).

أنَّ الافتراءَ على اللّه بالكذب يتحقّقُ من خلال الإيمانِ بالباطل التي هي الأصنام، وأنَّ التكذيبَ بالحَقِّ الجائي من اللّه يوجدُ من خلال الكُفر بنعمة اللّه التي هي الإسلامُ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾:

التنبيهُ إلى أشدّ أنواعِ الظُّلم وأعظمِها

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ استئنافيّةٌ، جيءَ بها للتنبيهِ إلى أنَّ ما يفعلُه المشركون من افتراء على اللّه تعالى، وجُحودٍ لنِعَمه، وتكذيبٍ لما جاء به رسولُه ﷺ؛ هو أشدُّ أنواعِ الظُّلم وأعظمُها، وفيه من التشنيع والتقبيح ما يكفي لرَدعِهم، والتحذيرِ من السَّيرِ على منوالهم، والوعيدِ لكلِّ من آمنَ بالباطل زورًا وبُهتانًا، وجَحَدَ نعمةَ الإسلام ونورَهُ السّاطعَ المُبين.

بلاغةُ الاستفهامِ وغرضُهُ:

أشدُّ البشر ظُلْمًا مَن يفتري على الله كذبًا ويُكذِّب بالوحي

في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أسلوبُ استفهام يقصدُ - بجانب تنبيهِ المتلقّي وإيقاظه - إلى النَّفْي[1]، والمعنى: لا يوجدُ أحدٌ أشدُّ ظلمًا، وأعظمُ ذنبًا مِمّن يفتري الكذبَ على اللّه تعالى، ويكُذِّبُ بالوحي المُنزّل على رسوله ﷺ، وإنّما عبَّر عن النفي بأسلوبِ الاستفهام لما يقوله ابن عاشور: "وافْتَتَحَ تَشْخيصَ حالِهِمْ بِالِاسْتِفْهامِ عَنْ وُجودِ فريقٍ هُمْ أظْلَمُ مِنْ هَؤُلاءِ الَّذينَ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ، وكَذَّبوا بالحَقِّ، تَوْجيهًا لِأذْهانِ السّامِعينَ نَحْوَ البَحْث، هَلْ يَجِدونَ أظْلَمَ مِنْهُمْ؟ حَتَّى إذا أجادوا التَّأمُّلَ واسْتَقْرَوْا مَظانَّ الظُّلْمَةِ واسْتَعْرَضوا أصْنافَهُمْ؛ تَيَقَّنوا أنْ لَيْسَ ثَمَّةَ ظُلْمٌ أشَدَّ مِنْ ظُلْمِ هَؤُلاءِ"[2]؛ لأنَّهم مخلوقونَ للّه ويعبدونَ غيره، ويُرزقون بالنِّعم وأعظَمُها نعمةُ الإسلام، ويُكفَر ويُكذَّب ويُجحَد.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 480، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 48.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 34.

دلالة التّعبير باسمِ التفضيل:

الافتراءُ على الله وتكذيبُ رسالته مِن أشدّ أنواع الظُّلم وأعظمِها

اشتمل قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ على اسم تفضيل، وعبَّر به النَّظمُ الكريم للدلالةِ على أنَّ افتراءَ الكذب على اللّه، وتكذيبَ الوحي المُنَزَّل على رسوله، هو أشدُّ أنواعِ الظُّلم وأعظمُها، ولا يوجدُ من الظُّلم ما يرقى إليه أوْ يتفوَّق عليه، وفيه من تقبيحِ الافتراءِ على اللّه وتكذيبِ رُسُله وتشنيعِهما ما يُساعدُ على النُّفور منهما.

معنى الجارّ والمجرور:

التـقـديـم في السياق لتحريك كوامن الأشواق

(مِنْ) الأولى في قوله تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هي البيانيّةُ الجارّة لـ(من) الاستفهامية المبهمة، التي تُفيد كونَ مَن يفتري على اللّه كذبًا، ويُكذِّبُ بالحقّ، الذينَ يستحقّون النارَ جزاءً لافترائهم وتكذيبهم، هم الأكثر ظلمًا، و(مَنْ) المجرور محلًّا فيه اسمٌ موصولٌ، وكلٌّ من الجارّ والمجرور متعلّقٌ بـ: ﴿أَظۡلَمُ﴾، ولا شكَّ أنَّ تقديمَ المُبهم المُستفهَم عنه يدلُّ على التشويقِ لسَماع الخبر ومُتعلّقاته، إذ المخاطبُ يقبلُ على الإصغاء لمعرفةِ الأكثر ظلمًا المُستفهَم عن حقيقته وصفاتِه.

دلالة التّعبير بالموصول وصلته:

الـتـنـبـيـهُ على عـلّـةِ الاتـصـافِ بالأظلميَّة

آثرَ النَّظمُ الكريم التعبيرَ باسم الموصول وصلتِه في قوله تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بدلًا مِن: (ومن أظلم من مُشركي مكة...)؛ ليَعُمَّ التعبيرُ به مُشركي مكَّة وغيرَهم ممَّن يَحْذون حَذْوَهم ويقتدون بهم، في الافتراءِ على اللّه تعالى، وجحودِ نِعَمه، وتكذيبِ رسوله ﷺ، كما أفادتِ الصّلةُ علّةَ الاتّصافِ بكثرةِ الظُّلم؛ إذِ الافتراءُ والكذبُ على اللّه تعالى معَ التكذيبِ لرسالتِه معتقدٌ قبيحٌ وفعلٌ شنيعٌ.

فائدةُ التعبيرِ بالفعل الماضي مادّةً وصيغةً:

افـــتراءات الـكـافـريـن على رب الـعـالمين لا حدود لها

في التعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ دلالةٌ على أنّهم أتَوا بأشنعِ الكذبِ وأقبحِه، حينَ جعلوا للّه

تعالى شريكًا، وعبدوا من دونه آلهةً لا تضرّ ولا تنفعُ، مع إنعامِه عليهم وإكرامِه لهم، لأنَّ إيمانَهم بالباطل - الذي هو شريكٌ متوهَّمٌ - بمثابةِ ادّعاء كاذبٍ على اللّه تعالى أنّه شريكٌ للّه، بل هو الكذب المتعمَّد الذي تدلُّ عليه مادّةُ الافتراء، أي: إنَّهُمْ يَتَعَمَّدونَ الاخْتِلاقَ تَعَمُّدًا لا تُخالِطُهُ شُبْهَةٌ[1]، فالافتراءُ نسبةُ عبادةِ الشريك إلى اللّه تعالى، مع أنَّه لم يأمرْ به، ولم يطلبْه؛ لأنّه لا يعلمُ له شريكًا حتى يأمرَ بعبادته، وأوثر التعبير به بصيغة الماضي للدّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِه منهم، كما اختيرتْ صيغةُ المزيدِ للدّلالةِ على المبالغة والاحترافِ في الفعل؛ وببنائِه المختوم بألف المدّ على بلوغهم في الافتراء والاختلاق حدًّا لم يصلْ إليه أحدٌ غيرُهم.

نكتة التقييد بالجارّ والمجرور المتقدِّم:

أعظمُ أنواعِ الافتراء ما كان ادّعاءً على الله تعالى

في تقييدِ فعل الافتراءِ بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ تشنيعٌ بهم، وتقبيحٌ لصنيعهم، وتأكيدٌ لبلوغِهم القمّة والذّروة في الظُّلم والاعتداء؛ لدلالته على أنّهم اجترؤوا على اللّه تعالى، ولم يوَفّوه حقَّه من التعظيم والتقدير، يقوّيه تقديمُ الجارّ والمجرور على المفعول: ﴿كَذِبًا﴾، وفي إيرادِ المجرور اسمَ علَم للذّات الواجبةِ الوجود المستجمعةِ لجميع صفات الكمال؛ بيانٌ لفَداحَة الافتراءِ، وإظهارٌ لسبب كون ذلك الافتراءِ من أكثر أنواعِ الظُّلم، فلو أنَّهم افتروا على غيره كان ظلمًا أيضًا، لكنَّهم في افترائهم على هذه الذاتِ العظيمة بلغوا ظلمًا لا يعادلُهُ ظلمٌ أبدًا، وفي تعدية الفعل المتعدّي بنفسه بإيرادِ حرفِ الجرّ ﴿عَلَى﴾ الدالِّ على الاستعلاء بيانٌ لتمكُّنهم في الافتراء وتعمُّدِهم الكذبَ حتى عَلَوْا على مقام اللّه وجلاله! وفي هذا الجارّ والمجرور إشارةٌ إلى أنَّهم تحدَّثوا عن صدقِ شُركائهم بكلامٍ نسبوه للّه تعالى، فكانوا من المفترينَ الكاذبين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 35.

الكذبُ من الأخلاقِ التي تنكرُها الأعرافُ والأذواق

علّةُ التعليقِ بالمفعول وتنكيرِه:

في قوله تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ تَقْييدُ فعل الافتراء بـ﴿كَذِبًا﴾، وهو مفعولٌ به للفعل ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾، أي: اختلقَ كذبًا وافتعلَهُ، وفي هذا تشخيصٌ لنوع الافتراء بأنَّه يتعلّقُ بالكذب على اللّه تعالى في كونِ أصنامِهم مأمورينَ بعبادتهم لها من اللّه تعالى، ويَحتملُ أنْ يكون مفعولًا لأجله، أي: افترى لأجل الكذب، وفي هذا تعليلٌ للافتراء وأنَّ الباعثَ لتعمُّدِ الكذب هو إرادتُهم ومَحَبَّتُهم للكذب على اللّه تعالى، ويَحْتَمِلُ أن يكون مصدرًا في موضع الحال، أي: افترى حال كونه كاذبًا، وهي حال مؤكِّدةٌ؛ لِزيادَةِ تَفْظيعِ الافْتراءِ، ولِأنَّ اسْمَ الكَذِبِ مُشْتَهَرٌ بالقُبْحِ في عُرْفِ النّاسِ، وجيءَ به نكرةً ليَعمَّ كلَّ أنواع الكذب، من الشّرك باللّه وغيره[1]، ونَجَمَ من الافتراءِ الكاذبِ على اللّه تعالى بأنَّها معبوداتٌ حقّةٌ؛ إيمانُهم بالباطل واعتقادُهم بما لا وجودَ ولا حقيقة له، بدلًا من الإيمانِ والاعتقاد بالحقِّ الثابت الذي لا يزولُ.

كلٌّ من الشِّرك بالله أو تكذيبِ الوحي من أشدِّ أنــواعِ الظُّلم وأعظمِها

معنى ﴿أَوۡ﴾ العاطفة:

﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ حرفُ عطفٍ يفيدُ التنويعَ، و﴿كَذَّبَ﴾ معطوفٌ على: ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾، وفيه دلالةٌ على أنّ تكذيبَ ما جاءَ به الرسول ﷺ من الهدى والنور والنعمة؛ يُماثِلُ في الظُّلم والشَّناعة الافتراءَ على اللّه تعالى والشّركَ به، وأنّ الإتيانَ بواحد منهما يُعَدُّ مِنْ أشدِّ أنواع الظلم، ويستحقُّ فاعلُه العقابَ بالنار، فكيف بالجمع بينهما؟!.

الكافرون بلغوا في التكذيب أمدًا بعيدًا

دلالةُ التعبير بالماضي مادّةً وصيغةً:

في التعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ دلالةٌ على تحقُّق التكذيب بالوحي المنزّل على رسول اللّه ﷺ، وتأكُّدِ حصولِه من غير شكٍّ أَوْ افتراءٍ، وفي تضعيفِ عينه دلالةٌ على مبالغتهم في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 480، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 35.

التكذيبِ ووصولهم فيه أمدًا بعيدًا، وبذلك يتحقّقُ الانسجامُ التَّأكيديُّ في الصّيغةِ الدالَّة على المبالغة بين: ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ و﴿كَذَّبَ﴾.

غرض تقديم الافتراء على الله على التكذيب بالحقّ:

ما يتعلّق بالتوحيد يُقدَّم على غيره

قدّمَ النظمُ الكريمُ فعلَ الافتراءِ على اللّه على فعل التكذيب بالحقّ في قوله تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنّه يتعلّقُ بالتوحيد، وما يتعلّق بالتوحيد يُقَدَّم على غيره ممّا يتعلّقُ بالرَّسول والوحي، كما أنَّ الافتراء على اللّه يتمثّلُ بالإيمان بالأصنام، وهو فعلٌ يفيدُ التحلّيَ بصفة قائمةٍ على الإثبات، والتكذيبَ بالحق يتمثّلُ بإنكارِ النّعمة والرسالةِ القائمة على النفي والردِّ، والأصلُ تقديمُ المُثبَت على المنفيِّ.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

الظالم لا يفوت فرصة لمعاداة الوحي إلا وسار معها

في تعدية الفعل المتعدي بنفسه بـ(الباء) الدالّ على الإلصاق، وهو أصلُ معانيهِ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ دلالةٌ على أنّ الظالمينَ يتعمّدونَ تكذيبَ الوحي المنزّل على رسول اللّه، مع يقينهم بأنّه الحقّ، وثقتهم في أنّه صدقٌ لا كذبَ فيه ولا افتراء، وأفادتِ التعديةُ أيضًا تقويةَ فعلِ التكذيب وشدّةِ ارتباطِهم وتمسُّكِهم بالتكذيب، وما ذلك التكذيبُ بالحق إلّا لسبقِ إيمانهم بالباطل، وتمسُّكِهم والتصاقِهم بما لا حقيقةَ له.

معنى التعريف في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

عادةُ الكفّار تكذيبُ الوحي مع يقينهم بأنّه حقٌّ

(ألْ) في (الحَقِّ) الوارد في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ هي التي للعهد، وتدلّ على أنّهم يكذّبون بالوحي المعهود مَعَ يقينهم بأنّه حقٌّ، لا شكّ فيه ولا ريب، وعلى الرغم من عَجْزهم عن معارضتِه، أو الإتيان بمثلِ سورةٍ منه، وعلى الرغم من إقرارِهم بصواب ما فيه، واختلافه عما لديهم، ويحتملُ أنْ تكون (أل) للجنس، ويدلُّ على أنَّهم يكذِّبون بهذه الحقيقةِ الثابتةِ المطلقة، التي

لا يكونُ ما عداها إلا الباطلَ والضّلال، وفي جعلِ الوحي والرّسالة عَيْنَ الحقّ؛ إظهارٌ لكمالِ الرسالة.

بلاغةُ الاستعارة في الآية:

الرسالةُ والشّريعة حقٌّ محضٌ

اشتملَ قوله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ على استعارةٍ تصريحيَّة؛ إذ شبَّه الوحيَ النّازلَ إلى محمَّد ﷺ بالحقِّ الثابت الذي لا يتزلزل، لأنَّه نزلَ من الحقِّ تعالى، فيكون فيه استعارةٌ تصريحيّةٌ، وفي هذا الاستعارةِ وصفٌ لما جاء به النبيُّ ﷺ من حقائقَ اعتقاديّةٍ وتشريعيّةٍ وسلوكيّةٍ، تأخذُ بيد الإنسان إلى كلِّ خير، فلا ريبَ أنّه نعمةُ اللّه على عباده، لكنّهم بنعمةِ اللّه يكفرون.

دلالة ﴿لَمَّا﴾:

التكذيبُ غايةُ الكافرين، يفعلونَه من غير فكرٍ ولا رَويّة

﴿لَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ هي الظرفيّةُ الحينيّةُ، الدالّةُ على أنَّ تَكْذيبَهُمْ بالحقِّ حَصَلَ بِدارًا عِنْدَ مجيئِه، أيْ: دونَ أنْ يَتْرُكوا لِأَنْفُسِهِمْ مُهْلَةَ النَّظَرِ، والتأمُّل فيما جاءَهم من الأمرِ الشَّديدِ الخطر[1]، يقولُ الزمخشريُّ: "لم يتلعثَموا في تكذيبِه وقتَ سمعوه، ولم يفعَلوا كما يفعَلُ المراجيحُ العقولِ المثبّتونَ في الأمور، يسمعونَ الخبرَ فيستعملونَ فيه الرَّويّة والفكر، ويستأنونَ إلى أن يصحَّ لهم صِدقُه أوْ كذِبُه"[2].

بلاغةُ الإدماج:

الكافرونَ يخالفون منهجَ العقلاء في البحثِ عن الحقِّ والسَّعيِ إليه

إنّ تَقْييدَ تَكْذيبِهِمْ بِالحَقِّ بِقَوْلِه: ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾؛ إدْماجٌ لذَمِّ المُكَذِّبينَ بِنُكْرانِ نِعْمَةِ إرْسالِ الحَقِّ إلَيْهِمُ الَّتي لَمْ يَقْدِروها قَدْرَها؛ لأنَّ شَأْنَ العُقَلاءِ أنْ يَتَطَلَّبوا الحَقَّ ويَرْحَلوا في طَلَبِه، وهَؤُلاءِ جاءَهُمُ الحَقُّ بَيْنَ أيْديهِمْ فكَذَّبوا بِه[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 480، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 35.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 465، في الكشاف: "المثبتون في الأمور"، ولعلَّ صوابها: المتثبِّتون.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 35.

دلالة التعبير بفعل المجيء:

الوحيُ النّازل إلى الرّسول يحملُ المتلقّي على التصديق لا التَّكذيب

تعبيرُ القرآن بفعل المجيء الدّالِّ على: الإتيان بصُعوبة[1] لا يُقصد منه الإشارةُ إلى ما فيه من صعوبةِ الحركة، إنَّما استعمالُه على سبيل التوسُّع والمجاز في بيان شأن الآتي ومَكانته، وأنَّ مجيئَه له شأنه وأهميّتُه، لغلبةِ حُجَّته، وإلزامِه مَن يخاطبُهم بالدَّليل[2]، ما يعني: أنَّ الوحي الَّذي جاءهم به رسولُ اللّه يدفع إلى التصديق وعدمِ التكذيب، ومع ذلك كذَّبوا به، كما أنَّ صعوبةَ المَجيءِ كُنّي بها عن ثقلِ الرّسالة والوحي ومتانةِ التنزيل وعُمق الأبعاد والمضامين.

بلاغة المجاز الاستعاريّ:

الوحيُ لا ينزلُ إلا بما فيهِ مصلحةُ البشر

في إسنادِ فعل المجيءِ إلى ضميرِ الحقّ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ﴾، استعارةٌ مكنيّة، شُبّه فيها الوحيُ النّازل لأجلهم بالإنسانِ السّاعي إليهم، الحريصِ على مصلحتهم، المتوجِّهِ لهم بالنُّصح والإرشاد؛ ليخرجَهم ممّا هم فيه من ضلالٍ وغَواية، ويأخذَ بأيديهم من طريق الهلاكِ والعذاب إلى طريق النَّجاة والنَّعيم، ومع ذلك رفضوا الاستماعَ له، وساروا في طريقٍ غير الطَّريق الذي يدعوهُم إليه، وأفادتِ الاستعارةُ تجسيمَ الحقِّ وجعلَه من المحسوساتِ التي تتّصفُ بالحركة والمَجيء، ليكونَ قريبًا من التصوُّر واضحًا عند الإدراك.

توجيهُ المتَشابِهِ اللّفظيّ:

ثمة أنواعٌ مِنَ الظُّلمِ عدّها القرآنُ مِنْ أشدِّه وأعظمِه

ورد التعبيرُ باسم التفضيل (أَظۡلَمُ) في كتاب اللّه الكريم ستَّ عشرةَ مرّةً، على النحو التالي: [البقرة: 114، 140، الأنعام: 21، 93، 144، 157، الأعراف: 37، يونس: 17، هود: 18، الكهف: 15، 57، العنكبوت: 68، السجدة: 22، الزمر: 32، النجم: 52، الصف: 7].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (جاء).

(2) حمدان، محمود موسى، الإتيان والمجيء، فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 58.

يتّضحُ من خلال تأمّلها أنّ ثمة أنواعًا من الظُّلم عَدَّها البيانُ القرآنيُّ مِن أشدِّه وأعظمِه، ومن هذه الأنواع: الافتراءُ على اللّه كذبًا، وتكذيبُ الوحيِ النّازل على رسله، وكتمانُ الشَّهادة، وادّعاءُ النّبوَّة، وإضلالُ الناس بغير علم، ومنعُ النّاس من ذكر اللّه تعالى في المساجد، والإعراضُ عن آياتِ اللّه ونسيانُ الذّنوب، ومنها كذلك ظُلْمُ الناس والاستعلاءُ عليهم، وغيرُ ذلك ممّا يستحقُّ أن تُفرد له دراسةٌ مستقلّةٌ.

وقد بيَّن الفخرُ الرازي في تفسيره لآية (سورة العنكبوت) وجْهَ كون الافتراء على اللّه تعالى وتكذيبِ الوحي النّازل إلى رسوله مِنْ أشد أنواع الظُّلم، بما يمكن أنْ يُقاس عليه في بقيَّة الأنواع، فقال: "لَمَّا بَيَّنَ اللَّه الأُمورَ عَلَى الوَجْهِ المَذْكور، ولَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَحَدٌ، بَيَّنَ أَنَّهُمْ أَظْلَمُ مَنْ يَكونُ؛ لِأَنَّ الظُّلْمَ عَلَى ما بُيِّنَ: وضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِه، فإذا وضَعَ واحِدٌ شَيْئًا في مَوْضِعٍ لَيْسَ هوَ مَوْضِعَهُ يَكونُ ظالِمًا، فإذا وضَعَهُ في مَوْضِعٍ لا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ ذَلِكَ مَوْضِعَهُ يَكونُ أَظْلَمُ؛ لِأَنَّ عَدَمَ الإمْكانِ أقْوى مِنْ عَدَمِ الحُصولِ، لِأَنَّ كُلَّ ما لا يُمْكِنُ لا يَحْصُلُ، ولَيْسَ كُلُّ ما لا يَحْصُلُ لا يُمْكِنُ. فاللَّه تَعالَى لا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ لَهُ شَريكٌ وجَعَلوا لَهُ شَريكًا، فلَوْ كانَ ذَلِكَ في حَقِّ مَلِكٍ مُسْتَقِلٍّ في المُلْكِ لَكانَ ظُلْمًا يَسْتَحِقُّ مِنَ المَلِكِ العِقابَ الأليمَ، فكَيْفَ إذا جُعِلَ الشَّريكُ لِمَنْ لا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ لَهُ شَريكٌ؟ وأيْضًا مَنْ كَذَّبَ صادِقًا يَجوزُ عَلَيْهِ الكَذِبُ يَكونُ ظُلْمًا، فمَنْ يُكَذِّبُ صادِقًا لا يَجوزُ عَلَيْهِ الكَذِبُ كَيْفَ يَكونُ حالُهُ؟ فإذًا لَيْسَ أظْلَمُ ممَّنْ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ بالشِّرْك، ويُكَذِّبُ اللَّهَ في تَصْديقِ نَبيِّهِ، والنَّبيَّ في رِسالَةِ رَبِّهِ، والقُرْآنَ المُنَزَّلَ مِنَ اللَّهِ إلَى الرَّسولِ"[1].

علةُ فصل ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ عما قبلها:

فُصِلت جملةُ: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ عمّا قبلها، لشبهِ كمالِ الاتّصال، إذ إنّها تُجيب عن سؤالٍ يدورُ في نفس المتلقّي عن جزاءِ الَّذين يفترونَ على اللّه، ويُكذّبون بالحقّ عندَما يأتيهم، فتأتي هذه الجملةُ لتخبرَ أنّ هؤلاءِ لهم مكانٌ في جهنّمَ وبئس القرار.

ويمكنُ أنْ يكونَ الفصلُ لكمالِ الاتّصال، لأنَّ جُمْلَةَ: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ بَيانٌ لِجُمْلَةِ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وتَقْريرٌ لَها، لِأَنَّ في جُمْلَةِ: ﴿وَمَنۡ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 77.

المفترون لهم مكانٌ في جهنّم تصريحًا وتأكيدًا

﴿أَظۡلَمُ﴾ إلَى آخِرِها إيذانًا إجْماليًّا بِجَزاءٍ فظيعٍ يَتَرَقَّبُهُمْ، فكانَ بَيانُهُ بِمَضْمونِ جُمْلَةِ ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهوَ بِألْفاظِه ونَظْمِه يُفيدُ تَمَكُّنَهُمْ مِنْ عَذابِ جَهَنَّمَ، إذْ جُعِلَتْ مَثْواهُمْ[1].

بلاغةُ الاستفهام وغرضُه:

التقريرُ بأنَّ جزاءَ المُفترينَ المُكذِّبينَ هو جهنَّم

الهمزةُ في قوله: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ للاستفهام القاصد إلى التقريرِ، والمعنى: ألا يستحقُّ هؤلاءِ أنْ يكونَ لهم مكانٌ في جهنَّمَ؛ جزاءَ افترائهم على اللّه، وتكذيبِهم بالوحيِ النّازل إلى رسولِه؟! يقول ابن عاشور: "وهَذا تَقْريرٌ لِمَنْ يَسْمَعُ هَذا الكَلامَ، جُعِلَ كَوْنُ جَهَنَّمَ مَثْواهُمْ أمْرًا مُسَلَّمًا مَعْروفًا بِحَيْثُ يُقِرُّ بِهِ كُلُّ مَنْ يُسْألُ عَنْهُ، كِنايَةً عَنْ تَحَقُّقِ المَغَبَّةِ عَلَى طَريقَةِ إيماءِ الكِنايَةِ"[2].

ويمكنُ أنْ يكون الغرضُ من الاستفهام هو الإنكارَ على المشركينَ الذين افتروا وكذّبوا، ومعناه: ألم يَعرفوا أنّ في جهنّم مثوًى للكافرين، حتّى اجترؤوا مثلَ هذه الجُرأة؟[3]، ونزّلهم منزلة العالِمينَ به لوضوحِه وظهورِه[4].

وأوثر التعبير عن ذلك بأسلوب الاستفهام لما يمتاز به من تنبيهِ المتلقي وإقناعِه بأنّ في النّار متسعًا لأمثال هؤلاء، وأنَّهم أحقّ وأوْلى بأنْ يكون لهم مكانٌ فيها لكفرهم، كما يتحقّقُ التناسبُ بين الاستفهاماتِ المتعدّدة المتوالية؛ إذ استفهمَ عن إيمانهم بالباطل وكفرِهم بالنِّعمة، واستفهمَ عن الأشدِّ ظُلمًا ليستفهمَ عن المصير، وفي هذه الاستفهامات دليلٌ على سوء اختيارهم، فهو يسأل وهم يُجيبون مُعترفين ومُقرّين، ومن أقرَّ بالمقدِّمات فلا بدَّ أنْ يُقرَّ بالنّتيجة والعذاب.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 35.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 36.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 465.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 15.

معنى الظّرفيّة في: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوَى﴾:

المفترونَ على الله يكونونَ في أشدّ دركاتِ النّار عذابًا

والتعبيرُ بحرفِ الجرِّ المفيدِ للظرفيَّة في قوله: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوَى﴾ يدلُّ على أن جهنم ستحيطُ بهم إحاطةَ الظّرف بالمظروف، ما يعني أنّهم سيتمكّنون منها وتتمكّنُ منهم، وأنّهم سيكونونَ في قَعْرِها، أوْ في القلب منها، وفي أشدّ دركاتِها عذابًا، لأنّهم ارتكبوا أشدَّ أنواعِ الظُّلم وأفظَعَها، كما نلحظُ في الظرفيَّة أسلوبَ التجريد؛ إذ من المعلوم أنَّ جهنّمَ مكانُ إقامتهم، لكنّه جرَّد من جهنَّم مكانًا يقيمونَ فيه، لتكون جهنَّمُ أثبتَ لهم وأدْوَمَ، وذلك التجريدُ يناسبُ كونهم أظلمَ من غيرهم، فاستدعى أنَّ لهم في جهنم مكانًا يقيمون فيه دونَ جهنم نفسِها، ولذا لم يقل: (أليستْ جهنّمُ مثوى للكافرين).

نكتةُ تقديم شبه الجملة:

الـجـزاء من جنس العمل

قَدّم النَّظمُ الكريمُ شبهَ الجملة الواقعةِ خبرًا مقدَّمًا والواردة في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوَى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ على اسم (لَيۡسَ) للتعجيلِ بما يَسوؤهم، وتقديمِ ما يُفزعهم ويَحْزُنُهم؛ لأنهم أساؤوا إلى الله، وأساؤوا إلى رسوله الكريم ﷺ، كما أفادَ التقديمُ القَصْرَ والتخصيصَ، فليس لهم مثوىً إلا في جهنَّمَ وعذابِها.

دلالةُ التعبير بـ﴿جَهَنَّمَ﴾:

بُعْدُ قاعِ جهنّم وكراهةُ الاستقبال فيها يُناسب أفعالَ المفترين الخبيثة

أوثر التعبير بـ: ﴿جَهَنَّمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوَى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ دونَ غيره من أسماءِ النار؛ لما يدلُّ عليه من بُعْد القاع، وكراهةِ الاستقبال[1]، المُناسبَيْن لأفعالهم الخبيثةِ من الافتراء على الله، وتكذيبِ الوحي النّازل على رسوله ﷺ، وجحودِ نِعَمِه، يقول البقاعي: "فلمعنًى مَّا يختصُّ بالحكم، يُسمّي الله تعالى النارَ باسمٍ من أسمائها"[2].

(1) ابن منظور: لسان العرب: (جهنم)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 256.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 1/ 385.

نكتةُ التنكير:

جاءَ النَّظمُ الكريم باسم (ليس) نكرةً في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى﴾ للتهويل والتفخيم والإبهام، والإشارة إلى أنّ العبارة لا تُحيطُ بحقيقةِ مكان المفترين المكذّبين في النّار، ولا تتسعُ لوصفِه ولا لوصفِ ما يحدُثُ لَمَن يُقذفُ فيه منهم، وأنَّ هذا المكانَ لا يعلمُ حقيقته إلا اللّهُ الّذي افترَوْا عليه سبحانه، وكذّبوا رسولَه ﷺ، كما دلّتْ صيغةُ اسم المكان على أنَّ جهنّم فيها المكانُ الّذي يثوونَ فيه ويقيمونَ به، والثواءُ في المكان الإقامةُ الدائميّةُ والأبديّة.

مكانُ المفترينَ في جهنَّم لا تفي بوصفه العباراتُ

معنى اللّام الجارّة:

(اللّامُ) في قوله: ﴿مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ حرفُ جرّ يفيدُ تخصيص مكانٍ للمفترينَ على اللّه المكذّبين لرسوله في قاع جهنّم، لا يدخله ناسٌ غيرهم، ولا يُعذّب فيه أحدٌ سِواهم، وفيه من الترهيب والتخويف ما يكفي لرَدْعِهم عن الافتراء والتكذيب.

مكانُ المفترين في جهنّمَ لا يُعذّبُ فيه أحدٌ سِواهم

معنى (أل) في ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾:

(أل) في: (الكافِرينَ) من قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ موصولةٌ، يُمكنُ أنْ يكونَ المراد بها العَهْدَ، والمعنى: لِهَؤُلاءِ الكافِرينَ، الَّذينَ ذُكِروا مِنْ قَبْلُ بِأنَّهُمُ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وكَذَّبوا بِالحَقِّ الذي جاءَ به الرّسول[1]، ويمكن أنْ تكون للجنس والعموم، والمراد جنسُ الكافرين عمومًا مَنْ شهِد الوحي وغيرهم، ويدخلُ فيه المفترون المكذِّبون الجاحدون نِعَمَ اللّه دُخولًا أوليًّا[2].

دلالة التعبير بالموصولِ وصلته:

كان مقتضى الظّاهر أنْ يُقالَ: (أليس في جهنم مثوى لهم) بدلًا من ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لكنَّ النَّظمَ الكريمَ عدلَ إلى

المُفترونَ يجمعونَ القبائحَ الموجبةَ تخصيصَ مكانٍ لهم في جهنّم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 36.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 15.

التعبير بالاسم الظّاهر، لإضافة وصفِ الكفر إلى وصفِ الظُّلم الَّذي سبق نعتُهم به، فجمعَ لهم بين القبائح الموجِبة تخصيصَ مثوىً لهم في جهنم، يذوقونُ فيه أشدَّ ألوانِ العذاب الحسيِّ والنفسيِّ، بسبب افترائهم على اللّه وتكذيبِهم بالوحي النّازل إلى رسوله، وكفرِهم وجحودِهم نِعَمَ اللّه عليهم، كما دلَّت صلةُ (أل) على علّة تخصيص مثوىً لهم في جهنم؛ لأنَّ تعليق الحُكم بالمشتقّ يُؤذنُ بعليَّتِه له، فقد كان كفرُهم سبباً في حصولِ ذلك المَثوى والعذابِ الدائم.

توجيه المتشابه اللَّفظي:

الاستـمـرارُ على الافتراء وتكذيبِ الـرُّسُـل حتى المماتِ ظلمٌ وكِبْرٌ يوردانِ جهنّم

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالاستفهامِ القاصد إلى التقريرِ بوجودِ مثوىً في النّار للكافرين والمتكبّرين هنا، وفي سورة الزمر في قوله تعالى: ﴿۞فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [الزمر: 32]، وقوله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزمر: 60]، ووجه الاختلاف هو تسميةُ الكاذبينَ على اللّه بالمتكبّرين في الموضع الثاني من سورة الزمر، وما ذلك إلّا لأنَّهم جمعوا بين الظُّلم في الكذبِ على اللّه، والتكبُّر على آيات اللّه باستمرارِهم على ذلك حتى ماتوا عليه وبُعثوا؛ بخلاف الموضع الأوَّل من سورة الزمر وموضع العنكبوت؛ فإنّ فيهما تحذيرًا من الاستمرار في الكذبِ على اللّه، وتوبيخًا على الإقدام عليه؛ تنفيرًا للمتلقّي وحَثًّا له على الإقلاع والتوبة قبلَ لقاءِ اللّه سبحانه وتعالى.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الافتراء والكذب والإفك والبُهتان:

الكذب: اسمٌ موضوعٌ للخبر الَّذي لا مُخْبِر له على ما هو به، سواءٌ كان على سبيل التعمُّد أم لا، فهو أعمُّ من الافتراء، وسواءٌ كان قبيحًا أم لا، فهو أعمُّ من الإفك، وسواءٌ كان الكذبُ ظُلمًا أم لا، فهو أعمُّ من البهتان.

والافتراءُ: نقلُ الكذب والتحدُّث به بين النّاس، على سبيل التعمّد.

والإفك هو: الكذبُ الفاحشُ القُبْحِ، مثل: الكذبِ على اللّه ورسوله، أوْ على القرآن، ومثل: قذفِ المُحصَنة.

أما البُهْتان فهوَ: الكذب الفظيعُ المتبالغُ في القبح مع كونِه ظُلمًا للمَكذوب عليه، وهو الافتراءُ الباطل الذي يُتَحَيَّر من بطلانه، فهو الادِّعاءُ الذي يُسبِّب ذلك الأثر، لزيادة الفُحش فيه، مع كونه باطلًا لخلوِّه من الحقيقة(1).

الكذب الخبرُ الذي لا أساسَ له، والافتراء نقلُه والتحدُّث به، والإفك الفاحشُ منه، والبهتانُ الفظيعُ المتبالغُ في القُبح منه

المثوى والمأوى والملَجأ:

المَثوى: مكانُ الإقامةِ المُنبئةِ عن المَكث والاستقرار، يقال: ثوَى يَثْوي ثَواءً.

والمأوى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْوَى إِلَيْهِ لَيْلًا أَوْ نَهارًا مؤقّتًا، ويطلق على ضمِّ الأشياء بعضها إلى بعض.

أما الملجأ فهو: المَكانُ يُلْتَجَأُ إِلَيْهِ؛ يُقالُ: لَجَأتَ والتَجَأتَ، يعني: أنَّه المكانُ الّذي يأوي إليه الإنسانُ عند الفزع.

المثوى مكانُ إقامةٍ دائمة، والمأوى اسمٌ لما يُؤوى إليه، والمَلجأ عند الفزع

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 450، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بهت).

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: 69]

التنويهُ بالمؤمنينَ ومدحُهم بعدَ فضحِ الكافرينَ وذمِّهم

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ تحدَّثتِ الآياتُ السّابقةُ عن قبائحِ المُشركينَ ونقائصِهم الموجبةِ دخولَهم جهنّمَ وتُمَكُّنَهُم منها، تأتي هذه الآيةُ للتنويه بالْمُؤْمِنينَ المجاهدين، إظْهارًا لِمَزيدِ العِنايَةِ بِهِمْ، وغَيْظًا لأعدائِهم وتحقيرًا[1]، وجريًا على عادةِ القرآن في إتْباعِ الحديث عن الكافرينَ بمدحِ المؤمنين، ليحصُلَ بذلك نوعٌ من التقابلِ الكاشفِ عن مَزايا المُجاهدين وجزائهم وجرائمِ الكافرينَ ومصيرِهم؛ فيُقبل المتلقّي ذو الفِطرة النَّقيَّة والنّفسِ السَّويَّة على الحَسَن الممدوح، وينصرفُ عن القبيحِ المذموم، إذ "لَمّا فرَغَ مِنَ التَّقريرِ والتَّقْريع ولَمْ يُؤْمِنِ الكُفّارُ، سَلَّى قُلوبَ المُؤْمنينَ بِقَوْلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰهَدُواْ﴾: (جهد) أَصْلُهُ المَشَقَّةُ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ ما يُقارِبُهُ، يُقالُ: جَهَدْتُ نَفْسي وأَجْهَدْتُ، والجُهْدُ: الطّاقَةُ، ومنه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [التوبة: 79][3]، والجِهادُ والمجاهدةُ: استفراغُ الوُسْعِ في مدافعةِ العدوِّ، والجِهادُ ثلاثة أَضْرُبٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهر، ومجاهدةُ الشَّيطان، ومجاهدةُ النَّفس، والمعنى في الآية: أفرَغوا وُسْعَهم في إرضائِنا.

2) ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾: (هدي) أَصْلانِ، أَحَدُهُما: التَّقَدُّمُ لِلْإِرْشادِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 36.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 77.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جهد).

والآخَرُ: بَعْثَةُ لُطْفٍ، فالأوَّلُ قَوْلُهُمْ: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدايَةً، أيْ: تَقَدَّمْتُهُ لأُرْشِدَهُ، وكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هادٍ، والهُدَى: خِلافُ الضَّلالَةِ[1]، والهداية نَصْبُ الدَّلائل الفارقةِ بين الحقّ والباطل، والصَّلاح والفساد، وهي: بيانُ ما ينتفعُ به الناس، ويحتاجونَ إليه، وهو العلمُ النّافع والعمَلُ الصّالح، وتنقسمُ الهداية إلى ثلاثة أقسام؛ الهداية العامّةُ، وهدايةُ الإرشادِ والدّعوةِ والبيان، وهدايةُ التوفيق والإلهام[2]، والمعنى هنا: لَنَدُلّنّهُم ولنوصلَنَّهم إلى طريق الحق بلطفٍ وعنايةٍ.

3) ﴿سُبُلَنَاۚ﴾: (سبل) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى إِرْسالِ شَيْءٍ مِنْ عُلْوٍ إلَى سُفْلٍ، وعَلَى امْتِدادِ شَيْءٍ[3]، والسَّبيلُ: الطّريق الذي فيه سهولة، وجَمْعُه سُبُلٌ، قال تعالى: ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزخرف: 37] يعني به: طريقَ الحقّ، وقد يُستعملُ السّبيلُ لكلِّ طريقٍ يوصِل إلى خير أوْ لا، ومعنى السَّبيل في الآية: الطّريقُ المُستقيم؛ لأنَّه المنسوبُ إلى اللّٰه تعالى.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إرشادُ المجاهدينَ المُحسنينَ وتوفيقُهم سنّةُ اللّٰه التي لا تتبدّل ولا تتغيّر

تأتي هذه الآيةُ في ختام (سورة العنكبوت) لتوضّحَ أنَّ الّذين بذلوا جُهْدَهم في سبيل إعلاءِ دين اللّٰه، وقدّموا أنفسَهم وأموالَهم في سبيل إرضائه وطاعته، وأخلصوا له العبادة والطّاعة، لن يتخلَّى اللّٰهُ تعالى عنهم، وسيُرشدهم إلى الطَّريق المستقيم، الشاملِ لكلّ سُبُل الخيرات، وسيجعلُ لهم العاقبةَ الطيّبة، إذِ اقْتضتْ رحمتُه وحكمتُه أنْ يكون مع المُحسنينَ إلى أنفسهم وإلى خَلْق اللّٰه في أقوالهم وفي أفعالهم، وتلك سُنّتُه سبحانه التي لا تتخلّفُ ولا تتبدّلُ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدى).

(2) اللالكائي، شرح أصول الاعتقاد: 3/ 725، والراغب، مفردات القرآن: (هدى)، والجرجاني، التعريفات ص: 256، والسفاريني، لوامع الأنوار: 1/ 335.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 11/ 58.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في صدر الآية:

(الواو) في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ استئنافيّةٌ، جيءَ بها لتنبيهِ المتلقّين إلى جزاء المؤمنينَ المجاهدين، الّذين يؤمنونَ بالله، ويُصدّقونَ الوحيَ النّازلَ إلى رسوله ﷺ، ويجاهدونَ أنفسَهم في الله، ولا يتّبعونَ أهواءهم، ويُفضّلون الدّارَ الآخرةَ على الحياةِ الفانيةِ الزّائلة.

غرضُ التّعبيرِ بالموصولِ وصِلَتِه:

تشريفُ المُتَحَدَّثِ عنهم والتوصُّلُ إلى الإخبار بجهادِهم

عبّر النَّظمُ الكريمُ عن المصدّقينَ برسالة الإسلام بالاسم الموصول: (الَّذينَ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ الموحي بالتعظيم والتفخيم؛ للإشارةِ إلى بُعْد منزلتِهم وارتفاعِ شأنِهم عندَ الله جلَّ في عُلاه، وليتوصّل بما في حيّزه من مضمونِ جملةِ الصِّلة أنّهم جاهدوا جهادًا عظيمًا، وفضّلوا الدارَ الآخرة على الحياة الفانية، وقدّموا تضحياتٍ كبيرةً، ممّا ترتّب عليها أنْ يهديَهم اللّهُ تعالى السُّبُلَ الموَصّلةَ إليه، وأنْ يمنَحَهم شرفَ معيّتِه ورعايتِه، فعلةُ الهدايةِ إلى سبيل الحقِّ أنَّهم جاهدوا أنفسَهم ومنعوها من المحرَّمات في سبيل الله.

دلالةُ الموصولِ على الشّرطيّة:

بـذلُ الـوُسعِ في المجاهدةِ يُقابلُهُ الـتـزامٌ مشروطٌ من الربِّ الوهّاب

يمكنُ أنْ يتضمّنَ الاسمُ الموصول المبتدأ: (الَّذينَ) معنى الشّرط، ويكون خبرُه مُنَزَّلا منزلةَ الجواب، والتقديرُ: (مَنْ جاهدوا في سبيلنا لنهدينّهم)، ومن ثَمّ تكونُ جملةُ: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ واقعةً في محلّ جزم جوابًا للشّرط المُقَدّر، ويمكن أن تكونَ في محلِّ جزم جوابًا لقَسَمٍ محذوف، والقَسَمُ وجوابُه في محلِّ رفعٍ خبرُ المبتدأ[1].

دلالةُ التّعبير بصيغة المفاعلة الماضية:

عبَّر النَّظمُ الكريم في جملة الصِّلة بالفعل: ﴿جَٰهَدُواْ﴾ في قوله

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 531.

المجاهدةُ عملٌ شاقٌّ نجحَ فيه المجاهدونَ وحقَّقوا المجاهدة

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾؛ لأنّه يدلُّ بمعناه على أنَّهم استفرغوا مافي وُسْعِهم وطاقتهم، ولم يُقصّروا في هذا الأمرِ أوْ يتراخَوا، وإنَّما كانوا مُنتبهينَ حريصينَ على تفضيلِ كلِّ ما يتّصلُ بالدار الآخرة، عازفينَ عن كلِّ ما يتصلُ بالدنيا من لهوٍ ولعِب، ولأنه يدلُّ ببنائه الّذي يتوسَّطُه حرفُ المدّ على بُلوغِهم في المجاهدة آمادًا لا حدودَ لها.

وأوثر التعبيرُ في: ﴿جَٰهَدُواْ﴾ بصيغةِ المُفاعلة؛ لدلالتها على أنَّهم واجهوا في سبيل ذلك عَنَتًا ومشقّةً ومُدافعةً من النّفس والشّيطان والأعداء، وأنّ مُجاهدتَهم لم تكنْ سهلةً يسيرةً، وأوثر التعبيرُ بالفعلِ الماضي لدلالتِه على أنَّهم انتصروا في هذه المعارك بفضلِ هدايةِ اللّه تعالى وتوفيقِه، لِما رآه من صدقِهم في المجاهدة، وحرصِهم على مواصلتِها، والاستمرارِ فيها، وفي إسنادِ المُجاهدة إلى ضميرِ الجمع إشارةٌ إلى أنَّها مجاهدةٌ متنوّعةُ السُّبل من جهادٍ للنّفس وصبرٍ عن المحرَّمات ومقاومةٍ للملذّات، وأنَّها اتَّخذتْ أشكالًا متعدّدةً، وتفرَّعت إلى صور متنوّعة كلٌّ حسبَ حالِه واستعدادِه وقابليّته.

نكتةُ حذفِ المفعول:

ميدانُ المُجاهدة واسعٌ متنوّعٌ

أطلقَ النظمُ الكريمُ فِعلَ المُجاهدة ولم يُقَيّدْه بمفعولٍ، ليتناولَ معناه كلَّ ما يجبُ مجاهدتُهُ من النَّفس الأمّارة بالسّوء والشَّيطان وأعداءِ الدّين[1]، وغير ذلك.

فائدةُ التعديةِ بحرف الظرفيّة:

حقيقةُ المُجاهدة ومُستقَرُّها يجبُ أن تكونَ لله تعالى وفي ذاتِهِ

قولُه: ﴿فِينَا﴾ معناه: في حَقِّنا ومن أجلِنا ولوَجهِنا، وفي تعديةِ فعل الجهادِ إلى ضميرِ الحقِّ المعظِّم نفسَه بواسطةِ حرف الجرِّ المفيدِ للظرفيَّة؛ دلالةٌ على أنّ حَقيقة مكانِ المجاهَدة ومستقَرِّها أن تكونَ في اللّه وفي ذاتِه، لا يتجَزّأُ منها شيءٌ إلى مكانٍ آخر[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 465.

(2) الطِّيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 12/ 205.

علَّةُ التعبير بالهداية:

الله تعالى يَهدي المُجاهدين إلى أعمالِ الخير التي تستوجبُ رضاه وجنَّته

التعبيرُ بالفعل ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ هدايةَ اللّه تعالى لعبادِه المجاهدين تكونُ بالإرْشادِ والتَّوْفيق بالتَّيْسيرِ القَلْبيِّ والإرْشادِ الشَّرْعيِّ[1]، ما يعني: أنَّ اللّه تعالى سيَزيدُهم هُدىً وتوفيقًا إلى أعمال الخير، التي تستوجبُ لهم رِضاهُ وجنّتَه.

دلالةُ تتابعِ المؤكِّدات:

هدايةُ الله للمُجاهدينَ أمرٌ مؤكَّدُ الحصول

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ الواقعةَ جوابًا للشّرط المقدَّر باللّام الواقعة في جواب القسم والنّون المؤكّدة المشدّدة، للمبالغةِ في تأكيد حصولِ هداية اللّه تعالى وتوفيقِه للمجاهدين، جزاءَ صدقِهم في مجاهدة الدنيا بلهوِها ولعبِها، ولقاءَ إخلاصهم فيها، ومُداومتهم عليها، على الرغم ممّا يكتَنِفُها من مشقَّة ومُدافعة.

دلالةُ التّعبير بالفعل المضارع:

هدايةُ الله للمجاهدين متجدّدةٌ غيرُ منقطعةٍ

أوثر التعبيرُ بالمضارع: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، للدّلالة على تجدُّد الهداية، واستمرارِ حصولها كلَّما دعتْ حاجةُ المجاهدينَ إليها، ما يعني أنَّها لن تنقطعَ عنهم طالَما بقَوا على مجاهدتهم، وواصلوا القيامَ بها.

نكتةُ إسنادِ الهداية إلى ضميرِ العظمة:

ما أعظَمَ أنْ يتولَّى الله هدايةَ المُجاهدين!

في إسنادِ فعلِ الهداية إلى ضميرِ الحقِّ بصيغة العظَمة تفخيمٌ للهداية وتعظيمٌ لشأنِها؛ لما يوحي به هذا الإسناد منْ أنّ اللّه تعالى هو الَّذي يتولّى هدايتهم وتوفيقَهم إلى سُبُلِه بنفسِه، وما أعظمَ الفعل الذي يتولّاه المولى سبحانه وتعالى!.

فائدة الجمع والإضافة:

السُّبُلُ المؤدّيةُ إلى رضوان الله كثيرةٌ ومتنوعةٌ

يُعرَب: ﴿سُبُلَنَاۚ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ مفعولًا به ثانيًا لفعل الهداية، وسُبُلُ اللَّهِ تعني: الأعْمالَ الموصِلَةَ إلَى رِضاهُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 37.

وثَوابِه، شُبِّهَتْ بالطُّرُقِ المؤدّية إلَى مَنْزِلِ الكَريمِ المُكْرِم للضّيف[1]، ففيها استعارةٌ تصريحيّةٌ أصليّةٌ؛ بجامعِ الوصول إلى الكريمِ وكرَمِه، وفي جعلِ الأعمالِ الصّالحةِ طرُقًا توصلُ إلى الكريم؛ تهييجٌ للنُّفوس الرّاغبة بالوصول إليه بالإقبالِ على الأعمال الصّالحة وإنْ كان فيها نوعُ كُلفةٍ ومشقَّة، وجُمِعتْ للدّلالة على كثرتِها وتنوُّعِها، وللإشارة إلى أنَّ اللّه تعالى سيهديهم إليها كلِّها، ولن يفوتَهم واحدٌ منها، وفي إضافتها إلى ضميرِ العظمة تفخيمٌ للسُّبُل وتعظيمٌ لها، وتخصيصٌ لتلك السُّبل بأنَّها سُبُل خيرٍ؛ لأنها صدرتْ من منبع الفضل والإحسانِ والكرم، وفيها دلالةٌ على أنها ستوصلُهم إلى اللّه تعالى من غير شكٍّ أوْ تخبُّط أو تعب؛ لأنّها سبلٌ مستقيمةٌ وواضحةٌ، كما أفادَ الجمع عظمةَ الكرم الإلهيّ؛ إذ المؤمنون به جاهدوا في سبيله على سبيل الإفراد، فكانتِ النتيجةُ أنْ هداهم إلى كلِّ السُّبُل الطيِّبة والأعمالِ النّافعةِ الموصلةِ إليه.

الجمعُ بين التعبير هنا وفي سورةِ إبراهيم:

في سورةِ إبراهيمَ يقولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: 12]، وفي سورةِ العنكبوت يقولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، والمتحدَّث عنهم في الموضعِ الأول هم: الرُّسُلُ المتوكِّلون الّذين هداهم اللّه السُّبُلَ، والمتحدَّثُ عنهم في الموضع الثاني: المجاهدونَ الّذين وعدَهم اللّه بهدايتِهم السُّبُلَ، وممّا يلحظُ إضافةُ (السُّبُل) في الموضع الأول إلى ضميرِ المتكلِّمين، ﴿هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: 12]، بينما أُضيفت في الموضع الثاني إلى ضمير الحقِّ بصيغة التعظيم: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، والمقصودُ بكليهما: السُّبُل الموصلةُ إلى طاعةِ اللّه تعالى، ولا خلافَ بينهما في الموضعين، لما هو معلوم مِنْ أنَّ الرسلَ هم المبعوثونَ من اللّه تعالى لإرشادِ خلقِه إلى سُبُله، وهدايتهم إليها، فلا غضاضةَ في إضافةِ السُّبُل إليهم باعتبارهم مساعدينَ للناس على الهداية إليها، وفي هذا الفرقِ بين الإضافتينِ يظهرُ لنا أنَّ سُبُل الأنبياء هي سبلُ اللّه تعالى الموصلةُ إليه، وأنَّ السُّبل قد وصلت للأنبياء حتّى أسندوها لأنفسهم، بخلاف المجاهدينَ المتابعينَ للأنبياء فإنَّهم موعودونَ بنيلِ تلك السُّبُل، ووعدُه تعالى لا يتخلّفُ، فيكون ذلك إقرارًا لهم بأنَّهم ماضونَ في طريق الأنبياءِ تابعونَ لهم مُصدّقون بدعوتهم الحقَّة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 37.

نكتةُ الوصل في ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

اللـه يتفضّل على المجاهدينَ بالتوفيق، ويُشرّفهم بالرِّعاية والعِناية

(الواو) في جملة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يمكنُ أنْ تكونَ لعطفِ ما بعدَها على جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾، وفيها دلالةٌ على أنَّ اللّه تعالى يتفضّلُ على عبادِه المجاهدينَ بالهداية والتوفيق إلى ما يُحقِّقُ رِضاه عنهم، ويَستوجِبُ لهم جنَّتَه، كما أنَّه يُشرّفهم بعونِه ورعايته، والجامعُ بينَ المُتعاطِفَيْنِ عقليٌّ، يفيدُ الاحتراسَ عن كونِ الهداية إلى السبّل الموصلةِ مع تركِ المهديِّ وحدَه وسطَ الطَّريق، بل يدلُّهم على الطَّريق ويكون معهم في ذلك المَسير توفيقًا وعنايةً، حتى يتحقّقَ لهم الوصولُ إلى دوحةِ الكرم والإحسانِ الإلهيِّ الَّذي لا حدود له، ويمكنُ أنْ تكونَ حاليّةً دالّةً على أنَّ سنّةَ اللّه تعالى لا تتغيّرُ ولا تتبدّلُ، وهي أنَّه يتولَّى المحسنينَ بعونِه ورعايتِه.

غرضُ تزاحم المؤكّدات:

حَريٌّ بالمجاهدين أن يكونوا أهلًا لمعونة اللـه ورعايته

جاءَ قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مؤكَّدًا بـ(إنّ) واللّام والجملةِ الاسميَّة؛ للمبالغةِ في تأكيدِ معيَّةِ اللّه تعالى ورعايتِهِ لعبادِه المُحسنين، الَّذين يُجاهدونَ في سبيله بكلِّ ألوانِ المجاهدةِ وصُنوفها، ويتحمَلونَ من أجل ذلك العنتَ والمشقّة والمدافعةَ، فحَريٌّ بهم أنْ يكونوا أهلًا لمعيَّته ورعايته، يقول الطّيبيُّ: "ثُمَّ إنَّ جملةَ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تذييلٌ للآية مُؤكَّد بكلمتَي التوكيد، مُحَلًّى باسم الذات؛ ليُؤْذِنَ بأنَّ مَن جاهد بكلّيَّتِه في ذاته ﷻ تجلَّى له الربُّ عزَّ اسمُه الجامعُ في صفة النُّصرة والإعانة تجلّيًا تامًّا"(1)، وفي ذكرِ اسم الجلالة الأعظمِ الجامعِ لكلّ صفاتِ الكمالِ والجلال إشارةٌ إلى أنَّ المعيَّة للمحسنينَ المجاهدين محقّقةٌ لكمالِ الإعانة والرّعاية؛ لأنَّها من الذات الجليلة التي لا يُعجِزُها شيءٌ.

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 12/ 206.

معنى اللّام في ﴿لَمَعَ﴾:

إثارةُ المتلقّين للسَّير في طريقِ المُجاهدين

(اللام) في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هي المُزحَلَقة، التي تفيدُ توكيدَ المعيَّةِ المُسندةِ إلى اللّه تعالى، وتحقُّق حُصولها من غير شكٍّ أوِ ادِّعاءٍ، ما مِن شأنِه أنْ يدفعَ المتلقّي للسَّير في طريق المجاهدين؛ ليظفرَ بمعيّةِ ربِّ العالمين له أثناءَ السَّير في سُبُله، فينصرفُ عن اللَّهو واللّعِب وغيرهما من أعمالِ الحياة الدنيا، إلى ما تتطلّبُه الدارُ الآخرةُ من أعمالٍ موصلةٍ إلى رضا اللّه تعالى وثوابِه.

عِلَّةُ التّعبير بالمعيّة في ﴿لَمَعَ﴾:

معيَّةُ الله الخاصّة تقتضي النَّصر، والتأييدَ، وكمالَ الثبات

آثرَ البيانُ الكريمُ التعبيرَ بمعيَّة اللّه لهؤلاء المجاهدينَ، وهي معيّةٌ خاصّة، وهي من الصِّفات الفعليَّة للّه تعالى؛ لأنَّ مُقتضياتها تابعةٌ لأسبابها، توجَدُ بوجودها، وتنتفي بانتفائها، التي تقتضي النَّصرَ، والتأييدَ لَمن أُضيفتْ له، وهي مختصّةٌ بمَن يَستحِقُّ ذلك من الرُّسُل وأتباعِهم، وهذه المعيَّةُ توجِبُ لَمن آمنَ بها كمالَ الثّبات[1]؛ عنايةً من الربِّ الكريمِ بالمجاهدينَ ورعايتِهم ونُصرتهم على أنفُسِهم وعلى الشياطين وعلى أعدائِهم، ذلك أنَّ المجاهد يفتقرُ إلى ناصرٍ ومُعين[2]، ليستمرَّ في مجاهدته، وينجحَ في التغلُّب على مَن يُدافعُه، ويَسلكُ السُّبُلَ الموصلةَ إلى رضا اللّه تعالى وجنّته، ونلحظُ أنَّ المعيّةَ المكانيّة أثناءَ السَّير إلى اللّه تعالى تُعطي أمانًا للسّائر، ولا تجعلُه يشعرُ بالوحدانيَّة والعُزلة، كما دلّتِ المعيّةُ على مُرافقة اللّه لهم برعايتِه وعنايتِه ونُصرتِه وأمْنِه، فكأنَّهم يسيرونَ مُتقدّمين وهو يَحفظُهُم ويرعاهم مِن حولهم ومن خلفهم، فلا يمسُّهُم السّوء.

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 5/ 193، والذهبي، العرش: 2/ 175.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 12/ 206.

معنى التعريف في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

المجاهدونَ يَدخلونَ في المحسنينَ دُخولًا أوّليًّا

(أل) في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يَحتملُ أنْ تكونَ للعهد، ويكونُ المراد بهم: الّذين جاهدوا، ويَحتملُ أنْ تكون للجنس، ويُراد بهم: كلُّ مَن أتى بالأفعالِ الحسنة، ويدخلُ فيهم المجاهدونَ دُخولا أوَّليًّا برهانيًّا[1]، يقول ابن عاشور: "والمراد بـ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: جَميعُ مَنْ كانوا مُحْسِنِينَ، أيْ: كانَ عَمَلُ الحَسَناتِ شِعارَهُمْ، وهوَ عامٌّ، وفيهِ تَنْويهُ بِالمُؤْمِنينَ بِأنَّهُمْ في عِدادِ مَنْ مَضَى مِنَ الأنْبياءِ والصّالِحينَ"[2].

فائدةُ وصفِ المجاهدينَ بالإحسان:

المجاهدونَ ارتقَوا إلى أعلى مراتبِ الدّين وأشرفِها

كان مُقتضى الظّاهر أن يُعاد التعبيرُ بالاسم، فيقال: (وإنَّ اللّه لمَعَ المجاهدين)، أو يُعبَّر بالضّمير فيقال: (وإنّ اللّه لَمَعَهُم)، لكنَّ النَّظم الكريم عبر بـ: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم صاروا منهم، وارتقَوا إلى مَرتبتِهم، وأُضيفتْ إلى أوصافِهم صفةُ الإحسان، وكأنَّ هؤلاء المجاهدين قد نالوا الإحسانَ بكلِّ أوصافِه.

دلالةُ التّعبيرِ باسم الفاعل:

جهادُ المؤمنينَ كان في الله بحقٍّ وصِدقٍ

في التعبير بالاسم المشتقِّ من الثلاثيِّ المزيدِ بحرفٍ (أحسنَ)؛ دلالةٌ على أنَّهم ارتقَوا في مرتبةِ الإحسان ذاتِها، ووصلوا فيها الذّروة والقمَّة، حتى إنَّ إحْسانَهم قد تجاوزَهم إلى غيرهم، وأنَّ جهادهم على اختلافِ أنواعه كان مقصودًا به وجهُ اللّه، وكان في اللّه بحقٍّ وصدقٍ، كما وصفَهم ربهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السّبيل والصّراط والطّريق:

السَّبيلُ أعمُّ، والصِّراطُ الطّريقُ السّهلُ الواسعُ، والطَّريقُ ما فيه صعوبةٌ

(السَّبيلُ) اسْمٌ يَقعُ على ما يَقع عَلَيْهِ الطَّريق، وعَلى ما لا يَقع

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 15.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 37.

عَلَيْهِ الطَّريق، تَقول: سَبيلُ اللّه، وطَريقُ اللّه، وتقول: سبيلُك أنْ تفعل كَذا، ولا تَقول: طريقُك أنْ تفعل كَذا، ويُراد بِهِ سَبيلُ ما يَقْصِدهُ فيضافُ إِلَى القاصد، ويُراد بِهِ: القَصْد، وهوَ كالمحبَّة، و(الصِّراط) هوَ: الطَّريق السَّهل ....، وهو من الذُّلِّ خلاف الصُّعوبة، ولَيْسَ من الذلِّ خلافَ العِزّ، وهو أوسعُ من السَّبيل؛ لأنَّ السُّبُلَ تؤدّي إليه، أمّا (الطَّريق) فلا يَقْتَضي السُّهولة، وهو كالإرادةِ، بمعنى: ما عزمَ الإنسانُ على السَّيرِ فيهِ[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 298.

سُورَةُ الرُّومِ

سُورَةُ الرُّومِ

❁ التّعريف العامّ بالسّورة:

سـورة الـرّوم
كلُّها مكّيّةٌ

سورةُ الرّوم مكّيّةٌ عندَ جمهور العلماء[1]، لكنْ وردَتْ عندَ التّرمذيّ روايةٌ تُشعرُ بأنّ مطلع السّورةِ الكريمة نزلَ في بدر، فعن أبي سَعيدٍ، قالَ: لَمّا كانَ يَوْمُ بَدْرٍ ظَهَرَتِ الرّومُ عَلَى فارِسَ، فأَعْجَبَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنينَ فنَزَلَتْ: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ - إلَى قَوْلِهِ - ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ قالَ: "فَفَرِحَ الْمُؤْمِنونَ بِظُهورِ الرّوم عَلَى فارِسَ"، وقال التّرمذيّ: "هَذا حَديثٌ حَسَنٌ غَريبٌ مِنْ هَذا الوَجْهِ"[2]، والحقّ أنّه لم تثبتْ تلك الرّواياتُ التي ذكروها في أسبابِ النّزول[3].

والسّورةُ من أواخرِ ما نزلَ من القرآنِ المكّيّ، وقد اشتدَّ في هذه الظّروف أذى الكفّار وإزعاجُهم للمسلمين، ونَظْمُ الآيات والصّوَر التي تضمّنَتْها أقربُ إلى النّظمِ المكّيّ وصوَرِ العهدِ المكيّ منها إلى النّظم المدنيّ.

ترتيب النزول وترتيب المصحف وعد الآي:

هي السّورةُ الثّلاثونَ في ترتيبِ المُصحَف الشّريف، وهو التّرتيبُ الثّابتُ، والمُعوّلُ عليه عندَ أهلِ النّظر والتّحقيق، وجاءتْ بين سورتَي العنكبوتِ ولُقمان، وهي خَمْسونَ وتسعُ آيات في المدنيِّ الأخير والمكّيّ، وسِتّونَ آيَةً في عدد الباقينَ[4]، وأمّا ترتيبُها النّزوليّ فهي السّورَةُ الرّابِعَةُ والثَّمانونَ في تَعْدادِ نُزولِ السّوَرِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 327، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 1، والسّيوطي، الإتقان: 1/ 39.
(2) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ: باب: ومن سورة الرّوم، حديث رقم: (3192).
(3) الوادعي، الصحيح المسند في أسباب النّزول: ص: 160.
(4) الداني، البيان في عدِّ آي القرآن، ص: 205.

الاِنْشِقاق وقَبْلَ سورَةِ العَنْكَبوتِ[1]، رغم أنّها في ترتيب المُصحف الشّريفِ بعدَ العنكبوت.

أسماءُ السّورة الكريمةِ وسببُ التّسمية:

سورةُ الرّوم لمْ يثبتْ تسميتُها باسمٍ غيرِه في الأثر

لهذه السّورة اسمٌ واحدٌ مُشتهر لم تُسمَّ بغيره هو (الرّوم)، إذ سُمّيت بهذا الاسم؛ لتفرُّدها بذكر (الرّوم) في مطلعها: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، وهو الاسمُ الذي اشتهرتْ به هذه السّورة وكُتبت في المصاحف، وسُمّيت به في كتب التفسيرِ والحديث.

وسببُ تسميتها بـ(سورة الروم) افتتاحُها بخبرِ غلَبة الرّوم، والإخبارِ عن نصرهم بعدئذٍ في بضعِ سنين، وتلك إحدى مُعجزاتِ القرآن العظيم بالإخبار عن المغيَّبات في المستقبلِ ووقوعِ الشيءِ كما أخبرَ به، ولم تردْ هذه الكلمةُ في القرآن الكريم إلا في افتتاحِ هذه السّورةِ الكريمة.

وأمّا وجهُ ارتباطِ هذا الاسم بمِحور السّورة فيقول البقاعي: "مقصودُها إثباتُ الأمرِ كلّه، فتأتي الوحدانيّةُ والقدرةُ على كلِّ شيء، فيأتي البعثُ ونصرُ أوليائه، وخِذْلانُ أعدائه، وهذا هو المقصودُ بالذات، واسمُ السّورة واضحُ الدّلالة عليه بما كان من السَّبب في نَصْر الرّوم من الوعدِ الصّادق والسرّ المَكتوم"[2].

والحقُّ أنّه لا بدَّ من رابطٍ قويٍّ يربطُ بين اسم السّورة ومِحورها الذي تدورُ عليه، ولا يُكتفى بالتّعليل القائل إنّها سمّيت بسورة كذا لأنّها تحدّثتْ عن كذا، فقد تتحدَّثُ السّورة عن أمرٍ مّا وتنفردُ به ولا تُسمّى به، ويظهر هنا أنَّ ارتباطَ محور سورة الرّوم باسمِها ناشئٌ من كون حديثِها عن بشرى المؤمنين بانتصارِ الرّوم على الفُرس بعدَ بضعِ سنينَ من هزيمتهم أمامَهم، مثَّلَ النَّصرُ فرحةً للمؤمنين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 40 - 41.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 384.

الذين كانوا يرونَ الرّوم أهلَ كتاب، بينما كان الفرسُ على الشّرك، فأحسّوا باستبشارِ قُربِ نُصرةِ دينهم وتمكينِهم على أهل الكفر، ولمّا كان محورُ السّورة الكريمة يدورُ حولَ بيانِ الدّعائم والثّوابت والمقوّمات التي تنهضُ بها الحضارات الإنسانيّة، سواءً أكانت تلك المقوّماتُ والدّعائمُ حسّيّةً مادّيّة، أوْ معنويّة، وبيّنتْ أنّ النّهوضَ الحضاريَّ لا يقومُ إلّا بالصّلاح البشريّ، وأنّ الحضاراتِ لا تقومُ على القوّة المادّيّة فقط، بل لا بدّ من استقامةِ المبادئ والقيم الّتي تحفظ وجودَها، لمّا كان محورها كذلك كانت تسميتُها باسم الرّوم أدلَّ شيء على النّهوض الحضاريّ واضمحلالِه؛ بناءً على القيم المادّيّة والمعنويّة التي تحملُها ما يمكنُ أنْ يُطلقَ عليه حضارةً.

۞ بيانُ محور السورة العامِّ والموضوعاتِ التي تلتفُّ حولَه:

السّورةُ ربطتْ بينَ صلاحِ الإنسانيّة وصلاحِ الكون

مقصودُ هذه السّورة عند البقاعيّ هو: إثباتُ الأمرِ كلّه للّه، فتأتي الوحدانيّةُ والقدرةُ على كلِّ شيء، فيأتي البعثُ ونصرُ أوليائه، وخذلانُ أعدائه، وهذا هو المقصودُ بالذات[1].

ويرى الدكتور شحاته أنَّ مقصودَها الكشفُ عن الارتباطاتِ الوثيقة بين أحوالِ النّاس، وأحداثِ الحياة، وماضي البشريّة وحاضرِها ومُستقبلِها، وسننِ الوجود ونواميسِ الكون، فكلُّ نصرٍ وكلُّ هزيمةٍ مرتبطةٌ ومحكومةٌ بقانونٍ ثابتٍ لا يتغيّر[2].

وقد ظهر سابقًا أنّ المحورَ الذي قامت عليه سورة (العنكبوت) هو بيانُ أثرِ الاستقامةِ على دين اللّه تعالى في تحقيقِ الشّهود أوِ الاضمحلال الحضاريّ، من خلال استعراضِ مشاهدَ قصصيّةٍ من دعوات بعضِ الأنبياء الَّذين واجهوا أقوامَهم بهذه الدّعوة، فما لقوا منهم سِوى الجُحود والكُفران واستعجالِ العذاب، فأزالَ اللّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 1.

(2) شحاته، أهداف كلّ سورة ومقاصدها: ص: 291.

حضاراتِهم، ودمّر بنيانَهم، وتوعَّدهم بالعذاب الأليم، ولم يكن محورُ سورة الرّوم بعيدًا عمّا جاء في العنكبوت، بل مؤكّدًا له ومُضيفًا عليه.

وقد قامت سورة الرّوم على ما يأتي من المحاور:

أولًا: بيان الدّعائم والثّوابتِ والمقوّمات التي تنهضُ بها الحضاراتُ الإنسانيّة، سواءً أكانت تلك المقوّماتُ والدّعائمُ حسّيّةً مادّيّةً أم معنويّةً، وبيّنت أنّ النّهوض الحضاريّ لا يقومُ إلّا بالصّلاح البشريّ، وأنّ الحضاراتِ لا تقومُ على القوّة المادّيّة فقط، بل لا بدّ من استقامةِ المبادئ والقيَم التي تحفظُ وجودها: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [الروم: 30].

ثانيًا: تبيّن السورة سنّة الله في نصرةِ الحقّ على الباطل من خلال تذكيرِ الناس بما حصلَ وما يحصلُ بينَ حضارتَيْنِ عظيمتَيْن يَعرفونهما جيّدًا، هما الحضارةُ الرّومانيّة والحضارةُ الفارسيّة، وكيف استطاعت الحضارةُ الرّومانيّة أنْ تستعيدَ قوّتها، وتنهضَ من كَبوتها خلال بضعِ سنين وتنتصرَ على الفرس، ثمّ عقّبت السّورة على ذلك: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ [الروم: 6]، ثمّ ساقت الأدلّةَ الكونيّة والاجتماعيّة على تأكيد أنّ سنّة الله ماضيةٌ في ذلك لا تتغيّر ولا تتبدّل، ومنها: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ [الروم: 9 - 10].

ثالثًا: بيّنتِ السّورة الكريمة انقسامَ النّاس أمامَ هذه الدّعوةِ إلى مؤمنينَ وكافرين، وبيّنتْ جزاءَ كلّ فريق في أكثرَ من موضع: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾ [الروم: 15 - 16]، ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ٤٤ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٥﴾ [الروم: 44 - 45].

رابعًا: لفتت السورة انتباهَ الناس في أكثرَ من مرّة إلى ما ينتظرُ الكافرينَ في الآخرة من جزاء: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ

وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾ [الروم: 12 - 14]، ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥﴾ [الروم: 55].

خامسًا: ساقَت السورة خلالَ ذلك كلّه الآياتِ الأنفُسيّة والآفاقيّة على قدرةِ اللّه تعالى في هذا الكون، ودَعَتْهم إلى التفكّر فيها أكثرَ من مرّة، وعرَّضتِ السّورةُ أكثر من مرّة بالآلهة المزعومةِ والعقائد الفاسدة، التي يستند إليها أهلُ الكفر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨﴾ [الروم: 27 - 28]، ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم: 54].

سادسًا: بيّنتِ السّورةُ الكريمة طبيعةَ البشر وتقلّبَ أحوالهم في الشدَّة والرّخاء؛ لتربطَ بين صلاحهم وصلاحِ الكون، وذلك في أكثر من موضع: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾ [الروم: 22]، ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [الروم: 30]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ٣٥ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾ [الروم: 33 - 36].

سابعًا: نصّتِ السّورةُ الكريمةُ على عواملِ الانحطاط الحضاريّ التي تُقوِّض الأممَ وتزيلُ العُمرانَ من فساد اقتصاديّ أو أخلاقيّ أو اجتماعي؛ لتربطَ بين الصّلاح العُمرانيّ والصّلاح الإنسانيّ، فقالت: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ [الروم: 39]، وقالت: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [الروم: 41].

ثامنًا: ربطتِ السّورةُ الكريمة بين النّهوض الحضاريّ والاستقرار الأُسَريّ، فالمجتمعُ عبارةٌ عن أُسْرة كبيرة، يقومُ على تعاون أفراده، ولا بدّ له من مقوّماتٍ مادّيّةٍ ومعنويّةٍ ينهض بها كما الأسرة الصّغيرة أيضًا، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: 21].

تاسعًا: اقتضى هذا المحورُ أن تُبَيَّنَ لهم أحوالُ المكذّبين من قبلهم: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم: 42]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: 47].

عاشرًا: اقتضى الأمر أن يُبيَّنَ لهم انفرادُ الله سبحانه وتعالى بقضيّة الأرزاق، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم: 37].

المقاصد الرئيسةُ للسّورة وخصائصها:

بيانُ سنّة الله تعالى في بيان مقوّمات النّهوض الحضاريّ

أولًا: الدلالةُ على إعجازِ القرآن بالإخبارِ عن أمورٍ مستقبلةٍ تحقَّقَ وقوعها، كغَلَبةِ الرّومِ الفُرسَ بعدَ أن غَلَبت الفُرسُ الرّومَ، وطَمْأنةُ المؤمنين وتسكينُ نفوسهم بذلك.

ثانيًا: الحديثُ عن مشاهدِ الكون والحياة، وعجائبِ قدرة الله في آياته الكثيرة في هذا العالم؛ إقامةً للبرهانِ على وجودِ الخالق العظيم، ولفتًا للأنظار إلى آياتِ الله الواحد القهّار.

ثالثًا: الحديثُ عن وقوعِ البعث بعد الموت بأدلّةٍ عقليّة وحسيّة، منها: أنَّ الإعادة بمنطق العقلِ أهوَنُ من البدء، وأنَّ إحياءَ الأرض بعد موتها بالمطرِ دليلٌ على الإحياء بعد الإفناء.

رابعًا: الثناءُ على هذا الدّين وعلى الفضائل التي يدعو إليها، وحثُّ النبي ﷺ والمسلمين على التمسُّك به، وإعطاءِ الحقوق لمستحقّيها، والتنبيهُ على حال المشركينَ ورذائلِهم.

خامسًا: ضربُ الأمثال لبُطلان الشّرك، ووصْفُ المشركينَ بالجهلِ وإهمالِ النَّظر في الحياة الأخرى، وعدم الاتّعاظ بهلاكِ الأُمم السّالفة المماثلةِ لهم في الإشراك باللّه، وبيانُ حالِهم عندَ بعثهم، واعتذارِهم عمّا سلفَ من أعمالِهم[1].

الخصائصُ الموضوعيّة لسورةِ الرّوم:

تميّزت سورةُ الرّوم بخصائصَ تتناسبُ معَ موضوعاتها

أولًا: تميزتِ السّورةُ الكريمة باشتمالِها على دليلٍ تفرّدتْ فيه من دلائلِ الإعجاز الغيبيّ، بحديثِها عن غُلْبِ الرّوم على يدِ عدوّهم الفرس كما سجّلَ التّاريخ ذلك، ثمّ استعادتِهم قوّتَهم عليهم بعد ذلك بسنينَ قليلةٍ.

ثانيًا: تفرّدتِ السّورة الكريمة بذكرِ بعض الأدلّة الكونيّة والأنفسيّة التي لم تشاركْها فيها غيرُها من السّور، مثلُ حديثِها عن سنّة اختلافِ الألسُن والألوان، وسنّة الزّوجيّةِ ومقوّماتِها، واختلافِ حال خلقِ الإنسان بين قوّةٍ وضعفٍ وشَيبة، وغير ذلك.

ثالثًا: تفرّدتِ السّورةُ الكريمةُ بربطها بين الفساد العامِّ والكسب البشريّ صراحةً: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾ [الروم: 41].

رابعًا: ركّزتِ السّورة على أنّ العبرةَ ليست بالأكثريّة في الرّأي العامِّ، وأنّ الحقّ قد يكونُ مع القلّة، وذلك في أكثرَ من موضعٍ: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم: 6]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الروم: 8]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم: 30].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 40 - 41.

خامسًا: اختصّتِ السّورة ببيانِ أحوالٍ خاصّةٍ للمشركينَ عندَ قيام السّاعة: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾ [الروم: 12 - 14]، ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥﴾ [الروم: 55]، فهذا التّقلّبُ في أحوالهم مرتبطٌ بتقلّب أحوالِهم واضطرابهم في الدّنيا.

الخصائصُ الأسلوبيّة لسورةِ الرّوم:

أولًا: شاركتْ هذه السّورةُ (الزّهراويْن والعنكبوت ولقمان والسّجدة) بهذه الحروف الثّلاثة: ﴿الٓمٓ﴾ التي استهلّت بها هذه السّورُ السّتّة.

ثانيًا: تفرّدتِ السّورة الكريمةُ بتكرارِ ذكرِ لفظة (الآيات)، حيث جاءتْ بصيغة الإفراد مرّة واحدةً، وأمّا بالجمع فقد وردت نحو أربعَ عشرة مرّة[1]، وجاء منها التّركيب: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ سبعَ مرّات[2] من أصل أحدَ عشرَ موضعًا وردتْ في القرآنِ كلّه[3]، وذلك لأنّها اعتمدتْ في عرض محورِها على بيان آثارِ قدرةِ اللّه في الأنفس والآفاق.

ثالثًا: كثُرَ في السّورة مُحسّنٌ بديعيٌّ رفيع وهو (أسلوب الطّباق) من خلال المقابلاتِ بين: ﴿غُلِبَتِ﴾ [الرّوم: 2] و﴿سَيَغۡلِبُونَ ٣﴾ [الرّوم: 3]، و﴿مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الرّوم: 4]، ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ [الرّوم: 6]، و﴿يَعۡلَمُونَ﴾ [الرّوم: 7]، ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ [الرّوم: 7] و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الرّوم: 7]، و﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرّوم: 25]، و﴿يَبۡدَؤُاْ﴾ [الرّوم: 11] ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الرّوم: 11]، و﴿ءَامَنُواْ﴾ [الرّوم: 15] و﴿كَفَرُواْ﴾ [الرّوم: 16]، و﴿تُمۡسُونَ﴾ [الرّوم: 17] و﴿تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الرّوم: 17]، و﴿ٱلۡحَيَّ﴾ [الرّوم: 19] و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾ [الرّوم: 19]، و﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [الرّوم: 24]، و﴿ضُرّٞ﴾ [الرّوم: 33] و﴿رَحۡمَةٗ﴾ [الرّوم: 33]، و﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الرّوم: 41]، و﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٨﴾ [الرّوم: 48] و﴿لَمُبۡلِسِينَ ٤٩﴾ [الرّوم: 49]، و﴿ضَعۡفٖ﴾ [الرّوم: 54] و﴿قُوَّةٗ﴾ [الرّوم: 54]، وغيرها.

رابعًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة بأنّ أغلبَ فواصلِها قد انتهتْ بجمع المذكّر السّالم أوْ بالفعل المضارعِ المرفوعِ بثبوتِ النّون، وشابهتْ بهذا الأسلوب جاراتِها سوَرَ (الشّعراء والقصص والعنكبوت)، لذا فأكثرُ فواصلِ (سورة الروم) تنتهي بحرف النّون، والشّواهدُ على ذلك كثيرةٌ بلغت نحو أربع وخمسين فاصلةً من أصل ستّين فاصلةً حوتْها السّورة.

(1) الآيات: 10، 16، 20، 21، 22 (مرتين)، 23 (مرتين)، 24، 25، 28، 37، 46، 53.

(2) الآيات: 20، 21، 22، 23، 24، 25، 46.

(3) بقيّة المواضع الأربعة: فصّلت: 37، 39، الشورى: 29، 32.

خامسًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة في أسلوبها بذكرِ بعضِ الأبنية والمشتقّات الصّرفيّة التي لم تردْ في غيرها من السّور، فمِن الأفعال: ﴿يُقۡسِمُ﴾ [الروم: 55]، و﴿يَنصُرُ﴾، و﴿وَأَثَارُواْ﴾ [الروم: 9]، و﴿يُحۡبَرُونَ ١٥﴾ [الروم: 15]، و﴿تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الروم: 17]، و﴿يَصَّدَّعُونَ ٤٣﴾ [الروم: 43]، و﴿تُظۡهِرُونَ ١٨﴾ [الروم: 18]، و﴿تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الروم: 20] وغيرها.

ومن الأسماء: ﴿وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ [الروم: 22]، و﴿مَنَامُكُم﴾ [الروم: 23]، و﴿مُبَشِّرَٰتٖ﴾ [الروم: 46]، و﴿لَمُبۡلِسِينَ ٤٩﴾ [الروم: 49]، و﴿وَشَيۡبَةٗۚ﴾ [الروم: 54]، و﴿ضَعۡفٖ﴾ [الروم: 54]، و﴿ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ [الروم: 39]، و﴿رَوۡضَةٖ﴾ [الروم: 15]، وغيرها.

ولا شكّ أنّ لهذه الأبنيةِ والاشتقاقات ارتباطٌ قويّ بمحور السّورة ومقصودِها العامّ.

سادسًا: حظيت السّورة الكريمة بلفظتيْنِ تفرّدتْ بهما عن غيرها من السّور من جهة الجذر والمادّة؛ وهما لفظة (الرّوم) التي سُمّيت السّورة باسمِها، ووجهُ ذلك سبقَ تقريره، وكذلك لفظة ﴿تُمۡسُونَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الروم: 17]، وهي مرتبطةٌ بمنهج السّورة في عَرْض الأدلّة الأنفسيّة والآفاقيّة على مقصودِها.

بيانُ المناسبةِ بينَ السّورةِ وسابقتِها ولاحقتِها:

مناسبة سورة الروم لسورة العنكبوت قبلها:

جاءتْ هذه السّورةُ في التّرتيبِ المصحفيّ بعدَ سورةِ العنكبوت، وقد تقدّم هناك بعضُ وجوهِ الصّلات بينهما، ومنها:

الأوّل: أنَّ سورة العنكبوت بُدئت بالجهاد وخُتمت به: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، وبُدئت سورةُ الرّوم بوعدِ المؤمنين بالغلبة والنَّصر، وهم يجاهدونَ في سبيل اللّٰه تعالى.

الثاني: أنَّ الاستدلالَ في سورة الرّوم على أصولِ الاعتقاد، وأهمُّها التوحيدُ الذي جاءَ مفصّلًا للمجمَل في سورة العنكبوت، مثلُ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾ [العنكبوت: 19] ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ [العنكبوت: 20].

الثالث: ترتّبَ على التفرقة بينَ المشركين وأهلِ الكتاب في العنكبوت أنْ أبغضَ المشركونَ أهلَ الكتاب، وتركوا مراجعتَهم في الأمور، وكانوا من قبل يُراجعونهم في الأمور، وسببُ

البغضاء أنَّ المشركين في جدالهم نُسبوا إلى عدم العقل: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾ [العنكبوت: 63] وطُلب مجادلةُ أهل الكتاب بالحسنى: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: 46] وكان أهل الكتاب يوافقون النّبيَّ في الإله، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ [العنكبوت: 46].

فلمّا غُلِبَ أهلُ الكتاب حينَ قاتلَهم الفرسُ المجوس، فرِح المشركون بذلك، فأنزل اللّه تعالى أوائلَ سورة الروم لبيانِ أنَّ الغلبةَ لا تدلُّ على الحقّ، وإنّما قد يريدُ اللّه تعالى مزيدَ ثوابٍ في المُحِبّ، فيبتليه ويُسلّط عليه الأعادي، وقد يختارُ للمعادي تعجيلَ العذاب الأدنى، دونَ العذابِ الأكبر يومَ القيامة.

مناسبة السورة لسورة لقمان بعدها:

أولًا: قال تعالى في آخِرِ سورةِ الرّوم: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ [الروم: 58] إشارةً إلى كونِ القرآن معجزةً، وقال في مطلَع سورة لقمان: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣﴾ [لقمان: 2 - 3].

ثانيًا: كذلك قال سبحانَه في آخر الرّوم: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ﴾ [الروم: 58] إشارةً إلى أنَّ المشركينَ يكفرونَ بالآيات، وقال في لقمان: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ [لقمان: 7].

ثالثًا: وصفَ اللّه تعالى قدرتَه على بدءِ الخلق والبعث في كلتا السّورتين، فقال في الرّوم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27] وقال في لقمان: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: 28].

رابعًا: أثبتَ اللّه تعالى في كلتا السّورتين إيمانَ المؤمنين بالبعث، فقال في الرّوم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الروم: 56] وهذا عينُ إيقانِهم بالآخرة المذكور في مطلَع لقمان: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ [لقمان: 4].

خامسًا: حكى اللّه تعالى في السّورتين ما عليه حالُ المشركينَ من القلق والاضطراب، إذ يضَّرَّعون إلى اللّه في وقت الشدَّة، ويكفرونَ به وقتَ الرَّخاء، فقال في الرّوم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾. [الروم: 33] وقال في لقمان: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: 32].

سادسًا: قابلَ تعالى بين السّورتينِ، فذكر في سورة الروم مدى اعتزازِ المشركينَ بأموالِهم ورفضِهم إشراكَ غيرهم فيها، وذكرَ في لقمان قصَّة لقمان الحكيم العبدِ الصّالح الذي أوصى ابنَه بالتواضع وتركِ التكبُّر، كما ذكرَ في الأولى مُحاربةَ الروم والفرس في معركتينِ عظيمتينِ، وذكر في السّورة الثانية في قصَّة لقمانَ الأمرَ بالصَّبر والمُسالمة وتركِ المُحاربة.

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم: 1 - 3]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

هزيمةٌ تَحزُنُ وتَضُرُّ، وبشرى بانتصارٍ يُفرِحُ ويَسُرُّ

بعد أنْ أكَّد النّظمُ الكريمُ في ختام (سورة العنكبوت) هداية اللّه تعالى للمجاهدين، وعونَه وتوفيقَه للمحسنينَ المؤمنين، تأتي هذه الآياتُ لتتحدَّثَ عن طائفة (الروم) التي يُفَضِّلُها المؤمنون على الفُرس، ويأملُ النصرَ لها المجاهدون، ولكنَّهم تعرّضوا للهزيمةِ من أعدائهم، فحزِن لذلك المؤمنونَ وابتهج له الكافرونَ، فأراد اللّه تعالى تعجيلَ البُشرى بفوزِهم وغَلبِهم لعدوِّهم في بضع سنينَ؛ إسعادًا وفرحًا للمؤمنينَ، وحَسرةً وحُزنًا للكافرين المشركين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غُلِبَتِ﴾: (غلب) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ وقَهْرٍ وشِدَّةٍ؛ مِنْ ذَلِكَ: غَلَبَ الرَّجُلُ غَلْبًا وغلَبًا وغَلَبَةً[1]، قالَ تَعالَى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، من قولهم: غلَبَني فلانٌ على كذا، إذا أخذَه وامتلكه، وسائرُ ما في القرآن من التركيبِ هو من الغَلَب بمعنى: القَهْر[2].

2) ﴿ٱلرُّومُ﴾: أمّةٌ كبيرة، من ولدِ رومي بنِ يونان بن علجانَ بن يافثِ بن نوحٍ عليه السلام، وهذا الاسمُ غلبَ في كلام العربِ على أمّةٍ مُختلطةٍ من اليونان والصَّقالبةِ ومن الرّومانيّينَ الَّذين أصلُهم من اللاتينيّين سُكّانِ إيطاليا، نزحوا إلى أطرافِ شرقِ أوربا، تقوَّمت هذه الأمّةُ المسمّاة (الروم) على هذا المزيج، فجاءت منها مملكةٌ تحتلُّ قطعةً من أوروبا وقطعةً من آسيا الصُّغرى وهي بلادُ الأناضول، وقد أطلقَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غلب).

العربُ على مجموع هذه الأمَّةِ اسمَ (الروم)؛ تفرقةً بينهم وبينَ الرّومان اللاتينيّين، وسُمّوا (الروم) أيضًا بـ(بني الأصفر) كما جاءَ في حديث أبي سفيانَ عن كتابِ النبيِّ ﷺ المبعوثِ إلى هِرَقْلَ سُلطانِ الرّوم وهو في حمصٍ من بلادِ الشّام[1].

3) ﴿أَدۡنَى﴾: (دني) أَصْلٌ واحِدٌ يُقاسُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وهوَ المُقارَبَةُ؛ ومِنْ ذَلِكَ الدَّنِيُّ، وهوَ القَرِيبُ، الدّنوّ: القربُ بالذّات، أَوْ بالحُكم، ويستعملُ في المكان والزّمان والمنزلة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ [الأنعام: 99]، وقال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨﴾ [النجم: 8]، والمعنى المرادُ: أقربُ بلادِ الرّوم إلى بلادِ العرَب.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إعجازٌ في التعبير بالحروف وإعجازٌ في الإخبار بالغيب

تبدأ الآياتُ بما يُلفت الأنظارَ إلى ما في القرآنِ الكريم من أوجُهِ الإعجاز التي لا حصرَ لها، ولا يُحيطُ أحدٌ بها، من خلال ذكرِ الحروفِ المُقَطّعة، التي حارَ العلماء في تفسيرها، وعجزَ أربابُ الفصاحةِ والبلاغة عن الإتيانِ بمثلها.

وقد صار للرّوم وقعةٌ معَ فارسَ على عهدِ رسولِ الله صلَّى الله تعالى عليه وسلم، فغَلَبَتْها فارسُ وقهَرَتْها[2]، وكان المشركونَ يُحبّون أَنْ تظهرَ فارسُ على الرُّوم؛ لأنَّهم مشركونَ مثلُهم، وكانَ المسلمونَ يُحبّونَ أَنْ تظهرَ الرومُ على فارسَ، لأنَّهم أهلُ كتاب، وهم أقربُ إلى دينِهم[3].

فأتت الآياتُ بوجهٍ جديدٍ من أوجُه إعجازِ القرآن، التي لا تنقطعُ ولا تنتهي، فتتحدّثُ عن بعض الأمورِ الغيبيَّة، التي لا يُحيطُ بها إلا الله، ولا يتضمَّنها كتابٌ إلّا إذا كان وحيًا من عند الله، ومنها فوزُ

(1) البخاري، صحيح البخاري، برقم: (2978).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 19.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 8، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 65.

الرّومِ وانتصارُهم على الفرس في أقلَّ من عشرةِ أعوام، ليفرحَ المؤمنونَ بذلك النّصرِ العظيم، ويتأكدَ لدى الجميع صدقُ ما أُنْزِل إلى الرَّسول ﷺ وإعجازُه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الحروفِ المقطّعةِ على الإعجاز:

العـــجـــزُ عــن الإتــيــان بمثلِ تراكيبِ القرآنِ المَبْنيّة من لغةِ العرب

يُعدُّ تعبيرُ القرآن الكريم بالحروف المقطَّعة وجهًا من أوجُهِ إعجازه، ودليلًا دامغًا على أنّه وحيٌ من عند اللّه جلّ في علاه، لأنّه لو كانَ من عند الرَّسول فسَّرَ لنا هذه الحروفَ، وبيّن معانيَها والمرادَ من التعبير بها، والثابتُ أنَّ الرّسولَ والصَّحابَةَ الكرامَ لم يتعرَّضوا لتفسيرها، ولَم يَسألوا عن مضامينِها، وآمنوا بها كما هي، وممّا يُمكنُ قولُه في شأنِ افتتاحِ بعضِ سورِ القرآنِ بها، أنَّ اللغة التي يتحدَّثُ بها العربُ تتكوّن من هذه الحروف، وأنّ كلماتِ القرآنِ وجُمَلَه وآياتِه وسورَه تتركّب منها، شأنُ تراكيبِ العرب وجملِهم، وأنَّ التحدّيَ حصلَ بأن يأتوا بمثلِ التراكيب المبْنيَّة من هذه الحروف، ومع ذلك عجَزوا عن أنْ يأتوا بمثلِ سورةٍ من سوَره، أوْ بمثل آيةٍ من آياته، وإذا عجزَ مَنْ بلغوا القمّةَ في البلاغة والبيان عن فعلِ ذلك فإنّ مَن دونهم يكونُ أعجزَ، فدَلَّ عجزُ العربِ عن الإتيان بمثلِهِ - مع أنَّهم أفصحُ الناس - على أنَّ القرآن وحيٌ من اللّه تعالى.

نكتة فصل الآية عما قبلها:

بيـانُ وجـهٍ ثانٍ من وجوهِ إعجازِ القرآنِ الكريم

جاءَ قولُه تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ مَفصولًا عمّا قبله؛ لشبهِ كمالِ الاتصال، إذ إنَّ التعبير بالحروفِ المقطَّعة يثيرُ المتلقّي ويُحرّكه ليسألَ، ويقول: ماذا بعد ﴿الٓمٓ﴾؟ فيأتي قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ ليجيبَ عن هذا السُّؤال، ببيان أنَّه سيتحدَّث عن هزيمة الرّوم، وانتصارِهم في المستقبلِ القريب، وغيرِ ذلك من موضوعاتِ السّورة.

ويمكنُ أنْ يكون الفصلُ لكمال الاتّصال، الذي تُنزَّلُ فيه الجملة

الثانيةُ من الأولى منزلةَ التّابعِ من المتبوع، ذلك أنَّ جملة: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ وما بعدَها تؤكّدُ ما في قولِه: ﴿الٓمٓ﴾ من إعجازٍ، بذكرِها وجهًا ثانيًا من أوجُه إعجازِ القرآن التي لا تُحصى ولا تُعَدُّ، وهو وجهٌ يختلفُ عن المذكور في: ﴿الٓمٓ﴾، لكنَّه يتعانقُ معه في إثبات أنَّ هذا القرآنَ مُنَزَّلٌ من عند اللّه تعالى على رسولِه ﷺ، وهذا الوجهُ هو الإخبارُ بأمورٍ ستحصلُ في المستقبل، ومنها انتصارُ الرّوم على الفرس في أقلَّ من عشرِ سنين.

دلالةُ التعبير بالماضي ﴿غُلِبَتِ﴾ مادّةً وصيغةً:

هزيمةُ الروم أحدثت أثرًا كبيرًا في نفوسِ المسلمين

تعبيرُ البيانِ الكريم عن هزيمةِ الروم بالفعل الماضي: ﴿غُلِبَتِ﴾ الدالِّ بمادّته على الغلبةِ والقهر، يشيرُ إلى أنَّ الهزيمة كانت كبيرةً قاسيةً، وأنَّها أحدثتْ أثرًا شديدًا في نفوسِ المسلمين، لأنَّهم كانوا يَوَدّون انتصارَ الروم لكونهم أهلَ كتاب سماويّ، بينما كان المشركونَ يُحبّون انتصارَ الفرس؛ لأنّهم مشركونَ مثلُهم في اتّخاذِ الأوثانِ والأحجار والنّيران معبودًا من دون اللّه تعالى، كما دلّتِ الصّيغة على أنَّ الغلبةَ قد تحقّقت وتأكَّدَتْ؛ إذ الماضي يدلُّ على الوقوع والحصول، وفي غلبةِ القوّة العظيمة إشارةٌ إلى أنَّ الأيّامَ دوَلٌ، وأنَّ الغلبة والهزيمة أمرانِ يقعانِ على سبيل الحدوثِ لحِكَمٍ ومصالحَ لا يحيطُ بها إلا اللّه تعالى.

فائدة الخبر في ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾:

ذِكرُ ما حصل تمهيدًا للإخبار بما سيحصل

قولُه تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ في لازِمِ فائِدَتِه عَلَى طَرِيقِ الكِنايَةِ، أيْ: نَحْنُ نَعْلَمُ بِأنَّ الرّومَ غُلِبَتْ، فلا يَهْنِكُمْ ذَلِكَ ولا تَطاوَلوا بِهِ عَلَى رَسولِنا وأوْلِيائِنا، فإنّا نَعْلَمُ أنَّهُمْ سَيَغْلِبونَ مَنْ غَلَبوهُمْ بَعْدَ بِضْعِ سِنينَ، بِحَيْثُ لا يُعَدُّ الغَلَبُ في مِثْلِهِ غَلَبًا، فالمَقْصودُ مِنَ الكَلامِ هوَ جُمْلَةُ: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾، وكانَ ما قَبْلَهُ تَمْهيدًا لَهُ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 42.

دلالةُ إسناد الفعل للمجهول:

المـــجـــوسُ لا يستحقّون شرفَ الذِّكر في كتاب الله المجيد

أُسند الفعلُ: ﴿غُلِبَتِ﴾ للمَجْهولِ؛ لِأَنَّ الغَرَضَ هوَ الحَديثُ عن المَغْلوبِ لا عَن الغالِبِ، ولِأَنَّهُ قَدْ عُرِفَ أَنَّ الَّذينَ غَلَبوا الرّومَ هُمُ الفُرْسُ[1]، ما يعني انعدامَ الفائدة المترتّبة على ذكرِ الفاعل، يُضاف إلى ذلك أنّ المجوسَ لا يستحقّون شرفَ الذكرِ في كتاب اللّه المجيد، و"أخفى الفاعلَ لسببينِ؛ **السببُ الأوّل**: إهانةٌ للفرس، وأنهم ليسوا أهلًا للذِّكر، **والثاني**: تهوينٌ للأمرِ على الرّوم؛ لأنّه إذا قيل للإنسان: أنتَ غُلِبْتَ، أهونُ ممّا إذا قال: غلبكَ فلانٌ؛ لأنّه إذا قال: غلبَك فلان، صار معناه: أنّه ذليلٌ لهذا الرجلِ المذكور"[2].

علّةُ التأنيث في قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾:

ضعفُ الالتزام بالوحيِ وضعفُ الاستعدادِ سَببا الهزيمةِ المؤكَّدة

إلحاقُ علامةِ التأنيث بالفعل في قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ فيه دلالةٌ على أنّ الرومَ كان بهم من ضعفِ الالتزامِ بالوحيِ الخاصِّ بهم، وكان بهم مِنْ ضعفِ الدّولة، وضعفِ الاستعداد للحرب ما كان سببًا في حصول الهزيمة لهم، وذلك أنَّ ﴿ٱلرُّومُ﴾ اسمُ جنسٍ جمعيٌّ، يجوز له تذكيرُ الفعل وتأنيثُه، واختيارُ التأنيث بمعنى (جماعة الروم) يشيرُ إلى أنَّهم جماعةٌ لا جمعٌ، فيُعطي معنى الضَّعفِ والهوان.

معنى التعريف في قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾:

(ألْ) في ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ هي العهديّة، التي تَدُلُّ على أنّ المرادَ بهم: الرومُ المعروفونَ للعربِ والمسلمينَ بأنَهم أهلُ كتاب، وإنْ كانوا مُفَرّطينَ في العمل بما أُنزل إليهم، إلا أنّهم أقربُ للمسلمينَ من المجوس، الذين ليس لهم كتابٌ ولا شريعةٌ.

الإعجاز الغيبيّ في الآية:

الإخبارُ بالأمور التي تحدُث في المُسْتقبل ممّا تَفَرّدَ به القرآنُ

وفي الآيات نوعٌ من الإعجاز يُضاف إلى الإعجاز البيانيِّ وإعجازِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 42.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن: 1/ 14.

الحروف المقطّعة، وهو الإخبارُ بالأمور الغيبيّة التي تحدُثُ في مستقبل الأيّام، وهو ممّا تَفَرّد به القرآنُ الكريمُ، حيثُ أخبرت الآياتُ بأنّ الرومَ سيَغْلِبونَ الفرسَ في بضعِ سنين، وهو لفظٌ يُطلقُ على العددِ من ثلاثٍ إلى تسعِ سنوات في لغةِ العرب، وقد حدثَ بعدَ نزولِ هذه الآية أنْ راهنَ المشركونَ أبا بكر الصّدّيق رضي الله عنه على حدوثِ ذلك إلى أنْ تمَّ انتصارُ الروم على الفرسِ في العام السّابع من نزولها، وكان غلبُ الرومِ على الفرس في سلطنةِ هرقلَ قيصرِ الرّوم، وبإثره جاء هرقلُ إلى بلادِ الشّام ونزل حمصَ، ولقي أبا سفيانَ بنِ حرب في رَهْطٍ من أهل مكّةَ جاؤوا تُجّارًا إلى الشّام(1).

دلالةُ الظرفيّة في ﴿أَدۡنَى﴾:

الـفـارسـيّـونَ أحاطوا بالرّوم على هذه الأرضِ إحاطةَ الظّرفِ بالمظروف

أفادَ حرفُ الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ من قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى﴾ الظَّرْفيَّةَ، وهو يدلُّ على أنَّ المكانَ الذي غُلبت فيه الرّومُ هو أقربُ أرضِ الرّوم للعرب، والتعبيرُ به يشيرُ إلى أنّ الفارسيّينَ قد أجهزوا عليهم في هذه الأرضِ، وأحاطوا بهم عليها إحاطةَ الظّرف بالمظروف، بحيث لم يتركوا لهم فرصةً للخروج منها، أوِ الهرب إلى غيرها، وأفادَ تحديدُ مكانِ الهزيمة تفاعُلًا أكبرَ مع الحدث، إذ بدأتْ معالمُ الغلَبة تتكشّفُ وتتحدّدُ في بقعة جغرافيَّةٍ، تُسهم في تصويرِ الحدث تصويرًا دقيقًا يؤدّي إلى تفاعلٍ معه وإصغاءٍ له.

دلالة التّعبير باسمِ التفضيل:

العربُ من أوائلِ مَن سمِعوا خبرَ هذه الهزيمة

استعملَ النظم اسمَ التفضيل مضافًا في قوله تعالى: ﴿أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ومعناه: أرضُ الروم الأكثر قربًا إلى أرض العرب من غيرها من بلاد الروم الأخرى، وهي بلادُ الشام التي كانت تابعةً وقتَ الهزيمة للرّوم(2)، ما يعني: أنّ العربَ من المسلمين والمشركينَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 45.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 43.

مِنْ أوائل مَنْ سمِعوا خبر هذه المعركة، وانحازَ كلٌّ منهم إلى مَنْ يناصرُ، إذ حزِنَ المسلمونَ لهزيمة الروم، لما سبقَ ذكرُه من أنّهم أهلُ كتاب، بينما فرح المشركونَ لانتصارِ الفرس؛ لأنّهم مشركون مثلُهم، إذ كانوا يعبدونَ النار من دونِ اللّه تعالى.

معنى التعريف في قوله: ﴿أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾:

التعريفُ في الأَرْضِ لِلْعَهْدِ، أيْ: أرْضِ الرّومِ المُتَحَدَّثِ عَنْهُمْ، أوِ اللّامُ عِوَضٌ عَنِ المُضافِ إلَيْهِ، أيْ: في أدْنى أرْضِهِمْ، أوْ أدْنى أرْضِ اللَّهِ، وحُذِفَ مُتَعَلِّقُ أدْنى لِظُهورِ أنَّ تَقْديرَهُ: مِنْ أرْضِكُمْ، أيْ: أقْرَبِ بِلادِ الرّومِ مِنْ أرْضِ العَرَبِ، فإنَّ بِلادَ الشّامِ تابِعَةٌ يَوْمَئِذٍ لِلرّومِ، وهيَ أقْرَبُ مَمْلَكَةِ للروم مِنْ بِلادِ العَرَبِ[1]، وفي ذلك التحديدِ بيانٌ لكونِ الهزيمةِ التي حلَّت بالروم لم تكن هزيمةً لكلّ الممالك الروميّة الأخرى، وإنما لواحدةٍ منها.

فائدة التقييد بالجار والمجرور:

بيانُ شدّة ضعفِ الروم، وفظاعةِ هزيمتِهم

قَيَّدَ النَّظْمُ الكريمُ الفعلَ: ﴿غُلِبَتِ﴾ بـ: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ لِبَيانِ شِدَّةِ ضَعْفِهِمْ، أي: انْتَهَى ضَعْفُهُمْ إلَى أنْ وصَلَ عَدوُّهُمْ إلَى طَريقِ الحِجازِ، وكَسَروهُمْ وهُمْ في بِلادِهِمْ، ثُمَّ غَلَبوا حَتَّى وصَلوا إلَى المَدائِنِ، وبَنَوْا هُناكَ الرّوميَّةَ، لِبَيانِ أنَّ هَذِهِ الغَلَبَةَ العَظيمَةَ بَعْدَ ذَلِكَ الضَّعْفِ العَظيمِ بِإذْنِ اللَّهِ[2]، وفيه أيضًا تقويةٌ لِعلم اللّه تعالى وإحاطتِه بالمعركة، وتأكيدُ أنَّ الغرضَ من وراء الإخبار بذلك هو التخفيفُ مِنْ ألم المسلمين، المحزونينَ بسبب هزيمةِ الروم، وتعجيلِ البشارة بانتصار الروم على الفرس في المستقبل، والتلميحِ لهم بأنّ الأيامَ دولٌ، وأنّ مغلوبَ اليومَ قد يصير مُنتصرًا في الغد، وأنّ المسلمينَ ليسوا بمنأى عن تحقيقِ الانتصارات، وهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 43.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 80.

ما صرّح به النَّظْمُ بعدئذٍ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

دلالةُ الوصل في ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ﴾:

(الواو) في جملة: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ﴾ لعطفِ ما بعدَها - من الوعد بانتصارِ الرّوم - على قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، عطفَ الاسميّة على الفعليَّة؛ للدلالة على أنَّ الغلبةَ للفرس مؤقّتةٌ ومحدودةٌ، وأمّا غلبةُ الرّوم عليهم فثابتةٌ دائمةٌ، وهذا العدولُ إلى الاسميّة زيادةٌ تطمين للمسلمينَ بوقوعِ النَّصر للرّوم، وضمائرُ الجمع المرفوعةُ والمجرورةُ فيه عائدةٌ كلُّها إلى الرّوم.

معنى ﴿مِّنۢ﴾:

تأكيدُ انتصارِ الرّوم على الفرسِ في المستقبل

﴿مِّنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ هي الابتدائيّة، الموضّحةُ بدايةَ المُدّةِ الزمنيّة التي سيحصلُ فيها انتصارُ الروم على الفرس في مستقبلِ الزمان، وفي التعبير بها نوعٌ من التأكيد الدالِّ على حصول هذا الانتصار الوشيكِ من غير شكٍّ أوْ رَيب، ولذا لم يقل: (سيَغلبون بعدَ غلبهم)، بل ذكرَ ﴿مِّنۢ﴾ لتحديدِ بدايةِ الغلب التي تكونُ بعدَ انهزامِهم المباشر إشارةً إلى أنَّ غلبتَهم لهم وشيكةٌ.

فائدةُ التّعبيرِ بالظّرف:

إظهارُ قدرة الله تعالى وبيانُ أنَّ هزيمةَ الفرس تحصلُ بأمره

عبَّر البيانُ الكريمُ بقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ مَعَ أنَّ قَوْلَهُ: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ لا يَكونُ إلّا مِنْ بَعْدِ الغَلَبَةِ؛ لِإظْهارِ قُدْرَةِ اللّه تعالى وبَيانِ أنَّ ذَلِكَ يحصلُ بِأمْرِه، لِأنَّ مَنْ غَلَبَ بَعْدَ غَلَبِهِ لا يَكونُ إلّا ضَعيفًا، فلَوْ كانَت غَلَبَتُهُمْ لِشَوْكَتِهِمْ كانَ الواجِبُ أنْ يَغْلِبوا قَبْلَ غلبهم، فإذا غَلَبوا بعدَ ما غُلِبوا، دَلَّ عَلَى أنَّ ذَلِك بِأمْرِ اللَّه، فذَكَرَ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾، لِيَتَفَكَّروا في ضَعْفِهِمْ، ويَتَذَكَّروا أنَّهُ لَيْسَ بِزَحْفِهِمْ، وإنَّما ذَلِكَ بِأمْرِ اللَّهِ تَعالَى[1]، يقول ابن عاشور: "وَفائِدَةُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 80.

ذِكْرِ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ التَّنْبيهُ عَلَى عِظَمِ تِلْكَ الهَزيمَةِ عَلَيْهِمْ، وأنَّها بِحَيْثُ لا يُظَنُّ نَصْرٌ لَهُمْ بَعْدَها، فابْتَهَجَ بِذَلِكَ المُشْرِكونَ. فالوَعْدُ بِأنَّهُمْ سَيَغْلِبونَ بَعْدَ ذَلِكَ الِانْهِزامِ في أمَدٍ غَيْرِ طَويلٍ تَحَدٍّ تحدَّى به القُرْآنُ المُشْرِكينَ، ودَليلٌ عَلَى أنَّ اللَّه قَدَّرَ لَهُمُ الغَلَبَ عَلَى الفُرْسِ تَقْديرًا خارِقًا لِلْعادَةِ مُعْجِزَةً لنبيِّه ﷺ وكَرامَةً لِلْمُسْلِمينَ"(1).

نكتة الإضافة في قوله: ﴿غَلَبِهِمۡ﴾:

تأكيدُ حصولِ هزيمةِ الرّوم بسببِ ضعفِ الإيمانِ وضعفِ الاستعدادِ

في إضافةِ (الغلَب) إلى ضمير الرّوم المجرور في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ تأكيدٌ لحصولِ هزيمةِ الرّوم بسببِ ضعف إيمانِهم وضعف استعداداتِهم، وبيانِ أنّ الضعف كان ملازمًا لهم، ملازمةَ المضافِ للمضاف إليه، وأنَّ ما سيحصلُ لهم من نصرٍ في المستقبل يكون بعون اللّه وتوفيقِه، ولا يخفى ما فيه من تأنيس المؤمنين وتبشيرِهم بنصرِ القريبينَ منهم، بعدَ ما بلغ بهم الضَّعفُ ما بلغ، والتلميحِ بأنّ ذلك يمكنُ حصولُه لهم أيضًا، كما سبقَ ذكره، والغلَبُ هنا مصدرٌ بمعنى المفعول، أي: من بعد مغلوبيّتِهم، وإنَّما عبَّر بالمصدر الدالِّ على الحقيقة؛ للدلالة على أنَّ غلبتَهم كانت قويّةً وشديدة.

نكتةُ حرفِ التّنفيس:

انتصارُ الرّوم على الفرس قريبٌ، ومُؤذنٌ بتعدُّدِ وجوه إعجازِ القرآن

السرُّ في التعبير بفعلِ الغَلَب المبنيِّ للمعلوم مسبوقًا بـ(السين) في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ التي هي حرفُ استقبالٍ للقريبِ من الزّمان(2)، هي الدلالةُ على أنّ انتصارَ الروم على الفرس يحصل في المستقبلِ القريب، ويشهدُه كثيرٌ ممَّن شَهدوا انتصارَ الفرس على الروم، ليُقِرّوا ويتأكَّدوا بأنّ القرآنَ وحيٌ مِنْ عند اللّه تعالى، وأنّ وُجوهَ إعجازِه متعدِّدةٌ ومتنوِّعةٌ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 44.

(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 60.

دلالةُ التّعبير بالمضارع وحذفِ مفعوله:

تمامُ المِنّةِ على المسلمينَ غلبةُ أهلِ الكتاب على المشركين

عبّر النّظمُ الكريمُ بالفعل المضارع في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾؛ لحصوله في المستقبل، وحُذِفَ مَفْعولُه لِلْعِلْم بأنَّ تَقْديرَهُ: سَيَغْلِبونَ الَّذينَ غَلَبوهُمْ، أي: الفُرْسَ، إذْ لا يُتَوَهَّمُ أنَّ المُرادَ: سَيَغْلِبونَ قَوْمًا آخَرينَ؛ لِأنَّ غَلَبَهُمْ عَلَى قَوْمٍ آخَرينَ وإنْ كانَ يَرْفَعُ مِنْ شَأْنِهِمْ، ويَدْفَعُ عَنْهُمْ مَعَرَّةَ غَلَبِ الفُرْسِ إيّاهُمْ، لَكِنِ القِصَّةُ تُبَيِّنُ المُرادَ، ولِأنَّ تَمامَ المِنَّةِ عَلَى المُسْلِمينَ أنْ يَغْلِبَ الرّومُ الفُرْسَ الَّذينَ ابْتَهَجَ المُشْرِكونَ بِغَلَبِهِمْ، وشَمِتوا لِأَجْلِهِ بِالمُسْلِمينَ[1].

توالي الأحداث المتّفقةِ مادّة ومعنىً:

التـشـويـق للإخبار بانتصارِ الـروم عـلى الفرس

توالتْ في النّظم القرآني المادّةُ (غ، ل، ب) في ثلاثةِ ألفاظ، اثنانِ منها فعلان، وواحدٌ منها مصدرٌ، وهي: ﴿غُلِبَتِ﴾ و﴿غَلَبِهِمۡ﴾ و﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ حيثُ اتّفقتْ هذه الكلماتُ في (الغين واللام والباء) وفي المعنى؛ لأنها جميعًا دالّةٌ على النّصر والظَّفَر، وفي تكرارها ما يدلّ على أنَّ الرومَ يحصل منهم للفرس مثلَ ما حصل من الفرس لهم، بمشيئة اللّه تعالى وإرادته، بجانبِ ما للتَّجانُس بينها من أثرٍ في تشويق المتلقّي، وتنشيطِ فكره لترقُّب ما يُخبر به القرآنُ عمّا سيحدثُ للروم بعد الإخبارِ بهزيمتهم في ﴿غُلِبَتِ﴾ و﴿غَلَبِهِمۡ﴾، فإذا وردَ قوله: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ بما زيدَ عليه من حروفٍ؛ تأكّدَ لديه حصولُ انتصارِ الروم في قابل الزمان، وفَرِحَ لذلك وسُرَّ، وثبتَ المعنى في ذهنه، وتأكَّد وُقوعُه في عقله.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(غُلِبتْ) و(هُزِمت):

الأوّل يـدلُّ على نتيجة نهائية، والـثـانـي يـدلُّ عـلى إنكسار في ساحة المواجهة

في الغلَبةِ والمغلوبيَّة تأشيرُ النتيجةِ النهائيّة للنزال الدالِّ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 44.

أنَّ المعركةَ حُسِمت وظهر أحدُ الجيشينِ على الآخر، وأمّا الهزيمة فتدلُّ على انكسارٍ في الجيش ونتيجةٍ أوليّةٍ للمعركة؛ إذ ربَّما يعقبُها غلبةُ المهزوم.

الرّوم والنَّصارى:

الرومُ: اسمُ سلالةٍ لرجلٍ اسمه: رومُ بن عيص، من سُلالةِ العيص بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ عليهما السلام، ويقال لهم: بنو الأصفر، وهم أبناءُ عمّ بني إسرائيل، وكانوا على دينِ اليونان، ثمَّ اعترفوا بالمسيحيَّة وآمنوا بعيسى عليه السلام، وصاروا من أهل الكتاب قبلَ بعثةِ سيِّدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم.

أمّا النَّصارى فهم أتباعُ الدّين المنزَّل من اللّه تعالى على عيسى عليه السلام، وكتابُهم الإنجيل، ويقال لهم النَّصارى نسبةً إلى بلدة النّاصرة في فلسطين، وهي التي وُلد فيها المسيحُ فنُسبوا إليها، أوْ إشارةً إلى صفة، وهي نصرُهم لعيسى عليه السلام، وتناصُرُهم فيما بينهم، وهذا يخصُّ المؤمنين في أوّل الأمر، ثمَّ أُطلق عليهم كلِّهم على وجه التغليب، قال تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصف: 14][1]، والفرقُ بينهما أنَّ الأوّلَ ملحوظٌ فيه النّسبُ الأبويُّ، والآخرَ النَّسبُ الدينيّ.

(1) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل: 1/ 109، والشهرستاني، الملل والنحل: 1/ 275.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾

[الروم: 4 - 5]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

انتصارٌ موعودٌ للرّوم يُصاحبُه فرحٌ للمؤمنين

بعد أنْ كشفتِ الآياتُ السّابقةُ عن وجهٍ جديدٍ من أوجُه إعجاز القرآن الكريم، يُضاف إلى الإعجازِ البيانيِّ بصفة عامة، وإعجازِ الحروفِ المقطَّعة بصفةٍ خاصَّة، ويتمثَّلُ في معجزةِ الإخبار بأمورٍ تحدُثُ في المستقبل، وسيشهَد على وقوعها مَنْ بقيَ على قيد الحياة من المُتلَقّين، ومنها: انتصارُ الرّوم على الفرس انتصارًا كبيرًا يُفرِحُ المؤمنينَ ويَغيظُ المشركين، تأتي هاتانِ الآيتانِ لتوضيح المَدى الزمنيِّ الَّذي يستغرقُه هذا النّصرُ العظيمُ حتى يحصُلَ، وتُبَيّنان أنّه يحصُلُ في مدّةٍ زمنيَّة تتراوحُ بين ثلاثِ سنواتٍ وتسعٍ، وهي مُدّةٌ قصيرةٌ في أعمارِ الأمم، كما تُقَرِّرُ الآيتانِ أنّ أمرَ النَّصر والهزيمةِ يحصلُ وفْقَ مقاديرِ اللّه تعالى وسُنَّتِه في كونِه، وأنَّه لا دخلَ لأحدٍ من البشرِ في ذلك.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِضۡعِ﴾: (بضع) أُصولٌ ثَلاثَةٌ؛ الأَوَّلُ: الطّائِفَةُ مِنَ الشَّيْءِ عُضْوًا أَوْ غَيْرَهُ، والثّاني: بُقْعَةٌ، والثّالِثُ: أَنْ يُشْفَى شَيْءٌ بِكَلامٍ أَوْ غَيْرِهِ[1]، والبِضْعُ بالكسر: المنقطَعُ من العَشَرة، ويقالُ ذلك لما بين الثلاثِ إلى العشرة، وقيل: بل هو فوقَ الخمس ودونَ العشرة، ومنه قولُه تعالى: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بضع).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (بضع).

2) ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾: (أمر) أُصولٌ خَمْسَةٌ: الأمْرُ مِنَ الأُمورِ، والأَمْرُ ضِدُّ النَّهْيِ، والأمَرُ: النَّماءُ والبَرَكَةُ بِفَتْحِ الميم، والمَعْلَمُ، والعَجَبُ، فأمّا الواحِدُ مِنَ الأُمورِ فقَوْلُهُمْ: هَذا أمْرٌ رَضيتُهُ، وأمْرٌ لا أرْضاهُ، وفي المَثَلِ: "أمْرٌ مّا أتَى بِكَ"[1]، والأمْرُ: الشّأنُ، وجمعُه أُمورٌ، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها، وهو طلبُ الفعل بالقولِ الصّادر من الأعلى رتبةً للأدنى، والمرادُ به في الآية: القرارُ العظيم والحُكمُ الذي لا يتبدّلُ ولا يتغيّر.

3) ﴿يَفۡرَحُ﴾: (فرح) أصْلانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما عَلَى خِلافِ الحُزْنِ، والآخَرُ على الإثْقالُ، فالأوَّلُ الفَرَحُ، يُقالُ: فرِحَ يَفْرَحُ فرَحًا، فهوَ فرِحٌ، قالَ تعالَى ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥﴾ [غافر: 75][2]، والفَرَحُ: انشراح الصّدر بلذّة عاجلة، وأكثرُ ما يكون ذلك في اللّذّات البدنيّة الدّنيويَّة، والمرادُ به في الآية: انشراحُ الصّدر ودخولُ السّرور.

4) ﴿بِنَصۡرِ﴾: (نصر) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه، ونَصَرَ اللّهُ المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدوِّهِمْ[3]، والنَّصْرُ والنُّصْرَةُ: العَوْنُ، قال تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصف: 13]، والمعنى المحوريُّ: الإمدادُ بما فيه زيادةٌ ومناسبةٌ وقوّةٌ: كما تمدُّ النّواصرُ الأوديةَ والتِّلاعَ بالماء، وكما يمدُّ الغيثُ الأرضَ[4]، والمعنى المراد به في الآية: الظّفَر على الأعداءِ بتوفيقِ اللّه وعونِه.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

النّصرُ والهزيمةُ يحصُلان وفقَ مشيئةِ الله العزيزِ الرّحيم

توضّحُ الآيتانِ الكريمتانِ أنّ الرومَ ينتصرونَ على الفرس في مدّة زمنيّةٍ تتراوحُ بين ثلاثٍ إلى تسعِ سنوات، ولن تزيدَ على ذلك

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).

بحالٍ من الأحوال، كما توضّحان أنَّ هذا النّصرَ يكونُ سببًا في سرورِ المؤمنين وحُزن الكافرين؛ لأنَّ الروم أقربُ للمؤمنينَ لكونِهم أهلَ كتابٍ، والفرسَ أقربُ لُمشركي العرب؛ لأنّهم مثلُهم وثنيّون، كما تُرسِّخ الآيتانِ قاعدةً مُهمّةً، وهي أنّ النصر راجعٌ إلى إرادةِ اللّه ومشيئتِه، يُؤتيه من يشاءُ ويمنعُهُ ممّن يشاء، وأنّ هزيمةَ الروم أوّلًا ونصرَهم ثانيًا، ونصرَ الفرس أوّلًا وهزيمتهم آخِرًا لم يكن خبطَ عَشواء، ولم يكنْ لكليهما فيه إرادةٌ، وأنّ ما حدثَ في المرَّتين لم يخرجْ عن مشيئةِ اللّه الذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَرُ الَّذي كثُرتْ رحمتُه.

وترشدُ الآيتان إلى أنَّ الغلبةَ والنّصرَ ليس لمجرَّد وجودِ الأسباب، وإنَّما لا بدَّ أنْ يقترنَ بهما القضاءُ والقدر، وإلى أنَّ أهلَ الكتاب من يهود ونصارى - وإن حرَّفوه - أقربُ إلى المسلمينَ من المشركينَ والمَلاحدة ممَّن لا يُؤمنون باللّه واليومِ الآخر[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الآية عما قبلها:

إظهارُ كلٍّ من الغلبةِ والظَّرف بشكلٍ مُستقلّ

جاءَ الجارُّ والمجرور: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ في ابتداء آيةٍ مفصولًا عن متعلَّقه: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾؛ الواقع في آيةٍ سبقَتْها، والسرُّ في جعلِ المتعلِّق في آيةٍ والمتعلَّق به في آيةٍ أخرى إظهارُ كلٍّ من الأمرينِ على أنَّه مقصودٌ لذاته، فالإخبارُ بالغلَبة قُصِد لذاته، وتحديدُ ظرفِ الغلَبة ومدَّته قُصِد لذاته أيضًا، ومن ثمَّ برزَ كلٌّ منهما بهيئةِ المستقلِّ عن الآخَر المقصودِ لذاته؛ لأنَّهما جميعًا مناطُ الإعجاز.

نكتةُ إبهامِ عددِ سنيّ النَّصر:

مِن سماتِ البيانِ القرآنيِّ عدمُ الخوضِ في التفاصيل

أَبْهم النّظْمُ الكريم عَدَدَ السِّنينَ التي يتحقّقُ فيها انتصارُ الرّوم على الفرس، ولم يُحدّدْها باليوم والشّهر والعامّ، لأنَّ مُقْتَضَى حالِ

(1) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 164، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 636، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 160.

كَلام العَظيم الحَكيم أنْ يَقْتَصِرَ عَلَى المَقْصودِ إجْمالًا، وأنْ لا يَتَنازَلَ إلَى التَّفْصيلِ؛ لِأنَّ التَّفْصيلَ يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الحَشْوِ عِنْدَ أهْلِ العُقولِ الرّاجِحَةِ، ولِيَكونَ لِلْمُسْلِمينَ رَجاءٌ في مُدَّةٍ أقْرَبَ مِمّا ظَهَرَ، فَفي ذَلِكَ تَفْريجٌ عَلَيْهِمْ[1]، بالإضافةِ إلى أنَّ إبهامَ الوقتِ يُفَوِّتُ على المُرجِفين فرصةَ التنبّؤ بالمعركة قبلَ حدوثها، وإثارةَ البلبلةِ حولَ وقتها، لبُعد مكانِ وقوعِها عن مكَّةَ وما حولَها[2].

وجه الإبهام في سورة يوسف:

الإهـــمــالُ والـتــهــاوُنُ بحقوقِ الناس سـمـةُ أوضـاعِ السّجنِ في مصرَ

عبّر البيانُ الكريمُ بـ﴿بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ أيضًا في سورة يوسف، إذ يقولُ: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف: 42]، ووجهُ إبهامِ العدد فيه أيضًا: الدّلالةُ عَلَى أنَّ السِّجْنَ لَمْ يَكُنْ مَضْبوطًا بِسِجِلٍّ يُذْكَرُ فيهِ أسْماءُ المَساجين، وأسْبابُ سَجْنِهِمْ، والمُدَّةُ المَسْجونُ فيها، ولا كانَ مِنْ وزَعَةِ السُّجونِ ولا مِمَّنْ فَوْقَهُمْ مَنْ يَتَعَهَّدُ أسْبابَ السَّجْنِ، ويَفْتَقِدُ أمْرَ المَساجين، ويَرْفَعُ إلَى المَلِكِ في يَوْمٍ مِنَ الأُسْبوعِ أوْ مِنَ العامِ، وهَذا مِنَ الإهْمالِ والتَّهاوُنِ بِحُقوقِ النّاسِ[3]، بقي أنَّ البضعَ المُبهم أُضيفَ في كلتا الآيتينِ إلى (السنين)؛ للدلالة على أنّها سنواتٌ عصيبةٌ قضاها الرّومُ في غلَبتهم، وأنّها أعوامٌ مضنيةٌ يَقضيها السَّجينُ في السِّجن.

موقعُ الجملةِ الاسميَّةِ ودلالتها:

كـلُّ شــيءٍ تـمّ بقدَرِ الله، ولا يخرجُ شيءٌ عن إرادتِه

الجملة الاسمية الواردة في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ يمكنُ أنْ تكون معترضةً بينَ المُتعاطفات وظيفتُها التوضيحُ والبيان؛ فقد جيءَ بها لبيانِ قُدرةِ الله النافذةِ، في كلِّ وقتٍ وحين، والمعنى: للّه وحدَه الأمرُ النّافذُ من قبلِ انتصارِ الفرس على الرّوم، ومن بعدِ انتصار الرّوم على الفرس، وكِلا الفريقينِ كان نصرُهُ أوْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 44.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 25/ 80.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 279.

هزيمتُه بإرادة اللّه ومشيئتِه وتدبيرِه، وليس لأحدٍ من الخلق أن يخرجَ عما قدّره سبحانه وأرادَه[1].

ويمكنُ أنْ تكون الجملةُ مُستأنفةً استئنافًا بيانيًا؛ لأنّها تجيبُ عن سؤالٍ يُثيره الكلام السّابقُ عليها عن فائدةِ الإخبار بغَلبة الفرس للرّوم، ثمّ الإخبارِ بغَلبة الرّوم للفرس في بضعِ سنين، فتأتي جملةُ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ لتبيِّن أنَّ كلَّ ذلك تمّ ويتمُّ بقدر اللّه تعالى، ولا يخرج شيءٌ منه عن إرادتِه سبحانه، وأنَّ له من وراءِ ذلك حِكَمًا، من أهمِّها هنا إثباتُ أنَّ القرآنَ من عند اللّه تعالى، ومؤانسةُ المؤمنين وتبشيرُهم بانتصارِ الروم على الفرس في المستقبلِ القريب، بقي أنَّ الجملةَ الاسميّةَ تدلُّ على الثّبوت والدَّوام؛ إذ الحُكم والشَّأن العظيمُ والتدبيرُ المُحكَم للّه تعالى وحده في نصْرِ جماعةٍ على جماعةٍ وخسارةِ قوّةٍ أمامَ قوّةٍ.

معنى (اللّام) و(أل) في الجملة الاسميَّة:

تصريفُ الأمور راجعٌ إلى الله ﷻ

(اللام) الجارّة في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ هي لامُ الاختصاصِ الدالَّةِ على أنّ تصريفَ الأمورِ كلِّها راجعٌ إلى اللّه جلَّ في علاه، وأنه لا يحصلُ أيُّ شيءٍ في مُلكِه إلّا بعِلمِه وإرادتِه، وأما (أل) في المبتدأ: ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ هي التي للجنس، الذي يشملُ كلَّ الأمور، ما صَغُر منها وما كبُر، وما قلّ منها وما كثُر، والمعنى: إنَّ الأمرَ كلَّه للّه تعالى، وليس لأيٍّ من الطَّرفينِ المُتحاربينِ في الأمر من شيءٍ؛ فأمرُهُ نافذٌ وقضاؤُه محتّمٌ وإرادتُه ناجزةٌ.

نكتةُ تقديمِ المُسند على المُسند إليه:

إبطالُ تطاوُلِ المُشركينَ الَّذينَ بَهَجَهُمْ غَلَبُ الفُرْسِ عَلَى الرّومِ

وفي قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ تمّ قَصْرُ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ والشأنّ على كونِه للّه تعالى، بطريقِ تقديم الخبر ﴿لِلَّهِ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾، قَصْرًا حقيقيًا تحقيقيًا، يؤكّد المعنى ويُقوّيه، وينفي نفيًا قاطعًا

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 67.

أنْ يكون لأحدٍ غيرِ اللّه تعالى أيُّ دخلٍ فيما يَجري من انتصارٍ أوْ هزيمة، أوْ أيُّ شيءٍ يحدُثُ داخلَ كونِ اللّه الفسيح، يقولُ ابن عاشور: "وَتَقْديمُ المَجْرورِ في قَوْلِهِ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ لِإبْطالِ تَطاوُلِ المُشْرِكينَ الَّذينَ بَهَجَهُمْ غَلَبُ الفُرْسِ عَلَى الرّومِ، لِأنَّهُمْ عَبَدَةُ أصْنامٍ مِثْلَهُمْ؛ لِاسْتِلْزامِهِ الاعْتِقادَ بِأنَّ ذَلِكَ الغَلَبَ مِنْ نَصْرِ الأصْنامِ عُبّادَها، فبَيَّنَ لَهُمْ بُطْلانَ ذَلِكَ، وأنَّ التَّصَرُّفَ لِلّه وحْدَهُ في الحالَيْنِ"[1].

الأمرُ لله تعالى مِنْ قبل الغَلَب ومِنْ بَعدِه

معنى ﴿مِن﴾ وفائدةُ دخولها:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ هي البيانيّة القاطعةُ المؤكّدة أنّ الأمرَ للّه تعالى، ولا يخرجُ عن إرادته في أيِّ وقتٍ وحينٍ، سواءٌ: قَبْلَ الغَلَبَةِ أوبَعْدَها، وسواءٌ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ المُدَّةِ أوْ مِنْ بَعْدِها، يَعْني: إنْ أرادَ غَلَبَهُمْ غَلَبَهُمْ قَبْلَ بِضْعِ سِنينَ، وإنْ أرادَ غَلَبَهُمْ غَلَبَهُمْ بَعْدَها، وما قَدَّرَ هَذِهِ المُدَّةَ لِعَجْزٍ، وإنَّما هيَ إرادَةٌ نافِذَةٌ[2].

عمومُ المعنى وشمولُه كلَّ شيءٍ يحدُثُ في كونِ الله وملكوتِه

نكتةُ حذفِ المضافِ إليه:

حُذِف المضافُ إليه في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾، إذِ التقدير: (مِنْ قَبْلِ غَلَبَةِ الرّوم ومِنْ بَعْدِها)[3]، والسرُّ في حذفِه أنْ يتَّسِعَ المعنى ويعُمَّ كلَّ شيءٍ يحدثُ في كون اللّه تعالى وملكوته، فللّه الأمر من قبلِ حصولِه، وللّه الأمر من بعدِ حصوله، ويدخلُ في ذلك هزيمةُ الرّوم وانتصارُهم، وانتصارُ الفرس وهزيمتُهم دخولًا أوّليًّا.

الحالُ أنّ كلَّ الأمور والشّؤون راجعةٌ إلى الله تعالى

غرضُ العطف:

عُطِف قولُه: ﴿وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ على قَوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ دفعًا لتوهُّم أنّ الأمرَ للّه تعالى من قبلِ غَلبِ الفرس للرّوم، وليس له من بعده، فكان في العطف تأكيدٌ لكونِ الأمر بيدِه من قبل الغلب ومن بعدِه، وأنّ ماحدثَ من غَلَبِ الفُرسِ للروم أوّلًا راجعٌ إلى إرادته سبحانه وحدَه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 46.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 80.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 375.

وما سيحصُل بعدَه من غلبِ الرّوم للفرس في بضعِ سنينَ راجعٌ أيضًا إلى إرادتِه، وكذلك الحالُ في كلِّ الأُمور والشُّؤون، بقيَ أنَّ محلَّ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِن قَبۡلُ﴾ والمعطوفَ عليه في محلِّ النَّصب حالٌ؛ أي: إنَّ للّه الأمرَ حالَ كَوْنِه مِن قبلُ ومن بعدُ، والحالُ يدلُّ على شمولِ أمرِه وحُكمه كلَّ شيء، فلا يخرجُ شيءٌ عن إرادته، وإنْ كان الأمرُ كلُّه للّه تعالى فلا يُستبعَدُ أنْ يقومَ المسلمونَ وهم قلّةٌ بالانتصار على كلٍّ من الأمّتينِ العظيمتينِ مستقبلًا.

معنى الواو:

الجمعُ بينَ انتصار الرّوم وفرحِ المؤمنين بنصرِ الله

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ لعطفِ ما بعدَها على قولِه: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾، وبها يَجمَعُ النّظمُ بينَ نصرِ الرّوم على الفرس وما يترتّبُ عليه من فرَحِ المؤمنينَ بنصرِهم، وبينَ ما يُصاحبُه كذلك من انتصارِ المؤمنينَ في معركةِ بدر على المشركين.

دلالة المتعلّق، ونوعُ التنوينِ فيه:

فرحُ المؤمنين وحُزنُهم مُتعلّق بالله تعالى

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ على ظرفٍ أُضيفَ إلى مثلِه، وهو مُتَعَلِّقٌ بـ﴿يَفۡرَحُ﴾، والتنوينُ فيه عِوضٌ عن جملةٍ محذوفةٍ، تقديرُها: ويومَ إذ تغلِبُ الرّومُ على فارس ويَحُلُّ ما وعدَه اللّه ﷻ من غَلَبَتِهم يفرحُ المؤمنون بنصرِ اللّه[1]، ودلَّ المتعلّقُ المتقدِّمُ على متعلّقه على تخصيصِ فرحِ المؤمنين بذلك اليوم، لما فيه من انتصارِ أهلِ الكتب السَّماويَّة التي تُعظِّمُ اللّه على أهلِ الأوثان التي تفتري على اللّه وتُكذّبُ رُسُلَه، وفي هذه الفَرحةِ دعوةٌ للمسلمين إلى أنْ يكون فرحُهم وحُزنُهم مُتعلّقًا باللّه تعالى، فيُفضّلونَ في حُبِّهم أهلَ الأديان على أهلِ الإلحاد.

نكتة التّعبير بالفعل المضارع:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 467.

﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنه يحصلُ في المستقبل، وللدّلالة على أنّ فرحَهم بانتصار الرّوم على الفرس يكونُ فرحًا متجدّدًا على مرِّ العصور؛ لانتصار مَنْ له كتابٌ على مَنْ لا كتابَ له، ولإثباتِه إعجازَ القرآن الكريم، وصدقَه في كلّ ما يُخبرُ به، سواءٌ أكانت هذه الأخبارُ عمّا حدثَ فيما مضى، أم كانت عمَّا سيحدثُ فيما هو آتٍ.

تَجَدُّد الفرحِ بانتصارِ الرّوم عبْرَ العصور والأزمان

معنى التعريف:

(أل) في قوله تعالى ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تفيدُ الجنس، وهي تدلُّ على أنَّ كلَّ مَنْ خالطَ الإيمانُ قلبَه يفرحُ بخبرِ انتصار الرّوم على الفرس عندما يحصلُ، وأنَّه لن يحزنَ لذلك إلا الكافرُ والمنافق؛ لأنَّ انتصارهم يغيظ الكافرينَ الَّذين فرحوا بانتصارِ الفرس على الروم، وسيُبَيِّن وجهًا جديدًا من أوجُه إعجاز القرآن، ويؤكّد كونه مُنَزَّلًا من عندِ اللّه تعالى كما سبق توضيحُه.

لن يَحزنَ لانتصار الروم إلّا كلُّ كافرٍ ومنافقٍ

معنى الباء:

(الباء) في قوله: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ هي باءُ السببيَّة أوِ التعليل[1]، التي توضّحُ السَّببَ في فرح المؤمنين، وهو: تَحَقُّقُ النّصرِ الَّذي وُعِدوا به، والمعنى: يفرحُ المؤمنونَ بسببِ إظهارِ صدقِهم فيما أخبَروا به المشركينَ من غَلبة الروم، وقيل: (نَصر اللهِ) يعني: أنّه ولّى بعضَ الظّالمينَ بعضًا وفرَّق بين كلِمِهم، حتى تفانَوا وتناقَصوا، وفَلَّ هؤلاءِ شوكةَ هؤلاء؛ وفي ذلك قوّةٌ للإسلام، وعن أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه: وافقَ ذلك يومَ بدر، وفي هذا اليومِ نُصِرَ المؤمنون[2].

سببُ الفرح تَحقُّقُ النَّصرِ الذي وُعِدوا به

فائدةُ الإضافة:

في إضافة النّصر إلى اسم الجلالة العَلَم في قوله تعالى: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ تفخيمٌ للنَّصر وتعظيمٌ، وإشارةٌ إلى أنّه

نصرٌ عظيمٌ لَنْ يتمَّ إلا بِعَوْنِ اللهِ وتوفيقِه

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 30.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 467.

سيكون نصرًا كبيرًا يَفوقُ انتصارَ الفرس على الرّوم فيما سبقَ، وفي الإضافة أيضًا دلالةٌ على أنّ هذا النَّصر يكون مِنَّةً من الله على الرّوم وتَفَضُّلًا، ولن يتمَّ إلا بعونِه وتوفيقِه لهم في الإعدادِ والقِتالِ والنِّزالِ، يقولُ البقاعي: "فقد وقعَ الفرحُ بالنّصر الَّذي ينبغي إضافتُهُ إلى اللّه تعالى، وهو نصرُ أهلِ الدّين الصَّحيح أصلًا وحالًا ومآلًا"[1].

سِرُّ التقديم والتأخير:

التقديمُ باعتبار القصد أبلغُ في الإعجاز

الجارُّ والمصدرُ المجرورُ في قَوْلُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ يَحتمِلُ - وهو الأرجحُ - تعلّقُه بـ﴿يَفۡرَحُ﴾، وعليه لا تقديمَ في المصدرِ على فعلِه، ويحتملُ أنَّه متعلِّقٌ بـ﴿يَنصُرُ﴾، وقد قُدِّمَ المَصْدَر عَلَى الفِعْلِ هنا، وقُدِّمَ الفِعْلُ عَلَى المَصْدرِ في قوله: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ [الأنفال: 62]؛ لأنَّ المقصود هاهنا بَيانُ أنَّ النُّصرَةَ بيَدِ اللّه، إنْ أرادَ نَصرَ وإنْ لَمْ يُرِدْ لا يَنْصُرْ، ولَيْسَ المَقْصودُ النُّصرَةَ ووُقوعَها، والمَقْصودُ هُناكَ إظْهارُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ بِأنَّهُ نَصرَهُ، فالمَقْصودُ هُناكَ الفِعْلُ ووُقوعُهُ فقَدَّمَ هُناكَ الفِعْلَ، ثُمَّ بَيَّنَ أنَّ ذَلِكَ الفعل مصدرُه عند اللّه، والمقصود هاهنا كَوْنُ المَصْدَرِ عِنْدَ اللَّهِ إنْ أرادَ فعَلَ، فقدَّمَ المَصْدَرَ[2].

نكتةُ الفصل:

تأكيدُ الإخبار بأنَّ نصرَ الرّوم على الفُرس يكونُ بعون الله وتوفيقه

جاء قولُه: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ مفصولًا عمّا قبله لكمالِ الاتّصال، الذي تَنْزِلُ فيه الجملةُ الثانيةُ ممّا قبلها منزلةَ التابعِ من المتبوعِ، وبيانُ ذلك أنَّ قولَه: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ يؤكِّدُ ما سبقَهُ من الإخبار بأنَّ نصرَ الرّوم على الفرس في المستقبلِ يكونُ بعونِ اللّه تعالى وتوفيقِه، ومِنْ ثمّ يكونُ المعنى: ينصرُ اللّه مَنْ يشاءُ نَصرَه، ومنهم الرّومُ، ويهزم مَنْ يريدُ هزيمتَه، ومنهمُ الفُرسُ، واختارَ التعبير

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 32.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 81.

بالجملة الفعليَّة للدلالةِ على الحدوث والتجدُّد؛ إذ النّصرُ وعدمُه داخلانِ ضمنَ حِكَم عظيمةٍ لا يعلمُ أسرارَها إلا اللّه تعالى.

دلالةُ التّعبير بالمضارع الأول:

لا ينتصرُ أحدٌ إلا بـإرادةِ اللّه، ولا يُـهزَمُ جمعٌ إلا بحكمتِه

عبّر النظمُ الكريم بالفعل المضارع الأوّل في قوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لدلالته على أنَّ نصرَ اللّه تعالى لِمَن يشاء عملٌ مُتجدّد، لاينقطعُ ولا يتوقّفُ، وليس خاصًّا بالرّوم وحدَهم، وأنَّه يمتدُّ ويتَّسعُ ليشملَ المسلمينَ وغيرهم، فلا ينتصرُ أحدٌ إلّا بإرادته، ولا يُهزم جمعٌ إلّا بحِكمته.

دلالةُ التّعبير بالمضارع الثاني:

لا أحـدَ يضمَنُ النصرَ، ولا أحدَ يَجزمُ بالهزيمة

عبَّر النَّظمُ في جملة الصِّلة بالفعل المضارع الثاني في قوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لدلالته على أنّ النصرَ والهزيمةَ خاضعانِ لمشيئةِ اللّه المتجدّدة باعتبارِ تعلُّقاتها، ما يعني: أنْ لا أحدَ يضمَنُ النصرَ ويدّعي جدارتَه به، ولا أحدَ يتوقّعُ الهزيمةَ ويجزم بحصولِها، وإنَّما يرتبطُ كلاهما بعدَ الأخذِ بالأسباب بإرادةِ اللّه الّذي يضعُ كلَّ شيء في موضعِه، فينصرُ مَنْ يكون النَّصرُ أكثرَ نفعًا له، وأكثرَ استحقاقًا وجدارةً به، ويَهزمُ مَنْ تكونُ الهزيمةُ أكثرَ إصلاحًا لشأنه، وأفضلَ مناسبةً لحاله.

وفي إيرادِ جملةِ الصِّلة توضيحًا للموصولِ المُبهم الواقع مفعولًا به للنّصر؛ احتراسٌ عمَّن يظنُّ أنَّ النصرَ يقعُ بالعدّة والعتاد فقط، أوْ مَن يتصوّرُ أنَّ النصر مختصٌّ بالمؤمنين والهزيمةَ شأنُ الكافرين، بل الأمرُ أكبر من ذلك فإنَّ النصرَ متعلّقٌ بمشيئة اللّه، وهو يختارُ مَن ينصرُهُ بلا توهُّمات أوْ تصوُّرات منقوصة، وقد تكونُ الهزيمةُ للمؤمنينَ في المعارك بالنَّظر إلى الظاهر، لكنّه نصرٌ ضمنيٌّ ودرسٌ بليغ كما حدثَ للمسلمينَ في معركة أُحد.

تـربيـةُ المهابة فـي النـفـوس مـع الـثـقـةِ في وضــعِــه كـلَّ شيء موضِعَه المُسْتَحِقّ

نكتةُ إسنادِ الفعلينِ المضارعين إلى ضمير اسمِ الجلالة:

أُسندَ الفعلانِ المضارعانِ في قوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ إلى ضميرِ اسم الجلالة؛ تربيةً للمهابةِ والإجلال في نفوس الجميع،

وللدِّلالة على وضعِه كلَّ شيءٍ في موضِعِه المُستَحِقّ، كما هو شأنُه تعالى في كلِّ الأمور، ما يعني: أنّ للّه مِنْ وراء النّصر والهزيمة وغيرهما حِكَمًا وأسرارًا قد نحيطُ بها، وقد نحيطُ ببعضها، وقد لا نحيطُ بشيءٍ منها، وما على المؤمنين إلا الوثوقُ والتسليمُ والصّبر، يقول ابن عاشور: "قَوْله: يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ؛ فيهِ أدَبٌ عَظيمٌ لِلْمُسْلِمينَ، لِكَيْ لا يُعَلِّلوا الحَوادِثَ بِغَيْرِ أسْبابِها، ويَنْتَحِلوا لَها عِلَلًا توافِقُ الأهْواءَ، كَما كانَتْ تَفْعَلُهُ الدَّجاجِلَةُ مِنَ الكُهّان وأضْرابِهِم"[1]، بقي أنَّ مفعولَ (المشيئة) محذوفٌ لدلالةِ فعلِ النُّصرة عليه، والتقدير: (ينصرُ اللّه مَن يشاءُ نُصرتَه).

دلالةُ الواو:

(الواو) في الجملة الاسميَّة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قد تكون حاليّةً، والجملةُ بعدَها في محلِّ نصبِ حالٌ من الضّمير المرفوع في ﴿يَشَآءُۖ﴾، أي: ينصرُ من يشاءُ عزّةً منهُ ورحمةً، وقد تكون (الواو) استئنافية، والجملةُ بعدَها لا محلَّ لها من الإعراب، ووظيفتُها التعليلُ للنُّصرةِ المرتبطةِ بالإرادةِ العظيمة.

بلاغةُ القَصْر:

اختصاص المولى سبحانه بالعزَّة والرّحمة الكاملتين

في جملة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قصرَ النّظمُ الكريمُ صفتَي العزَّة والرَّحمة على اللّه سبحانه، المعبَّر عنه بالضمير: (هوَ) قَصْرَ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا، يؤكّدُ اتّصافه سبحانه وتعالى بالعزّة والرّحمة في سياقِ الحديث عن الوعدِ بنصرِ الرّوم على الفرس في بضع سنينَ؛ لمناسبةِ اتِّصافه بهما للسّياق، كما أفادَ القصرُ اختصاصَ المولى تعالى بهاتينِ الصّفتينِ على سبيل الكمال؛ فهو العزيزُ الَّذي لا يُدانيه قويٌّ في عزّته، وهو الرّحيمُ الَّذي لا يُساويه أحدٌ في رحمتِه وشفقتِهِ وإحسانِه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 47.

وجه الاقتصار على الخبرين:

آثرَ النّظمُ الكريم الإخبارَ عن الله تعالى بهذينِ الخبرينِ دونَ غيرهما؛ لمناسبتِهما لسياقِ الإخبارِ بانتصار الروم على الفرس في بضْعِ سنين، ولتقريرِ أنّ أمرَ النصر والهزيمة خاضعانِ لمشيئة الله تعالى، وليس لأحدٍ دخلٌ فيه، حيث عبّر بـ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ لأنّ عزّتَه وقوّتَه تحولانِ دونَ عدمِ حصولِ ما وعدَ به، وتَقْهرانِ كلَّ من يُغالبُ ذلك أوْ يُعاندُه، ثمَّ ثنّى بـ: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنَّ رحمتَه هي التي تمكّنُ المغلوبَ من النّهوض والعملِ لأجل تحقيقِ مرادِ الله تعالى ووَعْدِه.

العـزّةُ تـحـولُ دونَ عـدمِ حصولِ ما وعدَ بـه، والرحـمـةُ تساعدُ المغلوبَ على النَّصر

يقولُ ابن عاشور: "عقَّبَ بِقَوْلِه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فإنَّ العَزيزَ المُطْلَقَ هوَ الَّذي يَغْلِبُ كُلَّ مُغالِبٍ لَهُ، وعَقَّبَهُ بـ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لِلْإشارَةِ إلَى أنَّ عِزَّتَهُ تَعالَى لا تَخْلو مِنْ رَحْمَةٍ بِعِبادِهِ، ولَوْلا رَحْمَتُهُ لَما أدالَ لِلْمَغْلوبِ دَوْلَةً عَلَى غالِبِه، مَعَ أنَّهُ تَعالَى هوَ الَّذي أرادَ غَلَبَةَ الغالِبِ الأوَّلِ، فكانَ الأمْرُ الأوَّلُ بِعِزَّتِه، والأمْرُ الثّاني بِرَحْمَتِه لِلْمَغْلوبِ المَنْكوبِ"[1]، ويمكنُ القول بأنَّ (النصر) على الأعداء فعلٌ يحتاج إلى عزَّةٍ تقوّي المغلوبَ، وإلى رحمةٍ تأخذ بيدِه تأييدًا إلى النّصر؛ إذ النّصرُ إعانةٌ على سبيل الشفقة، فالإعانةُ تتسبّبُ عن مدِّ المنصور بالقوَّة مع رحمةٍ به لكي ينتصرَ على عدوِّه.

نكتةُ ترتيب الصِّفتينِ:

عبَّر النّظمُ الكريمُ بتقديم العزَّة على الرَّحمة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنَّ العزّةَ تناسبُ قهرَ الغالبينَ المذكورينَ أوّلًا، وثنَّى بـ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنَّ الرحمةَ تناسبُ إعانةَ المغلوبينَ، وتوفيقَهم للنَّصر على مَن غلبهم، وهم المذكورونَ ثانيا. "فتَرْتيبُ الصِّفَتَيْنِ العَلِيَّتَيْنِ مَنْظورٌ فيهِ لِمُقابَلَةِ كُلِّ صِفَةٍ مِنْهُما بِالَّذي يُناسِبُ

البـدءُ بـالـعـزَّة يـنـاسـبُ قـهْـرَ الـغـالـب، والتثنيةُ بالرّحمة تناسبُ مساعدةَ المغلوب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 48.

ذكره من الغَلَبَيْن"[1]، ويحتملُ أنه من قبيلِ اللفِّ والنشر المرتّب على قوله: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ المتضمّن للنُّصرةِ المرتبطةِ بالإرداة؛ إذ ينصرُ المغلوبَ لأنّه العزيزُ القويّ، ويختارُ مَن ينصرُه؛ لأنّه رحيمٌ ومريدٌ للإحسانِ بالمغلوب، ويحتملُ أنَّ هاتين الصّفتين من قبيل اللفِّ والنّشر غير المرتّب؛ إذ ذكرَ (العزة) وهي تناسبُ المشيئةَ؛ إذ المختارُ في فعله عزيزٌ وقويٌّ باختياره، وذكرَ (الرحمة) لأنّها تناسبُ النّصرَ للمغلوبِ على الغالب.

علّةُ المبالغة بصيغةِ (فَعيل):

الـكـمـالُ لله تعالى وحدَه

جيءَ بالخبرينِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بصيغةِ (فَعيل)، التي هي إحدى صيغِ المُبالغة؛ للدلالةِ على أنَّه لن يبلغَ مبلغَه سبحانه فيهما أحدٌ، فلن يُعاند ما قدَّره وأرادَه من غلبة الرّوم للفرس أحدٌ مهما كانت عزّتُه وقوّتُه، كما أنّه لن يَحولَ دونَ هزيمة الفرس من الروم أحدٌ مهما كانت شفقتُه ورحمتُه.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

لا يرحَمُ في يوم القيامة إلا مَنْ كان قادرًا رحيمًا

وردَ الإخبارُ عن الله تعالى بوصفَي: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في مواضعَ كثيرةٍ من كتاب الله الحكيم، منها آيةُ سورةِ الروم، ومنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٤٢﴾ [الدخان: 42]، وسبقَ بيانُ وجهِ الاقتصار عليهما في سياق سورةِ الروم، أمّا في سورة الدخان، فتَمّ الاقتصارُ عليهما؛ لأنَّ الإخبار بهما يأتي في سياقِ الحديث عن يوم القيامة، حيثُ يقول تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤١﴾ [الدخان: 40 - 41]، واتّصافُ المولى بهذين الوصفينِ مناسبٌ للاستثناء تمامَ المناسبة؛ إذ لا يرحَمُ في هذا اليوم إلّا مَن كان قادرًا رحيمًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 48.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ [الرّوم: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

علاقة بشارة الله بنصر الرّوم، بتأكيد أنّ الله لا يخلف وعده

في هذه الآية الكريمة تأكيد للوَعْد الإلهيِّ لعباده المؤمنين بنُصرة الرّوم أهل الكِتاب على الفُرْس أهل الوثنيَّة، وهي من جملة دلائل النّبوّة، ومن علامات صدق الرّسالة؛ لكونها إخبارًا عن الغيب المَحْض، بوحي اللّه وإلهامه، إذ لِلّٰهِ وفي قبضة قدرته العليّة، واختياره بحكمته الجليّة، الْأَمْرُ كلّه، والتّصرّف أجمَعُه، غيبًا وشهادةً، دنيا وعُقْبًا، لا رادّ لأمره في تقديره المُبرم، ولا معقّب لحكمه في قضائه المُحكم[1]، وربط ذلك بالتّذكير بأنّه تعالى لا يخلف الوعد، ولكنّ النّاس يتقاصر عِلْمُهم عن ذلك.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعۡدَ﴾: (وعد) كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ[2]، والوَعْدُ يُستعمل في الخَير والشَّر، يقال: وعدتُه خيرًا ووعدتُه شَرًّا، ويقال: في الخير الوَعْدُ والعِدَةُ، وفي الشَّرِّ الإيعادُ والوَعيدُ، ومن شواهده، قَوْل عامر بن الطُّفَيْل:

وإنّي وإنْ أوْعَدْتُهُ أو وعَدْتُهُ *** لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدي[3]

والعِدَةُ: الوَعْدُ، والهاء عِوَضٌ مَن الواو، ويُجمَع على عِداتٍ[4]، وقولهم: أَنْجَزَ حُرٌّ ما وعَدَ، قال أبو بكر الأنباري: ظاهره ظاهر الإخبار بالمُضيِّ، ومعناه معنى الأمر بالاستقبال، أي: ليُنْجِز

(1) النخجواني، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 115.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(3) ديوان عامر بن الطُّفَيل، ص: 189.
(4) الجَوْهري، الصِّحاح: (وعد).

الحرُّ ما وعَده، فأرسلها مثلًا، ويُضرب هذا القول مثلًا عند المطالبة بإنجاز الموعود والوفاء به(1).

2) ﴿لَا يُخۡلِفُ﴾: (خلف) أُصولٌ ثَلاثَةٌ: أَحَدُها أَنْ يَجيءَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ، والثّاني خِلافُ قُدّام، والثّالِثُ التَّغَيُّرُ(2)، والخُلْفُ: المُخالفة في الوَعْد، يقال: وعَدني فأخْلَفني، أي: خالَفَ في الميعاد، والإخلاف: أن يُسْتَقى واحد بَعْد آخر، وأَخْلَفَ اللّه عليك، يقال لمن ذَهَبَ مالُه، أي: أعطاك خَلَفًا، وخَلَفَ اللّهُ عليك، أي: كان لك منه خليفة، والخِلافةُ النّيابة عن الغير، إمّا لغَيْبَة المنوب عنه، وإمّا لموته، وإمّا لعجزه، وإمّا لتشريف المُسْتَخلَف، وعلى هذا الوجه الأخير، استخلف اللّه أولياءه في الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: 39]، والمتأخّر لقصور منزلته يقال له: خَلْفٌ، ولهذا قيل: الخَلْف الرّديء، والمتأخّر لا لقصور منزلته، يقال له: خَلَف، والاختلافُ والمخالفة: أن يأخذ كلّ واحد طريقًا غير طريق الآخر، في حاله أو قوله، والخِلاف أعمُّ من الضّدّ؛ لأنّ كلّ ضدّين مختلفان، وليس كلّ مختلفين ضدّين(3).

المَعْنى الإجْماليُّ:

وعَدَ اللّهُ المؤمِنينَ بانتصارِ الرّوم على الفُرسِ، وعْدًا لا بُدَّ مِن وُقوعِه، لا يُخلِفُ اللّهُ وعْدَه، ذلك أنّ وعد اللّه للمؤمنين بالنّصر المبين، وبالفرح بنصر أهل الكتاب، على عبدة النّار، لايُخلَف ولا يتأخّر عن ميعاده، ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ؛ لانطماس بصائرهم، ولاستيلاء الجهل على عقولهم، ولاستحواذ الشّيطان عليهم(4).

وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ هذا النَّصر من الأمور الغيبية التي أخبر بها اللّه قبل وقوعها ووجدت في زمان من أخبرهم اللّه بها من المسلمين والمشركين، فلما جاء الأجل الذي ضربه اللّهُ انتصر الرّوم على الفرس وأجلَوْهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقَّق وعد اللّه(5).

(1) ابن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس: 2/ 272، والجَوْهري، الصِّحاح: (وعد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 11/ 67 (بتصرّف).
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 636.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة نَصْب المصدر ﴿وَعۡدَ﴾:

التّوكيد للمضمون السّابق، مفيدٌ في البيان

وقع لَفْظ ﴿وَعۡدَ﴾، مصدرًا منصوبًا بَدَلًا مِن اللّفظ بفعله، ومُؤَكِّدًا لِمَضمونِ الجُمْلَةِ المُتَقَدِّمَة، مِن قَوْله تَعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الرّوم: 3 - 4]: والأصل: وعَدَ اللّه المؤمنين بالنَّصر والفرح وعْدًا مُؤَكَّدًا[1].

نُكْتة إضافة الوَعْد إلى الله تعالى:

وفي إضافةِ الوعْدِ إلى اللّهِ تعالى، في قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾، تلْويحٌ بأنَّه وعدٌ مُحقَّقُ الإيفاءِ؛ لأنَّ وعْدَ الصّادقِ القادرِ الغنيِّ، لا موجِبَ لإخلافِه[2]، ومَن أوْفى بِوَعْده من اللّه.

سِرُّ إيثار التَّعبير بِلَفْظ الجلالة:

تَفْخيم الوَعْد وتشريفه، بإضافته إلى الله

عُبِّر بلفظ الجلالة في قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾؛ لتفخيم الوَعْد وتشريفه؛ وذلك لانتسابه إلى مَن له صفات الكمال والجلال سبحانه، والّذي لا توجد قوّة تُخرجه عمّا وعد؛ لأنّه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء، فما دام الوعد وعدَ اللّه، فثِقْ أنّه محقّق، وكلّ شيء حادث في غدك، إنّما يحصل بمشيئته تعالى، وفي ذلك يقول: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: 23 - 24][3].

عِلَّة فصل ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ عمّا قبلها:

بيان التّفصيل بَعْد الإجمال، والتّصريح بَعْد التّلويح

فُصِلت جُملةُ ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ عَمّا قَبْلها؛ لكمال الاتِّصال، حيث جاءت تلك الجملة بَيانًا للجملة السّابقة عليها ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾، الّتي دَلَّت تَلويحًا وإجمالًا، على تَحَقُّق وعْد اللّه تعالى، ثُمَّ جاءت جُملةُ ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾، إيضاحًا لسابقتها وتفصيلًا لَها،

(1) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين: 3/ 228، والآلوسي، روح المعاني: 21/ 21، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 48.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 48.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/ 11309.

وتصريحًا بتَحَقُّق وعْد اللّه تعالى، وفي هذا الإجْمال ثُمَّ التَّفْصيلِ، تَقْريرٌ للخَبَر وتَأْكيدُه، وقد قَذَف هذا التَّأكيد الهَلَع في المُشْرِكين، "وسَمّاهُ وعْدًا نَظَرًا لِحالِ المُؤْمنينَ الَّذي هو أهَمُّ هُنا، وهو أيْضًا وعيدٌ لِلْمُشْرِكينَ بِخِذْلانِ أشْياعِهِمْ، ومَن يَفْتَخِرونَ بِمُماثَلَةِ دينِهِمْ"(1).

سِرُّ العدول عن الإضمار إلى الإظهار:

تَعْليل الحُكْم وتَفْخيمه، من بليغ البيان

في قوله: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾، عُدول عن الإضمار إلى الإظهار، للفظ الجلالة؛ حيث كان الظّاهر أن يقال: (وَعْد اللّه لا يُخْلِف وعْده)، وسِرُّ هذا العدول تَعْليل الحُكْم وتَفْخيمه، ولتربيّة المَهابة، وللتَّنْبيه عَلى عِظَم الأمْر، والجُملةُ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَعنى المَصدرِ(2).

لطيفة إظهار الوَعْد في ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾:

اللّه تعالى لا يُخْلِفُ شَيْئًا مِنَ الوَعْد، لأنّه لا يخلف الميعاد

أُظْهِر الوَعْد في قوله: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾؛ للإشارة إلى أنَّه تعالى لا يُخْلِفُ شَيْئًا مِنَ الوَعْد سَواءً كان هذا في أمْرِ الرّوم أوْ في غَيْرِه(3)؛ لأنّ سنّته قد جرت، وقوانينه قد حكمت، بأن ينصر أقرب الطّائفتين إلى الحقّ، فلا يمسّها أذى، ولا تلحقها مساءة، ويجعل لها العاقبة والتّمكين، ولكن أكثر النّاس لا يعلمون ذلك لجهلهم المطلق، وضلالهم المطبق، وعدم تفكّرهم في النّواميس التي وضعها اللّه في الكون(4).

مَوْقِع الاستِدراك، في ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾:

بيان أنّ الاستدراك، استدعاه المَقام، ومقتضى الكلام

الواو في جملة الاستدراك حاليَّة، وقد استدعى الإجمال والتَّفصيل هذا الاستدراك؛ "مِن كونِ ذلك أمْرًا لا ارتيابَ فيه، وأنَّه وعدُ اللّهِ الصّادقِ الوعدِ، القادرِ على نصْرِ المغلوب، فيَجعَلُه غالبًا؛ فاستَدرَكَ بأنَّ مُراهَنةَ المشركينَ على عدَمِ وُقوعِه نشأتْ عن قُصورِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 48.
(2) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 44، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 102، والآلوسي، روح المعاني: 21/ 21.
(3) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 44.
(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3297.

عُقولِهم، فأحالوا أنْ تكونَ للرّومِ بعدَ ضَعْفِهم دَولةٌ على الفُرْسِ الَّذين قهَروهم في زمَنٍ قصيرٍ، هو بِضْعُ سِنينَ، ولم يَعلَموا أنَّ ما قدَّرهُ اللّهُ أعظَمُ"[1].

دلالة التَّعبير بصيغة التفضيل ﴿أَكۡثَرَ﴾:

المــؤمــنــون بالنِّسبة إلى المشركين قلّة، وإنْ كانوا في أنفُسهم كثرة

التَّعريفُ في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للاستغراقِ، والمُرادُ بـ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المُشْرِكونَ؛ لأنَّهم سَمِعوا الوَعْدَ وراهَنوا عَلى عَدَمِ وُقوعِه، ويَشْمَلُ المُرادُ أيْضًا كُلَّ مَن كانَ يَعُدُّ انْتِصارَ الرّومِ عَلى الفُرْسِ، في مِثْلِ هَذِهِ المُدَّةِ مُسْتَحيلًا، مِن رِجالِ الدَّوْلَةِ ورِجالِ الحَرْبِ مِنَ الفُرْسِ الَّذينَ كانوا مُزْدَهينَ بِانْتِصارِهِمْ، ومِن أهْلِ الأُمَمِ الأُخْرى، ومِنَ الرّومِ أنْفُسِهِمْ؛ فلِذَلِكَ عَبَّرَ عَنْ هَذِهِ الجَمْهَرَةِ بِأكْثَرَ النّاسِ بِصيغَةِ التَّفْضيل[2]، وفيه إشارة إلى كَثْرة الكافرين الجاهلين، وأنَّ المؤمنين بالنِّسبة إلى المشركين قليلون، وإنْ كانوا في أنْفُسهم كثيرين[3].

دلالة التّعبير بمضارع العلم:

بيان أنّ نفي علمهم، لإصرارهم على الجَهْل بِتَحقُّق وعْد الله تعالى

وقعت جملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ في محلّ رفع خبر (لكنّ)، وفي التَّعبير بالمضارع إشارة إلى استمرار عَدَمِ عِلمهم أنَّ اللّه لا يُخْلِف وعْدَه، والضّمير يعود إلى الكُفّار عامَّة، وقيلَ: إلى كُفّارُ مَكَّةَ عَلَى الخُصوصِ[4]، بكونهم لا يَعْلَمونَ وعده تعالى بنصرهم؛ لجهلهم وعدم تفكيرهم، حيث إنّهم يَعْلَمونَ فقط ما يشاهدونه، من المعايش في التّجارة والزّراعة، والبناء والغرس، وغير ذلك.

وَجْه حَذْف المفْعول في فعل العلم:

العِلْمُ الحقيقيُّ هو العِلْمُ بالله تعالى لا العِلمُ بالدُّنيا

في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ حُذِف مفعول الفعل، والتَّقدير: (لا يعلمون وعْد اللّه القريب بِنَصْر الرّوم على الفُرْس)، وكذلك يَصِحُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 48 - 49.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 48 - 49.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 102.
(4) الشّوكانيّ، فَتْح القدير: 3/ 106.

تنزيل الفعل منزلة اللّازم، بتنزيل الكُفّار منزلة مَن لا عِلْم لهم أصْلًا؛ لِأنَّهم لَمّا لَمْ يَصِلوا إلى إدْراكِ الأُمورِ الدَّقيقَةِ، وفَهْمِ الدَّلائِلِ القياسيَّةِ، كانَ ما عِنْدَهم مِن بَعْضِ العِلْمِ شَبيهًا بِالعَدَمِ؛ إذْ لَمْ يَبْلُغوا بِهِ الكَمالَ الَّذي بَلَغَهُ الرّاسِخونَ أهْلُ النَّظَرِ، فيَكونُ في ذمِّهم وتَجْهيلِهِم، ما هو أنسب للمَقام[1].

نكتة التعبير بـ﴿كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ و﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾:

إيـمـان الـنّـاس بَعْد الدَّليل أكثر من إيمانهم قبل الدَّليل

لَمْ يُذْكَر مِن قَبْل دليلًا على الأصلين، وهُنا قَدْ ذَكَر الدّلائل الرّاسخة، والبراهين اللّائحة، ولا شَكَّ أنّه بعد الدَّليل، لا بُدَّ أنْ يُؤْمِن الأكثر، فلا يبقى الأكثر كما هو، فقال بَعْد إقامة الدَّليل: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا﴾، وقال قبله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّه بَعْد الدَّليل الّذي لا يمكن الذُّهول عنه - وهو السّماوات والأرض - مِن المُسْتَبعَد أن يغْفُل الإنسان عن السّماء الّتي فوقه، والأرض الّتي تحته، فلهذا ذَكر ما يقع الذّهول عنه، وهو أمر أمثالهم، وحكاية أشكالهم، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، وقال في الدَّليلين المتقدّمين (أولم يروا)، (أولم يتفكروا)، إذ لا حاجة هناك إلى السَّيْر، بحضور النَّفْس والسَّماء والأرض، وقال هُنا: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾، فذَكَّرَهم بحال أمثالهم، ومآل أشكالهم، ثُمَّ ذَكَر أنَّهم أوْلى بالهَلاك والعذاب؛ لأنَّ مَنْ تَقَدَّم مِن عادٍ وثُمودَ؛ إذْ كانوا أشدّ منهم قوّة، ولم تنفعهم قواهم، وكانوا أكثر مالا وعمارة، ولم يمنعهم مِن الهلاك أموالهُم وحُصونُهُم[2].

---

(1) الشِّهاب الخفاجيّ، عِناية القاضي: 7/ 112، والقونويّ، حاشيّة على تفسير البيضاويّ: 15/ 102، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 49.

(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 15/ 389 - 390.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَهْد والوَعْد:

العَهْدُ ما كان مِن الوَعْد مقرونًا بِشَرْط، والوعد لا يشترط فيه ذلك

العهدُ لُغَةً: حِفْظُ الشَّيء، والاحْتِفاظ ومراعاته حالًا بَعْد حال، والإقرار بالمحافظة على الشَّيء(1)، ثُمَّ استعمل في الموثّق الّذي يلزم مراعاته، وإلزام الشَّخص بالفعل بدون شرط أو ميثاق، فالعَهْد إقرار والتزام، والعهد يلزم الوفاء به؛ لأنَّه قائم على الالتزام، ثمّ إنَّه قد يكون مع اللّٰه تعالى، ومِن ذلك النَّذْر، وقد يكون مع البَشَر، ومِن ذلك كافَّة العُقود الّتي يتعامل بها النّاس فيما بينهم، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾ [البقرة: 40]، وقوله تعالى ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]، وقوله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [يس: 60]، أمّا الوَعْد: فهو الإخبار عن فِعْل المرء أمرًا في المستقبل يتعلّق بالغير، قال ابن عرفة: "إخبار عن إنشاء المخبر معروفًا في المستقبل"(2)، فالفرق بين الوَعْد والعَهْد: أنَّ العَهْد ما كان مِن الوَعْد مقرونًا بِشَرْط، نحو: إنْ فعلت كذا فعلتُ كذا بخلاف الوَعْد(3).

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغَة، والرّاغب، المفردات: (عهد).
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 21.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 151.

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الرّوم: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط عدم علم النّاس، باقتصاره على ظاهر الحياة الدّنيا، دون الآخرة

لمّا جزمت الآية السّابقة بنصر الرّوم في بضع سنين، وأنّه وعد من الله بالحقّ، وهو لا يخلف وعده لعباده؛ لأنّ سنّته الجاريّة، قاضيّة بأن ينصر أقرب الفريقين إلى الحقّ والإيمان، فتكون لهم العاقبة، ولكنّ أكثر النّاس تنطمس بصائرهم عن إدراك ذلك، فلا يعلمون منه شيئًا، جاء بحيثيّات عدم العلم، فذكر أنّ أكثر النّاس يقتصر علمهم على أمور الدّنيا البحتة، كتدبير معايشهم الحاصلة، وتنمية متاجرهم العامرة، واستثمار مزارعهم اليانعة، ولكنّهم غافلون عن الجوهر واللّباب، فلا يعلمون من أمور الدّين، ولا ما ينفعهم في الآخرة بين يدي ربّ العالمين، وكأنّهم بلا عقول تهدي، ولا فهوم تنفع، ولا ضمائر تردع[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَٰهِرٗا﴾: (ظهر) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ وبُروزٍ[2]، والظَّهْر مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: خِلافُ البَطْنِ[3]، والظُّهْر: بَعْدَ الزّوال، ومِنْه صلاة الظُّهر، والظَهيرةُ: الهاجرة، والظَهيرُ: المُعين[4]، ظَهَرَ الشّيءُ: أصلُه أن يَحْصُل شيء على ظَهْرِ الأرضِ فلا يَخْفى، ثمّ صار مستعملًا في كُلّ بارز مُبْصَرٍ بالبَصَر والبَصيرة[5]، والظّهور: بدوُّ الشّيء المخفيّ، فهو ظهير وظاهر، وظَهَرَ الشَّيْءُ ظهورًا: تبيّن وبرز

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3298 (بتصرّف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(3) ابن منظور، لِسان العرب: (ظهر).
(4) الجَوْهريّ، الصّحاح: (ظهر).
(5) الرّاغب، المفردات: (ظهر).

بعد الخفاء، وعَلى الْحائِط ونَحْوه: علاهُ، وعَلى الْأمر: اطَّلَع، وفي التَّنْزيل قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ [الكهف: 20][1]، والْمُراد هُنا في الآية: يَعْلمون الأمور الدّنيويّة دون الأخرويّة.

2) ﴿غَٰفِلُونَ﴾: (غفل) يَدُلُّ أصل الكلمة عَلَى تَرْك الشَّيْءِ سَهْوًا، ورُبَّما كانَ عَنْ عَمْدٍ، مِنْ ذَلِكَ: غَفَلْتُ عَنِ الشَّيْءِ غَفْلَةً وغُفولًا، وذَلِكَ إذا تَرَكْتَهُ ساهيًا، وأَغْفَلْتُهُ، إذا تَرَكْتَهُ عَلَى ذِكْرٍ مِنْكَ لَهُ، ويَقولونَ لِكُلِّ ما لا مَعْلَمَ لَهُ: غُفْلٌ، كَأَنَّهُ غُفِلَ عَنْهُ، فيَقولونَ: أَرْضٌ غُفْلٌ: لا عَلَمَ بِها، وناقَةٌ غُفْلٌ: لا سِمَةَ عَلَيْها، ورَجُلٌ غُفْلٌ: لَمْ يُجَرِّبِ الْأُمورَ[2]، وغَفَلَ عن الشَّيءِ يَغْفُل غَفْلَةً وغُفولًا، وأَغْفَلَه عنه غيره، الغَفْلَةُ: سَهْوٌ يَعْتري الإنسان مِن قلّة التّحفّظ والتّيقّظ[3]، وقد ذكرت المعاجم تعدية الفعل (غفل) ومشتقّاته بـ(عن) دون (من)، ولكن يصحّح الاستعمالَ المرفوض، الاستخدامُ القرآنيُّ الّذي راوح في آياته، بين (من) و(عن)، فقال في آية: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ [القصص: 15]، وفي آية أخرى: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكر السّياق في هذه الآية، أنّ النّاس يَعْلَمونَ ظاهر حظوظهم من شؤون الدّنيا، ولا يعرفون جوهرها، ولا ما تؤول إليه من فناء وتلاشٍ واضمحلال، تعقبه الآخرة بما فيها من حساب وعقاب ومآل، ولكنّهم يعلمون العَرَضَ، ولا يعلمون الجوهر، وإنما يعلمون ما يتعلّق بكسب المعاش وبناء الحضارة المادية، وهم عن الآخرة التي هي دار الحياة الحقيقية معرضون، لا يلتفتون إليها.

أكثَرُ النّاسِ يَعلَمونَ ما يَتعلَّقُ بشُؤونِ دُنياهم

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى بيان أنه لا فرق بين الجهل وعدم

(1) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (ظهر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفل).
(3) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(4) أحمد مختار عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: (غفل).

العلم، وبين وجود العلم السّطحيّ، الّذي لا يتجاوز مسائل الدّنيا وتحصيلها، والدّنيا ظاهر يعلمه الجهّال، مفاده التّمتّع بزخارف الحياة وبهرجها، وباطن لايعلمونه، وهو أنَّ الدّنيا مزرعة الآخرة، وأنّها قنطرة عبور للفوز والسّرور، أو جسر مرور للويل والثّبور، وأنّ النّجاة من هذه لتلك، إنّما تكون بالطّاعة والأعمال الصّالحة[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علاقة جملة ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا﴾ بما قَبْلها:

عِـلْـمٌ مُـسـاوٍ للجهل، لا نفع فيه، ولا جدوى منه

وَقَعت جملة ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا﴾ استئنافيَّة، لبيان موجب جهلهم بوَعْد اللّه[2]، أو بَدَل كُلٍّ من كُلٍّ، مِن قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ونُكْتة هذا الإبدال الّذي وقع طباق سَلْب، بين قوله ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، الإشارةُ إلى أنَّه لا فرْق بين عَدمِ العِلْم الّذي هو الجهل، وبين وجود العِلْم الّذي لا يتجاوز بَعْض ظاهر الدّنيا، فكأنَّ هذا العِلْم ليس بِعِلم؛ لِعَدم نَفْعه بَلْ ضَرُّه أكبر من نفعه[3]، والضَّمير في ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ يعود على الكُفّار، أو كُلِّ مَن شَكَك في وعْد اللّه تعالى لعباده المؤمنين.

سِرُّ التَّعبير بمضارع العلم:

عِـلْـمُ الـدُّنـيـا القاصِرُ، لا ينفع في الدّنيا ولا في الآخرة

في التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، إشارة إلى استمرار عِلْمِهم ببعض ظواهر أمور الدُّنيا دون دقائقها، وهوَ "ما يُشاهِدونَه منها، والتَّمَتُّعُ بِزَخارِفِها"[4]، وذهب أبو السّعود، إلى أنّ قوله: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، مُناطٌ بمجمل "ما يُشاهدونَهُ من زخارِفها وملاذِّها، وسائرِ أحوالِها، الموافقةِ لشهواتِهم، الملائمةِ لأهوائهم، المستدعية لانهماكهم فيها، وعكوفِهم عليها، لا تمتّعهم بزخارِفها،

(1) النّسفيّ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 691.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغَيْب، حاشية على الكَشّاف: 12/ 213.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 468، والقونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 15/ 103.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 276.

وتنعّمهم بملاذّها، كما قيلَ، فإنَّهما ليسا ممّا علموه منها، بل من أفعالِهم المترتّبةِ على علومِهم"[1].

غرض التَّنكير في قوله: ﴿ظَٰهِرٗا﴾:

قُصورُ عِلْمِ المرءِ، مُفضٍ إلى الجهل والكفران

التَّنكير في قوله: ﴿ظَٰهِرٗا﴾، للتَّحقير والتَّهوين، أي يعلمون ظاهِرًا حقيرًا خسيسًا[2]، كَما أفاد التَّنكير أيضًا التَّقليل، أي لا يعلمون إلّا ظاهِرًا واحِدًا مِن جملة ظواهر الدُّنيا وهو ما يُشاهدونه، مِمّا يتعلَّق بِملاذِّها، والتَّمَتُّع بِزَخارفها، فهُم لا يُدْرِكونَ مِنَ الدُّنْيا ما يُؤَدّي إلى مَعْرِفَتِها مِن أحْوالِها، ولا يَتَفَكَّرونَ فيها، وإنَّما يعلمون شيئًا واحدًا ظاهِرًا منها[3]، وفي التّنكير تقليل لمعلومهم، وتقليله يُقَرِّبه مِن النّفي حتّى يُطابق المُبدل منه ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾[4]، فهُم لا يُخْطِرونَها بالبالِ، ولا يُدْرِكونَ مِنَ الدُّنْيا ما يُؤَدّي إلى مَعْرِفَتِها مِن أحْوالِها، ولا يَتَفَكَّرونَ فيها[5].

دلالة لفظ ﴿ظَٰهِرٗا﴾ على قصور علم النّاس:

ما أوتي الإنسان من العلم إلّا قليلًا

وفي التَّنكير أيضًا دَلالةٌ على قُصور عِلْم المرءِ؛ لقولِه تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فليس كُلُّ الظّاهرِ يَعْلَمه، وليس كُلُّ الباطن يُدْرِكه، مِصْداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85]، فالإنسان عِلْمُه قاصرٌ في أمورِ الدُّنيا أيضًا؛ فلا يُمكِنُ له الإحاطةُ بعِلمِها[6]، والمعنى أنّهم لا يترقّى علمهم من المحسوسات الظّاهرة، والأوهام العابرة، وهُمْ عَنِ النّشأة الْآخِرَةِ، المعدّة لكشف السُّدل والسّتائر، ولرفع الحجب الباطنة والظّاهرة، غافِلونَ غفلة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 50.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 21/ 21.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 213.
(4) ابن المُنَيِّر، حاشيّة على تفسير الكشّاف: 3/ 468، والبَيْضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 20، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 350.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 104.
(6) ابن عثيمين، تفسير سورة الرّوم، ص: 38.

مؤبّدة تامّة؛ " لذلك لم يتدرّجوا من عالم الكون والفساد، ومضيق الإمكان، وما يترتّب عليه من اللّذّات الوهميّة البهيميّة، إلى عالم الغيب وفضاء وجوب الوجود، وما يترتّب عليه من الكشف والشّهود، وأنواع المعارف والحقائق الفائضة منه سبحانه، بمقتضى الجود"[1].

معنى ﴿مِّنَ﴾ في الآية:

ذَمُّ المتكالبين على الدُّنيا، مع غفلتهم عن الآخرة

﴿مِّنَ﴾ في قَوْلِه: ﴿مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تَبْعيضيَّة، أيْ يَعْلَمون بَعضَ ظَواهِرِ ما في الدُّنْيا، أيْ: ولا يَعْلَمونَ دَقائِقَها وهي العُلومُ الحَقيقيَّةُ، وكُلُّها حاصِلَةٌ في الدُّنْيا، وبِهَذا الاعْتِبارِ كانَتِ الدُّنْيا مَزْرَعَةَ الآخِرَةِ[2]، ويجوز أن تكون ﴿مِّنَ﴾ للتَّبيين، إذ بَيَّنت ما يَعْلمه هؤلاء، وفي هذا تقرير لِجهالة الكُفّار وحُمْقهم، وتشبيهًا لَهُم بالحيوانات المقصور إدراكها على الدُّنيا ببعض ظواهرها[3]، ثمَّ لَمّا نفَى عنهم ﷻ اسمَ العِلمِ بمعناه الصَّحيحِ الكامِلِ، أثبَتَ لهم نوعًا مِن العِلم في غايةِ الحقارةِ بالنِّسبةِ إلى غيرِه، وعاب ذلك النَّوعَ المذكورَ مِن العِلم بعَيبينِ عَظيمَينِ:

أحدُهما: قِلَّتُه وضيقُ مجالِه؛ لأنَّه لا يُجاوِزُ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا، والعِلمُ المقصورُ على ظاهِرٍ مِن الحياةِ الدُّنيا، في غايةِ الحقارةِ، وضيقِ المجالِ، بالنِّسبةِ إلى العِلمِ بخالقِ السَّمَواتِ والأرضِ ﷻ، والعِلمِ بأوامِرِه ونواهيه، وبما يُقَرِّبُ عَبْدَه منه، وما يُبعِدُه عنه، وما يُخَلِّدُ في النَّعيمِ الأبَديِّ، والعذابِ الأبديِّ، مِن أعمالِ الخَيرِ والشَّرِّ.

الثّاني: هو دناءةُ هَدَفِ ذلك العِلمِ، وعدَمُ نُبلِ غايتِه؛ لأنَّه لا يَتجاوَزُ الحياةَ الدُّنيا، وهي سريعةُ الانقِطاعِ والزَّوالِ[4].

(1) النخجواني، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 50.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 103.
(4) الشّنقيطي، أضواء البيان: 6/ 166.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

جهالة مَن اقتصرت معرفتهم على الزّائل الآيل للفناء

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ للاستغراق، ووُصِفت الحياة بالدُّنيا، في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ تنبيهًا على دُنوِّها وحقارتها، وفيها أيضًا مزيد توبيخ لَهُم، وتجهيل لمعرفتهم ببعض ظواهر ما هو زائل ذاهب، وجَهْلهم بِعِلْم الآخرة الباقية، وعَدَم العمل لَها، وقد توجَّهَت قلوبُهم وأهواؤُهم وإراداتُهم إلى الدُّنيا وشَهَواتِها وحُطامِها، فعَمِلَت لها وسَعَتْ، وأقبَلَتْ بها وأدبَرَتْ، وغَفَلتْ عن الآخرة؛ فلا الجنَّةُ تَشتاقُ إليها، ولا النّارُ تخافُها وتخشاها، ولا المَقامُ بيْنَ يدَي اللهِ ولِقائه يُرَوِّعُها ويُزعِجُها، وهذا عَلامةُ الشَّقاءِ، وعُنوانُ الغَفلةِ عن الآخِرة[1].

نكتة وصف الحياة بصفة ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

من اقتصرت معارفه على الدّنيا، زالت أمانيه مع زوالها

قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، نجد في هذه الجملة تلويحًا بالذَّم، لأنَّهم يعلمونَ أمرًا زائلًا لا بقاءَ له، ولا عاقبةَ مِن الحياة الدُّنيا، والعلم بالحَياةِ الدُّنْيا ليس مذمومًا على إطلاقه؛ لِأنَّها دار معاش، ولو كانت مُؤَقَّتة؛ والمُؤْمِنونَ كانوا أيْضًا يَعْلَمونَ ظاهِرَ الحَياةِ الدُّنْيا، وإنَّما المَذمومُ اقتصار عِلْم الكُفّار على بَعْض ظاهِرِ أُمورِ الدُّنْيا، دون العِلْم بِبَواطن الأُمور وحقيقتها؛ لذا كان التَّعبير بقوله: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾، بِمنزلة احتراس مِن ذَمِّ العِلم بأمور المَعاش.

سِرُّ التَّعبير بالجملة الاسميّة في الآية:

ثبات الغفلة واستمرارها، مناسب لاسميّة الجملة

عُبِّر بالجملة الاسميَّة ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾؛ لِلدَّلالَةِ عَلى ثبات غَفْلَتِهِم واستقرارها ودَوامِها، وأُكِّد دوام تلك الغفلة وثبوتها باسم الفاعل ﴿غَٰفِلُونَ﴾، وفي هذه الجملة تصريح بِذَمِّهم.

دلالة الاقتصار على جهلهم بالآخرة:

واقتصَرَ في تَجهيلِهم بعالَمِ الغَيبِ بقوله: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ

(1) السَّعْدي، تيسير الكريم المنّان، ص: 636.

مَـنْ جَـهِـل الغيب، غَفَل عن الاستعداد للآخرة

﴿غَٰفِلُونَ﴾ على تَجْهيلهم بوُجودِ الحياةِ الآخِرةِ اقتِصارًا بَديعًا، حصَلَ به التَّخلُّصُ مِن غرَضِ الوعْدِ بنصْرِ الرّوم، إلى غرَضٍ أهَمَّ، وهو إثباتُ البعثِ، مع أنَّه يَستلزِمُ إثباتَ عالَمِ الغَيبِ، ويكونُ مثالًا لِجَهْلِهم بعالَمِ الغيبِ، وذمًّا لجَهْلِهم به بأنَّه أوقَعَهم في ورطةِ إهمالِ رَجاءِ الآخرةِ، وإهمالِ الاستعدادِ لِما يَقتَضيه ذلك الرَّجاءُ[1].

بلاغة التَّعطُّف في قوله: ﴿وَهُمۡ﴾ ... ﴿هُمۡ﴾:

استـغـراقـهـم فـي الاشتغال بالدّنيا، مَنَعهم مـن الـعِـلْـم بالآخرة

في قوله: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾، ما يُسَمَّى بالتَّعطّف، وهو إعادة اللّفظة بعينها في الجُمْلة من الكلام، ويسمّيه بعضهم فنَّ المشاركة، وهو في الآية تكرار الضَّمير (هُمْ) في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ثمّ قوله: ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾، ومناط بلاغة التَّعطُّف هنا، المبالغة في تأكيد غفلتهم عن الآخرة[2]، والَّذين يُقْبِلون على العلوم الأخرويّة، وما يُقَرِّبهم من الله تعالى، وإنْ كان ليس عندَهم إلّا علومٌ قليلةٌ من الدُّنيا، أكملُ مِن الَّذين يُقبِلون على الدُّنيا، ويَغفُلونَ عن الآخِرةِ بالكليّة.

موقع الضّمير المنفصل ﴿هُمۡ﴾ في السّياق:

الضَّمير المُنْفَصِل ذو أثر في البيان مفيد

﴿هُمۡ﴾ الثّانيةُ في قوله: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾، يجوزُ أنْ يكونَ مُبتدأً، و﴿غَٰفِلُونَ﴾ خبَرَه، والجُملةُ خبرَ (هم) الأولى، وأنْ يكونَ تَكريرًا للأولى، و﴿غَٰفِلُونَ﴾ خبرَ الأولى، وهو على الوَجهينِ مُنادٍ على تمكُّنِ غَفْلتِهم عن الآخِرةِ المُحقّقةِ لِمُقتَضى الجُملةِ المُتقدِّمةِ؛ تَقريرًا لِجَهالتِهم، وتَشبيهًا لهم بالبهائم المقصورِ إدراكاتُها من الدُّنيا على ظواهرِها الخَسيسةِ، دونَ أحوالِها الَّتي هي مَبادئُ العلْمِ بأمورِ الآخِرةِ، وإشعارًا بأنَّ العِلْمَ المذكورَ وعدَمَ العلم رأْسًا سيّانِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 50.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 473.
(3) الكشّاف: 3/ 468، والطِّيبي، فتوح الغيب: 12/ - 213 - 212، وأبو حَيّان، البحر المحيط: 7/ 159، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 350، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 529، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 51.

نكتة ذكر لفظ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾، مع ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

ذكر اللّفظ مُؤْذِنٌ بورود معنى يختلف عن المعنى الوارد عند حذفه

قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾، فيه وصف الحياة بالدّنيا، فقال: ﴿مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وذكر الصّفة ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون الموصوف وهو (الحياة)، في قوله ﴿عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، حيث الكلام عن منافع الحياة الدّنيا، الّتي يعيشونها، ويمارسون فيها أعمالهم وحركة وجودهم، وابن عَبّاسٍ والكلبيّ يقولون: يعلمون معايشهم، وتجاراتهم، وحِرَفهم، وجميع الأسباب والمكاسب والحيَل الّتي بها تقوم أمور دنياهم[1]، فناسب ذكر الحياة مع الدّنيا، وناسب تركه مع الآخرة؛ لأنّ حياة الآخرة غيب لم يُدْرَك بحاسّة، ولم يتحقّق بعدُ، فلم تَجْرِ به حياة، ولم تُمارَس به حركة، وإنّما يؤمن به المؤمنون، على أنّه غيب منتَظَر بعد قيام السّاعة، وانتهاء الدّنيا، ناهيك عن كون الكافرين، لا يؤمنون أصلا بوجود الحياة في الآخرة، وقد عبّروا عن ذلك، بقولهم في مواطن أخرى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾ [الأنعام: 29]، وقولهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، فلا غَرْوَ أن يَرِد لفظ (الحياة) موصوفًا بصفة (الدّنيا)، وأن يرد الوصف (الآخرة)، دون الموصوف وهو الحياة.

سِرُّ تقديم الجارّ والمجرور على الخبر:

التَّعجيل غايته تَجْهليهم وتوبيخهم ومعايرتهم

قُدِّم الجارّ والمجرور ﴿عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على الخبر، في قوله: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾، حيث إنَّ ظاهر ترتيب الجملة، أن يقال: (وهم غافلون عن الآخرة)، والسِّرُّ في هذا التَّقديم التَّعجيل، بِسبب تَجْهليهم وتوبيخهم ومعايرتهم.

نُكتة إعادة الضَّمير ﴿هُمۡ﴾ في السّياق:

النُّكْتة في إعادة الضَّمير المنفصل ﴿هُمۡ﴾ في قوله: ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾

(1) الماتريديّ، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السّنة): 8/ 252.

التَّأكيد؛ دَفْعًا لِتَوَهُّم عَدَم الشُّمول، وعليه يكون مجموع قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ جملة واحدة.

الكُفّار هُم مَوْطِن الغفلة عن الآخرة، والمنكرون لوقوعها

وقد دَلَّ إعادة الضّمير المنفصل أيضًا، على أنّهم مَوْطِن الغفلةعن الآخرة، ومَعْدنها ومَقَرّها، وأنّها منهم تَنْبُع، وإليهم تُنْسَب وتَرْجِع، وأنَّهم هُم الّذين استَقَرَّ، وثَبُتَ فيهم الغَفْلَة(1).

بلاغة القَصْرفي قوله: ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾:

تقوية الحُكْم عليهم بالغفلة وتأكيده، من البيان المفيد

القَصْرُ في قوله: ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ من باب قَصْر الصِّفة على الموصوف، قَصْرًا ادِّعائيًّا بِتَعريف الطَّرَفين: المسند والمسند إليه، المبتدأ والخبر، حيث تكرَّر المسند إليه الضمير المنفصل ﴿هُمۡ﴾، وعُبِّر باسميَّة الجملة؛ لإفادة الحَصْر الادِّعائي؛ للمبالغة في وصفهم بالغفلة، واختصاصهم بِها دون مَنْ سواهم، أيْ هُم الغافِلونَ عَن الآخِرَةِ، دونَ المُؤْمِنينَ، وأنَّه ليس للغفلة مَحَلٌّ غيرهم، هذا على اعتبار عَدَم وجود تَكرار، وأنَّ الضَّمير المنفصل ﴿هُمۡ﴾ الثّاني مبتدأ، و﴿غَٰفِلُونَ﴾ خبره، والجملة خبر الضَّمير المنفصل الأوَّل في قوله: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أمّا لو اعتُبِرَ الضّمير الثّاني ﴿هُمۡ﴾ تكريرًا للأوَّل، فتكَرُّر الإسناد أفاد تقوية الحُكْم عليهم بالغفلة وتأكيده(2).

بلاغة الكناية بالتَّعبير بالغفْلة، في السّياق:

نُهوضُ دَلائِل وُجودِ الحَياةِ الآخِرَةِ، لِمَن يتأمّلها بعقله

عُبِّرَ عَنْ جَهْلِهِم الآخِرَةَ بِالغَفْلَة، في قوله: ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ كِنايَةً عَنْ نُهوضِ دَلائِلِ وُجودِ الحَياةِ الآخِرَةِ، لَوْ نَظَروا في الدَّلائِل المُقْتَضِيَة وُجودَ حَياةٍ آخِرَةٍ، فكانَ جَهْلُهم بِذَلِكَ شَبيهًا بِالغَفْلَة؛ لأنَّهُ بِحَيْثُ يَنْكَشِفُ لَو اهْتَمّوا بِالنَّظَرِ، فاسْتُعيرَ لَهُ ﴿غَٰفِلُونَ﴾ اسْتِعارَةً تَبَعِيَّةً(3)، وقد اقتضى التَّعبير باسميَّة الجملة، وتعريف الخبر،

(1) الطّيبي، فتوح الغَيْب، حاشية على تفسير الكشّاف: 12/ 213 - 214، والجَمَل، الفتوحات الإلهيَّة، ص: 386، والشَّعراويّ، تفسير الشعراوي: 18/ 11314 - 315.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 103.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 50.

ووَجه كَوْن غَفْلتهم مُحَقِّقة لمضمون جملة ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، ومُؤَكِّدة لَها لكونها بَدَلًا من جملة: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، بَدَل كُلٍّ مِن كُلٍّ، أفادت واقتضت نَفْي العِلْم عنهم، والحُكْم عليهم بالغفلة عن الآخرة، يحقّق ذلك المقتضى(1).

بلاغة الطِّباق بَيْن لفظي ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

شتّان بين العِلْم بِما هو زائل، والعِلْم بما هو باقٍ

أشار الطِّباق بَيْن قوله: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، إلى الجمع بين متضادين مع مراعاة التقابل، مع البَوْن الشّاسِع بَيْن عَمَلٍ، وعِلْم ظّاهِر نَفعهما، لكنَّه مُؤَقَّت، وبَيْن عِلْم وعَمَلٍ يوصِّلان إلى سعادة أبديَّة، جَهَلَ بِها هؤلاء، وأعرضوا عنها، وفي هذا تسفيه لَهم وتوبيخ؛ لِغَفْلتهم عَمّا فيه سعادتهم، ونَجاتهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

العِلْم والمعرفة:

المَعْرِفَةُ إدراك الشّيءِ بتفكُّر وتدبّر لأثره، وهي أخَصُّ من العِلْم

يقال: فلان يَعرِف اللّهَ، ولا يقال: يَعْلم اللّه متعدّيًا إلى مفعول واحد، لَمّا كان معرفة البشر للّه، هي بتدبّر آثاره دون إدراك ذاته، ويقال: اللّه يعلم كذا، ولا يقال: يعرف كذا؛ لأنَّ المَعْرفة تستعمل في العلم القاصر، المتوصَّل إليه بتفكُّر وتدبّر(2)، ومن شواهده في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة: 83].

وأمّا العِلْم: فأصْل المادَّة يَدُلُّ على أثَرٍ بِالشَّيْءِ، يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِه، مِنْ ذَلِكَ الْعَلامَةُ، وهيَ مَعْروفَةٌ، والْعِلْمُ: نَقيضُ الْجَهْلِ(3)، ولَفْظُ العِلْم أكثر إطلاقًا في القرآن الكريم، ومن شواهده قوله تعالى:

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 103.

(2) المفردات الرّاغب: (عرف).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمّد: 19]، وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 114]، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ١١٤﴾ [طه: 114].

والفَرْق بَيْنَ العِلْم والمَعْرفة: أنَّ الْمعرفَة إدْراك الجزئيّات، والْعلم إدْراك الكليّات، ولِهَذا لا يجوز أن يُقال: اللّه عارِف كَما يُقال: عالم(1).

الغفلة والنِّسيان والسَّهْو:

الغَـفْـلَـةُ سَـهْـوٌ من قِلَّة اليقظة، والـنِّـسـيـان ذهول، والسَّهْوُ خطأ عن غفلة

الغفلة: يدلُّ أصل المادَّة، عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا، ورُبَّما كانَ عَنْ عَمْدٍ، مِنْ ذَلِك: غَفَلْتُ عَن الشَّيْءِ غَفْلَةً وغُفولًا، وذَلك إذا تَرَكْتَه ساهيًا، وأغْفَلْتُه، إذا تَرَكْتَه عَلَى ذُكْرٍ مِنْكَ لَه(2)، ومِن شواهدها قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ١﴾ [الأنبياء: 1]، وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص: 15]، وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: 22].

والنِّسيان: تَرْكُ الإنسان ضَبْطَ ما اسْتودِعَ، إمّا لضَعْف قَلْبه، وإمّا عن غَفْلةٍ، وإمّا عن قَصْد حتّى يرتفع عن القَلْبِ ذِكْرُه(3)، ومِنْ شواهده، قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286]، وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التّوبة: 67].

وأمّا السَّهْوُ فهو: نِسْيانُ الشَّيْءِ، والْغَفْلَة عَنْه وذَهابُ الْقَلْبِ عَنْه إلَى غَيْره(4)، ومِن شواهده، قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون: 5].

(1) العينيّ، عُمدة القاريء: 3/ 286.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفل).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: (نسى).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سها).

والفرق بين النِّسيان والغَفْلَة: أنَّ الغفلة عامَّة تشمل السَّهْو والنِّسيان؛ وهي تَرْكٌ باختيار الغافل، والنِّسيان تَرْكٌ بغير اختياره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾ [الأعراف: 205]، ولم يقل: ولا تكن من النّاسين، فإنَّ النِّسيان لا يدخل تحت التَّكليف فلا يُنْهى عنه[1]، والنِّسيان إنَّما يكون عَمَّا كان، والسَّهْو عمّا لَمْ يَكُن، تقول: نَسيتُ ما عرفْتُه، ولا تقول: سَهَوْتُ عَمّا عرفته، ويُقال: سَهَوْتُ عَن السُّجود في الصَّلاة، فتجعل السَّهْو بَدَلًا عن السُّجود الّذي لم يكن، وأيضًا فالنِّسيان يكون عن ذِكْرٍ، والسَّهْو يكون عَنْ ذِكْر وعَن غير ذِكْر؛ لأنّه خفاء المعنى بما يمتنع إدراكه[2].

(1) ابن قَيِّم الجَوزية، مَدارج السّالكين: 2/ 406.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 90.

المحتويات

